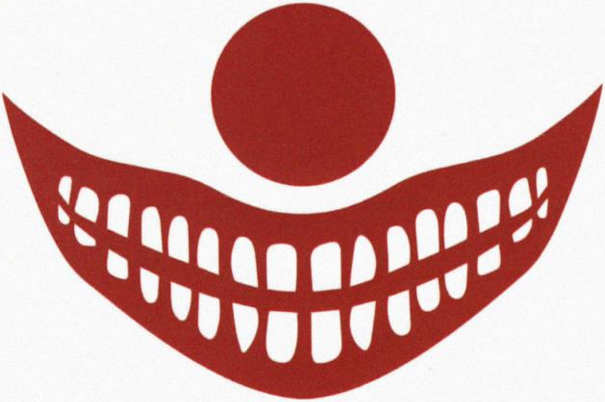
الرواية التي تحوّلت إلى أنجح فيلم رعب في التاريخ



ترجمة نادر أسامة

الشيء

رواية

ستيفن كينغ

الأكثر مبيعًا في قوائم نيويورك تايمز

منشورات الرمل

ستيفن كينغ

الشَّيءُ

IT

القسم الأول

الكتاب: الشَّيءُ IT ، القسم الأول (رواية)
تأليف: ستيڤن كينغ
ترجمة: نادر أسامة

عدد الصفحات: 616 صفحة

الترقيم الدولي: 978-614-472-017-2

رقم الإيداع: 3039 / 2018

الطبعة الأولى: 2018

Printed by Sahara Printing Company

هذه ترجمة مرخصة لرواية

IT BY STEPHEN KING

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت – بئر حسن – سنتر كريستال، الهزيم – الطابق الأول
هاتف: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
مصر: القاهرة 2- شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) – جاردن سيتي
هاتف: 002022795557
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر – 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

ستيڤن كينغ

الشَّيْءُ

IT

رواية

القسم الأول

ترجمة

نادر أسامة

التنوير

المحتويات

الجزء الرَّابع: يوليو سنة 1958

الجزء الخامس: طقس تشود

أُهدي هذا الكتاب -مُمتنًّا- إلى أطفالي. لقد علَّمتني أمي وزوجتي كيف أصير رجلًا؛ أطفالي علَّموني كيف أكون حُرًّا.

نايومي راتشيل كينغ، أربع عشرة سنة

چوزيف هيلستورم كينغ، اثنتي عشرة سنة.

أوين فيليب كينغ، سبع سنوات.

أيا أطفالي، الخيال هو الحقيقة داخل الكَذِب، وحقيقة هذا الكتاب الخيالي بسيطة بما يكفي: السِّحرُ موجود.

س. ك.

«هذه المدينة القديمة موطني منذ أن وعيت؛
هذه المدينة القديمة ستعيش آمادًا طويلة بعد رحيلي.
الجانب الشرقي، الجانب الغربي.. تجوَّل وألقِ نظرة مُتفحِّصة في أرجائها،
منذ فترة وأنا بعيد، لكنك ما زلتِ راسخةً في عظامي».

– فرقة مايكل ستانلي

«أيا صديقي القديم، ما الذي تبحث عنه؟
بعد كل تلك السنوات أتيتَ..
بذكرياتٍ وصورٍ اعتنيت بها جيِّدًا في غربتك،
تحت سماواتٍ أجنبية،
بعيدًا بعيدًا عن أرضك».

– يورجوس سيفيريس

«خارج العالم، وإلى المجهول».

– نيل يونج

مُقدِّمة المُترجم

تحيَّرتُ كثيرًا وأنا أُفكِّر في كتابة مُقدِّمة لرواية بمثل هذا الحجم، رحمةً بأعصاب القارئ الذي تحمَّس وقرَّر البدء في هذه الرحلة الطويلة من الأساس. وجدتُني أسألُ نفسي: ماذا عساي أن أقول؟ ألا تكفي كل هذه الصفحات التي أمام القارئ لإنهائها؟ هل يحتاج القارئ إلى تمهيد طويل آخر يُثقِل كاهله وأعصابه؟ الإجابة لا من دون شك.

لكنني وجدت الأمر ضروريًّا في النهاية، لذا قرَّرت أن أكون مُختصرًا قدر الإمكان.

من الناحية الفنية، تُعدُّ رواية ستيفن كينغ «الشَّيءُ» كتابًا، لكنها في حقيقة الأمر تتشارك في بعض خصائصها الفيزيائية مع قالب القرميد. إن حمل كتاب بهذا الحجم والتنقُّل به من مكان إلى آخر ليس فقط عملًا مُرهقًا، بل تدريبًا حقيقيًّا لعضلات ذراعك.

لذا كان الدافع الحقيقي وراء هذه المُقدِّمة هو محاولة طمأنتك يا عزيزي القارئ، ورُبَّما إثارة حماستك. نعم هذا عملٌ ضخم، بل أحد أضخم الروايات الأمريكية، وهذه حقيقة لا تحتاج منك البحث على الشبكة العنكبوتية للتأكُّد منها، فقط تكفيك رؤية الكتاب على رفٍّ إحدى المكتبات، أو الإحساس بثقله بين يديك. لكن هذا لا يعني أبدًا أنه كتاب يثير الضجر، قد يسبب الإجهاد

رُبَّما، أو الاستنزاف، لكن ليس الضجر. إن ستيفن كينغ قاصٌ بارعٌ مُنمَّق العبارة رُبَّما هو الأبرع في تخصُّصه على الإطلاق، كما أنه حرفيٌّ مُتمرِّس في خلق شخصيات كاملة الاستدارة من لحم ودمٍ تجد نفسك حزينًا على فراقها بعد انتهائك من الكتاب، وقد تبكيها.. هذا فضلًا عن مهارته في التلاعب بشتَّى أساليب السرد القصصي بكل سلاسة، بقدر مهارته في إثارة رعبك.

كل خصال كينغ الحميدة هذه مُجسَّدة في روايته «الشَّيءُ». لقد استقرَّ رأيي على ترجمة العنوان في النهاية إلى «الشَّيءُ» بعد أن أثبتت كل محاولات الترجمة الأخرى عدم فاعليتها. العنوان الأصلي هو IT، بحروفٍ كبيرة. في اللغة الإنجليزية، كلمة It ضمير لغير العاقلٍ تأتي بمعنى «هو» أو «هي»، وفي مواضع أخرى بمعنى «أنه» أو «أنها» إذا أُلحق بها فعل الكينونة To be، وتأتي كصفةٍ ملكية إذا أُلحقت بها S الملكية، أو بمعنى «نفسه» أو «نفسها» إذا أُلحقت بها لفظة Self حيث تصير ضمير انعكاس. كما يُستعمل الضمير It إذا وُجِدت صعوبة في معرفة هوية شخصٍ ما بسبب الظلام مثلًا، أو لكونه مُستترًا وراء باب أو حجاب، ومع الأطفال لتفادي ذكر الجنس، وغير ذلك. مع اختيار كينغ IT عنوانًا لروايته وللكيان الذي لا يجوز له اسم الذي ابتكره، استطاع أن يتلاعب لفظيًّا بدهاء خلال النص بالاستخدامات المُتعدِّدة للكلمة، وقصد أن يرمي بها -مراوغًا- إلى معنى خاص اختلقهُ، هذا فضلًا عن أنه لم يكفّ عن التنقُّل بين معناه الخاص والمعنى الأصلي بشكلٍ شبه آني وفي الجملة نفسها، وهو ما حاولت الحفاظ عليه قدر المُستطاع في نقلي للنص إلى العربية. لهذا، كما ترى يا عزيزي القارئ، لم يكن أمامي سوى استخدام معنى الكلمة المقصود وليس ترجمتها، لذا اخترت العنوان الوحيد الذي لن يكون غريبًا أو غامضًا لقارئ العربية: «الشَّيءُ».

استغرق الأمر من كينغ 4 سنوات كاملة للانتهاء من روايته. أربع سنوات دسَّ الرَّجُل فيها كل ما في جعبته من أفكار، حاشرًا كل تيمات الرعب المُمكنة بين دفَّتي كتاب واحد. كان هذا هدف كينغ الرئيس من البداية، ففي ليلة هاتف ناشرهُ وأخبره أنه ينوي كتابة رواية لا عن بيت مسكون هذه المرَّة، بل عن بلدة كاملة مسكونة.. شوارعها ومعالمها ومواطنيها وهوائها الفاسد..

بلدة لها ماضٍ يعوزه الصفاء، وتعيش حاضرًا كئيبًا مُظلمًا يتستَّر وراء ستارٍ واهٍ من الطبيعية الزائفة واللا مُبالة العامدة.. بلدة ابتُليت بشيءٍ ما خارج التجرِبة البشرية.. شيءٍ خبيث، شره، يصحو كل سبعة وعشرين عامًا ليعيث فسادًا ويتغذَّى على الأطفال، ومن ثم يعاود مبيته حتى صحوته التالية.. شيءٍ يتشكَّل لكل طفل في صورة أشنع كوابيسه، ويميته ذعرًا قبل أن يقتل جسده، ثم يعود بعدها إلى هيئته المُفضَّلة، هيئة المُهرِّج، ليتمكَّن من استدراج ضحيَّته التالية. يُقال إن بذرة الكتاب أتت كينغ عندما تعطَّلت سيَّارته في إحدى ليالي صيف 1978، واختار أن يقطع ثلاثة أميال سيرًا على الأقدام قاصدًا معرض بيع سيَّارات في ضواحي المدينة لقطر سيَّارته. في أثناء سيره عبر الحقول الخاوية حلَّ الغروب، وتلوَّنت السماء، وأدرك كينغ كم هو وحيد. بعد ذلك عَبَر جسرًا خشبيًّا قديمًا، وداهمته فكرة مُخيفة وإن كانت طفولية.

يقول كينغ: «فكَّرت في قِصَّةِ معَاز جراف الثلاث، وسألت نفسي ماذا سأفعل إذا ناداني قزم من أسفل الجسر صائحًا: 'من ذا الذي يجرؤ على عبور جسري؟'».

بالتأكيد تحمَّس الناشر تمامًا للفكرة، لكن كينغ لم يقف عندها فحسب، وأخبر صديقه أنه ينوي اعتصارها إلى آخر قطرة، وتطعيمها بكل الوحوش التي طالما أثارت ذُعر الأطفال، وحوش من عشرات الأفلام والروايات، لكنه أخبره أيضًا أنها جميعًا ستكون تجسُّدات لكيان واحد غامض هو محور كل شيء.. وحين سأله الناشر كيف سيفعلها، قال له كينغ ما أريد أنا قوله لك يا عزيزي القارئ:

فقط انتظر لتقرأ، وستعرف.

وهكذا خرجت بلدة ديري من ظلام الأفكار إلى نور الورق، وإن ظلَّت ترزح في ديجورٍ مُرجِف، وحقَّقت الرواية أعلى المبيعات، وصارت أكثر أعمال كينغ أيقونية، وثاني أضخم رواية كتبها في حياته بعد The Stand، والعمل الذي حفر خوفًا جللًا من المُهرِّجين في قلوب كل طفلٍ قرأه صغيرًا، ثم كبر أولئك الأطفال حاملين بذور هذا الخوف غير المُبرَّر داخلهم، فقط لينقلوا الرهبة من المُهرِّجين إلى أجيالٍ تالية.

ما أضمنه لك يا عزيزي القارئ بالتأكيد ليس براعة الترجمة (فهذه أنت

القاضي والجلَّاد بخصوصها)، بل براعة السَّرد، وثرائه، وكيف سيتمكَّن عالم ديري المُتشابك من امتصاصك بالكامل، العالم الذي لن تستطيع منه فكاكًا إلا مع آخر صفحة من هذا المُجلَّد الضخم الذي أعلم أنك أحجمت كثيرًا عن اقتنائه في البداية، وأحجمت بعدها أكثر عن فتحه وأنت تنظر له قابعًا كالتابوت على رف مكتبتك.

تمامًا كفصل الصيف الطويل الذي تدور فيه أحداث روايته، يستهلك ستيڤن كينغ وقتًا كبيرًا في الوصف التفصيلي للأشياء والمعالم والشخوص والملابس وكل شيء، ما يجعله ينتمي إلى مدرسة أونوريه دو بلزاك الوصفية بجدارة (يُحكى أن بلزاك كان يطلب من تلامذته السير عشر خطوات في حديقة ووصف ما يرونه خلالها في عشر صفحات من الحجم الكبير)، وهو بهذا يكون رائدًا في الواقعية الأدبية الحديثة، برغم حقيقة أن معظم أعماله تنتمي للأدب الخيالي. إن ستيڤن كينغ خارج عن السيطرة تمامًا في هذا الكتاب، ومن شبه المؤكَّد أنه لم يسمح لأحدٍ بتحرير النص من بعده، وهذه لعمري نعمة كبيرة لن يعيها إلا من سيتحمَّل السباحة عبورًا إلى الشاطئ الآخر من الكتاب دون أن يغرق أو يفقد الأمل. تلك الرواية تحتاج أن تُقرأ بعقل طفل، وتتوسَّل أن تمنحها روحك الصبية عن طيب خاطر، لأنها قادرة على تحريرها من عقالها، وتفجير ذكريات دفينة عن طفولتك لم تكن تدري أنها ما زالت هناك.. هذا ما سيجعل الدموع تفرُّ من عينيك في الختام رغم كل لحظات الغيظ والانفعال التي ستمرُّ عليك في أثناء القراءة رغبةً منك في إنهاء هذا الكتاب بالغ الضخامة. فقط الطفل داخلك هو الذي سيغفر كل ذلك في النهاية، وسيعي ضرورة كل التفاصيل الذي ظننت أنها غير ضرورية وأنت تقرأ، وسيضع الكتاب على الرَّف والدموع تترقرق في عينيه. إن ستيڤن كينغ بلا شك هو أفضل من اقتنص جوهر روح الطفولة وخطَّه بالقلم. هذا كاتب استعار عين طفل -أو اقتلعها- ليرى كل التفاصيل بها، أو رُبَّما هو في الحقيقة مُجرَّد طفل كبير بارع في مادَّة التعبير.

استخدم كينغ أساليب سرد عديدة لجعل حكايته الطويلة رشيقة وسهلة الهضم على القارئ، وقسَّم الكتاب إلى خمسة أجزاء رئيسة، ومن ثم إلى

فصول، ومن ثم إلى وحدات مُرقَّمة.. لكنه وصل بتقنية السرد المتوازي للأحداث إلى ذروة مُطلقة من الصعب تخطِّيها. السرد المتوازي أسلوب روائي وسينمائي عتيد، استُخدِم كثيرًا من قبل، لكن ليس مثل هذا الجنون قط. هنا ينهي كينغ فصوله بجُملة مبتورة، ليستهل الفصل الذي يليه بجُملة أخرى في زمنٍ آخر ومكانٍ آخر وعلى لسان شخص آخر.. وهو لم يفعلها مرَّة، أو اثنتين، أو ثلاث، بل هي حيلة استخدمها بطول الألف وأربعمئة صفحة تقريبًا (حجم الكتاب في لغته الأصلية). لقد بدأ كينغ الرواية متنقِّلًا بالخط الزمني للوقائع بين الماضي والحاضر بشكل متوازي. بعدها، ورويدًا رويدًا، راح يُسرع من وتيرة السرد.. ثم بطريقةٍ ما في الرُبع الأخير من الكتاب حَنَى خطَّيّ الزمن ليقترب أحدهما من الآخر بخطورة حقيقية قرب تتابعات النهاية، قبل أن يذوبا -حرفيًّا- بالكامل وتصير عاجزًا عن تمييز أحدهما عن الآخر. لقد كدَّس الخطَّين الزمنيين لعامَي 1958 و1985 بطريقة تجعلك تقفز قفزات سريعة لاهثة بين المواجهة الأولى والثانية والعكس، قبل أن تتكشَّف الاثنتان في الآن ذاته. هذا التشابك -أو التعشيق- مُبهر حقًّا، وهو أمر مهما تحدَّثت عنه لن أفيه حقَّه، ولن تشعر بتأثيره إلا عندما تختبره بنفسك.

ورغم هذا، لا تكمن مواطن قوَّة رواية «الشَّيءُ» في أساليبها السردية المُتعدِّدة والمُتشابكة فحسب، بل أيضًا في الأفكار المحورية التي تستعرضها. لم يتوان كينغ عن التبحُّر في نفوس الأطفال بحُرِّية تامة، ولم يترك بابًا إلا طرقه. غاص كينغ في مفاهيم الخوف المُتعدِّدة، مُسهبًا عن مدى صعوبة التغلُّب على ذلك الخوف، تحديدًا بالنسبة إلى طفل. كما استعرض الإيمان، وكيف أنك إذا صدَّقت في وجود وحش، فإنك بالتالي ستؤمن بالتميمة السحرية التي تستطيع قهره، وهذا الإيمان سيجعلها بالفعل قادرة على ذلك. تناول العُنف، وكيف يُمكن أن يختزن داخلك طاقة أنت فقط من يستطيع استخدامها للبناء أو التدمير.. وحب الطفولة، وكيف أنه لا يموت أبدًا حتَّى إن ظننت أنه كذلك.. والذكريات، العذب منها والمؤذي، المُخيف منها والمُؤنس، وكيف أن فقدانها جميعًا هو أقسى الأشياء طرًّا.. والصداقة، وكيف تتفلَّت كالماء من بين الأصابع مع التقدُّم في العُمر.. باختصار كل

الأمور التي علقت بنفسك منذ الطفولة، وظللت تحملها معك أينما حللت دون وعيٍ منك. لكن الأهم من كل ما سبق -في رأيي الخاص- هو سحر الصبا، وكيف فقدناه، وكيف يأبى مذاق هذا الفقد المرير عن مُغادرة حلوقنا.. والنسيج الروائي، الحكايا نفسها، وكيف يحيكها الراوي وينتقل بك من قصة إلى قصة إلى قصة، حتّى تكاد تنسى من أين بدأت، لكنك مع هذا لا تفقد مثقال ذرَّة من حماستك.

سيرحل بك كينغ بعيدًا إلى بلدة ديري الشمالية، وسيقلب لك كل حجرٍ فيها. إن ديري في حقيقة الأمر هي مدينة بانجور الأمريكية التي يقطنها كينغ، ومعظم المعالم المذكورة هنا كبُرج المياه وتمثال بول بونيان وغيرها هي معالم حقيقية في بانجور التي طاف فيها كينغ قبل كتابة الرواية لرصد تفاصيلها وتدوين ملاحظاتٍ عنها لاستخدامها في إكساء مدينته الخيالية المُخيفة لحمًا ودمًا. سيحكي لك كينغ عن تاريخ ديري القديم، وكل الأحداث الجسام والتوافه التي وقعت فيها. لن يترك لك معلمًا إلا وسيسرد تاريخه، ولا شخصًا إلا وأنت تعلم عنه كل ما أردت وما لم ترد من تفاصيل، وستجد نفسك بعد انتهائك من الرواية تعلم عن ديري وجغرافيتها وشخوصها ومعالمها أكثر ممَّا تعلم عن مسقط رأسك. أحيانًا أحب أن أتكهَّن أن كينغ رفض إجراء أيِّ تعديلاتٍ على النص، ولم يسمح لأحد بلمسه لأنه أراد أن تكون شاقَّة في الواقع.. كالحياة.

وبعد، فقد وجدتُ نفسي مُضطرًّا لإضافة بعض الهوامش هنا وبعضها هناك، فالكتاب مليء بشتَّى الإحالات إلى الثقافة الأمريكية في عقدَي الخمسينيات والثمانينيات، ومُوغل في المحلِّية، وكان لا بُدَّ من إزالة الالتباس والغموض في بعض المواضع، لكن من دون إفراط.

حسنًا إذًا، يكفي جدًّا ما تقدَّم من ثرثرة.

مرحبًا بك في بلدة ديري الشمالية، ملعب بيني وايز، المُهرِّج الراقص وأرض تصيُّده.

إن نادي الخاسرين ينتظرك، فهل ستجرؤ على عبور جسر القزم؟

الجزء الأوَّل

سقوط الظِّل

«إنها تبدأ!
لقد ارتدت أبهى حُللها.
فتَّحت الزهور بتلاتها الملوَّنة على اتِّساعها في أشعة الشَّمس،
لكن لسان النحلة أخطَأها
فغاصت صارخةً مرَّةً أخرى في الأرض الخصيبة.
أجل، يُمكنك وصفها بصرخة..
سكرةِ موتٍ بينما تذبل البتلات وتختفي».

– ويليام كارلوس ويليامز
قصيدة باترسون.

«وُلِدتُ في مدينة خَرِبة».

– بروس سبرينجستين

16

الفصل الأوَّل

بعد الفيضان (1957)

1

حسب علمي، بدأ الرُّعب -ذلك الذي لن ينتهي قبل ثمانية وعشرين عامًا آخر، هذا إن انتهى- بقارب ورقيٍّ مصنوع من جريدة ابتلعهُ مصرفُ الأمطارِ مع ماء المطر.

تواثب القارب، وتمايل بشِدَّة، ثم صحَّح وضعه واندفع بجسارةٍ عبر دوَّامات الماء، شاقًّا طريقه عبر شارع ويتشام مُتَّجهًا صوب إشارة المرور التي تقع عند تقاطع شارعي ويتشام وچاكسون. كانت جميع مصابيح أوجُه إشارة المرور المُختلفة مُعتمة في عصر هذا اليوم من خريف عام 1957، وجميع المنازل في الجادة مُعتمة بدورها. لم تتوقَّف الأمطار عن الهطول المُستمر مُدَّة أسبوعٍ إلى الآن، ومنذ يومين بدأت الرياح في الهبوب أيضًا. انقطعت الكهرباء عن قطاعات عديدة في مدينة ديري حينها، ولم تكن قد عادت بعد.

بابتهاج، ركض صبيٌّ صغيرٌ يرتدي معطفًا أصفر واقيًا من المطر وحذاءً مطَّاطيًا أحمر بجوار القارب الورقي. لم يكن المطر قد توقَّف بعد، لكن وتيرته بدأت تخفُت أخيرًا. كان المطر ينقر غطاء رأس المعطف الأصفر، وبدا لأذنيه

كصوت المطر حين يضرب سقيفة واقية... صوتٌ هادئٌ مُطمئِن؛ أشعره بالأُلفة. الصَّبيُ في المعطف الأصفر هو چورچ دِنبروه. سنّهُ ست سنوات. أخوه ويليام -المعروف بين معظم الأطفال في مدرسة ديري الابتدائية (وحتَّى بين المُدرِّسين الذين لم يجرؤوا على استخدام الاسم في حضوره قط) باسم بيل المُتلعثم- كان في المنزل يتعافى من نزلة إنفلوَنزَا عنيفة. في ذلك الخريف من عام 1957 -قبل ثمانية شهور من الأحداث المُرعبة الحقيقية، وقبل ثمانية وعشرين عامًا من المواجهة الأخيرة- كان سِنُ بيل عشر سنوات.

بيل هو صانعُ القاربِ الذي يركض چورچ الآن بجواره. صنعه وهو جالس في فراشه، ورأسه مسنودٌ على كومة من الوسائد، بينما أُمهما تعزف مقطوعة من أجل إليزة لبيتهوڤن على البيانو القابع في الصَّالة، والمطر ينهمر بلا هوادةٍ على نافذة حجرة نومه.

كان شارع ويتشام مُغلقًا أمام حركة السيَّارات بأوعية داخنة يُحرق فيها نفطًا، وأربعة حواجز طريق بُرتقالية اللون، وذلك على بُعدِ ثلاثة أرباع الطريق تقريبًا من مجموعة المنازل، إذا توجَّه المرء ناحية التقاطع وإشارة المرور العاطلة. على كل واحد من حواجز الطريق هذه مطبوع شعار: إدارة مدينة ديري للأشغال العامة، ومن خلفها، واصل الماء الارتشاح من مصارف المطر المسدودة بفروع الشجر والصخور وأكوام كبيرة لزجة من أوراق الخريف. في البداية احتلَّ الماء مواطئ صغيرة من أسفلت الطريق، وبعدها أخذ يستولي بجشع على مساحاتٍ أوسع، وكل هذا في اليوم الثالث فقط من العاصفة. بحلول منتصف نهار اليوم الرابع، كان بإمكانك الإبحار عبر أجزاء كبيرة من أسفلت الشارع عند تقاطع شارعَي چاكسون وويتشام، واعتلى الزَّبد سطح الأرض كأطواف مياه بيضاء. بحلول ذلك الوقت، أخذ العديد من أهل ديري يتبادلون نكاتٍ عصبيةٍ عن فُلك نوح. نجحت دائرة الأشغال العامة في الإبقاء على شارع چاكسون مفتوحًا، أما ويتشام فبات يستحيل عبوره من جراء الحواجز العديدة التي امتدَّت على طول الطريق وصولًا إلى قلب المدينة.

لكن الجميع أجمع أن الأسوأ قد ولَّى. في مجراه في البرِّية، كاد نُهير الكِندوسكيج أن يبلُغ حافَّة ضِفَّتيه في ذروة فيضانه.. ولم يترُك أكثر من

بوصاتٍ قليلة عارية على جانبي القناة الخرسانية التي تُرشده بإحكام وتُحجِّم جريانه في أثناء مروره عبر وسط المدينة. في هذه الأثناء، أخذت عصبة من الرجال -من بينهم زاك دِنبروه والد بيل- تُزيلُ أكياس الرمل التي ألقوها بتهوُّرٍ مذعور في اليوم السابق. بالأمس، بدا لهم أن الأضرار الباهظة النَّاجمة عن الفيضان آتية لا محالة. يعلم الرب أن الأمر حدث من قبل... لقد كان فيضان عام 1931 كارثيًا، وقد كلَّف المدينة ملايين الدولارات وخلَّف وراءه أكثر من عشرين صريعًا. حدث ذلك منذ زمنٍ طويلٍ جدًّا، لكن لم يزل يوجد في البلدةِ عدد كافٍ من الأشخاص ليخيفوا الآخرينَ بالقِصَّة. أحد ضحايا الفيضان عُثر عليه على بُعد خمسة وعشرين ميلًا شرقًا في باكسبورت، وقد التهم السَّمك عينَ الرَّجُل التَّعس، وثلاثًا من أصابعه، وقضيبه، ومُعظم قدمه اليُسرى تقريبًا.. أما ما تبقَّى من يديه فكان مُمسكًا بمِقوَد سيَّارة فورد.

ومع ذلك، ها هو النهر مُستمرٌّ في التَّراجُع الآن؛ وعندما سيبدأ تشغيل سد بانجور الكهرومائي الجديد قُرب المنبع، لن يُشكِّل النهر تهديدًا مرَّة أخرى.. أو هكذا قال زاك دِنبروه الذي يعمل في محطَّة بانجور الكهرومائية. بالنسبةِ إلى باقي سُكَّان المدينة، فالفيضانات المُستقبلية تستطيع الاعتناء بنفسها. المهم أن يمرَّ الأمر بسلام خلال هذا الفيضان، وأن تعود الطاقة لتغذية المنازل، ثم نستطيع نسيان كل شيء عن الأمر. في ديري، مثل هذا النسيان الجمعي للكوارث والفواجع هو أمرٌ يسمو إلى مرتبة الفن تقريبًا، مثل ما سيكتشف بيل دِنبروه لاحقًا بمرور الوقت.

توقَّف چورچ بالكاد خلف حواجز الطريق التي تؤم حافَّة الشقِّ العميق الذي حُفِرَ في أسفلت شارع ويتشام. هذا الشق كان يجري عبر السطح بزاوية مائلة مقدارها 45 درجة تقريبًا، وينتهي عند الطرف الآخر من الشارع على بُعد نحو أربعين قدمًا أسفل التَّلة من مكانه الحالي على يمين الطريق. ضحك الصبي بصوتٍ عالٍ.. صوتُ مرحٍ طفوليٍ مُنفرِد اخترق عصر هذا اليوم الرمادي عندما حملِ الماء الجاري قاربه الورقي في المُنحدر النهري المُصغَّر الذي شكَّله تشقُّق سطح الأسفلت. لقد شقَّت المياه المُستمرَّة لنفسها قناةً امتدت على طول الخط المائل، ولذا ارتحل قاربه من أحد جانبي

شارعِ ويتشام إلى الآخر، يحملهُ التَّيار بسرعةٍ كبيرةٍ جدًّا حتَّى إن چورچ اضطُرَّ إلى العدو لمواكبتهِ. تناثر الماء من أسفل حذاءه المطَّاطي في دفقاتٍ موحِلةٍ، وحُلياته المعدنية تُصدِر جلجلةً طروبًا بينما چورچ دِنبروه يركض بإصرار نحو حتفهِ الغريب.. والشعور الذي كان يملؤه في تلك اللحظة هو حبٌ واضح وبسيط لشقيقه بيل... حبٌ مصحوب بمسحة من النَّدم كون بيل ليس هنا ليُشاهد الأمر ويكون جزءًا منه. بالتأكيد سيحاول وصف الأمر لبيل عند عودته إلى المنزل، لكنه كان يعرف في قرارة نفسه أنه لن يقدر على جعل بيل يرى هذا، بالطريقة التي كان سينجح بيل في جعلهِ يراهُ بها إذا بُدِّلت المناصب. كان بيل قارئًا جيِّدًا وبارعًا في الكتابة، لكن حتَّى في سنِّهِ الصغيرة هذه، كان چورچ حصيفًا بما يكفي لمعرفة أن براعة بيل ليست السَّبب الوحيد الذي يجعله يحصل على الدرجات النهائية في جميع شهاداته، أو التي تجعل المدرِّسين يهيمون حُبًّا بمواضيع تعبيره. موهبة الحكي مُجرَّد جزءٍ من الأمر؛ إن بيل بارعٌ في تأمُّل الأشياء.

كاد القارب أن يُصدر صفيرًا وهو يتسارع عبر القناة المائلة التي تقطع الشارع؛ القارب الذي لا يعدو كونه مُجرَّد صفحة مقطوعة من قسم الإعلانات في جريدة أخبار ديري، لكن چورچ الآن كان يتخيَّلهُ كزورقِ طوربيدٍ خارج من فيلم حربي، مثل تلك الأفلام التي يشاهدها أحيانًا مع بيل في سينما ديري في عروض السَّبت الصباحية. فيلم حربي من التي يُقاتل فيها چون واين اليابانيين. استمرَّت مُقدِّمة القارب الورقي في نثر رذاذ الماء على كلا الجانبين وهي تُسرع في طريقها، ثم وصل القارب إلى مصرف مياه على يسار شارع ويتشام. اندفع جدولٌ مائيٌ جديدٌ مُفعم بالنشاط عبر الشَّق في سطح القطران عند هذه اللحظة خالقًا دوَّامة كبيرة نسبيًّا، وبدا له أن القارب لا بُدَّ مُنقلب وغارق. لقد مال بشكلٍ مُقلق، ثم هلَّل چورچ عندما صحَّح القارب وضعه بعدها، والتفَّ، ثم اندفع نزولًا في سرعة باتِّجاه التقاطُع. ركض چورچ ليلحق به، ومن فوق رأسه هزَّ عصف رياح أكتوبر فروع الشجر، التي كانت خاوية الآن من حمولتها من الأوراق الملوَّنة بالكامل تقريبًا بفعل العاصفة.. العاصفة التي جاءت حاصدة من النوع الأكثر شراسة هذا العام.

2

جالسًا في فراشه –ووجنتاه ما زالتا تنضحان بالحرارة (رغم أن الحُمَّى بدأت في التراجع أخيرًا، مثل نهر الكِندوسكيج)– أنهى بيل صنع القارب؛ لكن عندما مدَّ چورچ يده لالتقاطه، أبعده بيل عن متناوله وقال: «ا–ا–الآن اجلب لي البـ–بـ–برافين[1]».

– «ما هذا؟ أين أجده؟».

– «إنه على الر–ر–رف في القبو، في صندوق مكتوب عليه جـ–جـ–جـ–الف... جالف. اجلبه لي، مع سكين وو–وعاء وعـ–علبة ثـ–ثـ–ثقاب».

ذهب چورچ مُطيعًا كي يجلب هذه الأشياء. ترامَى إلى سمعه عزف أمه على البيانو، لكنه لم يكن مقطوعة من أجل إيلزة الآن، بل شيءٌ آخر لم يعجبه كثيرًا.. مقطوعة ما بدت لأذنيه جافة ومزعجة. ترامى إلى سمعه أيضًا نقر المطر المتواصل على نوافذ المطبخ. هذه أصوات مُطمئِنة.. لكن فكرة النزول عبر سلالم القبو لم تكن مُطمئِنة بالمثل؛ لأنه طالما تخيَّل وجود شيءٌ ما هناك في الظلام. كانت هذه فكرة سخيفة بالطبع، هكذا قال والده وأمه، والأهم هكذا قال بيل، لكن الفكرة ما زالت مخيفة رغم ذلك...

لم يكن حتَّى يُحبِّذ فتح باب القبو وإضاءة النور من الأساس، لأنه طالما أُرِّق بتلك الفكرة بأنه حين سيمدُّ يده ليتحسَّس موقع مفتاح النور، ستجثُم يدٌ مخلبية مُروِّعة على ساعده، ثم ستسحبه إلى أسفل في الظلام الذي تفوح منه رائحة الرطوبة والعطن والخضراوات العفنة... كانت هذه فكرة غاية في السذاجة بحيث لم يجرؤ على مُشاركة أحدٍ بها.

أحمق! لا وجود لأشياء بمخالب ومُشعِرة وتملؤها الرغبة في القتل. بين

(1) برافين: شمع كيميائي صلب من مُشتقَّات البترول له ملمس دهني ولا يذوب في الماء، ويُستعمل في تشريب الورق المقوَّى إذا ما أُريد عزله، كما يُشاع استعماله أيضًا في حفظ الأطعمة وتغليفها، وفي كثيرٍ من المراهم ومواد التجميل.

الحين والآخر، يُجنُّ شخصٌ ما ويقتل بعض الأشخاص -تشيت هنتلي يسرد وقائعَ مماثلة أحيانًا في الأخبار المسائية- وبالطبع هناك الشيوعيون، لكن بالتأكيد لا يوجد مسخ غريب يقطن قبو منزلهم، ورغم ذلك، ظلَّت الفكرة تؤرِّقه. في هذه اللحظات التي بدت سرمدية وهو يتلمَّس مفتاح النور بيده اليمنى (بينما يده اليسرى تلتف حول مقبض الباب في قبضةٍ عاتية)، بدا كأن رائحة القبو تتكاثف لتملأ العالم. اندمجت روائح الغبار والعطن وخضراوات تعفَّنت ويبست منذ فترة طويلة في رائحة واحدة حتمية لا لبس فيها: رائحة المسخ، ملك كل المسوخ. لقد كانت رائحةَ كيان لا اسم يصلح لوصفهِ: رائحة الشَّيءِ. الشَّيءُ الرَّابض المُختبئ المُستعد للانقضاض. مخلوق يتغذَّى على أيِّ شيء، لكنه يشتهي مذاق لحم الصِّبْية بشكلٍ خاص.

لقد فتح الباب في ذلك الصباح، وتلمَّس مفتاح النور لفترة طويلة، مُمسكًا بالمقبض بقبضته العصبية العاتية المعتادة، بينما كانت عيناه مغلقتين بقوَّة، وطرف لسانه يطعن زاوية فمه كأنه جُذَير مُعذَّب يبحث عن الماء في أرضٍ جدباء. مُثيرٌ للسخرية؟ بالطبع! لا شك! انظر إلى حالك يا چورچي! چورچي يخاف الظلام! يا لك من طفل!

ترامى صوت البيانو قادمًا إليه ممَّا يصفه والده بغرفة المعيشة، وما تصفه أمه بالصَّالة. بدت كأنها موسيقى آتية من عالمٍ آخر بعيدٍ جدًّا،كما يبدو صوت الضحكات في أُذُن سبَّاحٍ مُنهَك عندما يأتيه من شاطئ صيفيّ مزدحم، بينما هو يكافح تيارًا معاكسًا قويًا تحت سطح الماء.

عثرت أصابعه على المفتاح! آه!

وضغطهُ...

ثم لم يحدث شيء. لا ضوء.

أوه، سُحقًا! الكهرباء مقطوعة!

سحب چورچ ذراعه سريعًا كأنما ينتزعه من سلَّة مليئة بالأفاعي، وتراجع إلى الوراء بعيدًا عن باب القبو، وقلبه يخفق في صدره. بالتأكيد، الكهرباء مقطوعة.. لقد نسيَ أن الكهرباء مقطوعة. يا للهول! ما العمل الآن؟ هل يعود إلى بيل ويخبره أنه لم يقدر على جلب صندوق البرافين لأن الكهرباء مقطوعة

ولأنه خائف من أن يمسكه شيءٌ ما وهو واقف على عتبة القبو.. شيءٌ ليس شيوعيًّا ولا سفَّاحًا وإنما مخلوق أسوأ بكثير من الاثنين؟ هذا الشَّيءُ سيدسُّ ببساطة جزءًا من ذاته المُتحلِّلة بين السلالم الخشبية ويقبض كاحلهُ؟ وأنه قد يكبر في الحجم، أليس بقادرٍ على ذلك؟ الآخرون قد يضحكون على مثل هذه الخيالات، لكن بيل لا. بيل سيغضب. بيل سيقول له: «تصرَّف بنضج يا چورچي... هل تريد هذا القارب أم لا؟».

وكأن هذه الخاطرة الأخيرة كانت إشارة شعورية لأخيه كي يقول جملته، فقد نادى بيل عليه من غرفة نومه: «هل مُـ-مُـ-مُتَّ يا چـ-چورچي؟».

رد چورچ على الفور: «لا، أنا أجلب ما طلبت يا بيل». ثم فرك ذراعيه محاولًا نفض تلك القشعريرة عن جلده وجعله ناعمًا من جديد، وأضاف: «لقد ذهبت لأشرب بعض الماء فقط».

- «حسنًا، أسـ-أسرع!».

لذا هبط چورچ درجات السُّلم الأربع مُتَّجِهًا إلى رفِّ القبو؛ قلبه يدُقُّ كمطرقة حامية الوطيس في حلقه، والشَّعر في مؤخِّرة عُنُقه ينتصب متحفِّزًا، وعيناه تنضحان بالحرارة، ويداه باردتان.. واثقًا بأن في أيِّ لحظة سيُغلق باب القبو من تلقاء نفسه، حاجبًا الضوء الساقط من نوافذ المطبخ، وعندها سيسمع الشَّيءَ. مخلوقٌ أسوأ من كل الشيوعيين والسفَّاحين في العالم.. أسوأ من اليابانيين.. أسوأ من أتيلا الهونيَ.. أسوأ من جميع الأشياء التي ظهرت في مِئات أفلام الرعب. الشَّيءُ الذي يهِرُّ بعمق.. سوف يسمع هريره في تلك الثواني المجنونة التي ستسبق قفزته عليه وفتح بطنه وإخراج أحشائه.

رائحة القبو أسوأ من أيِّ يومٍ مضى، بسبب الفيضان. إن منزلهم يجلس عاليًا في ربوة شارع ويتشام، بالقرب من قِمَّة التَّلة، لذا جنَّبهم هذا الكثير. لكن لا تزال توجد مياه هنا تسرَّبت عبر أساسات المنزل من الصخور القديمة، وقد كانت رائحتها لئيمة ومزعجة، تجبرك على أخذ أنفاسًا قصيرة فحسب.

بحث چورچ عبر الأغراض المُتراصة على الرَّفِّ بأسرع ما يستطيع؛ عبوَّات تلميع أحذية قديمة طراز كيوي وخِرَق تلميع أحذية. مصباح كيروسين مكسور. زجاجتا مُنظِّف ويندكس فارغتان تقريبًا. عبوَّة مسطَّحة وقديمة من

مُلمِّع تيرتل. لسببٍ ما شدهته تلك العبوَّة، وقضى نحو نصف دقيقة يُحدِّق إلى السُلحفاة المرسومة على الغطاء في نوعٍ من الانشداه المنوِّم، ثم دفعها جانبًا... ها هي تظهرُ أخيرًا، العلبة المُربَّعة المكتوب عليها جالف.

التقطه چورچ سريعًا وركض أعلى الدرج بكل ما أوتيَ من سرعة، ثم لاحظ فجأة أن طرف قميصه يخرج من سراويله، وتأكَّد فجأة أن هذا الطَّرف سيكون سببًا في نهايته: الشَّيءُ في القبو سيتركه يقطع كل المسافة إلى أن يصير بالخارج تقريبًا، ثم سيمسك بذيل قميصه ويسحبه إلى الوراء و...

وصل الصبي إلى المطبخ وصفع الباب خلفه بقوَّةٍ مُغلقًا إيَّاه. أصدر الباب صوتًا هائلًا. مال چورچ مستندًا عليه وعيناه مُغلقتان، والعرق يتفصَّد من ذراعيه وجبهته، بينما علبة البرافين تقبع بإحكام في قبضة يده.

توقَّف عزف البيانو، وترامى إليه صوت أمه يصيح: «چورچي، هل تستطيع صفع الباب بقوَّة أكبر في المرَّة المقبلة؟ قد تتمكَّن حينها من تحطيم بعض الأطباق في دولاب المطبخ، فقط إذا حاولت مُخلصًا».

صاح إليها: «معذرة يا ماما».

– «چورچي، تبًّا لك من خائب»، هكذا صاح بيل من غرفة نومه خافضًا صوته كي لا تسمعه أمهما.

ضحك چورچ قليلًا. كان خوفه قد ذهب بالفعل؛ منزلقًا بعيدًا عنه بالسهولة نفسها التي ينزلق بها كابوسٌ مُخيف عن رجلٍ استيقظَ لاهثًا بارد الجسد هاربًا من قبضته، ويبدأ في تحسُّس جسده ويدور ببصره في الموجودات من حوله ليتأكَّد إن كان أيًّا ما خبر قد حدث فعلًا، ثم ينساه بعدها جملةً وتفصيلًا.. نصفه يذوب ما إن تطأ قدماه الأرض، وثلاثة أرباعه يذوي ما إن يغتسل ويبدأ في تنشيف جسده، ويكون قد انتهى بالكامل في الوقت الذي ينهي فيه إفطاره. كله شيء يُنسى، إلى أن تأتي المرَّة المقبلة.. عندها تعود كل المخاوف من جديد مع السقوط في براثن الكابوس.

أخذ چورچ يفكِّر وهو يتَّجه إلى أحد أدراج المطبخ حيث يحتفظون بأعواد الثقاب في أمر تلك السُلحفاة، أين رأيت سُلحفاة كهذه من قبل؟

لكن عقله لم يجبه بشيءٍ، لذا نفض الصبي السؤال عنه.

التقط علبة ثقاب من الدُرج، وسكينًا من على الحامل (ممسكًا بالطَّرف الحاد بثبات بعيدًا عن جسده كما علَّمه والده)، ووعاء صغير من دولاب الأواني في حجرة الطعام، ثم عاد أدراجه إلى غرفة بيل.

قال بيل بعتابٍ ودود: «يا لك من ث. مؤخِّرة يا چـ- چورچي»، ثم أزاح بعيدًا بعض أغراض المرضى من فوق الكومود: زجاجة فارغة. إبريق ماء. مناديل ورقية. كتب. عبوة كريم ڤكس ذي الرَّائحة النفَّاذة التي ستظلُّ ترتبط شرطيًا في ذهن بيل طوال حياته بالأنوف السائلة والصدور التي تضج بالبلغم. الراديو القديم طراز فيلكو كان جواره أيضًا، ولم تكن تصدر عنه مقطوعاتٍ لشوبان أو باخ، وإنما أغنية لريتشارد الصغير... يُشغِّلها بصوتٍ منخفض جدًّا، شديد الانخفاض لدرجة أنه نزع عن ريتشارد الصغير كل ما في صوته من عنفوانٍ طبيعيٍ غاشم. لم تكن والدتهما -التي درست البيانو الكلاسيكي في چوليارد- تنفر منه فحسب، بل تمقته بجنون.

قال چورچ وهو يجلس على طرف فراش بيل ويضع الأغراض التي جمعها على الكومود: «أنا لست ث. مؤخِّرة».

قال بيل: «بل أنت كذلك. لستَ سوى ث. مؤخِّرة كبير بُنِّي اللون.. هذا أنت».

حاول چورچ تخيُّل صبي لم يكن سوى ث. مؤخِّرة كبير هائل يمشي على قدمين.. وبدأ يقهقه.

قال بيل وقد التقط عدوى الضحك بدوره: «ث. مؤخِّرتك أكبر من مدينة أوجستا».

ردَّ چورچ: «ث. مؤخِّرتك أكبر من الولاية كلها».. ما جعلهما يُطرحان أرضًا من الضحك قرابة دقيقتين.

تبعت ذلك محادثة هامسة من النوع الذي لا يعني أيَّ شيءٍ لأيِّ شخص باستثناء الصبية الصغار: اتهامات عن من منهما أكبر ث. مؤخرة. من صاحب أكبر ث. مؤخِّرة. أيُّهما صاحب ث. المؤخِّرة الأغمق لونًا.. وهَلُمَّ جرًّا. في النهاية، تلفَّظ بيل بأحد الألفاظ المحظورة؛ فقد اتَّهم چورچ بأنه ث. مؤخِّرة كبير وبني ومليء بالغائط؛ فانخرط كلاهما في نوبة ضحك عارمة. استحالت

ضحكات بيل إلى سُعالٍ متواصل، وما أن بدأ السُعال يهدأ –كان وجه بيل قد احتقن بشدَّة ممَّا أشعر چورچ بالخوف– توقَّف عزف البيانو مرَّة أخرى. نظر الصبيان في اتِّجاه الصَّالة منتظرين سماع صوت مقعد البيانو وهو يُجرُّ إلى الخلف على الأرضية.. منتظرين تعالي صوت خطوات أمهما نافدة الصبر. دفن بيل فاه في كوعه كاتمًا صوت السعلات الأخيرة، وهو يُشير إلى إبريق الماء في الوقت نفسه. صبَّ چورچ له كوبًا من الماء، وشربه بيل على الفور.

بدأ البيانو يُصدِر معزوفة من أجل إيلزة مرَّةً أخرى. لم ينس بيل المُتلعثم هذه المقطوعة طوال حياته، وحتَّى بعد مُضِي ذلك بسنوات كثيرة، لم تُخفق مرَّة واحدة عند سماعها في إحداث قشعريرة في جلد ذراعيه وظهره؛ وعلى الفور يسقط قلبه في قدميه مُتذكِّرًا: أمي كانت تعزف تلك المقطوعة يوم وفاة چورچي.

– «هل تشعر بأنك تُريد السُّعال مُجدَّدًا يا بيل؟».

– «لا».

سحب بيل منديلًا ورقيًا من العلبة، وخشخش صدره جيِّدًا، ثم بَصَقَ كُتلة من البلغم في المنديل، وطواه وألقى به إلى سلة المهملات جوار فراشه التي امتلأت بمناديل كثيرة شبيهة مطوية. ثم فتح صندوق البرافين وأسقط مُكعَّبًا شمعيًا من المادة في راحة يده. راقبه چورچ من كثب، لكن دون أن يتفوَّه بشيءٍ أو يطرح سؤالًا. لم يكن بيل يحب أن يتحدَّث چورچ إليه وهو مُنهمك في أحد الأشياء، لكن چورچ تعلَّم أنه لو نجح في الإبقاء على فمه مُغلقًا، فعادةً بيل سيشرح له ماذا يفعل.

استخدم بيل السكين في قطع قطعة صغيرة من مُكعَّب البرافين، ووضع القطعة في الوعاء، ثم أشعل عود ثقاب وألقاه فوق البرافين. راقب الصبيان احتضار الشُعلة الصفراء الصغيرة، بينما يسفع الريح المطر إلى النافذة في دفَّاتٍ مُتفرِّقة.

قال بيل: «يجب أن أعزل القارب جيِّدًا وإلا فسيبتل بسهولة ويغرق».

عندما يكون بيل بصحبة چورچ تخفُت لعثمته، وأحيانًا لا يتلعثم على الإطلاق. لكن في المدرسة، تشتدُّ لعثمته جدًّا لدرجة أن الكلام يصير

مُستحيلًا بالنسبة إليه. يتوقَّف تدفُّق الحديث تمامًا، ويبدأ زملاء بيل في الصَّفِ في النظر بعيدًا، بينما يتشبَّث بيل في جوانب مكتبه، ويتنامى احتقان وجهه إلى أن يستحيل لونه أحمر بلون شعره، وتتقلَّص عيناه إلى شَقَّين رفيعين وهو يحاول إخراج كلمةٍ ما من حنجرته العنيدة. أحيانًا -بل غالبًا- تخرج الكلمة في النهاية، وفي أحايين أخرى، تأبى ببساطة. لقد صدمته سيَّارة وهو بسن ثلاث سنوات، وأطاحت به إلى جانب أحد المباني؛ وظلَّ في غيبوبة مُدَّة سبع ساعات. أمه قالت إن ذلك الحادث ما تسبَّب في لعثمته، لكن چورچ أحيانًا يأتيه شعور بأن والده -وبيل نفسه أيضًا- غير واثقين من هذا الأمر.

ذابت قطعة البرافين في الوعاء بالكامل تقريبًا. تقلَّص لهب الثقاب أكثر، واستحال إلى اللون الأزرق وهو يحتضن طرف عصا الورق المقوَّى، ثم انطفأ. غمس بيل إصبعه في السائل، وسحبه سريعًا وهو يهسُّ مُستهجنًا. ابتسم بيل إلى چورچ مُعتذرًا وتمتم: «ساخن». بعد ثوانٍ قليلة، دس إصبعه مُجدَّدًا، وبدأ في دهن الشَّمع على كل جوانب القارب، حيث تجمَّد سريعًا على هيئة عكارة حليبية اللون.

سأله چورچ: «هل يمكنني أن أدهن قليلًا؟».

- «حسنًا، فقط لا تلوِّث الملاءات بأيٍّ منه وإلا ماما ستقتلك».

غمس چورچ إصبعه في البرافين، الذي كان دافئًا جدًّا الآن لكن ليس ساخنًا، وبدأ في دعك الشَّمع على الجانب الآخر من القارب.

قال بيل: «لا تضع كثيرًا منه يا أحمق. هل تريد إغراقه في رحلته الأولى؟».

- «معذرة».

- «لا عليك.. فقط تمهَّل».

أنهى بيل الجانب الآخر، ثم أمسك القارب بين يديه. شعر به أثقل قليلًا، لكن ليس كثيرًا.. وصاح: «إنه رائع تمامًا.. سآخذه إلى الخارج وأُبحِر به».

قال بيل: «هيَّا، اذهب وافعل ذلك». ثم فجأة ظهر الإعياء عليه.. وبدا مُتعبًا وليس على ما يُرام تمامًا.

قال چورچ: «ليتك تستطيع المجيء». كان صادقًا في قوله. أحيانًا يصير بيل متسلِّطًا، لكنه دائمًا يملك أروع الأفكار ونادرًا ما يضربه «فهو مركبك قبل

كل شيء».

قال بيل: «هيَ مركيك.. المراكب ندعوها بهي».

- «هي، حسنًا».

قال بيل مُغتمًا: «أنا أيضًا أتمنَّى المجيء».

- «حسنًا...». قالها چورچ وهو ينقل وزنه من قدمٍ إلى أخرى والقارب ما زال بين يديه.

حذَّره بيل: «ضع عليك معطف المطر، وإلا سينتهي بك الأمر وقد التقطت عدوى البرد مثلي. رُبَّما ستلتقطها على أيِّ حال، من جـ-جراثيمي».

قال چورچ: «شكرًا يا بيل. إنه قارب أنيق».

ثم فعل بعدها شيئًا لم يفعله منذ زمنٍ طويل، شيئًا لم ينسه بيل أبدًا: انحنى فوقه ولثم وجنة أخيه.

قال بيل: «الآن ستصاب بالعدوى لا شك، يا ث. المؤخِّرة». لكن بدا أن سريرته تهلَّلت بالمثل، وابتسم لچورچ وهو يضيف: «أعد كل الأشياء إلى أماكنها، وإلا سيجن جنون ماما».

- «بالتأكيد».

قالها چورچ وجمع الأغراض التي استخدماها في العزل، ووضع القارب أعلى صندوق البرافين في وضعٍ غير مُستقر، بينما جلس الصندوق بدوره معوجًّا داخل الوعاء الصغير.

- «چـ-چـ-چورچي؟».

استدار چورچ ونظر إلى أخيه.

- «كُن حذرًا».

- «بالتأكيد».

قالها وقطب حاجبيه قليلًا. هذه أشياء تقولها أمك لك، لكن ليس أخاك الكبير. بدا الأمر غريبًا مثل القُبلة التي أعطاها لبيل. أجابه چورچ: «بالتأكيد سأفعل».

ثم خرج بعدها من الغرفة، ولم يرهُ بيل مرَّةً أخرى في حياته.

3

والآن ها هو هنا، يطارد قاربه في نهاية شارع ويتشام من جهة اليسار. كان يركض بسرعة، لكن الماء الجاري أسرع، وقد أرهقهُ القارب بالمُلاحقة. سمع چورچ هديرًا عميقًا، ورأى الماء على بعد خمسين ياردة أمامه أسفل التَّلة يندفع في شلالٍ صغيرٍ إلى جوف مصرف مياه ما زال سالكًا. كانت البالوعة عبارة عن نصف دائرة مُعتمة محفورة في جانب الرصيف الصخري، وبينما كان چورچ ينظر، اندفع فرع شجرة أسود اللون ويلتمع من البلل كجلد فقمة إلى جوف فتحة الصرف. تعلّق الفرع لحظاتٍ عند الحافّة، ثم انزلق إلى الظلام. ذلك هو المكان الذي يتَّجه إليه قاربه الآن.

صرخ الصبي جزعًا: «أوه، اللعنة واللُّعناء».

زاد چورچ من سرعته، وللحظة ظن أنه سينجح في اللحاق بالقارب، ثم انزلقت إحدى قدميه وانبطح أرضًا جالطًا ركبته وصارخ بقوّة من شِدَّة الألم. من منظوره المنخفض الجديد عند مستوى الرصيف، راقب چورچ القارب وهو يتأرجح مرَّتين ويدور حول نفسه بعد أن وقع للحظات أسيرًا لدوَّامة أخرى، قبل أن يختفي.

- «اللعنة واللُّعناء». هكذا صرخ الصبي مُجدَّدًا وضرب الرصيف بقبضته. آلمه ذلك أيضًا، وبدأ يبكي قليلًا. يا لها من طريقة غبية لفقد القارب!

نهض الصبي وسار مُتَّجهًا إلى مصرف الأمطار، ثم ركع على ركبتيه وأمعن النظر. كان الماء يصدر صوتًا غائرًا باردًا وهو ينسال إلى الظلام. بدا الصوت مُخيفًا، وذكَّره بـ...

- «ها!». خرجت الشهقة منه مُرتعشة كأنها تتذبذب على وترٍ مشدود، وانتكص الصبي جافلًا إلى الوراء.

كان ثمَّة عينان صفروان في الدَّاخل: زوجان من العيون لطالما تخيَّل وجودهما في القبو، لكنه لم يرهما من قبل قط. إنه حيوان، هكذا فكَّر مشوَّشًا، هذا كل ما في الأمر. حيوانٌ ما، ربُّما قطة منزلية عَلِقت هنا و...

ومع ذلك، كان مستعدًا للهروب في التَّوِ.. بالأحرى هو سيبدأ في الركض خلال ثانية أو اثنتين، فقط عندما تستطيع الموصِّلات في عقله التعامل مع الصَّدمة التي بثَّتها هاتان العينان الصفراوان اللامعتان. استشعر چورچ ملمس الأرض الحصباء الخشن تحت أصابعه، والماء البارد الذي يفيض من حوله، وشاهد نفسه بعين خياله ينهض من مكانه ويتراجع إلى الوراء؛ كان هذا حين تحدَّث الصوت إليه -صوتٌ رزينٌ تمامًا بل ساحرٌ بالأحرى- من داخل بالوعة الصرف.

قال الصوت: «مرحبًا يا چورچي».

رمش چورچ عينيه ونظر مُجدَّدًا. كان بالكاد يُصدِّق ما يراه؛ بدا الأمر وكأنه خارج من عوالم قِصَّة مُختلَقة، أو من فيلم تعرف أن الحيوانات فيه تتكلَّم وترقص. إذا كان أكبر من سنِّهِ بعشر سنوات، لم يكن سيصدق ما تراه عيناه الآن.. لكنه لم يكن في السادسة عشرة، بل في السادسة.

كان ثمَّة مُهرِّج رابضٍ في مصرف المطر. لم تكن الإضاءة في الدَّاخل جيِّدة بأيِّ حال، لكنها جيِّدة بما يكفي بحيث استطاع چورچ التأكُّد ممَّا تراه عيناه أمامه. كان مُهرِّجًا، كالذين تراهم في السيرك أو التلفاز. في حقيقة الأمر، بدا كأنه مزيجٌ من بوزو وكلارابيل.. الأخير الذي يتحدَّث عن طريق زُمَّاره في برنامج هاودي دودي صباح أيَّام السَّبت (أم هل كانت أنثى؟ لم يكن چورچ مُتيقِّنًا حقًّا من جنسه). في البرنامج، كان بافلو بوب يبدو الشَّخص الوحيد القادر على فهم أصوات كلارابيل، ولطالما أضحك هذا الأمر چورچ كثيرًا. كان وجه المُهرِّج الرَّابض في المصرف أبيض، بينما تبرز خصلات مُضحكة من الشعر الأحمر على جانبي رأسه الأصلع، وعلى فمه رُسمت ابتسامة المُهرِّجين الكبيرة. لو كان مُقدَّرًا لچورچ المكوث في دنيانا لسنة قادمة، فلا بُدَّ أنه كان سيُفكِّر في رونالد ماكدونالد قبل بوزو أو كلارابيل.

كان المُهرِّج يحمل مجموعة من البالونات مُختلفٌ ألوانها في يدٍ واحدة، بدت كفاكهة أتمَّت نُضجها بشكلٍ رائع.

وفي اليد الأخرى، يُمسك بقارب چورچ الورقي.

ابتسم المُهرِّج قائلًا: «أتُريد قاربك يا چورچي؟».

بادله چورچ الابتسامة. لم يقدر على كبح نفسه.. فقد كانت من الابتسامات التي يجب أن تُبادل، وقال: «بالتأكيد أُريده».

ضحك المُهرِّج: «بالتأكيد أُريده. هذا جميل! هذا رائع! وماذا عن بالونة معه؟».

– «حسنًا... بالتأكيد!». قالها الصبي ومدَّ يده، ثم سحبها سريعًا إلى خلف مُتردِّدًا.

– «لا ينبغي لي أخذ أيِّ شيءٍ من الأغراب، هكذا قال أبي».

قال مُهرِّج مصرف الأمطار: «هذه حكمة بالغة من والدك»، وابتسم. فكَّر چورچ في قرارة نفسه، كيف ظننت أن عينيه صفراوين؟ إنهما زرقاوان مُشعَّتان، كلون عيني ماما وبيل. «حكمة بالغة بالفعل. إذًا أُعرِّفك عن نفسي. أنا السيِّد بوب جراي يا چورچي، المعروف أيضًا بـ بيني وايز المُهرِّج الراقص. بيني وايز إليك چورچ دِنبروه.. چورچ دِنبروه إليك بيني وايز. الآن أكملنا تعارُفنا. لم أعُد غريبًا عنك، ولم تعد غريبًا عني.. أليس– كسلك؟».

قهقه چورچ: «أظنُّ ذلك»، ومدَّ ذراعه مُجدَّدًا... ثم سحبها مرَّة أخرى.

– «كيف نزلت إلى هنا؟».

– «العاصفة أطاااااحت بي تمامًا». هكذا قال بيني وايز المُهرِّج الراقص. ثم أردف: «لقد أطاحت بالسيرك كله. هل تشم رائحة السيرك يا چورچي؟».

انحنى چورچ إلى الأمام، وفجأة استطاع شمَّ رائحة الفول السوداني! فول سوداني محمَّص ساخن! وخردل! من النوع الأبيض الذي تضعه على البطاطس المقلية عبر فتحة في الغطاء! استطاع شمّ رائحة غزل البنات والفطائر المُحلَّاة المدهونة بالزبد ورائحة فضلات حيوانات برِّيَّة خفيفة لاذعة. استطاع شمّ العبق المُبهج لنشارة الخشب المنثورة، لكن...

أسفل جميع تلك الروائح برزت رائحة الفيضان وأوراق الشجر المُتحلِّلة والظلال الداكنة لمصرف الأمطار. كانت رائحة عطنة وفاسدة. رائحة القبو.

لكن الروائح الأخرى كانت أقوى.

قال چورچ: «بالتأكيد أشُمَّها».

سأله بيني وايز: «هل تريد قاربك يا چورچي؟ أنا أُكرِّر سؤالي فقط لأنك

لا تبدو لي مُتلهِّفًا حقًّا». أنهى المُهرِّج عبارته ورفع القارب مُجدَّدًا، وابتسم. كان يرتدي حُلَّة فضفاضة حريرية بأزرارٍ بُرتقالية كبيرة على الصدر، تتدلَّى من فوقها ربطة عنق زاهية تُشِع بلونٍ أزرق، وفي يديه زوجا قُفَّازاتٍ بيضاء كبيرة كالتي يرتديها ميكي ماوس ودونالد داك دومًا.

قال چورچ وهو ينظر أسفل مصرف الأمطار: «بالتأكيد أريده».

– «وماذا عن بالونة معه؟ لدي بالونات حمراء وخضراء وصفراء وزرقاء و...».

– «هل تطفو في الهواء؟».

– «تطفو؟» اتَّسعت ابتسامة المُهرِّج: «أوه، أجل، بالطبع. إنها تطفو! ويوجد أيضًا غزل البنات...».

اقترب چورچ ومدَّ يده.

فقبض المُهرِّج ذراعه.

وشاهد چورچ وجه المُهرِّج يستحيل إلى شيءٍ آخر.

ما رآه چورچ بعدها كان مُريعًا بما يكفي لجعل أسوأ تخيُّلاته عن الشَّيءِ في القبو تبدو كأحلامٍ سعيدة؛ ما رآه قضى على سلامته العقلية بالكامل في صدمة نفسية واحدة.

– «إنها تطفو». هكذا دندن الشَّيءُ القابع في مصرف الأمطار بصوتٍ مُخدِّر لعوب. كان يمسك بذراع چورچ في قبضته السميكة النَّخرة، وبدأ يسحبه نحو الظلام المُريع حيث يندفع الماء ويهدر ويخور وهو يحمل حمولته من حطام العاصفة إلى البحر. ناء چورچ برقبته بعيدًا عن ذلك الظلام الكثيف وبدأ يصرخ ملء حنجرته وسط الأمطار؛ يصرخ بعقلٍ طار صوابه في سماء الخريف البيضاء التي جثمت فوق ديري في ذلك اليوم من خريف عام 1957. كان صراخه عاليًا وثاقبًا للآذان، وعلى طول شارع ويتشام اندفع الناس إلى نوافذهم وشُرُفاتهم.

زمجرَ الشَّيءُ: «إنها تطفو.. إنها تطفو يا چورچي، وعندما ستكون هنا معي بالأسفل ستطفو أنت أيضًا...».

انحشر ذراع چورچ في الأسمنت الذي يحدُّ حافَّة الرصيف. ديڤ جاردنر،

الذي لزم منزله ولم يذهب إلى عمله في المسرح العائم ذلك اليوم بسبب الفيضان، لم يرَ سوى صبي صغير يرتدي معطفًا أصفر واقيًا من المطر.. صبي صغير لم ينفك عن الصراخ والتَّلوِّي عند حافَّة المصرف، بينما المياه الموحِلة تلطم وجهه جاعلة صرخاته فُقَّاعية.

– «كل شيء بالأسفل هنا يطفو».

هكذا همس ذلك الصوت الضاحك النَّتن، ثم فجأة ارتفع صوت تمزيقٌ وحشي تبعته حشرجة عذاب أخيرة، وتوقَّف چورچ دِنبروه عن الإدراك.

ديڤ جاردنر كان أوَّل من وصل إلى المكان، وعلى الرغم من كونه وصل بعد الصَّرخة الأولى بخمس وأربعين ثانية فقط، كان چورچ دِنبروه قد مات بالفعل. أمسكه جاردنر من ظهر معطفه، وسحبه على أرض الشارع... ثم بدأ يصرخ هو نفسه عندما استدار جسد چورچ بين يديه. كان الجانب الأيسر من معطف چورچ مُصطبغًا باللون الأحمر القاني، بينما انسالت الدماء إلى مصرف المطر من الفجوة الخاوية المُمزَّقة التي احتلَّتها ذراعه من ذي قبل.

كان ثمَّة نتوء عظمي مُريع البياض يبرز من أسفل ثيابه المُمزَّقة.

حدَّقت عينا الصبي خاوية إلى السماء البيضاء، وبينما ترنَّح ديڤ رجوعًا نحو الآخرين الذين اندفعوا في فوضى عارمة عبر الشارع، امتلأتا عن آخرهما بماء المطر.

4

في مكانٍ ما بالأسفل داخل مصرف الأمطار الذي كان قد امتلأ تقريبًا قدر سعته القصوى بجريان المياه السطحية (لا يمكن أن ينجو أيُّ شخصٍ بالأسفل، هكذا سيعلن عُمدة البلدة لاحقًا إلى مراسل جريدة أخبار ديري بغضبٍ عارم كاد أن يكون عذابًا، هرقل ذاته سينجرف في مثل ذلك التيَّار الكاسح)، اندفع قارب چورچ ماضيًا في طريقه عبر حُجراتٍ مُظلمة وممرَّاتٍ خرسانية طويلة يجتاحها الماء ويهدر بين جدرانها. لبرهة من الوقت، استمر في التقدُّم بمحاذاة دجاجة نافقة تطفو على سطح الماء وأصابعها الصفراء الشبيهة بأصابع الزواحف تبرز في اتِّجاه السَّقف.. ثم –عند تقاطعٍ جوفي ما

شرق البلدة– انجرف جسد الدجاجة يسارًا، بينما واصل قارب چورچ طريقه المُستقيم.

بعد مرور ساعة، عندما كانت والدة چورچ ترقد مُخدَّرة في غرفة العناية المُركَّزة في مُستشفى ديري العام، وفي الوقت الذي جلس بيل فيه مصدومًا وشاحبًا وصامتًا في فراشه يستمع إلى نحيب والده الأجش في الصَّالة حيث كانت أمه تعزف من أجل إيلزة قُبيل خروج چورچ إلى الشَّارع، انطلق القارب نافذًا عبر شقٍ في الخرسانة كطلقة تُغادر فوَّهة بندقية، وتسارع عبر ترعة مائية ومنها إلى جدولٍ لا اسم له، وعندما التقى الجدول بنهر بينوبسكوت الثائر بعد عشرين دقيقة، بدأت أولى بشائر اللون الأزرق تظهر في السماء التي تعلوه.. العاصفة تخمُد.

استمرَّ القارب في الانخفاض والتمايل وأحيانًا، واستقبل ماءً كثيرًا على متنه، لكنه لم يغرق. لقد عزله الأخوان جيِّدًا. لا أعرف إلى أين انتهى مآله، هذا إن كان انتهى في مكانٍ ما من الأساس. رُبَّما بلغ البحر في النهاية وهو مُستمرٌّ في مخر عبابه هناك إلى الأبد، كقاربٍ سحري من حكاية خيالية. كل ما أعرفه أنه كان لا يزال يُبحر فوق صدر الفيضان عندما تخطَّى عابرًا حدود بلدة ديري، ولاية مين... ومن موقعه هناك أبحر خارج هذه القِصَّة إلى الأبد.

الفصل الثاني

بعد المهرجان (1984)

1

السَّبب وراء ارتداء أدريان القُبَّعة، هكذا سيعلم رجال الشُرطة من صديقه الحميم لاحقًا، أنه فاز بها من كابينة لُعبة ارم الطَّوق حتَّى تفوز الموجودة في ساحة الألعاب في حديقة باسي قبل ستة أيَّام فقط من مقتله.. وقد كان أدريان فخورًا بها.

صرخ صديقه الحميم دون هيجارتي في وجه رجال الشُرطة قائلًا: «كان يرتديها لأنه أحبَّ هذه البلدة العفنة الصغيرة».

قال الضَّابط هارولد جاردنر لهيجارتي: «على رسلك الآن، لا داعي لاستخدام هذا النوع من الألفاظ».

هارولد جاردنر هو أحد أبناء ديڤ جاردنر الأربعة؛ وقد كانت سِنُّه خمس سنوات في ذلك اليوم الذي اكتشف فيه والده جثة چورچ دِنبروه الهامدة ذات الذراع الواحدة. أما في هذا اليوم، بعد مرور سبعة وعشرين عامًا تقريبًا، كان سنُّه اثنين وثلاثين عامًا، وقد بدأ الصَّلع يزحف على مُقدِّمة رأسه. استشعر هارولد جاردنر حقيقة الحزن والألم اللذين يلُفَّان دون هيجارتي، لكن كان عسيرًا عليه في الوقت نفسه أن يأخذه على محمل الجد. فهذا الرَّجُل -إن أردت تسميته رَجُلًا- يضع أحمر شفاه ويرتدي سراويل حريرية ضيِّقة جدًّا لدرجة أنك تستطيع رؤية تجاعيد قضيبه عبرها. حُزن أو لا حُزن.. ألم أو لا ألم.. إنه مُجرَّد شاذ قبل كل شيء. تمامًا مثل صديقه الراحل أدريان ميلون.

قال چيفري ريڤز زميل هارولد: «دعنا نسمع القِصَّة مرَّةً أخرى. كلاكما خرج من ملهى فالكون واتَّجهتما ناحية القناة. ماذا حدث بعدها؟».

كان هيجارتي ما زال يصرخ: «كم مرَّة يتحتَّم عليَّ إخباركما يا أحمقان؟ لقد قتلوه! ألقوا به من فوق سور القناة إلى الماء. مُجرَّد يومٌ آخر مُعتاد بالنسبةِ إليهم في مدينة الهمج الذكورية هذه!». أنهى دون هيجارتي عبارته وبدأ يبكي.

قال ريفز في صبر: «احكِ مرَّة أخرى يا هيجارتي. لقد خرجتما من ملهى فالكون، ثم ماذا؟».

2

في إحدى غُرف الاستجواب، واصل اثنان من عناصر شُرطة ديري الحديث مع ستيڤ دوباي، مراهق في سن السابعة عشرة؛ وفي مكتب حاجب إثبات الوصايا في الدور العلوي، كان اثنان آخران يستجوبان چون جارتون ذا الثماني عشرة سنة والشهير بـ «ويبي»؛ وفي مكتب رئيس الشُرطة في الدور الخامس، استجوب الرئيس أندرو رادميكر وتوم بوتيلير مساعد المُدَّعي العام للمنطقة كريستوفر آنوين البالغ من العمر خمس عشرة سنة. كان آنوين الذي يرتدي سراويل من الچينز بهت لونه، وتي شيرت تُلطِّخه الشحوم، وحذاء طويل الرقبة ممَّا يرتديه المُهندسون يبكي. اختار رادميكر وبوتيلير استجواب هذا الفتى تحديدًا لأنهما حدَّدا بدِقَّة أنه الحلقة الضعيفة في السلسلة.

– «لنحك الحكاية من البداية مرَّة أخرى»، هكذا قال بوتيلير في مكتبه في الوقت نفسه تقريبًا الذي تفوَّه فيه چيفري ريفز بالعبارة ذاتها أسفله بطابقين.

قال إنوين مُنتحبًا: «لم نقصد قتله. ما حدث كله حدث بسبب القُبَّعة. لم نُصدِّق أنفسنا عندما رأيناه ما زال يضع القُبَّعة عليه بعد ما حذَّره ويبي في المرَّة الأولى كما عرفتم. أظنُّ أننا أردنا تخويفه فحسب».

قاطعه الرئيس رادميكر قائلًا: «بسبب ما قاله».

– «أجل».

– «ما قاله إلى چون جارتون، عصر يوم السابع عشر».

انفجر آنوين في نوبة جديدة من البكاء: «أجل، ما قاله إلى ويبي. لكننا حاولنا إنقاذه عندما رأيناه في مأزق... أو هكذا فعلت أنا وستيڤ دوباي على الأقل... لم نكن ننتوي قتله قط».

قال بوتيلير: «كفاك يا كريس، لا تُلقي إلينا بهذا الهُراء. لقد ألقيتم بالشاذ الصغير إلى القناة».

- «أجل، لكن..».

- «وقد تعاون ثلاثتكم واعترفتم بالحقيقة. أنا وحضرة الرئيس رادميكر نُقدِّر شجاعتكم هذه. أليس كذلك يا آندي؟».

- «بالطبع. الاعتراف بالجُرم يتطلَّب رجالًا بحق يا كريس».

- «لذا لا تُفسد كل شيء بالكذب الآن. لقد قصدتم إلقاءه في القناة من اللحظة الأولى التي رأيتموه يخرج فيها مع عشيقه اللوطي من ملهى فالكون، أليس كذلك؟».

احتجَّ آنوين بشِدَّة: «لا!».

أخرج بوتيلير علبة مارلبورو من جيب قميصه ووضع واحدة منها في فمه، ثم عرض العلبة على كريس: «سيجارة؟».

سحب آنوين واحدة، ووجد بوتيلير نفسه مُضطَّرًا لمُطاردة طرفها بعود الثقاب كي يشعلها له بسبب الطريقة التي واصل بها فم آنوين في الارتعاش.

سأله رادميكر: «لكن متى لاحظتم أنه كان يرتدي تلك القُبَّعة؟».

سحب آنوين نفسًا عميقًا من لفافة التبغ، وأحنى رأسه بزاوية حادة إلى أن سقط شعره الدهني الناعم على عينيه، ونفث الدُخان من أنفه الذي تناثرت على سطحه الرؤوس السوداء.

- «نعم». قالها بصوتٍ خفيض جدًّا يكاد لا يُسمع.

انحنى بوتيلير إلى الأمام، والتمعت عيناه البُنِّيتان وشاعت الشراسة في وجهه، لكن صوته خرج رقيقًا: «ماذا تقول يا كريس؟».

- «قلت نعم. أظنُّ ذلك. لقد أردنا إلقاءه، لكن ليس قتله».

ثم نظر إليهما بوجهٍ مُرتعد وبائس وما زال غير قادرٍ على استيعاب التغيُّرات الهائلة التي ضربت حياته منذ أن غادر منزله لتزجية الوقت، والمشاركة في الليلة الأخيرة من مهرجان أيَّام قناة ديري الملاحية برفقة اثنين من أصدقائه في الساعة السابعة والنصف مساء ليلة أمس.

قال مُكرِّرًا: «ليس لقتله، وذلك الرَّجُل الذي كان موجودًا أسفل الجسر... ما زلتُ لا أعلم من هو».

قال رادميكر بلا اكتراث حقيقي: «أيُّ رَجُلٍ هذا؟». لقد سمعا هذا الجزء من الرواية أيضًا، ولم يصدقهُ أيُّهما؛ لأن عاجلاً أو آجلًا، كل من يُتَّهم بجريمة قتل دائمًا ما يزجُّ بذلك الرَّجُل الآخر. حتَّى إن بوتيلير أطلق اسمًا على هذه الظاهرة: لقد سمَّاها «مُتلازِمة الرَّجُل الأكتع»، بعد أن شاهد ذلك المسلسل التليفزيوني القديم: الهارب.

قال إنوين مُرتجِفًا: «الرَّجُل الذي يرتدي حُلَّة مُهرِّج. الرَّجُل الذي يحمل البالونات».

3

سجَّل مهرجان أيَّام قناة ديري الملاحية الذي أُقيمت فاعلياته من 15 يوليو إلى 21 يوليو نجاحًا باهرًا، هكذا اتَّفق معظم سُكَّان ديري. لقد حقَّق أمورًا عظيمة لمعنويات المدينة وصورتها... وصندوق خزانتها أيضًا. أُقيم المهرجان لمُدَّة أسبوع بمناسبة مرور مائة عام على افتتاح القناة التي تجري عبر وسط المدينة. هذه القناة هي التي مَهَدت الطريق بشكلٍ كامل أمام ديري كي تزدهر في تجارة الأخشاب في السنوات من 1884 إلَى 1910.. كانت القناةُ ما أهدى ديري سنوات الانتعاش.

ارتدت المدينة أبهى زينتها من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب. سوُّيت الوهدات المُتناثرة في الطرق -التي أقسم بعض السكَّان أنها لم تُرقَّع طوال عشر سنوات- بأناقة بسطح الأرض. جُدِّدت المباني من الدَّاخل، وأُعيد طلاؤها من الخارج. صُنفِرت رسوم الجرافيتي النابية في حديقة باسي ومُسحت عن الدكك والحوائط الخشبية للممشى المُظلَّل الذي يعلو القناة والمعروف بجسر القُبُلات، والتي كان معظمها شعارات باردة المنطق مُعادية للمثليين جنسيًا مثل: **اقتلوا الشواذ أو الإيدز عقاب من الله يا ربائب الجحيم الشواذ!!**

نُصِبَ مُتحف أيَّام القناة في واجهات ثلاثة متاجر خاوية في وسط

المدينة، وامتلأ بالمعروضات التي وفَّرها مايكل هانلون، أمين المكتبة المُقيم والمُؤرِّخ الهاوي. أعارت أقدم عائلات المدينة أثمن كنورزها للمُتحف بلا مُقابل.. وطوال الأسبوع مُدَّة المهرجان، دَفَعَ قرابة أربعين ألف زائر ربع دولار عن الفرد لرؤية خليطٍ من قوائم طعام عتيقة تعود إلى العقد 1890، وحبال حطَّابين، وفؤوس، وخطاطيف تعود إلى العقد 1880، وألعاب أطفال من العشرينيات، وما يزيد على ألفي صورة وتسع بكرات من فيلم وثائقي عن الحياة في ديري خلال المئة عام الأخيرة.

المُتحف كان برعاية جمعية سيِّدات ديري، وقد اعترضت النسوة على بعض المعروضات التي اقترحها هانلون (كمقعد تقييد المُشرَّدين سيئ السُمعة من الثلاثينيات) وبعض الصور (مثل تلك تُظهِر أفراد عصابة برادلي بعد تبادل إطلاق النار الشهير). لكن الجميع اتَّفق أن المُتحف نجح نجاحًا باهرًا، ولم يكن ثمَّة من يرغب في رؤية تلك الأشياء الدموية القديمة على أيِّ حال. من الأفضل كثيرًا إبراز الإيجابيات والتخلُّص من السلبيات، كما تقول الأغنية القديمة.

أيضًا نُصِّبت خيمة عملاقة مُخطَّطة للمُرطِّبات والمأكولات الخفيفة في حديقة ديري، وأُقيمَت الاحتفالات الموسيقية بها كل ليلة. أما في حديقة باسي، أُقيمت مدينة ملاهٍ مؤقَّتة بألعابٍ قدَّمتها شركة سموكيز لأفضل العروض ومسابقات أدارها أهالي البلدة. خُصِّص ترام ليجوب الأماكن الأثرية في المدينة كل ساعة على مدار الساعة، وينهي رحلته عند آلة إدرار المال المُبهجة والونيسة هذه.

كان الخيمة هي المكان الذي فاز فيه أدريان ميلون بالقُبَّعة التي تسبَّبت في مقتله لاحقًا. القُبَّعة الورقية التي تعلوها زهرة ومطبوع عليها عبارة تقول: أنا ♥ ديري!

4

– «أنا مُتعَب».

هكذا قال چون «ويبي» جارتون. مثل رفيقيه، كان يُقلِّد بروس سبرينجستين[1] في طريقة لبسه دون أن يعي ذلك، لكن إذا سُئِل عن رأيه

(1) مُلحن وكاتب أغانٍ أمريكي شهير ولد سنة 1949، يُلقَّب في الولايات المتحدة بلقب «ذا بوس».

فيه، فرُبَّما سينعت سبرينجستين بالمُخنَّث أو الشاذ، وبدلًا من ذلك سيُجاهر بإعجابه بفرق موسيقى الميتال العنيفة «الرائعة» مثل دِف ليبارد، وتويستد سيستر، وچوداس بريست. كانت أكمام قميصه الأزرق مُنتزعة، كاشفة عن ذراعين عضليتين، وشعره البُنِّي الكثيف يسقط على إحدى عينيه.. هذه اللمسة الأخيرة تحديدًا كانت أقرب لچون ميلنكامب عن سبرينجستين. كانت الوشوم الزرقاء تملأ ذراعيه: مجموعة من الرموز الغامضة التي بدا كأنها رُسِمت بواسطة طفل.

- «لا أريد أن التحدُّث أكثر من ذلك».

قال بول هيوز: «فقط أخبرنا بما حدث عصر الثلاثاء في المعرض». كان هيوز مُتعبًا ومصدومًا ومُستاءً من هذه الجريمة النكراء برُمَّتها، وأخذ يُفكِّر مرارًا وتكرارًا أن الأمر بدا وكأن مهرجان أيَّام قناة ديري الملاحية قد انتهى بالحدث الختامي الذي يعلمه الجميع مُسبَّقًا بشكلٍ أو بآخر، لكن لم يتجرَّأ أحدهم على وضعه في لائحة فاعليات المهرجان اليومية، وإذا كان هذا قد حدث، فلا بُدَّ أنه كان سيبدو كالتالي:

السبت، 9 مساءً: الحفلة الموسيقية الختامية بمشاركة فرقة مدرسة ديري الثانوية، وفرقة موسيقى الحلَّاقين الرُباعية: ميلو-مين.

السبت، 10 مساءً: عرض الألعاب النارية الكبير.

السبت، 10:35 مساءً: تضحية طقسية بأدريان ميلون تختتم مهرجان أيَّام القناة.

أجاب ويبي: «اللعنة على المعرض».

- «فقط احك ما قلته لميلون، وما قاله لك».

أشاح ويبي بعينيه إلى أعلى ضَجِرًا: «أوه، يا للمسيح».

- «هلم يا ويبي». قالها رفيق هيوز.

أشاح ويبي بعينيه مرَّة أخرى، ثم بدأ يحكي من جديد.

5

شاهد جارتون كلًّا من ميلون وهيجارتي يمشيان الهُوينَى في دلالٍ بينما

ذراع كلٍّ منهما تلتف حول خصر الآخر، ويضحكان كاثنين من الفتيات. في الوهلة الأولى ظنَّ أنهما فتاتان بالفعل. ثم تعرَّف بعدها ميلون الذي كان قد لفت نظره من قبل. في أثناء تحديقه إليهما، رأى ميلون يلتفت إلى هيجارتي... وانخرط الاثنان في قُبلةٍ سريعة.

صاح ويبي مُشمئزًّا: «أوه يا رفاق، سأتقيّأ».

كان كريس آنوين وستيف دوباي برفقته. عندما أشار لهما ويبي أن هذا ميلون، قال ستيف دوباي إن الشاذ الآخر اسمه دون كذا، وأنه أوصل من قبل مُراهقًا من مدرسة ديري الثانوية بسيَّارته مجانًا، وحاول أن يفعلها معه.

بدأ كلٌّ من ميلون وهيجارتي في التحرُّك ناحية الشباب الثلاثة، مُبتعدين عن كابينة لُعبة ارم الطَّوق حتَّى تفوز، ومُتَّجِهَين ناحية مخرج مدينة الملاهي. سيذكر ويبي جارتون لاحقًا لضابطي الشُرطة هيوز وكونلي أن «كرامته الوطنية» قد جُرِحَت بسبب مرأى هذا الشاذ اللعين يرتدي قُبَّعة ترفع شعار أنا ♥ ديري. كانت تلك القُبَّعة الورقية السخيفة تقليدٌ للقُبَّعات العالية السوداء، ومزوَّدة بوردة كبيرة تبرزُ من طرفها العلوي وتومئ مُتهدِّلةً في كل الاتِّجاهات. سخافة القُبَّعة بدا أنها أهانت كرامة ويبي الوطنية رُبَّما أكثر من شعارها.

مرَّ ميلون وهيجارتي من أمامهم كلاهما يحيط خصر الآخر بذراعه، فصاح ويبي جارتون قائلًا: «يجب أن أجعلك تأكُل تلك القُبَّعة أيُّها الحمار اللعين قاطع الطريق!».

التفت ميلون ناحية جارتون، ورمش بعينيه مُغازلًا: «إذا كنت تريد شيئًا لتأكله يا حُبي، فلديَّ شيء ألذّ بكثير من قُبَّعتي».

في هذه اللحظة كان ويبي جارتون قد قرَّر أنه سيُعيد ترتيب جُغرافية وجه هذا الشَّاذ بقبضته. ثمَّة جبالٌ سترتفع وقاراتٌ ستنجرف في وجه ميلون. لا أحد يُلمِّح أن ويبي قد يمتصُّ قضيبًا. لا أحد.

سار ويبي باتِّجاه ميلون. سعى هيجارتي صديق ميلون أن يسحب عشيقه بعيدًا، لكن ميلون لزم مكانه مُبتسمًا. لاحقًا، سيخبر جارتون الضابطين هيوز وكونلي أنه تيقَّن وقتها أن ميلون كان مُنتشيًا بمُخدِّرٍ ما، وقد كان كذلك بالفعل، أو هذا ما سيؤمِّن عليه هيجارتي عندما سيطرح الضابطان جاردنر

وريقز الفكرة أمامه. لقد كان مُنتشيًا من جراء التهام فطيرتين مقليتين مُحلَّاتين بالعسل ابتاعهما من خيمة المهرجان، وأكلهما على مدار اليوم، وبالتالي لم يكن قادرًا على إدراك الخطر الحقيقي الذي يمثله ويبي جارتون.

قال دون للضابطين: «لكن هذه طبيعة أدريان» ثم استخدم المنديل في مسح الدموع عن عينيه ملوِّثًا وجهه بالكُحل الذي يضعه «لم يكن بارعًا قط في أساليب التلوُّن الوقائية. كان واحدًا من أولئك الحمقى الذين يظنون أن الأمور ستنتهي على ما يُرام طوال الوقت».

كان ميلون سيُصاب بأذى بالغ وقتها -أو بعدها- إن لم يشعر جارتون بشيءٍ ينخز كوعه من الخلف. كانت هرَّاوة شرطي. استدار الفتى ليجد الضابط فرانك ماكن واقفًا خلفه.. عُنصر آخر من خيرة عناصر شُرطة ديري.

وجَّه ماكن كلامه إلى جارتون قائلًا: «لا تخف يا صديقي الصغير. فقط اهتم بشؤونك الخاصة واترك هذين الشابين المُخنَّثين في حالهما. احظ ببعض المرح».

سأله جارتون ثائرًا: «ألم تسمع ما قاله لي؟».

اقترب آنوين ودوباي منه في هذه اللحظة، بعدما اشتمَّ كلاهما رائحة متاعب في الأجواء، وحاولا حثّ جارتون على المُضي قُدُمًا عبر الطريق المتوسِّط، لكن جارتون أبعد أيديهما عن كتفيه في تجاهل، وكان سيعالجهما بقبضتيه إذا ما أصرَّا في إلحاحهما. لقد تلقَّت رجولته إهانة بالغة، وقد شعر الفتى أنه يتحتَّم عليه الثأر لها. لا أحد يُلمِّح أن ويبي قد يمتص قضيبًا. لا أحد.

أجابه ماكن: «لا أظنُّ أنه نعتك بأيِّ شيءٍ، وأعتقد أنك من تحدَّث إليه أوَّلًا. تحرَّك الآن، لا أريد الاضطرار إلى تكرار كلامي مُجدَّدًا».

- «لقد نعتني بالشاذ!».

سأله ماكن وقد بدا مُهتمًا بصدق: «وهل أنت قلق من أن تكون كذلك بالفعل؟».

غلت الدماء في عروق جارتون، واستحال وجهه إلى الأحمر القاني.

خلال هذا التراشُق، حاول هيجارتي بيأسٍ مُتزايد سحب أدريان ميلون بعيدًا عن المشهد، والآن -أخيرًا!- بدأ ميلون يستجيب.

- «باي باي يا حُبِّي». قالها أدريان بغيظٍ من فوق كتفه.

قال ماكن: «اخرس يا ذا المؤخِّرة الطرية. امضِ من هنا».

اندفع جارتون في اتِّجاه ميلون، لكن ماكن أمسك به.

قال ماكن: «أستطيع الزجُّ بك في الحبس يا صديقي.. ووفقًا للطريقة التي تتصرَّف بها، رُبَّما لن تكون هذه فكرة سيئة».

صاح جارتون في اتِّجاه الحبيبين المُغادرين: «المرَّة القادمة سأجعلك تحزن». التفت الشابان رأسًا إليه وهو يُكمل: «وإذا رأيتك ترتدي هذه القُبَّعة سأقتلك! هذه المدينة ليست في حاجة إلى الشواذ أمثالك».

رفع ميلون يده اليسرى دون أن يلتفت إليه وحرَّك أصابعه المطلية باللون الأحمر الكرزي في ميوعة، ثم زاد من دلال خطواته، فاندفع جارتون صائحًا مُجدَّدًا.

قاطعه ماكن بهدوء: «كلمة زائدة أو حركة أخرى وستبيت في الحجز. ثق بي يا غلام، أنا أعني ما أقول تمامًا».

قال كريس آنوين: «كفاك يا ويبي. اهدأ».

سأل ويبي الشُرطي مُتجاهلًا كريس وستيف بالكامل: «هل تحب أمثال هذين الرَّجُلين؟ هه؟».

قال ماكن: «من بين مُمارسي الجنس، فأنا طبيعي. أما ما أستحسنه وأرغبه حقًّا فهو الهدوء والسلام، وأنت تُخرِّب ما أحبه يا ذا الوجه الباثر الشبيه بقرص البيتزا. الآن، هل تريد أن تعود بصحبتي أم ماذا؟».

قال ستيف دوباي بصوتٍ خفيض: «هلم يا ويبي. لنذهب ونبتاع بعض الهوت دوج».

مضى ويبي معهما، وهو يُعدِّل من سوء هندام قميصه بحركاتٍ مُغالٍ فيها، ويزيح خصلات الشَّعر من فوق عينيه. ماكن -الذي أدلى بتصريح بدوره في الصباح الذي تلى وفاة ميلون- قال: آخر شيء سمعته يقوله بينما كان يبتعد هو وصديقاه هو: «المرَّة القادمة التي سأراه فيها سيتألَّم بحق».

6

قال ستيف دوباي للمرَّة الثالثة: «أرجوك، أريد الاتِّصال أمي»، ثم أضاف:

«يجب أنا أجعلها تُهدِّئ زوج أمي، وإلا ستحدُث مُباراة مُلاكمة جحيمية عند عودتي إلى المنزل».

قال له الضابط أڤارينو: «بعد قليل».

كان أڤارينو وزميله بارني موريسون يعلمان أن ستيڤ دوباي لن يعود إلى منزله الليلة، ورُبَّما لليالٍ عديدة أخرى قادمة. يبدو أن الفتى لا يُدرك مدى خطورة الأمر، ولن يندهش أڤارينو عندما سيعلم لاحقًا أن دوباي سيترك المدرسة في سن السادسة عشرة. في هذا الوقت، كان لا يزال مُقيَّدًا في مدرسة ووتر ستريت الثانوية، وفقًا لاختبار وكسلر الذي خاضه الفتى في أثناء إعادته الثالثة للصف السابع، فإن مُعدَّل ذكائه يبلغ 68 درجة.

دعاه موريسون للمواصلة: «احكِ لنا ما حدث عندما شاهدتم ميلون يخرج من ملهى فالكون».

– «أوه يا رجل، لا أحبِّذ ذلك».

سأله أڤارينو: «لِمَ؟».

– «لقد تحدَّثت أكثر من اللازم بالفعل».

قال أڤارينو: «لقد أتيت هنا لتتكلَّم. أليس كذلك؟».

– «حسنًا... أجل... لكن».

قال موريسون بوداعة وهو يجلس جوار دوباي ليناوله لفافة تبغ: «اسمعني، هل تظن أنني وتشيك هنا نحب الشواذ؟».

– «لا أعرف...».

– «هل نبدو وكأننا من النوع الذي يحب الشواذ؟».

– «لا، لكن...».

قال موريسون بجدِّية: «نحن أصدقاؤك يا ستيڤو، وصدقني، أنت وكريس وويبي في حاجة إلى كل الأصدقاء المُمكنين في هذا التوقيت الصَّعب. فغدًا سيصرخ كل مكلوم في هذه المدينة مُطالبًا بدمائكم يا رفاق».

شاع القلق في ملامح دوباي. أڤارينو، الذي كان قادرًا على قراءة الأفكار في عقله السطحي الجبان الصغير، شكَّ أنه يُفكِّر في زوج أمه مُجدَّدًا، ومع أن

أڤارينو لم يكن يحمل أيَّ حب تجاه مجتمع مثليي الجنس الصغير في ديري، ومثل أيِّ شُرطي آخر في البلدة سيستمع برؤية ملهى فالكون يغلق أبوابه إلى الأبد، إلا أنه كان سيُسرُّ لاصطحاب دوباي إلى المنزل بنفسه وتقييده من ذراعيه في الوقت الذي يوسع فيه زوج أمه هذا التَّافه ضربًا. لم يكن أڤارينو يحب الشواذ، لكن هذا لا يعني أنه كان مُقتنعًا بوجوب تعذيبهم وقتلهم. لقد مُزِّق ميلون بوحشية. عندما سحبوا جثته من أسفل جسر القناة، كانت عيناه مُتَّسعتين ومنتفختين من الرعب، وهذا الغلام الجالس أمامه ليس لديه أدنى فكرة عمَّا ساهم في حدوثه.

كرَّر ستيڤ قائلًا: « لم نكن نقصد إيذاءه». كان هذا مهربه الاحتياطي عندما يختلط عليه الأمر قليلًا.

قال أڤارينو بنبرة جادة: «لهذا تحتاج أن تكون صادقًا معنا. احك لنا حقيقة ما حدث، ورُبَّما يُعضِّد هذا من موقفك، أليس هذا صحيحًا يا بارني؟»".

وافقه موريسون: «بلى، تمامًا».

حثَّه أڤارينو بلطف: «اسرد القِصَّة مرَّة أخرى، ما رأيك؟»".

- «حسنًا...».

قالها ستيڤ، ثم بدأ يتكلَّم ببطء.

7

عندما افتُتِحت حانة فالكون عام 1973، ظنَّ إلمر كورتي أن معظم زبائنه سيكونون من راكبي الحافلات؛ هذا لأن محطة الحافلات المجاورة كانت تخدم ثلاثة خطوط مختلفة: ترايلوايز، وجراوند-هاوند، ومُقاطعة آروستوك. ما فشل كورتي في إدراكه أن عددًا كبيرًا من رُكَّاب تلك الحافلات قوامه سيِّدات أو عوائل تُجرجر في ذيولها أطفالًا صغارًا. بينما الرُكَّاب الآخرون فكثيرٍ منهم أبقوا على زجاجات الخمر التي يحملونها في أكياسٍ بُنِّية ولم يغادروا الحافلة قط. أما الذين يترجَّلون ويدلفون إلى الحانة بالفعل فعادةً هم الجنود الذين لم يرغبوا في أكثر من كوب أو كوبين من البيرة. في الحقيقة، لا يمكنك الانغماس جيِّدًا في الشراب في أثناء استراحة توقُّف مُدَّتها عشر دقائق.

بدأ كورتي في إدراك بعض هذه الحقائق البديهية في عام 1977، لكن بحلول ذلك الوقت، كان أوان التراجع قد فات، وكان غارقًا حتى صدره في الأذونات والفواتير، ولم يكن أمامه سبيل يستطيع من خلاله التخلُّص من ديونه. طرأت فكرة إحراق المكان برُمَّته للحصول على مبلغ التأمين على ذهنه، لكنه افترض أنه إذا لم يتعاقد مع مُحترف لإشعال المكان فلسوف يُقبض عليه بالجرم المشهود... وهو لم يكن لديه أدنى فكرة أين يتسكَّع مُشعلو الحرائق المُحترفون على أيٍّ حال.

قرَّر كورتي في فبراير من ذلك العام أنه سيمهل مشروعه إلى الرابع من يوليو؛ إذا لم تبدأ الأمور في التحسُّن عندها، فلسوف يخرج من باب الحانة ويستقلُّ إحدى حافلات شركة جراوند-هاوند، ويذهب لرؤية كيف تجري الأمور في فلوريدا.

لكن خلال الشهور الخمسة التالية، بدأ نوع من الازدهار المُدهش يعمُّ الحانة التي طُليت حوائطها الداخلية باللونين الأسود والذهبي وزُيِّنت بالطيور المُحنَّطة (كان شقيق إلمر كورتي مُحنِّطًا هاويًا مُتخصِّصًا في الطيور، وقد ورث إلمر أغراضه بعد وفاته). فجأة، بدلًا من تقديم ستين كوبًا من البيرة وصب رُبَّما عشرين شرابًا في الليلة، صار إلمر يُقدِّم في الليلة ثمانين كوبًا ويصُب مئة شراب... مئة وعشرين... وأحيانًا مئة وستينًا.

كان زبائنه يافعين، ومهذَّبين، وجميعهم- حصريًّا بالكاد- من الذكور. كثيرٌ منهم كانوا يرتدون ملابس سافرة، لكن تلك كانت السنوات التي صارت فيها الملابس السَّافرة أمرًا طبيعيًا، وظلَّ إلمر كورتي لا يدرك أن روَّاد حانته بشكلٍ حصريٍ بالكاد كانوا مثليي الجنس إلا في عام 1981 أو نحو ذلك. لا بُدَّ أنَّ مواطني ديري كانوا سيضحكون ويقولون إن إلمر كورتي يظنهم أبناء البارحة لو كانوا سمعوه يقول هذا. لكن ادعائه كان صحيحًا تمامًا، مثلما حدث مع زوجته الخائنة وكان هو بالذات آخر من يعلم... وفي الوقت الذي عَلِمَ فيه بالأمر، لم يُلقِ بالًا. أدرَّت الحانة ربحًا وفيرًا، وبينما كان ثمَّة أربع حانات أخرى مُزدهرة في ديري، فإن حانة فالكون الوحيدة التي لم يُدمِّر روَّادها الهائجون المكان برمَّته بانتظام. من ناحية، لم توجد نساء ليتنافس

الرجال عليهن؛ وأولئك الرجال روُّاد حانته -شواذ أو غير شواذ- يبدو أنهم تعلَّموا سر التعايش بسلام جنبًا إلى جنب بطريقة لم يتوصَّل إليها نظراؤهم المُغايرون جنسيًا.

ما إن أصبح كورتي واعيًا بالميول الجنسية لزبائنه الدائمين، بدأ يسمع قصصًا صادمة عن الفالكون في كل مكان. كانت هذه القصص تتداول لسنواتٍ، لكن قبل عام 81 لم يكن كورتي ببساطة قد سمعها. الرواة الأكثر حماسة لتلك القصص -هكذا بدأ يُدركِ- كانوا رجالًا لن يعرجوا أبدًا على الحانة بسبب خوفهم من أن تختفي كل عضلات أذرعهم، أو شيء من هذا القبيل.. ومع ذلك بدوا مُطَّلعين على كل ما يحدث داخلها.

وفقًا لهذه القصص، يمكنك زيارة الحانة في أيِّ ليلة لترى رجالًا يرقصون مُلتصقين ببعضهم، ويفركون قضبانهم معًا جهرًا على ساحة الرقص.. رجالًا يتبادلون القُبل الفرنسية المطوَّلة على المَشرب.. رجالًا يمتص بعضهم أعضاء بعض في دورات المياه. قصص أن ثمَّة غرفة خلفية مُفترضة يمكنك الذهاب إليها إن شئت لتمضي بعض الوقت في «برج السُلطان»؛ حيث يقبع رجلٌ كبير السن وضخم ويرتدي زيًّا نازيًا ويبقي على ذراعه مدهونًا جيِّدًا بمادَّة مُزلِّقة إلى مفصل كتفه، وسيكون سعيدًا للاعتناء بك بعض الوقت.

في الحقيقة، أيٌّ من هذه الأمور لم يكن صحيحًا. عندما كان الناس الذين ينتابهم الظمأ يأتون من محطة الحافلات لشرب البيرة أو الخمر، لم يحدث أن استشعروا شيئًا خارجًا عن المألوف في الفالكون على الإطلاق. المكان يكتظ بالرجال، هذا أكيد، لكن هذا لم يكن يختلف عن آلاف حانات العُمَّال المتناثرة في طول البلاد وعرضها. زبائن الحانة مثليو الجنس بالفعل، لكن المثلية الجنسية ليست مُرادفًا للغباء، وهؤلاء عندما كانوا يرغبون في بعض المجون يذهبون إلى بورتلاند.. أما عندما يرغبون في كثيرٍ من المجون -مجون من النوع العارم أو مجون على المرأى والسَّمع- فيذهبون إلى نيويورك أو بوسطن. إن ديري بلدة صغيرة.. بلدة إقليمية.. ومجتمع مثليي ديري الصغير كان يتفهَّم الظِّل الذي يعيشون أسفله جيِّدًا.

اعتاد دون هيجارتي التردُّد على الفالكون لمدة سنتين أو ثلاث، وفي

ليلة من شهر مارس 1984 ظهر في المكان بصحبة أدريان ميلون. قبلها، كان هيجارتي من النوع كثير المواعدة، ونادرًا ما أتى مع المُرافق نفسه خمس أو ست مرَّات. لكن مع نهاية شهر أبريل بدا الأمر واضحًا لإلمر كورتي -الذي كان يهتم أقل القليل بمثل تلك الأمور- أن علاقة هيجارتي وميلون وطيدة نوعًا.

يعمل هيجارتي رسَّامًا هندسيًا في شركة هندسية في بانجور. أما أدريان ميلون فكان كاتبًا حُرًّا ينشر في أيٍّ وكل مكانٍ متاح.. مجلَّات خطوط الطيران، والمجلَّات التبشيرية، والمجلات الإقليمية، وملاحق الأحد، ومجلَّات البريد الجنسي؛ كما كان يعمل على كتابة رواية، لكنه رُبَّما لمن يكن جادًّا حيالها.. فقد استمر عمله عليها منذ أن كان في عامه الدراسي الثالث في الجامعة، وهذا كان منذ اثنتي عشرة سنة.

كان ميلون قد حضر إلى ديري لكتابة مقالٍ عن القناة، بتكليفٍ من نيو إنجلاند بايوايز، وهي مطبوعة لامعة تصدر نصف شهرية في كونكورد، وافق ميلون على هذه المَهمَّة لأنها ستسمح له باستنزاف أموال من بايوايز تحت بند مصروفات طوال ثلاثة أسابيع كاملة، وذلك يتضمَّن إقامة في غُرفة جميلة بفندق ديري تاون هاوس.. بينما هو في الواقع لن يستغرق سوى خمسة أيَّام تقريبًا لجمع كل البيانات التي سيحتاجها في كتابة المقال. في خلال الأسبوعين الآخرين، يمكنه جمع مواد صحفية أخرى تكفي لكتابة نحو أربع مقالات محلِّية إضافية.

لكن في الأسبوع الثالث من إقامته قابل ميلون دون هيجارتي، وبدلًا من العودة إلى بورتلاند بعد انتهاء مهمَّة الأسابيع الثلاثة، عثر لنفسه على شقَّة صغيرة في جادة كوسوث، وعاش فيها ستَّة أسابيع لا غير. بعدها انتقل للعيش مع دون هيجارتي.

8

ذلك الصيف -هكذا أخبر هيجارتي كلًا من هارولد جاردنر وچيف ريڤز- كان أسعد صيف في حياته؛ وكان عليه أن يأخُذ حذره، هكذا قال..

كان عليه إدراك أن الله يضع بِساطًا تحت أرجل الرِّجال أمثاله فقط كي يسحبه من أسفلهم بغتةً.

كان الظِّلُّ المُخيِّم الوحيد، هكذا قال، هو افتتان أدريان وردَّة فعله المُناصرة تمامًا تجاه ديري. كان لديه تيشيرت مطبوع عليه ولاية مين لا بأس بها، لكن ديري رائعة! وكانت لديه سُترة فريق مدرسة ديري تايجرز الثانوية، وبالطبع كانت لديه تلك القُبَّعة. ادَّعى أدريان أنه وجد المناخ هنا حيويًّا ومُحفِّزًا للإبداع. رُبَّما يوجد جزء من الحقيقة في هذا الادِّعاء، فقد أخرج أدريان روايته القابعة في صندوق السيَّارة إلى النور لأوَّل مرَّة منذ عام كامل تقريبًا.

سأل جاردنر هيجارتي دون اكتراث حقيقي، فقط لحثِّه على مواصلة استرساله: «هل بدأ العمل فيها بالفعل إذًا؟».

– «نعم. كان ينهب في الكتابةِ نهبًا. قال إنها قد تكون رواية رديئة، لكنها لن تكون رواية رديئة غير مُكتملة بعد الآن. كان يتوقَّع الانتهاء منها بحلول عيد ميلاده، في أكتوبر. بالطبع لم يكن يعلم حقيقة ديري. كان يظن أنه يعرف، لكنه لم يلبث هنا طويلًا بما يكفي ليستنشق نفحة من ديري الحقيقية. لم أنفك عن محاولة إخباره بتلك الحقيقة، لكنه لم يكن يستمع».

سأله ريڤز: «وما حقيقة ديري يا دون؟».

– «إنها عاهرة ميِّتة تتلوَّى الديدان خارجة من فرجها».

حدَّق الضابطان إليه بذهولٍ صامت.

واصل هيجارتي: «إنها مكانٌ سيئ.. مَجرُور. هل تعني أنكما يا رفيقان لا تعلمان ذلك؟ عِشتُما طوال حياتكما هنا ولا تعلمان ذلك؟».

لم يجب أيُّهما، وبعد هنيهة قصيرة، واصل هيجارتي قصَّته.

9

قبل اللحظة التي دخل فيها ميلون حياته، كان دون يُخطِّط لمُغادرة ديري. لقد مكث هنا ثلاث سنوات، غالبًا بسبب أنه وقَّع عقد إيجار طويل الأجل لشقَّة بأفضل إطلالة على نهرٍ في العالم؛ لكن عقد الإيجار قد قارب على الانتهاء الآن، وهذا أشعر دون بالسعادة. لا مزيد من الانتقالات الطويلة من

وإلى بانجور. لا مزيد من المشاعر الغريبة التي تنتابه. ذات مرَّة قال لأدريان إنه دائمًا ما يشعُر أنها الساعة الواحدة ظهرًا هنا في ديري. رُبَّما ظنَّ أدريان أن ديري مكان رائع، لكنها دائمًا ما أخافت دون. لم يكن الأمر سببه النفور ورهاب المثليين الذي يسيطر على أهل البلدة؛ ذلك السلوك الذي يُعرب عنه وُعَّاظ المدينة بالقدر نفسه الذي تُعرب عنه رسوم الجرافيتي والعبارات المُسيئة في حديقة باسي، لكن هذين هما الشيئين اللذين استطاع وضع يده عليهما، وقد ضحك أدريان من كلامه.

ثم قال له: «دون، كل بلدة في أمريكا تضم جماعة من كارهي المثليين. لا تخبرني أنك لا تعلم هذا. فنحن -قبل كل شيء- نعيش عصر روني مورون وفيليس هاوسفلاي».

- «تعال معي إلى حديقة باسي».

هكذا أجابه هيجارتي بعدما وجد أن أدريان يعني ما يقول حقًّا، وما يقوله هو إن ديري ليست أسوأ من أيِّ مدينة متوسِّطة الحجم في البقاع النائية. «أُريد أن أُريك شيئًا يا حبيبي».

ذهبا معًا بالسيَّارة إلى حديقة باسي، حدث هذا في منتصف يونيو، قبل شهر من مقتل أدريان، هكذا أخبر هيجارتي الضابطين. اصطحب دون عشيقه إلى عتمة ظلال جسر القُبُلات والرَّائحة الكريهة الغامضة، وأشار إلى أحد العبارات المرسومة على الحائط.

اضطر أدريان إلى إشعال عود ثقاب وتسليطه أسفل الكتابة مباشرةً كي يتمكَّن من الرؤية.

أرني قضيبك أيُّها الشَّاذ وسأقطعه لك.

قال دون بهدوء: «أعرف كيف يشعر الناس إزاء المثليين. لقد أُبرِحتُ ضربًا في موقف شاحنات في دايتاون في مُراهقتي. ثُلَّة من الشباب أشعلت النيران في حذائي خارج متجر شطائر، بينما كان ذلك الشُرطي ذو المؤخِّرة السمينة يجلس داخل سيَّارة الدورية ويضحك. لقد رأيت الكثير... لكنني لم أرَ شيئًا كهذا. انظر هنا. تفحَّص هذا».

أضاء عود ثقاب آخر تحت عبارة أخرى: دِسّوا أظافركم في أعين جميع الشواذ (من أجل الرَّب)!

- «أيًّا كان من يكتب هذه العِظات فلديه اختلال عميق في أعماق عقله. سأكون في حالٍ أفضل لو علمتُ أن هذا مُجرَّد شخص واحد.. مُختلٌ وحيد.. لكن انظر...» حرَّك دون ذراعه بإشارة غامضة إلى طول جسر القُبُلات «يوجد كثيرٌ من هذه الأشياء... وأنا لا أُصدِّق أن شخصًا واحدًا قد فعل كل هذا. لهذا السَّبب أريد مُغادرة ديري يا أدي. ثمَّة أماكن كثيرة في ديري، وأناس كُثُر يقطنونها، يبدو أنهم يحملون اختلالًا عميقًا في أعماقهم».

- «حسنًا، فقط انتظر حتَّى أنتهي من روايتي، حسنًا؟ أرجوك؟ فقط انتظر إلى أكتوبر. أعدك، ليس بعده. الهواء هنا أفضل».

قال دون هيجارتي: «لم يكن المسكين يعلم أن الماء هو ما يجب أن يحذر منه».

10

انحنى كلٌ من توم بوتيلير ورئيس الشُرطة رادميكر إلى الأمام، دون أن يتحدَّث أيُّهما. كان كريس آنوين يجلس برأسٍ مُنكَّس، يتحدَّث بنبرة رتيبة إلى أرضية الغُرفة. كان هذا الجزء الذي يودَّان سماعه. هذا الجزء من القِصَّة الذي سيرسل اثنين على الأقل من أولئك الأوغاد إلى سجن توماستون.

قال إنوين: «لم يعد المعرض يُجدي نفعًا. كانوا يزيلون كل الألعاب المُثيرة بالفعل، تعرفان ما أقصد، الألعاب من شاكلة صحن الشيطان وقفزة المظلَّة.. وكانوا قد وضعوا بالفعل لافتة «مُغلق» على لُعبة السيَّارات المُتصادمة، ولم يتبقَّ شيءٌ مفتوح سوى ألعاب الأطفال. لذا واصلنا سيرنا بين الألعاب إلى أن شاهد ويبي كابينة ارم الطوَّق حتَّى تفوز ودفع خمسين سنتًا، ورأى تلك القُبَّعة التي كان الشَّاذ يرتديها وصوَّب عليها، لكنه لم يصبها قط، كان كلما أخطأها مال مزاجه إلى أن يسوء أكثر، تعرفان ما أعني؟ وستيف، ذلك الفتى الذي لا ينفك عن قول اهدأ في أيِّ مناسبة، مثل اهدأ يا هذا واهدأ يا صاح ولماذا

بحقِّ اللعنة لا تهدأ، تعرفان ما أقصد؟ لكنه كان غير ذي نفع لأنه تعاطى ذلك البرشام، تعرفان ما أقصد؟ لا أعلم النوع الذي تعاطاه. حبَّةً حمراء هي، رُبَّما حتَّى لم تكن من الممنوعات. لكنه استمر في إزعاج ويبي حتَّى ظننت أن ويبي سيصفعه حتمًا. أخذ يقول له، أنت لا تقدر حتَّى على الفوز بقُبَّعة ذلك الشَّاذ. لا بُدَّ أنك فاشل حقًّا إذا لم يكن في مقدورك الفوز بتلك القُبَّعة. لذا في النهاية أعطته السيِّدة جائزة رغم أن الطوق لم يُصبها، لأنها أرادت التخلُّص منَّا على ما أظنُّ. لا أعرف. رُبَّما لم تكن كذلك، لكنني أظنُّ ذلك. كانت الجائزة إحدى تلك الأشياء التي تُصدر أصواتًا، هل تعرفان ما أقصد؟ تنفخ فيها فتنتفخ وتنبسط وتُصدر صوتًا كصوت الضرطة، تعرفانها؟ كانت لديَّ واحدة منها من قبل. ابتعتها من أجل الهالوين أو رأس السَّنة أو مناسبة ما لعينة أخرى. ظننت أنها مُسلِّية حقًّا، لكنها ضاعت. أو رُبَّما سرقها شخصٌ ما من جيبي في فناء المدرسة اللعين، تعرفان ما أقصد؟ حسنًا إذًا، كانت الملاهي تُغلق أبوابها وكنا نسير خارجين منها بينما ستيف ما زال يُقرِّع ويبي لإخفاقه في الفوز بقُبَّعة ذلك الشَّاذ، ولم يكن ويبي يتحدَّث كثيرًا، ولقد علمت أن تلك علامة سيِّئة، لكنني كنت مخمورًا تمامًا، تعرفان ما أقصد؟ لذا علمت أنه يجب عليَّ تغيير الموضوع، لكن لم يكن في ذهني أيَّ موضوع، تعرفان ما أقصد؟ لذا عندما وصلنا إلى ساحة انتظار السيَّارات قال ستيف، إلى أين تريدون الذِّهاب؟ إلى المنزل؟ عندها ويبي قال، لنعرج أوَّلًا على حانة فالكون لنرَ ما إذا كان ذلك الشَّاذ في الجوار».

تبادل بوتيلير ورادميكر نظرة خاطفة، ثم رفع بوتيلير أحد أصابعه وأخذ ينقر وجنته به: رغم أن هذا الأحمق الذي يرتدي حذاءً طويل الرقبة لا يعرف ذلك، إلا أنه يتحدَّث الآن عن جريمة قتل من الدرجة الأولى.

– «لكنني قلت لا، يجب أن أعود إلى البيت؛ فسألني ويبي هل أنت خائف من المرور بحانة الشواذ؟ فقلت لا اللعنة! وستيف الذي كان ما زال مُنتشيًا أو شيئًا من هذا القبيل قال لنذهب ونسلخ جلود بعض الشواذ! لنذهب ونسلخ جلود بعض الشواذ! لنذهب ونسلخ...».

11

تزامن التوقيت بدقَّة شديدة جعلت الأمور تسوء بالنسبة إلى الجميع. خرج أدريان ميلون ودون هيجارتي من الفالكون بعدما احتسيا كوبين من البيرة، ومرَّا من جوار محطَّة الحافلات، ثم شابكا كفَّيهما معًا. لم يُفكِّر كلاهما في الأمر، فقط كان سلوكًا يفعلانه دائمًا. كانت الساعة العاشرة والثُّلث، عندما وصلا إلى الزاوية وانعطفا يسارًا.

جسر القُبُلات يبعد نحو نصف ميل مع اتِّجاه النهر من هنا، لكنهما انتويا عبور جسر الشارع الرئيس الذي يطل على مشهد أقل روعة بكثير. إن منسوب نهر الكِندوسكيج مُنخفضٌ كما هو مُعتاد في الصيف، ولم يكن ارتفاع مائه يزيد على أربعة أقدام وهو مُستمر في تهاديه المُمل حول ركائز الجسر الخرسانية. عندما مرَّت سيَّارة داستر من جوارهما (بداخلها رصد ستيڤ دوباي خروجهما من الفالكون، وأخذ يُشير إليهما مُبتهجًا)، كانا قد وصلا إلى حافَّة الجسر.

صاح ويبي جارتون: «اركن! اركن!». كان العاشقان قد مرَّا لتوِّهما أسفل أحد أعمدة الإنارة، وقد لاحظ ويبي أنهما يُشابكان يديهما. أشعَل المشهد الغضب في صدره... لكن ليس بالقدر الذي أشعلته القُبَّعة به. كانت الزهرة الورقية الكبيرة تومئ بجنون في كل اتِّجاه.

- «اركن عليك اللعنة!».

وقد نفَّذ ستيڤ رغبته.

سينكرُ كريس آنوين مُشاركته الفعَّالة فيما تبع ذلك، لكن دون هيجارتي سرد رواية مُختلفة. قال دون إن جارتون ترجَّل من السيَّارة بالكاد قبل أن تتوقَّف، وأن الاثنين الآخرين تبعاه سريعًا، وقد سمع هيجارتي ثرثرتهم، ولم تكن ثرثرة طيِّبة على الإطلاق. لن تحدث مُحاولة للتهكُّم أو السخرية الوقحة من أدريان هذه الليلة، وأدرك دون أنهما في ورطة حقيقية.

صاح جارتون: «أعطني هذه القُبَّعة. أعطني إياها أيُّها الشَّاذ».

بدأت أنفاس أدريان تُصفِّر من الخوف، وقال وهو على وشك البُكاء: «إذا فعلت، هل ستتركنا وشأننا؟»، وأخذ ينقل بصره من آنوين إلى دوباي إلى جارتون بعينين يملأهما الرعب.

- «فقط أعطني تلك اللعينة!».

ناولها أدريان إليه. أخرج جارتون مدية من جيب سراويله الچينز الأيسر وقطعها إلى نصفين، وفرك القطعتين في مؤخِّرة الچينز، ثم ألقاهما أرضًا ودهسهما بقدميه.

تراجع دون هيجارتي قليلًا إلى الوراء في أثناء ما كان انتباههم موزَّعًا بين أدريان والقُبَّعة. كان يبحث عن شُرطي، هكذا قال.

بدأ أدريان ميلون يتكلَّم: «الآن هلَّا تركتنا بمفـ...».

كان هذا حين لكمه جارتون في وجهه، ما دفعه إلى الخلف وجعله يرتطم بحاجز المُشاة الحديدي للجسر الذي يصل ارتفاعه إلى الخصر. صرخ أدريان ووضع يديه على فمه، بينما تدفَّقت الدماء من بين أصابعه.

صرخ هيجارتي: «أدي!»، واندفع أمامًا إليه، لكن دوباي اعترضه بساقه وأسقطه أرضًا، قبل أن يعالجه جارتون بركلة في معدته مُطيحًا به من فوق الممشى إلى أرضية الجسر. مرَّت سيَّارة بهم. اعتدل هيجارتي على رُكبتيه وصاح براكبها، لكنها لم تُبطئ.. وكما أخبر الضابطين جاردنر وريڤز بعدها، لم يلتفت سائقها حتَّى إليه.

قال دوباي: «اخرس يا شاذ»، وركله في جانب وجهه. سقط هيجارتي على جانبه إلى فتحة المصرف نصف واعٍ.

بعد لحظاتٍ قليلة، سمع هيجارتي صوتًا -صوت كريس آنوين- يخبره أن يفر بجلده قبل أن يذوق ممَّا يتلقَّاه صديقه. في اعترافاته الشخصية، أكَّد آنوين للمُحقِّقين أنه قال هذا التحذير بالفعل.

من مكانه، استطاع هيجارتي سماع أصوات الضربات والارتطام وصوت حبيبه يصرخ، وقال بعدها للشرطة إن صوت أدريان بدا كأرنب وقع في الشرك. زحف هيجارتي مُبتعدًا باتِّجاه التقاطع وأضواء محطَّة الحافلات المُضيئة، وعندما وجد أنه ابتعد بما يكفي، استدار ونظر إلى الخلف.

كان أدريان ميلون بقامته التي تبلُغ نحو خمسة أقدام وخمسة بوصات ووزنه الذي يُقارب مئة وخمسة وثلاثين رطلًا -بالماء الذي يُغرق ملابسه- يُدفَع بسُعار من جارتون إلى دوباي إلى آنوين في لُعبة سادية ثلاثية من نوعٍ ما.. بينما جسده يرتعش ويتخبَّط كجسد دُمية من القماش. كانوا يلكمونه، ويلطمونه، ويمزِّقون أجزاءً من ملابسه، وفي أثناء مُشاهدته، قال هيجارتي إنه شاهد جارتون يركله بين انفراجة ساقيه. سقط شعر أدريان على وجهه، وتدفَّقت الدماء من فمه وأغرقت قميصه. كان ويبي جارتون يرتدي خاتمين ثقيلين في يده: أحدهما خاتم مدرسة ديري الثانوية، والآخر صنعه في الورشة المدرسية يبرز منه الحرفان: DB بسمك ثلاث بوصات. الحرفان يرمزان إلى ديد باجز، وهي فرقة ميتال كان ويبي مُعجبًا بها بشكلٍ خاص. الخاتمان مزَّقا شفة أدريان العلوية، وكَسَرَا ثلاثة من أسنانه العلوية علَى خط اللِّثة.

صرخ هيجارتي بصوتٍ عالٍ: «النجدة! النجدة! النجدة! إنهم يقتلونه! النجدة».

لاحت له مباني الشارع الرئيس في الأفق مُظلمة ومُستترة. لم يخرج أحد للمساعدة، ولا حتَّى من جزيرة الضوء الوحيدة التي تُميِّز محطَّة الحافلات. لم يُصدِّق هيجارتي الأمر: ثمَّة أناس هناك. لقد رآهم عندما مرَّ بصحبة أدي من جوارهم. ألن يهب أحدهم لتقديم العون؟ ولا واحد؟

همس صوتٌ واهن جدًّا من على يسار هيجارتي: «النجدة»... ثم تبعه ضحك.

كان جارتون يصيح الآن: «افشخوه»... يصيح ويضحك. كان ثلاثتهم يضحكون وهم ينهالون ضربًا على أدريان، هكذا أخبر هيجارتي الضابطين جاردنر وريفز. «افشخوه! وألقوا به!».

- «افشخوه! افشخوه! افشخوه!».

- «النجدة».

هكذا قال الصوت الواهن من جديد، ورغم أن الصوت كان رزينًا؛ تبعته تلك الضحكة الصغيرة مُجدَّدًا. كان كصوت طفل لا يستطيع تمالك نفسه.

نظر هيجارتي أسفل الجسر ورأى المُهرِّج. عند هذه النقطة بدأ جاردنر

وريڤز في إسقاط أقوال هيجارتي من حسبانهما، لأن البقية الباقية لم تكن تتعدَّى هذيان مخبول، ومع ذلك، لاحقًا، وجد هارولد جاردنر نفسه حائرًا. لاحقًا، بدأ يُفكِّر في الأمر بجدِّية بعدما عرف أن الصبي آنوين أيضًا شاهد المُهرِّج، أو هكذا ادَّعى. لكن شريكه إما أنه لم يُؤرَّق بتلك الخواطر، أو أنه لن يعترف أبدًا أنها راودته.

قال هيجارتي إن المُهرِّج بدا خليطًا من رونالد ماكدونلد وذلك المُهرِّج التلفزيوني القديم بوزو، أو هكذا ظن في البداية. كان ما أثار مثل هذه المُقارنات في عقله هو تلك الخصلات المُشعَّثة البرتقالية التي تبرز من جانبي رأسه الأصلع. لكنه عندما أعاد النظر في الأمر فيما بعد بدأ يقتنع أن المُهرِّج لم يكن يُشبه أيًّا منهما. كانت الابتسامة المرسومة على الوجه الأبيض الشبيه بالفطيرة حمراء وليست برتقالية، والعينان عبارة عن فِضَّة لامعة غريبة. رُبَّما كانت عدساتٍ لاصقة، رُبَّما... لكن جزءًا بداخله ظنَّ وقتها -واستمرَّ يظنُّ- أن تلك الفِضَّة رُبَّما هي اللون الحقيقي لتينك العينين. كان يرتدي حُلَّة فضفاضة تتصدَّرها أزرارٌ برتقالية كبيرة من الوبر؛ وقد غلَّف يديه زوجان من القُفَّازات الهزلية.

قال المُهرِّج: «إذا كنت تريد المُساعدة يا دون، فلتختر بالونة بنفسك».

وعرض عليه مجموعة البالونات التي يحملها في إحدى يديه.

قال المُهرِّج: «إنها تطفو. هنا في الأسفل كلنا نطفو؛ وقريبًا جدًّا صديقك سيطفو بدوره».

12

قال چيف ريڤز بنبرة خالية تمامًا من التعبير: «هذا المُهرِّج ناداك بالاسم؟».

ثم نظر من فوق رأس هيجارتي المُنكَّس نحو هارولد جاردنر، وغمز له بعينه.

قال هيجارتي دون أن يرفع بصره: «نعم. أعرف كيف يبدو الأمر لكما».

13

قال بوتيلير: «ثم ألقيتموه من فوق الجسر. تخلَّصتم منه».

- «ليس أنا».

قالها آنوين وهو ينظر إلى أعلى، ورفع شعره المُتهدِّل عن عينيه وحدَّقهما بنظرة مُلحَّة وأضاف: «عندما شعرتُ أنهما ينويان فعلها حقًّا، حاولت جر ستيف إلى الوراء، لأنني علمت أن الرَّجُل قد يرتطم بعنف... لقد كانت المسافة إلى الماء نحو عشرة أقدام ارتفاعًا».

في الواقع كانت المسافة تبلغ ثلاثة وعشرين قدمًا. أحد خُفراء الرئيس رادميكر قاسها بالفعل.

- «لكنه بدا كالمجنون. الاثنان لم يتوقَّفا عن ترديد افشخوه! افشخوه! ثم حملاه. أمسكه ويبي من تحت إبطيه بينما رفعه ستيف من مِقعدة سراويله، و... و...».

14

عندما رأى هيجارتي ما كانا يفعلانه، اندفع عائدًا نحوهما صارخًا «لا! لا! لا!» بكل ما أوتي من قوَّة.

دفعه كريس آنوين إلى الوراء، فسقط متكوِّمًا على الأرض فوق الممشى، وهمس آنوين له: «هل تريد أن تُلقى أنت أيضًا؟ اركض يا صغير من هنا».

وفي هذه اللحظة ألقيا أدريان ميلون من فوق الجسر وإلى النهر، وسمع هيجارتي صوت تناثُر المياه.

صاح ستيف دوباي: «هيا بنا نفر من هنا».

وبدأ مع ويبي في التراجع إلى السيَّارة.

ذهب كريس آنوين إلى الحاجز الحديدي وألقى نظرة. في البداية رأى هيجارتي ينزلق ويخمش طريقه إلى أسفل فوق الأعشاب نحو الضِفَّة التي

تتناثر القمامة عليها مُتَّجهًا إلى الماء. ثم رأى المُهرِّج.. الذي كان يجر أدريان إلى الضِفَّة البعيدة بيدٍ واحدة ويمسك بحفنة بالونات في اليد الأخرى، بينما كان أدريان مُبتلًّا وينزف، مُختنقًا ويئن. أدار المُهرِّج رأسه وابتسم إلى كريس. قال كريس إنه رأى عينيه الفِضِّيتين اللامعتين وأسنانه المكشوفة... أسنانٌ كبيرة جدًّا، هكذا قال.

قال: «مثل الأسد في السيرك يا رفاق. أعني، إنها كبيرة بهذه الدرجة».

ثم قال إنه رأى المُهرِّج ينخع إحدى ذراعيّ أدريان ميلون بقوَّة إلى الخلف حتَّى إنها ارتخت فوق رأسه.

قال بوتيلير: «وماذا حدث بعدها يا كريس؟».

كان بوتيلير قد سأم هذا الجزء من الرواية. لطالما أصابته القصص الخيالية بالملل منذ أن كان في سن ثماني سنوات.

قال كريس: «لا أعرف. في هذه اللحظة جذبني كريس ودفعني إلى السيَّارة. لكن... أظنُّ أنه عضَّه من خُنِّ إبطه».

رفع كريس نظره نحوهما مُجدَّدًا في تردُّد، وأردف: «أظنُّ أن هذا ما فعله. لقد قضم إبطه، وكأنه يريد التهامه يا صاح، وكأنه يريد التهام قلبه».

15

لا. هذا ما قاله هيجارتي عندما عُرضت عليه رواية آنوين في صورة أسئلة. المُهرِّج لم يسحب أدي إلى الضِفَّة البعيدة، على الأقل ليس هذا ما رآه. لكنه وافق على أنه لم يكن بأيِّ حال مُراقبًا يقظًا عند هذه اللحظة. عند هذه اللحظة كان عقله قد طار شُعاعًا.

قال إن المُهرِّج وقف بالقرب من الضِفَّة البعيدة مُمسكًا بجسد أدريان الذي يقطر ماءً بين ذراعيه. كانت ذراع أدي تبرز مُيبَّسة من وراء رأس المُهرِّج، وكان وجه المُهرِّج بالفعل عند مستوى إبط أدريان الأيمن، لكنه لم يقضمه، بل كان يبتسم. استطاع هيجارتي مُشاهدته وهو ينظر من أسفل إبط أدي ويبتسم.

ضاقت قبضة ذراعيّ المُهرِّج على الجسد، وسمع هيجارتي صوت الضلوع تتشظَّى.

ثم ارتعش جسد أدي.

- «اطفُ معنا يا دون».

هكذا قال المُهرِّج من فمه الأحمر المُنفرج في ابتسامة واسعة، ثم أشار بإحدى يديه اللتين تُغطيهما قُفَّازات بيضاء إلى أسفل الجسر.

تحت سقف الجسر السُفلي، كان ثمَّةَ بالونات تطفو مُنحشرة.. ليس دزينة أو عِدَّة دزائن.. بل آلاف.. حمراء وزرقاء وخضراء وصفراء، وعلى جانب كل واحدة منها مطبوع شعار أنا ♥ ديري.

16

قال ريڤز وهو يغمز إلى هارولد جاردنر مرَّةً أخرى: «حسنًا الآن، هذه تبدو كمِّية كبيرة من البالونات حقًّا».

كرَّر هيجارتي بالصوت الكئيب نفسه: «أعرف كيف يبدو الأمر لكما».

قال جاردنر: «تقول إنك رأيت تلك البالونات بنفسك؟».

رفع دون هيجارتي يديه ببطء أمام وجهه وقال: «رأيتُها بالوضوح ذاته الذي أرى به أصابعي في هذه اللحظة.. الآلاف منها، لدرجة أنها حجبت سقف الجسر من الأسفل بالكامل. كان هناك العديد والعديد منها، وكانت تتهادى وتتموَّج قليلًا، في تناطح نوعًا ما إلى أعلى وأسفل، وكانت تُصدر صوتًا. صريرٌ مُنخفضٌ مُضحكٌ وهي تحتك بعضها ببعض.. والخيوط.. كانت هناك غابة من الخيوط تتدلَّى منها، وبدت كخيوط شباك عنكبوت بيضاء. المُهرِّج حمل أدي إلى هناك. استطعت رؤية حُلَّته وهي تشُقُّ طريقها عبر تلك الخيوط، بينما أدي يُصدر أصوات اختناقٍ مُريعة. بدأت أتحرَّك في اتِّجاهه، ثم نظر المُهرِّج إلى الوراء، ورأيت عينيه، وبغتةً علمت من هو».

سأله هارولد جاردنر بنعومة: «ومن هو يا دون؟».

قال دون هيجارتي: «إنه ديري. إنه هذه البلدة».

سأله ريڤز: «وماذا فعلت حينها إذًا؟».

أجابه هيجارتي وهو ينفجر باكيًا: «فررت بجلدي أيُّها الأحمق الغبي».

17

أبقى هارولد جاردنر على صمته وهدوئه إلى يوم 13 نوڤمبر –اليوم الذي سبق ذهاب چون جارتون وستيف دوباي إلى محكمة ديري المحلِّية بعد اتهامهما بقتل أدريان ميلون– ثم ذهب للتحدُّث مع توم بوتيلير. كان يريد مناقشته في أمر المُهرِّج، ولم يكن بوتيلير يحمل الرغبة نفسها، لكنه شعر أن جاردنر قد يرتكب فعلًا أخرق إذا لم ينل بعض الإرشاد والنصح، فوافق على فتح الموضوع.

– «لم يكن ثمَّة مُهرِّج ليلتها يا هارولد. المُهرِّجون الوحيدون الطُّلقاء في تلك الليلة كانوا أولئك الصبية الثلاثة. أنت تعلم هذا بقدر علمي به تمامًا».

– «لدينا شاهدان».

– «أوه، هذا هُراء. آنوين قرَّر أن يزُجَّ بالرَّجُل الأكتع إلى القِصَّة بمُجرَّد أن وعى أنه ورَّط نفسه ورطة خطيرة بالفعل هذه المرَّة. «نحن لم نقتل ذلك الشاذ المسكين، لقد فعلها الرَّجُل الأكتع». أما هيجارتي فانهار عصبيًا. لقد وقف يشاهد أولئك الصبية يقتلون أعز أصدقائه. لذا لن أتفاجأ إذا كان قد رأى أطباقًا طائرة».

رغم تعنُّت بوتيلير، إلا أنه لم يبدُ مُصدِّقًا لما يقول. جاردنر يرى هذا في عينيه، ومحاولات التملُّص هذه تثير حنقه.

قال جاردنر: «كفاك يا بوتيلير، نحن نتحدَّث عن شاهدين مُستقِلَّين هنا. لا تُلقي إليَّ بهذا الهُراء».

– «أوه، أتُريد الحديث عن الهُراء؟ هل تُخبرني أنك تُصدِّق وجود مُهرِّج مصَّاص دماء أسفل جسر الشارع الرئيس؟ لأن هذه تحديدًا فكرتي عن الهُراء».

– «لا، ليس تمامًا، لكن...».

– «أو أن هيجارتي شاهد بليون بالونة هناك بالأسفل، كل منها موسوم بالعبارة نفسها المطبوعة على قُبَّعة ذلك العاشق؟ لأن تلك أيضًا هذه فكرتي عن الهُراء».

- «لا، لكن...».
- «لماذا إذًا تُزعج نفسك بالأمر؟».
صاح جاردنر بصوتٍ جهوري: «كُفّ عن استجوابي. لقد وصف كلاهما الأمر ذاته بالتفاصيل ذاتها، ولم يعلم أيُّهما أيَّ شيءٍ عن أقوال الآخر!».
كان بوتيلير جالسًا إلى مكتبه يعبث بالقلم الرصاص. الآن، وضع المُحقِّق القلم جانبًا، ونهض مُتَّجهًا إلى هارولد جاردنر. كان بوتيلير أقصر منه بخمس بوصات، لكن جاردنر تراجع خطوة إلى الوراء أمام غضبة الرَّجُل.
- «هل تريدنا أن نخسر القضية يا هارولد؟».
- «لا، بالطبع لـ...».
- «هل تُريد أن يُطلق سراح هذين المُجرمين؟».
- «لا!».
- «حسنًا. جميل. بما أننا نتَّفق على الأمور الأساسية، فسأخبرك تحديدًا بما أظنُّ. أجل، رُبَّما كان تحت الجسر رجُل في تلك الليلة. رُبَّما أيضًا كان يرتدي حُلَّة مُهرِّج، برغم أنني تعاملت مع عددٍ كافٍ من الشهود يجعلني أُخمِّن أنه كان مُجرَّد سِكِّير منبوذ أو عابر سبيل يرتدي مجموعة من الملابس جمعها من قارعة الطريق. أظنُّ أنه كان رُبَّما يتسوَّل بعض الفكَّة المُلقاة هناك بالأسفل، أو بقايا لحمٍ، أو نصف شطيرة برجر ألقاها أحدهم، أو رُبَّما بعض الفُتات من أحد أكياس رقائق فريتو.. وقد قامت عيونهما باختلاق الباقي يا هارولد.. الآن، أليست هذه فرضية معقولة؟».
قال هارولد: «لا أعرف». كان يريد الاقتناع، لكن وفقًا لمُعطيات كلا الوصفين... لا. لم يكن يظن أن هذا معقولًا.
- «بيت القصيد: أنا لا أهتم إن كان هذا الأخ كينكو المُهرِّج أو رجُلًا يرتدي بِزَّة العم سام أو مُهرِّجًا طويلَ الساقين أو هربرت اللوطي السعيد. إذا زججنا بهذا الرَّجُل في القضية، فسيلتقط مُحاميهُما الخيط أسرع من البرق وقبل أن نستطيع التفوُّه بنصف كلمة. سيقول إن هذين الحملين الوديعين بتسريحة شعريهما الأنيقة لم يفعلا شيئًا سوى دفع ذلك المثلي ميلون من فوق الجسر على سبيل الدعابة، وسيؤكِّد أن ميلون كان لا يزال حيًّا بعد سقوطه، ولديهما

شهادة هيجارتي لدعم الأمر، بالإضافة إلى شهادة آنوين. سيقول إن موكِّلَيه لم يرتكبا جريمة، أوه لا! إنه ذلك المريض النفسي الذي يرتدي حُلَّة مُهرِّج. إذا زججنا بهذه القِصَّة، هذا ما سيحدث وأنت تعرف هذا».

- «آنوين سيروي هذه القِصَّة على أيِّ حال».

قال بوتيلير: «لكن هيجارتي لن يفعل. لأنه يعي جيِّدًا ما أقوله لك الآن، ومن دون هيجارتي، من سيُصدِّق آنوين؟».

- «حسنًا، توجد أقوالنا نحن». قالها هارولد جاردنر بمرارة أثارت دهشته هو نفسه، وأضاف: «لكنني أظنُّ أننا لن نُخبر أحدًا».

صاح بوتيلير وهو يرفع يديه عاليًا: «أوه، أرحني من هذا الهُراء. لقد قتلاه! إنهما لم يُلقياه من فوق الجسر فحسب.. جارتون كان يحمل مدية. ميلون طُعِن مرَّاتٍ عديدة، وتضمَّنت الطعنات واحدة في رِئته اليسرى واثنتين في خصيتيه، وقد تطابقت الطعنات مع نصل المدية. أربعة من ضلوعه تحطَّمت.. دوباي فعل هذا، بعدما احتضنه بُعنفٍ كدُب. نعم، توجد عضَّات في جسد الفتى. قضمات على ذراعيه، وذقنه من ناحية اليسار، ورقبته، وأظنُّ أن هذه أحدثها آنوين وجارتون، رغم أننا حصلنا على تطابق واحد واضح، فضلًا عن أنه ليس واضحًا بما يكفي كي يصمد في المُحاكمة، وأجل بالفعل، ثمَّة قطعة كبيرة من اللحم مُنتزعة من إبطه، وماذا في ذلك؟ أحدهم يُحب العضَّ فعلًا، ورُبَّما يكون قد شَعَرَ أيضًا بانتصابٍ جيِّد حقًّا في قضيبه وهو يفعلها. أُراهن على ذلك يا جارتون، لكننا لن نستطيع إثبات ذلك أبدًا. أيضًا شحمة أُذُن ميلون مفقودة بدورها».

توقَّف بوتيلير هنيهة رمق هارولد فيها، ثم أضاف: «إذا زججنا بهذا المُهرِّج إلى القِصَّة لن نستطيع مُحاسبة هذين الصبيين. هل تُريد ذلك؟».

- «لا، لقد أخبرتك».

قال بوتيلير: «الفتى ميلون كان شاذًا، لكن لم يكن يؤذي أحدًا. ثم هيلا هوب جاء أولئك الأوغاد الثلاثة وسرقوا منه حياته. سوف أودعهم في السجن يا صديقي، وعندما سيأتيني الخبر أن مؤخِّراتهم الصغيرة صارت وراء قضبان

سجن توماستون، سأُرسل إليهم بطاقات تهنئة مكتوبًا عليها تمنياتي لمن فعل ذلك أن يُصاب بالإيدز».

فكَّر جاردنر، يا له من تفكيرٍ ناري. أيضًا لم تذكُر أن هذه القضية ستبدو جيِّدة جدًّا في سجلِّك عندما ستشغل منصب الصدارة بعد عامين من الآن.

لكنه غادر دون أن يقول شيئًا، لأنه أيضًا أراد رؤيتهم وراء القضبان.

18

أُدين چون ويبر جارتون بالقتل عن غير عمد من الدرجة الأولى وحُكِم عليه بالسجن من عشر إلى عشرين سنة في سجن توماستون الحكومي.

أُدين ستيڤن بيشوف دوباي بالقتل عن غير عمد من الدرجة الأولى وحُكِم عليه بالسجن خمس عشرة سنة في سجن شواشانك الحكومي.

حوكِم كريستوفر فيليب بشكل مُنفصل كقاصر، وأُدين بالقتل عن غير عمد من الدرجة الثانية، وحُكِم عليه بالسجن مُدَّة ستة أشهر في إصلاحية ويندهام الجنوبية للبنين مع وقف التنفيذ.

إلى وقت كتابة هذه السطور، كانت الأحكام الثلاثة قيد الاستئناف، وكان بمقدورك رؤية جارتون ودوباي في أيِّ يومٍ يُراقبان الفتيات أو يلعبان لعبة إلقاء البنسات في حديقة باسي، في مكانٍ ليس ببعيد عن البُقعة التي عُثر فيها على جسد مِيلون المُهتَّك طافيًا بجوار إحدى ركائز جسر الشارع الرئيس.

أما دون هيجارتي وكريس آنوين فقد تركا البلدة.

وفي مُحاكمة جارتون ودوباي الرئيسة، لم يأتِ أحد على ذكر المُهرِّج.

الفصل الثالث

ست مُكالمات هاتفية

1

ستانلي يوريس يستحِمّ

باتريشيا يوريس أخبرت أمها لاحقًا أنه كان عليها إدراك أن ثمَّة خطأ ما. قالت إنه وجب عليها معرفة ذلك لأن ستانلي يوريس لم يستحِمّ من قبل قط في وقت مُبكِّر من المساء. إنه يستحِمّ باكرًا كل صباح، وأحيانًا يغمس جسده في حوض الاستحمام المليء بالماء في وقت مُتأخِّر من الليل (مُمسكًا بمجلَّة في يدٍ وعبوَّة بيرة مُثلَّجة في اليدِ الأخرى). لكن الاغتسال في السابعة مساءً لم يكن من عاداته.

أيضًا ثمَّة شيء بخصوص تلك الكتب الأخيرة. كان من المُفترض أن تُدخل البهجة إلى قلبه، لكن بدلًا من هذا، وبطريقة غامضة لم تفهمها، بدا أنها تؤرِّقه وتُصيبه بالاكتئاب. قبل نحو ثلاثة أشهر من تلك الليلة الرهيبة، اكتشف ستانلي أن أحد أصدقاء طفولته صار كاتبًا. ليس كاتبًا حقيقيًا كما أخبرت باتريشيا أمها، لكن روائيّ. الاسم على أغلفة الروايات كان ويليام دِنبروه، لكن ستانلي اعتاد نعته أحيانًا ببيل المُتلعثم. لقد قرأ ستانلي كل روايات الرَّجُل تقريبًا، وكان في واقع الأمر يقرأ آخر رواية له ليلة الاستحمام: ليلة 28 مايو، 1985. حاولت باتي قراءة إحدى رواياته الأولى من باب الفضول، ووجدت نفسها تضعها جانبًا بعد ثلاثة فصول فقط.

لم تكن مُجرَّد رواية، هكذا أخبرت أمها لاحقًا، بل كانت رواية–رعب. هكذا نطقتها باتريشيا، كأنها كلمة واحدة، بالطريقة نفسها التي قد تقول بها

كتاب-جنس. إن باتي امرأة طيبة ورقيقة، لكنها لم تكن فصيحة جدًّا. أرادت إخبار أمها إلى أيِّ درجة أفزعها الكتاب، ولماذا أفزعها، لكنها لم تنجح في التعبير عمَّا كانت تشعر به. قالت لها: «كان مليئًا بالمسوخ.. مسوخ عديدة تُطارد صبية صغارًا. ثمَّة وقائع قتل كثيرة في الأحداث، و... لا أعرف... ثمَّة شعورٍ قابضٍ ومؤذٍ. أشياء من هذا القبيل». في الواقع، صدمها الكتاب بوقعه ثقيل الوطء كأنه عمل إباحي، تلك هي الكلمة التي لم تنفك عن مراوغتها والتفلُّت منها، رُبَّما لأنها لم تتفوَّه بها ولا مرَّة طوال حياتها، وإن كانت تعرف معناها.

- «لكن ستانلي بدا كمن أعاد اكتشاف أحد أصدقاء طفولته... وبدأ في الحديث عن رغبته في الكتابة إليه، لكنني عَلِمت أنه لن يفعل... أيضًا عَلِمت أن تلك القصص جعلت مزاجه كَدِرًا، و... و...».

ثم انخرطت باتي يوريس في البُكاء.

في تلك الليلة -التي كانت تحتاج إلى ستة أشهر فقط ليكتمل مرور ثمانٍ وعشرين سنة بالتمام منذ ذلك اليوم في عام 1957 الذي قابل فيه چورچ دِنبروه المُهرِّج بيني وايز- جلس ستانلي وباتي في غرفة المعيشة في منزلهما القائم في إحدى ضواحي مدينة أتلانتا. كان التلفاز يعمل، وباتي تجلس أمامه على الأريكة الوثيرة التي تسع شخصين، وتنقل اهتمامها بين كومة الملابس التي تحيكها وبرنامجها التليفزيوني المُفضَّل صراع العائلات. كانت باتي تهيم حُبًّا بريتشارد داوسون[1]، وترى أن السَّاعة المُدلاَّة من السلسلة التي يرتديها مُثيرة بشكلٍ رهيب، ومع ذلك لم يكن أجمح الجياد البرِّية ليستطيع إخراج هذا الاعتراف منها. أحبَّت باتي البرنامج أيضًا لأنها دائمًا تقريبًا ما استطاعت التوصُّل إلى الإجابات الأكثر رواجًا (لا توجد إجابات صحيحة في صراع العائلات، ليس تمامًا، فقط إجابات أكثر رواجًا). ذات مرَّة سألت ستانلي ما سبب الذي يجعل الأسئلة التي تبدو لها سهلة تمامًا، شديدة الصعوبة على

(1) ريتشارد داوسون (1932-2012): مُمثِّل أمريكي بريطاني كوميدي، ومُقدِّم برنامج المُسابقات الشهير Family Feud.

العائلات في البرنامج. «على الأرجح يكون الموقف أكثر صعوبة وأنتِ تقفين هناك أسفل تلك الأضواء». هكذا أجابها ستانلي، وبدا لها أن ظِلًّا انزلق فوق وجهه. «كل شيء أكثر صعوبة عندما يكون حقيقيًّا، عندها تشعُرين بالاختناق، عندما يكون الأمر حقيقيًّا».

رُبَّما كلامه صحيحٌ تمامًا، هكذا قرَّرت. يتمتَّع ستانلي أحيانًا برؤية ثاقبة للطبيعة البشرية، ثم استدركت في أفكارها، أكثر عُمقًا ممَّا يتمتَّع بها صديقه القديم ويليام دِنبروه، الذي اغتنى من وراء كتابة مجموعة من كتب-الرعب التي تُخاطب أخسّ الطبائع في نفوس البشر.

لم يكن هذا يعني أن آل يوريس ليسا ميسوريّ الحال! فالضاحية التي يقطنانها ضاحية جميلة، والمنزل الذي اشترياه لقاء 87 ألف دولار عام 1979 في مقدورهما بيعه الآن سريعًا ودون شد وجذب نظير 165 ألف دولار.. هذا لا يعني أنها تُريد البيع، لكن أمورًا كهذه من الجيِّد معرفتها. أحيانًا، عندما تقود سيَّارتها الڤولڤو وهي عائدة من مُجمَّع فوكس ران التُجاري (ستانلي يقود سيَّارة مرسيدس دايست، ولإغاظته كانت تدعوه سيدانلي) وترى منزلها يقبع أنيقًا وراء السياج المُنخفض المصنوع من خشب الطقسوس.. كانت تُفكِّر: تُرى من يعيش هناك؟ يا لحماقتك؟ إنها السيِّدة ستانلي يوريس! لم تكن هذه فكرة سعيدة في مجملها؛ فقد كان يشوبها فخر شديد الشراسة لدرجة أنه في بعض الأحيان يُشعرها بالسقم. في يومٍ من الأيَّام، كانت ثمَّة فتاة وحيدة سنها ثماني عشرة سنة اسمها باتريشيا بلام رُفِض حضورها إلى سهرة ما بعد حفل التخرُّج التي أُقيمت في نادي الأهالي في بلدة جلونتين الشمالية في نيويورك. بالطبع رُفِض تسجيلها في قائمة مدعوِّي السهرة لأن اسمها الأخير بلام مسجوع مع لفظ معتوه[1] الإنجليزية، وهذا ما كانته الفتاة، مُجرَّد معتوهة يهودية صغيرة. كان هذا عام 1967، ومثل هذا التمييز كان مُخالفًا للقانون بالطبع، ها ها ها، لكن كل شيء انتهى الآن. لكن مثل هذه الأمور لن تنتهي أبدًا بالنسبة إلى جزء من روحها. جزء منها سيظل يتذكَّر رحلة العودة إلى

---

(1) بالإنجليزية Plum: معتوه أو أحمق، وتأتي أحيانًا في العامية بمعنى خصية.

السيَّارة بصحبة مايكل روزنبلات، وصوت الحصى الذي يُدهس تحت كعبيها العاليين وحذائه الرسمي المؤجَّر.. رحلة العودة إلى سيَّارة والده التي استعارها مايكل لتمضية الأُمسية وقضى طوال فترة العصر يُلمِّعها بالشمع. جزء منها سيظل أسيرًا لتلك اللحظة، يسير بجوار مايكل الذي يرتدي سُترة السَّهرة البيضاء المؤجَّرة بدورها؛ كم كانت تتلألأ في تلك الليلة الربيعية الناعمة! بينما هي ترتدي فستان سهرة أخضر شاحبًا صرَّحت أمها بأنها يجعلها تبدو كعروس بحر.. وفكرة وجود عروس بحر يهودية بدت لها مُضحكة جدًّا، ها ها ها. كانا يسيران برأسين مرفوعين ولم تكن قد بكت بعد، لكنها أدركت أنهما لا يسيران رجوعًا.. لا، ليس تمامًا.. ما يفعلانه هو الانسلال رجوعًا في خفية مُخزية.. كلمة انسلال مسجوعة مع انحلال، وقد شعر كلاهما بثقل وطأة يهوديته في هذه اللحظة أكثر ممَّا شعرا به خلال حياتيهما من قبل. شعرا كأنها مُرابيان.. شعرا كأنهما سجينان يهوديان محشوران في عربة الماشية في طريقهما إلى مُعسكرات الاعتقال النازية.. شعرا بأنهما دُهنيًّا الجلد، وطويلا الأنف، وشاحبا البشرة.. شعرا بأنهما يهوديَّان جشعان مُنعزلان. لقد أرادا الشعور بالغضب، لكنهما لم يقويا عليه.. الغضب أتى لاحقًا، عندما لم يعد الأمر يهم. في تلك اللحظة لم تستطع باتي سوى الشعور بالخزي.. لم تستطع سوى أن تتألَّم. ثم ضحك أحدهما وقتها، ضحكة مكبوتة حادة كأنها أصابع تعدو سريعًا فوق مفاتيح بيانو، وفي السيَّارة استطاعت البكاء، أوه بكل تأكيد، ها هي عروس البحر اليهودية التي يقتفي اسمها معِ العته تبكي كالمجنونة، وضع مايك روزنبلات يدًا مُواسية خرقاء على مؤخرة عُنُقها فجفلت بعيدًا عنها وهي تشعر بالخجل.. تشعر بالاتِّساخ.. تشعر بأنها يهودية.

المنزل القابع بأناقة شديدة وراء السياج المصنوع من خشب الطقسوس جعلها تتحسَّن... لكن ليس كثيرًا. الألم والخزي ما زالا قابعين هناك في أعماقها، وحقيقة قبول المُجتمع لها في هذا الحي الهادئ الناعم الموسِر لم تستطع محو ذكرى تلك المسيرة الطويلة السرمدية المصحوبة بصوت الحصى المُنزلق من تحت حذائيهما، ولا حتَّى حقيقة كونها أصبحت عضوًا في نادي الأهالي هنا، حيث يستقبلهما رئيس النُّدَّال ويُقدِّم لهما تحيَّة «عمتما

مساءً يا سيِّدة ويا سيِّد يوريس» بوقارٍ شديد. كانت تعود إلى منزلها -دافئة في سيَّارتها الڤولڤو طراز 1984- وتنظر إليه قابعًا وسط فسحة عريضة من العشب الأخضر، وعلى الفور -على الفور تقريبًا على ما تظن- تبدأ في تذكُّر تلك الضحكة المكبوتة الحادة. ثم تتمنَّى أن تكون الفتاة التي ضحكت قاطنة في منزل حكومي حقير مع زوج من الأغيار(1) لا ينفك عن إهانتها وضربها، وأن تكون قد حملت ثلاث مرَّات وأجهضت في كل مرَّة، وأن يخونها زوجها مع امرأة مريضة بعدوى ڤيروسية، وأن تُصاب بانزلاقٍ غضروفيٍ وقدمين مُسطَّحتين وأكياس دهنية على لسانها الضاحك القذر.

كثيرًا ما كرهت نفسها بسبب تلك الأفكار، هذه الأفكار غير المُتسامحة، وحاولت ترويض نفسها، والتوقُّف عن شرب كل تلك الكوكتيلات الكريهة مُرَّة الطعم التي تفقدها صوابها. ثم تمرُّ شهورٌ دون أن تراودها تلك الأفكار، وحينها تُفكِّر: رُبَّما انجرف كل هذا وراء ظهري أخيرًا. لم أعد تلك الفتاة ذات الثماني عشرة سنة. أنا امرأة في سن السادسة والثلاثين الآن. تلك الفتاة التي لم تنفك عن سماع صوت صرير حصى ذلك الدرب، الفتاة التي أجفلت مُبتعدة عن يد مايك روزنبلات عندما حاول تهدئتها لأنها كانت يدًا يهودية، قد مضى عليها نصف حياتي. عروس البحر الساذجة هذه قد ماتت. أستطيع نسيانها الآن وأكون نفسي. حسنًا. جميل. عظيم. لكن بعدها، عندما تكون في مكانٍ ما في أيِّ مرَّة -في السوق المركزي رُبَّما- وتسمع ضحكة مكتومة بغتة آتية من الممر المُقابل، تشعر بوخزٍ في ظهرها، وتتصلَّب حلمتا ثدييها وتؤلمانها، وتتشبَّث يداها بقوَّة بقضيب عربة التسوُّق أو تتشابك إحدى يديها بالأخرى، وتُفكِّر: شخصٌ ما أخبر آخر لتوِّه بأنني يهودية.. أنني لست سوى أنثى قرد كبيرة الأنف، وأن ستانلي ليس سوى سعدان كبير الأنف، إنه مُحاسب.. بالطبع، اليهود بارعون مع الأرقام، لقد سمحنا لهم بالانضمام إلى

(1) الأغيار: مُصطلح ديني يهودي يطلقه اليهود على غير اليهود. وهو المقابل العربي للكلمة العبرية «جُوييم». توسَّع أحبار اليهود في مدلول الجُوييم بعد ذلك، فأضافوا إلى الكلمة معنى القذارة المادية والروحية والكفر.

نادي الأهالي، كنا مُجبرين. في عام 1981 ذلك طبيب النساء كبير الأنف ربح الدعوى القضائية.. لكننا نضحك عليهم، نضحك ونضحك ونضحك.

وأحيانًا تسمع صوت صرير واحتكاك حصى وهمي داخل عقلها وتُفكِّر: عروس بحر! عروس بحر!

ثم تفيض الكراهية والخزي في عروقها من جديد كأنهما صداع نصفي، وتشعر بالقنوط ليس فقط من نفسها لكن من الجنس البشري كله.. مُستذئبون. كتاب دِنبروه الذي حاولت قراءته ثم لفظته كان يحكي عن مُستذئبين. اللعنة، ما الذي يعرفه رَجُلٌ كهذا عن المُستذئبين؟

غير أنها في أغلب الوقت كانت تشعر بأحاسيس أفضل.. تشعر بأنها أحسن حالًا ممَّا تظن. إنها تحب زوجها، وتحب منزلها، وعادةً ما استطاعت أن تحب نفسها وحياتها. الأمور تسير معها على ما يُرام الآن، ولم تكن كذلك دائمًا بطبيعة الحال، ومتى كانت الأمور تسير على ما يُرام دائمًا؟ عندما قبلت خاتم الخِطبة الذي قَدَّمه لها ستانلي، شعر والداها بالغضب والاستياء. لقد قابلته في حفل سكن الطالبات. لقد انتقل إلى كُلِّيتها من جامعة ولاية نيويورك، بموجب منحة دراسية. تعرَّفا عن طريق صديق مُشترك، ومع انتهاء الليلة، اشتبهت في أنها قد أحبَّته، وبحلول عُطلة مُنتصف العام الدراسي، كانت قد تأكَّدت، وعندما أتى الربيع وعرض ستانلي عليها خاتمًا صغيرًا تتخلَّل حلقته أقحوانة، قَبِلَتهُ على الفور.

في النهاية، رضيَ والداها بالأمر الواقع بدورهما رغم تبكيت ضمائرهما. لم يكن في جعبتهما شيء آخر لفعله، على الرغم أن ستانلي يوريس سيبدأ قريبًا في خوض سوق عمل كبحرٍ عُباب مُتخم بالمُحاسبين الشباب.. وعندما سيدلف إلى تلك الغابة، سيدلف دون أيٍّ موارد مالية من الأسرة لدعمه، وابنتهما الوحيدة ستكون ضمانته إلى الثروة. لكن باتي تبلغ من العمر اثنتان وعشرين سنة، وقد صارت امرأة الآن، وقريبًا ستتخرَّج بدورها وستحصل على بكالوريوس الفنون.

- «سأظل أُساعد ابن العاهرة ذا الأربع عيون هذا بقيَّة حياتي».

هكذا سمعت باتي والدها يقول ذات ليلة. لقد ذهب أبوها وأمها للعشاء في الخارج، وقد أفرط والدها في الشراب كثيرًا إلى حدٍ ما.

ردَّت روث بلام: «اخفض صوتك، ستسمعك».

استلقت باتي مُستيقظة في فراشها في تلك الليلة إلى ما بعد منتصف الليل بكثير، بعينين جافتين لا دموع فيهما، فقط تبردان وتسخنان على التوالي، شاعرة بكراهية كبيرة تجاه كليهما، وقد قضت العامين التاليين تحاول التخلُّص من ذلك البُغض، لكن كان يوجد الكثير منه في قلبها بالفعل. أحيانًا عندما تنظر إلى نفسها في المرآة ترى ما يفعله البغض بوجهها.. الخطوط الرفيعة التي لا ينفك عن حفرها فيه. لكن استطاعت الانتصار في هذه المعركة، وقد ساعدها ستانلي على ذلك.

كان والداه دونالد يوريس وأندريا بيرتولي أيضًا يساورهما القلق تجاه تلك الزيجة. لم يكونا يعتقدان بالطبع أن ستانلي محكومٌ عليه بحياة البؤس والفقر، لكن فكرتهما عن الأمر كانت: «لقد تسرَّع الأولاد جدًّا»، رغم أنهما نفسيهما تزوَّجا عندما كانا في العقد الثالث من العمر، لكن يبدو أنهما نسيا تلك الحقيقة.

وحده ستانلي بدا واثقًا من نفسه، وواثقًا من المُستقبل، وغير قلق من العثرات التي رآها ذووهما تتناثر في كل مكان حولهما، وفي النهاية كانت ثقته لا مخاوفهما هي التي أثبتت صحَّتها. في يوليو 1971، كان الحبر قد جفَّ بالكاد على شهادتها الجامعية، واستطاعت باتي الالتحاق بوظيفة تدريس مادة الاختزالات واللغة الإنجليزية الخاصة بالأعمال في ترينور، وهي مدينة صغيرة تبعد أربعين ميلًا جنوب أتلانتا. عندما تُفكِّر الآن كيف حظيت بتلك الوظيفة، دائمًا ما تصدمها قليلًا غرابة الأمر. لقد صنعت قائمة بأربعين وظيفة مُحتملة من الإعلانات الموزَّعة في منشورات المُعلِّمين، ثم كتبت أربعين خطابًا في خمس ليالٍ -ثمانية خطابات كل ليلة- تطلب فيها مزيدًا من المعلومات عن الوظيفة المطروحة، مُرفقة باستمارة تقديم لكلٍ منها. اثنان وعشرون ردًّا أشارت أن المنصب قد شُغِر بالفعل. في حالاتٍ أخرى، أوضح شرح المهارات التفصيلية المطلوبة للوظيفة أنها خارج المُنافسة من الأساس،

وأن التقديم لن يكون إلا مضيعة لوقتها ووقتهم. لم يتبقَّ أمامها سوى اثنتي عشرة وظيفة مُحتملة. كلٌّ منها فرصة مُرجَّحة كمثيلاتها تمامًا. جاء ستانلي بعدها بقليل وهي تُفكِّر محتارة بينها، وتسأل نفسها إن كانت قادرة على ملء دزينة من استمارات التدريس دون أن تَجِن بالكامل. نظر ستانلي إلى الأوراق المتناثرة على المنضدة أمامها ثم نقر بإصبعه على الخطاب المُرسَل من مؤسَّسة ترينور للإشراف على المدارس، وهو خطاب لم يبدُ لها أكثر أو أقل إغراءً من غيره.

قال لها: «هذا».

رفعت بصرها إليه، مندهشة من الثقة الواضحة في صوته: «هل تعرف عن چورچيا شيئًا لا أعرفه؟».

– «لا. لم أرها سوى في الأفلام».

نظرت إليه بحاجبٍ مرفوع.

– «ذهب مع الريح. ڤيڤيان لي وكلارك جيبل. 'سأُفكِّر في الأمر غدًا، لأنَّ غدًا يومٌ آخر'. هل تبدو لهجتي كأني من أهل الجنوب يا باتي؟».

– «أجل، جنوب حي البرونكس. إذا لم تكن تعرف شيئًا عن چورچيا، ولم تزرها قط، إذًا لِمَ...».

– «لأن هذا الاختيار الصائب».

– «لا يمكنك معرفة ذلك يا ستانلي».

قال لها ببساطة: «بالطبع يمكنني. أنا أعرف».

بالنظر إليه، لم يبدُ لها أنه يمزح. كان يقصد ما يقول حقًّا، وشعرت بموجة من عدم الارتياح تعتري ظهرها.

– «وكيف تعرف؟».

كان يبتسم قليلًا، لكن الابتسامة تلاشت الآن، وللحظة بدا حائرًا. دَكِنت عيناه، كما لو كان ينظر داخل ذاته، مُستشيرًا جهازًا داخليًّا ما يتكُّ ويعملُ بانتظام دون أن يفهم طريقة عمله بأكثر ما يفهم رجل الشارع العادي طريقة عمل الساعة على معصمه.

قال فجأة: «السُلحفاة لن تستطيع مُساعدتنا».

قال هذه العبارة بوضوح كبير، وقد استطاعت سماعها بينما ذلك التأمُّل الداخلي ونظرة التفكير المُندهش ما زالا يعتليان وجهه، وقد بدأ الأمر يُخيفها.

- «ستانلي؟ ما الذي تتحدَّث عنه؟ ستانلي؟».

انتفض جسده فجأة. كانت باتي تأكل بعض الخوخ وهي تتفحَّص استماراتها، وقد خبطت يده الطبق فوقع على الأرض مُحطَّما. ثم بدا لها أن نظرته قد صفت وعادت لطبيعتها من جديد.

- «أوه، اللعنة. معذرة».

- «لا عليك. ستانلي، ما الذي كنت تتحدَّث عنه؟».

قال لها: «نسيت. لكنني أظنُّ أنه يجب علينا التفكير في چورچيا يا حبيبتي الصغيرة».

- «لكن...».

قال لها: «ثقي بي».

وقد فعلت.

مرَّت مُقابلة الوظيفة بشكلٍ رائع.. وقد عرفت أنها اقتنصت الوظيفة عندما استقلَّت القطار رجوعًا إلى نيويورك. رئيس قسم الأعمال أُعجِب بباتي من الوهلة الأولى تقريبًا، وهو أيضًا أعجبها بدوره.. لقد سمعت تقريبًا صوت اندلاع شرارة التفاهم. بعد أسبوع، وصلها خطاب التأكيد من مؤسَّسة ترينور للإشراف على المدارس، يتضمَّن عرضًا بـ 9200 دولار سنويًا، وعقد مؤقَّت لحين انتهاء فترة الاختبار الوظيفي.

قال هربرت بلام عندما أخبرته ابنته بأنها تنوي قبول الوظيفة: «ستتضوَّرين جوعًا.. وستخنقك حرارة الجو وأنت تتضوَّرين جوعًا».

- «لا عليك من هذا الهُراء يا سكارليت[1]».

هكذا قال ستانلي عندما أخبرته بما قاله لها والدها. كانت تموج بالغضب، وعلى وشك البُكاء، لكنها بدأت تُقهقه، وأخذها ستانلي بين ذراعيه.

لفحتهما حرارة الجو بالفعل، لكنهما لم يتضوَّرا جوعًا. تزوَّج الحبيبان

---

(1) إشارة إلى شخصية سكارليت من فيلم «ذهب مع الريح».

في 19 أغسطس عام 1972، ودلفت باتي يوريس إلى فراش الزوجية عذراء. انزلقت عارية بين ثنايا الشراشف الباردة في منتجع فندقي في بوكنوس، بعقلٍ مُضطربٍ وعاصفٍ يموج بصواعق من الرغبة والشهوة، وتُعكِّره سُحُبٌ داكنةً من الخوف. عندما انزلق ستانلي إلى جوارها بجسده الناعم بارز العضلات، بينما قضيبه يرتفع كعلامة تعجُّب من وسط شعر عانته البُنِّي، همست له: «لا تؤذني يا عزيزي».

قال لها: «لن أؤذيكِ أبدًا».

ثم أخذها بين ذراعيه، وقد كان هذا وعدًا حفظه بأمانة إلى ليلة 28 مايو 1985.. ليلة الاستحمام.

مضى عملها بالتدريس على ما يُرام، وحصل ستانلي على وظيفة سائق شاحنة مخبز نظير مئة دولارٍ في الأسبوع. في نوڤمبر من تلك السنة، عندما افتُتِح مركز تيرنور فلاتس للتسوُّق، حصل ستانلي على وظيفة في مكتب إتش أند آر نظير مئة وخمسين دولارًا، وبذلك وصل دخلهما المُشترك إلى 17000 دولار في السنة، وقد بدا لهما هذا كثروة طائلة، في تلك الأيَّام عندما كان سعر البنزين خمسة وثلاثين سنتًا للجالون الواحد، ويمكنك الحصول على رغيف الخبز الأبيض مُقابل نيكل أو أقل. لذا في مارس عام 1973، ودون جلبة أو ضجيج، ألقت باتي يوريس بحبوب منع الحمل التي تتعاطاها بعيدًا.

في عام 1975، ترك ستانلي وظيفته في مكتب إتش أند آر وفتح مشروعه الخاص. الأصهار الأربعة ارتأوا أن هذه خطوة خرقاء متهوِّرة. لا لأن ستانلي لا يستحق إدارة نشاطه الخاص... حاشا لله، من يقول هذا! لكن التوقيت باكر جدًّا، هكذا اتَّفق جميعهم. كما أنه يضع عِبئًا ماليًا كبيرًا على كاهل باتي. («على الأقل إلى أن يزرع ذلك التَّافه بذرته فيها، ثم سيصير مطلوبًا مني حمل عبءهما بنفسي»، هكذا أخبر هربرت بلام أخاه بوجهٍ كالح بعد ليلة من السُكر في المطبخ). كان رأي الأصهار الأربعة أن الرَّجُل يجب ألا يُفكِّر في بدء عمله الخاص قبل أن يبلغ سنًّا أكثر نُضجًا... كالسابعة والثمانين مثلًا.

ومن جديد، بدا ستانلي واثقًا من نفسه بشكلٍ خارق. كان يافعًا، ووسيمًا، ولامعًا، وموهوبًا، وقد أقام علاقاتٍ ومعارف عديدة في أثناء عمله شغيِّلًا

لدى بلوك. كل هذه الأشياء مُؤهلاتٍ قوية. إنما لم يكن يتسنَّى لستانلي وقتها معرفة أن شركة كوريدور ڤيديو الرائدة في أعمال شرائط الڤيديو الناشئة حديثًا كانت على وشك الاستقرار على رقعة ضخمة من الأرض الزراعية المُجرَّفة على بُعد أقل من عشرة أميال من الضاحية التي انتقل إليها آل يوريس في نهاية المطاف في عام 1979، ولم تكن تتسنَّى له معرفة أن كوريدور أتت إلى السوق لعمل دراسة تسويقية استقصائية مستقلة بعد أقل من عام من انتقالها إلى ترينور. حتَّى إن كان ستان مُطَّلعًا على بعض هذه المعلومات، لم يكن بالتأكيد ليُصدِّق أنهم قد يغامرون بتعيين شابٍ يهودي بعوينات يتصادف أيضًا أنه «اميانكي»[1] مكروه.. يهودي باسم الثغر، صاحب مشية متأنقة كعارضي الأزياء، ويهوى ارتداء الچينز واسع الساقين في أيَّام عطلته، ولا تزال آثار حَب الشباب على وجهه من أيَّام مُراهقته. لكنهم فعلوها وعرضوا عليه الوظيفة بالفعل، وقد بدا أن ستان كان على عِلمٍ مُسبقٍ بالأمر طوال الوقت.

عمله مع كيه ڤيه أدَّى بعد ذلك إلى وظيفة بدوامٍ كامل براتب ابتدائي 30 ألف دولار في السنة.

– «وهذه ليست إلا البداية فحسب»، هكذا قال ستانلي لباتي في الفراش ذات ليلة، وأردف: «الشركة ستنمو بمعدل متسارع في أغسطس يا عزيزتي. إذا لم ينتهِ العالم خلال العشر سنوات القادمة أو نحو ذلك، فستحتل كوريدور الصدارة في المجال قدمًا بقدمٍ مع كوداك وسوني وآر سي آيه».

سألته وهي تعرف ردَّه مُسبَّقًا: «ماذا ستفعل إذًا؟».

قال لها: «سأخبرهم أنه كان من دواعي شرفي العمل معهم». ضحكا كثيرًا.. ثم ضمَّها ستان إليه وقبَّلها. بعدها بلحظاتٍ قليلة اعتلاها، واختبرا معًا نشوة، فاثنتين، فثلاثًا.. كصواريخ مُضيئة تُقلع في سماء الليل... لكن مُمارستهما الحميمة لم تُخلِّف طفلًا.

عمله في كوريدور ڤيديو أوصله إلى علاقاتٍ هامة مع بعضٍ من أكثر

(1) لفظٌ عاميٌّ دارج يصف مواليد أو سُكَّان الولايات الشمالية من الولايات المتحدة، لتفريقهم عن سُكَّان الجنوب.

رجال أتلانتا ثراءً ونفوذًا، وقد اندهش الزوجان لمعرفتهما أن أولئك الرجال كانوا في الغالب خَيِّرين. في صحبتهم، وجد كلاهما درجة من القبول ورقة فؤاد وسعة أُفُق لم تكن معروفة تقريبًا في الشمال. تذكَّرت باتي أن ستانلي كتب خطابًا إلى والديه في الوطن يقول فيه: أفضل أثرياء أمريكا يعيشون في أتلانتا، جورجيا، وسوف أساعد بعضهم في أن يصيروا أكثر ثراءً، وفي المقابل سيساعدونني لأكون أكثر ثراءً، ولن يملكني أحدٌ سوى زوجتي باتريشيا، وبما أنني أملكها بالفعل، فأظنُّ أنه لا ضير في ذلك.

بحلول ذلك الوقت كانا قد انتقلا من ترينور، وأسَّس ستانلي شركته ووظَّف ستة أشخاص. في عام 1983 أصبح دخلهما السنوي في نطاقٍ جديدٍ مجهولٍ بالكامل لهما. نطاقٍ لم تسمع باتي به إلا من خلال الشائعات الأكثر خفوتًا.. نطاق الأصفار الستة الأسطوري، وقد حدث كل شيءٍ بذات سهولة اختراق نصلٍ لقالب من الزبد. كان هذا الأمر يخيفها أحيانًا، وذات مرَّة ألقت بدعابة عصبية عن عقد صفقة مع الشيطان. ضحك ستانلي كثيرًا حتَّى كاد أن يختنق، لكن بالنسبة إليها لم يبدُ الأمر مُضحكًا لهذه الدرجة، وافترضت أنه لن يكون كذلك أبدًا.

السُلحفاة لن تستطيع مُساعدتنا.

أحيانًا، ودون أيِّ سببٍ وجيه على الإطلاق، كانت تستيقظ من نومها وهذه الفكرة عالقة في عقلها كشظية أخيرة من حلمٍ منسيٍ آخر، ثم تلتفت إلى ستانلي وتشعر بحاجة إلى لمسه.. حاجة إلى التأكُّد أنه ما زال موجودًا.

كانت حياتهما جيِّدة. لم تكن ثمَّة ليال سُكرٍ جامحة تشوبها.. لا خيانة.. لا مُخدِرات.. لا ملل.. لا جدال عقيم عمَّا يجب عمله تاليًا. لم يُعكِّر صفوها سوى سحابة واحدة، وقد كانت أمها أوَّل من أشار إلى وجود هذه السحابة، وفي اجترارها لذكريات الماضي الآن، بدت حقيقة أن أمها كانت الشخص الذي أشار لهذه السحابة في نهاية المطاف أمرًا قدريًّا.. وقد جاء الأمر أخيرًا في هيئة سؤال في أحد خطابات روث بلام إليها. كانت تكتب إلى باتي مرَّة كل أسبوع، وذلك الخطاب بعينه قد جاءها في بدايات خريف عام 1979، بعد أن أُعيد توجيهه من عنوانهما القديم في ترينور، وقد قرأته باتي بائسة ومُجتثَّة

ومُنتزعة في غرفة المعيشة المُمتلئة بصناديق الورق المقوَّى التي تبرز منها أشياءهما التي لم تُرتَّب بعد.

في معظم جوانبه، بدا خطابًا مُعتادًا ممَّا تبعثه روث بلام من الوطن: أربع صفحات زرقاء تتلاصق الكلمات فيها، وكلٌّ منها معنون بـ مُجرَّد بطاقة من روث. كان خطَّها الرديء لا يُقرأ تقريبًا، وقد اشتكى ستانلي ذات مرَّة أنه لا يستطيع قراءة كلمة واحدة ممَّا تكتبه حماته، وقد ردَّت عليه باتي: «ولِمَ ترغب في قراءتها من الأساس؟».

كان هذا الخطاب مليئًا بأخبار أمها التي صارت سمة لا تُمحى لها؛ وذلك لأن ذاكرة روث بلام لطالما ظلَّت دلتا نهرٍ واسعة تمتدُّ من نقطة الحاضر في حركة مروحية دائمة الاتِّساع من العلاقات المُتشابكة. كثيرٌ من الناس الذين لم تتوقَّف أمها في الكتابة عنهم كانوا مستمرِّين في التلاشي من ذاكرة باتي كما تتلاشى وتبهت الصور في حافظة صور قديمة، لكن بالنسبة إلى روث ظلَّ جميعهم في مُخيِّلتها ذكرياتٍ طازجة. اهتمامها بحالتهم الصحية وفضولها نحو مختلف أعمالهم بدا أنهما لن يزولا أبدًا، وقد كانت تنبؤاتها مُتشائمة دائمًا بلا توانٍ. علمت باتي من الخطاب أن نوبات آلام المعدة المُتكرِّرة ما زالت تعتري والدها، الذي كان واثقًا أن الأمر لا يعدو كونه سوء هضم. فكرة أنه قد يكون مُصابًا بقرحة -هكذا كتبت أمها- لم تخطر على باله حتَّى بدأ يسعل دمًا، ورُبَّما لم تخطر له حتَّى في ذلك الحين. أنت تعرفين أباكِ يا عزيزتي، إنه يعمل كالبغل، كما أنه يُفكِّر كبغلٍ أيضًا أحيانًا، وليسامحني الرب على قول ذلك. علمت باتي أيضًا أن راندي هرلينجن أجرت عملية ربط لقناة فالوب، وقد استخرج الأطباء أكياسًا في حجم كرات الجولف من مبيضيها، لا سرطان.. حمدًا لله، لكن سبعة وعشرين كيسًا مبيضيًّا، هل هذا مُميت؟ كانت أمها متأكِّدة أن السَّبب هو ماء مدينة نيويورك الملوَّث.. الهواء ملوَّثٌ بدوره، لكنها كانت مُقتنعة أن الماء هو ما يتمكَّن من المرء في النهاية، فهو يُراكم ترسُّبات داخل الجسد على مرِّ السنين، وأعربت أمها عن شكِّها حول ما إذا كانت باتي تعرف عدد المرَّات التي تشكر فيه الرب أن «أنتما يا طفلان» تعيشان في الريف حيث الهواء والماء -وتحديدًا الماء- أكثر نقاءً (بالنسبة

إلى روث كان الجنوب كله -بما في ذلك أتلانتا وبرمنجهام- يُعدُّ ريفًا). في الخطاب أيضًا ذكرت روث أن العمَّة مارجريت تخوض معركة مع شركة الكهرباء مرَّة أخرى، وأن ستيلا فلانجان تزوَّجت من جديد (بعض الناس لا يتعلَّمون أبدًا)، وأن وريتشي هوبر طُرِدَ من عمله ثانيةً.

في وسط هذه الثرثرة الهاذرة -الماكرة أحيانًا- التي لا تنقطع، وفي منتصف إحدى الفقرات، ودون أيِّ صلة بما أتى سابقًا أو لاحقًا، سألت روث بلام السؤال المُهاب بطريقة عارضة: «إذًا متى أنت وستانلي ستجعلانا أجدادًا؟ نحن جاهزان لتدليل الطفل (أو تدليلها) إلى حدٍّ إفساده. إذا لم تكوني قد لاحظتِ يا باتسي، نحن لن نصغر مع مرور الوقت». ثم انتقلت بعد ذلك إلى الفتاة برونكر التي تقطن في نهاية المُجمَّع السكني التي أعادتها المدرسة إلى المنزل عقابًا لها لأنها لم تكن ترتدي حمَّالة صدر، ولأنها ترتدي بلوزة شفَّافة يمكنك الرؤية من خلالها.

ذهبت باتي إلى الغُرفة التي ستصير بعد ذلك غُرفة نومهما يلِفُّها التراخي والضعف والحنين إلى منزلهما القديم في ترينور، شاعرة بعدم ثقة وبخوفٍ مُتزايد ممَّا تحمله الأيَّام لها، وتمدَّدت على حشية الفراش. كان هيكل الفراش الخشبي ما زال في المرآب، بينما الحشية تستلقي بمُفردها على الأرضية الواسعة العارية من السجَّاد، وقد بدت كقطعة أثرية مُلقاة على شاطئ أصفر غريب، وضعت باتي رأسها بين ذراعيها وجلست في مكانها تبكي قرابة عشرين دقيقة وهي تفترض أن البكاء كان قادمًا لا محالة، وأن خطاب أمها فقط عجَّل بقدومه، بالطريقة نفسها التي يُدغدغ بها الغبار أنفك قبل أن تعطس.

ستانلي يريد أطفالًا.. وهي تريد أطفالًا. كانا متَّفقين حول هذا الشأن بدرجة استمتاعهما بأفلام وودي آلان.. بدرجة مواظبتهما على زيارات المعبد اليهودي قلَّت أو كثُرت.. بدرجة ميولهما وانحيازاتهما السياسية.. بدرجة بغضهما للماريجوانا.. ومئات الأشياء الكبيرة والصغيرة الأخرى. كانت ثمَّة غرفة إضافية في منزلهما في ترينور قسماها بالتساوي من المنتصف. على اليسار كان لديه مكتب للعمل ومِقعد للقراءة، وعلى اليمين كانت لديها ماكينة حياكة وطاولة أوراق لعب تجمع عليها أحاجي الصور المُجزَّأة. كان ثمَّة

اتفاق قوي جدًّا بينهما بخصوص هذه الغرفة وإن كان نادرًا ما تحدَّثا به. كان موجودًا فحسب، مثل أنفيهما والخاتمين في إصبعي يد كلٍّ منهما اليُسرى. يومًا ما تلك الغرفة ستؤول لآندي أو چيني. لكن أين ذلك الطفل؟ احتفظت ماكينة الحياكة وسلال الخيط وطاولة أوراق اللعب والمكتب والمقعد الوثير جميعًا بأماكنها، وبدت مع مرور كل شهر جديد أنها تُرسِّخ احتلالها ووجودها في الغرفة، وتزيد من توطيد شرعيتها. هكذا كانت تُفكِّر، برغم أنها لم تتمكَّن قط من بلورة الفكرة بشكلٍ كامل في عقلها، تمامًا كلفظة إباحية. كان الأمر برُمَّته يتراقص مراوغًا بعيدًا عن قدرتها على الوصف والتحديد. لكنها تتذكَّر حين جاءتها إحدى دوراتها الشهرية، وهي تجذب درج الصوان الخشبي أسفل حوض الحمام لتستخرج فوطة صحية، لقد تذكَّرت النظر إلى عبوَّة فوط ستايفري والتفكير في أنها -العبوة- تكاد تبدو مُعتدَّة بنفسها، تكاد تبدو كمن تقول لها: كيف حالك يا باتي! نحن أطفالك. نحن الأطفال الوحيدون الذين ستحظين بهم على الإطلاق.. ونحن جوعى.. أرضعينا.. أرضعينا دمًا.

في عام 1976، بعد ثلاث سنوات من آخر مرَّة استخدمت فيها حبوب منع الحمل، ذهبا لاستشارة طبيب يُدعى هاركڤاي في أتلانتا. قال له ستانلي: «نريد معرفة ما إذا كان ثمَّة خطب ما بنا.. ونريد معرفة إذا كان يوجد أيُّ شيء نستطيع فعله حيال الأمر إن وُجِد».

أجرى كلاهما الفحوصات، وقد أظهرت أن حيوانات ستانلي المنوية مُفعمة بالنشاط والحيوية، وأن بويضات باتي خصيبة، وأن كل القنوات التي يُفترض أن تكون مفتوحة، مفتوحة.

أخبرهما هاركڤاي -الذي لم يكن يضع خاتمَ زواج وكان ذا وجهٍ بشوشٍ متورِّدٍ كطالب عاد لتوِّه من عطلة نصف العام قضاها في التزلُّج في كولورادو- أن الأمر كله رُبَّما يتعلَّق بتوتُّرٍ عصبي. أخبرهما أن هذه المُشكلة ليست بأيِّ حال غير شائعة. أخبرهما عن وجود مُتلازمة نفسية تبدو أعراضها مُماثلة بشكلٍ أو بآخر بالعجز الجنسي... كلَّما زادت الرغبة، قلَّت المقدرة. يجب عليهما أن يسترخيا ويُريحا أعصابهما. يجب عليهما -إن استطاعا- أن يتناسيا كل شيء عن الإنجاب عندما يمارسان الجنس.

بدا ستانلي غاضبًا وهما في طريقهما إلى المنزل، فسألته باتي عن السَّبب. قال لها: «أنا لا أفعل هذا قط».

- «تفعل ماذا».

- «التفكير في الإنجاب وأنا معكِ».

بدأت تضحك، رغم أنها في ذلك الحين كانت تشعر بالوحدة قليلًا والخوف. في تلك الليلة، أثار ستانلي ذعرها وهي مُستلقية جواره في الفراش لفترة طويلة ومُعتقدة أنه لا بُدَّ ناعس عندما تحدَّث في الظلام بصوتٍ عالٍ. كان صوته جافًا لكنه مع ذلك كان مُختنقًا بالدموع. قال: «المُشكلة عندي. هذا خطأي».

تكوَّرت مقتربة ناحيته، ومدَّت يدها إليه تتلمَّسه، ثم احتضنته من الخلف. قالت له: «لا تكن ساذجًا». لكن قلبها كان ينبض سريعًا.. سريعًا جدًّا أكثر من اللازم، ولم يكن هذا بسبب مُباغتته لها فقط.. لقد بدا الأمر وكأنه استطاع قراءة عقلها وعثر على إدانة سرية تحملها في تلافيفه دون أن تعلم هي نفسها عنها شيئًا حتَّى اللحظة، ودون سبب شعرت باتي -بل بالأحرى علمت- أنه كان مُحِقًّا. ثمَّة أمر ليس على ما يُرام، وهذا الأمر ليس بها، بل به. شيءٌ ما داخله.

همست بحزم وفمها قريب من كتفه: «لا تكن أخرق إلى هذا الحد». كان جسده يتعرَّق قليلًا، وأدركت فجأة أنه خائف. كان الخوف يسري في جسده ويتفصَّد خارجًا منه في موجاتٍ باردة، وصار استلقاؤها العاري جواره كالاستلقاء عارية أمام ثلَّاجة مفتوحة.

قال بتلك النبرة الجافة والمُختنقة بالتأثُّر في الآن ذاته: «لست أخرق، ولا أتفوَّه بحماقات.. وأنت تعلمين أن الأمر بسببي، لكنك تجهلين السَّبب».

- «لستَ مُتبصِّرًا لتتأكَّد من أمرٍ كهذا».

قالتها له بصوتٍ قاسٍ مُوَبِّخ، بطريقة أمها عندما تكون خائفة. لكن حتَّى وهي توبِّخه، سرت رعدة في جسدها كأنها جلدة سياط جعلتها تلتوي. استشعر ستانلي الأمر فأحكم تطويقها بذراعيه.

ثم قال: «أحيانًا، أحيانًا أظنُّ أنني أعلم السَّبب. أحيانًا تعتريني أحلامٌ..

كوابيس.. وأستيقظ منها مُفكِّرًا: الآن أعلم، الآن أعلم ما خطبي. لا أتحدَّث عن كونك فقط لا تحملين مني، بل عن كل شيء. كل ما هو ليس على ما يُرام في حياتي».

- «ستانلي، حياتك لا يشوبها شيءٌ!».

قال: «لا أعني من الداخل. الأمور على ما يُرام من الداخل. أنا أتحدَّث عن شيءٍ ما خارجها. شيءٌ ما يُفترض أنه انتهى لكنه لم ينتهِ. أستيقظ من تلك الأحلام وأُفكِّر: حياتي السعيدة كلها ليست سوى مركز هادئ لإعصارٍ ما لا أفهمه، وأشعر بالخوف. لكن بعدها يتلاشى الأمر، كعادة الأحلام».

كانت تعلم أنه أحيانًا ما تعتريه أحلامٌ مُقلقة. لقد أيقظها نحو ست مرَّات وهو يصرخ ويركل ويئن مُحتدمًا، ورُبَّما حدث أنها لم تستيقظ خلال نوبات اضطراب مُظلِمة أخرى لا تعلم عنها شيئًا، وفي كل مرَّة كانت تمد فيها يدها إليه وتسأله ما الأمر، كان يُجيبها بالرد نفسه: لا أستطيع التذكُّر. ثم يمد يده إلى علبة التبغ ويستخرج واحدة يُدخِّنها وهو جالس في الفراش، مُنتظرًا بقايا الحلم أن تنضح خارجه عبر مسامه كقطرات عرقٍ كريه.

لا أطفال إذًا. في ليلة 28 مايو 1985 -ليلة الاستحمام- كان أصهارهما الأربعة لا يزالون مُنتظرين قدوم حفيدهم. الغرفة الزائدة ما زالت غرفة زائدة، وفوط ستايفري بحجميها الكبير والصغير ما زالت تحتل مكانها المعتاد في الدرج أسفل حوض الحمَّام، والأحمر القاني ما زال يأتيها في زياراته الشهرية المُنتظمة. أمها التي كانت مشغولة تمامًا بشؤونها الخاصة توقَّفت عن السؤال في خطاباتها أو في أثناء زيارات ستانلي وباتي لها نصف السنوية في نيويورك، وقد توقَّفت الدُعابات المازحة حول ما إذا كانا يتناولان جرعاتهما من ڤيتامين E أم لا. أيضًا توقَّف ستانلي عن ذكر الأطفال، لكن أحيانًا عندما لم يكن يلاحظ أنها تنظر إليه، ترى باتي ظِلًّا يُكدِّر وجهه. ظلًا غريبًا، كأنه يحاول جاهدًا تذكُّر شيء ما.

بخلاف ذلك، استمرَّت حياتهما سعيدة بدرجة كافية حتَّى رنَّ جرس الهاتف في منتصف برنامج صراع العائلات في ليلة الثامن والعشرين من مايو. كانت باتي تجلس مُحاطة بستة من قمصان ستانلي، وبلوزتين لها، وعِدَّة

الحياكة، وصندوق الأزرار. بينما يجلس ستانلي مُمسِكًا برواية ويليام دينبرو الجديدة التي لم يُطرح منها بعد طبعة شعبية بغلافٍ ورقي عادي. على غلاف الكتاب الأمامي ثمَّة مسخ يزمجر مُكشِّرًا عن أنيابه. وعلى الغلاف الخلفي صورة رجلٍ أصلع يرتدي نظَّارة.

كان موضع جلوس ستانلي أقرب إلى الهاتف، وعندما رنَّ الجرس التقطته سريعًا قائلًا: «ألو، هنا منزل آل يوريس».

ثم استمع، بينما بدأ خطٌّ عابس يتنامى بين حاجبيه. «تقول من؟».

شعرت باتي بخوفٍ لحظي. لاحقًا، سيجعلها الخزي تكذب وتخبر أبويها أنها علمت بوجود شيءٍ ما خطأ من اللحظة التي رنَّ الهاتف فيها، لكن في حقيقة الأمر كانت هذه اللحظة الوحيدة التي قبضها الخوف فيها، عندما وجدت نفسها ترفع تلك النظرة الخاطفة إليه مُبعدة عينيها عن الملابس التي تحيكها. لكنها رُبَّما كانت على حق. رُبَّما كلاهما اشتبها أن شيئًا ما قادم قبل هذه المُكالمة الهاتفية بوقتٍ طويل، شيئًا لا يتناسب مع منزلها الجميل القابع وراء السياج المُنخفض المصنوع من خشب الطقسوس، شيئًا جليًّا تمامًا لدرجة انعدام أهمِّية الاعتراف به... كان ذلك الخوف الحاد المُفاجئ كطعنة معولٍ في لوح ثلج يسحبه أحدهم بسُرعة كبيرة.

أهي أمي؟ هكذا حرَّكت شفتيها إليه وهي تُفكِّر أن والدها الذي يحمل أربعين رطلًا من الوزن الزائد، والذي يُعاني ممَّا يُسميه «ألم بطن» منذ بداية الأربعينيات من عمره، قد أُصيب بأزمة قلبية.

هز ستان رأسه نافيًا، ثم ابتسم نوعًا ما بسبب شيءٍ ما قاله الصوت عبر الهاتف. «أهو أنت... أنت! حسنًا، فلتحلُّ اللعنة عليَّ! مايك! كيف عرف...».

ثم صمت من جديد.. مُنصتًا. مع تلاشي ابتسامته لاحظت باتي -أو ظنَّت أنها لاحظت- تعبيره التحليلي، ذلك الذي يعتلي وجهه عندما يبوح أحدهم إليه بمشكلة أو يشرح تغيُّرًا فُجائيًّا في الوضع الراهن أو يخبره بشيءٍ غريبٍ ومُثير للاهتمام. هذا التكهُّن الأخير هو الأقرب إلى الصواب غالبًا، أو هكذا فكَّرت. أهو عميل جديد؟ صديق قديم؟ يجوز. أدارت باتي اهتمامها إلى التلفاز مرَّة أخرى، حيث شاهدت امرأة تلف ذراعيها حول عُنُق ريتشارد

داوسون وتُقبِّله بجنون. كانت باتي تعتقد أن ريتشارد داوسون يستحق أن ينال قُبُلات أكثر من بلارني ستون.. وفكَّرت أيضًا أنها نفسها لا تُمانع تقبيله.

عندما بدأت باتي البحث عن زرٍ أسود يُناسب إحلال ذلك المفقود من قميص ستانلي الچينز الأزرق، بدأت تعي بشكلٍ مُبهم أن المُحادثة تميل إلى مُنحنى أكثر سلاسة. كان ستانلي يُهمهم من حينٍ لآخر، وقد سأل المُتحدِّث مرَّة: «هل أنت مُتأكِّد يا مايك؟»، ثم في النهاية بعد صمتٍ طويل قال: «حسنًا، فهمت. أجل، أنا... أجل. نعم، كل شيء، وصلتني الصورة كاملة. أنا... ماذا؟... لا، لا أستطيع أن أعِد بهذا تمامًا، لكنني سأُفكِّر في الأمر مليًّا. أنت تعرف أن... أوه... هل فعل حقًّا؟... حسنًا، بالتأكيد! قطعًا سأفعل. نعم... بالطبع... شكرًا لك... أجل. مع السلامة». ثم أغلق الخط.

رمقته باتي ووجدت أنه ينظر شاردًا إلى الفراغ الذي يعلو جهاز التلفاز، وفي البرنامج الذي تتابعه، كان الجمهور يُصفِّق بحرارة لعائلة ريان التي سجَّلت لتوِّها مئتين وثمانين نقطة، معظمها عن طريق تخمين أن الجمهور سيُجيب بـ «الرياضيات» عن سؤالِ «أيُّ درس يقول أولياء الأمور أن الأطفال يبغضونه أكثر من أيِّ شيء في المدرسة؟». كان آل ريان يتقافزون من الفرح. لكن ستانلي -على النقيض- يقطِّب جبينه. لاحقًا ستُخبر والديها أنها ظنَّت أن وجه ستان بدا شاحبًا وأن لونه تغيَّر قليلًا، وهو ما شعرت به حقًّا، لكنها أهملت إخبارهما أنها نفضت الفكرة عن عقلها وقتها مُعتقدة أن الأمر لا يعدو خدعة بصرية بسبب ضوء مصباح المنضدة ذي الزجاج الأخضر.

- «من هذا يا ستان؟».

- «همممم؟».

هكذا غمغم ستان ونظر إليها. ظنَّت أن النظرة التي تعتلي وجهه نظرة ذهول طفيف، تمتزج رُبَّما بانزعاج بسيط. لاحقًا فقط، عندما أعادت عرض المشهد على عقلها مرارًا وتكرارًا، بدأت تؤمن بأنه كان تعبير رجُلٍ يحل الأسلاك التي تربطه بالواقع بشكلٍ مُمنهج سلكًا وراء الآخر.. وجه رجُلٍ يغادر من الواقع ويتَّجه إلى المجهول.

- «من كان يتحدَّث عبر الهاتف؟».

قال لها: «لا أحد. لا أحد حقًّا. أظنُّ أنني سأذهب للاغتسال». ثم نهض واقفًا.

- «ماذا؟ في السابعة مساءً؟».

لم يجبها، وخرج من الغرفة فحسب. رُبَّما كانت ستسأله هل ثمَّة أمر ما خطأ، أو رُبَّما كانت ستذهب خلفه وتسأله إن كان يشعر باستياءٍ شديد بخصوص أيِّ شيء (كان ستانلي مُتفتِّحًا تمامًا في ما يخص الجنس، لكنه يكون مُتزمِّتًا بدرجة غريبة حيال الأمور الأخرى أحيانًا، وأن يقول إنه سيذهب للاغتسال عندما يجد نفسه مُضطرًّا لقول شيءٍ لا يتوافق معه ليس بالسلوك الغريب عنه تمامًا). لكن ثمَّة عائلة جديدة تعتلي المنصة الآن على الشاشة.. آل بيسكابوس.. وقد علمت باتي أن ريتشارد داوسون سيعثر على نكتة طريفة يقولها بخصوص هذا الاسم، وبالإضافة إلى هذا، كانت باتي تمرُّ بدقائق سوداء في محاولة العثور على زرٍ أسود، رغم أنها كانت تعلم بوجود كثيرٍ منها في صندوق الأزرار. إنها تختبئ.. بالطبع.. هذا التفسير الوحيد السائغ...

لذا تركت باتي زوجها يمضي في طريقه ولم تُفكِّر فيه مرَّة أخرى إلا مع نزول تترات النهاية، عندما رفعت عينيها ولاحظت المِقعد الخاوي. لقد سمعت صوت الماء يجري في المغطس في الدور العلوي، ثم سمعته يتوقَّف بعد خمس أو عشر دقائق تلت... لكنها الآن أدركت أنها لم تسمع صوت الثلَّاجة يُفتح ويُغلق، وهذا يعني أنه صعد إلى أعلى دون بيرة. لقد اتَّصل أحدهم به وألقى بعبءٍ ثقيل الوطأة على كاهليه، وماذا فعلت هي؟ هل عرضت عليه كلمة مواساة واحدة؟ لا. هل حاولت إبعاد العبء قليلًا عن كاهله؟ لا. هل لاحظت وجود خطبٍ ما من الأساس؟ للمرة الثالثة، لا، وكل ذلك بسبب ذلك البرنامج التليفزيوني الغبي. لا يمكنها حتَّى إلقاء اللوم على الأزرار، فلم تكن في الحقيقة سوى مُجرَّد عُذر.

حسنًا.. سوف تجلب له عبوة بيرة ماركة ديكسي، وتجلس جواره على حافَّة المغطس، وتُدلِّك ظهره كفتيات الجيشا، بل وتغسل شعره إذا رغب في الأمر، وتعرف منه على الأقل ما المُشكلة... أو من المُشكلة.

التقطت عبوة بيرة باردة من الثلاجة وصعدت إلى أعلى. أوَّل علامة جعلت

القلق يشق طريقه في قلبها كانت رؤيتها لباب الحمَّام مُغلق. ليس مواربًا فحسب، بل مُغلق بإحكام. ستانلي لا يُغلق الباب عليه قط وهو يستحم، وقد كان الأمر دعابة بينهما.. بابٌ مُغلق يعني أنه يسمع نصائح أمه التي تعلَّمها في الصغر؛ بابٌ مفتوح يعني أنه لن يتورَّع عن الاستماع إلى النصائح التي تركتها أمها للآخرين كي يُعلِّموها له.

نقرت باتي الباب بأظافرها، ثم وعت فجأة -كالصاعقة- لصوت النَّقر المُثير للقشعريرة الذي صدر عن الخشب. كان النقر على باب الحمَّام، والاستئذان كالضيوف، شيئًا لم تفعله باتي قط طوال زواجها. لا هنا، ولا على أيِّ باب آخر في المنزل.

تنامى القلق داخلها بغتةً، وتذكَّرت بحيرة كارسون، حيث اعتادت الذهاب للسباحة كثيرًا وهي فتاة. في بداية شهر أغسطس تكون البحيرة دافئة كمغطس مُجهَّز، ثم تُصادف وأنت في الماء تيَّارًا باردًا من شأنه أن يثير رعدة مُفاجئة ومنعشة فيك. في لحظة أنت دافئ، وفي اللحظة التالية تبدو درجة الحرارة وكأنها انخفضت عشرين درجة مئوية أسفل فخذيك. بخلاف شعور الانتعاش، كان هذا تمامًا ما شعرت به حاليًا، كما لو أنها مرَّت بتيَّارٍ بارد. فقط لم يكن هذا التيَّار البارد يمرُّ أسفل فخذيها ليُجمِّد لها ساقيها اليافعتين الطافية فوق الأعماق الداكنة لبُحيرة كارسون.

هذا التيَّار يُجمِّد قلبها.

- «ستانلي؟ ستان؟».

هذه المرَّة زادت من حدَّة النقر بأظافرها على الباب، ثم خبَّطت بقوَّة عليه، وعندما لم تتلقَّ إجابة، بدأت تقرعه بقوَّة كمطرقة.

- «ستانلي؟».

لم يعد قلبها بين ضلوعها الآن. كان ينبض في حلقها، ممَّا جعل التنفُّس صعبًا عليها.

- «ستانلي!».

خلال الصمت الذي تبع صيحتها الأخيرة (وقد أثار صياحها هنا في الأعلى -على بعد أقل من ثلاثين قدمًا من المكان الذي تضع فيه رأسها

وتنام كل ليلة- ذعرها أكثر)، سمعت صوتًا أطلق سراح الهلع من أقبية عقلها وقد أتاها كضيف غير مرغوب فيه، ويا له من صوتٍ ضعيف حقًّا هذا الذي أرجفها. كان صوت ماءٍ يقطر. بلينك... صمت. بلينك... صمت. بلينك... صمت... بلينك...

بعين الخيال، استطاعت باتي رؤية قطرات الماء تتشكَّل على خطم الصنبور، ثم تنتفخ ويثقل وزنها.. وتصير حبلى، ثم تسقط: بلينك.

فقط هذا الصوت: لا غير. ثم تيقَّنت فجأة بشكلٍ مُريع أن ستانلي -لا والدها- من أُصيب الليلة بنوبة قلبية.

أمسكت باتي بمقبض الباب الزجاجي وحرَّكته وهي تئن. لكن الباب أبى أن يتحرَّك: كان مُحكم الغلق، وفجأة باغتت ثلاث لاءات عقل باتي يوريس في تعاقبٍ سريع: ستانلي لا يستحم باكرًا في المساء. ستانلي لا يغلق الباب عليه إلا وهو يقضي حاجته، وأخيرًا، ستانلي لا يُحكم غلق الباب بالقفل في وجهها قط.

تساءلت بجنون، هل يُعقل أن يستعد المرء لنوبة قلبية؟

لعقت باتي شفتيها بلسانها -وقد أصدر ذلك صوتًا شبيهًا بورقة صنفرة خشنة تنزلق فوق لوحٍ خشبي- ونادت اسمه مُجدَّدًا. لم تأتها إجابة باستثناء صوت التنقيط الثابتِ المُتعمِّد من الصنبور. نظرت إلى أسفل ورأت أنها ما زالت تحمل عبوَّة بيرة ديكسي في إحدى يديها. نظرت إليها بغباء، بينما قلبها يتواثب كالأرنب في حلقها. نظرت إليها كأنها لم ترَ عبوة بيرة من قبل قط طوال حياتها حتَّى هذه اللحظة، وبالفعل بدا أنها لم ترَ واحدة من قبل قط، على الأقل لم ترَ واحدة كهذه، لأنها حينما طرفت عينيها تحوَّلت العبوَّة إلى سمَّاعة هاتف سوداء ومتوعِّدة بالويل كأفعى.

فحَّت الأفعى في أذنها: «كيف أستطيع مُساعدتك يا سيِّدتي؟ هل تواجهين مُشكلة؟». ألقت باتي بالسمَّاعة إلى مهدها المعدني وخطت بعيدًا وهي تفرك يدها التي كانت تُمسك بها. نظرت حولها ورأت أنها قد عادت إلى غرفة المعيشة حيث التلفاز، وأدركت أن الهلع الذي احتل مُقدمة عقلها كصيَّاد يصعد درجًا بخُطى حثيثة تمكَّن منها. الآن استطاعت تذكُّر إلقاءها لعبوَّة

البيرة على باب الحمَّام ثم الهرع بتهوِّر أسفل الدرج وهي تُفكِّر: الأمر كله لا يعدو سهوة من نوعٍ ما وسنضحك عليها كثيرًا لاحقًا. لقد ملأ المغطس ثم تذكَّر أن لُفافات التبغ نفدت منه فخرج ليبتاع بعضها قبل أن يخلع ملابسه... بالتأكيد، لكنه فقط أغلق باب الحمَّام من الداخل قبلها، ولأنه وجد أن فتحَه مرَّة أخرى سيُكلِّفه كثيرًا من العناء، ففضَّل فتح النافذة التي تعلو المغطس وخرج منها مُتسلِّقًا حائط المنزل الجانبي كذُبابة. بالطبع، بالتأكيد، حتمًا...

كان الهلع يتنامى في عقلها من جديد، كقهوة سوداء مُرَّة تُهدِّد بالانسكاب من حافَّة الكوب. أغلقت باتي عينيها وقاتلت كي لا يحدث هذا، ووقفت ثابتة ومُسمَّرة تمامًا في مكانها. تمثال من الشحوب يدق النبض في حلقه.

الآن استطاعت تذكُّر كيف ركضت سريعًا إلى الأسفل، وكيف تعثَّرت قدماها على الدرج، وكيف هرعت إلى الهاتف. أوه، أجل.. بالتأكيد.. لكن من يُفترض أن تتصل به؟

بجنون، وجدت نفسها تُفكِّر: سأتَّصل بالسُلحفاة، لكن السُلحفاة لا تستطيع مُساعدتنا.

لم يهم الأمر على أيِّ حال. ضغطت الزر 0 بالكاد، ولا بُدَّ أنها قالت شيئًا غير مألوفٍ تمامًا، لأن عامل الهاتف سألها إن كانت تواجه مُشكلة. إنها تواجه مُشكلة بالفعل، لكن كيف يُمكنك إخبار هذا الصوت المجهول أن ستانلي أغلق باب الحمَّام بالقفل وأنه لا يُجيبها.. كيف تخبره أن صوت قطرات الماء المُنتظم في المغطس يُميت قلبها؟ يجب أن يُساعدها أحدهم. شخصٌ ما...

وضعت باتي كفَّها في فيها وعضَّته مُتعمِّدة. كانت تحاول التفكير، تحاول إجبار نفسها على التفكير.

المفاتيح الاحتياطية! المفاتيح الاحتياطية في درج خِزانة المطبخ.

انطلقت مُسرعة، وركلت في طريقها بأحد نعليها كيس الأزرار الموضوع جوار المِقعد. تناثرت الأزرار منه، وامضةً في ضوء المصباح كعيونٍ مصقولة لامعة، وقد لاحظت على الأقل نصف دزينة منها سوداء.

داخل باب الخِزانة التي تعلو الحوض المزدوج، كان ثمَّة لوحٌ مُعلَّق على هيئة مُفتاح كبير، صنعه أحد عملاء ستان في ورشته وأهداه له في

الكريسماس منذ عامين. كان اللوح مُفتاحي الشكل مُرصَّع بعقاقيف صغيرة، وقد عُلِّق فيها كل المفاتيح التي يحتاجها المنزل، نسختين على كل عقاف، وأسفل كل عقاف يوجد شريط لاصق، كل شريط مكتوب عليه بخط ستان الصغير النضيد: المرآب. العليَّة. الحمَّام المُقابل للدرج. الحمَّام العلوي، الباب الأمامي. الباب الخلفي، وإلى الجانب قليلًا، عُلِّق مُفتاحي سيَّارتين يحملان شعاري M–B وفولفو.

انتزعت باتي المُفتاح المعنون بـ حمَّام العليَّة، وبدأت تركض نحو الدرج، ثم أجبرت نفسها على السير. الركض جعل الهلع راغبًا في العودة، وقد كان الهلع قريبًا جدًا من السطح. أيضًا، إذا سارت فحسب، رُبَّما لن يقع أيُّ أمرٍ سيئ. أو، لو كان ثمَّة أمرٌ سيئ حدث، فالله سينظر إلى أسفل، ويرى أنها تسير بتروٍّ، عندها سيُفكِّر: أوه، هذا جيِّد.. لقد ارتكبت خطأً فادحًا، لكن ما زال أمامي وقت لإصلاح كل شيء.

صعدت باتي الدرج وتقدَّمت نحو باب الحمَّام المُغلق وهي تسير بتؤدة كامرأة في طريقها إلى اجتماع حلقة مناقشات الكتب للسيِّدات.

نادت عليه بخفوت: «ستانلي؟»، وهي تُجرِّب النقر على الباب مُجدَّدًا في الوقت نفسه، وقد صارت أكثر ارتعادًا بكثير من ذي قبل. لم ترغب في استخدام المُفتاح، لأن حتمية استخدامه بدا لها فعلًا ختاميًّا قاطعًا بشكلٍ ما. إذا لم يكن الله قد أصلح الأمر في وقت استخدامها للمُفتاح، فلن يُصلحه أبدًا. فقبل كل شيء، كان عصر المُعجزات قد ولَّى.

لكن الباب ما زال مُغلقًا، وثنائية بلينك–صمت المُستمرَّة كانت مُجيبتها الوحيدة.

ارتجفت يدها، واصطك المُفتاح وتخبَّط كثيرًا حول الصفيحة المعدنية قبل أن يعثر على طريقه إلى الثقب ويُزج بنفسه فيه. أدارت باتي المُفتاح وسمعت صوت القفل يعود إلى مكانه. مدَّت يدًا مُتردِّدة مُتعثِّرة إلى مقبض الباب الزجاجي الذي حاول الانزلاق من يدها مرَّة أخرى، ليس لأن الباب مُغلق هذه المرَّة، وإنما لأن راحة يدها كانت غارقة في عرقٍ كثيف. أحكمت قبضتها جيِّدًا وأدارت المقبض.. ثم فتحت الباب.

- «ستانلي؟ ستانلي؟ ستـ...».

نظرت باتي إلى المغطس الذي حجبته ستارة حوض الاستحمام الزرقاء المُعلَّقة على قضيبٍ حديدي وتمتدُّ بطوله إلى الجانب الآخر، ونست كيف تستكمل اسم زوجها. فقط حدَّقت إلى المغطس بوجهٍ كالحٍ كوجه طفل في أوَّل يوم له في المدرسة. بعد لحظات ستبدأ في الصراخ، وسوف تسمعها أنيتا ماكينزي التي تقطن في البيت المجاور، وستكون هي من ستتَّصل بالشُرطة ظانَّة أن أحدهم اقتحم منزل آل يوريس وأن أناسًا يُجرى قتلهم بالداخل.

لكن الآن، في تلك اللحظة تحديدًا، تسمَّرت باتي يوريس في مكانها دون أن تنبس ببنتِ شفةٍ ويداها مضمومتان إلى تنُّورتها القُطنية السوداء، بينما كان وجهِها خاشع وعيناها مُتَّسعتين عن آخرهما. ثم تحوَّلت نظرة الإجلال شبه الصوفي هذه إلى شيءٍ آخر. بدأت العينان المُتَّسعتان في الانتفاخ، والتوى فمها إلى الوراء في ابتسامة كريهة مُفزِعة من الرُّعب. حاولت الصراخ لكنها لم تقوَ عليه. كانت الصرخات أكبر من أن تغادر حلقها.

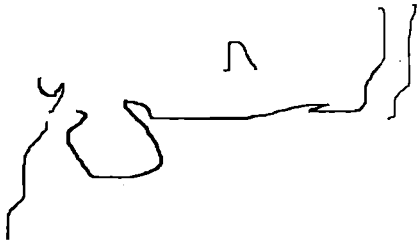
كان الحمَّام مُضاءً بمصابيح فلورسنت بيضاء، وكان ساطعًا تمامًا لا يُعكِّر سطوعه أيُّ ظِلٍ. كان كل شيءٍ واضحًا أمام عينيك بجلاء، رغبت أم لم ترغب. كان الماء في المغطس بلونٍ وردي ساطع، وستانلي يرقد وظهره يستند إلى مؤخِّرة المغطس، بينما رأسه يتدلَّى إلى الوراء بشدة من عُنُقه لدرجة أن جدائل من شعره الأسود القصير احتكَّت بجلد لوحي كتفه. إذا ما كانت عيناه ما زالتا قادرتين على الرؤية، فلا بُدَّ أنها تنظر إليه بالمقلوب. فمه يتدلَّى مفتوحًا كبوابة، ووجهه يعلوه تعبيرٌ من رعبٍ جامدٍ لا قرار له. مجموعة من شفرات حلاقة چيليت البلاتينية تستلقي على حافَّة الحوض. كان قد شق باطن ساعديه من المعصم حتى المرفق، ثم قطع كلًا من هذين الشقين بالعرض أسفل الرسغ بقليل، صانعًا حرفيّ T داميين. كان الشقَّان يلمعان بلونٍ أحمرٍ أرجواني تحت الضوء الأبيض الساطع، وشعرت باتي أن الأوتار والأربطة الظاهرة تبدو كشرائح لحم البقر الرخيص.

تجمَّعت نقطة من الماء على شفة الصنبور اللامع المصنوع من الكروم.. وانتفخت.. صارت حبلى إذا جاز التعبير.. وتلألأت.. ثم سقطت.

بلينك.

لقد غمس ستانلي بَنانة سبَّابته اليُمنى في دمائه وخطَّ كلمة واحدة على الستارة الزرقاء التي تعلو المغطس بحروفٍ كبيرة مُترنِّحة، وقد انحدر أثر إصبعٍ دمويٍ مُتعرِّجٍ أسفل الحرف الأخير من الكلمة. رأت باتي أن إصبعه قد صنعت هذا الأثر بينما يده تتراخى ساقطة إلى المغطس، حيث تطفو الآن.. وفكَّرت أنه قد رسم هذا الخط -بصمته الأخيرة في هذا العالم- وهو يفقد وعيه وتنسحب الحياة من عروقه.

بدا أن الكلمة تصرخ في وجهها بعنف:



سقطت قطرة ماءٍ أخرى في المغطس.

بلينك.

وكانت هذه القشَّة الأخيرة. عثرت باتي يوريس على صوتها أخيرًا، وصرخت مِلء حنجرتها وهي لا تستطيع كف عينيها عن التحديق إلى عيني زوجها الميِّتتين اللامعتين.

1

ريتشارد توزييه يُغادر فجأة

ظنَّ ريتش أنهُ يُبلي بلاءً رائعًا، إلى أن بدأ القيء.

لقد استمع إلى كل شيءٍ أخبره به مايك هانلون، وردَّ الردود الصحيحة، مُجيبًا أسئلة مايك، كما سأل هو الآخر بعض الأسئلة. أدرك ريتش بشكلٍ مُبهم أنه يتحدَّث مُغيِّرًا صوته إلى أحد أصواته.. ليس صوتًا غريبًا وصاخبًا من

التي يؤديها أحيانًا في برنامجه الإذاعي في الراديو، بل صوت دافئ وافر واثق من نفسه. صوت لسان حاله يقول كل-شيء-على-ما-يرام. صوتٌ رائع، لكنه مُجرَّد كذبة. تمامًا مثلما كانت جميع أصواته الأخرى أكاذيب زائفة (كينكي بريفكيس المُحاسب الخبير في أمور الجنس كان الشخصية المُنتحلة الأكثر قُربًا إلى قلبه بشكلٍ شخصي، على الأقل في الوقت الحالي، وقد كانت ردَّة فعل المُستمع الإيجابي الجيِّد للبرنامج تجاه كينكي صاخبة بقدر ردَّة فعله تجاه العقيد بوفورد كيسدريڤل، الشخصية الأكثر تفضيلًا لمُستمعي البرنامج على طول تاريخه).

سأله مايك: «ما مقدار ما تتذكَّر يا ريتش؟».

قال ريتش: «القليل جدًّا» وسكت هنيهة ثم أضاف «ما يكفي، على ما أظنُّ».

- «هل ستأتي؟».

قال ريتش: «سآتِ»، وأغلق السمَّاعة.

جلس في غرفة مكتبه للحظات وهو يميل إلى الوراء في مقعده خلف المكتب، وينظر عبر النافذة إلى المُحيط الهادئ في الخارج. في الأسفل ناحية اليسار ثمَّة ولدان يلعبان بلوحي ركوب الأمواج، دون أن يمطتياهما بالفعل. لم تكن توجد أمواج كافية مُناسبة لتُركب.

أشارت الساعة الموضوعة على المكتب -وهي طراز ليد كوارتز وباهظة الثمن أتته كهدية من مندوب شركة الأُسطُوانات- أنها الـ 5:09 مساءً من يوم 28 مايو 1985. بالطبع الساعة الآن من حيث يتَّصل مايك تسبق هذا التوقيت بثلاث ساعات. الظلام هنا حلَّ بالفعل. شعر ريتش بقشعريرة تزحف على جلده فبدأ يتحرَّك.. يفعل أمورًا. أوَّلًا -بالطبع- شغَّل أُسطُوانة. لم يبحث كثيرًا، لكنه مدَّ يده وجذب واحدة بطريقة عابرة من بين الآلاف المُصطفَّة على الرفوف. لطالما ظلَّت موسيقى الروك أند رول جُزءًا محوريًّا من حياته، تمامًا كتقليد الأصوات، وقد كان صعبًا عليه فعل أيِّ شيءٍ بلا خلفية موسيقية.. وكلما علَت هذه، كان أفضل. الأُسطُوانة التي شغَّلها كانت واحدة من أُسطُوانات شركة موتاون التجميعية، وقد انبعث منها صوت مارڤين جاي

(أحد الأعضاء الجدد في ما يدعوه ريتش بالفرق-الميِّتة) يُغني: «سمعت بالأمر عبر شجرة العنب».

«أووه-هوو، أراهن أنكِ تتعجَّبين كيف عرفت...».

قال ريتش: «ليس سيِّئًا». حتَّى أنه ابتسم قليلًا. الأمر جسيم، وقد باغتهُ على نحوٍ لا يمكن إنكاره، لكنه شعر أنه سيستطيع التعامل معه. لا مشكلة.

بدأ يستعد للعودة إلى مسقط رأسه. في لحظةٍ ما خلال الساعة القادمة سيخطر على باله أن الأمر يبدو وكأنه قضى نحبه، لكن ما زال أمامه وقتٍ ليُرتِّب لجميع أعماله الختامية... بما في ذلك ترتيبات جنازته الخاصة، وقد شعر أنه يبلي بلاءً ممتازًا في الأمر. اتَّصل ريتش بوكيلة السفريات التي اعتاد التعامل معها، مُفكِّرًا أنها على الأرجح تقود سيَّارتها الآن في طريقها إلى منزلها عبر الطريق السريع، لكنه قرَّر اختبار الاحتمال الضعيف الآخر، ولدهشته، وجدها في المكتب. أخبرها بما يريد فطلبت منه أن ينتظرها ربع ساعة.

قال لها: «أُدين لكِ بمعروف يا كارول». لقد تخطَّيا مرحلة الرسميات التي تنص على السيِّد توزييه والآنسة فيني، وصارا يُناديان أحدهما الآخر بريتش وكارول خلال الثلاث سنوات الماضية. كان هذا تباسطًا غير هيِّن، مع الأخذ في الاعتبار أنهما لم يلتقيا وجهًا لوجه قط.

قالت له: «طيب إذًا، سدِّد دينك. هل تستطيع التحدُّث بصوت كينكي بريفكيس من أجلي؟».

دون تردُّد -إذا كان عليك التفكير قبل انتحالك صوتًا، فعادةً لا موهبة حقيقية بداخلك لإيجادها- قال ريتش: «كينكي بريفكيس المُحاسب الخبير في أمور الجنس يتحدَّث. لقد أتاني زميل في يوم سابق أراد معرفة ما أسوأ شيء يمكن أن يحدث للمرء أكثر من الإصابة بالإيدز...». انخفض صوت ريتش فجأة ما إن تقمَّص الشخصية، وفي الوقت ذاته تسارع إيقاعه وصار مرحًا. كان من الواضح أنها شخصية أمريكية، لكنها مع ذلك تستحضر إلى الذهن صورًا لمُستعمرٍ بريطاني ثري عتيق الطراز وجذَّاب -بطريقته المشوَّشة- بقدر فساده. لم يكن لدى ريتش أدنى علم من هو كينكي بريفكيس حقًّا، لكنه كان

مُتأكِّدًا أنه يرتدي حُللًا بيضاء، ويقرأ مجلَّة إيسكواير، ويحتسي أشياء تُقدَّم في كؤوسٍ طويلة تفوح منها رائحة مُستحضر صابون بجوز الهند. «... أخبرته على الفور أن الأسوأ هو محاولة إخبار أمك الكيفية التي التقطت العدوى بها من فتاة في هاييتي. إلى اللقاء القادم، أنا كينكي بريفكيس، المُحاسب الخبير في أمور الجنس، وإليك نصيحتي: أنت في حاجة إلى بطاقتي، إن كنت تفشل في إيقاف قضيبك».

صرخت كارول فيني من الضحك وهي تقول: «هذا رائع! ممتاز! صديقي لا يُصدِّق أنك تستطيع الإتيان بهذه الأصوات بتلك البساطة، يقول إنه لا بُدَّ من وجود مُرشِّح صوتي ما أو شيء من هذا القبيل...».

قال ريتش: «إنها الموهبة فحسب يا عزيزتي». لقد ذهب كينكي بريفكيس الآن، وحلَّ محلَّه دبليو. سي. فيلدز.. بأنفه الأحمر، وقُبَّعته العالية، وحقائب الجولف، وكل شيء: «أنا محشو بالموهبة لدرجة أنني أُضطر إلى سد كل فتحات جسدي لأمنعها من التسرُّب كـ... حسنًا، فقط لأمنعها من التسرُّب».

ضجت كارل بعاصفة جديدة من الضحك، وأغلق ريش عينيه. كان قد بدأ يشعر ببدايات صداع في الطريق.

- «من أجل خاطري، انظري ما في استطاعتك فعله وافعليه، حسنًا؟». هكذا سألها وهو ما زال يتقمَّص شخصية دبليو. سي. فيلدز، وأغلق الخط وهي ما زالت تضحك.

الآن عليه العودة إلى طبيعته، وقد كان هذا شاقًا، ويزداد صعوبة كل عام. من السهل أن تكون شُجاعًا وأنت تتقمَّص شخصًا آخر.

حاول ريتش اختيار زوجين من أحذية التسكُّع المُسطَّحة، وقد كان على وشك الإمساك بأحذية التريُّض عندما رنَّ الهاتف من جديد. كانت هذه كارول فيني، وقد عادت إليه في زمنٍ قياسي. شعر ريتش بحاجة ماسة لتقمُّص شخصية بوفورد كيسدريڤل، لكنه قاوم. لقد نجحت في العثور له على مِقعدٍ خالٍ في الدرجة الأولى على طائرة الخطوط الأمريكية في الرحلة المسائية من مطار لوس أنجلوس إلى بوسطن دون توقُّف. سيغادر لوس أنجلوس في الـ 9:03 مساءً، ويصل إلى لوجان نحو الخامسة صباحًا من يوم غد. من هناك،

ستأخذه طائرة خطوط دلتا الوطنية إلى بوسطن في تمام الـ 7:30 صباحًا، ثم بعدها إلى بانجور في الـ 8:20. ثم رتَّبت له وجود سيَّارة مُريحة تابعة لشركة آڤيز لتقله، وقد كانت المسافة من مكتب آڤيز في مطار بانجور الدولي إلى حدود بلدة ديري ستة وعشرين ميلًا فقط.

ستة وعشرون ميلًا فقط؟ هكذا فكَّر ريتش. هل هذا كل شيء يا كارول؟ رُبَّما هو كذلك بالفعل، بحساب الأميال على الأقل. لكنك لا تملكين أدنى فكرة عن مقدار المسافة الحقيقية إلى ديري، ولا أنا أيضًا. لكن يا الله، يا إلهي العزيز، لسوف أعرف قريبًا.

قالت له: «لم أحجز لك غرفة فندق لأنك لم تُخبرني كم ستلبث هناك. هل تريد...».

قال ريتش: «لا، سأعتني أنا بذلك الأمر». ثم استولى بوفورد كيسدريڤل عليه ووجد نفسه يقول بلكنة الريفيِّين: «لكم أنت ناعمة كخوخة يا عزيزتي، خوخة من چورچيا طبعًا».

ثم أنهى المُكالمة معها بلطف -دائمًا اتركهم يضحكون- ثم اتَّصل بـ 207-555-1212، رقم دليل هاتف ولاية مين. كان يريد رقم فندق ديري تاون هاوس. يا إلهي، ها هو اسم آخر من الماضي يطفو إلى السطح. إنه لم يُفكِّر في ديري تاون هاوس لقرابة.. كم؟ عشر سنوات؟ عشرون سنة؟ خمس وعشرون سنة؟ بقدر ما يبدو الأمر جنونيًّا، فقد قدَّر الوقت المُنصرم بخمس وعشرين سنة بالفعل، وإذا لم يكن مايك قد اتَّصل به، فرُبَّما لم يكن ليُفكِّر به مرَّةً أخرى في حياته. لكن كان يوجد زمن اعتاد فيه ريتش المرور من جوار بناء القرميد الأحمر العظيم للفندق، وفي مناسبة واحدة فقط اضطر للركض، متبوعًا بهنري باورز وبيلش هاجنز وذلك الفتى الضخم الآخر ڤيكتور فلان، في مطاردة لاهثة، بينما ثلاثتهم يصرخون إليه بعباراتٍ رقيقة مثل سنمسكك أيُّها المشخصاتي! سنمسكك أيُّها المُتذاكي! سنمسكك يا شاذ يا ذا الأربع عيون! لكن هل أمسكوا به بالفعل؟

قبل أن يتمكَّن ريتش من التذكُّر، سأله موظَّف الهاتف عن اسم المدينة.

- «في ديري يا أخ...».

ديري! يا ربي! حتَّى الكلمة ذاتها بدت غريبة ومنسية وهي تخرج من فمه. التلفُّظ بها كان كتقبيل أثرٍ عتيقٍ.

- «... هل لديك رقم فندق ديري تاون هاوس؟».

- «لحظة واحدة يا سيِّدي».

مُحال أن يجده. لا بُدَّ أن أمره انتهى منذ وقتٍ طويل. هُدِم في أحد برامج تطوير المدينة، أو تغيرَّ إلى قاعة مؤتمرات أو ساحة بولينج أو مُجمَّع دريمسكيب لألعاب الفيديو، أو رُبَّما أُحرِق ذات ليلة عندما أبى حُسن الحظ مرافقة نزيل مخمور يُدخِّن في الفراش. لقد مضى بلا رجعة يا ريتشي، تمامًا مثل النظَّارات التي اعتدت أن ترتديها في صباك واعتاد هنري باروز أن يستخدمها في السخرية منك وازدرائك. ماذا كانت تقول كلمات تلك الأغنية لسبرينجستين؟ الأيَّام المجيدة، لقد مضت كغمزة من عين فتاة يافعة. أيُّ فتاة يافعة؟ حسنًا، بيف بالتأكيد، بيف التي...

حسنًا، رُبَّما يكون فندق المدينة قد تغيَّر، لكن من الواضح أنه لم ينمحِ، لأن صوتًا آليًّا رتيبًا أتى إليه عبر الهاتف قائلًا: «الرقم... هو... 9... 2... 1... 8... 2... 8... 2. مرَّة أخرى: الرقم... هو...».

دوَّن ريتش الرقم في المرَّةِ الأولى، وكان من دواعي سروره إغلاق الخط في وجه ذلك الصوت البليد. كان من السهل عليه تخيُّل وجود وحش ما هائل مُكبَّب مدفون في مكانٍ ما في باطن الأرض، يتعرَّق مسامير ويُمسك آلاف الهواتف بآلافٍ المجسَّات المصنوعة من الكروم.. نسخة شركات النظم الهاتفية من عدو سبايدرمان الشهير د. أوكتبوس. في كل عام جديد يمرُّ، يشعر ريتش أن العالم الذي يعيشه يصير أكثر فأكثر أشبه بمنزلٍ إلكتروني هائل مسكون، حيث الأشباح الرقمية والبشر الخائفون يمضون حياتهم جنبًا إلى جنب في مُعايشة غير مُريحة.

ما زال قائمًا –على حد تعبير بول سيمون مع تحويره– ما زال قائمًا بعد كل هذه السنوات.

طلب ريتش رقم الفندق الذي رآه آخر مرَّة عبر نظَّارة الصبا سميكة الإطار. كان طلب الرقم 1–207–941–8282 سهلًا تمامًا. ألصق سمَّاعة الهاتف إلى

أذنِه وهو ينظر عبر نافذة غرفة مكتبه إلى الخارج. لقد رحل الصبيان راكبا الأمواج، والآن يسير مكانهما زوجان مُتحابان ببطء على الشاطئ.. يدٌ في يد. كان المشهد يصلح لأن يوضع كملصق دعائي على حائط مكتب السياحة الذي تعمل به كارول فيني.. إلى هذه الدرجة كانا مثاليين، باستثناء حقيقة أنهما على حدٍ سواء كانا يرتديان نظّارات طبية.

سنمسكك يا ذا الوجه اللعين! سنُحطِّم نظّارتك!

كريس! هكذا أرسل عقله الذكرى إلى وعيه فجأة. ذلك الفتى كان اسمه الأخير كريس. ڤيكتور كريس.

أوه يا للمسيح، لم يكن هذا أمرًا يرغب في معرفته، ليس بعد كل هذا الوقت، لكن لم تبدُ للمسألة الآن أهمِّيَّة على الإطلاق. كان شيءٌ ما يحدث هناك في سراديب عقله، حيث يحتفظ ريتش توزييه بتجميعته الشخصية من الأغاني القديمة الذهبية. ثمَّة أبوابٍ تُفتح.

إلا أنها ليست أغاني قديمة التي تقبع هناك بالأسفل، أليس كذلك؟ وأنت لست ريتش توزييه المُلقَّب بـ «أرشيف الأغاني»، ودي چي راديو كلاد المُثير، والرَّجُل ذا الألف صوت، أليس كذلك؟ وتلك الأشياء التي تُفتح... ليست أبوابًا، أليس كذلك؟

حاول ريتش نفض تلك الأفكار عن رأسه.

الشَّيء الذي يستحق تذكُّرُهُ أنني بخير. أنا بخير، وأنت بخير، وريتش توزييه بخير. فقط أحتاج إلى سيجارة، هذا كل شيء.

لقد أقلع منذ أربع سنوات، لكن لا ضير من واحدة الآن.. الأمر ليس بالجلل.

إنها ليست أغاني وتسجيلات، إنها جثث دفنتها عميقًا لكن الأرض تلفظها الآن إلى السطح بفعل زلزال مجنون. هناك، في قاع ذكرياتك، أنت لست ريتش توزييه «أرشيف الأغاني»؛ بل مُجرَّد ريتشي توزيز ذي العيون الأربع. أنت برفقة أصدقائك، وتشعر بخوفٍ شديد حتَّى إن خصيتيك تحوَّلتا إلى مربى عنب من ماركة ولش. تلك ليست أبوابًا، وهي لا تُفتح. إنها أقبية يا

ريتشي، وهي تتكسَّر من الداخل ومصَّاصو الدماء الذين ظننتهم موتى يهربون من محابسهم من جديد.

لفافة تبغ. لفافة تبغ واحدة. حتَّى لو كانت ماركة كارلتون فلسوف تفي بالغرض، إكرامًا لخاطر المسيح الطيب.

سنُمسكك يا ذا العيون الأربع! وسنجعلك تلتهم حقيبة الكتب اللعينة تلك!

- «فندق تاون هاوس».

قالها صوت ذكوري ذو لكنة شمالية ثقيلة ارتحلت كل هذا الطريق الطويل عبر نيو إنجلاند، ووسط أمريكا، ومرَّت من أسفل ملاهي لاس ڤيجاس لتبلغ أُذُنه.

سأل ريتش الصَّوت المُتكلِّم إذا كان يستطيع حجز مجموعة من الغرف في التاون هاوس، بِدءًا من الغد، وأخبره الصوت أنه يستطيع، ثم سأله عن مُدَّة الإقامة.

قال: «لا أستطيع الجزم. لديَّ...». ثم توقَّف برهة.

ما الغرض من الإقامة تحديدًا؟ بعين الخيال شاهد صبيًّا يحمل حقيبة قُماشية يفر راكضًا من الفتية الأقوياء.. رأى صبيًّا يرتدي نظَّارات طبية، نحيلًا وذا وجهٍ شاحب يبدو بشكلٍ ما كأن لسان حاله يصرخ بطريقة ما مُبهمة في وجه كل وغد مُشاغب يمرُّ: اضربني! هيًّا اضربني. إليك شفتاي! الكمهما بقوَّة واسحقهما في أسناني! ها هي أنفي! ادمِها واكسرها إن استعطت! الكُم إحدى أُذُناي حتَّى تنتفخ وتستحيل إلى قرنبيط! شُقّ حاجبي! هاك ذقني، صوِّب إلى موضع الضربة القاضية! هاك عيناي، شديدة الزُرقة وتبدو أضخم وراء تلك النظَّارة الكريهة، الكريهة جدًّا، التي تستقر إحدى ذراعيها في مكانها بواسطة شريطٍ لاصق. حَطِّم النظَّارة! وزج بشظية زجاج إلى إحدى العينين وأغلقها إلى الأبد! بحق الجحيم!

أغلق ريتش عينيه وقال: «لديَّ أعمالٌ في ديري كما ترى، ولا أعرف كم ستستغرق للانتهاء منها. ماذا عن ثلاثة أيَّام قابلة للتجديد؟».

- «قابلة للتجديد؟».

كرَّرها موظَّف الاستقبال بشكٍّ، وانتظر ريتش بصبر كي يُنهي الرَّجُل إعمال الأمر في عقله.

- «أوه، فهمتك! هذا رائع».

- «أشكرك، و... آه... أتمنَّى أن تُصوِّت لي في نوڤمبر» هكذا قال صوت چون إف كينيدي «چاكي تريد... آه.. تعيد ترتيب... آه... المكتب البيضاوي، وأنا لديَّ أعمالٌ تنتظرني من أجل... آه... أخي بوبي».

- «سيِّد توزييه؟».

- «نعم».

- «حسنًا... لقد تطفَّل أحدهم على الخط لثوانٍ معدودات».

فكَّر ريتشي، هذا مُجرَّد رفيق قديم من الـ ز.ق.م؛ وإذا كنت تتساءل، فهذا اختصارٌ لـ الزُّمرة القديمة الميتِّة. لا عليك من الأمر. سرت رعدة جديدة في جسده، فقال لنفسه -بيأسٍ تقريبًا- مرَّة أخرى: أنت بخير يا ريتش.

قال ريتش: «سمعته بدوري. لا بُدَّ أنه تداخُلًا في الخطوط. ماذا عن تلك الغرفة التي أريدها؟».

قال الموظَّف: «أوه، لا مُشكلة في الأمر. نحن نقوم بأعمال تجارية كثيرة هنا في ديري. لكنها لا تزدهر قط».

- «أحقًّا؟».

- «أوه، أيوا».

هكذا قال الموظَّف مؤمِّنًا، وارتجف ريتش مُجدَّدًا. لقد نسي ذلك الأمر أيضًا.. هذه اللفظة النيو إنجلاندية الشمالية المُرادفة لنعم. أوه، أيوا.

سنُمسكك أيُّها التَّافه"! هكذا صرخ صوت هنري باورز الشبحي في عقله، وشعر ريتش بأقبية أخرى تتحطَّم بداخله.. والرَّائحة التي اشتمَّها من جراء ذلك لم تكن رائحة جثثٍ مُتحلِّلة، بل ذكرياتٍ مُتحلِّلة، وقد كان هذا أسوأ بشكلٍ ما.

أعطى ريتش موظَّف استقبال فندق تاون هاوس رقم بطاقته الائتمانية وأنهى المُكالمة. ثم اتَّصل بستيف كوڤال، مخرج البرنامج في محطَّة كلاد الإذاعية.

سأله ستيف: «كيف أخبارك يا ريتش؟».

لقد أظهر تصنيف أربيترون الأخير أن محطَّة كلاد تجلس في صدارة إذاعات الإف إم الكُبرى المُتخصِّصة في الروك في لوس أنچلوس، ومنذ ذلك الحين وستيف يحيا بمزاجٍ ممتاز.. حمدًا لله على النِعَم الصغيرة.

قال ريتش لستيف: «حسنًا، رُبَّما ستأسف لأنك سألت. سأُغادر سريعًا».

استطاع ريتش رؤية العبوس في صوته وهو يقول: «تُغادِر... لا أظنُّ أنني فهمتك يا ريتش».

- «سأضطر لركوب بساط الريح. سأرحل».

- «ماذا تعني بسأرحل؟ وفقًا للجدول الذي أمام ناظريّ الآن، من المفترض أن تكون على الهواء من الساعة الثانية ظهرًا إلى السادسة مساءً، كالمعتاد. في حقيقة الأمر، ستعقد لقاءً مع كلارنس كليمونز في الاستوديو في الرابعة عصرًا. أنت تعرف كلارنس كليمونز يا ريتش، أليس كذلك؟ المُلقَّب بالـ 'رجُل الضخم'؟».

- «يُمكن لكليمونز إجراء اللقاء مع مايك أوهارا بدلًا مني».

- «كلارنس لا يرغب في التحدُّث إلى مايك يا ريتش. كلارنس لا يرغب في التحدُّث إلى بوبي راسل. إنه حتَّى لا يرغب في التحدُّث إليَّ أنا. كلارنس من أشد المُعجبين ببوفورد كيسدريڤل، ووايت القاتل ذي الأكياس. إنه يريد التحدُّث معك يا صاح، وأنا لا أريد لعازف ساكسفون غاضب وزنه 250 رطلًا كاد أن ينضم لفريق كرة قدم أمريكية في دوري المحترفين أن يعيث فسادًا في الاستوديو الذي أملكه».

قال ريتشارد: «لا أظنُّ أن لدى الرَّجُل تاريخًا في التدمير وإثارة الفوضى. أعني، نحن نتحدَّث عن كليرانس كليمنوز وليس كيث مون».

مرَّت لحظة صمت عبر الهاتف انتظر خلالها ريتش بصبر.

في النهاية سأله ستيف بصوتٍ حزين: «أنت لستُ جادًا، أليس كذلك؟ أعني، إن لم تكن أمك قد ماتت لتوِّها أو أنك ستستأصل ورمًا في المخ أو أيَّ شيءٍ آخر، فهذا اسمه توريط لا مُغادرة».

- «يتحتَّم عليَّ الذهاب يا ستيڤ».

- «هل أمك مريضة؟ هل -لا سمح الله- ماتت؟».
- «لقد ماتت منذ عشرة أعوام مضت».
- «هل لديك ورمٌ في المخ؟».
- «ولا في شرجي حتَّى».
- «الأمر ليس مُضحكًا يا ريتش».
- «أعرف».
- «أنت تتصرَّف كمُتهرِّب لعين، وأنا لا أحب الأمر».
- «ولا أنا أيضًا، لكن يجب أن أغادر».
- «إلى أين؟ ولماذا؟ ما هذ الأمر؟ تحدَّث إليَّ يا ريتش!».
- «شخصٌ ما اتَّصل بي. شخص كنت أعرفه منذ زمن طويل جدًّا. في مكان آخر. في تلك الأيَّام حدث أمرٌ ما، وقطعت عهدًا على نفسي. كلنا قطعنا عهدًا بالعودة إذا بدأ الشَّيءُ في الحدوث مرَّة أخرى، وأظنُّ أنه فعل».
- «ما كُنه الشَّيءِ الذي نتحدَّث عنه يا ريتش؟».
- «لا أستطيع التفسير في الوقت الحالي». أيضًا ستظن أنني مخبول إذا أخبرتك الحقيقة المؤسفة: أنا لا أتذكَّر.
- «متى قطعت ذلك الوعد الشهير؟».
- «منذ زمن بعيد جدًا. في صيف 1958».
مرَّت فترة صمت طويلة أخرى، وقد أدرك ريتش أن ستيف كوڤال يحاول معرفة ما إذا كان ريتش توزيير «أرشيف الأغاني»، المعروف أيضًا ببوفورد كيسدريڤل، المعروف أيضًا بوايت القاتل ذي الأكياس.. إلخ.. إلخ.. يُخادعه، أم أنه يمرُّ بانهيارٍ عصبي من نوعٍ ما.
قال ستيف بصراحة: «هذا يعني أنك كنت مُجرَّد صبي».
- «في الحادية عشرة من عُمري.. في طريقي لإتمام الثانية عشرة».
مرَّت لحظة صمت طويلة أخرى.. وانتظر ريتش أن تنتهي في صبر.
قال ستيف: «حسنًا، سأبدِّل الأدوار، سأجعل مايك يظهر بدلًا منك، وأظنُّ أنني سأتَّصل بتشاك فوستر وأطلب منه ترحيل جداول العمل تباعًا، هذا إن

استطعت معرفة في أيِّ مطعم صيني يجلس الآن. سأفعل هذا لأن صداقتنا تعود لأعوامٍ طويلة مضت. لكنني لن أنسى أنك خذلتني يا ريتش».

قال ريتش بينما صداع رأسه يتزايد في الحِدَّة: «أوه، دعك من هذا يا ستيف». كان يعلم حقيقة ما يفعله الآن.. هل يظنُّ ستيف أنه لا يعلم حقًّا؟ «أنا في حاجة إلى إجازة بضعة أيَّام، هذا كل شيء. أنت تتصرَّف كأنني تغوَّطت على ميثاقك».

– «إجازة بضعة أيَّامٍ من أجل ماذا؟ لم شمل فريق أشبال الكشافة الذي كنت تنتمي إليه في شلَّالات الخراء في شمال داكوتا، أم في مدينة الفرج المُنتفخ في غرب ڤرجينيا؟».

– «في الحقيقة أظنُّ أن شلَّالات الخراء تقع في أركنساس يا زميلي».

هكذا قالت شخصية بوفورد كيسدريڤل بصوتها العميق الأجوف، لكن ستيف لم يكن في مزاجٍ مناسب.

– «وذلك لأنك أخذت وعدًا عندما كنت في الحادية عشرة؟ الصبية لا يقطعون عهودًا جادة وهم في الحادية عشرة بحق المسيح! الأمر ليس بهذه السهولة يا ريتش وأنت تعلم ذلك. هذه ليست شركة تأمين، ولا مكتب مُحاماة. نحن نعمل في صناعة الترفيه، وأقولها بكل تواضع، وأنت تعلم ذلك جيِّدًا جدًّا. لو كنت أخبرتني قبلها بأسبوع، لم أكن لأُمسك هذا الهاتف في يدٍ وزجاجة ميلانتا في اليد الأخرى. أنت تتركني عاريًا في وجه الريح، وأنت تعلم ذلك، فلا تهِن ذكائي!».

كان ستيف يصرخ مِلء حنجرته الآن، فأغلق ريتش عينيه. لن أنسى الأمر أبدًا، هكذا قال ستيف، وقد فكَّر ريتش أنه لن ينسى أبدًا بالفعل. لكن ستيف أيضًا قال إن الصبية لا يقطعون عهودًا جادة وهم في الحادية عشرة، وهذا ليس صحيحًا على الإطلاق. ريتش لم يكن يتذكَّر طبيعة الوعد الذي قطعه –ولم يكن مُتأكِّدًا أنه يريد التذكُّر– لكنه كان جادًا تمامًا.

– «ستيف، لقد تعهَّدت بذلك».

– «أجل، وقد أخبرتك أنني سأتعامل مع الواقع. هيَّا اذهب إذًا.. اذهب أيُّها المُتهرِّب».

- «ستيف، هذا سُخـ...».

لكن ستيف كان قد أغلق الخط بالفعل، وضع ريتش السمَّاعة، ثم تحرَّك بالكاد مُبتعدًا عنها قبل أن يرن الهاتف مرَّة أخرى، وقد علم قبل التقاط السمَّاعة أن المُتَّصل ستيف مرَّة أخرى، وأنه سيكون حانقًا أكثر من أيِّ وقتٍ مضى. التحدُّث إليه في هذه الحالة لن يكون جيِّدًا، بل قد تؤول الأمور إلى الأسوأ. لذا ضغط الزر على جانب الهاتف إلى اليمين، مُخرسًا إيَّاه في منتصف الرنين.

صعد ريتش إلى الدور العلوي، وجذب حقيبتي سفر من الخِزانة، وملأهما بخليطٍ من الثياب نظر إليها بالكاد وهو يلقي بها: سراويل چينز، وقمصان، وملابس داخلية، وجوارب. لن يدرك ريتش إلا لاحقًا أنه لم يأخذ شيئًا سوى نوعية الملابس التي يرتديها الصبية. ثم حمل الحقيبتين رجوعًا إلى الطابق السفلي.

كانت ثمَّة صورة بالأبيض والأسود مُعلَّقة على حائط غرفة مكتبه التقطها أنسل آدامز[1] لساحل بيج سور الجبلي. أزاحها ريتش جانبًا كاشفًا عن خزنة سريَّة. ثم مدَّ يده إلى داخلها متجاوزًا مجموعة من الأوراق والمستندات المُكدَّسة: وثيقة ملكية هذا المنزل الذي يحتل منطقة متوسِّطة بين خط الصدع وحزام حرائق الشجيرات والحشائش، وعشرين فدَّانًا من غابات الأخشاب في ولاية إيداهو، ومجموعة من الأسهم. لقد ابتاع تلك الأسهم بشكل يبدو عشوائيًّا في الظاهر -عندما شاهده سمساره في البورصة مُقبلًا عليه بغدما فعل هذا، أمسك رأسه على الفور مصدومًا- لكن قيمتها جميعًا ارتفعت بشكل مُطَّرد على مدار السنين. كان دائمًا ما يتعجَّب من فكرة أنه صار بالكاد -ليس تمامًا وإنما بالكاد- رجلًا ثريًّا. كل الفضل يعود إلى موسيقى الروك أند رول... والأصوات بالطبع.

أوراق المنزل. الفدادين. الأسهم، وثيقة تأمين. بالإضافة إلى نسخة من

---

(1) مُصور أمريكي وناشط بيئي، اشتهر بسبب صوره الفوتوغرافية بالأبيض والأسود للغرب الأمريكي.

وصيته الأخيرة. إنها السلاسل التي تُقيّدك بإحكام إلى خارطة حياتك، هكذا فكَّر.

شعر ريتش برغبة مباغتة مُلِحَّة لاستخراج قدَّاحته الزيبو وإضرام النار فيها جميعًا.. في كومة العهر هذه المكوَّنة من رطانات قانونية وحيثيات عديدة تتصدَّرها عباراتٍ مثل: يحق-لحامل-هذه-الشهادة وليكن-معلومًا-للجميع-بموجب-هذا-المُستند وهلم جرًّا. فجأة لم تعد للأوراق في خزنته أيُّ دلالة على أيِّ شيءٍ، وشعر أنه قادر على فعل الأمر.

حينها، اعترته أوَّل نوبة من الرَّوع الحقيقي، ولم يكن ثمَّة أيُّ شيءٍ خوارقي بخصوصها. كانت فقط نتيجة لإدراكه مدى السهولة التي يمكن تدمير حياتك بها. كان هذا ما يخيف في الأمر. أن تأتي بمروحة كهربائية وتضعها قُبالة ما مضيت سنين عمرك في جمعه، ثم تُشغِّل الآلة اللعينة. يا للسهولة. أن تحرقها أو تذروها مع الريح، ثم تغادر سريعًا بعدها فحسب.

خلف السندات والأوراق القانونية -أبناء عمومة المال- قبعت الأشياء الهامة حقًّا. النقود السائلة. الأربعة آلاف دولار مُكدَّسة في أوراقٍ من فئة العشرات والعشرينات والخمسينات.

تعجَّب ريتش -بينما هو يأخذها الآن، ويحشو بها جيب سراويله الچينز- ما إذا كان قد عرف بطريقة أو بأخرى ماذا كان يفعل وهو يجمع المال هنا في أوَّل الأمر... خمسين دولارًا في شهر، ثم مئة وعشرين في الشهر التالي، وربَّما عشرة دولارات فقط في الشهر الذي يليه. نقود لوقت الحاجة. نقود لمُغادرة عاجلة.

- «هذا مُخيف يا رجل». قالها وهو يعي بالكاد أنه تكلَّم بصوتٍ عالٍ. كان ينظر بشرود خارج النافذة إلى الشاطئ. كان خاليًا الآن. لقد رحل راكبا الأمواج، ورحل حديثا الجواز (إذا كانت هذه حالتهما حقًّا) بدورهما.

آه بالتأكيد، كل شيء يعود إليَّ الآن من ذاكرتي. هل تذكر ستانلي يوريس على سبيل المثال؟ يمكنك الرهان بلباسك على الأمر... هل تتذكَّر كيف

اعتدنا قول هذا التعبير، وكيف كنا نعتقد أنه رائع تمامًا؟ ستانلي يورين[1]، هكذا اعتاد الصبية الكبار أن ينعتوه. «أنت يا يورين! كيف حالك يا حفيد قتلة المسيح! إلى أين تذهب؟ هل سيُمتِّعك أحد أصدقائك المُخنثِّين بجنسٍ فمويٍّ».

صفع ريتش باب الخزنة وأعاد الصورة إلى مكانها. متى كانت آخر مرَّة فكَّر فيها في ستانلي يوريس؟ منذ خمس سنوات؟ عشر؟ عشرين؟ لقد انتقل ريتش وعائلته من ديري في ربيع عام 1960، ولكم بهتت وجوههم سريعًا في ذاكرته.. زُمرته.. مجموعة الخاسرين التي يُرثى لها بناديهم الصغير الذي أقاموه فيما كان يُعرف وقتها بالبَرِّية، وهو الاسم الهزلي غير المُناسب لمنطقة خصيبة مُورِقة وافرة الخُضرة كالتي كانها ذلك المكان يومًا. لكم اعتادوا تخيُّل أنفسهم مُستكشفي غابات، أو أفراد فرقة من البحرية الأمريكية يُشيِّدون مهبطًا على جزيرة مُرجانية في المحيط الهادئ بينما يصدُّون تقدُّم اليابانيين. لكم تخيَّلوا أنفسهم بُناة سدود، أو رعاة بقر، أو روَّاد فضاء على كوكبٍ آخر دغلي.. استطرد كما شِئت، لكن أيًّا كان ما سيطرأ في خيالك، فلا تنس جوهر الأمر وحقيقة ما كانوا يفعلون: لقد كان اختباءً. اختباء من الصبية الكبار. اختباء من هنري باورز وڤيكتور كريس وبليش هاجنز وبقية العُصبة. أيُّ حفنة خاسرين كانوا... ستانلي يوريس بأنفه الصبي اليهودي الكبير.. بيل دِنبروه الذي لم يكن يستطيع قول شيء سوى «هيَّا يا سيلڤر!» دون أن يتلعثم بِشدَّة بشكل يُطيح بصوابك، وبيڤرلي مارش بالكدمات على وجهها من أثر الضرب وسجائرها التي تُخفيها في كُمِّ بلُوزتها، وبن هانسكوم الذي كان بدينًا جدًّا لدرجة أنه بدا كالنسخة الآدمية من موبي ديك، وريتشي توزيبه بعويناته السميكة ودرجاته العالية ودعاباته المُتذاكية ووجهه الذي يتوسَّل للمُشاغبين كي يضربوه ويعيدوا تشكيله في أشكالٍ جديدة مُثيرة. هل توجد كلمة تصلح

(1) يستخدم المؤلِّف هنا الجناس الناقص بين لفظتي Uris وUrine الإنجليزيَّتين. الثانية بمعنى بَوْل.

لوصف ما كانوا عليه في الماضي؟ أوه أجل. بكل تأكيد. ليه موه جوست[1]، وفي حالتهم هذه الـ ليه موه جوست كانت مُخنِّثين.

الذكريات تطفو إلى السطح، كل شيء يطفو إلى السطح... والآن ها هو يقف هنا في غرفة مكتبه ويرتجف بلا حول ولا قوّة كشريدٍ أحمق بلا مأوى وسط عاصفة رعدية.. يرتجف لأن الرفاق الذين كان يركض جوارهم ليسوا هم كل ما تذكَّر.. ثمَّة أشياء أخرى -أشياء لم يُفكِّر فيها منذ سنواتٍ طويلة مضت- تنتفض أسفل السطح.

أشياء دامية.

دياجير. دياجيرٌ ما.

المنزل القائم في شارع نيبولت، وصُراخ بيل العاوي: لقد قـ-قـتلت أخي، أيُّها الدَّ-دَّ-دَّاعر!

هل يتذكَّر؟ أجل. هو يتذكَّر بالقدر الذي يجعله غير راغبٍ في تذكُّر المزيد، وتستطيع أن تُراهن بلباسك على هذا.

ثمَّة رائحة قمامة.. رائحة براز.. ورائحة شيءٍ آخر. شيءٌ أسوأ من كليهما. رائحة إنتان المسخ.. إنتان الشَّيءِ.. الشَّيءُ الرابض هناك تحت مدينة ديري حيث تهدر الآلات بلا انقطاع. ها هو يتذكَّر چورچ...

كان هذا أكثر ممَّا يحتمل فركض إلى الحمَّام، وتعثَّر في مِقعد مكتبه الجلدي الفخم وكاد أن يسقط. لكنه نجا... بالكاد. تزحلق ريتش عبر البلاط الأملس إلى المرحاض وجثا على ركبتيه كراقص بريك دانس غريب الأطوار وأمسك بقاعدته، ثم أفرغ كل ما في معدته داخله، وحتَّى بعد أن انتهى لم تتوقَّف ذاكرته عن العمل؛ فجأة استطاع رؤية چورچي دِنبروه كما لو أنه شاهده بالأمس.. چورچي الذي ابتدأ معه كل شيء، چورچي الذي قُتِلَ في خريف عام 1957. مات چورچي بعد الفيضان مُباشرةً، بعد أن مُزِّقت إحدى

(1) بالفرنسية Le mot juste: وتعني «الكلمة الصحيحة». مُصطلح صيغ من قبل الروائي جوستاف فلوبير في القرن الـ 19، الذي كان كثيرًا ما يمضي أسابيع يبحث عن صياغة أو كلمة مُناسبة في أعماله.

ذراعيه من كتفها، وقد حجب ريتش كل ذلك خارج حدود ذاكرته. لكن في بعض الأحيان تعود تلك الأمور إلى السطح، أوه نعم بالتأكيد.. إنها تعود، أحيانًا تعود.

مرَّت نوبة التقلُّص المعدي العصبي بسلام، وتلمَّس ريتش مقبض صندوق الطرد دون أن يرى.. وهدر الماء. اختفى العشاء الذي تناوله في وقتٍ مُبكِّر، ملفوظًا بأناقة إلى المجاري في كُتَلٍ صغيرة ساخنة.

إلى المجاري.

إلى دروب وظُلُمات وإنتان المجاري.

أغلق ريتش غطاء المرحاض، وأراح جبهته عليه، وبدأ يبكي. كانت هذه أوَّل مرَّة يبكي فيها منذ أن توفيت أمه عام 1975، ودون أن يُفكِّر فيما يفعل، وضع كفَّيه أسفل عينيه، وإليهما سقطت عدساته اللَّاصقة التي يضعها، واستقرَّت لامعة في راحتيه.

بعد أربعين دقيقة، شعر أنه تقشَّر من الداخل وتطهَّر بشكل ما. ألقى ريتش الحقيبتين إلى صندوق سيَّارته الإم چي، وأخرجها من المرآب. كان الضوء يخفُت من السماء. نظر إلى منزله الذي تُحيط به الأشجار المزروعة حديثًا، ونظر إلى الشاطئ، إلى الماء الذي صار لونه كالزمرد الشاحب ويتخلَّله مسارٌ ضيق من الذهب المطروق المُتلألئ، واستولت عليه قناعة بأنه لن يرى كل هذا مرَّة أخرى في حياته.. أنه صار جثَّة تمشي على قدمين.

همس ريتش توزييه لنفسه: «أنا عائدٌ للوطن.. عائدٌ للوطن.. ساعدني يا الله على العودة إلى الوطن».

عشَّق ريتش تروس ناقل الحركة ومضى، شاعرًا مرَّة أخرى بمدى سهولة الانزلاق عبر صدعٍ غير متوقَّع في بدن حياة ظنَّ أنها راسخة.. مدى سهولة الانزلاق إلى الجانب المُظلم، مدى سهولة الإبحار خروجًا من الضياء إلى العتمة.

خروجًا من الضياء إلى العتمة.. أجل، هذا هو الأمر.. حيث أيُّ شيءٍ يُمكن أن يكون في الانتظار.

2
بن هانسكوم يحتسي خمرًا

إذا كنت تريد العثور على الرَّجُل الذي نعتته مجلة تايم بـ «أكثر مُهندس معماري شاب واعد في أمريكا» (مقال «ترشيد الطاقة في المناطق الحضرية والمُصلحون الشباب»، مجلة تايم، عدد 15 أكتوبر، 1984) في ليلة الثامن والعشرين من مايو عام 1985، فسيتحتَّم عليك القيادة غربًا خروجًا من ولاية أوماها ثم العروج إلى طريق 80 السريع لتعثر عليه. كنت لتتَّخذ مخرج سويدهوم ثم طريق 81 السريع إلى قلب مدينة سويدهوم (حيث لا يوجد شيء يستحق الذكر). من هناك، ستنعطف إلى طريق 92 السريع من جوار مطعم باكي هاي-هات إيت-إم-أب (الذي شعاره «شرائح الدجاج المقلي تخصُّصنا»)، وما إن تجد نفسك في الريف مرَّة أخرى ستعرج يمينًا إلى طريق 63 السريع، الذي يمتد باستقامة تامة كوتر مشدود عابرًا من خلال بلدة جاتلين الصغيرة المهجورة إلى أن يصل أخيرًا إلى مدينة همينجفورد هوم. حي وسط مدينة همينجفورد هوم يجعل من وسط مدينة سويدهوم كأنها نيويورك؛ فالحي التُجاري يتألف من ثمانية مبانٍ ليس إلا، خمسة على جانب وثلاثة على الجانب الآخر. يوجد حانوت حلاقة كلين كَت (مُعلَّقًا على نافذته لافتة مكتوبة بخط اليد على ورقة اصفرَّ لونها مضى عليها خمسة عشر عامًا تقول: إن كنت من «الهيبيز»، قص شعرك في مكانٍ آخر)، ودار عرض العرض الثاني، ومتجر كل شيء بخمسة أو عشرة سنتات. أيضًا يوجد فرع بنك مُلَّاك المنازل في نبراسكا، ومحطة وقود 76، وصيدلية ريكسال، والمزرعة الوطنية ومبانيها، ومُورِّد المستلزمات والخردوات.. الأخير يُعد التجارة الوحيدة التي بدت مُزدهرة نوعًا في المدينة.

قرب نهاية هذا الشارع الرئيس، مُشيَّدًا بعيدًا قليلًا عن المباني الأخرى كمنبوذ يستريح على حافَّة ساحة كبيرة فارغة، ستقابل النزل الصغير المُعتاد..

فندق العجلة الحمراء. إن كنت قد قطعت كل هذا الشوط، فلا بُدَّ أنك رأيت تلك الكاديلاك المكشوفة طراز 1968 المزوَّدة بهوائيين في نهاية موقف السيَّارات غير المُمهَّد المليء بالحُفر، التي على مُقدِّمتها لوحة معدنية كُتب عليها: «BEN'S CADDY»[1]، وفي داخل الفندق، مع تقدُّمك تجاه المَشرب، ستعثر على الرَّجُل الذي تبحث عنه.. نحيلًا.. تُلوِّحه الشمس.. يرتدي قميصًا من نسيج الشامبري، وجينز بهت لونه، وزوجين باليين من أحذية المُهندسين طويلة الرقبة. ثمَّة خطوط باهتة احتلَّت مكانًا لها في الجلد عند رُكني عينيه، لكنها غير موجودة في موضعٍ آخر. كان يبدو أصغر بنحو عشرة سنوات من سنِّه الحقيقية، الثامنة والثلاثين.

– «مرحبًا يا سيِّد هانسكوم».

قالها النَّادل ريكي لي وهو يضع منديلًا ورقيًّا دائريًّا على الحافَّة البار حيث جلس بن. بدا ريكي لي مُتفاجئًا قليلًا، وقد كان كذلك بالفعل، فهو لم يرَ هانسكوم في الفندق في ليلة وسط الأسبوع من قبل. كان الرَّجُل يعرج على المكان كل ليلة جمعة ليحتسي كوبين من البيرة، وكل ليلة سبت ليحتسي أربعة أو خمسة أكواب؛ ودائمًا ما كان يتفقَّد أحوال أبناء ريكي لي الثلاثة ويسأل عنهم، ودائمًا يترك الخمسة دولارات الإكرامية أسفل قدح البيرة عند مغادرته. سواء من حيث الصعيد المهني أو التقدير الشخصي، كان بن عميل ريكي لي المُفضَّل، ببون شاسع عن الآخرين. كانت الدولارات العشرة الأسبوعية (والخمسون التي تُطوى أسفل القدح كل عيد كريسماس خلال الخمس سنوات الماضية) مُرضية وطيِّبة تمامًا، لكن رفقة الرَّجُل كانت أكثر حُظوة من ذلك بكثير. لطالما ظلَّت الرفقة الجيِّدة أمرًا نادرًا.. لكن في حانة ريفية كهذه، حيث الحديث الرخيص هو اسم اللعبة، فإن مثل تلك الرفقة في نُدرة أسنان الدجاج.

---

(1) في الولايات المُتَّحدة، يستطيع مالك السيَّارة أن يدفع مالاً إضافيًّا مقابل الحصول على لوحة معدنية مُصمَّمة خصيصًا له بتوليفة من الأرقام والحروف التي يشاءها. في هذا السياق، Caddy تأتي اختصارًا لـ Cadillac.

رغم أن جذور هانسكوم العائلية تعود إلى نيو إنجلاند، فضلًا عن ارتياده الجامعة في كاليفورنيا، يوجد ما هو أكثر من مُجرَّد لمسة تكساسية ما بشأنه. كان ريكي لي يعتمد على زيارات بن هانسكوم الأسبوعية المُنتظمة في أيَّام الجمع والأسبُت، لأنه تعلَّم مع مرور السنوات أنه يستطيع الاعتماد عليها. السيِّد هانسكوم يمكن أن يكون مشغولًا في بناء ناطحة سحاب في نيويورك (حيث شيَّد بالفعل ثلاثة من أكثر المباني شهرةً في المدينة)، أو معرضًا فنيًّا جديدًا في ريدوندو بيتش، أو صرحًا تُجاريًّا في مدينة سالت ليك... لكن تأتي ليلة الجمعة، ويُفتح الباب الذي يفضي إلى ساحة انتظار السيَّارت ما بين الثامنة والتاسعة والنصف، ليدخل الرَّجُل متهاديًا في مشيته، كأنه يقطن الناحية الأخرى من البلدة، وأنه قرَّر العروج على الحانة لأن التلفاز لم يكن يعرض سهرة جيِّدة. كان يمتلك طائرة خاصة من طُرُز شركة ليرچيت ومهبط طائرات خاصًا في مزرعته في چانكينز.

قبل عامين كان يعيش في لندن، في البداية لتصميم ثم الإشراف على بناء مركز اتِّصالات شبكة بي بي سي الجديد.. وهو البناء الشامخ الذي ما زال الجدل حول مُميِّزاته وعيوبه مُحتدمًا في الصحافَّة البريطانية (صحيفة الجارديان: «رُبَّما المبنى الأكثر جمالًا الذي شُيِّد في لندن خلال العشرين سنة الأخيرة؛ على النقيض جريدة ميرور: «بخلاف وجه حماتي الثمل وهي تعود زحفًا من الحانة، فهذا الشيء أقبح ما رأيت في حياتي»). عندما تولَّى السيِّد بن هانسكوم هذه المَهمة، قال ريكي لي لنفسه، حسنًا، سأراه مُجدَّدًا في وقتٍ آخر، أو رُبَّما سينسى كل شيء عنَّا، وبالفعل جاءت ليلة الجمعة بعد مُغادرة بن هانسكوم إلى إنجلترا ومرَّت دون أن يظهر أثرٌ له، ورغم هذا ضبط ريكي لي نفسه يرفع نظره سريعًا في كل مرَّة فُتِح الباب فيها بين الثامنة والتاسعة والنصف. حسنًا، سأراه مُجدَّدًا في وقتٍ آخر، رُبَّما. هذا الوقت الآخر تبيَّن أنه ليلة السبت التالية. فُتِح الباب في السَّاعة التاسعة والرُّبع ودلف منه بن يرتدي چينز وتيشيرت مكتوب عليه جو باما[1] وحذاءه عالي الرقبة القديم، ويبدو

(1) يُختصر اسم ولاية ألاباما إلى باما أحيانًا، وبالأخص في هذا الهتاف.

كمن أتى من مكانٍ ما عبر البلدة، وعندما صاح ريكي لي بنبرة فرحة تقريبًا: «سيِّد هانسكوم، مرحبًا! بحق المسيح، ماذا تفعل في الجوار؟»، نظر إليه السيِّد هانسكوم ببعض الدهشة، وكأن لا شيء غريب في وجوده هنا في هذا التوقيت، ولم تكن تلك الزيارة الوحيدة فقد ظهر في كل ليلة سبت تلت طوال العامين مُدَّة انخراطه النَّشِط في أعمال تشييد مبنى البي بي سي. كان يُغادر لندن كل سبت في الحادية عشرة صباحًا على متن الكونكورد، هكذا أخبر بن ريكي لي المشدوه، ويصل إلى مطار كينيدي في نيويورك في العاشرة والرُّبع صباحًا، أبكر بخمس وأربعين دقيقة من مُغادرته لندن، وفقًا للساعة المُجرَّدة على الأقل («يا إلهي، الأمر مثل السَّفر عبر الزَّمن، أليس كذلك؟»، هكذا قال ريكي لي مبهورًا)، ليجد سيَّارة ليموزين تنتظره وتُقِلُّه إلى مطار تتربورو في نيو چيرسي، وهي رحلة لا تستغرق عادةً أكثر من ساعة في صباح أيَّام السبت، وبعدها يستطيع أن يكون خلف قُمرة قيادة طائرته اللير قبل الظهيرة بلا عناء على الإطلاق، ثم يهبط إلى مزرعته في چانكينز بحلول الثانية والنصف. بن أخبر ريكي أن المرء إذا اتَّجه غربًا بسرعة كافية، فإن اليوم يبدو وكأنه يستمر إلى الأبد. يستطيع أن ينام ساعتين، ويمضي ساعة مع رئيس العُمَّال ونصف ساعة مع سكرتيرته. ثم يتناول وجبة المساء ويعرج بعدها على حانة فندق العجلة الحمراء لقضاء ساعة ونصف أو نحو ذلك. دائمًا ما اعتاد بن المجيء وحيدًا، ودائمًا ما يجلس إلى المَشرب، ودائمًا ما يُغادر بالطريقة التي أتى بها، رغم أن الرب يعلم أن ثمَّة نساء كثيرات في هذا الجزء من نبراسكا ستسعد أيَّما سعادة لإدخال البهجة إلى قلبه. مع عودته إلى المزرعة، يختلس بن ست ساعات من النوم، قبل أن تُعاد الدورة كلها مرَّة أخرى لكن بالعكس. لم يصادف ريكي لي عميلًا حكى له القِصَّة ولم ينبهر بها. رُبَّما هو مثلي الجنس، هكذا قالت له امرأة ذات يوم. رمقها ريكي لي سريعًا، مُلاحظًا شعرها المُصفَّف بمُغالاة، وملابسها المُحاكة بعناية والتي بلا شك تحمل توقيع المُصمِّم الذي صنعها، والأقراط الماسية في أُذُنيها، والنظرة في عينيها، وعرف أنها آتية من مكانٍ ما في الشرق، نيويورك رُبَّما، وأنها هنا في زيارة مُقتضبة لرؤية قريب أو رُبَّما أحد أصدقاء الدراسة القدامى، وأنها لا تطيق صبرًا لمُغادرة المكان. أجابها أن

لا. السيِّد هانسكوم ليس مُختَّثًا. أخرجت المرأة علبة تبغ من نوع دورال من حقيبتها، ووضعت واحدة بين شفتيها الحمراوين اللَّامعتين وانتظرت حتَّى أشعلها لها. سألته وهي تبتسم قليلًا، كيف تعرف؟ فقط أعرف، هكذا أجابها، وقد كان كذلك بالفعل، وفكَّر أن يقول لها: أظنُّه بالله أكثر رجُل وحيد قابلته في حياتي. لكنه لم يكن ليتفوَّه بأيِّ شيءٍ إلى تلك المرأة النيويوركية التي تنظر إليه وكأنه نوع جديد ومُسلٍ من أشكال الحياة على الكوكب.

الليلة بدا السيِّد هانسكوم شاحبًا قليلًا.. مُشتَّت الذهن بعض الشيء.

قال وهو يجلس إلى المَشرب: «مرحبًا يا ريكي لي». ثم أطرق رأسه مُتأمِّلًا يديه.

كان ريكي يعلم أن جدول أعماله سيجعله يقضي الشهور الستة أو الثمانية القادمة في كولورادو سبرينجس، مُشرفًا على أعمال تشييد المركز الثقافي لولايات إقليم الجبال، وهو مُجمَّع شاسع مكوَّن من ستة مبانٍ سيُجرى نحته في جانب الجبل. عندما ستنتهي أعمال البناء، سيقول الناس إن البناء يبدو كأن طفلًا عملاقًا ترك كل مُكعَّباته على سلالم الدرج، هكذا أخبر بن ريكي لي.. على الأقل بعضهم سيقول هذا، وسيكونون نصف مُحِقِّين على الأقل. لكنني أظنُّ أن الأمر سينجح. هذا أكبر تحدي دخلته في حياتي، والانتهاء من تعشيق كل شيء معًا سيكون مُخيفًا كالجحيم، لكنني أظنُّ أننا سننجح.

فكَّر ريكي لي أن السَّبب وراء حالة السيِّد هانسكوم الليلة قد تكون نتيجة للرُهاب المُجتمعي الذي يتزايد داخله مع اقتراب إنتهاء البناء. لا شيء مُدهش حيال الأمر، ولا شيء يعيبه أيضًا. كلما ازدادت أهمِّيتك وصرت محط أنظار، زاد أعداؤك ومتصيِّدو الأخطاء بطبيعة الحال. أو رُبَّما هو قلقٌ بعض الشَّيء من العدوى الڤيروسية.. ثمَّة ڤيروس شرس كالجحيم منتشر في الجوار.

التقط ريكي لي كوب بيرة كبير من الرَّف خلفه واتَّجه إلى صنبور بيرة أوليمبيا ليصب منه.

- «لا تفعل يا ريكي لي».

التفت إليه ريكي لي مُندهشًا.. وعندما رفع بن هانسكوم نظره عن يديه، شعر ريكي لي بخوفٍ مُفاجئ. لأن السيِّد هانسكوم لم يبدُ كأنه مُصابٌ برُهاب

مُجتمعي، أو قلق من الڤيروس المُنتشر، أو أيَّ شيءٍ من هذا القبيل. فقد بدا وكأنه تلقَّى صفعة نفسية رهيبة، وما زال يحاول فهم ماهية الشَّيء الذي صفعه.

لا بُدَّ أن قريبًا له قد مات. إنه غير متزوج، لكن كل رجل لديه عائلة.. وأحد أفرادها يبدو أنه انتقل إلى الرفيق الأعلى. بالتأكيد هذا ما حدث، بدرجة التأكُّد نفسها التي ينزلق بها الغائط إلى أسفل نحو جوف المرحاض.

أسقط أحد روَّاد المكان رُبع دولار في آلة الموسيقى الإلكترونية، وبدأ صوت باربرا ماندريل يغني عن رجل ثمل وامرأة وحيدة.

- «هل أنت بخير يا سيِّد هانسكوم؟».

نظر بن هانسكوم إلى ريكي لي بعينين بدت فجأة أكبر من باقي وجهه بنحو عشر سنوات، لا بل عشرون سنة.. وبوغت ريكي لي من مُلاحظة أن شعر السيِّد هانسكوم قد بدأ يشيب، وهو لم يلحظ وجود أيِّ شعراتٍ رمادية في رأسه من قبل قط.

ابتسم هانسكوم.. ابتسامة شبحية مُريعة. كان الأمر كرؤية جُثَّة تبتسم.

- «لا أظنُّ أنني بخير يا ريكي لي. لا يا سيِّدي. ليس الليلة. لست بخيرٍ على الإطلاق».

وضع ريكي لي الكوب جانبًا وسار رجوعًا إلى حيث يجلس هانسكوم. كانت الحانة تكاد تخلو من الزبائن كأنها ليلة أحد أيَّام الإثنين بعد انتهاء دوري كرة القدم الأمريكية بفترة طويلة. أقل من عشرين زبونًا يرتاد المكان، بينما آني جالسة عند الباب الذي يفضي إلى المطبخ، تلعب الكريبج[1] مع طبَّاخ الحانة الذي لا يجد طلبات لإعدادها.

- «هل لديك أخبار سيِّئة يا سيِّد هانسكوم؟».

- «أجل، أخبار سيِّئة. أخبار سيِّئة من الوطن».

قالها ونظر إلى ريكي لي.. بل نظر عبر ريكي لي.

- «أنا آسف لسماع ذلك يا سيِّد هانسكوم».

- «شكرًا لك يا ريكي لي».

---

(1) إحدى ألعاب الكوتشينة المشهورة في الغرب.

ثم خرَّ صامتًا. كان ريكي لي على وشك سؤاله إن كان في مقدوره فعل أيِّ شيء عندما قال هانسكوم:

- «ما نوع الويسكي لديك يا ريكي؟».

قال ريكي لي: «أُقدِّم فور روزس لأيِّ زبون آخر في هذه المزبلة، إنما لك أظنُّ أن لدي وايلد تركي».

ابتسم هانسكوم قليلًا من كياسته وقال: «هذا كرم بالغ منك يا ريكي لي. أظنُّ أنه من الأفضل الإتيان بذلك الكوب الذي تركته، وما ستفعله هو مَلئِه إلى الحافَّة بالوايلد تركي».

سأله ريكي لي مُندهشًا بصدق: «مَلئِه؟ بحق المسيح، سيتحتَّم عليَّ دحرجتك خارج المكان». ثم فكَّر في قرارة نفسه، أو الاتِّصال بالإسعاف.

قال هانسكوم: «ليس الليلة. لا أظنُّ ذلك».

نظر ريكي لي إلى عيني السيِّد هانسكوم بتمعُّن لمعرفة إن كان يمزح، ولم يستغرق الأمر أكثر من ثانية ليرى أنه لم يكن كذلك. لذا التقط كوب البيرة الكبير من رف المَشرب خلفه، وزجاجة الوايلد تركي من أحد الرفوف أدناه. اصطكَّ عُنُق الزجاجة بحافَّة الكوب وهو يصب الخمر، وشاهد ريكي لي الويسكي يُقرقر في الكوب، وافتُتِن رغمًا عنه نفسه. ثم استقر رأيه أن ما يحلمه السيِّد هانسكوم بداخله هو أكثر من مُجرَّد نزعة تكساسية: فهذه أكبر جرعة ويسكي صبها، وسيصبُّها في حياته.

الاتِّصال بالإسعاف! يا لك من أحمق. فقط دعه يشرب هذه الحلوة وسأجد نفسي أُهاتف باركر وواترز في سويدهولم لتجهيز سيَّارة الدفن.

ومع ذلك جلب ريكي لي الكوب ووضعه أمام هانسكوم على سطح المَشرب، والد ريكي لي أخبره ذات مرَّة أن العميل إذا ما كان في كامل قواه العقلية، فأحضر له ما يدفع ثمنه، سواء كان هذا بولًا أم سُمًّا زُعافًا. لم يكن ريكي لي يعلم إذا ما كانت هذه نصيحة جيِّدة أم سيِّئة، لكنه كان يعلم أنه إذا كنت تكسب عيشك من تقديم الخمر في مشرب، فإنها -النصيحة- ستوَفِّر عليك عناء أن تُلتهم من قِبَل التماسيح التي تقطن ضميرك.

رمق هانسكوم المشروب المهول أمامه مُفكِّرًا للحظات، ثم سأل: «بكم أدين لك مقابل جرعة كهذه يا ريكي لي؟».

هزَّ ريكي لي رأسه ببطء، مُثبِّتًا عينيه على الكوب الكبير المُترع بالويسكي، غير راغبٍ في أن يرفع نظره ويشاهد تلك العينين الغائرتين المُحملقتين. قال: «لا شيء. هذه على حساب المكان».

ابتسم هانسكوم من جديد، هذه المرَّة بصورة أكثر طبيعية وقال: «حسنًا، شكرًا لك يا ريكي لي. الآن سأُريك شيئًا تعلَّمته عندما كنت في بيرو عام 1978. كنت أعمل مع رجل يُدعى فرانك بيلينجس.. أتتلمذ على يده لأحل محلَّه إذا شئت القول. فرانك بيلينجس أفضل مُهندس معماري لعين في العالم، على ما أظنُّ. لكن الرَّجُل التقط عدوى حُمَّى ما، وقد حقنه الأطباء بليون نوع مختلف من المُضادات الحيوية ولم يفلح أيُّها في إحداث فارق، وظلَّ يحترق لمُدَّة أسبوعين ثم مات في النهاية. ما أنا على وشك أن أُريك إيَّاه تعلَّمته من الهنود الذين كانوا يعملون في المشروع. كان الويسكي الرخيص محلِّي الصنع قويًّا إلى حدٍ كبير. تحتسي منه كأسًا وتظن أنه سيسري إلى معدتك بلطف ويستقر هناك، ثم فجأة تشعر كأن أحدهم أشعل موقد لحام وحشره في حلقك. لكن الهنود كانوا يشربونه كالكوكا-كولا، ونادرًا ما رأيت أحدهم ثملًا، ولم أرَ أيَّهم مُصابًا بالخمار في الصباح التالي. لم أمتلك الشجاعة وقتها لتجربة الأمر على طريقتهم بنفسي، لكن أظنُّني سأحاول فعلها الليلة. احضر لي بعضًا من شرائح الليمون التي لديك هناك».

أحضر ريكي لي أربعًا منها ووضعها بعناية على منديل دائري جديد بجوار كوب الويسكي. أمسك هانسكوم بواحدة منها، وأحنى رأسه إلى الخلف كرجلٍ على وشك وضع قطرة عينٍ لنفسه، ثم بدأ في عصر عصارة الليمون في فتحة أنفه اليُمنى.

صاح ريكي لي مذعورًا: «بحقِّ المسيح المُقدَّس!».

استُثيرت حنجرة هانسكوم، وشاعت الدماء في وجهه... ثم شاهد ريكي لي الدموع تنسال عبر وجهه مُتَّجهة نحو أُذُنيه. الآن كان صوت فريق سبينرز ينبعث من صندوق الأغاني.. كانوا يتغنَّون عن رجُلٍ بِرِباطٍ مطَّاطي.

- «أوه يا إلهي، أنا لا أعرف كم أستطيع تحمُّل المزيد». هكذا غنَّى فريق سبينرز.

تحسَّس هانسكوم سطح المَشرب غير قادرٍ على الرؤية، ووجد شريحة ليمون أخرى، فالتقطها وعصر عصارتها في فتحة أنفه الأخرى.

همس ريكي لي: «اللعنة، ستقتل نفسك هكذا».

ألقى هانسكوم بشريحتي الليمون الفارغتين على سطح المَشرب. عيناه مُلتهبتان بلونٍ أحمرٍ ناري ويشهق في أنفاسٍ قصيرة جافلة. انسابت قطرات عصير الليمون من منخريه وشقَّت طريقها إلى رُكني فمه. تحسَّس هانسكوم الكوب الكبير، ورفعه، ثم جرع ثُلثه دُفعة واحدة. مُسمَّرًا في مكانه من الذهول، شاهد ريكي لي تفاحة آدم تتحرَّك صعودًا وهبوطًا.

وضع هانسكوم الكوب جانبًا، وانتفض مرَّتين، ثم أومأ برأسه ونظر إلى ريكي لي وابتسم قليلًا. لم تعُد عيناه حمراوين.

- «الأمر يعمل بالطريقة التي وصفوها تمامًا. تجد نفسك مشغولًا تمامًا بما يحدث في أنفك، حتَّى إنك لا تشعر بما يجري في حلقك».

قال ريكي لي: «أنت مجنون يا سيِّد هانسكوم».

قال السيِّد هانسكوم: «تستطيع الرهان بلباسك على الأمر. أتذكر هذه العبارة يا ريكي لي؟ لقد اعتدنا قولها باستمرار عندما كنا بعد صبية 'تستطيع الرهان بلباسك'. هل أخبرتك من قبل أنني كنت بدينًا في صغري».

همس ريكي لي: «لا يا سيِّدي، لم تُخبرني قط». كان الآن مُقتنعًا أن السيِّد هانسكوم قد تلقَّى خبرًا ما مروِّعًا تمامًا لدرجة أنه أطاح بعقله... أو على الأقل منح تفكيره السليم إجازة.

- «لقد كنت الصبي البدين المُعتاد.. كُرة من الزبد كاملة الاستدارة. لم ألعب البيسبول أو كُرة السلَّة قط. كنت أوَّل من يخسر في لعبة المسَّاكة.. لم أكن أقدر حتَّى الابتعاد عن طريقي الخاص. حسنًا، كنت بدينًا، وقد اعتاد بعض الرفاق في مسقط رأسي التحرُّش بي وإرهابي بانتظام. كان هناك ذلك الفتى المدعو ريچنالد هاجنز، الذي يُلَقِّبه الجميع ببلتش.. وفتى آخر اسمه ڤيكتور كريس.. وثُلَّة من الآخرين. أما قائد المجموعة والعقل المُدبِّر وراءها

فكان فتى يُدعى هنري باورز. إذا كان ثمَّة فتى شرير حقًا يتبختر في أرجاء البسيطة يا ريكي لي، فهو هنري باروز. لم أكن الصبي الوحيد الذي يتحرَّشون به ويُطاردونه، لكن مُشكلتي كانت أنني لا أستطيع الركض بالسرعة نفسها التي يركض بها الآخرون».

حلَّ هانسكوم أزرار قميصه ثم فتحه. انحنى ريكي لي إلى الأمام ورأى نُدبة غريبة مُلتوية على بطن السيِّد هانسكوم، بالكاد تعلو تجويف سُرَّته.. مُغضَّنة.. بيضاء اللون.. وقديمة، ورأى أنها حرفٌ محفور. أحدهم حفر حرف H في جلد بطن الرَّجُل، على الأرجح منذ زمن بعيد جدًّا قبل أن يصير السيِّد هانسكوم رجُلًا.

- «هنري باورز فعل هذا بي. منذ نحو ألف عام. محظوظٌ أنا كوني لا أحمل اسمه الكامل محفورًا في جسدي».

- «سيِّد هانسكوم...».

أخذ هانسكوم شريحتي ليمون أُخريين، واحدة في كل يد، وأحنى رأسه إلى الوراء، وعصرهما في منخريه كقطرة أنف. ارتعش جسده وخفق، ووضعهما جانبًا، ثم جرع جرعتين كبيرتين من الكوب. انتفض جسده مرَّة أخرى، وجرع جرعة أخرى، ثم أمسك بحافَّة المَشرب المُبطَّنة وعيناه مُغلقتان. للحظة ظل مُتشبِّثًا كرَجُلٍ على قارب شراعي يمسك بالدرابزين لتدعيم نفسه وسط بحرٍ مُتلاطم الأمواج. ثم فتح عينيه بعدها وابتسم إلى ريكي لي.

قال له: «أستطيع امتطاء هذا الثور الجامح طوال الليلة».

قال ريكي لي بعصبية: «سيِّد هانسكوم، أتمنَّى أن تتوقَّف عن فعل هذا!».

جاءت آني إلى رُكن النادلات بصينية فارغة، وطلبت زجاجتي ميلر. سحبهما ريكي لي لها وناولها إيَّهما شاعرًا أنه يمشي على ساقين طريِّتين كالعجين.

سألته آني: «هل السيِّد هانسكوم بخير يا ريكي لي؟».

كانت تنظر إلى ما وراء ريكي لي، والتفت ليتتبَّع نظرتها. كان السيِّد هانسكوم ينحني فوق حافَّة المَشرب، ويلتقط شريحتي ليمون بعناية من العلبة التي تحوي مزَّات الشراب.

أجابها: «لا أعرف. لا أظنُّ أنه كذلك».

- «حسنًا، فلتُخرج إبهامك من مُؤخِّرتك وافعل شيئًا حيال الأمر». كانت آني -شأنها شأن النساء الأخريات- تميل إلى مُحاباة بن هانسكوم.

- «لا أعرف. كان والدي دائمًا يقول: إذا كان الزبون في كامل قواه العقلية...».

قاطعته آني قائلة: «والدك لا يملك العقل الذي أنعم به الرب على السناجب. لا تأبه لكلامه. يجب أن تُوقِف هذا الأمر يا ريكي لي.. الرَّجُل سيقتل نفسه».

وهكذا، بعد أن أُمليت الأوامر عليه، سار ريكي لي عائدًا إلى حيث يجلس بن هانسكوم وقال له: «سيِّد هانسكوم، أظنُّ أنك قد نلت كفايـ...».

أرجع هانسكوم رأسه إلى الوراء، وعَصَر.. هذه المرَّة استنشق عصير الليمون كأنه كوكايين، وجرع الويسكي بعدها كأنه ماء، ثم نظر إلى ريكي لي بأسى وقال: «بيج بانج، رأيت جميع الرفاق، يرقصون فوق بساط غرفة المعيشة خاصتي». ثم ضحك. كانت ثمَّة رشفتان من الويسكي باقيتان في قاع الكوب.

قال ريكي لي وهو يمدُّ يده إلى الكوب: «هذا يكفي».

أبعد هانسكوم الكوب برفق عن متناوله وقال: «لقد وقع الضرر بالفعل يا ريكي لي.. لقد وقع الضرر يا ولدي».

- «سيِّد هانسكوم، أرجوك...».

- «لديَّ شيء من أجل أولادك يا ريكي لي. اللعنة لقد كدت أنسى!».

كان يرتدي صديري من نسيج الدينم، والآن استخرج شيئًا من إحدى جيوبه. سمع ريكي لي صوت صليلٍ مكتوم.

قال هانسكوم: «أبي مات وأنا في الرابعة» لم يكن ثمَّة أيُّ تلعثم في صوته من أثر الخمر «وترك خلفه مجموعة ديون، وهذي. أريد لأطفالك أن يأخذوها يا ريكي لي»، وضع هانسكوم ثلاثة دولارات فِضِّية كبيرة على سطح المَشرب، حيث قبعت في مكانها تلمع أسفل الأضواء الخافتة. شهق ريكي لي وتقطَّع نفسه.

- «سيِّد هانسكوم، هذا كرمٌ بالغٌ منك، لكنني لا أستطيع...».
- «لقد كانوا أربعة، لكنني أعطيت واحدًا منها إلى بيل المُتلعثم والآخرين. بيل دِنبروه، كان هذا اسمه الفعلي. لكننا اعتدنا أن ندعوه بيل المُتلعثم... كان ذلك مُجرَّد شيء اعتدنا قوله، مثل 'تستطيع الرهان بلباسك'. لقد كان أحد أفضل الأصدقاء الذين حظيت بهم في حياتي... كان لديَّ بعض الأصدقاء بالفعل، حتَّى صبي بدين مثلي استطاع أن يجد بعض الأصدقاء. بيل المُتلعثم كاتبٌ الآن».

استمع إليه ريكي لي بالكاد وهو يتأمَّل الدولارات الفِضِّية مبهورًا. كانت من إصدار أعوام 1921، و1923، و1924، وحده الله يعلم كم تساوي الآن، فقط من حيث محتواها من الفِضَّة النقية.

قال ريكي لي مرَّة أخرى: «لا أستطيع».

- «لكنني مُصِر».

رفع السيِّد هانسكوم الكوب الضخم وأفرغه في حلقه. يُفترض أن يكون مُنبطحًا أرضًا الآن على عجيزته، لكن عينيه لم تُفارقا عيني ريكي لي. هاتان عينان دامعتان، ومحتقنتان بالدماء، لكن ريكي لي كان ليقسم على كومة من الأناجيل أنها أيضًا عينا رجُلٍ مُستفيق.

قال ريكي لي: «أنت تُخيفني بعض الشَّيء يا سيِّد هانسكوم». منذ عامين، جاء جريشام أرنولد -مدمن خمر شهير محليًا- إلى فندق العجلة الحمراء بسُرَّة من أرباع الدولارات وورقة بعشرين دولارًا مطويَّة في شريطٍ على قُبَّعته. ناول جريشام السُرَّة إلى آني وأعطاها تعليمات أن تُلقِّم أرباع الدولارات إلى صندوق الأغاني، أربعة أرباع في كل مرَّة، ووضع العشرين دولارًا على سطح المَشرب وأعطى توجيهات إلى ريكي لي أن يصب مشروباتٍ إلى كل من في الحانة. هذا السكِّير، هذا الجريشام أرنولد، كان نجمًا لامعًا في فريق أكباش همينجفورش لكُرة السلَّة، وقد قاد فريقه إلى إحراز بطولة المدارس الثانوية الأولى في تاريخه (والأخيرة غالبًا). كان ذلك عام 1961، وقد بدا أن مُستقبلًا مُشرقًا غير محدود يمتد أمام الفتى اليافع. لكنه رسب في اختبار الفصل الدراسي الأول في جامعة ولاية لويزيانا.. بعد أن وقع فريسة للخمر،

والمُخدِّرات، والحفلات الليلة الصاخبة كل ليلة. عاد بعدها إلى المنزل، وحطَّم السيَّارة المكشوفة الصفراء التي أهداها ذويه له كهدية تخرُّج في الثانوية العامة، وعَمِلَ بائِعًا في وكالة چون ديري للبيع بالتجزئة التي يمتلكها والده. مرَّت خمس سنوات، وقلب والده لم يطاوعه على طرده من العمل، لذا في النهاية باع الوكالة وتقاعد في أريزونا.. شاخ الرَّجُل قبل أوانه بسبب فساد وضياع ابنه غير المُفسَّر والذي لا رجعة فيه كما بدا. عندما كانت الوكالة لا تزال في حوزة أبيه، وعندما كان يتظاهر بالعمل على الأقل، حاول أرنولد إبقاء الخمر على مبعدة منه.. لكنه بعد ذلك وقع أسيرًا لها تمامًا. صار خسيسَ الطبع أحيانًا، لكنه كان حُلوًا كحلوى النعناع في الليلة التي أتى فيها إلى هنا بصُرَّة أرباع الدولارات وابتاع الشراب على حسابه. شكره الجميع بلُطف، واستمرَّت آني في تشغيل أغاني مو باندي لأن جريشام أرنولد كان يُحبُّ مو باندي. جلس هناك على المَشرب، على الكرسي ذاته حيث يجلس السيِّد هانسكوم الآن -هكذا أدرك ريكي لي والشعور بعدم الراحة يتنامى ويرسخ داخله- واحتسى كوكتيلًا من البربون والخمر المُرِّ، وأخذ يُغني مع الأنغام المُنبعثة من صندوق الأغاني، ولم يُثِر أيَّ مُشكلة، ثم عاد إلى منزله عندما أغلق ريكي لي المكان، وشنق نفسه بحزامه في مقصورة الطابق العلوي. كانت عينا أرنولد جريشام في تلك الليلة تبدو كما تبدو عينا بن هانسكوم الآن.

سأله هانسكوم: «أنا أُخيفك بعض الشيء، حقًّا؟» دون أن تُفارق عيناه عيني ريكي لي. ثم أزاح الكوب بعيدًا وطوى يديه بأناقة أمام الدولارات الفِضِّية الثلاثة. «رُبَّما أنا أُخيفك بالفعل، لكنك لستَ خائفًا بقدري يا ريكي لي.. وصَلِّ ليسوع كي لا يعتريك مثل خوفي هذا أبدًا».

سأله ريكي لي: «حسنًا، ما الأمر؟ رُبَّما...» ثم بلَّل شفتيه قبل أن يضيف: «... رُبَّما أستطيع مُساعدتك».

قهقه بن هانسكوم قائلًا: «الأمر؟ حسنًا، إنه ليس بالأمر الجلل. لقد تلقَّيت مُكالمة من صديق قديم الليلة. رَجُل اسمه مايك هانلون. كنت قد نسيت كل شيء عنه يا ريكي لي، لكن هذا لم يُخيفني كثيرًا. ففي النهاية، قد كنت مُجرَّد

طفل عندما عرفته، والأطفال تنسى، أليس كذلك؟ بالتأكيد تنسى. تستطيع الرهان بلباسك على هذا. ما أخافني هو أنني عندما تخطَّيت نصف المسافة قدومًا إلى هنا، أدركت أنني لم أنسَ مايك هانلون فحسب... لقد نسيت كل شيء عن أيَّام صباي».

استمرَّ ريكي لي في النظر إليه فحسب. لم تكن لديه أدنى فكرة عمَّا يتحدَّث عنه السيِّد هانسكوم.. لكن الرَّجُل يبدو خائفًا بالفعل. لا شك في الأمر. كان الأمر غريبًا على طبع بن هانسكوم، لكنه حقيقيّ.

- «أعني، لقد نسيت كل شيء عن الأمر» قالها وهو يضرب سطح المَشرب بمفاصل أصابعه مُشدِّدًا، ثم أردف: «هل سمعت يا ريكي لي من قبل عن حالة فقدان ذاكرة كاملة لدرجة ألَّا تعرف أنك أُصبت بفقدان ذاكرة من الأساس».

هزَّ ريكي لي رأسه نافيًا.

- «ولا أنا. لكن ها أنا ذا الليلة أقوم بأعمال صيانة خفيفة في الكاديلاك، وفجأة صدمتني تلك الحقيقة. لقد تذكَّرت مايك هانلون، لكن فقط لأنه خابرني في الهاتف. تذكَّرتُ ديري، لكن فقط لأنه كان يتحدَّث منها».

- «ديري؟».

- «لكن هذا كل شيء. لقد صُدِمتُ لكوني لم أسترجع ذكرياتٍ عن صباي منذ... منذ لا أعلم متى. ثم بعد ذلك -وبمنتهى البساطة- بدأ كل شيء يتدفَّق عائدًا. مثل تلك الذكرى عن ماذا فعلنا بالدولار الفِضِّي الرَّابع».

- «ماذا فعلتم به يا سيِّد هانسكوم؟».

رمق هانسكوم ساعة معصمه، وانزلق فجأة مُترجِّلًا من كُرسيه المُرتفع وترنَّح قليلًا.. قليلًا جدًّا.. هذا كل شيء. ثم قال: «يجب ألا أدع الوقت يسرقني. سأُسافر بالطائرة الليلة».

نظر إليه ريكي لي على الفور بقلق، فضحك هانسكوم.

- «سأطير لكنني لن أقود الطائرة. ليس هذه المرَّة. لقد حجزت على متن الخطوط الجوية المُتَّحدة يا ريكي لي».

- «أوه».

أفلت الصوت من النادل، وتوقَّع أن الارتياح لا بُدَّ أنه شاع في وجهه، لكنه لم يأبه.

- «إلى أين أنت ذاهب؟».

كان قميصه لا يزال مفتوحًا، فنظر مُتأمِّلًا خطوط نُدبته القديمةُ البيضاء المُجعَّدة على جلد بطنه وبدأ في إغلاق أزرار القميص.

- «ظننت أنني أخبرتك يا ريكي لي. مسقط رأسي. أنا عائد إلى الوطن. أعط هذه الدولارات الفِضِّية لأبنائك».

أنهى عبارته وبدأ في السير تجاه الباب، وكان ثمَّة شيءٌ في أسلوب مشيته، وحتَّى في طريقة جذبه لسراويله إلى أعلى، أثار ذُعر ريكي لي. التشابه مع الفقيد جريشام أرنولد غير المأسوف عليه إلى حدٍ ما بدا حادًا جدًا الآن كمرأى شبح تقريبًا.

صاح ريكي لي بصوتٍ قلق: «سيِّد هانسكوم!».

استدار هانسكوم على عقبيه، فتراجع ريكي لي إلى الوراء سريعًا، واصطدمت مؤخِّرته برفوف المَشرب الخلفية، فصلصلت الأواني الزجاجية فترة وجيزة عند احتكاك بعضها ببعض. لقد صُدِم ريكي لي وتراجع إلى الخلف لأنه أدرك فجأة أن بن هانسكوم رجلٌ ميِّت. أجل، بن هانسكوم يستلقي ميِّتًا في مكانٍ ما، في مصرفٍ أو عَلِيَّةٍ أو رُبَّما في خِزانة مع حزام يلتفُّ حول عنقه وحذاء رُعاة البقر عالي الرقبة باهظ الثمن يتدلَّى مُرتفعًا شبرًا واحدًا أو اثنين على الأرض.. والشَّيء الواقف جوار صندوق الأغاني وينظر له ما هو إلا شبح. للحظة -فقط لحظة لكنها كانت كافية لتُغلِّف قلبه النابض بطبقةٍ من جليد- صار مُقتنعًا أنه يرى المناضد والكراسي من خلال الرَّجُل.

- «ما الأمر يا ريكي لي؟».

- «لـ-لـ-لـ... لا شيء».

نظر بن هانسكوم إلى ريكي لي بعينين تطوِّقهما هالاتٌ إرجوانية داكنة من الأسفل، بينما وجنتاه تشتعلان بفعل الخمر، وبدت أنفه حمراء ومُلتهبة.

ردَّد ريكي لي مرَّة أخرى: «لا شيء»، لكنه لم يقدر على إشاحة بصره عن

ذلك الوجه.. وجه رَجُلٍ انغمس بعمق في حياة الخطيئة، والآن يقف مُرهقًا أمام باب الجحيم.

قال بن هانسكوم: «كنت بدينًا وكنا فقراء.. أتذكَّر هذا الآن، وأتذكَّر أن فتاةً تُدعى بيڤرلي وفتًى يُدعى بيل المُتلعثم أنقذا حياتي بدولارٍ فِضِّي. إنني أرتعد خوفًا ممَّا قد أتذكَّر أيضًا قبل انتهاء الليلة، لكن مقدار خوفي لا يهم، لأن كل شيء عائد لا محالة. كل شيء موجود هناك، وينمو كفُقَّاعة كبيرة داخل عقلي. لكنني ذاهب، لأن كل ما لديَّ حاليًا، وكل ما أنا عليه، قد حدث بفضل ما فعلناه وقتذاك، والمرء يدفع مُقابل ما يحصل عليه في هذا العالم. رُبَّما لهذا السَّبب خلقنا الله أطفالًا وقصار القامة في البداية، لأنه يعلم أنه يجب أن نسقط أرضًا كثيرًا وننزف كثيرًا قبل تعلُّم هذا الدرس البسيط. أنت تدفع مُقابل ما تحصل عليه.. وستملك ما تدفع مُقابله.. وآجلًا أم عاجلًا، أيًّا كان ما تملك، فإنه يعود إليك».

سأله ريكي لي بشفتين خدرتين: «لكنك ستعود في عطلة نهاية هذا الأسبوع أظنُّ، أليس كذلك؟» كان هذا كل ما وجده ليتمسَّك به في ظل هذا الكدر المُتزايد الذي يشعره، «ستعود في عطلة نهاية الأسبوع كالعادة دائمًا، أليس كذلك؟».

قال السيِّد هانسكوم وهو يبتسم ابتسامة مُريعة: «لا أعرف يا ريكي لي. أنا ذاهب إلى ما أبعد من لندن بكثير هذه المرَّة».

- «سيِّد هانسكوم...!».

كرَّ هانسكوم عبارته: «أعط تلك الدولارات الفِضِّية إلى أولادك». ثم خطا خارجًا إلى جوف الليل.

سألت آني: «ما الأمر بحق الجحيم؟». لكن ريكي لي تجاهلها، ثم قلب حاجز المَشرب الخشبي واندفع إلى إحدى النوافذ التي تطل على موقف السيَّارات. شاهد مصابيح سيَّارة السيِّد هانسكوم الكاديلاك الأمامية تتقدَّم، والغبار يثور من خلفها، ثم تضاءل ضوء المصابيح الخلفية إلى أن صار نقاطًا حمراء صغيرة عبر طريق 63 السريع، وبدأت رياح نبراسكا الليلية في تشتيت الغُبار المُعلَّق وذَروِه.

قالت إني: «لقد تناول برميلًا من الخمر وتركته يذهب في سيَّارته الكبيرة هذه ويقودها مُبتعدًا.. أحسنت يا ريكي لي».

- «لا عليكِ».

- «سيقتل نفسه».

رغم أن هذه كانت فكرة ريكي لي الخاصة منذ أقل من خمس دقائق، إلا أنه التفت إليها عندما غاب ضوء المصابيح الخلفية عن الأنظار وهزَّ رأسه.

وقال: «لا أظنُّ ذلك. رغم أنه وفقًا للهيئة التي بدا عليها الليلة، أظنُّ من الأفضل لو قتل نفسه».

- «بِمَ أخبرك؟».

هزَّ رأسه مرَّة أخرى. كان الأمر برمَّته يختلط في ذهنه حتَّى صار بلا معنى واضح له.

- «لا يهم. لكنني لا أظنُّ أننا سنرى هذا الصبي الكبير مرَّة أخرى».

3

إدي كاسبراك يُلمِلم دواءه

إذا أردت معرفة كل ما يُمكن معرفته عن رجلٍ أمريكي أو امرأة من الطبقة الوسطى قرب نهاية الألفية الثانية، فكل ما عليكَ النظر إلى خِزانة دوائه أو خِزانة دوائها.. أو هكذا قيل. لكن يا إلهي؛ حاول أن تُلقي نظرة إلى خِزانة الدواء هذه بينما يدفع إدي كاسبراك بابها لينزلق جانبًا من أمام وجهه الأبيض وعينيه الواسعتين المُحملقتين.

على الرَّفِ العلوي يوجد آنسين، وإكسيدرين، وإكسيدرين ليلي، وكونتاك، وچيلوسيل، وتايلينول، وعبوَّة ڤِكس زرقاء كبيرة يبدو لونها كأنه شفق عميق كئيب يقبع أسفل الزُّجاج. ثمَّة زجاجة ڤيڤرين، وزجاجة سيروتان (هذه كلمة «*Nature's*» مكتوبة بالعكس، هكذا اعتاد الإعلان الذي يتخلَّل برنامج لورانس ويلك أن يقول عندما كان إدي كاسبراك لم يزل طفلًا بعد)، وزجاجتي حليب

مغنيسيا ماركة فيليبس (العادية التي يُشبه طعمها الطبشور السَّائل، والجديدة بنكهة النعناع التي يُشبه طعمها طبشور سائل بنكهة النعناع). هنا زجاجة روليدز كبيرة تقف على مقربة حميمية من زجاجة تيرنز كبيرة، وزجاجة التيرنز تقف بمحاذاة زجاجة كبيرة من أقراص داي-چل بنكهة البرتقال. الزُجاجات الثلاث تبدو كأنها ثلاث حصَّالات خنزيرية وردية اللَّون، تمتلئ بالحبوب بدلًا من السنتات.

الرَّف الثاني -ولتُسرِع من وتيرتك قليلًا-: لديك ڤيتامين ه، وڤيتامين سي، وڤيتامين سي ببذور ثمار الورد. لديك ڤيتامين ب العادي، وب المُركَّب، وب-12. يوجد أيضًا حمض الليسين الأميني، والذي من المُفترض أن يفعل شيئًا حيال مُشكلات الجلد المُحرِجة، والليسيثين الذي من المُفترض أن يفعل شيئًا حيال تراكم الكولسترول المُحرِج حول المضخَّة الكبيرة. ثمَّة مُكمِّل حديد، وكالسيوم، وزيت كبد سمك القد. ثمَّة مُتعدِّد ڤيتامينات للتناول اليومي، ومُتعدِّد ڤيتامينات مايادِك، ومُتعدِّد ڤيتامينات سنترام، وفوق خِزانة الدواء نفسها تجلس زجاجة چيريتول عملاقة، فقط لحُسن التدبير.

إذا انتقلنا ببصرنا يمينًا إلى رفِّ إدي الثالث، سنجد مجموعة من اللاعبين المهرة في عالم براءات اختراع الدواء والطب. الإكس لاكس، وحبوب كارتر الصغيرة. هذان الاثنان يُساعدان إدي كاسبراك على تفريغ أمعائه من الإمساك، وهنا في الجوار سنجد كاوبكتات، وبيبتو-بيسمول، وبريباريشن إتش، في حالة أن أمعاءه تُفرِغ ما فيها أسرع من اللازم. أيضًا يوجد بعض وسائد تَك الدوائية محفوظة في برطمان للإبقاء على كل شيءٍ أنيقًا بعد إفراغ إمعائه، سواء قل أو كَثُر ما خرج منها من غائط. ها هي زُجاجة فورميولا 44 للسعال، ونيكويل ودريستان لعلاج البرد، وزجاجة كبيرة من زيت الخروع. ثمَّة عُلبة سوكريتس في حالة ما أُصيب إدي بالتهاب في الحلق، وثمَّة أربعة أنواع من غسول الفم: كلوريسبتيك، وسيبكول، وسيبستات بخَّاخ، وبالطبع الليستيرين القديم حسن السيرة، الذي كثيرًا ما يُقلَّد لكن لا أحد يتفوَّق عليه قط. يوجد ڤايسين ومورين لعالج العين، ومرهما الجلد كورتايد ونيوسبورين (وهذان خط الدفاع الثاني إذا لم يَرق حمض الليسين الأميني للتوقُّعات)،

وأنبوب أوكسي-5 وزجاجة غسول أوكسي بلاستيكية (لأن إدي قطعًا يُفضِّل أن يحتفظ بسنتات أقل في جيبه عن أن تظهر بثور أكثر في وجهه)، وبعض أقراص التراسيكلين.

وأخيرًا قُبالة أحد الجوانب -مُحتشدة كأنها كائدات مُتآمرات- تجلس ثلاث زجاجات غسول رأس بقطران الفحم.

الرَّف السفلي مهجور تقريبًا، لكن الأصناف الموجودة هنا خطيرة حقًّا، وتستطيع الانتشاء بالكامل إذا حدث وتعاطيتها. بتناول تلك الأصناف تستطيع التحليق أعلى من طائرة بن هانسكوم، وتسقط مُتحطِّمًا من السماء أعنف من ثورمان مونسون[1]. يوجد هنا ڤاليوم، وبريكودان، وإليڤال، ومُركَّب دارڤون. أيضًا توجد عُلبة سوكريتس أخرى على هذا الرَّف المُنخفض، لكن بلا أقراص سوكريتس داخلها. إذا فتحتها ستجد ستَّة أقراص كوالودوز.

إن إدي كاسبراك لرَجُلٍ يؤمن بشعار فتيان الكشَّافة.

كان إدي يُمسك بكيس تسوُّق كبير أزرق وهو يدلف إلى الحمَّام، وضع إدي الكيس على الحوض، وفتحه، ثم بعدها -بيدين مُرتعشتين- بدأ في إلقاء الزجاجات والبرطمانات والأنابيب والعبوَّات والبخَّاخات إليه. في ظل ظروفٍ أخرى كان سيضعها جميعًا واحدة تلو الأخرى بعناية، لكن لم يكن ثمَّة وقت لمثل هذه الجماليات حاليًا. الاختيار كما رآه إدي كان بسيطًا بقدر وحشيته: تحرَّك سريعًا وواصل التحرُّك أو ابق في مكانٍ واحد فترة كافية لتبدأ فيها بالتفكير في معنى الأمر كله، ومُت من الخوف.

نادت ميرا عليه من الطابق الأرضي: «إدي؟ إدي، ماذا تفعاااال؟».

أسقط إدي عُلبة السوكريتس التي تحوي أقراص الكوالودوز إلى الكيس. باتت خِزانة الدواء خاوية على عروشها بالكامل باستثناء المايدول الخاص بميرا، بالإضافة إلى أنبوب بليستكس شبه فارغ. توقَّف للحظة مُتردِّدًا ثم التقط إدي أنبوب البليستكس، وبدأ في إغلاق الكيس وعقله يُفكِّر، ثم ألقى المايدول بدوره إليها. تستطيع ميرا دائمًا شراء المزيد أنَّى شاءت.

---

(1) ثورمان لي مونسون (1947-1979): لاعب بيسبول أمريكي شهير مات في حادث تحطُّم طائرة.

- «إدي؟». جاءه الصوت من منتصف الدرج هذه المرَّة.

أحكم إدي إغلاق الكيس وغادر الحمَّام وهو يتأرجح إلى جواره. كان إدي رجلًا قصيرًا بوجهٍ خجول يُشبه الأرانب إلى حدٍ ما. مُعظم شعره سقط، وما تبقَّى منه كان ينمو بعدم انتظام في رُقَع تلوَّنت بعدة ألوان. كان وزن الكيس يجذب إدي بشكلٍ ملحوظ إلى الجانب.

كانت المرأة جسيمة الضخامة تصعد الدرج الآن ببطء نحو الطابق الثاني. استطاع إدي سماع سلالم الدرج تَئِن تحت وطأة ثقلها.

- «ماذا تفعاااااال؟».

لم يكن إدي في حاجة إلى طبيب نفسي ليُخبره أنه -بشكلٍ ما- تزوَّج بأمه. كانت ميرا كاسبراك امرأة ضخمة. عندما تزوَّجها إدي منذ خمس سنوات، كانت كبيرة فحسب. لكنه أحيانًا يظن أن عقله اللا واعي رأى قابلية الضخامة فيها؛ يعلم الرَّب أن أمه كانت عظيمة البدن. بدت ميرا بشكلٍ ما أكثر ضخامة من ذي قبل عندما بلغت الطابق الثاني. كانت ترتدي ثوب نومٍ أبيض ينتفخ كموجة هائلة عند الصدر والفخذين، بينما وجهها الذي يخلو من مساحيق التجميل، طلَّ عليه أبيض ولامع. بدت مذعورة تمامًا.

قال إدي: «سأضطر للرحيل بعض الوقت».

- «ماذا تعني بسأضطر الرحيل؟ ما أمر تلك المُكالمة الهاتفية؟».

قال لها: «لا شيء».

ثم هرب سريعًا إلى نهاية الممر حيث حجرة الملابس، ووضع إدي كيس الدواء أرضًا، وفتح باب خِزانة الملابس الذي يُطوى إلى الخلف، وأزاح جانبًا نصف دزينة البِزَّات السوداء المُتطابقة المُعلَّقة هناك بثقلٍ بالغ يجعلها تبرز كغيمة كبيرة وسط الملابس الزاهية الملوَّنة الأخرى. كان دائمًا ما يرتدي إحدى البِزَّات السوداء في العمل. انحنى إدي داخل الخِزانة، مُشتمًّا رائحة كُرات العث والصوف، وأخرج حقيبة سفر من الخلف وفتحها وأخذ يلقي الملابس داخلها.

سقط ظِلُّ المرأة فوقه.

- «ما الأمر يا إدي؟ إلى أين أنت ذاهب؟ قل لي؟».

- «لا أستطيع إخبارك».

وقفت المرأة مكانها تُراقبه وتحاول معرفة ماذا ستقول، أو ما ينبغي لها فعله. جالت فكرة دفعه إلى داخل الخِزانة وإغلاقها عليه ثم الوقوف وظهرها يستند إلى بابها إلى أن تمرَّ نوبة الجنون هذه بسلام بخاطرها، لكنها لم تقوَ على حث نفسها لتنفيذها، رغم أنها قادرة على ذلك تمامًا، فهي أطول من إدي بثلاث بوصات وتفوقه وزنًا بمئة رطل. لم تعرف كيفية التصرُّف أو القول لأن ما يفعله كان غريبًا عن شخصيته تمامًا. لم تكن لتشعر بخوفٍ أو جزع أكثر إذا ما دلفت إلى حجرة المعيشة ووجدت التلفاز الجديد ذو الشاشة الكبيرة يسبح في الهواء.

سمعت نفسها تقول: «لا يُمكن أن ترحل. لقد وعدتني أن تحصل لي على توقيع آل باتشينو». كانت هذه سخافة منها -يعلم الله أنها كذلك- لكن في هذه اللحظة حتَّى السخافة تبدو أفضل من لا شيء.

قال إدي: «ما زلت ستحصلين عليه. فأنت من سيَقِلُّه بنفسك».

أوه، ها هو رعبٌ إضافي ينضم إلى ما يدور في رأسها المسكين الحائر بالفعل. فلتت منها صرخة صغيرة: «لا أستطيع... لم أفعل قط...».

كان يفحص حذائه الآن، وقال: «يتحتَّم عليك فعل ذلك.. لا يوجد شخصٌ آخر».

- «زيَّا العمل لم يعودا يُناسباني! صارا ضيِّقين جدًّا من عند نهديّ!».

قال لها بحزم: «اطلبي من ديلوريس توسيع أحدهما لكِ».

تفحَّص إدي حذاءين ثم ألقاهما حيث كانا، وعثر على صندوق أحذية فارغ، وزجَّ بفردتي حذاءٍ ثالث فيه. هذه أحذية سوداء متينة ما زال أمامها عمر طويل من الاستخدام، لكن مظهرها يبدو باليًا جدًّا، ويمنعه من ارتدائها في العمل. عندما تكون وظيفتك توصيل أُناس أغنياء في مدينة نيويورك -وكثيرٌ منهم أغنياء ومشاهير معًا- فكل شيءٍ يجب أن يبدو في أبهى مظهر، وهذه الأحذية لم تعد تبدو في أفضل حالة... لكنه فكَّر أنها ستؤدِّي الغرض حيث هو ذاهب، وستؤدي الغرض لأيٍّ ما قد يفعل عندما يصل إلى وجهته. رُبَّما ريتشي توزييه سوف...

لكن بعدها غمرت تفكيره غيمة داكنة، وشعر بحنجرته تتحشرج وتُغلق. أدرك إدي في ذُعرٍ حقيقي أنه حزم الصيدلية اللعينة كلها ونسي أهم شيءٍ على الإطلاق -بخّاخةُ- في الطابق الأرضي فوق سمّاعات الستريو.

ضرب إدي حقيبة السفر وأحكم إغلاقها بالقفل. ثم نظر إلى ميرا التي كانت تقف في منتصف الممر بكفٍّ يُطبق على عُنُقها القصير السميك كأنما هي المُصابة بالربو. كانت تحملق فيه بوجهٍ ملأته الحيرة والجَزَع، وقد كان سيشعر بالأسف لها بالتأكيد إذا لم يكن قلبه نفسه يمتلئ بالذُعر عن آخره.

- «ماذا جرى يا إدي؟ من الذي كلّمك في الهاتف؟ هل أنت في ورطة؟ أنت في ورطة، أليس كذلك؟ أيُّ نوعٍ من المُشكلات تورّطَ فيها؟».

سار إدي في اتّجاهها -بكيس الدواء في يدٍ وحقيبة السفر في اليد الأخرى- وهو يقف مُعتدلًا حاليًا لأن الوزن على الجانبين متساوٍ تقريبًا. تحرّكت ميرا قُبالته وهي تحجب الدرج بجسدها، وفي البداية ظن أنها لن تحيد عن موقعها. ثم عندما كاد وجهه أن يصطدم بحواجز الطريق المُتمثّلة في ثدييها العارمين، ابتعدت عن طريقه... واجفة.

ثم مع مروره من جوارها دون أن يُبطئ وتيرته أو يلتفت، أُجهشَت ميرا ببُكاءٍ تعس مغلوبة على أمرها.

وانفجرت دامعة: «لا أستطيع توصيل آل باتشينو! سأصطدم بلافتة توقُّف في الطريق أو شيءٍ ما، أعرف أنني سأفعل! أنا خاااائفة يا إدي».

نظر إلى الساعة الخشبية طراز سيث توماس الموضوعة على المنضدة قُرب الدرج. إنها التاسعة والثلث. لقد أخبره موظّف شركة خطوط دلتا الجوِّية ذو الصوت الثَّمل أنه فوّت بالفعل آخر رحلة شمالية إلى ولاية مين، والتي غادرت مطار لاجوارديا في الثامنة وخمس وأربعين دقيقة. لقد اتَّصل بخطوط السِّكة الحديدية أمتراك واكتشف أن قطارًا مُتأخِّرًا سيُغادر محطَّة بنسلڤانيا إلى بوسطن في الحادية عشرة والنصف. هكذا يُمكن أن يصل إلى محطة الجنوب، حيث يستطيع ركوب تاكسي إلى مكاتب كيب كود لليموزين في شارع أرلينجتون. شركة كيب كود وشركة رويال كرست التي يملكها إدي قد عملتا على إرساء منافع متبادلة مفيدة وودِّية على مر السنين. مُكالمة سريعة

لبوتش كارينجتون في بوسطن أمَّنت له وسيلة مواصلته شمالًا. أخبره بوتش أن كاديلاك ليموزين ذات خزان ممتلئ بالوقود ستكون في انتظاره. هكذا سيُسافر بأناقة، دون عميلٍ مُزعجٍ ثقيل الظل يجلس في المِقعد الخلفي يلوِّث الهواء بسيجار كبير ويسأله إن كان يعرف أين يستطيع ابتياع بعض التبغ أو جرامات قليلة من الكوكايين أو كليهما.

المُغادرة بأناقة إذًا، هكذا فكَّر. الوسيلة الوحيدة للمُغادرة بمزيدٍ من الأناقة ستكون أن تُغادر في سيَّارة موتى. لكن لا تقلق يا إدي، فهكذا ستعود على الأرجح. هذا إذا وُجِد ما يكفي منك لالتقاطه وجمعِه.

- «إدي؟».

التاسعة والثلث. أمامك فُسحة من الوقت للتحدُّث إليها. فُسحة من الوقت للتصرُّف بكياسة. آه، لكن لكم كان الأمر سيكون أفضل لو أن هذه إحدى ليالي سهرها في الخارج للعب الويست مع صديقاتها.. إن كان في وسعه الانسلال بهدوء، وترك رسالة أسفل إحدى قطع المغناطيس على باب الثلَّاجة (كان باب الثلَّاجة المكان الذي يترك فيه جميع رسائله إلى ميرا، لأنها لم تكن تفوتها هناك قط). الخروج هكذا -كهارب- ليس تصرُّفًا جيِّدًا بالطبع، لكن الموقف الحالي أسوأ بكثير. كان الأمر شبيهًا بترك منزل أمه من جديد، ولكم كان هذا الأمر بالغ الصعوبة لدرجة أنه اضطُر لفعله ثلاث مرَّات.

أحيانًا يكون بيتك حيث يقطن قلبك، هكذا فكَّر إدي. أنا أؤمن بذلك. الراحل روبرت فروست قال إن الوطن هو المكان الذي يكون لزامًا على من فيه أن يحسنوا استقبالك عندما تجد نفسك مُضطرًّا للرجوع إليه، وللأسف، إنه أيضًا المكان الذي ما إن تجد نفسك فيه، لا يرغب من فيه في إطلاق سراحك أبدًا.

وقف إدي عند حافَّة الدرج، مُوقِفًا تقدُّمه مؤقتًا، مُمتلئًا بالخوف، يتنفَّس بصعوبة مُصفِّرًا بصوتٍ مسموع من الثُقب الذي آلت إليه حنجرته، مُراعيًا زوجته الباكية.

قال لها: «اهبطي معي إلى أسفل وسأخبرك بما أستطيع».

وضع إدي حقيبتي الملابس والدواء قرب الباب في المدخل الرئيس،

وتذكَّر بعدها شيئًا آخر، أو بالأحرى من تذكَّر نيابةً عنه هو شبح أمه التي ماتت منذ سنوات عديدة، ورغم ذلك ما زالت تتحدَّث إليه في أحايين كثيرة.

أنت تعرف يا إدي أنك تُصاب بالبرد عندما تبتل قدماك... أنت لست مثل الآخرين. إن مناعتك ضعيفة، لذا يجب أن تكون حريصًا. لذا يجب أن ترتدي العوازل المطَّاطية عندما تُمطر.

وقد كانت كثيرًا ما تُمطر في ديري.

فتح إدي خِزانة المدخل الرئيس، والتقط عوازل الأقدام المطَّاطية من العُقاف حيث كانت مُعلَّقة بأناقة في حقيبة بلاستيكية، ووضعها في حقيبة ملابسه.

يا لك من ولدٍ شاطرٍ يا إدي.

كان إدي وميرا يشاهدان التلفاز عندما جاء الخبر الكارثي، والآن اتَّجه إدي إلى غرفة المعيشة وضغط الزِّر الذي يطوي التلفاز الجداري الذي كانت شاشته ضخمة جدًا حتَّى أنها تجعل فريمان مكنيل[1] يبدو كعملاقٍ من أرض بروبدينجناج[2] في أُمسيات الأحد، ثم التقط سمَّاعة الهاتف واتَّصل بتاكسي. أخبره عامل الإرسال أن السيَّارة ستكون أمامه بعد خمس عشرة دقيقة غالبًا، فأجابه إدي أنه لا مُشكلة في هذا.

ثم أنهى المُكالمة والتقط بخَّاخه من أعلى مُشغِّل الأُسطُوانات طراز سوني باهظ الثمن. لقد أنفقت ألف وخمسمئة دولارًا على آخر ما توصَّلت إليه التكنولوچيا في أنظمة الصوت كي لا تُفوِّت ميرا أغنية واحدة من تسجيلات باري مانيلو الذهبية، وتجميعة «أعظم أغاني السوبريمز»، هكذا فكَّر.. ثم شعر بموجة من الشعور بالذنب تسري خلاله. هذا ليس عدلًا، وهو يعرف ذلك جيِّدًا جدًّا. لقد كانت ميرا سعيدة بأرشيف أُسطُوانتها القديم المليء بالخدوش، بمثل سعادتها بأُسطُوانات الليزر الجديدة، تمامًا كما كانت ستظل سعيدة بالاستمرار في العيش في المنزل الصغير ذي الغُرف الأربع في حي

(1) فريمان مكنيل: لاعب كُرة قدم أمريكية شهير.

(2) في رواية جونثان سويفت، رحلات جاليفر، أرض خيالية يقطنها العمالقة.

كوينز حتَّى يتقدَّما في العمر ويشيب شعرهما (لقول الحقيقة، بعض الثَّلج كان قد بدأ في اعتلاء رأس كاسبراك بالفعل). لقد ابتاع نظام الصوت الفاره هذا للسبب نفسه الذي ابتاع من أجله هذا المنزل الحجري الكبير في لونج آيلاند، حيث يتخبَّط كلاهما كحبَّتي بازلَّاء أخيرتين في عبوة كبيرة من الصفيح: لأنه قادر على ذلك، لأنها طريقة لاسترضاء صوت أمه الناعم المذعور الحائر دائمًا العنيد أحيانًا.. لأنها طريقته في قول: لقد نجحت يا ماما! انظري إلى كل ما أملك! لقد فعلتها! الآن هلا خرستِ من فضلك بعض الوقت بحق المسيح؟

حشر إدي البخَّاخ في فمه، كرَجُلٍ ينتحر، وضغط الزناد. اندفعت سحابة مُريعة النكهة شبيهة بطعم العرقسوس وشقَّت طريقها إلى حنجرته، وتمكَّن إدي بعدها من التنفُّس بعُمق. استطاع الشعور بمسار النفس يُفتح من جديد بعد أن كان على وشك أن يُغلق تمامًا. بدأ الضيق في صدره ينفرج، وبغتةً سمع أصواتًا تتحدَّث في عقله.

أصواتًا شبحية.

ألم تتسلَّم الرسالة التي تركتها لك؟

تسلَّمتها يا مدام كاسبراك، لكن...

حسنًا، سأخبرك بنفسي في حالة أنك تجهل القراءة يا حضرة المُدرِّب بلاك. هل أنت جاهز؟

مدام كاسبراك...

جيِّد. إليك بها.. من شفتي إلى أُذُنيك مُباشرةً. مُستعد؟ صغيري إدي لا يستطيع مُمارسة التربية البدنية. أُكرِّر: لا يستطيع مُمارسة التربية البدنية. إدي هشٌّ جدًا، وإذا حاول الرَّكض... أو القفز...

مدام كاسبراك، نتائج اختبارات إدي البدنية الأخيرة في ملفٍ على مكتبي، هذا من شروط الولاية، وهي تقول إن إدي صغير الحجم إلى حدٍ ما بالنسبة إلى سنِّه، لكنه بخلاف ذلك طبيعي تمامًا. لذا اتَّصلت بطبيب أُسرتكم فقط لأطمئن، وقد أكَّد لي...

هل تقول إنني كاذبة يا حضرة المُدرِّب؟ هل هذا ما تقوله؟ حسنًا، ها هو ذا! ها هو إدي يقف جواري! هل تستطيع سماع صوت تنفسه؟ هل تستطيع؟

ماما... لو سمحتِ... أنا بخير...

إدي، أنت أكثر أدبًا من هذا. لقد ربيَّتك على ما هو أفضل. لا تُقاطع كلام الكبار.

أسمع تنفُّسهُ بالفعل يا مدام كاسبراك، لكن...

أحقًّا؟ جميل! لقد ظننتك أصمًّا! إنه يبدو كصوت شاحنة تصعد تلَّة بعزمٍ مُنخفض، أليس كذلك؟ وإذا لم يكن هذا ربوًا...

ماما، سأكون...

اصمت يا إدي، ولا تُقاطعني مرَّةً أخرى. إذا لم يكن هذا ربوًا يا حضرة المُدرِّب بلاك، فأنا الملكة إليزابث إذًا!

مدام كاسبراك، إدي دائمًا يبدو سعيدًا وبخير حال في أثناء حصص التربية البدنية. إنه يُحبُّ مُمارسة الألعاب، ويركض سريعًا حقًّا. في مُكالمتي مع د. باينز، طُرِح مُصطلح «سايكوسوماتي». أتساءل ما إذا كُنتِ نظرتِ بعين الاعتبار إلى احتمالية أن...

أتقول إن ابني مجنون؟ هل هذا ما تحاول قوله؟ هل تحاول قول إن ولدي مجنون؟

لا، لكن...

إنه هش.. ضعيف.

مدام كاسبراك...

ابني ضعيفٌ جدًّا.

مدام كاسبراك، لقد أكَّد د. باينز لي أنه لم يعثر على أيٍّ...

- «... عِلَّة بدنية». هكذا أنهى إدي ذلك الحوار الشبحي. لقد طفت ذكرى ذلك اللقاء المُهين إلى سطح ذاكرته للمرَّة الأولى الليلة منذ سنوات.. اللقاء الذي ظلَّت أمه تصرخ خلاله في وجه مُدرِّب التربية البدنية بلاك في صالة ألعاب مدرسة ديري الابتدائية، بينما يقف هو جوارها لاهثًا ومُنكمِشًا، والصبية الآخرون يحتشدون حول إحدى شبكتيّ كُرة السلَّة يراقبون ما يحدث، وقد عَلِم إدي أنها لن تكون الذكرى الوحيدة التي ستُثيرها مُكالمة هانلون. إنه يشعر

بذكريات عديدة غيرها، سيئة مثلها أو أسوأ، تحتشد وتتصارع كمُستهلكين يتزاحمون على مدخل متجرٍ ما بعد أن أذهبت تخفيضات الأسعار صوابهم. سيتحطَّم عُنُق الزجاجة بعد قليل، وسيُطلق سراحهم -كان إدي واثقًا من ذلك- وتُرى ما المعروض في الخصم الكبير؟ رجاحة عقله؟ رُبَّما.. بنصف الثَّمن. سيدمِّرون كل شيءٍ بسبب اندفاعهم.. كل شيء يجب أن ينفد.

- «لا عِلَّة بدنية به». هكذا كرَّر إدي وهو يأخذ نفسًا عميقًا راجفًا، ويدِسُّ البخَّاخ في جيبه.

قالت ميرا: «إدي.. أرجوك أخبرني ما الأمر!».

التمع خطَّان من الدموع على وجنيتها المُمتلِئتين، والتوى كفَّاها معًا في قلقٍ كحيوانين ورديي اللون وبلا شعر. ذات مرَّة، قبل أن يعرض عليها الزواج بقليل، وضع إدي صورة لميرا كانت قد أعطتها له جوار صورة أمه التي ماتت من جراء فشل القلب الاحتقاني في الرابعة والستين. كانت أم إدي وقت موتها قد تخطَّت الأربعمئة رطل على الميزان (أربعمئة وستَّة أرطال تحديدًا إن أردنا الدقَّة). كانت قد صارت شيئًا مهولًا حقًّا وقتها، وبدا جسدها عبارة عن ثديين ومؤخِّرة وكرش، ويعتلي هذا كله وجه أشبه بفطيرة وفزعٌ على الدوام. لكن الصورة التي وضعها إدي جوار صورة ميرا كانت قد التُقِطت عام 1944، قبل عامين من مولده (لقد كنت رضيعًا مريضًا جدًّا، وقد أصابنا اليأس مرَّاتٍ عديدة من فُرص نجاتك، هكذا همس شبح أمه في أُذُنه الآن). في عام 1944 كانت أمه رشيقة نسبيًّا وتزن مئة وثمانين رطلًا.

لقد عقد تلك المُقارنة -هكذا افترض- كمحاولة أخيرة يائسة لمنع نفسه من ارتكاب جُرم زنا محارم على صعيدٍ نفسي. نقل بصره من أمه إلى ميرا ثم إلى أمه مرَّة أخرى.

يُمكن أن تكونا شقيقتين. إلى هذا الحد كان الشبه قويًّا.

رمق إدي الصورتين المُتطابقتين بالكاد ووعد نفسه أنه لن يرتكب هذا الفعل المجنون. كان يعلم أن الأولاد في مقر العمل ينسجون نِكات بالفعل

عن چاك سبرات[1] وزوجته، ومع ذلك هم لا يعلمون سوى نصف الحقيقة. إنه قادر على تحمُّل النِكات والتصريحات الساخرة، لكن هل هو راغب حقًّا أن يلعب دور البهلوان في مثل هذا السيرك الفرويدي؟ لا، بالتأكيد لا. سوف يُنهي علاقته بميرا، سيتركها برفقٍ وكياسة لأنه يعلم أنها رقيقة جدًّا وأن خبرتها مع الرجال أقل بكثير من خبرته مع النساء، وبعدها، بعد أن ترحل بعيدًا عن أُفق عالمه، رُبَّما يتمكَّن من الالتحاق بدروس التنس التي يحلُم بالالتحاق بها منذ مُدَّة طويلة (إدي دائمًا يبدو سعيدًا وبخير حال في أثناء حصص التربية البدنية)، أو دفع اشتراك حمَّام السباحة الذي يعلنون عنه في فُندق يو إن بلازا (إدي يُحبُّ مُمارسة الألعاب)، هذا فضلًا عن النادي الصحي الذي افتُتِح في الجادة الثالثة على الجانب الآخر من المرآب (إدي يركض سريعًا حقًّا عندما لا تكونين هنا، يركض سريعًا حقًّا عندما لا يوجد أحدٌ في الجوار ليُذكِّره بضعفه ووهنه، وأنا أستطيع يا مدام كسبراك أن أرى في وجهه أنه يعرف حتَّى وهو ما زال في التاسعة من العمر أن أكبر خدمة في العالم يستطيع تقديمها لنفسه هي الركض بأقصى سُرعة في أيِّ اتِّجاه تمنعينه عنه.. دعيه يركض يا مدام كسبراك).

لكنه تزوَّج ميرا في النهاية على أيِّ حال. في النهاية تنتصر الطرق القديمة والعادات القديمة لأنها ببساطة قويَّة جدًّا. الوطن هو المكان الذي يكون لزامًا عليهم تكبيلك عندما تجد نفسك مُضطرًّا للعودة إليه. أوه، لرُبَّما هو قد هزم شبح أمه. الأمر قد يكون صعبًا، لكنه كان واثقًا تمامًا من قدرته على إحداث هذا القدر من الضرر، إذا كان ذلك كل ما يلزم لفعله، ولقد كانت ميرا ذاتها من رجَّحت كفة الميزان بعيدًا عن الاستقلالية في نهاية المطاف. لقد أسرته ميرا بعنايَتِها المُفرطة، وسمَّرته باهتمامها، وقيَّدته برقَّتها. ميرا -مثل أمه- تمكَّنت من إنفاذ بصرها إلى جوهر شخصيته الأخير القاتل: إن إدي هش بالفعل لأنه

(1) چاك سبرات: ترنيمة أطفال إنجليزية شهيرة. تتحدَّث عن رَجُل نحيل يُدعى چاك متزوِّج من امرأة بدينة تحب التهام الطعام الدَّسم، بينما چاك لا يأكل إلا الطعام الخفيف ويستمر في النحول بينما هي تزداد وزنًا.

أحيانًا يظن أنه ليس هشًّا على الإطلاق. إدي يحتاج إلى حمايته من إرهاصاته الخاصة الباهتة للشجاعة المُحتملة التي بداخله.

في الليالي المُمطرة، دائمًا ما كانت ميرا تُخرج عوازله المطّاطية من الكيس البلاستيكي في الخِزانة وتضعها على حامل المعاطف المجاور للباب. كل صباح -بجوار شرائح خُبز القمح الكامل غير المدهون بالزبد- يوجد طبق يبدو لأوَّل وهلة وكأنه يحوي حبوب ذُرة ملوَّنة مُحلَّاة، لكن مع نظرة مُتفحِّصة يتبيَّن أنه يحوي مجموعة كاملة متنوِّعة من الڤيتامينات (أغلبها جمعه إدي في حقيبة الدواء التي معه الآن). ميرا -كأمه تمامًا- فهمت أنها المتحكِّمة في الأمور هنا وأن لا مناص أمامهُ بالفعل. ترك إدي أمه عندما كان شابًا عزبًا ثلاث مرَّات، وعاد إلى المنزل وإليها ثلاث مرَّات. ثم بعد سقوط أمه بأربع سنوات ميِّتة في مدخل صالة شقة حي الكوينز، وسدِّها لباب الشقَّة بجسدها الهائل لدرجة أن رجال وحدة الأزمات الطبية (الذين أتوا عندما اتَّصل بهم الجيران في الطابق الأسفل بعدما سمعوا صوت دمدمة السقوط الأخير للسيِّدة كاسبراك) اضطَّروا لاقتحام المنزل من خلال الباب المُغلق بين مطبخ الشقة وسُلَّم الخدمات، عاد إدي للمرَّةِ الرابعة والأخيرة. أو على الأقل اعتقد حينها أنها المرَّة الأخيرة... (إلى البيت مُجدَّدًا، إلى البيت مُجدَّدًا، تيرا ريرا رير؛ إلى البيت مُجدَّدًا، إلى البيت مُجدَّدًا، مع ميرا الخنزيرة). لقد كانت ميرا خنزيرة بالفعل، لكنها خنزيرة رقيقة، وقد أحبَّها، ولم يكن أمامه مناص على الإطلاق بالفعل. لقد سحبته إليها بشباكٍ قاتلة.. سحبته بعينيها الثُعبانيتين المُنوِّمتين المُتفهِّمتين.

ها قد عُدتُ إلى البيت مُجدَّدًا وإلى الأبد، هكذا فكَّر وقتها.

لكنني قد أكون مُخطِئًا، هكذا فكَّر. رُبَّما هذا ليس مُستقري في النهاية.. رُبَّما لم يكن كذلك قط. رُبَّما بيتي الحقيقي هو حيث أنا ذاهب الليلة. الوطن هو المكان الذي عندما تعود إليه، يكون لزامًا عليك مواجهة الشَّيء القابع في الظلام.

ارتجف إدي رغمًا عنه في يأس، كأنه خرج إلى المطر دون ارتداء العوازل المطَّاطية وأُصيب بنوبة برد مُريعة.

- «إدي، أرجوك!».

كانت قد بدأت في النحيب مُجدَّدًا. لطالما ظلَّت الدموع خط دفاعها الأخير، كما كان الحال تمامًا مع أمه: السلاح الناعم الذي يشل، الذي يُحيل العطف والحنان إلى صدوعٍ مُميتة في درع المرء.

هذا لا يعني أنه اعتاد ارتداء دروع من أيٍّ نوعٍ.. الحُلل المُدرَّعة لم تبدُ كأنها تُناسبهُ بشكلٍ لائق.

والدموع كانتْ أكثر من مُجرَّد وسيلة دفاع بالنسبة إلى أمه؛ إنما سلاح. ميرا لم تستخدم دموعها بمثل هذا الخبث معه... لكن إدي أدرك أنها -بخبث أو دونه- تحاول استخدامها بهذه الطريقة الآن... وهي تنجح في الأمر.

لم يقوَ على تركها فحسب. من السَّهل جدًّا التفكير في مدى الوحدة التي سيشعر بها وهو جالس في مقعد ذلك القطار الذي يشق طريقه بسرعة فائقة إلى بوسطن عبر الظلام، وحقيبة السفر تعلو رأسه في مكانها على الرَّف، وحقيبة الدواء تقبع بين قدميه، والخوف يجثم على صدره كأنه كريم ڤيكس زنخ الرَّائحة. من السَّهل جدًّا أن يسمح لميرا بأخذه إلى الطابق العلوي ومُمارسة الحُب معه عن طريق إعطائه الأسبرين وتدليكه بمسح الكحول، ثم وضعه في الفراش، حيث قد يُمارسان أو لا يُمارسان نوعًا أكثر صراحة من الحُب.

لكنه وَعَدَ... وعَدَ.

قال لها وقد جعل صوته جافًّا عمدًا، كمن يُقِرُّ أمرًا واقعًا: «ميرا، اسمعيني».

نظرت إليه بعينين مُبتلَّتين مذعورتين.

ظنَّ أنه سيحاول تفسير الأمر لها الآن قدر استطاعته.. سيُخبرها كيف أن مايك هانلون خابرهُ وأخبرهُ أن الأمر بدأ من جديد.. وأنه، أجل، يظنُّ أن الآخرين قادمون بدورهم.

لكن ما خرج من فيه في النهاية كان كلامًا أكثر رزانة وعقلانية.

- «اذهبي إلى المكتب غدًا أوَّل شيءٍ في الصباح، وتحدَّثي إلى فيل. أخبريه أنني اضطُررتُ للرحيل وأنك ستتولِّين مهمة توصيل آل باتشينو...».

واصلت ميرا نحيبها وقالت: «إدي، لا أستطيع فعل ذلك. إنه نجمٌ كبير!

إذا ضللت الطريق سوف يصرُخ في وجهي، أعرف أنه سيفعل.. سيصرخ.. جميعهم يفعل ذلك عندما يضلّ السائق الطريق... وعندها... سأبكي رغمًا عني... وقد يقع حادث... على الأرجح سيقع حادث... إدي... إدي، يجب ألّا تترك البيت».

– «لوجه الله! توقّفي!».

انتكصت ميرا إلى الخلف من حدَّة نبرته.. مجروحة، وبرغم أن إدي التقط بخّاخهُ، إلا أنه لم يكن ينوي استخدامه، وقد رأت ميرا هذا كنقطة ضعف. نقطة ضعف تستطيع استخدامها ضده. يا إلهي الرحيم -إذا كنت موجودًا- أرجوك صدِّقني عندما أقول أنني لا أرغب في إيذاء ميرا. لا أرغب في تقطيعها، لا أرغب حتَّى في أن أُسبِّب لها أي كدمات. لكننا قطعنا عهدًا، جميعنا فعل، لقد أقسمنا قسم الدَّم، أرجوك ساعدني يا إلهي لأنه يجب عليَّ فعل ذلك...

همست له بصوتٍ خفيض: «لكم أكره الأمر عندما تصيح في وجهي يا إدي».

قال لها: «ميرا، أنا أيضًا أكره عندما أضطرُّ لذلك». أجفلت ميرا. ها أنت ذا يا إدي، لقد آذيتها مرَّة أُخرى. لِمَ لا تُمسكها وتلكمها فحسب بضع مرَّات وتُمرِّغها حول الغُرفة؟ سيكون هذا أكثر لُطفًا، وأسرع أيضًا.

فجأة، تراءى له وجه هنري باورز. رُبَّما بسبب فكرة الإمساك بأحدهم ولكمه وتمريغه عبر الغرفة. كانت هذه المرَّة الأولى التي يُفكِّر فيها بهنري باورز منذ سنوات، ولم تكن بالفكرة المُحبَّبة التي تجلب السلام لعقله.. على الإطلاق.

أغلق إدي عينيه هنيهة، ثم فتحهما وقال: «لن تضلِّي الطريق، ولن يصرخ في وجهك. السيِّد آل باتشيو رَجُلٌ دمث الخلق جدًّا، ومُتفهِّم تمامًا». لم يكن إدي قد قابل آل باتشينو في حياته من قبل، لكنه قنع بأن قانون الصُدفة على الأقل يقف في صف هذه الكذبة.. وفقًا للخُرافة الشائعة فإن مُعظم المشاهير مُتعجرفون، لكن إدي تعامل مع عددٍ كافٍ منهم ليعرف أن هذا عادةً ليس حقيقيًّا.

بالطبع لهذه القاعدة شواذ، وفي مُعظم الأوقات تلك الحالات الشاذة

يتضح أنها بشعة تمامًا ومسوخ حقيقية، ولقد تمنَّى بصدق لمصلحة ميرا ألَّا يكون آل باتشينو إحدى تلك الحالات.

سألته على استحياء: «أحقًّا؟».

- «أجل، إنه كذلك».

- «كيف تعرف؟».

ارتجل إدي بعفوية: «ديمتريوس أوصله مرَّتين أو ثلاثًا عندما كان يعمل في شركة ليموزين مانهاتن، وقال إن السيِّد آل باتشينو يُعطي خمسين دولارًا إكرامية على الأقل».

- «لن أهتم إذا أعطاني خمسين سنتًا، طالما أنه لن يصرخ في وجهي».

- «ميرا، الأمر في غاية السهولة، ولا يتطلَّب سوى ثلاث خطوات. أوَّلًا، تذهبين إلى نقطة اللقاء عند فندق سانت ريچيس في السابعة من مساء غد وتوصلينه إلى مبنى آيه بي سي. إنهم يعيدون تسجيل الفصل الأخير من تلك المسرحية التي يُشارك فيها آل، اسمها الجاموس الأمريكي على ما أظنُّ. ثانيًا، تُعيدينه مرَّةً أخرى إلى سانت ريچيس في الحادية عشرة. ثالثًا، تعودين إلى المرآب.. تُسلِّمي السيَّارة.. توقِّعي في الدفتر».

- «أهذا كل شيء؟».

- «هذا كل شيء. تستطيعين فعل الأمر بعينين معصوبتين يا مارتي».

لطالما أضحكها اسم التدليل هذا، لكنها الآن استمرَّت في النَّظرِ إليه بوجهٍ طفولي مذعورٍ.

- «وماذا لو أراد تناول العشاء في الخارج بدلًا من العودة إلى الفندق؟ أو رغب في بعض الشراب؟ أو الرقص؟».

- «لا أظنُّه سيفعل. لكن إن فعل، فستقليه إلى حيث يشاء، وإذا اتضح أنه ينوي السهر طوال الليلة، يُمكنك الاتِّصال بفيل توماس على اللاسلكي بعد مُنتصف الليل. في ذلك الوقت، سيكون لديه سائق شاغر يعفيكِ من الأمر. أنا لم أكن لأزجَّ بك في مثل هذا الأمر إذا كان لديَّ سائق مُتاح.. لكن ثمَّة سائقين مريضين، وديمتريوس في إجازة، والآخرون جميعًا جدولهم مُمتلئ

طوال اليوم. ستكونين دافئة في فراشك بحلول الواحدة صباحًا يا مارتي.. في الواحدة صباحًا على أقصى، أقصى تقدير. أنا أضمن لك هذا بلا رايب».

لم تضحك ميرا لسماعها «بلا رايب».

أنهى إدي كلامه وحك حنجرته وانحنى أمامًا ساندًا بمرفقيه على رُكبتيه. على الفور همس له صوت أمه: لا تجلس على هذا النحو يا إدي، ستضر باستقامة جسدك، وستضغط على رئتيك، إن لديك رئتين ضعيفتين جدًّا.

اعتدل إدي واقفًا، غير واعٍ تقريبًا لما يفعل.

عَوَت ميرا تقريبًا وهي تقول: «من الأفضل أن تكون هذه المرَّة الأخيرة التي يتحتَّم عليَّ القيادة فيها. لقد تحوَّلت إلى دب حقيقي في العامين الأخيرين، وزيُّ العمل يبدو سيِّئًا جدًّا عليَّ».

– «هذه المرَّة الوحيدة، أقسم لك».

– «من اتَّصل بك يا إدي؟».

انزلقت أضواءٌ عبر جدار الغُرفة كأنما كانت تنتظر سؤالها، وقرع نفير سيَّارة مُفاجئ مع توقُّف التاكسي في حارة الانتظار الخاصة. شعر إدي بموجة من الراحة تجتاحه. لقد قضى الخمس عشرة دقيقة الفائتة يتحدَّث عن آل باتشينو بدلًا من مايك هانلون وهنري باورز، وهذا جيِّد. جيِّدٌ لميرا، وجيِّدٌ له أيضًا. إنه لا يرغب في إنفاق أيِّ وقتٍ مُفكِّرًا أو مُتحدِّثًا عن تلك الأمور إلا إذا لم يكن ثمَّة مفرٌّ من الأمر.

نهض إدي قائلًا: «هذه سيَّارتي».

انتفضت ميرا واقفة سريعًا حتَّى إنها تعثَّرت في طرف منامتها وسقطت إلى الأمام. أمسك إدي بها، لكن للحظة بدا الأمر خطيرًا: فهي تفوقه وزنًا بمِئة رطل.

ثم إنها بدأت في النحيب مُجدَّدًا.

– «إدي، يجب أن تُخبرني».

– «لا أستطيع. لا يوجد وقت».

بكت بُحرقة: «لكنك لم تُخفِ شيئًا عني من قبل يا إدي».

- «وأنا لا أُخفي شيئًا الآن، ليس تمامًا. أنا لا أتذكَّر كل شيء. على الأقل، ليس بعد. المُتَّصل كان... هو... صديقًا قديمًا. إنه...»».

قالت يائسة: «سوف تمرض» ثم سارت خلفه وهو يسير نحو مدخل المنزل وهي تُضيف «أعلم أنك ستمرض. دعني آت معك يا إدي. أرجوك. سأعتني بك، وباتشينو يستطيع ركوب تاكسي أو أيَّ شيءٍ آخر، لن يموت. ما رأيك يا إدي، موافق؟» بدأ صوتها يرتفع، وصار مسعورًا، وبدأت تبدو لإدي المذعور أشبه بأمه أكثر فأكثر، أشبه بها في شهورها الأخيرة قبل أن تلقى حتفها: عجوز وبدينة ومجنونة: «سأُمسِّد لك ظهرك وأتأكَّد أنك مواظب على دوائك... ســ... سأساعدك... لن أتحدَّث دون إذنك لكنك تستطيع إخباري بكل شيء... إدي... إدي، أرجوك لا ترحل! إدي، أرجوك! أرجوووووك!».

بدأ الآن يقطع المسافة إلى الباب برأسٍ مُنكَّس وفي خطواتٍ واسعة دون أن ينظر لها.. يتحرَّك كرجل يشق طريقه وسط عاصفة شعواء. بدأ صوت أنفاسه يعلو مُجدَّدًا، وعندما التقط الحقيبتين بدت كل منها كأنها تزن مِئة رطل. استطاع إدي استشعار يديها الورديتين المُمتلئتين على جسده.. تتحسَّسه.. تستكشفه.. تجذبه برغبة يائسة لكن ليس بقوَّة كافية حقًا، تحاول إغواءه بدموع الاهتمام العذبة.. تحاول تفتيت عزيمته.

لن أنجح في مسعاي! هكذا فكَّر فاقد أمل. اشتدَّ عليه الربو الآن، وصارت حالته أسوأ ممَّا كان عليه في صباه. مدَّ يده إلى مقبض الباب، لكن الأخير بدا كأنه يبتعد عنه.. يبتعد إلى ظُلمة الفضاء الخارجي.

تكلَّمت كمعتوهة والمُخاط يسيل من أنفها: «إذا بقيت سأعد لك كعكة القهوة بالكريمة الحامضة. سنتناول الفشار... سأعد لك عشاء الديك الرومي الذي تُحبه... سأعده على الإفطار غدًا إذا أردت... سأبدأ فيه من الآن... سأعد المرق أيضًا... إدي أرجوك أنا خائفة، أنت تُخيفني بشدَّة».

أمسكته ميرا من ياقته وسحبته إلى الخلف، كشُرطيٍّ ضخم يُحكم قبضته على مُشتبه به يحاول الفرار. بجهدٍ أخيرٍ مُتناقص، واصل إدي تقدُّمه... وعندما بلغت قوَّته وقدرته على المُقاومة حدودهما الأخيرة وكاد أن يستسلم، شعر بقبضتها تزول بعيدًا.

وصدر عنها عويل أخير.

التفَّت أصابعه حول مقبض الباب، كم هذا رائع! جذب الباب فاتحًا إيَّاه ورأى التاكسي التابع لشركة تشيكر ينتظر في الخارج.. كسفيرٍ من أرض العُقلاء. كانت الليلة صافية، والنجوم مُشِعَّة وواضحة.

التَفَتَ إلى ميرا بأنفاسٍ مُتقطِّعةٍ وقال: «يجب أن تفهمي أن هذا شيء لا أرغب في فعله. لو كان لديَّ خيار -أيُّ خيار على الإطلاق- لم أكن لأرحل. من فضلك افهمي ذلك يا مارتي. أنا راحل لكنني سأعود من جديد».

أوه، لكم تبدو هذه كذبة.

- «متى؟ كم ستغيب؟».

- «أسبوع، أو رُبَّما عشرة أيَّام. بالتأكيد ليس أكثر من هذا».

صرخت مُلتاعة وهي تُمسك بصدرها كمُغنيِّة أوبرا رديئة: «أسبوع؟ أسبوع! عشرة أيَّام! أرجوك يا إدي! أرجوووو...».

- «مارتي، كُفِّي عن هذا، حسنًا؟ فقط كُفِّي».

وللعجب، استجابت ميرا لكلامه: صمتت ووقفت تنظر إليه بعينيها الدامعتين المُنتفختين. لم تكن غاضبة منه، بل خائفة عليه، وفي الوقت نفسه على نفسها، وللمرَّة الأولى تقريبًا خلال السنوات التي عرفها فيها، شعر إدي أنه قادر أن يحبها بأمان. هل هذا يرجع جزئيًّا لفكرة الرحيل؟ افترَضَ إدي ذلك. لا... يُمكنك إهمال تفصيلة \افترَضَ تلك. بل كان واثقًا من ذلك، وشعر بأنه ينظر إلى الأمور من الطرف الآخر للمرقاب.

لكن رُبَّما لا ضير في الأمر. أهذا ما كان يعنيه حقًّا؟ أنه قرَّر في نهاية المطاف أنه لا ضير في أن يحبها؟ أنه لا ضير حتَّى لو كانت تُشبه أمه في شبابها، وحتَّى لو أنها تأكل الكعك في الفراش وهي تُشاهد تمثيلية هاردكاسل وماكورميك أو فالكون كرست بينما يتناثر الفُتات إلى جانبه، وحتَّى لو لم تكن ألمعية، وحتَّى لو أنها تتغاضى عن وضع دوائه في خِزانة الدواء، لأنها تُبقي على علاجاتها في الثلَّاجة؟

أم أنَّ الأمر...

أيمكن أن يكون...

كانت الأفكار الأخرى جميعها أشياء أخذها بعين الاعتبار بشكلٍ أو بآخر، في وقتٍ أو آخر خلال حيواته المُتشابكة بصورةٍ غريبة، كابنٍ وعاشقٍ وزوج، والآن، وهو على وشك مُغادرة المنزل –حسبما يشعر– للمرَّة الأخيرة على الإطلاق، جاءته خاطرة مُحتملة جديدة، واجتاحه عجبٌ أخَّاذ مُرفرفًا في وجهه كجناح طائر عملاق.

هل يُعقل أن تكون ميرا أكثر خوفًا منه؟

هل يُعقل أن أمه كانت كذلك فيما مضى؟

اندفعت ذكرى أخرى عن ديري صاعدة من أغوار لا وعيه كألعابٍ نارية مشؤومة. كان ثمَّة متجر أحذية في وسط البلدة في الشارع المركزي اسمه ذا شوبوت. اصطحبته أمه إلى هناك ذات يوم –لم يكن وقتها يتعدَّى خمس أو ست سنوات حسبما يتذكَّر– وأخبرته أن يجلس صامتًا ومُهذَّبًا إلى أن تبتاع حذاءً أبيض عالي الكعب من أجل حفل زفاف ستحضره، وهكذا، جلس إدي صامتًا ومُهذَّبًا بينما تتجاذب أمه أطراف الحديث مع السيِّد جاردنر أحد بائعي الأحذية في المكان. لكنه كان في سنِّ الخامسة (أو السادسة رُبَّما)، وعندما اعترضت أمه على ثالث زوجيَّ أحذية عرضه عليها السيِّد جاردنر، بدأ إدي يشعر بالملل ونهض سائرًا إلى الركن البعيد ليتفحَّص شيئًا رآه هناك. في البداية ظنَّه صندوقًا خشبيًا كبيرًا يقبع في نهاية المتجر. لكنه عندما اقترب لاحظ أنه مكتب من نوعٍ ما. لكنه بالتأكيد أغرب مكتب رآه في حياته. كان ضيِّقًا جدًا! ومصنوعًا من خشبٍ لامع مصقولٍ ومُطعَّم بخطوطٍ مُنحنية ومحفورٍ عليه أشياء لا يعرف معناها. أيضًا، كان ثمَّة ثلاثة سلالم صغيرة تقود إليه، وهو لم يرَ مكتبًا بسلالم من قبل. عندما وصل إد إليه وجد فتحة أسفل هذا المكتب الغريب، وزرًّا على أحد جوانبه، وفي قمَّته شيءٌ خلَّاب بدا شديد الشبه بالمرقاب الذي ظهر في مُسلسل كابتن ڤيديو.

دار إدي حتَّى وصل إلى الجانب الآخر ووجد لافتة، لا بُدَّ أنه كان في السادسة على الأقل، لأنه استطاع قراءة المكتوب عليها، ناطقًا كل كلمة بصوتٍ عالٍ:

هل الحذاء يناسبك؟ جرِّب!

عاد إدي ليواجه الأعجوبة، وصعد الدرجات الثلاث التي تقود إلى البسطة الصغيرة، ثم دسَّ قدمه في الفتحة الموجودة أسفل فاحص الأحذية. هل الحذاء يناسبه؟ إدي لم يعلم، لكنه كان مُتحمِّسًا ليُجرِّب وينظر. ألصق وجهه بالقناع المطاطي وضغط الزِّر بإبهامه. غمر ضوءٌ أخضر مجال رؤيته، فشهق.. واستطاع رؤية قدم طافية داخل حذاءٍ مليء بدخان أخضر. حرَّك إدي أصابع قدمه، فتحرَّكت الأصابع التي ينظر إليها الآن بالمثل.. إنها أصابعه إذًا، كما توقَّع. ثم أدرك أنه لا يرى أصابع قدمه فقط، وإنما يرى العظام ذاتها! عظام قدمه! شابك إدي إصبع قدمه الأكبر فوق إصبع قدمه الأخرى (كأنه يدرء خلسة عواقب قول كذبة بيضاء[1])، لتصنع العظام الشبحية في الجهاز حرف X ليس أبيض وإنما أخضر عفريتي، واستطاع أن يرى...

ثم صرخت أمه صرخة هلع تردَّد صداها في متجر الأحذية كجرس حريق.. كشخصٍ يَفِرُ من الشيطان.. كهلاكٍ يمتطي جوادًا مُقبلًا. نزع إدي وجهه الجافل المذعور من المنظار ورآها تُسرع نحوه قاطعة عرض المتجر بقدمين عاريتين إلا من جوارب وردائها يتطاير خلفها. أطاحت بمقعدٍ في طريقها لتطير من فوقه واحدة من تلك الأشياء التي تقيس مقاس القدم والتي دائمًا ما دغدغته. انتفخ صدر أمه وصار فمها فجوة دائرية قُرمزية مُرعبة، والتفتت أنظار جميع من في المكان تُتابع تقدُّمها.

كانت تصرخ: «إدي ابتعد عن هذا الشَّيء! انزل! هذه الآلات تُسبِّب السرطان! انزل من عليها يا إدي! إديييي...».

تراجع إدي إلى الوراء كأن الجهاز صار مُلتهبًا فجأة، وفي خضم ذعره نسيَ وجود السلالم القليلة خلفه. انزلق كعباه عن الدرجة الأخيرة فوقف إدي مُعلَّقًا في مكانه، يسقط ببطء إلى الوراء، بينما ذراعاه تدوران بعنف في الهواء في معركة خاسرة في مُحاولة لإعادة توازنه إليه. ألم يُفكِّر وقتها -في نوع مجنون من الفرح- في الآتي: سأسقط! سأكتشف إحساس السقوط أرضًا

---

(1) يستخدم الأطفال في الغرب أحيانًا تقاطع الإصبعين الوسطى والسبَّابة للإشارة إلى أنهم يكذبون كذبة بيضاء، طالبين من المُشار إليه عذرهم عليها.

وتورُّم رأسي! يا لحسن حظِّي...؟ هل فكَّر في ذلك؟ أم أن هذا فقط أسلوب الرَّجُل الذي صاره الآن؟ يفرض أفكاره التي تخدم مصالحه الخاصة كبالغ على كل ما فكَّر -أو حاول التفكير- فيه عقله حينما كان طفلًا، الذي كان يعصف دائمًا بظنونٍ مُشوَّشة وصورٍ نصف مفهومة (صور فقدت معناها بسبب سطوعها البالغ).

في كلتا الحالتين، هذا سؤالٌ جدليٌّ. كما أنه لم يسقط. لقد وصلت أمه إليه في الوقت المناسب وأمسكت به. صحيح أنه انفجر في البكاء، لكنه لم يسقط.

كان الجميع ينظر إليه. تذكَّر إدي هذا. تذكَّر أن السيِّد جاردنر التقط أداة قياس مقاس الحذاء وتفحَّص الأجزاء المُنزلقة الصغيرة بها ليتأكَّد من أنها سليمة، بينما عدل عاملٌ آخر المقعد الساقط ثم نفض ذراعيه في استمتاع مُشمئز، قبل أن يضع على وجهه قناع البائع المُحايد البشوش مرَّة أخرى. أمَّا أكثر ما تذكَّره فهي وجنة أمه المُبتلَّة وأنفاسها الحارة الكريهة. تذكَّرها وهي تهمس في أذنه مرارًا وتكرارًا «لا تفعل هذا مرَّة ثانية أبدًا، لا تفعل هذا مرَّة ثانية أبدًا، لا تفعل هذا أبدًا». هذا ما اعتادت أمه ترديده لدرء المشاكل. لقد كرَّرت الشيء ذاته قبلها بعام عندما اكتشفت أن جليسة الأطفال اصطحبت إدي إلى حمَّام سباحة عام في حديقة ديري إبَّان يوم صيف حار جدًّا.. كان هذا في بداية الخمسينات، وقت انحسار موجة الذُعر من شلل الأطفال. لقد جرَّته خارج الحمَّام، وأخبرته أنه يجب أن لا يفعل هذا مرَّة ثانية أبدًا أبدًا أبدًا، وقد ظلَّ الأطفال ينظرون إليه كما ينظر إليه كل عاملي وروَّاد متجر الأحذية الآن، وكانت لأنفاسها الرَّائحة الكريهة المُزعجة ذاتها.

أخذته أمه من يده وجرَّته إلى خارج متجر ذا شوبوت وهي تصيح بجنون في وجه العاملين، مهدّدة بمقاضاتهم إذا ما أصاب ابنها أيَّ مكروه. دموع إدي المذعورة ظلَّت تسيل طوال النهار على فترات متقطِّعة، ونوبة الربو اشتدَّت عليه بشكلٍ خاص على مدار اليوم. في تلك الليلة، استلقى إدي في فراشه مُتيقِّظًا فترةً طويلة بعد ميعاد نومه المعتاد، مُتعجِّبًا من ماهية السرطان، وهل هو أسوأ من شلل الأطفال، وهل هو قاتل، وكم يستغرق من الوقت إذا كان

كذلك، وكم يتألَّم المرء قبل أن يموت في النهاية.. أيضًا ظلَّ يتساءل ما إذا كان سيذهب إلى الجحيم بعدها.

عَلِم إدي أن الأمر عن جد خطير.

لقد كانت أمه مُرتعدة تمامًا. من هنا اكتسب معرفته.

مُرتعدة تمامًا.

قال إدي لزوجته عبر هُوَّة السنوات هذه: «مارتي، هلا أعطيتني قُبلة؟».

قبَّلته ميرا واحتضنته بقوَّة كبيرة حتَّى إن عظام ظهره أنَّت. فكَّر إدي، لو كنا في البحر، لأغرقتنا معًا.

همس في أُذُنها: «لا تخافي».

قالت باكية: «رغمًا عني».

- «أعرف هذا». قالها وهو يُلاحظ أنه برغم احتضانها له بقوَّة كاسحة قادرة على تكسير ضلوعه، فإن نوبة ربوه قد خَفتت وخفَّت.

- «أعرف يا مارتي».

أطلق سائق التاكسي النفير مرَّة ثانية.

سألته وهي ترتعش: «هل ستتَّصل؟».

- «إذا استطعت».

- «إدي، هل تستطيع إخباري ما الأمر من فضلك؟».

وفرضًا إذا فعل؟ كيف يُمكن للمعرفة أن تُهدِّئ من روع عقلها؟

مارتي، لقد تلقَّيت مُكالمة من مايك هانلون الليلة، وتحدَّثنا لفترة من الوقت، وكل ما تحدَّثنا عنه يُمكن تلخيصه في جملتين. لقد قال مايك: «الأمر بدأ من جديد. هل ستأتي؟»، والآن أشعر بأنني محموم يا مارتي، لكنها حُمَّى لا يُمكن خفض حرارتها بقُرصي أسبرين، كما أنني مصاب بضيق في التنفُّس لا يقدر البخَّاخ اللعين أن يفعل شيئًا حياله، لأنه لم يصب رئتي أو حنجرتي.. وإنما أصاب قلبي. سأعود إن استطعت يا مارتي، لكنني أشعر كرجل يقف في مدخل منجم قديم يمتلئ بالصدوع وعلى وشك الانهيار، يقف هناك ويُودِّع ضوء النهار.

أجل، بالطبع! لكم سيُريح هذا عقلها بكل تأكيد!

قال لها: «لا، أعتقد أنني لا أستطيع إخبارك».

وقبل أن تتفوَّه بشيءٍ آخر، وقبل أن تبدأ من جديد (إدي، ابتعد عن هذا التاكسي! سيُصيبك بالسرطان!)، بدأ إدي في الابتعاد عنها بخطواتٍ واسعة ذات وتيرة مُتزايدة، وفي اللحظة التي وصل فيها إلى السيَّارة كان يركض تقريبًا.

ظلَّت ميرا واقفة عند مدخل الباب بينما التاكسي يشق طريقه عبر الشارع.. ظلَّت واقفة مكانها وهو يتَّجه صوب المدينة.. ظلُّ امرأة أسود ضخم يُحدِّده الضوء المُنبعث من داخل منزلهما. لوَّح لها بذراعه، وظنَّ أنه رآها ترفع كفَّها لترُد له التحية.

سأل السائق إدي: «إلى أين سنتَّجه الليلة يا صديقي؟».

قال إدي: «إلى محطة بنسلفانيا». ثم أراح يده فوق البخَّاخ. لقد رحلت نوبة الربو إلى حيث تذهب كي تستكن فترة مُستريحة بين هجماتها على شُعبه الهوائية، وشعر إدي أنه... تقريبًا بخير.

لكنه صار في حاجة ماسة لبخَّاخِه أكثر من أيِّ وقتٍ مضى بعدها بأربع ساعات، عندما انتفض مُستيقظًا في ارتجافٍ تشنُّجي عنيف جعل الرَّجُل الذي يرتدي حُلَّة رسمية على المقعد المُقابل يُخفض الجريدة وينظر إليه بفضولٍ قَلِق إلى حدٍ ما.

لقد عُدت يا إدي! هكذا صاح الربو مُبتهجًا. أوه لقد عُدت، وهذه المرَّة، رُبَّما سأقتلك فحسب! لِمَ لا أفعل؟ يجب عليَّ فعل شيئًا كما تعرف! لا يُمكن أن أستمر في العبث معك إلى الأبد!

علا صدر إدي ثم انسحق غائرًا. بحث مُلتاعًا عن البخَّاخ في جيبه وعثر عليه، ووجَّهه نحو حلقه، وضغط الزناد. ثم سند ظهره على مِقعَد شركة أمتراك يلهث مُنتظرًا مرور النوبة، ويُفكِّر في الحُلم الذي استيقظ منه لتوِّه. أهو حُلم؟ الرب يعلم إن كان كذلك. ما أثار خوف إدي أن يكون الأمر ذكرى أكثر من كونه حلمًا. في تلك الذكرى، كان ثمَّة ضوء أخضر كالذي يوجد داخل جهاز الأشعة السينية في متجر الأحذية، وثمَّة مجذوم نَخِر يُلاحق طفلًا صارخًا اسمه إدي كاسبراك عبر أنفاقٍ كريهة تحت الأرض. لقد ركض وركض...

(إنه يركض بسُرعة كبيرة، هكذا أخبر المُدرِّب بلاك أمه، كما يركض أسرع بكثير وهذا الشَّيء النَّخِر يتبعه، أوه من الأفضل لكِ تصديق الأمر، يمُكنك الرهان بلباسك عليه)

... وركض كثيرًا في ذلك الحلم الذي كان فيه في الحادية عشرة من عمره، ثم اشتمَّ بعدها رائحة بدت كموت الزمن نفسه، ثم أشعل أحدهم ثقابًا، فنظر إدي إلى أسفل ورأى الوجه المُتحلِّل لفتى يُدعى باتريك هوكستيتر كان قد اختفى في يوليو عام 1958، وشاهد الديدان وهي تزحف دخولًا وخروجًا من بين وجنتي الفتى المُتحلِّلتين، وفي ذلك الحُلم -الذي كان أقرب إلى ذكرى من كونه حُلمًا- نظر إدي جانبًا وشاهد كتابين مدرسيِّين انتفخا بفعل الرطوبة ونما عليهما عفنٌ أخضر، عنوان الأوَّل: طُرُق تؤدي إلى كل مكان، والثاني: فهمنا لوطننا أمريكا، وقد كانا بهذا الحال لأن ثمَّة عطنًا رطبًا هنا في الأسفل (موضوع تعبير بقلم باتريك هوكستيتر: «كيف أمضيت عطلتي الصيفية. قضيتها ميتًا في نفق، وقد نمت الطحالب على كتبي وانتفخت إلى أن وصلت لحجم كتالوجات مجلَّة سيرز»). فتح إدي فمه ليصرخ، وقد كانت هذه اللحظة التي أحكمت فيها أصابع المجذوم الخشنة قبضتها على وجنتيه، وأقحمت نفسها إلى داخل فمه، وكانت هذه اللحظة التي استيقظ فيها شاهقًا مُتشنِّجًا ليجد نفسه لا في نظام المجاري أسفل مدينة ديري في ولاية مين، وإنما في عربة قطار قريبة من مُقدِّمة قطار سكك حديد أمتراك المُسرع الذي يقطع رود أيلاند تحت ضوء القمر الفِضِّي.

فكَّر الرَّجُل الجالس في المقعد المقابل مليًّا قبل أن يتحدَّث، ثم قال مُتردِّدًا: «هل أنت بخير يا سيِّدي؟».

قال إدي: «أوه، أجل. لقد غفوت قليلًا وراودني حُلم سيِّء، ما أثار حالة الربو».

- «فهمت».

قالها ورفع الجريدة أمام وجهه من جديد. لاحظ إدي أنها الجريدة التي كانت أمه تشير إليها باسم يهود-يورك تايمز.

نظر إدي عبر النافذة نحو البساتين الغافية المُضاءة بضوء القمر الساحر. ثمَّة منازل مُتفرِّقة هنا وهناك، وأحيانًا مجموعات مُتراصة منها، مُعظمها مُظلم، بينما قلة فقط تُضيء أنوارها. لكن الأنوار بدت صغيرة وتحاول خلق مُحاكاة زائفة، مُقارنةً بضوء القمر الشبحي المتوهِّج.

كان هنري باورز يظنُّ أن القمر يتحدَّث إليه، هكذا فكَّر إدي فجأة. يا إلهي، لكم كان معتوهًا. تعجَّب أين هنري باورز الآن. أهو ميِّت؟ في السجن؟ يسري كڤيروس لا شفاء منه عبر السهول الفارغة في مكان ما وسط البلاد، أيسطو على فروع متاجر سڤن إليڤن في الساعات الهادئة بين الواحدة والرابعة صباحًا؟ أم رُبَّما يقتل بعض الأشخاص الأغبياء الذين يتوقَّفون استجابةً لإبهامه المرفوع على الطريق مُطالبًا بتوصيلة، ثم ينقل الأموال من محافظهم إلى محفظته؟

يجوز.. يجوز.

أهو نزيل مصحَّة عقلية في مكانٍ ما؟ يرفع بصره نحو هذا القمر الذي كاد أن يصير بدرًا؟ يتحدَّث إليه، ويستمع إلى أجوبة هو وحده بإمكانه سماعها؟

ظنَّ إدي أن تلك الفكرة الأخيرة هي الأرجح.. وارتجف. ها أنا أتذكَّر أيَّام صباي في النهاية.. أتذكَّر كيف قضيت عطلتي الصيفية في تلك السنة قاتمة العتمة: 1958. شعر إدي أنه قادر الآن على تذكُّر أيِّ مشهدٍ يريد من ذلك الصيف الفائت، لكنه لم يرغب في ذلك. أوه يا إلهي.. لو أستطيع فقط نسيان الأمر برمَّته مرَّة أخرى.

أسند إدي مُقدِّمة رأسه على زجاج النافذة المُتَّسخ، مُتشبِّثًا ببخاخه بإحدى يديه كأنه رمزٌ ديني، ومُراقبًا الليل الذي يمر من حول القطار.

الارتحال شمالًا، هكذا فكَّر، لكن ذلك خطأ.

أنا لا أرتحل شمالًا، لأن هذا ليس قطارًا. إنه آلة زمن. أنا لا أرتحل شمالًا، لكني أرجع في الزمن إلى الوراء، إلى الوراء.

ظنَّ إدي كاسبراك أنه سمع القمر يُتمتم، فأحكم قبضته أكثر على بخَّاخه، وأغلق عينيه ليدرأ دوارًا مُباغتًا.

5
بيڤرلي روجان تتلقَّى «عَلْقَة»

كاد توم أن ينزلق إلى النوم عندما رنَّ الهاتف. نهض بتثاقلٍ وجلس نصف مُعتدلٍ، ومال نحوه، ثم شعر بعدها بأحد نهديَّ بيڤرلي يضغط كتفه وهي تنحني من فوقه لتلتقط السمَّاعة، فغاص مُجدَّدًا في وسادته وهو يتعجَّب ممَّن يتَّصل بهما في مثل هذه الساعة من الليل على هاتفهما غير المُسجَّل في الدليل. سمع بيڤرلي تقول ألو، ثم غاب في النوم مُجدَّدًا. لقد جرع نحو ثلاثة صناديق بيرة سعة الواحد ست زجاجات أمام مُباراة البيسبول، ويشعر بأنه مُقطَّع الأوصال.

ثم ثقبت صيحة بيڤرلي الحادة والفضولية -«ماذا!!!؟»- أُذُنيه كمعول جليد، ففتح عينيه مُجدَّدًا. حاول النهوض جالسًا، لكن سلك الهاتف انغرز في عُنُقه السميك.

صاح: «أبعدي هذا الشيء اللعين عني يا بيڤرلي». فنهضت مُسرعة ودارت حول الفراش، وهي تُمسك بسلك الهاتف الطويل بأصابع مُتشابكة. كانت صهباء، شعرها أحمرٍ داكنٍ ينسدل على منامتها متموِّجًا بأريحية وصولًا إلى خصرها تقريبًا. شعر عاهرة. لم تلتفت عيناها إلى وجهه لتعرف بما يشعر الآن، ولم يُحب توم روجان الأمر. نهض جالسًا وقد بدأت الآلام تضرب رأسه. اللعنة، لا بُدَّ أنها كانت تؤلمه بالفعل، لكن عندما ينام المرء فهو لا يشعر بوجود الألم من الأساس.

ذهب توم إلى الحمَّام، وبال لِمدة بدت وكأنها ثلاث ساعات، وقرَّر أنه ما دام قد استيقظ فمن الأفضل أن يشرب بيرة أخرى ليحاول بها إزالة لعنة الخمار وشيك الحدوث.

عبر توم غرفة النوم مُتَّجهًا إلى الدرج، رجلٌ يرتدي لباسًا داخليًّا أبيض يُرفرف كشراع من تحت بطنه الكبير، وله ذراعان كالألواح (كان يبدو كعتَّالٍ

أكثر منه رئيس ومدير عام شركة بيڤرلي المُتَّحدة للموضة)، ونظر من فوق كتفه وصاح بشكلٍ عارض: «إن كانت هذه السحاقية ليزلي، فأخبريها أن تعثر لنفسها على عارضة أزياء تنكحها ولتدعنا ننام بهدوء!».

رفعت بيڤرلي نظرها بصورة خاطفة، وهزَّت رأسها مُشيرة أن المُتَّصل ليس ليزلي، ثم نظرت من جديد إلى الهاتف. شعر توم بالعضلات تتوتَّر في مؤخِّرة رقبته. شعر بالتجاهل في سلوكها. امرأتي تتجاهلني.. امرأتي اللعينة. يبدو أن الليلة ستكون ذات شأنٍ. قد تكون بيڤرلي في حاجة إلى تَذكِرةٍ سريعة بمن السيِّد هنا. هذا جائز، فأحيانًا ما تحتاج إلى ذلك.. إنها بطيئة التعلُّم.

هبط توم إلى الطابق الأرضي، وسار ببطء من الصَّالة إلى المطبخ وهو يجذب لباسه الذي انحشر بين صدع مؤخِّرته بشرود، وفتح الثلَّاجة. لم تصل يداه إلى أيِّ شيءٍ يحتوي كحولًا أكثر من وعاء بلاستيكي أزرق به بعض بقايا حساء النودلز. لقد نفدت البيرة عن آخرها. حتَّى العبوَّة التي خبَّأها في الخلف (كما يُخبِّئ ورقة عشرين دولارًا مطويَّة وراء رخصة القيادة للطوارئ) ذهبت بدورها. لقد طالت المُباراة إلى أربعة عشر شوطًا.. وكل هذا راح سُدى. لقد خسر فريق وايت سوكس، يا لهم من مجموعة من مُخنَّثي الأداء هذا العام.

أدار بصره في الزجاجات الموضوعة على الرَّفِ الزجاجي الذي يعلو مشرب المطبخ والتي تحوي ما هو أقوى، وللحظة رأى نفسه بعين الخيال يصب جرعة من الخمر على مُكعَّب ثلج وحيد. لكنه عدل عن رأيه وسار نحو الدرج عالمًا أنه بذلك يُطالب بمزيدٍ من الألم لرأسه أكثر ممَّا يعتريه بالفعل. رمق توم بندول السَّاعة العتيقة القابعة أسفل الدرج، ورأى أن الوقت قد جاوز مُنتصف الليل. هذه المعلومة لم تُحسِّن شيئًا من مزاجه، الذي لا يكون عادةً جيدًا جدًا حتَّى في أفضل الأوقات.

تسلَّق الدرج صعودًا بخطواتٍ بطيئة متروِّية، واعيًا -واعيًا بشدَّة- كم يجاهد قلبه كي يعمل. كا-بوم، كا-ثود، كا-بوم، كا-ثود، كا-بوم، كا-ثود. دائمًا ما تُثار أعصابه عندما يكون قادرًا على سماع قلبه ينبض في أُذُنيه، وفي معصمه، بالإضافة إلى صدره. عندما يحدث هذا، أحيانًا يتخيَّل أنه ليس عضلة مُنقبضة مُنبسطة وإنما مؤشِّرٌ ضخم يقبع في الجانب الأيسر من صدره،

بينما إبرته تجنح على نحوٍ يُنذر بِشَرٍ إلى العلامة الحمراء، وهو لا يُحب هذا الهُراء.. ولا يحتاج إلى هذا الهُراء الآن. بل يحتاج ليلة من النوم الهادئ.

لكن العاهرة فاقدة الحس التي تزوَّجها ما زالت تتحدَّث في الهاتف.

- «أفهم ذلك يا مايك... نعم... نعم، بالفعل... أعرف... لكن».

ثم فترة أطول من الصمت و...

- «بيل دِنبروه؟». هكذا صاحت، ومن جديد ثقب معول الجليد أُذُنيه.

ظلَّ واقفًا خارج الغرفة إلى أن هدأت ضربات قلبه. الآن عادت تدق بانتظام: كا-ثود، كا-ثود، كا-ثود. لقد توقَّف الدوي. تخيَّل سريعًا المؤشِّر يتراجع مُبتعدًا عن نطاق العلامة الحمراء قبل ينفض الصورة عن مُخيِّلته. إنه رجُلٌ بحقِّ المسيح، رجُلٌ عتيٌّ لعين، وليس فُرنًا بارد الحرارة. إنه في حالة جسدية مُمتازة، وصلب كالحديد، وإذا كانت بيڤرلي تحتاج إلى تعلُّمِ هذه الحقيقة مرَّة أخرى، فسيكون سعيدًا بهذا.

همَّ بالدخول إلى الغرفة، ثم أعاد التفكير وظنَّ أن من الأفضل لو وقف مكانه بعض الوقت. أخذ يسترق السمع إليها، غير مُبالٍ حقًّا بمن تُحادث أو بِمَ تقول.. فقط يستمع إلى العلو والانخفاض في نبرة صوتها، وما شعر به من جراء هذا كان الغضب الغاشم القديم المألوف.

لقد قابلها أوَّل مرَّة في حانة للعُزَّاب في وسط مدينة شيكاجو منذ أربع سنوات. تبادلا الحديث بتلقائية وسهولة نسبية، لأن كلاهما كان يعمل في مبنى العلامات التجارية، ويعرف عددًا قليلًا من الأشخاص المُشتركين. كان توم يعمل مسؤول علاقات عامة لدى كينغ ولاندري في الطابق الثاني والأربعين، بينما بيڤرلي مارش -كان هذا لقبها قبل الزواج- تعمل مُصمِّمة أزياء مُساعدة في أزياء ديليا. تمتَّعت علامة ديليا التُجارية برواجٍ متوسِّط في ولايات الغرب الأوسط، وكانت تُلبِّي احتياجات الشباب، وقد حقَّقت تنانير وبلوزات وشالات وسراويلات ديليا مبيعات كبيرة فيما وصفته ديليا كاسلمان بـ«متاجر الشباب»، وما وصفه توم بـ«متاجرِ المُتعاطين». عَلِم توم روجان شيئين عن بيڤرلي مارش على الفور: أنها جذَّابة وأنها ضعيفة، وفي أقل من شهر، عرف شيئًا آخر: أنها موهوبة.. موهوبة بشدَّة.. وفي تصميماتها

للملابس والبلوزات العصرية رأى توم آلة ضخ نقود بإمكانات تكاد أن تكون مُخيفة.

وقتها فكَّر في قرارة نفسه دون أن يبوح (ليس آنذاك على الأقل)، لكن هذه النقود لن تتحقَّق من مبيعات متاجر المُتعاطين على أيِّ حال. يكفي هذا. لا مزيد من الإضاءة السيئة. لا مزيد من التخفيضات الهائلة، لا مزيد من العرض الرديء في نهاية محلٍّ ما بين أدوات تعاطي المُخدِّرات وتيشيرتات فرق الروك. دعي هذا الهُراء إلى أرباع الموهوبين.

لقد عرف توم الكثير جدًّا عنها قبل أن تعرف أنه يحمل أيَّ اهتمام حقيقي بها، وقد كانت هذه هي الطريقة التي أراد توم أن يسير الأمر بها. لقد ظلَّ يبحث عن فتاة مثل بيڤرلي مارش طوال حياته، وقد تقرَّب منها بذات الطريقة التي يطارد بها الأسد ظبيًا بطيئًا. لا يعني هذا أن ضعفها كان ظاهرًا للعين؛ إذا نظرت إليها سترى امرأة مُذهلة، فائقة الجمال، نحيلة لكن تمتلئ بالأنوثة.. رُبَّما فخذاها لم يكونا أفضل شيءٍ مُمكن، لكنها ذات مؤخِّرة رائعة، وصاحبة أفضل زوجين من النهود رآهما في حياته. كان توم روجان رَجُلًا يحب النهود، لطالما كان كذلك، والفتيات طويلات القامة يتمتَّعن دومًا بنهودٍ مُخيِّبة للآمال. إنهن يرتدين بلوزات رقيقة تبرز حلماتهن المنتصبة أسفلها لتُثير جنونك، لكن عندما تخلع عنهن تلك البلوزات الرقيقة تكتشف أن كل ما يملكن هي تلك الحلمات فقط، أما الثديان نفسهما فيبدوان كمقابض أدراج المكتب الدائرية. لقد اعتاد رفيق سكنه في الجامعة قول: «الأثداء الأكبر من راحة الكف إهدارٌ للمساحة لا فائدة منه»، لكن توم لم يكن يهتم كثيرًا لآرائه، ولطالما ظنَّ أنه معتوه معجونٌ بالهُراء.

أوه، حسنًا، كانت جميلة بالفعل، بذلك الجسد الذي يتفجَّر أنوثة وذلك الشعر الأحمر المُموَّج الخلَّاب. لكنها كانت ضعيفة... بشكلٍ أو بآخر، وبدا الأمر كما لو أنها تُرسل إشاراتٍ لا سلكية هو وحدهُ القادر على تلقِّيها. يمكن للمرء مُلاحظة أشياء بعينها: كم كانت تُفرط في التدخين (لكنه جعلها تُقلِع عن هذه العادة)، والنظرة المُضطربة المُتأرجحة في عينيها التي تجعلها لا تنظر مُباشرةً قط في عيني أيًّا كان من يُحادثها؛ فقط تتلاقى معها بشكلٍ خاطف

من وقتٍ إلى آخر ثم تقفز مُبتعدة برشاقة. أيضًا هناك عادة فرك مرفقيها عندما تتوتَّر، وأظافر أصابعها المُنمَّقة لكن المُشذَّبة تمامًا. لاحظ توم هذه التفصيلة لاحقًا بعد لقائه الأوَّل بها. عندما رفعت كأس النبيذ الأبيض، شاهد أظافرها وفكَّر: إنها تُبقي عليها قصيرة هكذا لأنها تقرضها.

قد لا تستطيع الأسود التفكير، على الأقل ليس بالطريقة التي يُفكِّر بها البشر... لكنها ترى، وعندما تبدأ الظباء في الابتعاد راكضة عن بركة الماء، وقد نبَّهتها رائحة الفروة المُغبَّرة التي تُشير إلى اقتراب الموت، تستطيع القطط الكبيرة مُلاحظة أيِّها يتقهقر إلى مؤخِّرة القطيع؛ رُبَّما بسبب ساق عرجاء، ورُبَّما بسبب أنها بطيئة بطبعها، أو رُبَّما لأن حاسة الخطر لديها ليست بذات الحِدَّة، وقد يكون من الممكن حتَّى إن بعض الظباء -وبعض النساء كذلك- ترغب في أن تُقتنص.

فجأة، سمع توم الصوت الذي انتزعه بخشونة من تلك الذكريات... صوت قدَّاحة سجائرها.

جاءه الغضب الغاشم من جديد، وازدادت حرارة معدته بشكلٍ كبير يُنذر بسوءٍ. إنها تُدخِّن. لقد خاضا معًا بعض حلقات توم روجان الدراسية الخاصة حول الموضوع، وها هي تفعل الأمر من جديد. إنها بطيئة التعلُّم -حسنًا- لكن المُعلِّم الجيد يكون في أفضل حالاته مع بطيئي التعلُّم.

كانت تقول في تلك اللحظة: «نعم.. آها.. حسنًا. أجل...» ثم استمعت قليلًا وضحكت بعدها ضحكة غريبة خشنة لم يسمعها من قبل وأردفت «بما أنك طلبت، فأنا أريد شيئين: احجز لي غُرفة، وصلِّ من أجلي. أجل، حسنًا... آها.. أنا أيضًا. تصبح على خير».

أنهت بيڤرلي المُكالمة في الوقت الذي دلف فيه الغُرفة. كان ينوي أن يجعل دخوله مدوِّيًا ويصرخ فيها أن أطفئيها، أطفئيها الآن، حالًا!، لكن الكلمات ماتت في حلقة عند رؤياها.

لقد شاهدها بمثل هذه الحالة من قبل، لكن مرَّتان أو ثلاث فقط. مرَّة قبل عرضهما الكبير للأزياء، ومرَّة قبل العرض الخاص الأوَّل للمُشترين الوطنيين، ومرَّة عندما ذهبا إلى نيويورك لحضور حفل توزيع جوائز التصميمات الدولي.

كانت تقطع الغرفة بخطواتٍ عريضة جيئةً وذهابًا بالمنامة البيضاء الدانتيلا المصبوبة على جسدها، ولفافة التبغ بين أسنانها الأمامية تنفث سحابة دخان من خلف كتفها الأيسر كأنها مدخنة قاطرة. يا إلهي لكم يكره منظرها وعقب السيجارة يتدلَّى من فمها.

لكن ما أخرسه هي الهيئة التي بدا عليها وجهها. هذا ما أمات الصيحة المُنتواة في حلقه قبل خروجها، وعلى الفور خبط قلبه بين ضلوعه (كا-بامب!) وأجفل.. ثم أخبر نفسه أن ما شعر به ليس خوفًا، وإنما مُباغتة فحسب من جراء العثور عليها بهذه الحالة.

ها هي بيڤرلي قد تحوَّلت الآن إلى المرأة التي تصيرها فقط عندما يعلو إيقاع عملها نحو ذروته. كل واحدة من تلك المُناسبات التي تذكَّرها كانت وثيقة الصلة بحياتها المهنية بالطبع. في تلك الأثناء كان دائمًا ما يرى امرأة تختلف تمامًا عن تلك التي يعرفها كظهر يده. امرأة تستطيع العبث برادار الخوف الحسَّاس لديه بدفقاتٍ جامحة من التشويش الاستاتيكي. المرأة التي تتولَّد في أوقات الإجهاد هذه قوية، لكنها عصبية المزاج لا تعرف الخوف، ولا يُمكن التنبُّؤ بها.

كانت ثمَّة ألوان عديدة مُتداخلة تتدفَّق عبر وجنتيها حاليًا، وقد اعتلت عظام خدِّها حُمرة طبيعية مُتوهِّجة. كانت عيناها مُتَّسعتين وتبرقان، ولم يبق أثرٌ من نوم فيهما. شعرها ينسال ثائرًا كموج بحرٍ عباب، و... أوه، اسمعوا الآن أيُّها الأصدقاء والجيران! أوه فقط فلتنظروا إلى هذا! هل تُخرج بيڤرلي حقيبة السفر من خِزانة الملابس؟ حقيبة السفر؟ بحق الرب، إنها تفعل ذلك!

احجز لي غُرفة، وصلِّ من أجلي.

حسنًا، هي لن تحتاج إلى أيِّ غُرفة في أيِّ فُندق، ليس في المُستقبل القريب على أيِّ حال، لأن بيڤرلي روجان لن تذهب إلى أيِّ مكان وستلزم المنزل، شكرًا لكم. كما أنها ستتناول طعامها واقفة لثلاثة أو أربعة أيَّام قادمة.

لكنها رُبَّما ستحتاج بالفعل إلى بعض الصلوات قبل أن يفرغ من تأديبها.

ألقت بيڤرلي الحقيبة على طرف الفراش وتوجَّهت إلى الشوفنيرة، وفتحت الدُرج العلوي وسحبت منه سراويلين من الچينز ومِثلهما من القطن

وألقت بهما إلى الحقيبة. ثم عادت إلى الشوفنيرة بينما لفافة التبغ ما زالت تنفث الدُخان من ورائها. جمعت بيڤرلي بعض التيشيرتات، وسُترة ثقيلة، وبلوزة قديمة ماركة شيب أند شور كانت تبدو فيها سخيفة تمامًا لكنها رفضت التخلُّص منها. أيًا كان من هاتفها فهو بالتأكيد ليس شخصًا هامًا. هذه أغراضٌ مُبتذلة.. أغراضٌ تصلح لقضاء عُطلة نهاية أسبوع في قرية ريفية صغيرة.

لم يكن هذا يعني أنه يهتم بمن هاتفها، أو المكان الذي تظن أنها ذاهبة إليه، بما أنها لن تذهب إلى أيِّ مكان. لم تكن هذه هي الأمور التي أرَّقت عقله البليد المُشوَّش بفعل الإفراط في شرب البيرة والنوم غير الكافي.

بل هي لُفافة التبغ تلك!

لقد افترض أنها تخلَّصت من سجائرها جميعًا. لكن يبدو أنها تُخبِّئ أمورًا عنه، وها هو الدليل يتدلَّى بحزمٍ من بين شفتيها، ولأنها لم تكن قد لاحظت وقوفه على عتبة الباب بعد، سمح توم لنفسه بمُتعة تذكُّر الليلتين اللتين أكدتا له سيطرته الكاملة عليها.

لا أُريدك أن تُدخِّني في وجودي بعد ذلك، هكذا أخبرها وهما عائدان إلى المنزل من الحفلة التي أُقيمت في ليك فورست. كان هذا في شهر أكتوبر. أنا مُجبر على الاختناق بهذا الخراء في الحفلات وفي العمل، لكنني لستُ مُجبرًا على استنشاقه وأنا معك. هل تعرفين كيف أشعر حيال الأمر؟ سأخبرك بالحقيقة، الأمر مُقزِّز لكنها الحقيقة. أشعر كأنني مُضطرٌّ إلى التهام مُخاط شخص آخر.

ظنَّ توم أن الموضوع من شأنه أن يثير شرارة احتجاج ولو خافتة، لكنها نظرت إليه فحسب بطريقتها الخجول الراغبة في إرضائه، وقد كان صوتها خفيضًا وحليمًا ومُطيعًا وهي تقول، حسنًا يا توم.

ألقيها إذًا.

ألقتها بيڤرلي بالفعل، وبات توم في مزاجٍ مَرِح جيِّد طوال تلك الليلة.

بعدها بأسابيع قليلة، وبينما هما خارجانٌ من أحد الأفلام، أشعلت بيڤرلي سيجارة في الممر وأخذت تُدخِّنها وهما يقطعان موقف السيَّارت مُتَّجهين إلى السيَّارة. كانت تلك ليلة لاذعة البرودة من ليالي نوڤمبر، تقضم فيها الرياح

بجنون كل شبرٍ مكشوف من الجسد يمكن أن تجده. تذكَّر توم أنه كان قادرًا على شم رائحة البُحيرة، كما يحدث أحيانًا في الليالي الباردة.. رائحة أسماك آسنة ومشوَّبة برائحة خواء إذا جاز التعبير. تركها توم تُنهي لفافتها، بل أنه فتح لها باب مقعدها عندما وصلا إلى السيَّارة، ودار بعدها حولها وجلس خلف المقود وأغلق الباب، ثم قال: بيف؟

أبعدت وقتها السيجارة عن فمها، والتفتت نحوه مُتسائلة.. عندها أطلق توم العنان لكفِّه كي يُعالجها بصفعة كاسحة على وجنتها كانت كافية لجعل راحة يده ترتعش.. كاسحة لدرجة أنها جعلت رأسها يرتطم بقوَّة بمسند الرأس. اتَّسعت عيناها من المُباغتة والألم... ولاح فيهما شيءٌ آخر أيضًا. رفعت يدها إلى وجنتها لتتفحَّص السخونة والوخز الخدر اللذين يلفاها، وصاحت صارخة أووو! توم!

نظر توم إليها بعينين ضيقتين وثغرٍ باسم. كان مُفعمًا بالحيوية، ومُهيَّأً لرؤية ماذا سيحدث تاليًا، وكيف ستكون ردَّة فعلها. كان قضيبه يتصلَّب مُنتصبًا في سراويله، لكنه لم يلحظ تقريبًا. سيأتي دوره لاحقًا، أما الآن فالدرس مُنعقد. استعاد توم ما حدث للتوِّ. تُرى ما كان ذلك التعبير الثالث الذي اعتلى وجهها لحظة خاطفة قبل أن يختفي؟ في البدء كانت المُباغته. ثم الألم. ثم...

(الحنين إلى الماضي)

... نظرة تبدو كنظرة تذكُّر... ذكرى ما مُبهمة. لقد لمعت في عينيها لحظة فقط، واعتقد توم أنها نفسها لم تُدرك بأمر ذلك الاختلاج، لا على وجهها ولا داخل عقلها.

الآن.. الآن.. سيترتَّب الأمر كله على أوَّل عبارة ستنطق بها، وقد كان يعلم تلك العبارة كما يعلم اسمه بالضبط.

لم تكن: أنت يا ابن العاهرة!

لم تكن: أراك لاحقًا أيُّها الثور.

لم تكن: لقد انتهى الأمر بيننا يا توم.

فقط نظرت إليه بعينيها العسليتين الدامعتين المجروحتين وقالت: لِمَ فعلت ذلك؟ ثم حاولت قول شيء آخر لكنها انفجرت في البكاء.

ألقيها.

ماذا؟ ماذا يا توم؟ سالت مساحيق التجميل على وجهها مُخلِّفة خطوطًا موحلة. لم يضايقه ذلك. لقد أحب نوعًا ما رؤيتها في هذه الحالة. كانت مشوَّشة وفوضوية، لكن ثمَّة شيئًا مُثيرًا بخصوصها. نوعٌ ما من إثارة العاهرات.

السيجارة. ألقيها.

هبط الفهم على عقلها، ومعه الشعور بالذنب.

بكت قائلة، لقد نسيت! هذا كل شيء!

ألقيها خارج السيَّارة يا بيف، وإلا ستتلقين صفعةً أخرى.

فتحت بيفرلي زجاج النافذة وألقت بلفافة التبغ. ثم التفتت نحوه مُجدَّدًا، بوجهٍ شاحب خائف لكن هادئ على نحوٍ ما.

لا يمكنك... آه.. ليس من المُفترض أن تضربني يا توم. هذا أساسٌ سيئ لـ... لـ... علاقة طويلة الأمد. كانت تحاول إيجاد ألفاظ مُناسبة، أو طريقة تعبير راشدة، لكنها أخفقت. لقد أحدث لها رِدَّة سلوكية ونفسية إلى الوراء.. وها قد صار يُشارك السيَّارة مع طفلة. أنثى حِسيَّة ومُثيرة كالجحيم، لكنها طفلة.

عدم الإمكان وعدم الوجوب شيئان مُختلفان يا صغيرة، هكذا قال مُبقيًا على صوته خفيضًا، لكنه كان مُحتدمًا وهائجًا من الداخل. أنا من سيقُرِّر ما يُشكِّل علاقة مُستديمة من عدمه. إذا كان باستطاعتك التعايش مع هذا، فخير. إذا لم يكن، فيُمكنك الترجُّل الآن والمُغادرة. لن أمنعك. قد أُعالجك بركلة في المؤخِّرة كهدية وداع، لكنني لن أمنعك. هذه بلاد الحُرِّية. هذا كل ما في الأمر.

لا، لقد قلت ما فيه الكفاية تقريبًا، هكذا همست، فلطمها مُجدَّدًا.. بل أقوى من ذي قبل، لأنه لن يسمح لأيِّ مُتحرِّرة بأن تتذاكى عليه أو تخاطبه بوقاحة. إنه مُستعد لصفع ملكة إنجلترا إذ جال بخاطرها أن تتجرَّأ عليه.

ارتطم خدَّها بلوح السيَّارة المُبطَّن، وامتدت يدها سريعًا إلى مقبض الباب، لكنها تراجعت بعد ذلك، وكل ما استطاعت فعله هو الانكماش في الرُّكن كأرنبٍ مذعور وهي تُخفي فمها بإحدى يديها، بينما كانت عيناها مُتَّسِعتين..

دامعتين.. خائفتين. نظر إليها توم لوهلة، ثم خرج من السيَّارة والتف حولها من الخلف، ثم فتح بابها. تصاعد البخار الأبيض من أنفاسه الحارة في عتمة ليل نوڤمبر ورياحه الشديدة، وكانت رائحة البُحيرة قوية جدًّا.

هل تريدين الخروج يا بيڤ؟ لقد رأيتك تمدين يدك إلى مقبض الباب، لذا ظننتك ترغبين في الخروج. حسنًا. هذا جيِّد. لقد طلبت منك فعل شيء ووافقتِ على فعله، ثم نكصتِ. لذا هل ترغبين في المُغادرة؟ هيًّا، اخرجي. ماذا يهم بحق الجحيم، أليس كذلك؟ اخرجي. هل تريدين الخروج؟

همست بيڤرلي، لا.

ماذا؟ لا أستطيع سماعك.

لا، لا أريد الخروج، قالتها بصوتٍ أعلى قليلًا.

ماذا؟ هل أصابك ذلك التبغ بانتفاخ رئوي؟ إن كنت عاجزة عن الكلام فسأجلب لكِ مُكبِّر صوتٍ لعين. هذه فُرصتك الأخيرة يا بيڤرلي. ارفعي صوتك كي أستطيع سماعك: هل تُريدين مُغادرة هذه السيَّارة أم العودة معي؟

قالت، العودة معك، وشابكت يديها فوق تنُّورتها كفتاة صغيرة دون أن تنظر إليه، وانسالت الدموع على وجنتيها.

قال لها، حسنًا. هذا جيِّد. لكن قبل أن نفعل ذلك ردِّدي ما سأقول أمامي يا بيڤ.. قولي: «لقد نسيت أمر التدخين أمامك يا توم».

كانت في هذه اللحظة تنظر إليه بعينين جريحتين، ومتوسِّلتين، وعاجزتين عن الإفصاح. تستطيع إجباري على هذا، هكذا قالت عيناها، لكن أرجوك لا تفعل. لا داعي، أنا أُحبك، ألا يُمكن أن ينتهي هذا؟

لا، لن ينتهي. لأن هذا لم يكن ما تُريده من شُغاف قلبها، وكلاهما يعرف ذلك.

قوليها

لقد نسيت أمر التدخين أمامك يا توم.

جيِّد. الآن قولي «أنا آسفة».

ردَّدت بفتور، أنا آسفة.

كانت لُفافة التبغ مُلقاة على الرصيف والدخان ينبعث منها كفتيلٍ مقطوع.

نظر الخارجون من دار السينما إليهما.. إلى الرَّجُل الواقف جوار باب سيَّارة ڤيجا عتيقة الطراز، والمرأة الجالسة بالداخل بيدين مُتشابكتين في حجرها ورأسٍ مُنكَّس، بينما مصباح سقف السيَّارة ينير الحدود الخارجية لشعرها الناعم المُنسدل بضوئه الذهبي.

دهس توم لفافة التبغ بقدمه، ولطَّخ برمادها أسفلت الطريق.

الآن قولي: «لن أُدخِن مرَّة أخرى دون إذنك».

لن...

بدأ صوتها ينعقد.

لن... أَ-أُ-أُ...

قوليها يا بيڤ.

... أُدخِّن مرَّة أخرى. لن أفعلها دون إذنك.

صفع توم الباب والتف حول السيَّارة مُتَّجهًا إلى مقعد السائق. جلس خلف المقود وقاد عائدًا إلى شقَّتهما في وسط المدينة دون أن يتفوَّه كلاهما بكلمة. لقد ضُبِطت ورُسمت حدود نصف قواعد علاقتهما في موقف السيَّارات، أما النصف الآخر فأُسِّس له بعدها بأربعين دقيقة، في فراش توم.

لم تكن ترغب في مُطارحته الغرام، هكذا قالت. لكنه لمح حقيقة أخرى في عينيها وفي الانتفاخ البارز بين فخذيها؛ وعندما نزع عنها بلوزتها كانت حلمتاها مُتصلِّبتين. تأوَّهت بغنج عندما اعتصرهما، وأطلقت صرخة خافتة عندما امتصَّ الأولى ثم الثانية وهو يستمرُّ في عجنهما بلا هوادة، ووجدت نفسها تُمسك بكفه وتضعها بين فخذيها.

ظَنَنت أنكِ لا تريدين فعلها، هكذا قال، فأشاحت بوجهها بعيدًا. لكنها لم تترك يده، بل ازداد تموُّج حوضها سُرعةً ووتيرةً.

دفعها إلى الخلف فوق الفراش، وصار الآن رقيقًا معها. لم يُمزِّق لباسها الداخلي بعنف، وإنما بدأ يُزيله عنها بعناية بدت تعفُّفية بالكاد.

أما الولوج داخلها فبدا كالولوج في مادة زيتية بديعة.

تحرَّك معها، واستخدمها جيِّدًا، لكنه تركها تستخدمه بدورها.. وقد جاءتها الرعشة الأولى على الفور تقريبًا، وصرخت وهي تطعن ظهره بأظافر

أصابعها. ثم استمرَّا يعصفان أحدهما بالآخر في تمسيدٍ إيقاعي طويل وبطيء، وفي وقتٍ ما وسط اهتزازهما الماتع، شعر أنها قذفت مرَّة ثانية. عندما كان توم يشعر باقترابه من الذروة، يبدأ في التفكير في نتائج فريق وايت سكوكس المُخزية، أو بمن يحاول تقويض جهوده في العمل.. عندها يشعر بأنه صار على ما يُرام، وأنه يُمسك بزمام نفسه جيِّدًا. ثم بدأت هي في التسارُع، وقد ذاب إيقاعها أخيرًا وتحوَّل إلى تطارُحٍ مُهتاج. نظر توم إلى وجهها، إلى بُقع الكُحل التي تُشبه نمط فراء الراكون، إلى أحمر الشفاه الذي يُلطِّخها، وشعر بنفسه فجأة يندفع بفوران إلى لحظة القذف. ازدادت حدة انتفاضات حوضها وصارت أعنف فأعنف، ولم يكن توم آنذاك قد طوَّر بطنًا مُنتفخًا لتحول بين جسديهما من جراء طول احتساء البيرة، فأخذ لحم بطنيهما يُصفِّق معًا في ضرباتٍ مُتسارعة.

مع اقتراب النهاية صرخت بيفرلي بقوَّة، وعضَّت كتفه بأسنانها الصغيرة النضيدة.

سألها بعد ذلك وهما يغتسلان، كم مرَّة قذفتِ؟

أبعدت وجهها عنه في خجل، وعندما تكلَّمت خرج صوتها خفيضًا حتَّى أنه سمعها بالكاد. هذا ليس شيئًا يُفترض أن تسأل عنه.

حقًّا؟ من أخبركِ بهذا؟ السيدّ روچرز؟

ثم أمسك وجهها بيدٍ واحده، وضغط إبهامه عميقًا في إحدى وجنتيها وبباقي أصابعه الوجنة الأخرى، مُحتضنًا ذقنها في راحة كفِّه.

قال لها، هيًّا أخبري توم. هل تسمعيني يا بيف؟ أخبري بابا.

ثلاث مرَّات، قالتها مُتردِّدة.

قال لها، جيدّ. يُمكنك تدخين سيجارة.

نظرت إليه بارتياب، وشعرها الأحمر يُغطي نهديها.. لم تكن ترتدي شيئًا سوى لباس داخلي رفيع يحتضن مؤخِّرتها. مُجرَّد النظر إليها بهذه الهيئة جعلت ماكيناته تعمل من جديد. أومأ لها برأسه.

قال لها، لا عليكِ. أنا موافق.

تزوَّجا بعدها بثلاثة أشهر في حفلٍ مدني حضره اثنان من أصدقائه، أما

صديقتها الوحيدة التي حضرت الحفل فكانت كاي مكال، التي نعتها توم بـ «تلك العاهرة المُنادية بتحرير المرأة ذات النهدين العارمين».

كل هذه الذكريات عبرت عقل توم في غضون ثوانٍ معدودة، كأنها فيلم يُعرض بالحركة السريعة، بينما هو واقف على عتبة الباب يُراقبها. كانت قد وصلت إلى دُرج شفونيرتها السُفلي الذي تُسمِّيه أحيانًا «مخزن حاجيات نهاية الأسبوع»، وأخذت تُلقي ببعض الملابس الداخلية في حقيبة السفر. أشياء ليست من النوع الذي كان يُعجبه كالستانات والحرائر الزلقة اللامعة.. هذه قُطنيات.. ملابس داخلية كالتي ترتديها الفتيات، مُعظمها بهت لونه واهترئ بعض الشيء. بالإضافة إلى منامة قطنية كالتي ظهرت في مُسلسل منزل صغير في البراري. استمرَّت بيڤرلي في البحث بفضول في الجزء الخلفي من هذا الدُرج السُفلي لترى ما قد يكون كامنًا هناك.

في هذه الأثناء، تحرَّك توم روجان فوق البُساط الأشعث مُتَّجهًا إلى خِزانة ثيابه. كانت قدماه عاريتين ومشيته حثيثة لا تُصدر صوتًا كالنسيم الخفيف. إنها لُفافة التبغ تلك التي أثارت جنونه. لقد مرَّ وقتٌ طويلٌ منذ أن نسيت ذلك الدرس الأوَّل، وقد تلقَّت دروسًا أخرى عديدة بعدها، عديدة جدًا، ومرَّت عليها أيَّام صيفٍ عديدة حارَّة اضطُّرت فيها لارتداء بلوزات طويلة الكُمَّين بل سُترات صوفية محبوكة مُغلقة الأزرار إلى العنق لتُداري آثار هجماته، وأيَّام أخرى رمادية ارتدت فيها نظَّارات شمس، لكن لطالما ظلَّ ذلك الدرس الأوَّل مُباغتًا وجوهريًّا...

نسيَ توم أمر تلك المُكالمة الهاتفية التي أيقظته من نومه العميق. ما أثار جنونه حقًّا كان لُفافة التبغ. ما دامت تُدخِّن الآن، فقد نسيت من هو توم روجان.. بشكلٍ مؤقَّت بالطبع، فقط بشكلٍ مؤقَّت. لكن حتَّى هذه الحالة العارضة بدت له طويلة جدًّا بشكلٍ لعين، ولم يكن يهتم بما تسبَّب في نسيانها، فمثل هذه الأشياء لا تحدث في بيته لأيِّ سببٍ كان.

كان ثمَّة حزام جلد أسود مُعلَّقًا على باب خزانته من الداخل. افتقد الحزام حُليته المعدنية، فقد نزعها توم عنه منذ زمن، وقد كان مطويًّا من الطرف الذي احتلَّته تلك الحُلية قديمًا. هذا الجزء المطوي شكَّل حلقة دسَّ فيها توم روجان يده الآن.

توم، لقد أسأت التصرُّف. هكذا اعتادت أمه أن تقول له أحيانًا.. حسنًا، رُبَّما «أحيانًا» ليست كلمة موفَّقة، و«كثيرًا» هي الكلمة الأصح. تعال هنا يا تومي! يجب أن تتلقَّى «علقة». تخلَّل طفولته كثيرٌ من التأديب، وفي النهاية استطاع توم الهروب إلى جامعة ويتشيتا؛ لكن يبدو أنه لا يُوجد ما يُسمَّى الهروب الكامل، لأنه ما انفك يسمع صوتها يزوره في أحلامه صائحًا: تعال هنا يا تومي. يجب أن تتلقَّى «علقة». «علقة»...

لقد كان الأكبر بين إخوته الأربعة. بعد ثلاثة أشهر من ولادة أخيه الأصغر، مات رب الأسرة رالف روجان. حسنًا، رُبَّما «موت» كلمة غير صحيحة، و«انتحار» هي الكلمة الأصح. بما أنه صبَّ كمية كبيرة من محلول هيدروكسيد الصوديوم إلى كأس من الخمر ثم جرَّع هذا الشراب الشيطاني جالسًا على أرضية الحمَّام. التحقت السيِّدة روجان بعدها بعملٍ في مصنع فورد، وصار توم روجان هو رجل الأسرة في سنِ الحادية عشرة، وكان إذا أساء التصرُّف (إذا قضى الطفل حاجته ملوِّثًا الحفَّاضة بعد رحيل جليسة الأطفال، وظلَّ الغائط بها حتَّى عودة أمه... أو إذا نسي مُقابلة أخته ميجان عند زاوية شارع برود بعد خروجها من الروضة ولاحظ السيِّد جرانت الفضولي الأمر... أو إذا جلس لمُشاهدة برنامج المسرح الأمريكي وغفل عن چوي الذي يُثير الفوضى في المطبخ... إذا حدث أيُّ شيءٍ من هذا أو الآلاف غيرها...)، تخرج عصا الضرب من مكانها بعد أن يدلف الأطفال إلى أسِرَّتهم، وتنادي أمه عليه في غضب: تعال هنا يا تومي. يجب أن تُضرب «علقة».

إذا لم يكن قد تعلَّم شيئًا آخر في مسيرة الحياة الطويلة، فقد تعلَّم هذا. من الأفضل أن يؤدِّب بدلًا من أن يُؤدَّب.

لذا ترك توم طرف الحزام السائب، وسحبه من الأنشوطة المطوية، ثم قبضها بإحكام. أعطته شعورًا طيِّبًا. جعلته يشعر بأنه رجُلٌ بالغ، وتدلَّى الحزام الجلدي من قبضته المُحكمة كثُعبانٍ أسود. لقد تبخَّر ألم رأسه تمامًا.

وجدت بيڤرلي ذلك الشيء الأخير في نهاية الدُرج السفلي: حمَّالة الصدر القطنية القديمة البيضاء المُبطَّنة بالإسفنج. طفت فكرة أن تكون هذه المُكالمة المُبكِّرة من طرف عاشق قديم إلى سطح تفكير توم لفترة وجيزة ثم غاصت

مُجدَّدًا. يا لها من فكرة سخيفة. المرأة التي تذهب لمُلاقاة عشيقٍ لا تحزم معها بلوزاتها التي بهت لونها وملابسها الداخلية المُهترئة ماركة كيه-مارت. أيضًا، بيڤرلي لا يمكن أن تجرؤ على التفكير في مثل هذا الفعل.

ناداها بنعومة: «بيڤرلي». التفتت إليه في الحال جافلة وعيناها مُتَّسِعتان وشعرها الطويل يتأرجح.

تردَّد الحزام في قبضته... وتراخى قليلًا. حدَّق توم إليها، واعتراه ذلك الشعور بعدم الرَّاحة من جديد. أجل، إنها تبدو بمثل هذه الحالة قبل العروض الكبيرة، وآنذاك لم يعترض طريقها أو يُزعجها، مُتفهِّمًا أنها مُترعة تمامًا بخليطٍ من الخوف والعدائية التنافسية التي تجعل رأسها يبدو كأنه مليء بغازٍ مُضيء: فقط تكفي شرارة واحدة لينفجر. لم تكن بيڤرلي ترى تلك العروض كفرصة للانفصال عن أزياء ديليا، أو لكسب القوت، أو حتَّى لتكوين ثروة. إذا كان هذا كل ما في الأمر، فلم تكن لتنزعج هكذا. لكن أيضًا إذا كان هذا كل شيء، لم تكن لتتمتَّع بهذه الموهبة الشيطانية. كانت بيڤرلي ترى تلك العروض كنوعٍ ما من اختبارات قبولٍ فائقة يُجريها مُعلِّمون شرسون. ما رآه توم فيها في تلك المُناسبات هو مخلوق بلا وجه.. ورغم أنه عديم الوجه، إلا أن له اسمًا... نفوذ.

كل هذه العصبية المزاجية المُحتدمة بدت ظاهرة على وجهها الآن، لكن، ليس على وجهها فحسب، وإنما في كل مكان حولها.. كهالة مُشعَّة مرئية تقريبًا.. شُحنة عالية الجهد جعلتها بغتةً أكثر إغراءً وأكثر خطورة على حد سواء ممَّا بدت له منذ سنوات. كان خائفًا لأنها هنا، بكامل كينونتها.. كينونتها الجوهرية المُغايرة لتلك التي أرادها توم أن تكون عليها، والتي صنعها بنفسه.

بدت بيڤرلي مصدومة وخائفة، وفي الوقت نفسه مُنتبهة ويقظة بجنون. توهَّجت وجنتاها بألوانٍ محمومة، لكن ثمَّة بُقعتين بيضاوين تحت جفنيها السُفليين بدتا تقريبًا كزوجين إضافيين من العيون. أما جبهتها فاتَّقدت بمسؤولية دسمة.

وكانت لفافة التبغ لا تزال تبرز من فمها، وقد ارتفعت الآن إلى أعلى بزاوية طفيفة، كما لو أن اللعينة تظن نفسها فرانكلين ديلانو روزفلت. لفافة

التبغ! مُجرَّد رؤيتها جعلت الغضب الأعمى يجتاح جسده مرَّة أخرى في موجاتٍ مُتلاحقة، ومن مؤخِّرة عقله، تذكر توم مُشوَّشًا شيئًا قالته له ذات ليلة في الظلام بصوتٍ فاترٍ لا روح فيه: يومًا ما سوف تقتلني يا توم. هل تعرف هذا؟ يومًا ما ستتمادى كثيرًا وستكون هذه النهاية، وبعدها ستنكسر.

وقتها أجابها: فقط اسمعي كلامي يا بيف، وذلك اليوم لن يأتي أبدًا.

والآن، كان توم يتعجَّب -قبل أن يُدمِّر الغضب كل شيء- إذا ما كان ذلك اليوم قد أتى أخيرًا.

الأهم، لفافة التبغ. المكالمة لا تهم، ولا حزمها لأغراضها، ولا النظرة الغريبة التي تعتلي وجهها. سيعالج معها مسألة السيجارة أوَّلًا، ثم سيضاجعها، وبعدها يمكنهما مُناقشة الأمور الأخرى، التي قد تبدو ذات أهمِّية أيضًا.

قالت له: «توم، يجب أن...».

قاطعها قائلًا: «أنت تُدخِّنين». بدا صوته كأنه يأتي من بُعدٍ، عبر راديو جيِّد جدًّا. «يبدو أنكِ نسيتِ يا صغيرتي. أين كنتِ تُخبِّئينها؟».

قالت وهي تتَّجه إلى باب الحمَّام: «اسمعني، سأطفئها». نقرت بيڤرلي السيجارة إلى منفِضَّة التَّبغ.. فسسسس. حتَّى من موقعه هذا استطاع توم رؤية آثار أسنانها مغروسة عميقًا في عقب اللفافة، ثم أقبلت عليه: «توم، هذا صديق قديم. صديق قديم جدًّا. يجب عليَّ أن...».

صرخ في وجهها: «الخرس هو الشَّيء الذي يجب عليكِ فعله. اخرسي فحسب». لكن الخوف الذي أراد رؤيته -الخوف منه- لم يكن يعتلي وجهها. كان ثمَّة خوف ما، لكنه يأتي من جهة الهاتف، والخوف لا يُفترض أن يصيب بيڤرلي من ذلك الاتِّجاه. بدا الأمر وكأنها لا ترى الحزام تقريبًا، أو تراه هو نفسه، وشعر توم بقدر من الاستياء. أهو موجود؟ كان هذا سؤالًا غبيًا، لكن هل هو موجود حقًّا؟

كان هذا السؤال مُريعًا جدًّا وجوهريًا جدًّا لدرجة أنه شعر للحظة بخطر الاقتلاع الكامل من جذوره والتحليق كورقة شجر يتلاعب بها النسيم العالي. لكنه أمسك زمام نفسه. حسنًا، إنه هنا، ولقد نال كفايته من هذه الثرثرة النفسية اللعينة لليلة واحدة. إنه هنا، إنه توم روجان، توم روجان بحق الرب، وإذا لم

تستقم هذه العاهرة البلهاء وتخضع في غضون الثلاثين ثانية القادمة أو نحو ذلك، فهي على وشك أن تبدو كمن أُلقيت من عربة شحن في قطار مُتحرِّك بواسطة وغد لئيم.

قال لها: «يجب أن تُؤدَّبي يا صغيرتي. آسف لذلك».

صحيح أنه رأى مزيج الخوف والعدوانية هذا من قبل، لكنه الآن للمرَّة الأولى في حياته بدا له أنه يغشي بصره بحِدَّتِهِ.

قالت له: «ضع هذا الشيء جانبًا. يجب عليَّ الذهاب إلى مطار أوهير بأسرع ما أستطيع».

هل أنت موجود يا توم؟ هل لك أيّ أهميَّة؟

نفض توم الفكرة بعيدًا، ببطء، أخذ الشريط المصنوع من الجلد الذي كان يومًا حزامًا يتأرجح أمامه كبندول ساعة، ورمشت عيناه ثم ثبَّتهما على وجهها.

- «اسمعني يا توم. لقد وقعت بعض المتاعب قديمًا في مسقط رأسي. متاعب جمَّة في الحقيقة، وكان لديَّ صديق في تلك الأيَّام. أظنُّه كان يمكن أن يكون صديقي الحميم، لكننا لم نكن بالغين بما فيه الكفاية لهذه الأمور. كان صبيًّا في الحادية عشرة وقتها ويعاني من ثأثأة في الكلام. إنه روائي الآن. لقد قرأت أحد كتبه على ما أظنُّ... الجنادل السوداء؟».

تفرَّست بيڤرلي ملامح وجهه لكنه لم يُعطها أدنى انفعال. لم يكن شيءٌ يتحرَّك فيه سوى الحزام الذي يتأرجح إلى الأمام والخلف.. الأمام والخلف. كان واقفًا ورأسه مُنخفض وساقاه المُكتنزتان بالعضلات مُتباعدتان قليلًا. دسَّت بيڤرلي يدها بين خصلات شعرها في حيرة، كما لو أن بالها مشغول بأشياء هامة كثيرة وأنها لم ترَ الحزام على الإطلاق. عاد السؤال المُؤرِّق المُريع يطفو إلى السطح في رأسه مرَّة أخرى: هل أنت واثق أنك موجود؟ هل أنت مُتأكِّد؟

- «لقد ظلَّ ذلك الكتاب قابعًا هنا لأسابيع طويلة، ولم أربط بينهما قط، رُبَّما كان يجب عليَّ ذلك، لكننا جميعًا كبرنا حتَّى أنني لم أُفكِّر في ديري منذ فترة طويلة جدًّا. على أيِّ حال، كان لبيل أخ.. شقيق اسمه چورچ، وقد مات چورچ قبل تعرُّفي إلى بيل. قُتِلَ بالأحرى. ثم بعدها، في الصيف التالي...».

لكن توم كان قد استمع إلى ما يكفي من الجنون من داخل نفسه وخارجها، وفجأة تحرَّك نحوها سريعًا، رافعًا ذراعه خلف كتفه كأنه رجل على وشك رمي الرمح. صفَّر الحزام وهو يشق الهواء في طريقه. رأته بيفرلي قادمًا إليها فحاولت التملُّص، لكن كتفها الأيمن اصطدم بمدخل الحمَّام وسمعت وقع السياط مع نزول الحزام على جلد ساعدها تاركًا خلفه تورُّمًا أحمر.

كرَّر توم قوله: «يجب أن تُضربي». كان صوته رزينًا، بل يشوبه بعض الندم، لكن أسنانه أظهرت ابتسامة بيضاء مُجمَّدة. كان يرغب في رؤية تلك النظرة في عينيها.. نظرة الخوف والرعب والخزي.. تلك النظرة التي تقول نعم أنت مُحِق، أنا أستحق ذلك.. النظرة التي تقول أجل أنت موجود بالفعل، أستطيع الشعور بحضورك. ليعود بعدها الحب إلى قلبه، وقد كان ذلك صحيحًا وجيِّدًا، لأنه يحبها بالفعل، ويمكنهما أيضًا -إذا رَغِبَت في ذلك- أن يحظيا بعدها بنقاشٍ عمَّن هاتفها وعلام يدور الأمر برمَّته. لكن كل هذا يجب أن يأتي لاحقًا. أما الآن، فالجلسة التأديبية مُنعقدة. العادة المزدوجة القديمة. العلقة أوَّلًا، ثم المُضاجعة.

- «معذرة يا حبيبتي».

- «توم، لا تفعل ذلـ...».

أرجح توم ذراعه الممسكة بالحزام بشكل موازٍ للأرض، وشاهده ينزلق لاعقًا فخذها. ثم صدر صوت لسعٍ مُرضٍ لأُذنيه عندما انتهى به المطاف على مؤخِّرتها، و...

بحق المسيح، إنها تحاول الإمساك به! إنها تُمسِك بالحزام!

للحظة ارتج توم روجان مذهولًا من هذا التمرُّد غير المُتوقَّع حتَّى أنه كاد يفقد أداة عقابه، لولا الأنشوطة التي كانت مُلتفَّة بإحكام حول قبضته.

جذب توم الحزام بقوَّة ناحيته، وهو يقول بصوتٍ أجش: «لا تحاولي الإمساك بشيءٍ أستخدمه أبدًا، هل سمعتِ؟ افعلي هذا مرَّة أخرى ولسوف تتبوَّلين عصير توت طوال شهرٍ كامل».

قالت له: «توم، توقَّف». أثارت نبرتها في حد ذاتها حنقة، فقد بدت له كمُراقب ساحة لعب أطفال يتحدَّث إلى طفلٍ غاضب سنه ست سنوات.

«يجب أن أرحل. هذه ليست مزحة. ثمَّة أناس ماتوا، ولقد قطعت وعدًا منذ زمنٍ بعيد...».

لم يستمع توم سوى لأقل القليل ممَّا تقول. ثم جأر فجأة بصوتٍ عالٍ وركض نحوها ورأسه منخفض، والحزام يتأرجح من ذراعه على نحوٍ أعمى. ضربها به بقوَّة، الأمر الذي أبعدها عن المدخل ودفعها على امتداد جدار غرفة النوم. طوَّح ذراعه إلى الوراء، وضربها.. ثم طوَّحه مُجدَّدًا، وضربها.. وطوَّحه، وضربها. في وقتٍ لاحق من هذا الصباح، لن يقدر توم على رفع ذراعه إلى مستوى رأسه قبل أن يبتلع ثلاثة أقراص كودين، لكنه الآن لم يكن يدرك أيَّ شيءٍ آخر بجوار حقيقة أنها تتحدَّاه. إنها لم تُدخِّن فحسب، بل حاولت نزع الحزام من يده.. وأوه يا رفاق، أوه يا أصدقاء ويا جيران، هي التي طلبت الأمر، ولسوف يشهد أمام عرش الرب العظيم أنها على وشك أن تنال ما طلبته.

دفعها أمامه على طول الجدار، مطوِّحًا بالحزام كالسياط، جاعلًا السماء تنهال عليها بسلخٍ متتالٍ. كانت يداها مرفوعتين أمام وجهها تحاول حمايته، لكن باقي جسدها كان سانحًا أمامه، وقد واصل الحزام إصدار صوت سياطٍ سميك في هواء الغرفة الهادئة. لكنها لم تصرخ مثلما كانت تفعل أحيانًا، ولم تترجَّاه أن يكف أذاه عنها كما تترجَّاه عادةً، وأسوأ ما في الأمر أنها لم تبكِ، كما تبكي عادةً. كان الصوت الوحيد في الغرفة هو صوت وقع السياط وصوت أنفاسهما.. أنفاسه الثقيلة الخشنة، وأنفاسها المُتلاحقة الخفيفة.

اندفعت بيڤرلي نحو الفراش والتَّسريحة المجاورة له. كتفاها مُتَّقدان من الجلد بالحزام، وشعرها أحمرٌ ثائر. تحرَّك توم مُتثاقلًا خلفها، كان أبطأ منها لكنه ضخم، ضخم جدًّا.. لقد واظب على لعب الاسكواش إلى أن أُصيب في وتر أخيل منذ عامين، ومن وقتها خرج وزنه عن السيطرة إلى حدٍ ما (رُبَّما «تمامًا» هي الكلمة الأصح)، لكن عضلاته ظلَّت في مكانها، كحبال سفينة غليظة مُغمدة في الدهون، ومع هذا، راعه إلى حدٍ ما مدى تقطُّع أنفاسه حاليًا من جراء المجهود.

وصلت بيڤرلي إلى التسريحة بما تحتويه من أدوات تجميل، وظنَّ توم أنها

ستجثو جوارها لتحتمي بها، أو رُبَّما تحاول الزحف أسفلها. لكن مدَّت يدها إليها بدلًا من ذلك... ثم التفتت إليه... وفجأة امتلأ الهواء بمقذوفاتٍ طائرة. إنها تلقي بزجاجات وعبوَّات مستحضرات التجميل عليه. صدمته زجاجة شانتيلي مباشرةً بين حلمتيه، وسقطت أرضًا جوار قدمه، وتحطَّمت، ولفَّته فجأة رائحة زهورٍ خانقة تثير الغثيان.

صرخ: «توقَّفي! توقَّفي يا عاهرة!».

وبدلًا من أن تتوقَّف، حلَّقت يداها فوق سطح التسريحة المُتخم بأدوات التبرُّج مُلتقطة كل ما تعثر عليه، وألقت عليه بها. أمسك توم صدره في المكان الذي صدمته في زجاجة شانتيلي وهو لا يُصدِّق أنها ضربته بشيءٍ، حتَّى والأشياء الأخرى تطير من حوله الآن. جرحه غطاء الزجاجة. لم يكن جرحًا عميقًا، بل هو أقرب إلى خدشٍ سطحي مُثلَّث الشكل. هل تقف أمامه الآن امرأة صهباء سوف ترى الشمس غدًا من نافذة فراشها في المُستشفى؟ أوه أجل، بالتأكيد. هذه المرأة بعينها سوف...

ضربه برطمان كريم فوق حاجبه الأيمن بقوَّة كاسحة مُباغتة، وسمع توم دويًا مكتومًا داخل رأسه. سطع ضوءٌ أبيض في مجال رؤية عينه اليُمنى وتراجع خطوة إلى الوراء بفمٍ مفتوحٍ على اتِّساعه. الآن لطمه أنبوب كريم نيفيا في بطنه مُحدثًا صوت صفعٍ خافتًا، بينما هي (هل كانت تفعل ذلك حقًّا؟ هل هذا ممكن؟) أجل! إنها تصرخ في وجهه!

- «سأذهب إلى المطار يا ابن القحبة! هل تسمعني؟ لديَّ أمور يجب أن أعتني بها، وسأذهب! من الأفضل لك ألَّا تعترض طريقي لأنني ذاهبة!».

سال الدَّم فوق عينه اليمنى دافئًا ولاذعًا.. فمسحه توم بأطراف أصابعه.

وقف مكانه لحظاتٍ يرمقها كأنه لم يرها من قبل، وهو -على نحوٍ ما- لم يرها كذلك من قبل بالفعل. كان صدرها يعلو ويهبط سريعًا، ووجهها يشتعل بالنار لكنه شاحب في الوقت نفسه، وقد طوت شفتيها إلى الخلف وكشَّرت عن أسنانها في زمجرة متوحِّشة. لكنها أفرغت سطح التسريحة بالكامل. لقد فرغت ترسانة صواريخها. كان لا يزال قادرًا على قراءة الخوف في عينيها... لكنه ما زال ليس مصدر ذلك الخوف.

- «أعيدي تلك الملابس إلى مكانها». قالها محاولًا عدم اللهاث وهو يتحدَّث. هذا لن يبدو جيِّدًا، وسيجعله يبدو ضعيفًا «ثم أعيدي الحقيبة واذهبي إلى الفراش. إذا فعلتِ هذه الأشياء، رُبَّما لن أضربك ضربًا مُبرحًا. رُبَّما ستكونين قادرة على مُغادرة المنزل خلال يومين بدلًا من أسبوعين».

تحدَّثت بيڤرلي ببطء، وكانت نظرتها واضحة تمامًا: «توم، اسمع. إذا اقتربت مني مرَّة ثانية فسأقتلك. هل تفهم ما أقول أيُّها العجل الكريه؟ سأقتلك».

فجأةً -رُبَّما بسبب نظرة الازدراء والاشمئزاز المُطلقين اللذين ظهرا على مُحياها، أو رُبَّما لأنها نعتته بالعجل، أو رُبَّما فقط بسبب الطريقة المُتمرِّدة التي يعلو بها صدرها ويهبط- شعر توم بالخوف يخنقه، ولم يكن خوفه ضئيلًا كبرعم، أو هشًّا كزهرة، بل مُفعم كحديقة كاملة... الخوف.. الخوف المُريع الذي نبع من شعوره بعدم أهمِّيته.

اندفع توم روجان إلى زوجته، دون أن يجأر هذه المرَّة. اندفع إليها في صمتٍ كطوربيد يشق مياه البحر. لم تكن نيَّته الآن أن يضربها أو يُخضِعها فحسب، بل أن يفعل ما تجرَّأت وقالت إنها قد تفعله.

ظنَّ أنها على الأرجح ستفرُّ راكضة إلى الحمَّام، أو إلى الدرج، لكن بدلًا من ذلك، تمسَّكت بيڤرلي بموقعها. ضرب فخذها الجدار وألقت بوزنها كله على التسريحة ودفعتها تجاهه، وكسرت في حركتها هذه ظفرين عندما انزلقت راحتا يديها بسبب تعرُّقهما.

للحظة مالت التسريحة مُتداعية بزاوية حادة، لكنها زجَّت بنفسها أمامًا مرَّة أخرى دافعة إيَّاها. رقصت التسريحة على ساقٍ واحدة، والتقطت مرآتها الضوء عاكسة ظلالًا مائعة على السقف، ثم مالت إلى الأمام ونحو الخارج، واصطدمت الحافَّة الأمامية بفخذي توم من الأعلى وأسقطته أرضًا. صدرت جلجلة موسيقية من داخلها مع انقلاب الزجاجات في الأدراج وتحطُّمها. رأى توم المرآة ترتطم بالأرض عن يساره، ورفع ذراعه لحماية عينيه، وفقد الحزام من قبضته. تناثر زجاج المرآة الفِضِّي في كل مكان على الأرض، وشعر بشظايا منه تلسعه وتدميه.

كانت بيڤرلي تبكي، وأنفاسها تتلاحق في شهقاتٍ صارخة عالية. لقد تخيَّلت لحظة هجرها توم مرارًا وتكرارًا.. تترك طغيان توم وراء ظهرها وترحل، كما تركت والدها من قبل، خلسةً في عمق الليل، بحقائبها مُكدَّسة في مؤخِّرة سيَّارتها الكاتلاس. لم تكن بيڤرلي امرأة ساذجة، وبالتأكيد ليست ساذجة بما يكفي -وهي تقف وسط هذه الفوضى العارمة الآن- كي تؤمن بأنها لم تحب توم أو أنها لم تزل تحبه بطريقة ما حتى الآن. إن هذا لم يمنع خوفها منه... وكرهها له... وازدراؤها لنفسها لاختياره بِناءً على أسبابٍ مبهمةٍ دفينةَ عصورٍ ينبغي أن تكون قد انتهت منذ زمنٍ طويل. لم تشعر بقلبها محطم، بل بالأحرى بدا أنه يُشوى بين ضلوعها.. ويذوب، وقد خافت أن تُدمِّر سخونة قلبها ما تبقَّى من تعقُّلها وتأكلها بنيرانها.

لكن فوق كل هذا، كانت تسمع صوت مايك هانلون الجاف الثابت يتحدَّث في مؤخِّرة عقلها قائلًا: لقد عاد، يا بيڤرلي... لقد عاد... وقد قطعتِ وعدًا...

تحرَّكت التسريحة صعودًا وهبوطًا.. مرَّة.. واثنتين.. ثم مرَّة ثالثة. بدا وكأنها تلفظ أنفاسها الأخيرة.

تحرَّكت بيڤرلي برشاقةٍ حَذِرةٍ، وفمها مُلتوٍ إلى أسفل ويرتجف كما لو كان في مستهل تشنُّجٍ من نوعٍ ما، ثم التفَّت حول المنضدة الساقطة، وتحرَّكت على أطراف أصابعها عبرَ الزجاج المُحطَّم، وأمسكت بالحزام في اللحظة التي رفع فيها توم المنضدة وقلبها على أحد جانبيها. ثم مُحتاطة، أحكمت قبضتها حول الأنشوطة، وهزَّت رأسها لإبعاد شعرها من فوق عينيها، ووقفت تراقب بتروٍّ ما الذي سيفعله.

نهض توم. كانت شظايا الزجاج قد قَطَعَت إحدى وجنتيه، بينما امتدَّ قطعٌ آخر رفيع كالخيط على طول جبينه. نظر إليها توم مُضيِّقًا عينيه وهو يعتدل واقفًا على قدميه، ولاحظت بيڤرلي قطرات الدماء التي تُلطِّخ سراويله الداخلية.

قال لها: «بيڤرلي، أعطني هذا الحزام فحسب».

بدلًا من الانصياع له، لفَّت بيڤرلي الحزام مرَّتين حول قبضتها ونظرت إليه بتحدٍّ.

- «توقَّفي يا بيڤ عمَّا تفعلين. حالًا».
- «إذا اقتربت مني، سأنزل عليك به حتَّى تُدمى».
الكلمات خرجت من فمها بالفعل لكنها لم تُصدِّق أنها من تقول هذا، ومن هذا الهمجي الذي يقف أمامها بلباسٍ مُلوَّث بالدماء على أيِّ حال؟ زوجها؟ أبوها؟ العشيق الذي اتَّخذته أيَّام الجامعة والذي كسر لها أنفها ذات ليلة استجابةً لنزوة عابرة كما اتضح بعدها؟ أوه ساعدني يا إلهي، ساعدني الآن. هكذا فكَّرت، ورغم هذا واصل فمها إخراج الكلام من تلقاء نفسه: «أنا أيضًا أستطيع أن أضرب. أنت بدين وبطيء يا توم. سأرحل الآن، وأظنُّ أنني لن أعود أبدًا. أظنُّ أن علاقتنا رُبَّما تكون انتهت».
- «من دِنبروه هذا؟».
- «انسَ الأمر. لقد كنت...».
أدركت بيڤرلي مُتأخِّرًا جدًّا أنّ السؤال لم يكن سوى إلهاء. لقد اندفع نحوها قبل أن تخرج الكلمة الأخيرة من بين شفتيها. طوَّحت الحزام في الهواء في قوسٍ واسع، وبدا الصوت الذي صدر عندما حطَّ على فمه كصوت سدَّادة عنيدة تنطلق من فوَّهة زجاجة خمرٍ مُحكمة الغلق.
ولول توم وأمسك فمه بيديه، واتَّسعت عيناه عن آخرهما من الألم والصدمة، وبدأ الدم يشخب من بين أصابع كلتا يديه.
صرخ بصوتٍ مكتوم: «لقد كسرتِ فكِّي يا عاهرة! آوه يا إلهي، لقد حطَّمتِ فكِّي».
اندفع إليها مرَّة أخرى، مادًا يده في الهواء، بينما فمه عبارة عن لطخة حمراء مُبلَّلة. بدا لها أن شفتيه قد تفجَّرت في موضعين، وقد انكسر طرف إحدى أسنانه الأمامية.
وفي أثناء ما كانت تراقبه، بصق توم طرف السنِّ المكسور من فمه. جزء منها كان يتراجع بعيدًا عن هذا المشهد، مُشمئزًا وينوح، ويطالبها بغلق عينيها. لكن بيڤرلي الأخرى شعرت ببهجة محكوم عليه بالإعدام تحرَّر من سجنه بعد زلزال عنيف دمَّر محبسه. هذه البيڤرلي كانت تستمتع بكل ما يجري بأريحية تامة. أتمنَّى أن تبتلعه. أتمنَّى أن تختنق به! هكذا فكَّرت الذات الأخرى.

وقد كانت هذه البيڤرلي من طوَّحت بالحزام للمرَّة الأخيرة.. الحزام الذي استُخدِم مِرارًا على مؤخِّرتها وفخذيها ونهديها.. الحزام الذي ضربها به مرَّاتٍ لا حصر لها طوال السنوات الأربع الماضية. عدد الجلدات التي اعتادت تلقِّيها كانت تتناسب طرديًّا مع فداحة خطأها. هل أتى توم إلى المنزل ووجد العشاء باردًا؟ جلدتان بالحزام. بيڤ تأخَّرت في عملها في الاستوديو ونسيت الاتِّصال بالمنزل وإخباره؟ ثلاث جلدات بالحزام. أوه، خذ بالك من هذه، بيڤرلي حصلت على مخالفة انتظار في الممنوع؟ جلدة بالحزام... على نهديها. كان بارعًا، ونادرًا ما يترك وراءه علامة أو تورُّمًا. الضرب حتَّى لم يكن يؤلمها إلى هذا الحد. لكنها الإهانة.. هذه تؤلم. أما أكثر ما يؤلم أكثر فهو علمها بأن جزءًا داخلها كان يشتهي هذا الألم.. يشتهي الإهانة.

الجلدة الأخيرة ستُسدِّد جميع الديون، هكذا فكَّرت، وطوَّحت الحزام.

حرَّكت بيڤرلي الحزام بزاوية مُنخفِضَة وموازية للأرض، وضربته به ضربة سريعة عالية الصوت على خصيتيه، بدا صوتها كصوت امرأة تَنفُض البساط بمضرب السجَّاد، وقد كان هذا كل ما تطلَّبه الأمر. على الفور تخاذل توم روجان ولم يعد يُفكِّر في العراك.

أطلق الرَّجُل صرخة رفيعة ضعيفة وسقط على رُكبتيه كأنه سيُصلِّي واضعًا يديه بين فخذيه، وألقى برأسه إلى الوراء، وبرزت العروق مُنتفخة في عُنُقه، واعتلت فمه تكشيرة مأساوية من الألم. لقد سقطت ركبته اليسرى على قطعة زجاج ثقيلة حادة من بقايا زجاجة العطر المُهشَّمة، وانقلب توم على الجانب الآخر مُلقيًا بكامل ثقله على الأرض كحوتٍ، وقد رفع إحدى يديه عن خصيتيه ليُمسك برُكبته المقطوعة.

ما كل هذه الدماء! هكذا فكَّرت بيڤرلي. يا إلهي، إنه ينزف من كل مكان.

سيعيش، هكذا ردَّت بيڤرلي الجديدة، بيڤرلي التي بدا أنها طفت إلى سطح شخصيتها مع مكالمة مايك هانلون. أمثاله دائمًا يعيشون. فقط اهربي الآن قبل أن يُقرِّر أنه يرغب في التمادي أكثر. أو قبل أن يُقرِّر النزول إلى القبو والتقاط بندقيته.

تراجعت بيڤرلي إلى الوراء، وشعرت بألمٍ مُفاجئ عندما داست على قطعة

زجاج مُهشَّمة من مرآة منضدة التجميل. انحنت لتلتقط مقبض حقيبتها، دون أن ترفع عينيها عنه. ثم تراجعت بظهرها خارجة من الباب، واستمرَّت في التراجع إلى نهاية الردهة. كانت تُمسك بالحقيبة أمامها بكلتا يديها، واستمرَّت الأخيرة تضرب قصبتي ساقيها وهي تتراجع، بينما قدمها المجروحة تُخلِّف آثارًا دامية على الأرض. عندما وصلت إلى الدرج، استدارت على عقبيها وهبطته سريعًا، دون أن تدع لنفسها فرصة للتفكير. كانت تشُك أنها ما زالت تحمل أفكارًا مُتَّسقة في عقلها على أيِّ حال، على الأقل في الوقت الحالي.

شعرت بيڤرلي بلمسة طفيفة على كاحلها فصرخت بصوتٍ عالٍ.

نظرت إلى أسفل ورأت طرف الحزام المرخي. إنه ما زال يلتف حول قبضتها. في هذا الضوء المُعتم بدا الشَّيءُ لها كثعبانٍ ميِّت أكثر من أيِّ وقتٍ مضى. ألقت بيڤرلي به على الدرابزين، وعلى وجهها إجفالٌ مُشمئِز، وشاهدته يسقط هامدًا مُتَّخذًا هيئة حرف S على بساط الردهة السفلية.

عند نهاية الدرج، أمسكت بأطراف منامتها البيضاء وخلعتها. كانت ملوَّثة بالدماء، ولم تكن بيڤرلي ترغب في تركها على جسدها ثانية إضافية، مهما حدث. طوَّحتها جانبًا، فطارت لتستقر على إصيص نبتة التين المرن المجاور للباب كمظلة مُبرقشة. ثم انحنت -عارية- إلى الحقيبة. كانت حلمتاها باردتين وصلبتين كرصاصتين.

- «بيڤرلي، اجلبي مؤخِّرتك إلى هنا حالًا!».

فزعت بيڤرلي وانتفضت واقفة ترتجف، ثم انحنت مُجدَّدًا إلى الحقيبة. إذا كان قويًّا بما يكفي ليصرخ بمثل هذا الصوت الجهوري، فإن الوقت الباقي أمامها أقصر ممَّا ظنَّت. فتحت الحقيبة سريعًا وأخرجت منها لباسًا، وبلوزة، وسراويل ليڤايز قديمة.. وارتدت هذه الملابس سريعًا وهي تقف قرب الباب وعيناها لا تحيدان عن مُراقبة الدرج. لكن توم لم يظهر. لقد نادى باسمها مرَّتين إضافيتين، وفي كل مرَّة كانت تفزع جافلة من هذا الصوت، وتزوغ عيناها، وتزم شفتيها إلى الداخل في التواءٍ غير واعٍ.

زرَّرت بلوزتها بأسرع ما تستطيع. الزِّران العلويان كانا مفقودين (وقد كانت مُفارقة كيف أنها لم تهتم قط بإنهاء حياكة ملابسها الخاصة)، وافترضت

بيڤرلي أنها تبدو كعاهرة تبحث عن زبون يعالجها بنيكة سريعة قبل انتهاء الليلة.. ويا لها من ليلة!

- «سأقتلك أَيَّتُها العاهرة! أَيَّتُها المومس اللعينة».

لطمت بيڤرلي الحقيبة مُغلقة إياها وأحكمت غلقها. من طرفها برز كم إحدى بلوزاتها كلسانٍ مُتدلٍّ. تلفَّتت بيڤرلي حولها مرَّة واحدة سريعة، وهي تشعر أنها لن ترى هذا المنزل مرَّةً أخرى.

لم تجد سوى الراحة والطمأنينة في هذه الفكرة، لذا فتحت الباب وسمحت لنفسها بالخروج منه.

ابتعدت مسافة ثلاثة منازل، وكانت تسير بلا هدى ولا معرفة واضحة إلى أين ستتَّجه، عندما أدركت أن قدميها لا تزالان عاريتين.

كانت القدم التي قطعها الزجاج -اليُسرى- تنبض بخفوت. يجب أن ترتدي شيئًا في قدميها، وقد كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل تقريبًا. لقد تركت محفظة نقودها وبطاقاتها الائتمانية في المنزل. دسَّت يديها في جيبي الجينز ولم تخرج منها سوى بنُدفٍ من الوبر. لم تكن تملك حتى عشرة سنتات؛ لا شيء على الإطلاق. نظرت حولها إلى الحي السكني الذي كانت فيه.. منازل جميلة، بحدائق ونباتات مُشذَّبة، ونوافذ مُظلمة.

وفجأة انخرطت في نوبة ضحك.

جلست بيڤرلي روجان فوق سورٍ حجريٍ قصير، وحقيبتها تتوسَّط قدميها المُتَّسختين. كانت النجوم قد بزغت، ويا لشدَّة لمعانها! رفعت بيڤرلي رأسها وضحكت في اتجاهها، بينما ذلك الابتهاج الجامح يغمرها من جديد، ويغسلها من الداخل كموجة مد ترفعها وتحملها وتُطهِّرها.. قوَّة عاتية جرفت في طريقها أيَّ تفكيرٍ واعٍ، وحده تفكيرها الدموي بصوته القوي تحدَّث إليها برغبة غير منطوقة، ورغم هذا لم تكن تعرف ما الذي يرغبه تحديدًا ولم تكن تهتم. كان يكفي أن تشعر بذلك الدفء يملؤها بإصراره. فكَّرت بيڤرلي في كلمة واحدة: رغبة، وفي داخلها اكتسبت موجة الابتهاج اللعوب سرعة وعنفوانًا، وأسرعت بها إلى الأمام تجاه تصادم لا مفر منه.

ضحكت بيڤرلي إلى النجوم. كانت خائفة لكنها حُرَّة، وكان ذعرها حادًا

كالألم، لكنه عذبٌ وحلو كتُفاح أكتوبر تام النضج.. وعندما أُضيء نور غرفة نوم الطابق الثاني في المنزل الذي تستند إلى سوره الحجري، مدَّت بيڤرلي يدها إلى مقبض حقيبتها ولاذت بالفرار إلى جوف الليل، وهي ما زالت تضحك.

6
بيل دِنبروه يأخذ استراحة قصيرة

- «سترحل؟».

هكذا كرَّرت أودرا كلمته الأخيرة، وهي تنظر إليه بحيرة وبعض الخوف، ثم رفعت قدميها العاريتين وطوتهما أسفلها. الأرضية باردة. الكوخ بأكمله كان باردًا في حقيقة الأمر. إن جنوب إنجلترا يمر بربيعٍ مطير استثنائي، وقد ضبط بيل دِنبروه نفسه أكثر من مرَّة يُفكِّر في ولاية مين في أثناء جولاته الصباحية والمسائية المنتظمة... يُفكِّر مُندهشًا وبطريقة مُبهمة في بلدة ديري.

من المُفترض أن الكوخ مزوَّد بتدفئة مركزية -هكذا صرَّح الإعلان، وقد كان يوجد بالفعل سخَّان بالأسفل في القبو المُرتَّب الصغير، قابعًا داخل ما كان يومًا صندوق لتخزين الفحم- لكن بيل وأودرا اكتشفا لاحقًا في أيَّام التصوير الأولى أن فكرة البريطانيين عن التدفئة المركزية مُخالفة تمامًا لفكرة الأمريكيين عنها. يبدو أن البريطانيين يعتقدون أنك تحظى بتدفئة مركزية ما لم تبُل جليدًا في المرحاض باكرًا في الصباح، وقد كان الوقت صباحًا الآن، الثامنة إلا الربع تقريبًا، قد أغلق بيل سمَّاعة الهاتف منذ خمس دقائق مضت.

- «بيل، لا يمكنك الرحيل فحسب. أنت تعرف ذلك».

قال لها: «أنا مُضطَّر». كان ثمَّة دولاب أوانٍ في الجانب البعيد من الغرفة. اتَّجه بيل إليه، والتقط زجاجة جلينفيديك من الرف العلوي، وصب لنفسه كوبًا. انسكب بعض الخمر على جانب الكوب وهو يصب، فغمغم: «اللعنة».

- «من كان يتحدَّث إليك عبر الهاتف؟ مِمَّ تخاف يا بيل؟».

- «لست خائفًا».

- «أحقًّا؟ هل ترتجف يداك عادةً هكذا؟ هل تتناول شرابك الأوَّل عادةً قبل الإفطار؟».

عاد بيل إلى مقعده وأهداب الروب تخفق مع الهواء حول كاحليه، وجلس. حاول الابتسام، لكنه كانت محاولة بائسة، فتخلَّى عنها.

على التلفاز، كان مُذيع شبكة بي بي سي ينهي مجموعة الأخبار السيئة لهذا الصباح، قبل أن ينتقل إلى الحديث عن نتائج مُباراة كرة القدم مساء أمس. عندما وصل الزوجان إلى قرية فليت الصغيرة هذه قبل شهر من بدء جدول التصوير، أصيبا بالدهشة من الجودة النوعية لأجهزة التلفاز البريطانية. فعندما تشاهد جهاز تلفاز ملوَّنًا جيِّدًا من طراز باي، كهذا، تشعر أنك قادر على القفز داخله. رُبَّما تحتوي الشاشة على خطوطٍ أكثر أو شيء من هذا القبيل، هكذا قال بيل. لا أعرف السَّبب لكنه رائع، هكذا أجابته أودرا. كان هذا قبل أن يكتشفا أن معظم البرامج تتكوَّن من مسلسلاتٍ أمريكية كـ دالاس، وأحداث رياضية بريطانية لا نهاية لها تتراوح بين الغامضة والمملة معًا (مثل مُسابقات لعبة الرشق بالسهام التي يبدو جميع المُشاركين بها كمُصارعي سومو مُصابين بضغط الدم)، ومُملة فحسب (إن كرة القدم البريطانية سيئة حقًّا، ولعبة الكروكيت أسوأ).

رشف بيل من شرابه وقال: «منذ فترة وأنا أُفكِّر كثيرًا في الوطن».

قالت له وقد بدت حائرة بالفعل لدرجة أنه ضحك: «الوطن؟».

- «أودرا المسكينة! ها أنت متزوِّجة قرابة أحد عشر عامًا برجُلٍ ولا تعرفين أقل القليل عنه. ماذا تعرفين أنتِ عن الأمر؟».

أنهى كلامه وضحك مُجدَّدًا، وابتلع ما تبقَّى من شرابه. كان لضحكته رنَّة خاصة أثارت اهتمامها بقدر رؤيته يحمل كأسًا من الويسكي الاسكتلندي في هذه الساعة من الصباح. الضحكة بدت كأنها ترغب بشدة في التحوُّل إلى عواءٍ من الألم. «تُرى هل باقي الرفاق لديهم أزواج وزوجاتٍ يكتشفون الآن بدورهم مدى ضآلة معرفتهم بأزواجهم؟ أتصوَّر أنهم كذلك».

قالت له: «بيلي، أنا أعلم أنني أحبك.. وطوال إحدى عشر عامًا كان هذا يكفيني».

أجابها مُبتسمًا: «أعرف ذلك». كانت ابتسامته عذبة، ومتعبة، وتحمل خوفًا.

- «أرجوك، أرجوك أخبرني ما الأمر».

نظرت إليه بعينيها الرماديتين الجميلتين. مَنْ تجلس هنا قبالته على مقعد ذلك البيت المُؤجَّر الرث وتطوي قدميها أسفل أطراف منامتها هي المرأة التي أحبها وتزوَّجها وما زال يحبها. حاول أن يرى بعينيها، أن يرى القدر الذي تعرفه عنه. حاول أن يتخيَّل الأمر كقِصَّة. كان هذا في وسعه، لكنه علم أنها قِصَّة لن تُحقِّق مبيعات جيِّدة أبدًا.

ها هو الصبي الفقير من ولاية مين الذي ارتاد الجامعة بمنحة دراسية. لقد تمنَّى طوال حياته أن يصير كاتبًا، لكن مع التحاقه الأوَّل بدروس الكتابة وجد نفسه ضائعًا في أرضٍ غريبة ومُخيفة بلا بوصلة هادية. كان ثمَّة زميلٌ له يريد أن يكون شاعرًا كأبدايك، وآخر يرغب في أن يصير النسخة الإنجليزية من فوكنر، فقط هو يريد كتابة روايات عن الحياة الكالحة للفقراء بالشِّعر المُرسَل. ثمَّة فتاة مُعجبة بچويس كارول أوتس لكنها تشعر أنه بما أن أوتس ترعرعت في مجتمع مُتحيِّز جنسيًّا، فقد صارت «مُشعَّة بالمعنى الأدبي».. وادَّعت الفتاة أنه لم يكن في مقدور أوتس أن تكون نظيفة، وأنها ستكون أنظف. ثمَّة طالب متخرج قصير وبدين لم يكن يستطيع -أو يرغب- في التحدُّث بصوتٍ أعلى من تمتمة. هذا الشاب كتب مسرحية تضم تسع شخصيات. كل واحدة منها تقول كلمة واحدة فقط، وشيئًا فشيئًا أدرك جمهور المسرحية أنه عندما تضع تلك الكلمات جنبًا إلى جنب ستتشكَّل عبارة: «الحرب أداة تُجَّار الموت المُتعصبين جنسيًّا». هذه المسرحية حازت تقدير A من الرَّجُل الذي يُدرِّس دورة الكتابة الإبداعية. هذا المُعلِّم نشر أربعة كُتُبٍ في الشعر وأطروحة الماچستير، وكلها ضمن منشورات الجامعة. كان يُدخِّن الماريجوانا ويرتدي قلادة السلام. أُنتجت مسرحية ذلك الشاب البدين المُتمتم بواسطة فرقة الفدائيين المسرحية خلال الإضراب لإنهاء الحرب التي أغلقت الحرم الجامعي في مايو من عام 1970، وقد أدى المُعلِّم دور إحدى الشخصيات.

في هذه الأثناء، كتب بيل دِنبروه قِصَّة أدب بوليسي من نوعية ألغاز الغُرفة

المُغلقة، وثلاث قصص من الخيال العلمي، والعديد من قصص الرعب التي تدين بكثيرٍ من الفضل لإدجار آلان بو، وإتش بي لافكرافت، وريتشارد ماثيسون. في السنوات التالية سيقول بيل إن تلك القصص كانت اشتقاقية تمامًا وتفتقد للأصالة، وإنها اقتبست كثيرًا من كُتَّاب أبرع، وطُعِّمت بتيماتٍ حديثة لجعلها تبدو أكثر ثراءً من حقيقتها المُفلسة.

لكن واحدة من قصص الخيال العلمي حازت على تقدير B.

كتب له المُعلِّم على صفحة العنوان: «هذه أفضل. إبَّان ضربة الفضائيين المُضادة، نرى حلقة مُفرغة من العنف الذي يولِّد مزيدًا من العنف. بشكلٍ خاص، أعجبتني المركبة الفضائية ذات المُقدِّمة الرفيعة المُدبَّبة كرمزٍ للغزو الاجتماعي الجنسي، رغم أن هذه التفصيلة ظلَّت مُشوَّشة قليلًا عبر الرواية، إلا أنها مُثيرة للاهتمام».

أما جميع قصصه الأخرى فلم تحز على تقدير أعلى من C.

في النهاية، نهض بيل واقفًا في أثناء المُحاضرة يومًا ما، بعد ما استمرَّت مُناقشة مقالة قصيرة لشابة ناحلة مُدَّة سبعين دقيقة أو نحو ذلك، والتي كانت تستعرض بقرة تتفحَّص مُحرِّك سيارة متروكًا في حقلٍ مهجور (هذا قد أو قد لا يكون بعد حربٍ نووية). الفتاة الناحلة -التي كانت تُدخِّن سيجارة وينستون تلو الأخرى وتعبث في البثور التي تُعشِّش في تجاويف جبهتها- أصرَّت أن المقالة تُشكِّل نقدًا اجتماعيًا وسياسيًا على طريقة كتابات چورچ أورويل الأولى، وقد وافقها الرَّأي أغلب الحضور، والمُعلِّم أيضًا.. لكن المُناقشة استمرَّت برتابة بليدة رغم ذلك.

عندا نهض بيل، نظر إليه كل من في قاعة الدرس. كان فارع القامة، وله حضور خاص.

قال بيل وهو ينتقي كلماته بعناية ودون أن يتلعثم (فهو لم يعد يتلعثم منذ أكثر من خمس سنوات): «أنا لا أفهم شيئًا ممَّا قيل. لا أفهم أيًّا منه. لماذا يجب أن تكون القصص ذات إسقاطٍ اجتماعي/ كذا؟ اجتماعي/ سياسي... أو ثقافي... أو تاريخي... أليست كل تلك الأمور مكوِّنات طبيعية في أيِّ قِصَّة، إذا ما سُرِدت بشكلٍ جيِّد؟ أعني...» ثم قطع كلامه ونظر حوله فرأى

عيونًا عدائية، وأدرك بشكلٍ خافت أنهم يرون في كلامه نوعًا ما من الهجوم. رُبَّما الأمر كذلك بالفعل، وقد أدرك أيضًا أنهم رُبَّما يُفكِّرون أن ثمَّة تاجر موتٍ متعصِّبًا جنسيًا موجود بين ظهرانيهم «... أعني... ألا تستطيعون فقط يا رفاق أن تسمحوا للقِصَّة بأن تكون مُجرَّد قِصَّة».

لم يجب أحد، وساد الصمت المكان، وقف بيل مكانه ينقل بصره من زوجي عيونٍ باردة إلى الآخر، بينما الفتاة الناحلة تنفث سُحُبًا من الدخان وتنفض رماد سيجارتها في منفِضَّة التبغ التي أحضرتها معها في حقيبة ظهرها.

في النهاية قال المُعلِّم بصوتٍ ناعم كصوت طفل يمر بنوبة غضب يتعذَّر تفسيرها: «هل تعتقد أن ويليام فوكنر كان يروي قصصًا فحسب؟ هل تعتقد أن شكسبير كان مُهتمًّا بجمع المال؟ هيَّا يا بيل، أخبرنا بما تعتقد».

- «أظنُّ أن هذا قريب جدًّا من الحقيقة».

هكذا قال بيل بعد لحظة صمت طويلة استغرقها في التأمُّل بصدق في السؤال.. وفي عيونهم قرأ إدانة من نوعٍ ما.

قال المُعلِّم وهو يعبث بالقلم ويبتسم إلى بيل بعينين نصف مُغلقتين: «أرى أن أمامك الكثير لتتعلَّمه».

وتعالى صوت التصفيق من مكانٍ ما في نهاية الغرفة.

غادر بيل الدرس... لكنه عاد في الأسبوع التالي وقد قرَّر المواظبة على الحضور. في هذا التوقيت كتب قِصَّة اسمها «الظلام»، عن صبي صغير يكتشف وحشًا في قبو منزله. يواجه الصبي الصغير الوحش، ويُقاتله، وفي النهاية يقتله. شعر بيل بنوعٍ ما من العروج الروحي السامي في أثناء انخراطه في كتابة هذه القِصَّة، بل شعر بأنه لا يكتب القِصَّة بقدر ما يجعلها تنساب عبره. في لحظةٍ ما وضع القلم جانبًا وأخرج يده الساخنة الموجوعة إلى برد ديسمبر الذي ينقص عن العشر درجات مئوية، وقد تصاعد البخار من مسامها من جراء التباين الشديد في درجة الحرارة. ثم أخذ يمشي في الجوار، وحذاؤه يصدر صريرًا فوق الثلج كأنه مصراع نافذة صغير في حاجة إلى تزييت، ويشعر برأسه كأن بها انتفاخًا بسبب وجود القِصَّة داخلها. كانت الطريقة المُتعجِّلة التي تلح بها للخروج من رأسه مخيفة إلى حدٍ ما، وشعر بيل أنها إن لم تتمكَّن من

الفرار عن طريق يده التي تلهث وراءها، فلسوف تقتلع عينيه في أثناء إلحاحها على أن توجد. «إذا لم تتحرَّر فلسوف تثير جنونك تمامًا»، هكذا نطق بصوتٍ مسموع كاشفًا سره لرياح الليل العاصفة، وضحك قليلًا ضحكة راجفة. لقد علم أنه اكتشف أخيرًا كيفية تحقق الأمر.. بعد عشر سنوات من المحاولة عثر فجأة على زر تشغيل الجرافة الهائلة التي تحتل مساحة كبيرة من رأسه، وها قد دار المُحرِّك.. وها هي تتسارع.. وتتسارع. إنها ليست بالشيء الجميل هذه الآلة الضخمة.. وهي ليست لغرض اصطحاب الفتيات إلى حفلات التخرُّج. إنها ليست رمزًا للرفعة. إنها تعني العمل، وهي قادرة على هدم أشياء، وإذا لم يكن حذرًا، ستصرعه أرضًا.

أسرع بيل عائدًا إلى الداخل مُنهيًا كتابة قِصَّة «الظلام» بسرعة محمومة. ظلَّ يكتب إلى الرابعة صباحًا حتَّى خرَّ نائمًا على ملزمة الأوراق. إذا كان أحدهم وقتها قد ألمح إليه أنه في الحقيقة يكتب عن أخيه چورچ لغمرته الدهشة. فهو لم يُفكِّر في چورچ منذ سنوات طويلة، أو هكذا يعتقد بصدق.

عادت القِصَّة إليه من طرف المُعلِّم بعد قراءتها بتقدير F كبير يشوِّه صفحة العنوان، مُرفقًا بكلمات زهيدة كُتبت تحته بحروفٍ بارزة: هُراء رخيص، ليس بقيمة الورق الذي كُتِب عليه.

أخذ بيل الملزمة الصغيرة التي لا تتعدى خمس عشرة صفحة إلى موقد الأخشاب وفتح بابه، وكان على وشك الإلقاء بالمخطوطة إلى الداخل عندما راعته سخافة ولا معقولية ما يفعله. أحجم بيل وجلس إلى مقعده الهزاز وهو ينظر إلى مُلصق فرقة جريتفل ديد وبدأ يضحك. هُراء؟ ما لهُ الهُراء! لطالما امتلأ الورق به.

صاح بيل: «فلتُقطع كل الأشجار اللعينة لكتابة الهُراء»، وأخذ يضحك ويضحك إلى أن فاضت عيناه بالدموع وانسالت على وجنتيه.

نزع بيل ورقة الغلاف وأعاد كتابتها (وهي الورقة التي تحمل رأي المُعلِّم)، ثم أرسل القِصَّة إلى مجلة ذكورية تُدعى وايت تاي (رغم أن وفقًا لما رآه بيل على صفحاتها، يجب أن يكون اسمها بنات عاريات يُشبهن مُدمني المُخدِّرات). ما دفعه لفعل هذا أن دورية سوق الكُتَّاب البالية التي اشتراها

تقول إنها -المجلة- تبتاع قصص الرعب، وقد ضمَّ العددان اللذان اشتراهما من متجر موم أند بوب المحلي أربع قصص رعب قصيرة بالفعل محصورة بين صور الفتيات العاريات وإعلانات الأفلام الإباحية والمُنشطات الجنسية. إحدى القصص -كتبها رجل يدعى دينيس إتشوسين- كانت جيِّدة جدًا بالفعل.

أرسل بيل إليهم قِصَّة «الظلام» دون أملٍ حقيقي في النشر، فقد راسل مجلاتٍ عديدة من قبل بقصص جيِّدة ولم يتلقَّ ردًّا سوى بطاقات الرفض، وقد شعر بالاندهاش والسرور عندما وافق المُحرِّر الأدبي لمجلة وايت تاي على شراء قِصَّته مُقابل مئتي دولار تُدفع عند النشر. أرفق مُساعد المُحرِّر الأدبي مُلاحظة صغيرة مع الخطاب وصفت القِصَّة بأنها «أفضل قِصَّة رعب لعينة منذ تحفة راي برادبوري 'الجرَّة'»، وأضاف: «من المؤسف تمامًا أن سبعين شخصًا فقط من شرق البلاد إلى غربها سيقرأها». لكن بيل دِنبروه لم يهتم.. مئتا دولار!

تقدَّم بيل إلى مستشاره الجامعي بطلب ترك الدورة التدريبية، وحصل على توقيعه عليه. بعدها أرفق بيل دِنبروه الطلب بمُلاحظة مُساعد المُحرِّر الأدبي وثبَّت الاثنين على اللوحة التعريفية المُعلَّقة على باب مكتب مُعلِّم دورة الكتابة الإبداعية. على طرف اللوحة، رأى بيل رسمًا هزليًا مُناهضًا للحرب، وفجأة، وكأنما تحرَّكت من تلقاء نفسها، وجد بيل أصابعه تسحب القلم من جيب الصدر الأمامي لقميصه، وتكتب فوق الرسم الهزلي: إذا تبادل الأدب والسياسة الأدوار يومًا، سأقتل نفسي، لأنني حينها لن أعرف ماذا أفعل سوى هذا. فكما ترى، السياسة دائمة التغيُّر، أما القصص فلا تتغيَّر أبدًا. ثم توقَّف برهة، شاعرًا ببعضٍ من وضاعة (لكنه لم يتمالك نفسه)، قبل أن يضيف: أرى أن أمامك الكثير لتتعلَّمه.

عاد إليه طلب ترك الدورة في البريد الجامعي بعد ثلاثة أيَّام، مُرفقًا بتوقيع المُعلِّم، وفي المساحة المُخصَّصة لكتابة التقدير وقت ترك الدورة، لم يعطه المُعلِّم علامة C عادية أو مُنخفِضَة، وهو ما يَحِقِّق له مجموع التقديرات التي حازها إلى اللحظة، لكنه وجد حرف F غاضبًا يملأ المساحة المُخصَّصة

للتقدير، وأسفله كتب المُعلِّم: هل تظن أن المال يثبت أيَّ شيءٍ بخصوص أيِّ شيءٍ يا دِنبروه؟

- «حسنًا، في حقيقة الأمر، أجل». قالها بيل دِنبروه بصوتٍ عالٍ في الشقة الخاوية، ومرَّة أخرى بدأ يضحك بجنون.

في عامه الأخير في الكلية، تجرَّأ بيل وكتب رواية؛ لأنه لم تكن لديه أدنى فكرة عمَّا هو مُقبلٌ عليه، وقد خرج من التجربة مذعورًا وبندوب... لكن حيًا، وفي يده مخطوطة قاربت الخمسمئة صفحة. أرسل بيل المسوَّدة إلى دار ذا ڤايكينج برس للنشر، وهو يعلم أنها ستكون المحطَّة الأولى في سلسلة محطَّات توقُّف طويلة سيمر بها كتابه، الذي كان يدور عن الأشباح... لكنه كان يحب شعار ذا ڤايكينج الذي يتَّخذ هيئة سفينة وهذا يجعلها مكانًا جيِّدًا للبدء كأي مكان آخر، وكما تبيَّن بعد ذلك، كانت محطَّة الكتاب الأولى هي الأخيرة. اشترت دار ڤايكينج الكتاب... وقد دشَّنت هذه الخطوة بداية الحلم بالنسبة إلى بيل. ها هو الصبي الذي كان معروفًا فيما مضى ببيل المُتلعثم قد صار في قمة النجاح وهو في سن الثالثة والعشرين، وبعدها بثلاثة سنوات، وعلى بُعد ثلاثمئة ألف ميل من نيو إنجلاند، بلغ بيل أوجًا نادرًا من الشُهرة عندما تزوَّج من نجمة سينمائية تكبره بخمس سنوات في كنيسة هوليوود في حي باينز.

توقَّع كُتَّاب أعمدة مجلَّات النميمة أن يستمر زواجهما سبعة أشهر. الرهان الحقيقي -هكذا قالوا- إذا ما كان سينتهي بالطلاق أم بدعوى بُطلان. الأصدقاء أيضًا (والأعداء كذلك) من كلا الجانبين شعرا بالمثل. فبخلاف فارق السن، بدت الفوارق بينهما مذهلة. هو طويل، وأصلع الرأس وهو في هذه السن، وقد بدأ يميل قليلًا إلى البدانة. يتحدَّث ببطء في المُناسبات، وفي أوقاتٍ بعينها يبدو مُجَمْجِمًا وعاجزًا عن الإفصاح. أما أودرا -على النقيض تمامًا- فصهباء، وممشوقة كتمثال، ومذهلة تمامًا، ولا تبدو بأيِّ حال كامرأة فانية من بني البشر، وإنما مخلوقة تابعة لجنسٍ فائق من أنصاف الآلهة.

عُيِّن بيل لكتابة السيناريو المأخوذ عن روايته الثانية الجنادل السوداء (لأن حق كتابة مسوَّدة السيناريو الأولى على الأقل كان شرطًا غير قابل للتغيير أو

الإلغاء في العقد، رغم عويل وكيلة أعماله ونعتها له بالمجنون لوضعه مثل هذا الشرط)، وقد تبيَّن أن مسوَّدته جيِّدةً جدًّا بالفعل. لذا دُعي إلى يونيڤرسال سيتي لمزيدٍ من عمليات التنقيح وحضور اجتماعات الإنتاج.

كانت وكيلة أعماله امرأة ضئيلة الجسد تُدعى سوزان براون. يبلغ طولها خمسة أقدام فقط بالتمام والكمال، وهي مُتَّقدة الحماسة ومليئة بالحيوية، كما أنها جازمة وحازمة بالقدر نفسه. «لا تفعل ذلك يا بيلي، اترك لهم النص برمَّته. إنهم يكرِّسون أموالًا طائلة للفيلم، وسوف يُعيِّنون كاتبًا جيِّدًا للاعتناء بالسيناريو. رُبَّما حتَّى يُفكِّرون في جولدمان».

- «من؟».

- «ويليام جولدمان. الكاتب الجيِّد الوحيد الذي ما زال صامدًا، ويفعل الأمرين بالجودة نفسها».

- «ما الذي تتحدَّثين عنه يا سوزي؟».

قالت له: «جولدمان استطاع الصمود في المهنة، وفي الوقت نفسه استطاع المحافظة على جودة عمله. احتمالات فعل الأمرين معًا تتساوى مع احتمالات التغلُّب على سرطان الرئة. الأمر جائز، لكن من يرغب في محاولته؟ إذا دخلت هذا العالم يا بيل، ستحترق بالجنس والخمر، أو بالمُخدِّرات الجديدة الأنيقة تلك». كانت عيناها البُنِّيتان الرائعتان تلمعان بِشدَّة في وجهه وهي تضيف: «وإذا تبيَّن أن أحمق ما هو من سيتولَّى العمل بدلًا من شخصٍ مثل جولدمان، فما المُشكلة؟ الكتاب موجود على الأرفف في كل مكان، ولا أحد يستطيع تغيير حرف واحد منه».

- «سوزان...».

- «اسمعني يا بيلي! خذ النقود واهرب. أنت يافع وقوي، وهذا ما يحبونه فيك. إذا انخرطت في عالمهم فسيسلبونك احترامك لذاتك في البداية، ثم بعدها قدرتك على كتابةِ سطرٍ واحدٍ مُتَّسق من الألف إلى الياء، وأخيرًا وليس آخرًا، سيسلبونك خصيتيك ويُجرِّدونك من رجولتك. أنت تكتب كالكبار، لكنك مُجرَّد طفل ألمعي حاد الذكاء».

- «يجب أن أذهب يا سوزي».

- «هل ظَرَط أحدهم هنا؟ بالتأكيد يجب أن تذهب لأن ثمَّة شيئًا ما نتن الرَّائحة في الأمر».

- «لا مناص. يتحتَّم عليَّ الذهاب».

- «ربي!».

- «يجب أن أبتعد عن نيو إنجلاند»، قالها وهو خائف ممَّا سيقول بعدها، الأمر بدا كأنه سيلقي بلعنة، لكنه يدين لها بتفسير: «يجب أن أرتحل بعيدًا عن ولاية مين».

- «لماذا بحق الرَّب؟».

- «لا أعرف. لكن يجب أن أذهب».

- «هل تخبرني بأمرٍ حقيقي يا بيلي، أم أنك تتحدَّث ككاتب فحسب؟».

- «لا مزاح».

كانا يتشاركان الفراش في أثناء هذه المحادثة، وكان نهداها صغيرين كخوختين.. عذبين كخوختين. إنه يحبها كثيرًا، لكن ليس بالطريقة التي يعرف كلاهما أنها طريقة جيِّدة حقًّا للحُب. اعتدلت جالسة وقد احتشدت ملاءة الفراش في حجرها، وأشعلت لفافة تبغ. إنها تبكي، لكنه يشك إن كانت تعرف أنه يعرف. إنه فقط ذلك البريق في عينيها. سيكون من الكياسة عدم إخبارها بالأمر؛ لذا لم يفعل. إنه لا يحبها بهذه الطريقة الجيِّدة حقًّا، لكنه يهتم بأمرها كثيرًا جدًّا.

قالت له بصوتٍ عملي جاف وهي تلتفت إليه: «حسنًا، اذهب إذًا. فقط اتَّصل بي حينما تكون مُستعدًّا، وإذا ظلَّت بعض القوَّة داخلك، سآتي وألملم أشلاءك، إذا تبقَّى أيٌّ منها».

سُمِّي الفيلم المأخوذ عن رواية الجنادل السوداء بـ حفرة الشيطان الأسود، وقد أُسند دور البطولة فيه لأودرا فيليبس. كان الاسم سيِّئًا بشكلٍ مروِّع، لكن الفيلم نفسه خرج جيِّدًا حقًّا، وقد كان الشيء الوحيد الذي فقده بيل في هوليوود هو قلبه.

- «بيل».

هكذا نادت عليه أودرا من جديد، مُنتزعة إيَّاه من براثن تلك الذكريات.

لاحظ أنها أغلقت التلفاز، وعندما نظر إلى خارج النافذة وجد أن الضباب يتمرَّغ على زجاجها.

قال لها: «سأشرح لك بقدر ما أستطيع. أنت تستحقين تفسيرًا. لكن أوَّلًا افعلي شيئين من أجلي».

- «حسنًا».

- «صبي لنفسك كوبًا آخر من الشاي، وأخبريني بما تعلمين عَنِّي. أو ما تظنين أنكِ تعلمينه».

نظرت إليه بحيرة شديدة، ثم ذهبت إلى الدولاب الطويل.

قالت له وهي تصب لنفسها بعض الشاي من برَّاد الإفطار: «أعرف أنك من ولاية مين».

لم تكن أودرا بريطانية، لكن ثمَّة نبرة بريطانية طفيفة استطاعت الزحف إلى صوتها.. كشائبة تشبَّثت بأحباله بسبب الشخصية التي تلعبها في فيلم غُرفة العليَّة، وهو الفيلم الذي جاءا إلى هنا لتصويره. هذا هو سيناريو بيل الأصلي الأوَّل المكتوب خصيصًا للشاشة، وقد عُرِضَ عليه تولِّي مسؤولية الإخراج كذلك، لكن حمدًا لله أنه رفض الأمر، لأن رحيله وقتها كان سيُكمل إفساد المَهمة برُمَّتها، وهو يعرف ما سيقوله الجميع عنه.. ها هو بيل دِنبروه يُظهِر معدنه الحقيقي.. مُجرَّد كاتب لعين آخر، أكثر خبالًا من فئران المراحيض.

الرب وحده يعلم كم يشعر بالجنون التام الآن.

- «وأعرف أنه كان لديك أخًا أحببته كثيرًا ثم مات» هكذا واصلت أودرا، «وأعرف أنك نشأت وترعرعت في مدينة تُدعى ديري، وأنك انتقلت إلى بانجور بعد موت شقيقك بعامين، ومنها انتقلت إلى بورتلاند وأنت في الرابعة عشرة من عمرك. أعرف أن أباك مات بسرطان الرئة وأنت في السابعة عشرة.. وأنك كتبت رواية حقَّقت أعلى المبيعات وأنت بعد طالب في الجامعة تشق طريقك بصعوبة بمنحة دراسية ووظيفة بدوام جزئي في مصنع غزل ونسيج. لا بُدَّ أن الأمر كان صادمًا وغريبًا جدًّا بالنسبة إليك... هذا التغيير المُفاجئ في دخلك، وفي الآفاق المستقبلية المُتاحة أمامك».

عادت مرَّة أخرى إلى حيث يجلس، ولمح بيل شيئًا ما في عينيها حينها: لمح إدراكها المُباغت بالفوارق والمسافات الخفية بينهما.

- «أعرف أنك كتبت رواية الجنادل السوداء بعدها بعام، وأنك انتقلت إلى هوليوود، وفي الأسبوع الذي سبق بدء تصوير الفيلم قابلت امرأة مشوَّشة تمامًا تُدعى أودرا فيليبس، لا تعرف سوى أقل القليل عمَّا يمكن أن تكون قد مررت به في حياتك -وعن إحساسك بالتحرُّر الجنوني المُفاجئ من الأعباء الضَّاغطة- لأنها كانت مُجرَّد الحمقاء أودري فيلبوت قبل ذلك بخمس سنوات، وهذه المرأة كانت تغرق...».

- «أودرا، من فضلك...».

ظلَّت عيناها ثابتتين وتُمسكان بنظرته وهي تواصل: «أوه، لِمَ لا؟ لنسرد الحقيقة كاملة ولنخزِ الشيطان. بالفعل كنت أغرق. لقد اكتشفت تعاطي البوبرز[1] قبل أن ألقاك بعامين، وبعدها بعام بدأت في تعاطي الكوكايين، الذي كان أفضل بطبيعة الحال. أبدأ يومي بالخشخاش صباحًا، ثم الكوكايين في الظهيرة، وليلًا الخمر، ثم الڤاليوم قبل النوم. مجموعة ڤيتامينات أودرا الأثيرة إلى قلبها. ثمَّة كثيرٍ من المُقابلات الهامة يجب أن تُجرى.. كثير من الأمور الجيِّدة التي لا تُفوَّت. كنت أشبه إحدى شخصيات روايات چاكلين سوزان بدرجة مُثيرة للشفقة. هل تعلم كيف أتذكَّر هذه الأوقات الآن يا بيل؟».

- «لا».

رشفت أودرا من كوب الشاي دون أن ترفع عينيها عن عينيه، وابتسمت: «كأنني كنت أركض على ممشى مطار لوس أنچلوس. هل تفهمني؟».

- «لا، ليس تمامًا».

- «إنه ممشى كهربائي مُتحرِّك، طوله رُبع ميل».

قال لها: «أعرف الممشى. لكنني لا أفهم ما ترمين إلـ...».

- «كل ما عليك فعله هو الوقوف على الممشى وتركه يحملك طوال

---

(1) نترات البوتيل: عقار معروف تجاريًا باسم بوبرز يُتَعَاطى عن طريق الاستنشاق، ويعد من بين بعض العقاقير المُخدِّرة الأقل خطورة، وذلك لا يعني أنه عديم الخطورة.

الطريق إلى منطقة استلام المتاع. لكنك إذا رغب تستطيع المشي، أو حتَّى الركض. الأمر بالنسبة إليك سيبدو كأنك تسير سَيرَكَ الطبيعي أو تهرول هرولتك الطبيعية أو تركض ركضك الطبيعي أو حتَّى تعدو عدوك الطبيعي، أيًّا كان ما تفعله، لأن جسمك ينسى حقيقة أن ما تفعله بالفعل هو إضافة سُرعتك إلى سُرعة ممشى. لهذا يضعون لافتات قُرب نهايته تقول: ممشى مُتحرِّك، هدِّئ السُّرعة. عندما قابلتك شعرت كأنني كنت أركض فوق هذا الشيء وقد بلغت النهاية وصرت وجهًا لوجه مع أرضٍ ثابتة لم تعد تتحرَّك. هكذا كنت، جسدي يسبق قدميَّ بتسعة أميال. لا يمكنك الحفاظ على اتِّزانك في هذه الحالة، وآجلًا أم عاجلًا ستقع على وجهك.. لكنني لم أقع، لأنك أمسكتني».

أنهت أودرا كلامها ووضعت كوب الشاي جانبًا وأشعلت سيجارة، دون أن تُفارق عيناها عينيه. استطاع أن يلمح رعشة يديها في لحظة خفقان لهب القدَّاحة، الذي طاش في البداية إلى يمين طرف السيجارة، ثم إلى اليسار، قبل أن يلتقطها.

سحبت أودرا نفسًا عميقًا، ونفثت فيضًا كثيفًا من الدُخَّان.

- «ماذا أعلم أيضًا عنك؟ أعلم أن أمرك كله تحت سيطرتك. أعلم ذلك. لم يبدُ عليك قط تعجُّل تناول الشراب التالي، أو حضور الاجتماع التالي، أو زيارة الحفلة التالية. كنت تبدو واثقًا أن كل هذه الأشياء لن تذهب إلى أيِّ مكان... وأنها موجودة إذا رغبت بها. تتحدَّث ببطء. أظنُّ أن جزءًا من هذا يرجع إلى طريقة أهل مين في الكلام، أما معظمه فيرجع إلى طبيعتك. أنت أوَّل رجل قابلته في حياتي لديه الجرأة على التحدُّث ببطء، وقد تحتَّم عليَّ إبطاء وتيرتي للاستماع إليك. لقد نظرت إليك يا بيل ورأيت شخصًا لم يركض قط على ممشى، لأنه واثق من أنه سيحمله حتمًا إلى وجهته. كنت تبدو غير مُتأثِّرٍ قط بضجيج العالم والهستيريا من حولك. لم تُفكِّر قط في ابتياع سيَّارة رولز رويس فخمة لتستطيع قيادة سيَّارة جذَّابة عليها لوحتك المعدنية المصنوعة خِصِّيصًا ظهيرة أيَّام السبت عبر حيِّ روديو درايف الفارِه. لم توظِّف وكيل صحافةً ليدس لك أخبارًا منحولة في مجلة فارايتي أو ذا هوليوود ريبورتر، ولم تَسعَ قط للظهور في برنامج كارسون شو».

قال لها مُبتسمًا: «الكُتَّاب لا يستطيعون الظهور مع كارسون إلا إذا كانوا بارعين في الكوتشينة أو ثني المعالق.. الأمر أقرب لقوانين الولاية».

ظن أنها ستبتسم، لكنها لم تفعل، وواصلت: «أعرف أنك كنت موجودًا عندما احتجت إليك. عندما أتيتك مُحلِّقة عبر نهاية ذلك المسار مثل أوه چاي سيمسون في ذلك الإعلان القديم لشركة هرتز. رُبَّما أنت أنقذتني من تناول حبَّة خاطئة بعد الإفراط في الشراب، ورُبَّما كان في استطاعتي العبور إلى برِّ الأمان وحدي وأن الأمر كله مُبالغة كبيرة مني. لكنني... لا أشعر بالأمر على هذا النحو.. ليس داخلي، حيث توجد ذاتي الحقيقية».

سحبت نفسًا عميقًا من السيجارة، وزفرتْ نفثتيّ دُخان فحسب.

- «أعرف أنك لم تبرح جانبي منذ ذلك الحين، وقد ظللت جانبك بدوري. نحن نستمتع جيِّدًا في الفراش، ولكم كان هذا أمرًا هامًا لي. لكننا أيضًا نستمتع بحق خارجه، والآن هذا يبدو أكثر أهمِّية. أشعر أنني قادرة على التقدُّم في العمر معك وأظل شجاعة. أعرف أنك تحتسي كثيرًا من البيرة، وأنك لا تُمارس تمارينَ كافية.. أعرف أن الكوابيس تعتريك في بعض الليالي...».

تنبَّه بيل فجأة بشكلٍ مروِّع، وبدا مذعورًا تقريبًا.

- «أنا لا أحلم على الإطلاق».

ابتسمت وقالت: «هذا ما تقوله لمُقدِّمي البرامج حين يسألونك من أين تستقي أفكارك. لكنها ليست الحقيقة، إلا إذا كان أنينك ليلًا وأنت نائم مُجرَّد سوء هضم، وأنا لا أُصدِّق هذا يا بيلي».

سألها حذرًا: «هل أتكلَّم؟». لم يكن قادرًا على تذكُّر أيَّ أحلامٍ.. على الإطلاق.. جيِّدة كانت أم سيِّئة.

أومأت أودار برأسها: «أحيانًا، لكنني لم أتمكَّن قط من تبيُّن ما تقول، وقد بكيت مرَّة أو مرَّتين».

نظر بيل إليها نظرةً خاوية. كان يشعر بمرارة كريهة المذاق في فمه، وقد زحفت إلى الخلف عبر لسانه وصولًا إلى حلقه كأنها قرص أسبرين مُرّ يذوب. الآن إذًا تتذوَّق طعم الخوف. إنه وقت الخبرة الحقيقية، إذا أخذنا في

الاعتبار كل ما كتبته عن الخوف، هكذا فكَّر. افترض بيل أن هذا طعم سيعتاده مع مرور الوقت، فقط إذا عاش طويلًا بما يكفي لاعتياده.

فجأة، بدأت الذكريات تحتشد في عقله، كأنها كيسٌ أسود ينتفخ في مؤخِّرة رأسه، مُهدِّدًا بالانفجار وبثِّ...

(أحلام)

... رؤى بغيضة من عقله اللا واعي وإخراجها إلى حيِّز الرؤية العقلية الذي يقع تحت سيطرة عقله الرشيد الواعي. إذا حدث هذا الأمر فجأة، فلسوف يقوده إلى الجنون الفوري. حاول بيل دفع تلك الهواجس بعيدًا، وقد نجح، لكن ليس قبل أن يسمع الصوت... وقد بدا كصوت شخصٍ دُفِنَ حيًّا ويصرخ من باطن الأرض.. كان ذلك صوت إدي كاسبراك.

لقد أنقذت حياتي يا بيل. أولئك الفتية الكبار يقودوني إلى الجنون. أحيانًا أظنُّهم يريدون بالفعل قتلي...

قالت أودرا: «بيل، ذراعيك!».

نظر بيل إلى أسفل نحو ذراعيه. لقد سرت القشعريرة فيهما وانتفخ الجلد عليهما متحوِّلًا إلى جلد إوزَّة. لكن حبوبًا صغيرة لم تغزُ سطح جلده، بل عُقدٍ بيضاء كبيرة كبيض الحشرات. حدَّق كلاهما في المشهد ولم ينبسا ببنت شفة، كأنهما يشاهدان معروضاتٍ نادرة في مُتحفٍ مُثير. مرَّت لحظات، ثم تلاشت القشعريرة ببطء.

قطعت أودرا الصمت الذي تلى ذلك قائلة: «كما أنني أعرف أمرًا آخر.. لقد اتَّصل أحدهم بك منذ قليل من أمريكا وأخبرك أنه يجب عليك الارتحال ومُغادرتي».

نهض بيل من مقعده ونظر إلى زجاجات الخمر، ثم ذهب إلى المطبخ وعاد حاملًا كأس عصير برتقال.

وقال: «أنت تعرفين أن لديَّ أخًا، وتعرفين أنه مات، لكنك لا تعرفين أنه قُتِل».

سحبت أودرا نفسًا خاطفًا من لفافة التبغ.

- «قُتِل! أوَّاه يا بيل، لماذا لم تخبرني من...».

- «أخبرك؟». قالها وضحك بتلك الطريقة العاوية مرَّة أخرى، ثم عقَّب: «لا أعرف».

- «ما الذي حدث؟».

- «كنَّا نعيش في ديري آنذاك. فيضانٌ كبير اجتاح البلدة، وكاد أن ينتهي، لكن چورچ كان يشعر بالسأم، وكنت وقتها متوعِّكًا في الفراش مُصابًا بنزلة إنفلُوَنزَا. طلب مني چورچ أن أصنع له قاربًا من ورق الجرائد، وكنت تعلَّمت الطريقة في أحد أيَّام التخييم قبلها بعام. قال لي إنه سيُبحر به عبر سيل المطر المُنساب بين شارعي ويتشام وچاكسون، لأن الماء كان لا يزال غزيرًا فيهما. لذا صنعت له القارب، وأخذه بعد أن شكرني وخرج إلى الشارع. كانت هذه آخر مرَّة رأيت فيها أخي چورچ على قيد الحياة. إذا لم أكن مُصابًا بالبرد وقتذاك، رُبَّما كنت سأستطيع إنقاذه».

سكت بيل عن الكلام، ورفع راحة يده اليمنى وحكَّ بها خدَّه الأيسر كمن يختبر مدى نموِّ شعر لحيته. عيناه -اللتان ضخَّمتهما عدسات نظَّارته الطبية- بدتا مُستغرقتين في تفكيرٍ عميق... لكنه لم يكن ينظر إليها.

- «وقد حدث ما حدث هناك في نهاية شارع ويتشام، في نقطة قريبة من تقاطُعه مع شارع چاكسون. أيًّا كان كُنه الشَّيء الذي قتله، فقد نزع ذراعه الأيسر بالطريقة نفسها التي ينزع بها طفل جناح ذُبابة. الطبيب الشرعي قال إنه مات إما من الصدمة أو بسبب فقد الدماء. بالنسبة إليَّ، لم يُشكِّل الأمر أدنى فارق».

- «يا للمسيح يا بيل!».

- «أعرف أنكِ تتعجَّبين لماذا لم أُخبرك بالأمر من قبل قط. الحقيقة أنني نفسي أتعجَّب من هذا. ها نحن متزوِّجان منذ أحد عشر عامًا وإلى اليوم أنت لا تعلمين حقيقة ما حدث لچورچي. أنا أعرف كل شيء عن أفراد عائلتك.. حتَّى أعمامك وعمَّاتك. أعرف أن جدك مات في مرأبه في مدينة أيوا عندما كان يعبث بالمنشار الكهربائي وهو ثمل. أعرف هذه الأشياء لأن المُتزوِّجين -مهما كانت درجة انشغالهم- يعلمون كل شيء عن أحدهم الآخر بعد فترة، وإذا شعروا بالسأم وتوقَّفوا عن الاستماع إلى بعضهم بعضًا، فإنهم يتشرَّبون الحقائق تلقائيًّا.. بالخاصية الأسموزية. أم هل تعتقدين أنني مُخطئ؟».

قالت بصوتٍ خافت: «لا. أنت لست مُخطئًا يا بيل».

- «ولطالما اعتدنا أنا وأنت الاستماع أحدنا إلى الآخر، أليس كذلك؟ أعني، لم يصل أحدنا إلى درجة السأم التي تسمح للأسموزية بالعمل في علاقتنا، أليس كذلك؟».

قالت له: «حسنًا، لقد كنت أظنُّ الأمر كذلك حتَّى اليوم».

- «كُفِّي عن هذا يا أودرا. أنت تعرفين كل تفصيلة حدثت لي طوال الأحد عشر عامًا الأخيرة من حياتي. كل صفقة.. كل فكرة.. كل نزلة برد.. كل صديق.. كل شخص أذاني أو حاول. تعرفين أنني نمت مع سوزان براون.. تعرفين أنني أصير جيَّاش العاطفة وأبكي عندما أكون ثملًا وأُشغِّل الأغاني بصوتٍ عالٍ جدًّا».

ردَّت عليه: «خصوصًا أغنيات فرقة جريتفل ديد»، فضحك، وهذه المرَّة بادلته الابتسام.

- «تعرفين أيضًا الأمور الأكثر أهمِّية.. الأشياء التي أطمح لها».

- «نعم، أظنُّ ذلك. لكن هذا الأمر...» قالتها وسكتت لحظة هزَّت فيها رأسها، ثم فكَّرت قليلًا قبل أن تقول: «إلى أيِّ مدى ترتبط هذه المُكالمة التي استلمتها بشقيقك يا بيل؟».

- «دعيني أسرد الأمر على طريقتي. لا تتعجَّليني إلى منتصفه وإلا سينعقد لساني. ما وقع قديمًا لهو أمرٌ جلل... و... ومروِّع إلى حدٍ عصيٍّ على التصوُّر... وأنا أحاول نوعًا التسلُّل ببطء إليه. كما ترين... فلم يخطر ببالي قط أن أُخبرك بأمر چورچي».

نظرت إليه بجبينٍ مُقطب، وهزَّت رأسها بخفوت.. لسان حالها يقول: لا أفهم حرفًا.

- «ما أحاول أن أقوله لكِ يا أودرا هو أنني لم أُفكِّر في چورچ منذ أكثر من عشرين عامًا».

- «لكنك أخبرتني أنه كان لديك أخ اسمه...».

قاطعها قائلًا: «كنت أُكرِّر حقيقة فقط لا غير. اسمه مُجرَّد كلمة.. كلمة لا تُلقي أيَّ ظلالٍ في عقلي».

قالت أودرا: «لكنني أظنُّها تُلقي ظلالًا على أحلامك». كان صوتها خفيضًا تمامًا وهي تتفوَّه بالعبارة.

- «تقصدين الأنين؟ البُكاء؟».

أومأت أودرا برأسها.

قال لها: «رُبَّما تكونين مُحِقَّة.. بل أنت على حقٍ بكل تأكيد في الواقع. لكن الأحلام التي لا يتذكَّرها المرء لا يعوَّل عليها حقًّا، أليس كذلك؟».

- «هل تخبرني أنك بالفعل لم تُفكِّر فيه قط طوال هذه السنين؟».

- «نعم، لم أفعل».

هزَّت أودرا رأسها مُعلنة صراحةً عدم تصديقها: «ولا حتَّى بالطريقة الشنيعة التي مات بها؟».

- «ليس إلى اليوم يا أودرا».

نظرت إليه طويلًا وهزَّت رأسها مرَّة أخرى.

- «لقد سألتيني قبل زواجنا إن كان لديَّ إخوة أو أخوات، وقد أجبتك وقتها أنه كان لديَّ أخ مات عندما كنت طفلًا. كما علمتِ أن أبويَّ رحلا بُدَورهما، وقد كانت لديك عائلة كبيرة جدًّا استطاعت احتلال مجال اهتمامك بالكامل. لكن هذا ليس كل شيء».

- «ماذا تقصد؟».

- «ليس چورچ وحده من سقط في ذلك الثُّقب الأسود في ذاكرتي. أنا لم أُفكِّر في ديري ذاتها طوال عشرين عامًا، ولا في رفقة الصبا برُمَّتها.. إدي كاسبراك، وريتشي الببَّغاء، وستان يوريس، وبيڤ مارش...» توقَّف هنيهة مرَّر فيها أصابعه بين خصلات شعره وضحك مُهتزًّا، ثم أضاف «الأمر يشبه حالة فقدان ذاكرة كاملة لدرجة ألَّا تعرفين أنك أُصبت بفقدان ذاكرة من الأساس، وعندما اتَّصل مايك هانلون...».

- «من مايك هانلون؟».

- «صبي آخر كنا نتسكَّع معه، صار صديقي بعد موت چورچي، بالطبع هو لم يعد طفلًا الآن، كلنا لم يعد كذلك. هذا الذي هاتفني من الطرف الآخر من المحيط الأطلنطي هو مايك، وقد قال: 'ألو، هل هذا محل إقامة آل دِنبروه؟'.

فأجبته أن نعم، فقال لي: 'بيل؟ أهذا أنت؟'. فقلت له نعم، فقال لي: 'أنا مايك هانلون'. تصوَّري يا أودرا أن الاسم لم يعنِ شيئًا لي. قد يكون اسمًا لشخص يبيع موسوعاتٍ أو أُسطُوانات بيرل آيفز، لا فارق. ثم قال لي: 'مِن ديري'، وعندما لفظ الكلمة بدا وكأن بابًا داخلي قد انفتح على مصراعيه ومن خلاله سطع ضوءٌ رهيب ما، وتذكَّرت على الفور من هو، وتذكَّرت چورچي.. والآخرين جميعًا. كل هذا حدث هكذا...».

قالها بيل مُطرقعًا بإصبعيه.

ثم أردف سريعًا: «وعندها أدركت أنه سيطلب مني العودة».

- «العودة إلى ديري».

- «نعم»، قالها ونزع نظَّارته، وفرك عينيه، ثم نظر إليها. لم ترَ في حياتها رجُلًا يبدو عليه كل هذا القدر من الذُعر، «العودة إلى ديري لأننا قطعنا وعدًا، هكذا قال. لقد فعلنا ذلك حقًّا.. جميعنا. النسخة الصبية مننا، وقف سبعتنا في ذلك الجدول الذي يجري عبر البرِّية، وشبَّكنا أيدينا في دائرة مُغلقة، وقطعنا كفوفنا بقطعة زجاج كأننا صبية يلعبون إخوة الدَّم، فقط كان الأمر حقيقيًّا معنا».

رفع بيل راحتي كفَّيه ليريهما لها، وفي منتصف كلٍ منها استطاعت رؤية مجموعة خطوط بيضاء مُتقاربة تبدو كآثار ندوب. لقد أمسكت بيده -كلتا يديه ف الواقع- مرَّاتٍ لا حصر لها، لكنها لم تلحظ قط تلك الندوب على راحتيه من قبل. أجل إنها باهتة، لكنها تؤمن بأنها...

وماذا عن الحفلة! تلك الحفلة!

ليست الحفلة التي تقابلا فيها، رغم أن هذه شكَّلت تتمَّة مثالية للحفلة الأولى، لأنها كانت حفلة انتهاء التصوير التي أُقيمت آخر يوم لفيلم حفرة الشيطان الأسود. كانت حفلة صاخبة عربيدة، كما هو الحال دائمًا في الحفلات في جادة أخدود توبانجا. لكنها رُبَّما أقل جموحًا من بعض الحفلات الأخرى التي دُعيَت إليها في لوس أنچلوس، لأن التصوير سار بشكلٍ أفضل ممَّا توقَّع أحدٌ، وقد كان جميعهم يعلم هذا. أما بالنسبة إلى أودرا فِيلبيس، فقد كان الأمر أفضل بكثير حتَّى، لأنها وقعت في حب ويليام دِنبروه.

ما كان اسم قارئة الكف المزعومة تلك؟ لا تستطيع التذكُّر الآن، كل ما تذكُره أنها كانت إحدى مُساعدات ماكيير الفيلم. تذكَّرت أودرا كيف خلعت الفتاة بلوزتها في لحظةٍ ما من الحفلة (كاشفة عن سوتيان شفَّاف تمامًا تحتها)، وكيف ربطتها على رأسها كوشاح الغجريات، وكيف أخذت تقرأ الطالع مِن كفوف الموجودين للبقية الباقية مَن الحفلة وهي مُنتشية بالخمر والماريجوانا، أو على الأقل إلى أن سقطت مغشيًا عليها.

لم تكن أودرا تتذكَّر الآن ما إذا كان تبصُّر الفتاة جيِّدًا أم رديئًا، بارعًا أم بليدًا، فقد كانت مُنتشية هي الأخرى في تلك الليلة. ما تذكره أنه عند نقطة مُعيَّنة أمسكت الفتاة بكفِّ بيل وكفِّها وأعلنت أنهما يتوافقان معًا على نحوٍ تام. قالت إنهما توأمان روحيان. تستطيع أودرا تذكُّر مُراقبتها للفتاة -شاعرة بغيرة كبيرة- وهي تتتبَّع بأظافر أصابعها المطلية بشكلٍ رائع الخطوط على كفِّ بيل. كم كانت بلهاء لتشعر بمثل هذه الغيرة في مُجتمع صناعة السينما غريب الأطوار في لوس أنچلوس، حيث يُربِّت الرجال على أرداف النساء بالأريحية ذاتها التي ينقر بها الرجال ذقنهم في نيويورك! كان ثمَّة أمرٌ حميميٌّ عالقٌ بذاكرتها بخصوص ذلك التتبُّع الدقيق.

لم توجد ندوبٌ بيضاء صغيرة على كفِّ بيل آنذاك.

لقد كانت ترمق هذه التمثيلية الهزلية بعيني عاشقة غَيُّورة، وهي مُتأكِّدة تمامًا من صحة الذكرى.. مُتأكِّدة تمامًا من هذه الحقيقة القاطعة.

هذا ما قالته لبيل الآن.

أومأ برأسه قائلًا: «أنت مُحقَّة. لم تكن موجودة آنذاك، ورغم أنني لا أستطيع أن أُقسم على الأمر، لكنني لا أظنُّ أنها كانت موجودة الليلة الماضية في ملهى بلو أند بارو، حيث كنت ورالف نتبارى مُجدَّدًا في صراعٍ بالأيدي على البيرة، كنت سألاحظ الأمر».

سكت لحظة وابتسم لها. كانت البسمة جافَّة، ومذعورة، وتفتقر إلى روح الدعابة.

ثم قال: «أظنُّ أنها عادت مع مُكالمة مايك هانلون. هذا ما أظنُّه».

قالت أودرا وهي تمدُّ يدها إلى سجائرها: «بيل، هذا غير مُمكن».

كان بيل ينظر إلى يديه، وقال: «كان ستان هو من فعلها.. من قطع كفوفنا بشظية زُجاج فِضِّية من زُجاجة كولا. أستطيع تذكُّر الأمر بوضوح تام الآن» ثم رفع بصره إلى أودرا، ومن خلف نظَّارته بدت عيناه مُوجعة وحائرة وهو يقول «أتذكَّر الطريقة التي لمعت بها قطعة الزجاج تلك في وهج الشمس. كانت واحدة من الزُجاجات الجديدة الشفَّافة. قبل ذلك، كانت زجاجات الكولا خضراء اللون، هل تذكُرين ذلك؟». أومأت أودرا برأسها لكنه لم يرها، كان لا يزال مُستغرقًا في تأمُّل راحتيه. «أتذكَّر أن ستان آخر من قطع يديه، مُتظاهرًا أنه ينوي قطع شرايين معصمه بدلًا من إحداث قطعٍ صغير في راحتيه. كانت مُزحة منه على ما أظنُّ، لكنني بالكاد اندفعت نحوه... لأمنعه.. لأنه للحظة بدا جادًّا».

- «بيل، توقَّف...» هكذا صاحت أودرا بصوتٍ ضعيف. هذه المرَّة وهي تُشعِل سيجارتها اضطُرَّت لتثبيت القدَّاحة في يدها اليُمنى بالإمساك بمعصمها باليد اليسرى، كشُرطيٍّ يُثبِّت مُسدَّسًا على على الهدف «...الندوب لا تعود بعد تلاشيها. هي إما موجودة من الأساس أو لا».

- «هل رأيتيها من قبل، هه؟ أهذا ما تحاولين قوله لي؟».

قالت أودرا بحدَّة أكثر ممَّا اعتزمت: «إنها باهتة جدًّا».

قال لها: «كلنا نزفنا.. كُنَّا نقف في دائرة وسط الماء ليس ببعيدٍ عن المكان الذي بنينا فيه أنا وإدي كاسبراك وبن هانسكوم السَّد في تلك المرَّة التي...».

- «أنت لا تقصد بن هانسكوم المُهندس المعماري، أليس كذلك؟».

- «أيوجد واحدٌ بذلك الاسم؟».

- «بربك يا بيل، إنه من شيَّد مركز اتِّصالات شبكة بي بي سي! الناس هنا ما زالوا يتجادلون ما إذا كان البناء حُلمًا تجسَّد أم مأساة».

- «لا أعلم إن كان الشخص نفسه أم لا. الأمر يبدو بعيد الاحتمال، لكنني أظنُّه مُمكنًا. بن الذي عرفته كان بارعًا في بناء وصنع أشياء. جميعنا وقف هناك في دائرة.. كنت أمسك بيدِ بيف مارش اليُسرى في يدي اليُمنى، ويد ريتشي توزييه اليُمنى في يدي اليُسرى، وقفنا هناك وسط الماء كأننا في مراسم تعميد

بروتستانتية جنوبية كالتي تُعقد بعد الخروج من خيمة الاجتماع[1]، وأتذكَّر أنني استطعت رؤية ماسورة بُرج مياه ديري تلوح في الأُفُق. كانت تبدو بنصوع بياض ثياب رؤساء الملائكة كما نتصوَّرها.. وأقسمنا.. أقسمنا أنه إذا لم يكن الأمر قد انتهى، أو إذا بدأ في الحدوث مرَّة أخرى في أيِّ وقتٍ... فسنعود.. وسنفعلها من جديد.. وسنوقفه.. إلى الأبد».

صرخت أودرا، وقد انفعلت عليه فجأة: «توقفون ماذا؟ توقفون ماذا؟ ما الذي تتحدَّث عنه بحق الجحيم؟».

قال بيل: «كنت أتمنَّى ألا تـ-تـ-تسألي...»، وتوقَّف. شاهدت أودرا تعبيرَ رُعبٍ حائر ينتشر على قسمات وجهه كبقعة زيت، ثم قال لها: «ناوليني سيجارة».

مرَّرت أودرا العلبة إليه، فأشعل واحدة. لم تألفه أودرا مُدخِّنًا من قبل قط.

- «كنت صبيًا مُتلعثمًا أيضًا».

- «تقصد كنت تُتأتِئ؟».

- «أجل، في ذلك الوقت. لقد قُلتِ إنني الرَّجُل الوحيد في لوس أنچلوس الذي يجرؤ على التحدُّث ببطء. الحقيقة هي أنني لا أجرؤ على التحدُّث بسرعة. الأمر ليس طبيعة شخصية، ولا تأنيًا، ولا حكمة. كل المتعافين من اللعثمَّة يتحدَّثون ببطءٍ شديد. إنها إحدى الحيل التي يتعلَّمها المرء، مثل التفكير في اسمك الأوسط قبل أن تُعرِّف نفسك إلى أحدهم، لأن المُتلعثمين يواجهون صعوبة مع الأسماء أكثر من أيِّ كلمات أخرى، وأكثر كلمة في اللغة تُشكِّل أمامهم أكبر عائقٍ هي اسمهم الأوَّل نفسه».

- «مُتلعثم». قالتها أودرا وابتسمت ابتسامة صغيرة، كأنها سمعت نُكتة ولم تفهم مقصدها.

قال بيل: «ظلَّت لعثمتي مُعتدلة إلى أن مات چورچي». أدرك بيل أنه بدأ الآن بالفعل يسمع الكلمات مُضاعَفة داخل عقله، كما لو أنها لا تتزامن

(1) نواة الكنيسة في العقيدة المسيحية. تُشير الخيمة إلى جسد السيِّد المسيح الذي تجسد ليجتمع بالبشر ويوحِّدهم فيه.

بعضها مع بعض. كانت تخرج من فمه بسلاسة، بطريقته المتروِّية الإيقاعية المُعتادة، لكن في عقله بدأ يسمع كلمات مثل چورچي ومُعتدلة مُتداخلة، لتصير چـ-چـ-چورچي ومُـ-مُـ-مُـعتدلة.

- «أعني، لقد مررت بلحظات سيِّئة حقًّا، عادةً عندما كان يُطلب مني الوقوف والتحدُّث في الفصل، وخصوصًا إذا كنت أعلم الإجابة وأرغب في الإدلاء بها، لكنني في الغالب كنت أتجاوز الأمر. بعد موت چورچ، ساء الأمر واستفحل كثيرًا. ثم بدأت الأمور تتحسَّن مرَّةً أخرى في سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة. ذهبت إلى ثانوية شيڤروس في بورتلاند، وكانت ثمَّة أخصَّائية نُطق ولُغة رائعة جدًّا تُدعى مسز توماس، وقد علَّمتني بعض الحيل الجيِّدة كالتفكير في اسمي الأوسط قبل أن أصيح على الملأ: 'مرحبًا، اسمي بيل دِنبِروه'، وقتها كنت أدرس مُقدِّمة إلى اللغة الفرنسية، وقد علَّمتني مسز توماس الانتقال إلى الفرنسية إذا تعثَّرت بشدَّة في كلمة ما. أخبرتني إذا وجدت نفسي واقفًا في مكاني شاعرًا بأنني أكبر أحمق في العالم، ولا أكف عن ترديد 'هـ-هـ-هـ-هذا الكتـ-الكتـ-الكتـ-الكتـ...' مرارًا وتكرارًا كأُسطُوانة مشروخة، أن أنتقل إلى الكلام بالفرنسية، وعندها سأجد عبارة ce livre تتدفَّق على لساني، وقد نجح الأمر في كل مرَّة. ثم قالت لي بمُجرَّد نُطقك للكلمة بالفرنسية يمكنك العودة إلى الإنجليزية مرَّة أخرى وقول 'هذا الكتاب' بلا أيِّ مُشكلة على الإطلاق، وإذا تلعثمت في كلمة تبدأ بحرف السين كسفينة أو سيف أو سمكة، فانطقها ملثوغة: ثفينة.. ثيف.. ثمكة.. ولن تتلعثم».

«كل هذا ساعدني، لكن العامل الجوهري كان نسيان ديري وكل ما حدث بها. لأن هذا الوقت هو الذي وقع فيه السلوان، مع انتقلنا للعيش في بورتلاند وفي أثناء فترة ارتيادي ثانوية شيڤروس. لم أنس كل شيء دفعة واحدة بالطبع، لكن مع إعادة النظر الآن، أجد نفسي مُضطرًّا للاعتراف بأن الأمر حدث خلال فترة زمنية وجيزة جدًّا. رُبَّما لم تتخطَّ أربعة أشهر، ذابت فيها لعثمتي وذكرياتي معًا، مثلما يمسح أحدهم السبُّورة لتتلاشى كل القوانين والمُعادلات المكتوبة عليها بلا رجعة».

أنهى بيل كلامه وجرع ما تبقَّى من عصير البرتقال، ثم أردف: «عندما تلعثمت في كلمة 'تسألي' منذ لحظات، تلك كانت المرَّة الأولى التي يحدث فيها الأمر رُبَّما منذ واحد وعشرين عامًا».

قالها وأمعن النظر إليها.

- «في البداية الندوب، وبعدها اللـ-لعثمَّة. هل تـ-تسمعينها؟».

قالت أودرا وهي تشعر بخوفٍ شديد: «أنت تفعلها عمدًا!».

- «لا والله. أظنُّ أنه ليس ثمَّة وسيلة لإقناع شخص بهذا، لكنها الحقيقة. اللعثمَّة أمرٌ غريب يا أودرا، ومُخيف. من ناحية لا يدرك المرء حدوثها من الأساس، لكنها أيضًا شيء تستطيعين سماعه داخل عقلك. كأن جزءًا من رأسك يسبق بقيته بلحظة، مثل أنظمة التردُّد التي اعتاد أن يضعها الفتية في سيَّاراتهم في الخمسينيات، عندما كان الصوت يخرج من السمَّاعة الخلفية بـ-بعد الصوت الخارج من السـ-سمَّاعة الأمامية بجزءٍ من الثانية».

نهض بيل وسار بلا هوادة عبر الغرفة. كان يبدو عليه التعب، وفكَّرت أودرا ببعض القلق في مدى جَدِّه في العمل على مدار الثلاث عشرة سنة الماضية أو نحو ذلك، كما لو أن العمل بشراسة ودون توقُّف تقريبًا سيُمكِّنه من تعويض موهبته المتوسِّطة، وجدت أودرا نفسها أسيرة فكرة غير مُريحة تمامًا وحاولت إبعادها عنها، لكنها أبت أن ترحل. ماذا لو أن المُكالمة التي تلقَّاها بيل كانت في الحقيقة من رالف فوستر الذي يدعوه إلى ملهى بلو أند بارو لقضاء ساعة في المُصارعة بالأيدي أو لعب الطاولة، أو رُبَّما هي من فريدي فايرستون منتج فيلم غُرفة العليَّة، الذي يريده بخصوص مشكلةٍ ما أو بأخرى؟ قد تكون أيضًا «رنَّة خاطئة» كما اعتادت زوجة الطبيب بريطانية اللكنة التي تقطن ذكرياتها البعيدة أن تقول واصفة المُكالمة الخاطئة.

إلي أين تقود هذه الأفكار؟

حسنًا.. إلى أن كل هذا الكلام عن ديري ومايك هانلون لا يعدو كونه مُجرَّد هلوسة.. هلوسة سببها بوادر انهيارٍ عصبي وشيك.

لكن ماذا عن الندوب يا أودرا.. كيف ستُفسِّرين هذه الندوب؟ إنه على

حق. هذه الأشياء لم تكن موجودة من قبل... والآن صارت موجودة. تلك الحقيقة، وأنت تعلمين ذلك.

قالت له: «أكمل.. من قتل أخاك چورچ؟ ماذا فعلت أنت وأولئك الصبية؟ عمَّ كان هذا الوعد؟».

اقترب بيل منها، وركع على ركبتيه كعاشق قديم الطراز على وشك التقدُّم بطلب زواج، وأمسك يديها.

قال لها بنعومة: «أظنُّ أنني أستطيع إخبارك. أظنُّ أنني إذا رغبت حقًّا في الأمر فسأستطيع. أنا لا أتذكَّر مُعظم ما جرى، لكن بمُجرَّد ما بدأت بالكلام بدأت أتذكَّر. أستطيع الشعور بما تفعله تلك الذكريات الآن... إنها تنتظر أن تولد. إنها مثل سُحُبٍ مُحمَّلة بالمطر، فقط هو مطرٌ قذرٌ جدًّا. النباتات التي ستنمو بعد هطول مطرٍ كهذا ستنمو لتصير وحوشًا. رُبَّما سأستطيع مواجهة الأمر مع الآخرين...».

– «هل يعلمون؟».

– «مايك قال إنه هاتفهم، ويظن أنهم جميعًا سيعودون... رُبَّما باستثناء ستان. فقد قال لي إن صوت ستان بدا له غريبًا».

– «كل هذا يبدو غريبًا بالنسبة إليَّ يا بيل. أنت تُخيفني بدرجة كبيرة جدًّا».

قال لها «معذرة» ثم قبَّلها. بدا لها الأمر كأنها تتلقَّى قُبلة من شخصٍ غريب عنها تمامًا، ووجدت نفسها تكره هذا الرَّجُل الذي يُدعى مايك هانلون بجنون.

– «لقد ظننت أنني مدين لك بتفسير أكبر قدر ممكن. ظننت أن هذا سيكون أفضل من التسلُّل خلسةً في عمق الليل. أظنُّ أن بعضهم فعل هذا. لكنني يجب أن أرحل، وأظنُّ أن ستان سيكون موجودًا، بغض النظر عن مدى الغرابة التي استشعرها مايك في صوته. أو رُبَّما أنا أقول هذا لأنني لا أتصوَّر إحجامي عن الذهاب أنا نفسي».

– «بسبب أخيك؟».

هزَّ بيل رأسه ببطء: «يمكنني أن أُريح نفسي وأقول هذا لكِ، لكن هذه ستكون كذبة. لقد أحببته. أعرف كم يبدو هذا غريبًا إليك الآن بعدما أخبرتك

أنني لم أُفكِّر فيه قرابة عشرين عامًا أو نحو ذلك، لكنني بالفعل أحببت هذا الصغير بجنون» قالها وابتسم قليلًا، قبل أن يردف: «كان مُزعجًا، لكنني أحببته. هل تفهمين ما أقصد؟».

أومأت أودرا التي كانت لها شقيقة أصغر منها برأسها وقالت: «أفهم».

– «لكن الأمر لا يتعلَّق بچورچ. لا أستطيع تفسير الأمر لكِ. أنا...».

ثم نظر خارج النافذة نحو ضباب الصباح.

– «أشعر بذلك الشعور الذي لا بُدَّ أن الطيور تستشعره عندما يأتي الخريف... بطريقةٍ ما تشعر أنه يتحتَّم عليها العودة إلى وطنها. إنها الغريزة يا طفلتي... وأظنُّ أنني أؤمن بأن الغريزة هي الهيكل الحديدي الصلب خلف كل أفكارنا عن الإرادة الحُرَّة. ثمَّة أشياء ليس في مقدور المرء رفضها، إلا إذا كان ينوي الانتحار بعادم سيَّارته أو بوضع بندقية في فمه أو إلقاء نفسه إلى البحر. أحيانًا لا يُمكنك رفض الخيار لأنه لا يوجد خيار من الأساس. أحيانًا لا يكون في مقدورك إيقاف أمر عن الحدوث أكثر من قدرتك على الوقوف في ملعب بيسبول بمضرب في يدك والسماح لكرة سريعة بضربك. يجب أن أرحل يا أودرا. هذا الوعد الذي قطعته... عالق بعقلي كسنَّارة صـ–صـ–صيد».

نهضت أودرا وسارت إليه بحذر. كانت تشعر بأنها هشَّة تمامًا، وأنها على وشك التكسُّر، وضعت ذراعها على كتفه وأدارته إليها.

– «خذني معك إذًا».

الذُعر الذي تجلَّى على وجهه في هذه اللحظة –ليس منها بل عليها– بدا مكشوفًا وعاريًا لدرجة روَّعتها وجعلتها تتراجع إلى الوراء، وهي تشعر بخوفٍ خالصٍ مُقطَّر للمرَّة الأولى في حياتها.

قال لها: «لَا، لا أظنُّ ذلك يا أودرا. لا تُفكِّري حتَّى في الأمر. لن أدعك تقتربين مسافة ثلاثة آلاف ميل من ديري من الأساس. أعتقد أن ديري ستكون وجهة مروِّعة خلال الأسبوعين القادمين. ستلزمين مكانك هنا وتواصلين العمل، وتختلقين كل الأعذار الممكنة لغيابي. عِديني بذلك الآن يا أودرا!».

سألته دون أن تُفارق عيناها عينيه: «هل يجب أن أعدك؟ حقًّا يا بيل؟».

- «أودرا...».

- «حقًّا؟ لقد قطعت أنت نفسك وعدًا، وانظر إلام ورَّطك، وورَّطني بدوري بما أنني زوجتك وحبيبتك».

عَنِفَت قبضته على كتفيها ما جعلها مؤلمة، وقال لها: «عديني! عـ-عديني! عـ-عـ-عـ-عـ-عـ-».

لم تتمكَّن أودرا من تحمل أكثر من هذا. لقد علقت الكلمة حلقه كسمكة تُصارع وتتلوَّى، فانفجرت باكية وهي تقول: «أعدك، هل استرحت؟ أعدك! أتشعر بالسعادة الآن؟ يا للمسيح! أنت مجنون، الأمر برُمَّته جنون مطبق، لكنني أعدك».

وضع بيل ذراعه حولها وقادها إلى الأريكة، وأحضر لها كأسًا من البراندي. رشفت منه أودرا، وهي تحاول السيطرة على نفسها رويدًا رويدًا.

- «متى سترحل إذًا؟».

قال لها: «اليوم، سأركب الكونكورد. أظنُّ أنني بالكاد سأتمكَّن من اللحاق بها إذا ذهبت إلى مطار هيثرو بالسيَّارة بدلًا من ركوب القطار. فريدي أخبرني أنه يريد مني الوجود في موقع التصوير بعد الغداء، اذهبي أنت في ميعادك الساعة التاسعة، وكأنكِ لا تعلمين شيئًا، هل تفهمين؟».

أومأت برأسها مُتردِّدة.

- «سأكون في نيويورك قبل وقوعِ أيِّ شيءٍ غريب، وسأتمكَّن من الوصول إلى ديري مع غروب الشمس، باستخدام بعض عـ-عـ-علاقاتي هناك».

سألته بصوتٍ خافت: «ومتى سأراك مُجدَّدًا؟».

وضع بيل ذراعها عليها وضمَّها إلى صدره بقوَّة، لكنه لم يجب عن هذا السؤال قط.

ديري: الفاصل الأوَّل

«كم من عين بشريَّة... اختلست النظر لتركيبها التشريحي المُستغلق ذاته على مرِّ السنين؟».

- كلايف باركر، كُتُب الدَّم

المقطع أدناه، وكل المقاطع الأخرى المعنونة بالفواصل، مأخوذة من كتاب «ديري: تاريخ البلدة المحظور»، بقلم مايك هانلون. هذه مجموعة مُذكِّرات لم تُنشر، مصحوبة بأجزاءٍ من مخطوطة مُرافقة (كُتبت في الغالب كخواطر في مُفكِّرة يومية) عُثر عليها في قبو مكتبة ديري العامة. العنوان المُعيَّن هو ذلك المكتوب على غُلاف الملف الذي حُفظت بداخله هذه الأوراق المُنفرطة قبل نشرها هنا، بينما الكاتب أشار إلى العمل أكثر من مرَّة في تدويناته الشخصية بـ «ديري: نظرة عبر باب الجحيم الخلفي»، ويبدو من الواضح أن فكرة النشر على نطاق واسع قد فعلت ما هو أكثر من عبور عقل السيِّد هانلون.

2 يناير، 1985

هل يُمكن لمدينة بأسرِها أن تكون مسكونة؟

مسكونة بالطريقة التي يُشاع أن بعض البيوت تُسكن بها؟

أنا لا أتحدَّث عن مبنى واحد في تلك المدينة، أو عن زاوية في أحد شوارعها، أو عن ملعب كُرة سلَّة في حديقة عامة صغيرة بها؛ حيث يبرز مرمى السلَّة منزوع الشبكة وقت الغروب كأداة تعذيب غامضة ووحشية. لا أتحدَّث عن منطقة واحدة فحسب، بل عن كل شيءٍ فيها.. وجودها الكامل ذاته.

هل هذا مُحتمل؟

استمع إلى الآتي[1]:

مسكون: «مكان تتردَّد عليه الأرواح والأشباح بشكل مُتكرِّر». قاموس فانك أند واجنلز.

هَوَس: «فكرة تراود العقل مرارًا وتكرارًا، من الصعب نسيانها». المصدر نفسه.

حضور: «أن تظهر أو تُعاود الظهور، خاصةً كشبح»، لكن استمع إلى هذا التعريف الآخر! «مكان يُزار بشكل متُكرِّر: مُنتجع. عرين. استراحة»، الأحرف المائلة من عندي بالطبع.

وإليك تعريف آخر؛ هذا مثل سابقه تعريف آخر للسكن كعرين أو منطقة نفوذ، وهو التعريف الذي يُخيفني حقًّا: «مكان ترتاده المُفترسات للغذاء».

مثل الحيوانات التي أوسعت أدريان ميلون ضربًا وألقته من فوق الجسر؟

مثل البهيمة التي كانت تنتظر أسفل الجسر؟

مكان ترتاده المُفترسات للغذاء.

ما الذي يتغذَّى في ديري؟ ما الذي يتغذَّى على ديري؟

أتعرف يا عزيزي القارئ أن الأمر مُثيرٌ للاهتمام نوعًا. لم أكن أعلم أنه من المُمكن لرجل أن يُصاب بقدر الذُعر الذي أُصِبتُ به منذ موضوع أدريان ميلون ويظلّ حيًّا، هذا فضلًا عن قدرته على العمل بكفاءة بعدها.

الأمر يبدو كأنني سقطتُ في براثن قِصَّة.. وكل الناس تعلم أن المرء لا يُفترض أن يشعر بهذا القدر من الرعب إلا في نهاية القِصَّة، عندما يخرُج ساكن الظلام أخيرًا من مكمنه في اللا مكان ليتغذَّى... يتغذَّى عليك بالطبع. عليك!

لكن إن كانت هذه قِصَّة، فهي ليست واحدة من قصص الرعب الأيقونية

---

(1) يستخدم ستيڤن كينغ هنا المعاني المختلفة لمُشتقَّات كلمة Haunt في اللغة الإنجليزية، كـ Haunted وHaunting وTo haunt بالإضافة إلى Huant كاسم. تعطي الكلمة معاني مُختلفة تتعذَّر ترجمتها بكلمة واحدة في العربية ثم الاشتقاق منها، لذا وجب استخدام كلمات متعددة.

التي كتبها لافكرافت أو برادبوري أو بو. أنا أعلم أمورًا كما ترى... ليس كل شيء بالطبع، لكنني أعلم الكثير. لكن الذُعر لم يبدأ في الاستحواذ عليَّ عندما فتحت جريدة أخبار ديري في أحد أيَّام سبتمبر الماضي، وقراءة نص جلسة الاستماع الأوَّلية لذلك الصبي آنوين، وإدراكي أن المُهرِّج الذي قتل چورچ دِنبروه رُبَّما يكون قد عاد مرَّة أخرى. لقد بدأ الأمر في الحقيقة قُبيل عام 1980، أظنُّ أن ذلك هو الوقت حين استيقظ جزء مني كان نائمًا منذ فترة طويلة... عالمًا أن عهد الشَّيءِ رُبَّما يكون قد حان من جديد.

أيُّ جُزء مني هذا الذي استيقظ؟ أظنُّه العسَّاس.

أو قد يكون ما أيقظني هو عقيرة السُلحفاة. أجل... بالأحرى هو ذلك. أعلم أن هذا ما كان بيل دِنبروه سيُؤمن به ويُصدِّقه.

لقد اكتشفت أخبار عن أهوالٍ عتيقة في كُتُبٍ عتيقة، وقرأت عن فظائع وحشية قديمة في دوريَّاتٍ وجرائد قديمة. كنتُ أسمع -دائمًا في مؤخِّرة عقلي- طنين محارة خاوية يتعالى كل يوم عن سابقه في قوَّة مُتزايدة، وبدا أنني قادرٌ على شم رائحة الأوزون المريرة لصواعق العاصفة الآتية. بدأت أدوِّن مُلاحظاتٍ لكِتَابٍ يكاد يكون من المُؤكَّد أنني لن أعيش فترة كافية لكتابته، وفي الوقت نفسه واصلت أمور حياتي العادية. في مستوى ما من عقلي، كنت أعيش أكثر الأهوال بشاعةً وغِلظة، بينما في مستوى آخر استمررت في عيش الحياة العادية لأمين مكتبة في مدينة صغيرة. أعيد الكتب إلى رفوفها. استخرج بطاقات استعارة للزوُّار الجُدد. أتأكَّد من غلق أجهزة المايكروفيلم التي يتركها بعض المُستخدمين المُهملين لا تزال تعمل. أُمازح كارول دانر حول رغبتي العارمة في الذهاب معها إلى الفراش، وتُمازحني في المقابل حول رغبتها العارمة في الذهاب معي إلى الفراش، وكلانا يعلم أنها تمزح حقًّا، بينما أنا لا.. تمامًا كما يعلم كلانا أنها لن تمكث في بلدة صغيرة كديري فترة طويلة، وأنني سأظل هنا حتَّى أموت.. أتصفَّح أوراق مجلة بيزنيس ويك المُهترئة، وأجلس في اجتماعات الحيازة الشهرية مُمسكًا بغليوني في يدٍ وبكومة من مجلَّات المكتبة في الأخرى... وأسير ليلًا بقبضتيَّ مُحكمتين على فمي لأُبقي على الصرخات داخلي.

يبدو أن أعراف وتقاليد الحكايات القوطية التي سمعناها كلها خاطئة. فشعري لم يشب، ولم أمشِ نائمًا، ولم أبدأ في الإدلاء بتعليقاتٍ مصيرية غامضة، أو الاحتفاظ بتميمة على الدوام في جيب معطفي الرياضي. كل ما في الأمر أنني أضحك أكثر من اللازم قليلًا، وأحيانًا لا بُدَّ أن الأمر يبدو غريبًا ومُزعجًا نوعًا ما، لأنني أحيانًا أجد الناس ينظرون إليَّ مُتعجِّبين عندما أضحك.

جُزءٌ مني -وهو الجُزء الذي كان سيدعوه بيل بعقيرة السُلحفاة- يُخبرني أنه يجب عليَّ الاتِّصال بهم جميعًا الليلة. لكن هل أنا -في لحظتنا هذه- مُتأكِّدٌ تمامًا من حقيقة الأمر؟ وهل أرغب في أن أصير مُتأكِّدًا تمامًا؟ بالطبع لا. لكن بحق الرب، إن ما حدث لأدريان ميلون لشديد الشبه بما حدث لچورچ شقيق بيل المُتلعثم في خريف عام 1957.

إذا كان الأمر قد بدأ مرَّةً أخرى بالفعل، فسأُهاتفهم. لا بُدَّ ممَّا ليس منه بُدَّ. لكن ليس الآن. فالتوقيت ما زال مُبكِّرًا جدًا على أيِّ حال. في المرَّة السابقة بدأت الأمور ببطء، ولم تبلغ عنفوانها الأخير إلا في صيف 1958. لذا سأنتظر، وسأملأ أوقات انتظاري بالكتابة في هذا الكرَّاس، وبالنظر طويلًا عبر المرآة لرؤية كم صار غريبًا ذلك الصبي الذي كبر.

كان وجه الصبي القديم الذي كنته خجولًا ومُحِبًّا للاطلاع، أما وجه الرَّجُل هذا فيبدو كوجه صرَّاف بنك في فيلم من أفلام الغرب الشرس.. ذلك الرفيق الذي لا يتفوَّه بأيِّ جُمل.. الرفيق الذي يرفع يديه ويبدو عليه الذُعر حين يقتحم اللصوص المكان.. وإذا ألمح السيناريو إلى وجوب قتل شخصٍ ما من قبل الأشرار، فسيكون هو ذلك الشخص.

أنا مايك القديم ذاته. عيناي صارتا شاردتين ومُنهكتين قليلًا رُبَّما، وانتفخ وجهي قليلًا من النوم المُتقطِّع، لكنك لن تلاحظ اختلافًا كبيرًا دون نظرة مُتفحِّصة عن قُرب، وأعني بـ «عن قُرب» المسافة التي تفصل بين اثنين يُقبِّلان أحدهما الآخر.. وأنا لم أقترب من شخصٍ بتلك الدرجة منذ زمنٍ طويلٍ جدًّا. إذا ألقيت نظرةً عابرةً عليَّ رُبَّما ستقول لنفسك: إنه رَجُل يقرأ كُتُبًا كثيرة حقًّا، هذا كل شيء. لكنني أشك أنك تستطيع تخمين كم يُجاهد هذا الرَّجُل

ذو وجه صرَّاف البنك الدَّمث، فقط للحفاظ على رباطة جأشه.. للحفاظ على سلامته العقلية.

قد أتسبَّب في قتل بعضهم إذا اضطُررت لإجراء هذه المُكالمات الهاتفية. هذه إحدى الأشياء التي اضطَّر لمواجهتها في الليالي الطويلة التي يُجافيني النوم فيها.. حين أستلقي في فراشي ليلًا مُرتديًا منامتي الزرقاء المُحافظة، بينما تقبع نظَّارتي المطوية بعناية على الكومود بجوار كوب الماء الذي أضعه هناك تحسُّبًا لاستيقاظي ليلًا عطشانًا. أجلس هناك في الظلام، وأرشف ببطء من الماء وأسأل نفسي عن القَدْر -قل أو كثُر- الذي يتذكَّرونه. أنا مُقتنع بشكلٍ ما أنهم لا يتذكَّرون أيًّا ممَّا حدث، لأنهم لا يريدون التذكُّر. أنا الوحيد الذي أسمع عقيرة السُلحفاة. أنا الوحيد الذي أتذكَّر لأنني الوحيد الذي ظللت ماكثًا هنا في ديري، ولأنهم تفرَّقوا في أرجاء البلاد، فلا سبيل لهم لمعرفة وفهم الأنماط شبه المُتطابقة التي اتَّخذتها حيواتهم. لذا فإن إرجاعهم إلى هنا، وإجلاء الأنماط أمامهم قد يتسبَّب في قتل بعضهم.. أجل.. قد يتسبَّب في قتلهم جميعًا.

لهذا لم أنفك عن التفكير في الأمر وإعادة التفكير فيه مرارًا وتكرارًا. أُفكِّر في أمورهم، وأحاول إعادة تركيب صورهم كما كانوا قديمًا، وكما قد يكونون الآن، محاولًا معرفة أيُّهم أكثر ضعفًا وهشاشة. أُفكِّر أحيانًا كيف كان ريتشي توزييه سليط اللسان هو أكثر من يقع في قبضة كريس هاجنز وباورز، رغم أن بن كان هو الأكثر بدانة. أكثر شخص كان ريتشي يخشاه هو باورز، وقد كنا جميعًا كذلك، لكن الاثنين الآخرين أيضًا اعتادا أن يبثَّا قدرًا مساويًا للخوف من الله في قلبه. إذا هاتفته الآن حيث يقطن في كاليفورنيا تُرى هل سيرى الأمر كعودة مُريعة للفتوَّات الثلاثة الكبار.. اثنان منهما سيخرجان من قبريهما والثَّالث من مصحَّة المجانين في جوبينر هيل حيث يرغي ويزبد إلى الآن؟ أحيانًا أشعر أن إدي كان أضعفنا.. إدي الذي ابتُلي بأُمٍّ مُستبدَّة وضخمة كدبَّابة بالإضافة إلى حالة ربو شديدة التفاقم. أم بيڤرلي؟ لكم كانت تحاول دائمًا أن تبدو شديدة المراس وتتحدَّث بشكس، لكنها كانت ترتعد مثلنا جميعًا. أم بيل المُتلعثم الذي يواجه رُعبًا هائلًا ينهشه من الداخل ولا يبرحهُ عندما يهجر آلته الكاتبة؟ أم ستان يوريس؟

ثمَّة نصل مقصلة مُعلَّق فوق رقابهم جميعًا، حاد كحدِّ الموسى. لكنني كلما أُطيل التفكير في الأمر، أُدرك أنهم لا يعلمون بوجود النصل من الأساس. أنا الوحيد الذي أضع يدي على العتلة.. وأستطيع جذبها بمُجرَّد فتحي لدفتر الهاتف والاتِّصال بهم واحدًا تلو الآخر.

رُبَّما لستُ مُضطرًّا لفعل ذلك. ها أنا أحاول التمسُّك بالأمل الأخير المُنحسر بالظَّنِّ أن صرخاتي الجبانة الآتية من عقلي الرعديد هي عقيرة السُلحفاة الأعمق والأكثر صدقًا. فبعد كل شيء، ما الحقائق التي أضع يدي عليها؟ حادثة ميلون التي وقعت في يوليو، والطفل الذي عُثِر عليه ميِّتًا في شارع نيبولت في أكتوبر الماضي، والآخر الذي وجدوه في الحديقة التذكارية في أوائل ديسمبر قبل أوَّل سقوطٍ للثلج. رُبَّما يكون الجاني شريدًا كما تقول الصُحُف، أو مجنونًا غادر ديري بعدها أو قتل نفسه نادمًا ومُشمئِزًّا من ذاته، كما تدَّعي بعض الكتب أن چاك السفَّاح الحقيقي قد فعل.

رُبَّما.

لكن الفتاة ألبركت عُثِر عليها على الرصيف الآخر من ذلك المنزل القديم اللعين في شارع نيبولت... وقد قُتِلت في اليوم نفسه الذي قُتِل فيه چورچ دِنبروه قبلها بسبع وعشرين سنة، وبعدها عُثِرَ على الصبي چونسون في الحديقة التذكارية بساقٍ مقطوعة من عند الرُّكبة. بالطبع الحديقة التذكارية موطن ماسورة بُرج مياه ديري، وقد عُثر على الفتى أسفلها مُباشرةً تقريبًا. بُرج المياه يقف على بُعد نذرٍ يسير من البرِّية، هو المكان الذي رأى فيه ستان يوريس أولئك الفتية.

أولئك الفتية الميِّتون.

ومع ذلك، قد يكون كل ذلك مُجرَّد ضلالات زائفة.. يجوز.. أو قد تكون مُصادفة. أو لعلَّها أمر وسط بين الاثنين... نوعٌ من رجع الصَّدى الخبيث. هل هذا مُمكن؟ أشعر أنه كذلك. هنا في ديري، كل شيءٍ جائز.

أعتقد أن ما وُجِد هنا من قبل ما زال موجودًا. الشَّيءُ الذي كان هنا في عامي 1957 و1958. الشَّيءُ الذي كان هنا في 1929 و1930 عندما أُحرِق ملهى بلاك سبوت عن طريق رابطة الحشمة البيضاء. الشَّيءُ الذي كان هنا بين عامي

1904 و1905 وأوائل عام 1906، أو على الأقل حتَّى انفجار مصنع كيتشنر للحديد والصُّلب. الشَّيءُ الذي كان هنا في 1876 و1877. الشَّيءُ الذي لم ينفك عن الظهور كل سبع وعشرين سنة أو نحو ذلك. أحيانًا يفيق قبل ميعاده بقليل، وأحيانًا مُتأخِّرًا نوعًا... لكنه دائمًا ما يظهر. عندما يتتبَّع المرء الوقائع رجوعًا إلى الماضي، يصير العثور على تدوينات تؤرِّخ لها أصعب فأصعب، لأن السجلَّات تزداد شِحَّة، وفجوات التاريخ المروي للمنطقة تزداد اتِّساعًا. لكن تحديد مواضع البحث -وعن أيِّ تواريخ تبحث- تُساعد كثيرًا في حل هذه المُعضلة. فكما ترى عزيزي القارئ، الشَّيءُ يعود دومًا.

الشَّيء.

لذا أجل، أظنُّ أنني سأضطَّر لإجراء تلك المُكالمات الهاتفية. أظنُّ أنه قد قُصِد لنا التصدِّي للأمر. نحن من اصطُفينا لوقف ذلك الأمر للأبد بطريقةٍ ما ولسببٍ ما. أهو القدر الأعمى؟ أم الحظ الأعمى؟ أم هل هي تلك السُلحفاة اللعينة من جديد؟ أهي تأمُرنا كما تتحدَّث إلينا؟ لا أعلم، وأشك إن كان للأمر أهمِّية. طوال كل هذه السنوات الماضية اعتاد بيل أن يقول: السُلحفاة لا تستطيع مُساعدتنا، وإذا كان الأمر صحيحًا آنذاك، فلا بُدَّ أنه صحيحٌ الآن.

ها أنا أستعيد ذكرى وقوفنا في الماء، تتشابك أيدينا، نأخذ ذلك العهد بالرجوع إذا ما حدث وعادت الكرَّة من جديد. نقف هناك في حلقة ككهنة الشعوب الكلتيَّة، بينما تنزف أيدينا بوعودها الخاصة، كفٌّ في كف.. في طقسٍ قديمٌ بقِدم البشرية نفسها.. كصنبور مُثبَّت في جذع شجرة المعرفة الكُليَّة التي تنمو على الحد الفاصل بين أرض كل ما نألف، وأرض كل ما نرتاب به.

لأن أوجه الشَّبه...

لكن ها أنا أحذو حذو بيل دِنبروه الآن، أتلعثم في النُّقطة ذاتها المرَّة تلو الأخرى، وأتلو حفنةً من الحقائق وكثيرًا من الافتراضات غير السَّارة (أو بالأحرى غير الأكيدة)، وأزداد هوسًا أكثر فأكثر مع كل فقرة. هذا غير جيِّد. عديم النفع. بل خطير. لكن يا لثقل عبء انتظار الأحداث القادمة.

هذا الكرَّاس يُفترض أنه محاولة لتجاوز هذا الهوس عن طريق توسيع

بؤرة اهتماماتي.. فبعد كل شيء، هذه القِصَّة تضم ما هو أكثر من ستَّة صبية وفتاة واحدة، كل واحد منهم حزين، مرفوض من قِبَل أترابه، حدث أن تعثَّروا في سُلطان كابوس مُريع خلال صيفٍ حار عندما كان أيزنهاور ما زال رئيسًا للبلد. إنها محاولة لإبعاد الكاميرا إلى الوراء قليلًا، إذا صح التعبير، لرؤية صورة شاملة للمدينة.. المكان الذي يعمل ويأكل وينام ويُضاجع ويتسوَّق ويقود ويمشي ويذهب إلى المدرسة ويُسجن وأحيانًا يختفي في جوف الليل، ما يقرب من خمسة وثلاثين ألف شخصٍ.

لمعرفة حقيقة مكانٍ ما، أظنُّ أن على المرء التعرُّف جيِّدًا إلى ماضيه، وإذا كان لي أن أُحدِّد اليوم الذي بدأ فيه الأمر حقًّا من جديد بالنسبة إليَّ، فسيكون هو ذلك اليوم من ربيع عام 1980 عندما ذهبت لرؤية ألبرت كارسون، الذي تُوفيَ الصيف الماضي عن عُمرٍ يُناهز واحدًا وتسعين عامًا، والذي لم يُضاهِ سنوات عُمره الطويلة سوى حُسن سيرته. كان كارسون رئيس المكتبة في الفترة من 1914 إلى 1960، وهي ولاية طويلة مُذهلة (لكنه كان رجلًا مُذهلًا)، وقد شعرت أنه إذا وُجِد شخصٌ يستطيع إخباري عن أفضل كتاب تأريخ للمنطقة أبدأ به، فسيكون ألبرت كارسون. طرحت عليه سؤالي ونحن جالسان في شُرفة منزله الأرضية وأعطاني الإجابة مُتكلِّمًا بصوتٍ خشنٍ أجش. كان الرَّجُل يُصارع سرطان الحنجرة بالفعل، وهو ما سيقتله في نهاية الأمر.

- «ليس من هذه الكتب ما يساوي شيئًا، كما تعلَّم جيِّدًا».

- «إذًا من أين أبدأ؟».

- «تبدأ ماذا بحق المسيح؟».

- «البحث في تاريخ المنطقة.. تاريخ بلدة ديري».

- «أوه، حسنًا. ابدأ بكتابات فريكا وميشود، يُفترض أنهما الأفضل».

- «وبعد أن أقرأ هذين...».

- «تقرأهما؟ يا للمسيح، لا! ألق بهما في أقرب مزبلة! تلك خطوتك الأولى. ثم بعدها اقرأ لبادينجر. إن برانسون بادينجر كان باحثًا لعينًا مُهملًا

وابتُلي بانتصاب الموت[1] -إذا كان نصف ما سمعته في صباي صحيحًا-لكن عندما يأتي الحديث إلى ديري، فقلب الرَّجُل كان في المكان الصحيح. لقد جمع ودوَّن كل الحقائق الباطلة، لكنه جمع الباطل بصدقٍ وشغف يا هانلون».

ضحكت قليلًا وابتسم كارسون بشفتيه المدبوغتين بزُرقة داكنة في تعبير عن روح دعابة جاء في الواقع مُخيفًا قليلًا. في تلك اللحظة بدا كأنه نسرٌ يحرس مسرورًا حيوانًا قُتِل حديثًا، وينتظر أن يبلُغ درجة التحلُّل المُناسبة اللذيذة قبل أن يبدأ عشائه.

- «وعندما تنتهي من بادينجر اقرأ لأيفيس، ودوِّن مُلاحظات عن كل الأشخاص الذين تحدَّثت إليهم. ما زالت ساندي أيفيس تُدرِّس في جامعة مين، إنها أستاذة في علم التُراث. بعد أن تقرأ لها، اذهب وقابلها. ادعها إلى العشاء. أنصحك باصطحابها إلى مطعم أورينوكا، لأن العشاء في أورينوكا يبدو كأنه لا ينتهي أبدًا. استنزفها. املأ دفترك بالأسماء والعناوين. تحدَّث إلى العجائز المُخضرمين الذين تحدَّثت إليهم.. أو من بقيَ منهم على قيد الحياة.. ثمَّة القليل منَّا، هاهاهاهاها! واحصل على مزيدٍ من الأسماء منها. عندها -إذا كنت ألمعيًّا كما أحسبك- سيكون تحت يديك كل ما تحتاجه لبداية بحثك. إذا لاحقت عددًا كافيًا من الأشخاص، ستكتشف بعض الأشياء غير الموجودة في السجلَّات، وقد تتعثَّر في ما يقضِ مضجعك ليلًا».

- «ديري...».

- «ماذا عنها؟».

- «ديري ليست سويَّة، أليس كذلك؟».

سأله كارسون في همسٍ مُنذرٍ أجش: «سويَّة؟ وما السَويّ؟ ماذا تعني تلك الكلمة؟ هل تقصد بالـ 'سويَّة' صورًا جميلة لنهر الكِندوسكيج ساعة الغروب مُلتقطة على فيلم كودا-كروم بمواصفات كذا وكذا وبفتحة عدسة كذا وكذا؟

(1) انتصاب الموت، ويدعى أحيانًا بشهوة الملاك أو الانتصاب الأخير: حالة انتصاب تحدث للقضيب بعد الموت، لوحظت فى أجساد الرجال الذين أُعدموا بالشنق تحديدًا. تُعزى هذه الظاهرة إلى الضغط على المخيخ عن طريق الخنَّاق أو حبل المشنقة.

إذا كان هذا قصدك، فديري بلدة سويَّة، لأن ثمَّة صورًا جميلة لها بأعداد لا تُحصى. هل تقصد بسويَّة جماعة لعينة مُحنَّطة من العذارى العجائز اللاتي يُشكِّلن لجانًا لعينة لإنقاذ وترميم قصر المُحافظ أو وضع لوحةٍ تذكاريةٍ أمام ماسورة بُرج المياه؟ إذا كان هذا قصدك، فديري سويَّة ونظيفة كماء المطر، لأن لدينا أكثر من حصَّتنا العادلة من القطط الشمطاء التي تدس أنوفها في أمور الجميع. هل 'سوية' تعني ذلك التمثال البلاستيكي القبيح لبول بنيان المنصوب أمام مركز المدينة؟ أوه، أؤكد لك أن لو كانت بحوزتي شاحنة مليئة بالنابالم وقدَّاحتي الزيبو القديمة لكنت اعتنيت بأمر هذا الشَّيء اللعين. لكن إن كان حس المرء الجمالي فضفاضًا بما يكفي ليشمل التماثيل البلاستيكية القبيحة، فديري إذًا سويَّة شأنها شأن أيَّ مدينة. السؤال هو، ما الذي تعنيه كلمة سويَّة بالنسبة إليك يا هانلون؟ هه؟ ولأكون مُحدَّدًا أكثر، ما الذي لا تعنيه كلمة سويَّة؟».

لم أستطِع سوى أن أهزَّ رأسي. إما أنه يعلم أو لا. إما أنه سيحكي أو لا.

- «هل تقصد القصص غير المُريحة التي قد تسمعها، أم التي تعرفها بالفعل؟ توجد دائمًا قصصٌ غير مُريحة. إن تاريخ المُدن مثل قصرٍ شاسع مليء بالغُرف والسراديب والمساقط الأنبوبية التي تقود إلى غُرف الغسيل والعليَّات وكل أنواع المخابئ الصغيرة الغريبة... فضلًا عن احتمالية وجود ممرٍ سرِّي ما أو اثنان. إذا ذهبت لاستكشاف قصر ديري، ستعثر على مُختلف الأشياء. أجل، قد تشعر بالندم والأسى بعدها، لكنك ستعثر عليها. لكن احترس، فما أن يُعثر على شيء لا يُمكن إخفاؤه مرَّة أخرى، أليس كذلك؟ بعض الغُرف مُغلقة... لكنه ثمَّة مفاتيح لها... ثمَّة مفاتيح».

كانت عيناه تلمعان في وجهي بدهاء الرجال المُسنِّين.

- «قد يُهيِّئ لك عقلك أنك تعثَّرت في أقبح أسرار ديري... لكن ثمَّة المزيد دائمًا.. والمزيد.. والمزيد».

- «هل أنت...».

- «أظنُّ أنني سأطلب منك أن تأذن ليَّ الآن. إن حنجرتي بحالة سيِّئة تمامًا اليوم. لقد حان وقت دوائي وقيلولتي».

بعبارةٍ أُخرى، هاك السكين والشوكة يا صديقي.. اذهب وانظر ما يُمكنك أن تقطع بهما.

بدأتُ بتاريخ فريك وتاريخ ميشود. اتَّبعت نصيحة كارسون وألقيتهما في سلَّة المهملات، لكنني قرأتهما أوَّلًا. كانا سيِّئين كما ألمح. ثم قرأت تاريخ بادينجر، ودوَّنت الحواشي وأسماء المصادر، وبدأت تعقُّبها. ما أعقب ذلك كان أمرًا مُرضيًا تمامًا، لكن الحواشي كما تعلم أشياء غريبة. كأنها شبكة سُبُلٍ تلتوي عبر بلدٍ برِّي وفوضوي. إنها تفترق عن بعضها، ثم تفترق مُجدَّدًا في طُرُقٍ فرعية، وفي أيِّ لحظة قد تأخذ معها مُنعطفًا خاطئًا يؤدي بك إما إلى طريقٍ مسدود بنباتاتٍ مُتعرِّشة أو مُستنقعٍ زلق. «إذا صادفتَ حاشيةً في كتاب، اسحق رأسها بقدمك واقتلها قبل أن تتكاثر»، هذا ما سمعته ذات يومٍ من أستاذ في علم المكتبات.

والحواشي بالفعل تتكاثر، وأحيانًا لا يكون التكاثُر أمرًا سيِّئًا، لكنني لا أظنُّ أن هذا الحال دائمًا، وتلك الحواشي الموجودة في كتاب بادينجر المعنون: تاريخ مدينة ديري القديمة (منشورات جامعة مين. أورنو، 1950) المكتوب بلغة رصينة صعبة تستعرض مئة عام من الكتب التي تستحق السقوط من ذاكرة الزمن وأطروحات ماجيستير يعلوها الغبار في مجالي التاريخ والفولكلور، بالإضافة إلى إحالات لمقالاتٍ من مجلَّاتٍ بائدة وأكوامٍ من تقارير ودفاتر المدينة التي تشل الدِّماغ.

لكن مُحادثاتي مع ساندي أيڤيس فكانت أكثر إثارة. أحيانًا وجدت مصادرها تتقاطع مع مصادر بادينجر، لكن هذا كل ما في الأمر. لقد قضت أيڤيس جزءًا كبيرًا من حياتها في ضبط ونظم الروايات والتاريخ الشفوي، بعبارةٍ أخرى في نسج الخيوط بمعنى يكاد يكون حرفيًّا، وهو سلوكٌ كان برانسون بادينجر سينظر له دون شك كنوعٍ من الغش والتحايُل غير الأخلاقي.

كتبت أيڤيس مجموعة مقالات عن ديري خلال الأعوام 1963–1966. معظم شيوخ البلدة الذين تحدَّثت إليهم حينها كانوا قد ماتوا عندما بدأت تحقيقي الخاص.. لكن كان لهم أبناء، وبنات، وأبناء أخوة، وأبناء عمومة، ومن دون شكٍّ يُمكن صياغة إحدى أهم حقائق العالم كالتالي: مُقابل كل شيخٍ

يموت، ثمَّة شيخ جديد يحل محلَّه، والقصص الجيِّدة لا تموت أبدًا، ودائمًا ما تُمرَّر للأجيال التالية. جالست أُناسًا في مداخل وشُرف منازل عديدة.. شربت أطنانًا من الشَّاي، والبلاك ليبل، والبيرة منزلية الصُّنع، والروتبير منزلي الصُّنع، والماء العادي، وماء الينابيع. استمعت كثيرًا جدًّا، ودارت عجلات جهاز التسجيل الذي أحمله مرارًا.

اتَّفق كلٌّ من بادينجر وأيڤيس بشكلٍ تام حول نقطة واحدة: الجماعة الأصلية من المستوطنين البيض الذين استقرُّوا هنا وكان عددهم نحو ثلاثمئة شخص. كانوا بريطانيين ويُعرَفون سابقًا باسم أُباشة ديري، وكان بحوزتهم امتياز للانتفاع بالأرض. الأراضي التي مُنحت لهم كانت تُغطي ما يُعرف حاليًا بديري، وغالبية نيوبورت، وأجزاء بسيطة من المُدن المجاورة، وفي عام 1741، اختفى جميع من في بلدة ديري فسحب. كانوا جميعًا موجودين في المنطقة في يوليو من ذلك العام، ويُشكِّلون مُجتمعًا قوامه ثلاثمئة وأربعون شخصًا في ذلك الوقت، لكن عندما جاء أكتوبر كانوا قد رحلوا عن بكرة أبيهم.. وتُركت القرية الصغيرة التي تتكوَّن من بيوتٍ خشبية مهجورة وخاوية على عروشها تمامًا. أحد هذه البيوت، الذي كان يقف يومًا ما في المكان حيث يتقاطع شارعي ويتشام وچاكسون الآن، أُحرِق وسوِّيَ بالأرض. صرَّح ميشود جازمًا في تأريخه أن أهل البلدة جميعهم ذُبِحوا من قِبَل الهنود الحُمر، لكن لا يوجد أساس حقيقي لدعم هذه الرواية باستثناء البيت الوحيد المُحترق. الشيء الأرجح أن الحرارة ارتفعت بدرجة كبيرة في موقد أحدهم، ثم التقط المنزل النيران بعدها.

أهي مذبحة قام بها الهنود الحُمر؟ غير مُرجَّح. لا عظام هنالك، ولا جثث. أهو فيضان؟ لم يُذكر حدوث واحد في ذلك العام، وباء رُبَّما؟ لم تُذكر كلمة عن شيءٍ كهذا في المدن المجاورة.

هم فقط اختفوا. جميعهم. كل واحد من الثلاثمئة وأربعين شخصًا. بلا أثر.

بقدر علمي، الحالة الوحيدة في التاريخ الأمريكي المُشابهة نوعًا هي واقعة اختفاء المستعمرين في جزيرة روانوك بڤيرچينيا. كل تلميذ في البلد يعرف

هذه القِصَّة، لكن من يعرف بأمر اختفاء أهل ديري؟ لا أحد من الواضح، ولا حتَّى قاطنو البلدة أنفسهم. لقد سألت العديد من الطُّلاب المُستجدِّين في المرحلة الثانوية الذين يدرسون مُقرَّر تاريخ ولاية مين الإلزامي، ولم يعلم أحدهم شيئًا عن الأمر. ثم ألقيت نظرة على كتاب المُقرَّر الدراسي المعنون: ولاية مين قديمًا والآن. ذُكرت ديري أقل من أربعين مرة في الفهرسة، معظمها تتناول سنوات الازدهار في صناعة الأخشاب. لا ذكر لاختفاء المُستوطنين الأصليين، ورغم هذا فإن الأمر (حسنًا.. كيف أقولها؟).. الأمر يتوافق جيِّدًا مع النَّمط الذي تسير به الأمور هنا.

ثمَّة ستارة من الهدوء من نوعٍ ما تحجب مُعظم ما يحدث هنا... لكن رغم هذا الناس يتحدَّثون. أظنُّ أنه لا توجد قوَّة قادرة على إيقاف الناس عن الثرثرة. لكن يتحتَّم عليك الاستماع جيِّدًا وعن كثب، وتلك مهارة نادرة، وأنا أُحب الإثناء على نفسي بأنني تمكَّنت من تطوير هذه المهارة وشحذها على مدى السنوات الأربع الماضية. إذا لم أكن كذلك، فلا بُدَّ أن استعدادي لهذه المهمة بائس حقًّا، لأنني قد حظيت بتدريبٍ كافٍ. أخبرني رُجلٌ مُسن أن زوجته اعتادت سماع أصواتٍ تتحدَّث إليها من بالوعة حوض المطبخ قبل ثلاثة أسابيع من موت ابنتهما، وقد حدث هذا في أوائل الشتاء بين عامي 1957 و1958. الفتاة التي يتحدَّث عنها كانت واحدة من الضحايا الأوائل في فوران حوادث القتل الذي بدأ بمقتل چورچ دِنبروه ولم ينتهِ إلا بحلول الصيف التالي.

«وصفتها بأنها مجموعة كاملة من الأصوات.. كلها تُثرثر معًا». هكذا أخبرني الرَّجُل الذي كان يمتلك محطَّة وقود يعلوها شعار جالف؛ وقد استمرَّ حوارنا مُجزَّءًا تقطعه رحلاته العرجاء إلى مضخَّات البنزين، حيث يملأ خزَّانات الوقود، ويفحص مستويات الزيت، ويمسح زجاج السيَّارات. «أخبرتني أنها أجابت الأصوات مرَّة، رغم ذُعرها. انحنت فوق البالوعة، وصرخت مُنادية عبرها: من أنت بحق الجحيم؟ ما اسمك؟ وقالت إن الأصوات أجابتها، بهمهماتٍ وعواءٍ ونُباحٍ وضجيج وصُراخ وضحكاتٍ ماجنة، وأخبرتني أن الأصوات قالت لها ما قاله ذلك الرَّجُل المُستحوَذ

عليه ليسوع: «اسمنا ليچون[1]». بعدها، لم تقترب من الحوض طوال عامين كاملين، وخلال هذين العامين كنت أقضي اثنتا عشرة ساعة هنا إلى أن ينكسر ظهري، ثم يتحتَّم عليَّ غسيل كل الأطباق اللعينة عند عودتي إلى المنزل».

كان الرَّجُل يجرع من صفيحة بيبسي أخذها من الآلة الموضوعة خلف باب مكتبه. رجلٌ في الثانية أو الثالثة والسبعين من عمره، يرتدي زيًّا رماديًا شبه عسكري بهت لونه، وأسفل رُكني عينيه تجري أنهارٌ من التجاعية وصولًا إلى فمه.

قال لي: «أكيد أنت تحسبني الآن مجنونًا كعثَّة فراش، لكنني سأقول لك شيئًا آخر، فقط إذا أغلقت هذا الشَّيء الذي تحمله».

أغلقت جهاز التسجيل وابتسمت له قائلًا: «خذ في اعتبارك الأشياء التي سمعتُها خلال العامين الماضيين. تحتاج لإخباري بأمرٍ جامح الشطط كي تقنعني أنك مجنون».

ابتسم الرَّجُل، لكن دون أن يلوح أثرُ روح دعابة في ابتسامته، وقال: «كنت أغسل الصحون ذات ليلة، كالمعتاد، كان هذا في خريف 1958 بعد أن هدأت الأمور مرَّة أخرى. بينما زوجتي في الدور الثاني نائمة. كانت بيتي الابنة الوحيدة التي ارتأرى الرَّب أنها مُناسبة ليرزقنا بها، وبعد مقتلها أمضت زوجتي أوقاتًا طويلة من حياتها نائمة. على أيٍّ حال، نزعت سدَّادة الحوض وبدأ الماء ينساب في البالوعة. هل تعلم الصوت الذي يُحدثه الماء المُمتزج بكثيرٍ من الصابون عندما يجري إلى البالوعة؟ إنه يبدو كصوتِ شفطٍ من نوعٍ ما. كان الماء يُصدر ذلك الصوت، لكنني لم أكن أُفكِّر في الأمر، ثم، وأنا أبتعد في طريقي لتقطيع بعض الخشب في السقيفة، سمعت صوت ابنتي قادمًا من الأسفل هنالك. سمعت صوت بيتي آتيًا من مكانٍ ما من تلك الأنابيب اللعينة.. كانت تضحك. كانت في مكانٍ ما في ذلك الظلام تضحك. فقط كان صوتها يبدو أقرب إلى الصراخ إذا استمعت إليه وقتًا كافيًا. تصرخ

---

(1) بالإنجليزية Legion: فيلق، أو حشد عظيم. اشتهر اللفظ كاسم مجموعة شياطين ذُكرت في الكتاب المُقدَّس، والتي تُعرف باسم شياطين الجرجسيين.

وتضحك هناك في الأسفل داخل تلك الأنابيب. كانت هذه المرَّة الوحيدة التي سمعت فيها شيئًا كهذا. رُبَّما كنت واهمًا.. لكنني لا أظنُّ ذلك».

نظر إليَّ ونظرتُ إليه. كان الضوء الساقط عبر زُجاج النافذة المُتَّسخ يضيف إلى وجهه سنواتٍ زائدة، ويجعله يبدو شيخًا عتيقًا كمتوشالح[1] ذاته. أتذكَّر كيف اعترتني الرجفة في تلك اللحظة.. كم لفَّتني البرودة.

- «هل تظن أنني أسرح بك بقصصٍ خيالية؟». هكذا سألني الشَّيخُ الطَّاعن.. الشيخُ الطَّاعن الذي كان في سن الخامسة والأربعين فقط في العام 1957.. الشيخُ الطَّاعن الذي وهبه الله ابنة واحدة هي بيتي ريبسوم.. بيتي اللتي عُثِرَ عليها مُجمَّدة خارج شارع چاكسون بعد ليلة الكريسماس من ذلك العام بجسدٍ مفتوح ومُمزَّقٌ بالكامل.

قلت له: «لا؟ لا أظنُّ أنك تسرح بي يا سيِّد ريبسوم».

قال لي بنوعٍ من التعجُّب: «أنت أيضًا تقول الحقيقة، أستطيع رؤيتها في وجهك».

شعرت أنه كان على وشك إخباري بشيءٍ آخر بعدها، لكن الجرس المُعلَّق خلفنا رنَّ فجأة بصوتٍ حادٍ مع اقتراب سيَّارة وتوقُّفها قرب خرطوم مضخَّة الوقود. عندما رنَّ الجرس، انتفض كلانا وفلتت مني صرخة صغيرة رفيعة. نهض ريبسوم على قدميه وسار بتثاقُلٍ أعرج إلى السيَّارة، وهو يمسح يديه في ورقة مُخلَّفات، وعندما عاد نظر إليَّ كأنني غريب مُتطفِّل بغيض دخل المكان صُدفةً. لذا ودَّعته سريعًا وغادرت.

كلٌّ من بادينجر وأيڤيس اتفقا على شيءٍ آخر: الأمور هنا في ديري ليست على ما يُرام. الأمور في ديري لم تكن على ما يُرام من قبل قط.

قابلت ألبرت كارسون للمرَّة الأخيرة قُبيل شهر واحد من وفاته. كانت حالة حنجرته قد ساءت كثيرًا، وكل ما استطاع التلفُّظ به لم يتعد فحيحًا هامسًا: «أما زلت تُفكِّر في كتابة تاريخٍ لديري يا هانلون؟».

---

(1) ويقال أيضًا متوشلخ: ابن النبي إدريس ووالد لامك وجد النبي نوح.

قلت له: «ما زلتُ أُقلِّب الفكرة في رأسي»، لكنني لم أُخطِّط قط بالطبع لكتابة تأريخ للبلدة، ليس تمامًا، وأظنُّ أنه كان يعلم ذلك.

قال هامسًا: «سيستغرق منك الأمر عشرين عامًا، ولن يقرأه أحد في النهاية. لن يرغب أحد في قراءته. دع الأمر يا هانلون».

ثم توقَّف لحظة قبل أن يضيف:

- «بادينجر أنتحر كما تعرف».

بالطبع كنت أعرف ذلك، لكن فقط لأن الناس كثيرًا ما يُثرثرون عن أمور، وقد عوَّدت نفسي على الاستماع. الخبر في جريدة أخبار ديري وصف الأمر بأنه حادث سقوط، وبالفعل ما حدث أن برانسون بادينجر سقط. لكن ما تجاهلت الجريدة ذكره هو أنه سقط من فوق كُرسي في خِزانة ملابسه بينما التفَّت أنشوطة حول عُنُقه.

- «أتعرف بأمر الدورة الزمنية؟».

نظرت له جافلًا.

همس كارسون: «أوه، أجل.. أعرف بأمرها. الدورة التي تتكرَّر كل ست وعشرين أو سبع وعشرين سنة. بادينجر أيضًا كان يعلمها.. والعديد من العجائز والشيوخ، لكنها الشَّيء الوحيد الذي لا يتحدَّثون عنه، حتَّى لو جعلتهم يشربون أطنانًا من البيرة. دع الأمر وشأنه يا هانلون».

قالها ومدَّ نحوي يدًا بقبضة مخلبية كقبضة الطيور، وأمسك بساعدي بقوَّة جعلتني أشعر بالسرطان الساخن الذي يعيث فسادًا في جسده، مُلتهمًا كل وأي شيءٍ ما زال صالحًا للأكل، حيث لم يوجد منه الكثير بالتأكيد في هذه المرحلة، فخزائن كارسون الحيوية كانت شبه خاوية.

- «مايكل، هذا أمر لا يستقيم العبث معه. ثمَّة أشياء هنا في ديري تعُض. دع الأمر وشأنه. دعه وشأنه».

- «لا أستطيع».

قال لي: «خذ حذرك إذًا»، وفجأة طلَّت عينا طفلٍ مُتَّسعتين ومذعورتين من وجه الشَّيخ المُحتضر وهو يُردِّد: «خُذ حذرك».

ديري.

مسقط رأسي.. البلدة التي سُمِّيت تيمُّنًا باسم إقليم في أيرلندا.

ديري.

وُلِدتُ هنا، في مُستشفى ديري العام، وارتدتُ مدرسة ديري الابتدائية، ومن بعدها ذهبت لإعدادية ديري في الشَّارع التَّاسع.. ثم إلى ثانوية ديري. تخرَّجت في جامعة مين (وهي ليست في ديري، لكنها على بُعد فركة كعبٍ منها، كما يقول الشيوخ هنا)، ثم عُدتُ إليها من جديد.. إلى مكتبة ديري العامة. أنا رجُلٌ بسيط، يعيش حياة المُدُن الصغيرة البسيطة، واحد ضمن ملايين الناس.

لكن.

ثمَّة لكن دائمًا:

في عام 1879، عثر فريقٌ من الحطَّابين على بقايا فريقٍ آخر حوصر بثلج الشتاء في مُخيِّم شمال نهر الكِندوسكيج، عند أطراف ما يُسمِّيه الأطفال بالبرِّية إلى الآن. كان ثمَّة تسعة منهم، جميعهم قُطِّعوا إلى أشلاء، وجدت رؤوسٌ مُدحرجة في كل مكان، هذا فضلًا عن الأذرع، وأجزاء من قدمٍ أو اثنتين، وقضيب رجُلٍ مقطوع ومُثبَّت بمسمار على حائط الكوخ.

لكن:

في عام 1851، قتل چون ماركسون أفراد أُسرته جميعًا بالسُم، ثُم التهم بعدها -وهو جالس وسط الدائرة التي صنعها بُجثثهم- حبَّة كاملة من فطر الأمانيت السَّام. لا بُدَّ أن سكرات موته كانت شنيعة. شُرطي البلدة الذي عثر عليه كتب في تقريره أنه ظن في البداية أن الجثة تبتسم نحوه، واصفًا الأمر بكلماته بـ «ابتسامة ماركسون البيضاء المُريعة». الابتسامة البيضاء كانت تكشف عن فمٍ مليء بالفطر القاتل. لا بُدَّ أن ماركسون واصل الالتهام بينما التقلُّصات والتشنُّجات العضلية المُريعة تطحن جسده المُحتضر.

لكن:

في عيد الفصح يوم الأحد عام 1906، نظَّم مُلَّاك مصنع كيتشنر للحديد والصلب -الذي شغل الأرض التي أُقيم عليها الآن مُجمَّع ديري التُجاري

الجديد اللَّامع- مُسابقة للعثور على بيض العيد لـ «كل أطفال ديري المُهذَّبين». أُقيمت المُسابقة في مبنى الحديد والصلب الهائل، بعد إغلاق القطاعات الخطرة. تطوَّع الموظَّفون للوقوف حُرَّاسًا لضمان ألَّا يُغامر أحد الصبية أو الفتيات بالانحناء أسفل أحد الحواجز للاستكشاف. خُبِّئت خمسمئة بيضة مصنوعة من الشيكولاته وملفوفة بشرائط ملوَّنة في أرجاء المبنى الأخرى، وفقًا لبادينجر، كان ثمَّة طفل واحد على الأقل مُقابل كل بيضة مخبوءة. انطلق الأطفال ضاحكين مرحين صارخين عبر أرجاء المبنى الهادئ، يعثرون على البيض أسفل الأحواض القلَّابة العملاقة، وداخل أدراج مكتب مُلاحظ محشورة بين أسنان التروس الكبيرة الصَّدئة، وداخل قوالب الصَّب في الطَّابق الثالث (هذه القوالب بدت في الصور القديمة كأنَّها عُلب كب-كيك في مطبخ ما عملاق)، وقف ثلاثة أجيال من آل كيتشنر يُراقبون الفوضى الطروبة التي أحدثها الأطفال ويمنحون الجوائز في نهاية المُسابقة، التي قُدِّر لها أن تنتهي في الرابعة عصرًا، سواءً عُثِرَ على كل البيض أم لا. لكن النهاية أتت في الحقيقة قبل ذلك بخمس وأربعين دقيقة.. في الثالثة والربع. كان هذا حين انفجر المكان برمَّته. أُخرِج اثنين وسبعين شخصًا ميِّتًا من تحت الأنقاض قبل مغيب الشمس. بلغ عدد القتلى النهائي مئة واثنين قتيلًا، ثمانية وثمانون منهم أطفالًا. في يوم الأربعاء الذي تلى الواقعة، وبينما المدينة لا تزال غارقة في شرودٍ صامت مذهول من المأساة، عثرت امرأة على رأس الطفل روبرت دوَّاي ذا التسع سنوات مُعلَّقة بين فروع شجرة التفاح في باحة منزلها الخلفية. كان ثمَّة بقايا شيكولاته على أسنان دوَّاي اللبنية، ودماء جافَّة في شعر رأسه. كان الطفل آخر الموتى الذين تم التعرُّف عليهم، بينما ظل ثمانية أطفال وأحد البالغين مفقودين. كانت هذه أفدح مأساة في تاريخ ديري، أكثر فداحة حتَّى من حريق ملهى بلاك سبوت في عام 1930، ولم تحظ بتفسيرٍ قط. أوقفت المراجل الأربعة العملاقة في المصنع عن العمل.. لم يُجمَّد نشاطها لفترة فحسب، بل أُغلقت تمامًا.

لكن:

مُعدَّل الجريمة في ديري يفوق مُعدَّل الجريمة في أيِّ مدينة أُخرى مُماثلة في الحجم في نيو إنجلند بستٍّ مرَّات. لقد وجدت أن استنتاجاتي المؤقَّتة بخصوص هذه المسألة صعبة التصديق لدرجة أنني أحلتُ أرقامي إلى أحد مهوَّسي الحواسيب في المدرسة الثانوية، وهو فتى يمضي جل أوقاته هنا في المكتبة، وأعني تلك الأوقات التي لا يقضيها أمام حاسوبه الكومودور[1] هنا في المكتبة. أخذ الفتى -دعك من كلمة مهوَّس، وسمِّه عبقريًّا- عدَّة خطوات مُتقدِّمة عن طريق إضافة نحو دزينة أخرى من المُدن الصغيرة إلى ما وصفه بـ «بركة البيانات» وقدَّم لي شريط رسمٍ بياني من صُنع الحاسوب تبرز منه ديري كالإبهامٍ المُتقرِّح.

كان تعليقه الوحيد: «لا بُدَّ أن الناس هنا لديهم أمزجة حادة شريرة يا مستر هانلون». لم أرد عليه. لأنني لو فعلت، فلرُبَّما كنت سأقول له أن شيئًا ما في ديري لديه مزاج حاد شرير.

على أيِّ حال..

هنا في ديري، يختفي الأطفال بلا تفسير بمُعدَّل أربعين إلى ستين طفلًا في السنة.. معظمهم من المُراهقين، ويُسجَّلون في السجلَّات بصفتهم هاربين، وأُخمِّن أن بعضهم يهرب بالفعل.

في الفترات التي كان ألبرت كارسون سيصفها بوقت الدورة، يتزايد مُعدَّل حالات الاختفاء إلى حدٍ غير معقول. في عام 1930 على سبيل المثال -العام الذي أُحرق فيه ملهى بلاك سبوت- سُجِّلت أكثر من ١٧٠ حالة اختفاء للأطفال في ديري. يجب أن تتذكَّر أنَّ هذه فقط حالات الاختفاء التي أُبلغت الشُرطة بها، وبالتالي وُثِّقت في السجلَّات. عندما أظهرت الإحصائية لرئيس الشرطة الحالي أخبرني: لا شيء يدعو للدهشة حيال الأمر. تلك كانت أعوام الكساد الكبير. مُعظمهم على الأرجح سأموا العيش هنا وشُرب حساء

(1) كومودور 64: حاسوب شخصي من إنتاج شركة كومودور إنترناشيونال بدأ إنتاجه عام 1982.

البطاطس أو حتَّى التضوُّر جوعًا في منازلهم، لذا استقلُّوا القطار وهجروا البلدة، باحثين عن مكانٍ أفضل.

خلال عام 1958، أُبلغ عن اختفاء 127 طفلًا تتراوح أعمارهم بين ثلاث وتسع عشرة سنة في ديري. هل حدث كسادٌ في 1958؟ هكذا سألت رادميكر رئيس الشرطة. فأجابني: لا، لكن الناس دائمو التنقُّل يا هانلون. الصبية بالأخص توّاقون للتغيير، وإذا حدث ونشبت مُشاجرة بين أحدهم وذويه كي لا يعود مُتأخِّرًا إلى المنزل بعد ميعادٍ غرامي، فإنه يرحل بين ليلةٍ وضُحاها.

عرضتُ صورة تشاد لوي على الرئيس رادميكر التي ظهرت في جريدة أخبار ديري في أبريل عام 1958، وسألته: هل تظن أن هذا الصبي هرب من المنزل بعد مُشاجرة مع والديه بسبب العودة مُتأخِّرًا يا حضرة الرئيس رادميكر؟ لقد كان في الثالثة والنصف من عمره عندما اختفى عن الأنظار.

حدَّجني رادميكر بنظرة شرسة وأخبرني أن الحديث معي كان لطيفًا بحق، لكن إذا لم يكن ثمَّة أمرٌ إضافيٌّ يُعينني فيه، فهو مشغول حقًّا. لذا غادرت.

مسكون.. حضور.. عرين.

مكان تتردَّد عليه الأرواح أو الأشباح (كما في المواسير أسفل حوض المطبخ).. أن تظهر وتعاود الظهور (كل خمس وعشرين أو ست وعشرين أو سبع وعشرين سنة).. مكان ترتاده المُفترسات للغذاء (كما في حالات چورچ دِنبروه، وأدريان ميلون، وبيتي ريبسوم، والفتاة ألبركت، والصبي چونسون).

مكان ترتاده المُفترسات للغذاء. أجل، هذا هو التعريف الذي يؤرِّقني.

إذا حدث أيُّ شيءٍ آخر -أيُّ شيءٍ على الإطلاق- سأُجري المُكالمات الهاتفية. يجب عليَّ ذلك. لكن في هذه الأثناء سأتعايش مع افتراضاتي، ومع نومي المُتقطِّع، ومع ذكرياتي.. ذكرياتي اللعينة. أوه، وثمَّة شيءٌ آخر، لديَّ هذا الكرَّاس، أليس كذلك؟ حائط المبكى الذي أنتحب عليه. ها أنا ذا أجلس، ويدي ترتعش بشدَّة حتَّى أنني أستطيع الكتابة بالكاد.. ها أنا ساهر في المكتبة الخاوية بعد ساعات العمل، أستمع إلى الأصوات الخافتة بين أكوام الكُتُب المُعتمة، وأُراقب الظلال التي تُلقيها مُجسَّمات الكُرة الأرضية الصفراء الخافتة لأتأكَّد من أنها لا تتحرَّك... لا تتبدَّل.

ها أنا أجلس جوار الهاتف، وضعًا يدي الأخرى عليه.. وأتركها تنزلق.. تتلمَّس فتحات قُرص الأرقام القادرة على إيصالي بهم جميعًا.. أصدقاء الصبى القدامى.

لقد توغَّلنا عميقًا معًا.

ارتدنا الظُلُمات معًا.

هل سنستطيع العودة من جوف الظلام إذا دلفنا إليه مرَّة ثانية؟

لا أظنُّ ذلك.

أرجوك يا الله لا تضطرَّني للاتِّصال بهم.

أرجوك يا الله.

الجزء الثَّاني

يونيو سنة 1958

«ظاهري هو حاضري..
لكن أشهد أن الصِّبا أسفله مدفون.
أهي الجذور؟
قطعًا؛ كل شخصٍ له جذور».

- ويليام كارلوس ويليامز
قصيدة باترسون.

«أحيانًا أتساءل ما الذي سأفعله؛ فليس ثمَّة علاجٍ لكآبة أوقات الصَّيف».

- إدي كوشران

الفصل الرَّابع

بن هانسكوم يسقط

1

في نحو السَّاعة الحادية عشرة وخمس وأربعين دقيقة مساءً، تلقَّت إحدى المُضيفات التي تعمل في مقصورة الدرجة الأولى للرحلة الجوِّية رقم 41 على الخطوط الجوِّية المُتَّحدة المُتَّجهة من أوماها إلى شيكاجو صدمة هائلة. ظنَّت المُضيفة أن الرَّجُل الجالس في المقعد رقم 1-A قد مات.

عندما صعد الرَّجُل على متن الطائرة في أوماها قالت المرأة لنفسها: «يا للحظ، ها هي مُشكلة تنتظر الحدوث. إنه مخمور تمامًا». ذكَّرتها رائحة الخمر الكريهة التي تُحيط برأسه بسحابة الغُبار التي تلُف دومًا الصبي الصغير المُتَّسخ المدعو بيج بن في قصص بينوتس الفُكاهية المُصوَّرة. كانت تشعُر بالتوتُّر من الخدمة في مقصورة الدرجة الأولى، التي يُمكن تسميتها بخدمة «المشروبات الروحية»، وكانت مُتأكِّدة من أنه سيطلب شرابًا، وعلى الأرجح سيطلبه مُضاعفًا. عندها سيكون عليها أن تُقرِّر هل ستُقدِّمه له أم لا. أيضًا -وفقط إمعانًا في زيادة حظِّها العاثر- كانت العواصف الرعدية تُحيط بهم على طول الطريق الليلة، وقد تأكَّدت تمامًا أن الرَّجُل الطويل النَّاحل الذي يرتدي الچينز وقميصًا من نسيج الشامبري سيبدأ في مرحلةٍ ما في التقيُّؤ.

لكن عندما أتته مُضيفة الدرجة الأولى، لم يطلب الرَّجُل طويل القامة شيئًا سوى كوبٍ من الماء بالصودا، وبأكثر طريقة مُهذَّبة مُمكنة. ضوء الاستدعاء خاصَّته لم يُضِئ، وقد نسيت المُضيفة كل شيءٍ عنه بعد فترة لأنها كانت رحلة مُزدحمة. كانت الرحلة -في حقيقة الأمر- من النوع التي تود نسيانه ما إن

تنتهي، من النوع الذي ربَّما تسأل نفسك خلالها -هذا إذا كان لديك وقتًا- بعض الأسئلة عن احتمالية بقائك على قيد الحياة بعدها.

حلَّقت الطائرة بين جيوب قبيحة من الرعد والبرق كمتزلِّج بارع ينزلق على مُنحدرٍ وعرٍ. الأجواء صاخبة، والرُّكَّاب يصيحون ويطلقون دُعاباتٍ عصبية عن البرق الذي يرونه يومض ويختفي وسط أعمدة السُحُب الكثيفة المُحيطة بالطائرة. سأل أحد الصبية أمه: «ماما، هل يلتقط الرَّب صورًا للملائكة؟». كانت أمه شاحبة، وتضحك راجفة. تبيَّن أن خدمة مقصورة الدرجة الأولى هي الخدمة الوحيدة على متن الرحلة رقم 41 في تلك الليلة. أُضيئت إشارة ربط أحزمة الأمان بعد عشرين دقيقة من الإقلاع وظلَّت مضاءة طوال الرحلة. جميع المُضيفات على حدٍ سواء لِزمن الممرَّات، مُجيبات أزرار الاستدعاء التي لم تبرح عن الإضاءة كل لحظةٍ كأنها ألعاب نارية تنطلق في سماء مُجتمعٍ مُهذَّب.

«رالف مشغول الليلة»، هكذا قالة رئيسة المُضيفات لها وهي تعبر من جوارها في الممر عائدة إلى أحد السُيَّاح بإمدادات جديدة من أكياس دوار الجو. كانت عبارتها مزيجًا من نصف دعابة ونصف رمزٍ. دائمًا ما يكون رالف مشغولًا في الرحلات الوعرة. ترنَّحت الطائرة، وفلتت صرخة رفيعة من أحدهم، واستدارت المُضيفة قليلًا وسندت بيدها كي تحفظ توازنها لتجد نفسها تنظر مُباشرةً إلى العينين الشاخصتين إلى الفراغ للرجل الجالس في المقعد رقم A-1.

أوه يا إلهي الرحيم، لقد مات. الخمر الذي احتساه قبل الركوب... ثم المطبَّات الهوائية الوعرة... قلبه لم يحتمل... ومات من الرُّعب، هكذا فكَّرت.

كانت عينا الرَّجُل الطويل الناحل مُثبَّتتين عليها، لكنهما لم تكونا تريانها. إنهما لا تتحرَّكان، وهما مُزجَّجتان تمامًا. بالتأكيد هاتان عينا رجُلٍ ميِّت.

أشاحت المُضيفة بوجهها بعيدًا عن تلك النظرة المُريعة، وقلبها ينبض في حلقها بمُعدَّل مُتسارع، وهي تتساءل عمَّا ستفعل، كيف ستتصرَّف، وفي الوقت نفسه تشكر الله أن الرَّجُل على الأقل يجلس وحيدًا، بلا رفيق مقعد ليصرخ ويبدأ في الهلع. قرَّرت أنه ينبغي لها إبلاغ رئيسة المُضيفات

أوَّلًا ثم طاقم المُضيفين الذكور في المُقدِّمة. رُبَّما سيتمكَّنون من لفٍّ بطانية حوله وإغلاق عينيه. سيبُقي الطيَّار على إشارة أحزمة الأمان مُضاءة حتَّى لو هدأت العاصفة كي لا ينهض أحدهم لاستخدام الحمَّام، وعندما سيُغادر بقية الرُكَّاب الطائرة سيظنون أنه نائم فحسب...

تسابقت هذه الأفكار في عقلها سريعًا، ثم عادت إليه لتُلقي نظرة أخيرة مؤكِّدة. العينان الميِّتتان الضريرتان مُثبَّتتان عليها... ثم بعدها رفعت الجُثَّة كوب الماء بالصودا ورشفت منه.

في هذه اللحظة تحديدًا ترنَّحت الطائرة مرَّة أخرى، ومالت بشدَّة، وضاعت صرخة المُضيفة المشدوهة وسط صرخات خوفٍ أخرى أعلى وأكثر حماسة. بعدها تحرَّكت عينا الرَّجُل قليلًا لكن بدرجة كافية كي تعي أنه حي وأنه يراها، وفكَّرت: يا إلهي، عندما صعد إلى الطائرة ظننه في منتصف الخمسينيات من عُمره، لكنه أكثر شبابًا من هذا بكثير، على الرغم من شعره الشَّائب.

ذهبت إليه، رغم أنها لم تنفك عن سماع الرنين نافد الصبر الصادر عن أزرار الاستدعاء من ورائها (إن رالف مشغول الليلة حقًّا: بعد هبوطهم بأمانٍ تام في مطار أوهير بعد ثلاثين دقيقة، ستتخلَّص المُضيفات من نحو سبعين كيس دوار جو مُمتلئًا).

سألته مُبتسمة: «هل أنت بخير يا سيِّدي؟». بدت لها الابتسامة زائفة.. غير حقيقية.

أجابها الرَّجُل الطويل النَّاحل: «كل شيء رائع وعلى ما يُرام». ألقت نظرة سريعة على بطاقة الاسم المدسوسة في الفتحة المُخصَّصة على ظهر مقعد الدرجة الأولى الذي يجلس عليه ورأت أن اسمه هانسكوم. «الأمور بخير وعلى ما يُرام، لكن الهواء صاخب إلى حدٍ ما الليلة، أليس كذلك؟ أظنُّ أن لديك عملًا كثيرًا لتفعليه. لا تشغلي بالك بي...» وابتسم لها ابتسامه شبحيه شاحبة، ابتسامة جعلتها تُفكِّر في الفزَّاعات المُنعزلة الخافقة في حقول نوفمبر الجدباء: «... أنا بأفضل حال».

- «لقد بدوت...»

(ميتًا)

- «... متوعكًا قليلًا».

قال لها: «كنت أُفكِّر في الأيَّام الخوالي. لقد أدركت باكرًا الليلة أنه ثمَّة شيئًا يُدعى الأيَّام الخوالي، على الأقل بالنسبة إليّ».

مزيد من رنين أزرار الاستدعاء، ثم نادى أحدهم في عصبية: «بعد إذنك أيَّتُها المُضيفة؟».

- «حسنًا، إن كنت متأكِّدًا من كونك بخير...».

واصل بن هانسكوم: «كنت أُفكِّر في السَّدِّ الذي بنيته مع بعض أصدقائي. أوَّل أصدقاء حظيت بهم في حياتي حسبما أظنُّ. كانوا يبنون السَّدَّ عندما...» توقَّف بعدها عن الكلام، وبدا مشدوهًا، ثم ضحك. كانت ضحكة صادقة؛ ضحكة صبية خالية من الهموم، وقد بدت غريبة تمامًا في هذه الطائرة المُترجرجة: «... عندما سقطتُ عليهم.. هذا ما فعلته حرفيًّا تقريبًا. على أيِّ حال، كانوا يصنعون فوضى عارمة بهذا السَّدِّ. أتذكَّرُ ذلك».

- «أيَّتُها المُضيفة؟».

- «اعذرني يا سيدي، يتحتَّم عليّ الذهاب ومساعدة بعض الرفاق».

- «بالتأكيد، تفضَّلي».

أسرعت المرأة مُبتعدة وهي مسرورة بتخلُّصها من تلك النظرة.. تلك النظرة المُميتة المُنوِّمة تقريبًا.

أدار بن هانسكوم رأسه إلى النافذة ونظر إلى خارجها. البرق يومض داخل سحابة رمادية عملاقة تبعد تسعة أميال عن جناح ميمنة الطائرة، وفي لحظات الوميض المُتقطِّع، تبدو السُحُب كأمخاخ شفَّافة ماردة مليئة بالأفكار السَّيئة.

تحسَّس بن جيب سُترته، لكن الدولارات الفِضِّية لم تعد هناك. لقد خرجت من جيبه ودخلت جيب ريكي لي. فجأة تمنَّى لو أنه أبقى على واحِدٍ منها على الأقل، فرُبَّما يأتي وقتٌ يصير فيه نافعًا. بالطبع تستطيع العروج على أيِّ بنك -إن لم تكن مُعلَّقًا في أجواءٍ صاخبة على ارتفاع سبعة وعشرين ألف قدم- والحصول على حفنة من الدولارات الفِضِّية، لكنك لن تستطيع استخدام تلك الدوائر النحاسية الرديئة التي تحاول الحكومة تمريرها هذه الأيام على

أنها عُملات حقيقية في أيِّ شيءٍ نافع. لدحر المُستذئبين ومصّاصي الدماء وكل أنواع الأشياء التي تتلوّى تحت أضواء النجوم، فأنت تحتاج إلى ِفضّة.. ِفضّة حقيقية. المرء يحتاج إلى ِفضّة ليتمكّن من ردع وحشٍ. يحتاج...

أغلق بن عينيه. كان الهواء من حوله مُحمّلًا بأصوات الرنين. ترنّحت الطائرة واهتزّت وترجرجت.. الهواء مليء بالرنين. رنين؟

لا... بل أجراس.

إنها أجراس، بل الجرس، سيّد كل الأجراس، الجرس الذي انتظرته طوال العام منذ أن بدأت الدراسة، وهو الانتظار الذي يتكرّر كل عام من نهاية أوّل أسبوع مدرسة.

الجرس.. الجرس الذي يؤذن بميلاد الحُرِّية من جديد.. الرنين الأسمى من بين جميع أجراس المدرسة.

شعر بن هانسكوم الجالس في مقعد مقصورة الدرجة الأولى، مُعلّقًا على ارتفاع سبعة وعشرين ألف قدم في الهواء وسط أجواءٍ راعدة، ووجهه يلتصق بالنافذة، فجأةً بأن جدار الزمن يزداد نحولًا.. ثمّة تمعُّجاتٍ وانقباضاتٍ مُريعة ورائعة في الوقت نفسه بدأت تحدث.. وفكّر: يا إلهي، أنا أُهضم بواسطة ماضيَّ ذاته!

تراقص ضوء البرق على وجهه في الوقت المُناسب، ورغم أنه لم يكن يعلم، لقد انتهى يومٌ وبدأ يومٌ جديد. صار الثامن والعشرون من مايو عام 1985 التّاسع والعشرين من مايو، وذلك فوق مُقاطعة غرب إلينوي المُدلهمة والعاصفة الليلة. المُزارعون الذين أنهكت ظهورهم أعمال الزراعة نائمين كالقتلى أدناه يحلمون أحلامهم المُعتادة، ولا يعلم أحدهم ما الذي رُبّما يتحرّك الآن في حظائرهم وأقبيتهم وحقولهم بينما يهزم الرّعد ويسري البرق.. لا أحد يعلم هذه الأشياء. إنهم يعلمون فقط أن الكهرُباء مقطوعة خلال الليل، وأن الهواء مُشبّعٌ بشحناتٍ هائلة من الكهرباء الاستاتيكية بفعل العاصفة.

لكن ها هي الأجراس تدوِّي على ارتفاع سبعة وعشرين ألف قدم بينما الطائرة تشق طريقها خروجًا من العاصفة إلى الهواء الصافي وتستعيد ثبات

حركتها من جديد.. ها هي الأجراس.. ها هي تدوي بينما بن هانسكوم ينزلق إلى النوم.. وفي أثناء ذلك يختفي الجدار الفاصل بين الماضي والحاضر، ويتخبَّط الرَّجُل ساقطًا بين الأعوام كمن يسقط في بئرٍ عميقة.. رُبَّما كمُسافر الزَّمن في قِصَّة ويلز، يسقط مُمسكًا بقضيب حديدي مكسور عميقًا عميقًا إلى أرض المورلوك، حيث تهدر الآلات بلا توقُّف داخل الأنفاق المُظلمة. ها هي الأعوام تجري رجوعًا: العام 1981، ثم 1977، ثم 1969، وفجأة ها هو هنا.. هنا في يونيو من عام 1958، حيث أشعة شمس الصيف تنتشر في كل مكان، حتَّى إن حدقتيه ضاقتا من خلف جفنيه المُنسدلين استجابةً لأوامر عقله الحالم، الذي لم يكن يرى الظلام المُدلهم الذي يلف غرب إلينوي، بل ضوء شمس يونيو السَّاطع في بلدة ديري في ولاية مين، منذ سبعة وعشرين عامًا مضى.

أصوات أجراس.

الجرس.

المدرسة.

الدراسة قد..

الدراسة قد..

2

... انتهت!

سرى صوت رنين الجرس صعودًا وهبوطًا في أروقة مدرسة ديري، التي يحتل بناؤها المُشيَّد من القرميد الأحمر جزءًا من شارع چاكسون، وقد رفع الأطفال في فصل بن هانسكوم الخامس الابتدائي عقيرتهم في هتافٍ جماعيٍّ عفويٍّ مُبتهج، وحتَّى مسز دوجلاس -أكثر مُعلِّمي المدرسة صرامة- لم تبذل أيَّ جُهدٍ لإسكاتهم. رُبَّما لأنها علمت أن الأمر في نطاق المُستحيل.

لكنها نادت عندما هدأ الهتاف الصاخب: «يا أولاد! هل لي أن أحظى باهتمامكم لحظة أخيرة؟».

الآن علت موجة من الثرثرة المحمومة في هواء الفصل، ممزوجة ببعض التذمُّر. كانت مسز دوجلاس تُمسك بشهادات درجاتهم في يدها. «أتمنى أن

أكون قد نجحت!». هكذا قالت سالي مولر لبيڤ مارش الجالسة في الصف المُقابل. كانت سالي ذكية، وجميلة، ومفعمة بالحيوية. بيڤ أيضًا جميلة، لكنها كانت تفتقر أيَّ حيوية عصر هذا اليوم، ولم يكن يشكِّل لديها فارقًا كونه آخر يوم في الدراسة من عدمه. فقط ظلَّت جالسة في مكانها تنظر إلى حذائها الجلدي، وثمَّة كدمة صفراء بدأت تبهت على إحدى وجنتيها.

قالت بيڤ: «ليس لدي أدنى اكتراث إن كنت قد نجحت أم لا. هذا الخراء لا يهمني في شيء».

استنشقت سالي نفسًا مسموعًا من أنفها. الآنسات لا يستخدمن مثل هذه الألفاظ، هكذا قالت ضمنيًّا بتنفُّسها المسموع. ثم التفتت إلى جريتا بوي. رُبَّما كانت الإثارة الناتجة عن إعلان الجرس انتهاء سنة دراسية أخرى فقط هي التي جعلت سالي توجِّه حديثها إلى بيڤ في المقام الأول، هكذا فكَّر بن هانسكوم. إن كلًّا من سالي مولر وجريتا بوي تنحدر من عائلات ثرية تقطن بيوتًا في غرب برودواي، بينما تأتي بيڤ إلى المدرسة من شقة في أحد تلك المباني السكنية الفقيرة جنوب الشارع الرئيس. يبعد جنوب الشارع الرئيس عن غرب برودواي ميلًا ونصف فقط، لكن حتَّى صبيًّا في عمر بن كان يعي أن المسافة الحقيقية بينهما كالمسافة بين الأرض وكوكب بلوتو[1]. كل ما عليك فعله هو النظر إلى سُترة بيڤرلي مارش الزهيدة وتنورتها الكبيرة جدًّا التي حصلت عليها غالبًا من أحد صناديق جماعة جيش الخلاص وحذاءها البالي، كي تعرف مدى شسوع الهوَّة بين الفتاتين. لكن بن يميل إلى بيڤرلي أكثر... أكثر بكثير. إن سالي وجريتا تحظيان بملابس أفضل، وقد خمَّن أنهما تُصفِّفان شعريهما أو تكويانه أو أيَّ شيءٍ كل شهر أو نحو ذلك، لكنه لم يكن يظن أن هذا يُغيِّر من الحقائق الأساسية على الإطلاق. تستطيعان تصفيف شعريهما كل يوم عند مُصفِّف الشعر كما تشاءان، لكنهما ستظلَّان مُدَّعيتين مغرورتين.

كان يشعر أن بيڤرلي ألطف... وأكثر جمالًا بكثير، رغم أنه لم يكن يجرؤ

(1) الرواية كُتبت في أوائل الثمانينيات، قبل أن يخرج بلوتو من تصنيف كواكب المجموعة الشمسية، ويُصنَّف كويكبًا.

على قول شيءٍ كهذا لها ولو بعد مليون عام. لكن مع ذلك، وفي عزِّ الشتاء، عندما يكون ضوء النهار في الخارج ناعسًا كَهِرٍّ يلتف حول نفسه غافيًا على أريكة، وعندما تثرثر مسز دوجلاس كثيرًا في مسائل الرياضيات (عن كيفية إتقان القسمة المطوَّلة أو العثور على قاسم مُشترك بين كسرين كي تتمكَّن من جمعهما)، أو تقرأ أسئلة كتاب القراءة الجسور الساطعة، أو تتحدَّث عن مناجم القصدير في باراجواي.. في تلك الأيَّام التي تبدو فيها السنة الدراسية وكأنها لن تنتهي أبدًا، ولا يهم إن انتهت أم لا لأن العالم بالخارج كله هُراء... في تلك الأيَّام، كان بن يختلس النَّظر إلى بيڤرلي أحيانًا، مُتأمِّلًا وجهها، ويجد قلبه يتألَّم من اليأس ويزداد إشراقًا في الوقت نفسه. كان يظن أنه مُعجب بها، أو واقع في هواها تمامًا، ولهذا السَّبب كانت بيڤرلي أوَّل من تخطر على باله عندما يتعالى صوت فريق بينجوينز قادمًا من الراديو صادحًا بكلمات أغنية «الملاك الأرضي»: «يا عزيزتي الغالية، أحبك طوال الوقت...». أجل، كان الأمر حماقة كاملة منه، بل زلقًا كمنديلٍ ورقي مُستعمل، لكن في الوقت نفسه لا بأس به، لأنه لم يكن سيبوح قط. كان يظنّ أن الصِّبْيَة البُدَناء مسموح لهم بحب الفتيات الجميلات في السِّر فقط. إذا أخبر أيَّ شخصٍ بحقيقة شعوره (هذا لا يعني أن لديه من يخبره في المقام الأوَّل)، فسينفجر هذا الشخص غالبًا ضاحكًا حتَّى يُصاب بأزمة قلبية، وإذا تجرَّأ وأخبر بيڤرلي في أيِّ وقت، فهي إما ستضحك هي نفسها (وهذا سيئ)، أو ستصدر أصواتًا مُشمئِزَّة من أنفها (وهذا أسوأ).

- «الآن من فضلكم، من يسمع اسمه يأتي لاستلام شهادته. بول أندرسون... كارلا بوردو... جريتا بوي... كالڤين كلارك... كيسي كلارك...».

وبينما هي تُنادي بأسمائهم، تقدَّم تلاميذ الصَّف الخامس واحدٌ تلو الآخر (باستثناء التوأمان كلارك، اللذان تقدَّما معًا كالعادة، يدًا في يدٍ، مُتماثلان في كل شيء إلا في طول شعرهما الأشقر الفاتح، وحقيقة أنها ترتدي ثوبًا، بينما هو يرتدي سراويل چينز)، واستلموا شهاداتهم الصفراء الباهتة المطبوع على مُقدِّمتها العلم الأمريكي وقسم الولاء، وعلى الخلف الصلاة الرَّبانية، ثم

خرجوا من قاعة الدرس في مشية رزينة مُتثاقلة... ثم ما إن صاروا في الردهة، تقافزوا مُبتهجين مُندفعين إلى حيث تقبع الأبواب الكبيرة مفتوحة على اتِّساعها. ثم ركضوا ببساطة إلى حرارة الصيف واختفوا عن الأنظار.. بعضهم راكبًا درَّاجة، وبعضهم متواثبًا، وبعضهم يمتطي جيادًا خفيَّة وهم يصفعون بأيديهم على جوانب أفخاذهم لخلق صوت خبيب الحوافر، وبعضهم يضع ذراعه على كتف زميله ويُغنيان معًا: «شهدت عيناي مجد احتراق المدرسة» في مُحاكاة ساخرة لأنغام نشيد «ترنيمة معركة الجمهورية».

- «مارسيا فادن... فرانك فريك... بن هانسكوم».

نهض بن واقفًا، واختلس نظرة أخيرة إلى بيقرلي كزَادِهِ الأخير لهذا الصيف (أو هكذا ظنَّ وقتها)، وتقدَّم إلى مكتب مسز دوجلاس، صبي في الحادية عشرة من عمره يحمل علبة طعام في حجم مدينة نيومكسيكو تقريبًا؛ هذه العلبة مُعلَّقة في سراويل چينز جديدة زرقاء شنيعة تنعكس سهام الضوء على حُليَّاتها النحاسية وتُصدِر صوت فيشت-فيشت-فيشت مع احتكاك فخذيه الضخمين أحدهما بالآخر. ترجرج ركاه كأوراك الفتيات، وانزلق بطنه من جانب إلى آخر. كان يرتدي سُترة فضفاضة طويلة الكُمَّين على الرغم من حرارة الجو اليوم. كان بن دائمًا تقريبًا ما يرتدي هذه السُترات الفضفاضة لأنه صار يخجل بعمق من مظهر صدره منذ أوَّل يوم في الدِّراسة بعد عطلة الكريسماس، عندما ارتدى تيشيرت رابطة اللبلاب الذي أهدته له أمه، ليُفاجأ بعدها ببيلش هاجنز من الصف السَّادس يصيح بمِلء حنجرته: «هاي، يا شباب! انظروا ماذا أهدى سانتا كلوز إلى بن هانسكوم في الكريسماس! ثديان كبيران!». بعدها كاد بيلش أن يرتمي أرضًا من لذاذة طُرفته. ضحك الآخرون بدورهم، وكان من ضمنهم فتيات. إذا كانت توجد فجوة تقود إلى العالم السُفلي قد فُتِحت أمامه في تلك اللحظة، لقفز بن إلى ظُلُماتها دون أدنى صوت... أو رُبَّما بتنهيدة امتنان.

منذ ذلك اليوم وهو يرتدي سُترات ثقيلة. كان لديه أربعة منها: السُترة الفضفاضة البُنِّية، والسُترة الفضفاضة الخضراء، والسُترتان الفضفاضتان الزرقاوتان. كان هذا القرار أحد الأشياء القليلة جدًّا الذي استطاع مواجهة

أمه بها وإرضاخها له.. أحد الخطوط القليلة -طوال فترة صباه الخانعة- التي وجد نفسه مُضطرًّا لرسمها في التُراب. ظن أنه لو كان رأى بيڤرلي مارش تضحك مع الآخرين في ذلك اليوم، لمات على الفور.

قالت له مسز دوجلاس وهي تناوله شهادته: «لقد كان من دواعي سروري أن أحظى بك هذا العام يا بنچامن».

- «شكرًا لك يا مسز دوجلاس».

تعالى صوتٌ ساخرٌ مُقلِّد في اصطناع من نهاية الفصل قائلًا: «ثكرًا لك يا مثز دوجواس».

كان هذا هنري باورز بالطبع. ظلَّ هنري في صف بن الخامس بدلًا من الانتقال إلى الصف السادس مع صديقيه بيلش هاجنز وڤيكتور كريس لأنه رسب العام الماضي، وقد ظن بن أنه سيرسب مرَّةً أخرى، لأن مسز دوجلاس لم تُنادِ اسمه وهي توزِّع الشهادات، وهذا يعني وجود مُشكلة. شعر بن بالانزعاج حيال الأمر، لأن هنري لو رسب مرَّة أخرى، فبن نفسه سيكون مسؤولًا بشكلٍ جزئي عن هذا... وهنري يعلم هذا جيِّدًا.

في أثناء امتحان نهاية العام الأسبوع الماضي، أجلستهم مسز دوجلاس بطريقة عشوائية في أرجاء الفصل عن طريق سحب أسمائهم من قُبَّعة على مكتبها، وانتهى الأمر ببن جالسًا جوار هنري باورز في الصف الأخير. كعادته، أحاط بن ورقة الإجابة بذراعه ثم انحنى فوقها شاعرًا بالضغطة المُريحة لمعدته على طرف المكتب، وراح يلعق ممحاة قلمه الرصاص بلسانه من حينٍ لآخر للإلهام.

ثم في مُنتصف امتحان يوم الثُلاثاء -الذي تصادف أن يكون في مادة الرياضيات- ترامت همسة إلى أُذُن بن آتية عبر الممر. كانت خفيضة وحثيثة وخبيرة كهمسة سجين مُخضرم يُمرِّر رسالة في فناء سجنٍ: «غَشِّشني».

نظر بن إلى يساره ومباشرةً إلى عيني هنري باورز السوداوين الغاضبتين. كان هنري صبيًّا ضخمًا بالنسبة إلى سنوات عمره الاثنتي عشرة. كانت ذراعيه وساقيه سميكة ومُمتلئة بعضلاتٍ قوَّاها العمل في المزرعة. كان والده -الذي تسبقه سُمعة جنونه- يمتلك رقعة أرض صغيرة في نهاية شارع كانساس قُرب حدود مدينة نيوبورت، وعادةً يقضي هنري ثلاثين ساعة يوميًّا في العزق

وإزالة الأعشاب الضَّارة والزرع وتخليص الأرض من الصخور والجني والحصد، إذا كان ثمَّة أيٍّ شيءٍ لحصده.

كان شعر هنري قصيرًا من الأعلى ومحلوقًا تمامًا من الجانبين حتَّى أنك تستطيع رؤية بياض فروة رأسه، ما أكسبه مظهرًا عدوانيًا غاضبًا، وقد دهن الشعر القصير أعلى رأسه بالشمع من أنبوبٍ دائمًا يحمله معه في جيب سراويله الجينز. كنتيجة لذلك، بدا الشعر الذي يعلو جبينه كأسنان آلة جزِّ حشائشٍ تقترب. أيضًا دائمًا ما كنت تستطيع شم رائحة عالقة به: رائحة عرقٍ وعلكةٍ بنكهة الفاكهة. كان يأتي إلى المدرسة مُرتديًا چاكيت درَّاجات نارية وردي اللون بمُلصق نسر على ظهره. ذات يوم، ضحك أحد الصبية غير الحُكماء في الصف الرابع ساخرًا من الچاكيت. التفت هنري إلى الطفل -رشيقًا كابن عرس وسريعًا كأفعى- ولكم الفتى لكمة مزدوجة بقبضة مُتَّسخة من العمل في الأرض. فقد الصبي ثلاثًا من أسنانه الأمامية، وفُصِل هنري باورز مُدَّة أسبوعين من المدرسة، وقتها تمنَّى بن -بأمل المُضطَّهدين والمروَّعين المُشوَّش لكن المُلِح- أن يُطرد هنري باورز بدلًا من أن يُعاقب بالفصل المؤقت. لكنه لم يكن محظوظًا لهذه الدرجة، والعُملة الرديئة دائمًا ما تعود. انقضت مُدَّة العقوبة، وعاد هنري باورز مُختالًا مُتعجرفًا إلى فناء المدرسة، مُتألِّقًا في چاكيته الوردي، وشعره مُصفَّف بعناية شديدة ومُثبَّت بشمع ثقيل ويبرز من جمجمته صارخًا مُتحدِّيًا. كلتا عينيه حملت انتفاخات وآثارًا داكنة من الضرب الذي أوقعه والده به بسبب «الشجار في فناء المدرسة». ثم تلاشت آثار الضرب في النهاية، لكن بالنسبة إلى الأطفال الذين يشاركون هنري باورز العيش في ديري، لم يتلاشَ الدرس، وعلى حدِّ علم بن، لم يذكر أحدٌ أيَّ شيءٍ عن چاكيت هنري الوردي ذي مُلصق النسر على الظهر منذ ذلك الحين.

عندما همس هنري مُتجهِّمًا ليدعه يغش، طرأت ثلاث أفكار سريعًا على عقل بن - الذي كان ألمعيًا وسريعًا بقدر بدانة جسده- في غضون ثوانٍ. الأولى أنه إذا اكتشفت مسز دوجلاس أن هنري غشَّ الأجوبة من ورقة إجابته سيحصل كلاهما على صفر في الامتحان. الثانية أنه إذا لم يسمح لهنري

بالغشّ، فإن هنري سينتظره بعد المدرسة وسيعالجه بلكمته المزدوجة ذائعة الصيت، رُبَّما بينما يمسك هاجنز ذراعه وكريس الذراع الأخرى.

كانت هذه أفكار طفل، ولم يكن ثمَّة شيءٌ مُفاجئٌ في هذا، لأنه كان طفلًا. أما الفكرة الثالثة والأخيرة فكانت أكثر تعقيدًا، وتبدو كأفكار الكبار تقريبًا.

حسنًا، قد يُمسَك بي. لكنني رُبَّما أستطيع الابتعاد عن طريقه طوال الأسبوع الأخير في الدراسة. أنا متأكِّد من أنني أستطيع ذلك، إذا حاولت مُخلصًا، وبالتأكيد سينسى الأمر برُمَّته خلال إجازة الصيف، أظنُّ ذلك. أجل. إنه أحمق تمامًا، وإذا أخفق في هذا الامتحان، فرُبَّما سيعيد السنة مرَّةً أخرى، وإذا عاد السنة فسأسبقه حينها، ولن نتشارك الفصل نفسه مرَّةً أخرى... وسأنتقل إلى المدرسة الإعدادية قبل أن يفعل هو. رُبَّما... رُبَّما سأصير حُرًّا.

همس هنري من جديد: «غَشِّشني»، وعيناه السوداوان تتَّقدان شرًّا الآن في إلحاح:

هزَّ بن رأسه نافيًا، ولفَّ ذراعه بإحكام أكثر حول الورقة.

همس هنري إليه بصوتٍ أعلى هذه المرَّة: «سأنال منك أيُّها البدين». كانت ورقة إجابته ناصعة البياض، وخالية تمامًا إلا من اسمه. كان يائسًا. إذا رسب في الامتحان وأعاد السنة مرَّة أخرى، سيوسعه أبوه ضربًا. «دعني أنقل منك وإلا ستنال الجحيم مني».

هزَّ بن رأسه ثانيةً بفكٍّ مُرتعش. كان خائفًا، لكنه كان مُصمِّمًا أيضًا، وقد أدرك أنه للمرَّةِ الأولى في حياته استطاع إلزام نفسه -واعيًا- بمسارٍ اختاره، وهذا ما أخافه أيضًا، رغم أنه لم يعرف السَّبب.. ولسوف تمرُّ سنوات عديدة قبل أن يُدرك أن برودة دم عقله الحسابي، وتقديره البراجماتي الدقيق للتكلفة، وما ينطوي عليه ذلك من إرهاصات نضوج مُبكِّر، أثارت خوفه أكثر ممَّا أثاره هنري. إنه قادر على مراوغة هنري نوعًا، أما البلوغ -الذي سيُفكِّر فيه عقله بهذه الطريقة طوال الوقت تقريبًا- فهو ما سيقتنصه في النهاية.

في هذه اللحظة، صاحت مسز دوجلاس بصوتٍ شديد الوضوح: «هل يتكلَّم أحدٌ في الصَّف الأخير؟ إذا كان هذا يحدث فأريده أن يتوقَّف على الفور».

عمَّ الصَّمت في العشر ثواني التالية، وظلَّت الرؤوس اليافعة مُنكبَّة على

أوراق الامتحان التي تفوح منها رائحة الحبر الأزرق، ثم انتقلت همسة هنري باورز عبر الممر من جديد.. خفيضة، مسموعة بالكاد، مُرجِفة بوعدها الهادئ الواثق:

- «أنت ميِّت أيُّها البدين».

3

أخذ بن شهادته وفرَّ من الفصل -مُمتنًّا لأيِّ آلهة قد تكون هناك في الأعلى وتؤازر الصبية البدناء البالغين من العمر إحدى عشرة سنة والتي لم يحظ هنري باورز بحظوتها- لكونها لم تسمح لهنري باورز بالخروج من الفصل -بحكم الترتيب الأبجدي- لمُلاقاته في الخارج.

لم يركض بن عبر الردهة كالصبية الآخرين. كان قادرًا على الركض، وبسرعة نسبية كبيرة بالنسبة إلى صبيٍّ في حجمه، لكنه كان يعي تمامًا كم يبدو مُضحكًا حينما يفعل. لكنه حث الخطى رغم ذلك، واندفع خارجًا من الرواق البارد الذي تفوح منه رائحة الكتب إلى شمس يونيو الساطعة، وقف بن لحظة بوجهٍ مرفوع إلى أعلى مواجهًا أشعة الشمس، مُمتنًّا لدِفئها ولحُريَّته، وقد بدا له أن شهر سبتمبر يبعد ملايين السنين عن اليوم. رُبَّما يكون للرُزنامة رأيٌ مُخالف، لكن ما تبوح الرُزنامة به لهو محض كذب. الصيف سيكون أطول بكثير من مُجرَّد مجموع أيَّامه، وهو مِلكهُ بالكامل. شعر بن أنه طويلٌ بطول بُرج المياه، وعريض بعرض البلدة برُمَّتها.

صَدَمهُ شخصٌ ما.. بقوَّة. تبخَّرت أفكاره السعيدة عن الصيف من عقله وهو يترنَّح بعُنف محاولًا حفظ توازنه على حافَّة الدرجات الحجرية، وأمسك بالدرابزين الحديدي في اللحظة الأخيرة ليُجنِّب نفسه سقطة قاسية.

- «ابتعد عن طريقي يا كُتلة الأمعاء». كان هذا ڤيكتور كريس بشعره اللامع بالكريم والمُصفَّف إلى الخلف على طريقة إلڤيس، الذي هبط الدرج وسار عبر الممشى الذي يقود إلى البوابة الأمامية داسًّا يديه في جيبي سراويله الچينز، وياقة قميصه مرفوعه إلى أعلى، وبزابيز نعل حذائه طويل الرقبة تكشط الأرض وتنقر عليها.

بقلبٍ راجف ما زال يخفق من الذُعر، لمح بن بيلش هاجنز يقف على

الناحية الأخرى من الشارع مُمسكًا بعقب سيجارة بين أصابعه، ثم رفع يده باللُفافة وناولها لڤيكتور عندما انضم إليه الأخير. سحب ڤيكتور نفسًا عميقًا منها وأعادها إلى بيلش، ثم أشار إلى حيث يقف بن الآن، في مُنتصف الطريق على الدرج. ثم قال شيئًا ما وضجَّ الاثنان بعدها بالضحك. شاع الاكتئاب على وجه بن. أولئك الفتية دائمًا ما ينالون منك. الأمر كالقدر أو شيء من هذا القبيل.

ترامى صوتٌ من جوار ذراعه قائلًا: «هل ستقف هنا طوال اليوم؟ أتحب المكان إلى هذه الدرجة؟».

التفت بن إلى الصوت، واشتعل وجهه بحُمرة الخجل. كانت هذه بيڤرلي مارش، بشعرها الكستنائي الذي يتلألأ كسحابة حول رأسها وينسدل على كتفيها، وعينيها الرماديتين الخضراوتين المُحبَّبتين. كانت سُترتها -المُشمَّرة إلى الكوعين- مُهترئة من عند الرقبة وتكاد تكون واسعة وفضفاضة كسُترة بن؛ وكانت من دون شك أوسع من أن تُخبرك ما إذا كانت الفتاة اليافعة قد بدأت في تطوير نهدين بالفعل أم لا. لكن بن لم يكن يأبه لهذا. عندما يأتي الحب قبل البلوغ يُمكنه أن يضرب المرء بموجاتٍ قوية جدًّا وجليَّة تمامًا لا تُمكِّن أحدًا من الوقوف ضد حتميته البسيطة.. وبن لم يُنفق أيَّ مجهودٍ لفعل ذلك الآن.. واستسلم ببساطة. اجتاحه شعور بالحماقة والسمو على حدٍ سواء، ولفَّهُ حرجٌ بالغ لم يختبره في حياته من قبل... لكن في الوقت نفسه شابت هذا الحرج بهجة مُباركة بلا شك. هذه المشاعر المُختلطة الميؤوس منها كان لها تأثير مشروبٍ مُسكِرٍ تركه في حالة من السَّقم والانتشاء.

قال بصوتٍ أجش: «لًا.. لا أظنُّ ذلك»، وشاعت ابتسامة كبيرة في وجهه. كان يعلم كم تبدو بلهاء بالطبع، لكن لم يبدُ قادرًا على كبحها.

- «حسنًا، هذا جيد. لأن الدراسة انتهت كما تعرف الحمد لله».

- «أتمنَّى...». تحشرج صوته مرَّة أخرى؛ يجب أن يُجلي حنجرته. أيضًا ازدادت حُمرته: «أتمنَّى لكِ صيفًا طيِّبًا يا بيڤرلي».

- «وأنت أيضًا يا بن. أراك السنة القادمة».

قالتها وهبطت الدرج سريعًا، وتأمَّل بن تفاصيلها بعين المُحِب: نسيج

تنُّورتها المُشرق، وتراقُص شعرها الأحمر من خلف سُترتها، ولون بشرتها الحليبي، والجرح الصغير المُلتئم على مؤخِّرة ساقها، والخُلخال الذهبي اللَّامع الذي يلتف حول كاحلها ويعكس أشعة الشمس في ومضاتٍ صغيرة برَّاقة (لسببٍ ما فجَّرت هذه التفصيلة الأخيرة موجة شعورية أخرى اجتاحته بقوة كاسحةً اضطر معها إلى الإمساك بالدرابزين مرَّة أخرى؛ كان شعورًا هائلًا، مُسكِرًا، لكنه وجيزٌ رحمةً به، ورُبَّما تضمَّن إشارة جنسية مُبكِّرة قبل أوانها لا تعني شيئًا لجسده -حيث لا زالت غدده الصمَّاء تقبع نائمة نومًا بلا أحلام- لكنها رغم ذلك بدت له واضحة وضوح شمس الصيف الحارقة).

صدر عنه صوتٌ خافت.. صوتٌ ما. هبط بن الدرجات كرجلٍ مُسنٍ واهن ووقف عند نهايتها، مُنتظرًا إلى أن انعطفت بيڤرلي يسارًا واختفت عن نَظَرِه خلف السور العالي الذي يفصل فناء المدرسة عن الرصيف.

4

لم يقف بن مكانه سوى لحظات، ثم تذكَّر هنري باورز بينما الصبية ما زالوا يمرُّون من جواره في مجموعاتٍ راكضة صاخبة، فأسرع في طريقه مُلتفًّا حول المبنى. عَبَر بن الفناء المُخصَّص لأطفال الروضة، وهو يُمرِّر إصبعه على سلاسل الأرجوحات جاعلًا إيَّاها تُصلصل كالأجراس، وقافزًا فوق ألواح ألعاب المتوازي. خرج بن من البوَّابة الأصغر كثيرًا التي تفضي إلى شارع شارتر واتَّجه يسارًا دون أن ينظر خلفه إلى كومة الحجارة التي أمضى فيها مُعظم أسابيعه الماضية، وضع الصبي شهادته في جيب سراويله الخلفي وبدأ يُصفِّر. كان يرتدي زوجًا من أحذية كيدس، لكنه لمسافة ثمانية مباني أو نحو ذلك كان يسير على أطراف أصابعه، دون أن يلمس باطنا قدميه الأرض قط.

لقد خرج من المدرسة بعد الظهيرة بقليل، وأمه لن تعود إلى المنزل حتَّى الساعة السادسة على الأقل، لأنها في أيَّام الجُمع تذهب مُباشرة بعد العمل إلى متجر شوب أند سيڤ. البقية الباقية من اليوم مِلكهُ.

عرج الصبي على حديقة مكارون لبعض الوقت، وجلس تحت شجرةٍ هناك لا يفعلُ أيَّ شيءٍ سوى الهمس من حينٍ لآخر «أنا أُحب بيڤرلي مارش»

بصوتٍ خفيض، ليشعر بالسُكرِ والرومانسية يتزايدان في كل مرَّة يتلفَّظ فيها بها، وعند لحظة مُعيَّنة -مع اندفاع مجموعة من الأولاد إلى الحديقة ورسمهم حدودًا تقديرية لبدء مُباراة بيسبول- همس بن مرَّتين «بيڤرلي هانسكوم»، ثم اضطر بعدها إلى إخفاء وجهه في العُشب حتَّى تبرد وجنتاه اللتان تنضحان سخونة.

بعد ذلك بقليل، نهض من مكانه واتَّجه عبر الحديقة إلى جادة كوستيلو. إذا سار مسافة خمسة مبانٍ أخرى سيقوده هذا إلى المكتبة العامة، التي افترض أنها كانت وجهته الأساسية من البداية. كان بالكاد قد خرج من الحديقة عندما صاح به صبي في السنة السادسة الابتدائية اسمه بيتر چوردون قائلًا: «هاي، يا ذا الثديين! أتُريد اللعب؟ نُريد شخصًا ليكون في الجناح الأيمن!»، وانفجر الجميع ضاحكين بعدها. فرَّ بن بأسرع ما يُمكنه وهو يحني رقبته إلى أسفل نحو ياقته كسُلحفاة تسحب رأسها رجوعًا إلى صدفتها.

ومع ذلك، اعتبر نفسه محظوظًا تمامًا. في يومٍ آخر، قد يُطارده الأولاد، رُبَّما للسُخرية منه وتقريعه فقط، أو لدفعه أرضًا وتمريغه في الطين ليروا ما إذا كان سيبكي. اليوم كانوا شديدي الإنهماك في تفاصيل بدء المُباراة، وهل سيلجأون إلى القرعة برمي المضرب أم القُرعة بالبطاقة الأعلى لاختيار لاعبي الفريقين، وأيُّ فريق سيحظى بأفضلية الهجوم في الشوط النهائي، وكل تلك الأمور. تركهم بن سعيدًا للتفاصيل الغامضة التي تسبق مُباراة الكُرة الأولى لهذا الصيف، ومضى في طريقه.

على بُعد ثلاثة أبنية في طريقه عبر جادة كاستيلو لمح بن شيئًا مُثيرًا -بل رُبَّما مُربِحًا- أسفل سياج أحد المنازل. ثمَّة زجاج يلتمع من شقٍّ في حقيبة ورقية قديمة مُمزَّقة. سحب بن الحقيبة إلى الرصيف الذي يقف عليه بقدمه. لا بُدَّ أن الحظ كان رفيقه بالفعل، لأنه توجد أربع زجاجات بيرة وأربع زُجاجات صودا كبيرة داخلها. الزجاجات الكبيرة تساوي خمسة سنتات لكل واحدة، والراينجولد تساوي عشرة سنتات للواحدة. هذه ثمانية وعشرون سنتًا عالقة أسفل سياج أحدهم تنتظر قدوم صبيٌ ما لاقتناصها.. صبيٌ ما محظوظ.

- «أنا هذا الصبي». قالها بن سعيدًا، دون أن يعلم ما يُخبِّئُهُ له باقي اليوم.

بدأ في التحرُّك مُجدَّدًا حاملًا الحقيبة من الأسفل كي لا تتمزَّق. إن متجر جادة كاستيلو على بُعد ناصية أُخرى أمامه، وقد وصل إليه بن سريعًا، واستبدل بالزُجاجات النقود، وبالنقود الحلوى، وقف بن قُبالة نافذة الحلوى الرخيصة، التي تُكلِّف بنسًا واحدًا للقطعة، مُبتهجًا كالعادة بالصوت المُتصاعد تدريجيًّا لآلية الأبواب المُنزلقة عندما يدفعها عامل المتجر على طول مسارها المُحمَّل على كُريات. اشترى بن خمسة سياط عرق سوس سوداء، وخمسة حمراء، وعشر قطع من حلوى روتبير على هيئة براميل (الاثنتان منها بسنت)، وشريطًا ورقيًا من كُريات الحلوى الملوَّنة (الشريط يحتوي على خمس كُريات في الصف، ومكوَّن من خمسة صفوف ويُكلِّف سنتًا، وتستطيع أكلها من الورقة مُباشرةً)، وحزمة من حلوى لايكيم آدي، وحزمة جديدة من حلوى بيز من أجل مُسدَّس الحلوى لديه في المنزل.

خرج بن من المتجر يحمل كيسًا بُنيًّا من الورق مليئًا بالحلوى وأربعة سنتات في الجيب الأيمن لسراويله الچينز الجديدة. نظر بن إلى الكيس البُنِّي بحمولة الحلوى داخله وفجأة حاولت خاطرة أن تطفو إلى سطح عقله.

(استمرَّ في الأكل بهذه الطريقة ولن تنظر لك بيڤرلي مارش في حياتك أبدًا)

لكنها كانت فكرة غير سارَّة لذا طردها بن بعيدًا. ذهبت الفكرة عنه بسهولة نسبية كبيرة؛ هذه فكرة اعتادت النفي بعيدًا.

لو أن شخصًا سأل بن قائلًا: «بن، هل أنت وحيد؟»، فلا بُدَّ أنه سينظر إلى هذا الشخص باندهاشٍ حقيقي. هذا السؤال لم يطرأ على عقله قط. هو لا يمتلك أصدقاء، لكن لديه كتبه وأحلامه.. لديه نماذج ريڤيل الهندسية.. لديه مجموعة هائلة من مُكعَّبات لينكولن لوجز، وقد بنى بها جميع أنواعُ الأشياء. ذات مرَّة، قالت أمه إن منازل بن التي بناها بمُكعَّبات لينكولن لوجز أفضل من تلك الأصلية التي أتت مرسومة في المُخطَّطات. لديه أيضًا تجميعة جيِّدة من مجموعات إيرِّكتور لألعاب البناء، وكان يأمل في الحصول على المجموعة الكُبرى عندما يحل عيد ميلاده في أكتوبر القادم. بهذه المجموعة، تستطيع صنع ساعة حقيقية قادرة على العمل، وعربة بناقل تروسٍ حقيقيٍّ، وحيد؟

لرُبَّما كانت إجابته عن مثل هذا السؤال الأحمق بصراحة وأريحية تامة: هه؟ ماذا؟

الطفل الذي يُولد أعمى لا يعرف أنه أعمى إلى أن يُخبره شخصٌ بهذا، وحتَّى عندها، لن يستوعب أكثر من الفكرة المُجرَّدة الأكاديمية عن ماهية العمى؛ فقط من كان مُبصرًا سيعي فداحة الأمر الحقيقية.. وبن هانسكوم لم يكن لديه وعي بالوحدة لأنه كان طفلًا وحيدًا طوال عمره ولا شيء سوى آخر. إذا كان هذا الأمر جديدًا، أو أكثر محدودية، لرُبَّما استطاع استيعابه؛ لكن لطالما شملت الوحدة حياته وتجاوزتها. إنها موجودة فحسب في خلفية حياته، كإبهامه ثنائي المفصل أو الفرجة الطفيفة بين سنَّتيه الأماميتين.. الفرجة التي يُداعبها بلسانه كُلَّما كان متوتِّرًا.

إن بيڤرلي حُلمٌ حُلو المذاق، أما الحلوى فحقيقة حُلوة المذاق. الحلوى صديقاته. لذا أمر بن الفكرة الدخيلة أن تمضي بعيدًا، وقد انصاعت بهدوء، ودون ضجيج من أي نوع، وخلال المسافة التي تفصل متجر جادة كاستيلو عن المكتبة، كان قد ازدرد كل الحلوى التي في الكيس. لقد حاول صادقًا ادِّخار قطع حلوى البيز لالتهامها وهو يُشاهد التلفاز الليلة.. لكم يُحب تعبئتها في المُسدَّس البلاستيكي الصغير بقبضة يده واحدة تلو الأخرى، لكم يُحب سماع صوت طقطقة الآلية الداخلية وهي تسمح لها بالدخول، والأكثر من كل ذلك لكم يُحب أن يُطلقها في فمه واحدة تلو الأخرى كطفلٍ ينتحر بالسُكَّر. سيُعرض مُسلسل ويرلي-بيردز الليلة، الذي يلعب فيه كينيث توبي شخصية طيَّار المروحية الجسور؛ أيضًا مُسلسل الجريمة دراجنات، الذي يُقدِّم قضايا حقيقية مع تغيير الأسماء لحماية الأبرياء؛ بالإضافة إلى مُسلسله البوليسي المُفضَّل: هايواي باترول، بطولة برودريك كروفورد في دور شُرطي الدورية دان ماثيوز. كان برودريك كروفورد بطلَ بن المُفضَّل. برودريك كروفورد سريع. برودريك كروفورد وغد خسيس. برودريك كروفورد لا يكترث لهُراء أيِّ شخصٍ...

والأفضل من كل ذلك، كان برودريك كروفورد بدينًا.

وصل بن إلى ناصية تقاطع شارعي كوستيلو وكانساس، حيث عبر الطريق

إلى المكتبة العامة. كانت المكتبة مكوَّنة من مبنيين: المبنى القديم الحجري الذي شُيِّد بأموال أباطرة الأخشاب في عام 1890، والمبنى المُنخفض المُنفصل الجديد الذي يضم مكتبة الأطفال.. وكانت مكتبة الكبار الأمامية ومكتبة الأطفال الخلفية تتَّصلان بواسطة رواقٍ زُجاجي.

كان هذا قريبًا من وسط المدينة.. ولأن شارع كانساس ذو اتِّجاهٍ واحد، لم ينظر بن سوى إلى جانب واحد -يمينًا- قبل أن يعبر. إذا كان قد نظر يسارًا، فلا بُدَّ أن صدمة عنيفة كانت ستُصيبه. ففي ظِلٍّ شجرة بلوطٍ قديمة ضخمة تقف في حديقة مركز ديري المُجتمعي، وقف كلٌّ من بيلش هاجنز، وڤيكتور كريس، وهنري باورز.

5

- «هَلُم، لنُمسك به يا هانك». هكذا صاح ڤيكتور وهو يلهث تقريبًا.

راقب هنري الصبي البدين الأخرق الذي يعبر الطريق بخطواتٍ قصيرة سريعة. كان بطنه المُنتفخ يتواثب، والخصلة الشاذة من الشعر في مؤخِّرة رأسه تتأرجح صعودًا وهبوطًا كأنه امرأة فاتنة لعوب لعينة، أما مؤخرته الطرية فتترجرج داخل الچينز الجديد كمؤخِّرة فتاة. قدَّر هنري المسافة التي تفصل ثلاثتهم هنا في حديقة المركز المُجتمعي عن هانسكوم، والمسافة بين هانسكوم وملاذ المكتبة، وخمَّن أنهم قد يستطيعون الوصول إليه قبل أن يدخل، لكنه قد يبدأ في الصراخ. لن يندهش إذا فعلها المُخنَّث الصغير، وإذا فعلها، فقد يتدخَّل أحد الكبار، ولم يكن هنري يرغب في أيِّ تدخُّل. تلك العاهرة دوجلاس أخبرت هنري أنه سقط في مادتي اللغة الإنجليزية والحساب. لكنها أخبرته أنها سوف تُنجِّحهُ فيهما، لكن سيتحتم عليه أن يأخذ أربعة أسابيع من الدراسة التعويضية خلال الصيف. كان هنري يُفضِّل إعادة السنة. إذا أعاد السنة، فلسوف يُبرحه أبوه ضربًا مرَّة واحدة. لكن إذا اقتطع هنري أربع ساعات يوميًا لمُدَّة أربعة أسابيع من وقت العمل في المزرعة في أكثر مواسمها إنتاجية، فإن أباه سيضربه نصف دزينة من المرَّات، ورُبَّما أكثر. لكنه كان مُتصالحًا مع هذا المُستقبل الجاهم لأنه ينتوي إفراغ كل ما في جعبته من غيظ على هذا المُخنَّث الصغير البدين عصر اليوم.

وبالفوائد.

قال بيلش: «أجل، هيا بنا».

- «سوف ننتظره عندما يخرج».

راقب ثُلاثتهم بن وهو يفتح أحد الأبواب المزدوجة الضخمة ويدلف إلى الداخل، ثم افترشوا الأرض بعدها وأشعلوا لفافات التبغ وتبادلوا النكات الخارجة مُنتظرين خروجه.

كان هنري يعلم أنه لا بُدَّ خارجٌ في نهاية المطاف، وعندما يفعل، سيجعله هنري يندم على اليوم الذي وُلِد فيه.

6

لكم كان بن يُحب المكتبة.

أحب برودتها المُعتدلة دائمًا، حتَّى في أكثر أيَّام الصيف سخونة. أحب همهماتها الهادئة، التي لا يقطعها سوى همسٍ عابر، والخبط المُستمر الخافت الذي يُحدثه أحد أُمناء المكتبة وهو يختم الكتب وبطاقات الاستعارة، أو حفيف الأوراق التي تُطوى وتُقلَّب في غُرفة مُطالعة الدوريات، حيث يمضي رجالٌ مسنُّون أوقاتهم هناك يطالعون الصُحُف التي نُظِمت ورُتِّبت على عصيٍ طويلة. أحب نوعية الإضاءة التي تنحدر من النَّافذة العالية الضيقة في أوقاتَ العصر أو تسبح بكسل آتية من المصابيح الدائرية في ليالي الشتاء بينما تعوي الرياح في الخارج. أحب رائحة الكتب.. الرَّائحة الحرِّيفة الخفيفة الرائعة. اعتاد أحيانًا السير بين الكتب المُكدَّسة على رفوف مكتبة الكبار، والنظر إلى آلاف المُجلَّدات، وتخيُّل عالمٍ كاملٍ من الحيوات يسكُن كلًا منها، بالطريقة ذاتها التي يسير بها على طول شارعه في حُمرة شمس المغيب التي يغشيها الدُخان في عصاري نهايات شهر أكتوبر، عندما لا تعدو الشمس أكثر من خطٍ برتقالي في الأُفُق، ويتخيَّل كل الحيوات المُختلفة المُختبئة وراء كل النوافذ.. أناس يضحكون أو يتجادلون أو يُرتِّبون الأزهار أو يطعمون أطفالهم أو حيواناتهم الأليفة أو أفواههم ذاتها وهم يشاهدون التلفاز. أحب دِفء الرواق الزُجاجي الذي يربط المكتبة الرئيسة بالمبنى القديم حيث مكتبة الأطفال، حتَّى في الشتاء، إلا إذا حدث وتتالت بضعة أيام غائمة. أخبرته السيِّدة ستاريت

-أمينة مكتبة الأطفال- أن هذا بسبب شيءٌ يُدعى ظاهرة الصوبة الزُجاجية. فُتِن بن بالفكرة. بعدها بسنوات سوف يُصمِّم بن مركز اتِّصالات شبكة بي بي سي الذي سيُثير جدلًا مُحتدمًا في لندن، وقد يستعرُّ للنقاش لألف سنة قادمة ولن يعرف أحد -باستثناء بن نفسه- أن مركز الاتصالات في الواقع هو الرواق الزجاجي لمكتبة ديري العامة وقد انتصب بشكلٍ عمودي على قاعدته.

أحب بن مكتبة الأطفال بالمثل -على الرغم من أنها لم يكن لديها السحر الغامض ذاته الذي يستشعره في المكتبة القديمة- بمصابيحها الدائرية وسلالمها الحديدية المقوَّسة شديدة الضيق التي إن استخدمها شخصان في الوقت نفسه يتعيَّن على أحدهما الانتظار. كانت مكتبة الأطفال ساطعة ومُشمسة، وأكثر ضجيجًا برغم اللافتات التي تقول: لنكن أكثر هدوءًا من فضلكم. المُعلَّقة في أرجاء المكان. مُعظم الضوضاء تأتي من رُكن ويني ذا بوه، حيث يمضي الأطفال وقتهم في مُطالعة الكتب ذات الصور. عندما أتى بن اليوم، كان وقت حكي القِصَّة اليومي قد بدأ، والآنسة ديڤيز -أمينة المكتبة اليافعة الجميلة- كانت تقرأ قِصَّة «مِعَاز جراف الثلاثة».

- «من الذي يجرؤ على عبور جسري بحوافره؟».

هكذا تحدَّثت الآنسة ديڤيز بنبرة صوت القزم الخافتة الغليظة في القِصَّة. خبَّأ بعض الأطفال الصغار أفواههم بأيديهم وضحكوا، لكن مُعظم الجمع ظل يستمع وهو ينظر إليها بجديَّة، وقد تقبَّلوا صوت القزم كما يتقبَّلون الأصوات في أحلامهم، وقد عكست عيونهم المُتَّسعة السحر الأبدي للقِصَّة الخيالية: هل سيُدحر الوحش... أم سيحظى بفريسته؟

كانت المُلصقات المُبهجة مُعلَّقة في كل مكان. هنا رسم كارتوني لطفل مُهذَّب يغسل أسنانه بالفرشاة وقد امتلأ بالرغوة الكثيفة كفم كلب مجنون مُكمَّم، وهنا رسم كارتوني لطفل سيِّئ يُدخِّن سيجارة (وقد كُتِب أسفله: عندما أكبر سأصير مريضًا جدًا، تمامًا مثل أبي)، وهنا صورة بديعة لبلايين الأضواء الصغيرة تلتمع في الظلام كرؤوس الدبابيس، وأسفلها عبارة تقول:

فكرة واحدة تُضيء آلاف الشموع

- رالف والدو إمرسون

كانت ثمَّة دعوات للانضمام إلى تجربة الكشَّافة، ومُلصق يروِّج لفكرة أن أندية الفتيات اليوم تؤسس لنساء الغد. كانت توجد استمارات اشتراك في فرق الكُرة اللينة[1] واستمارات اشتراك مسرح أطفال المركز المُجتمعي، وبالطبع ثمَّة المُلصق الشهير الذي يدعو الأطفال للاشتراك في برنامج القراءة الصيفي. كان بن من أشد مُحبي برنامج القراءة الصيفي. إنهم يعطونك خارطة الولايات المُتحدة عند اشتراكك، وبعدها، لكل كتاب تقرأه وتكتب مُلخَّصًا عمَّا استفدته منه، تحصل على مُلصق لإحدى الولايات تلعقهُ بلسانك وتضعهُ على الخريطة. يأتي المُلصق بمعلوماتٍ كاملة عن الولاية، كالطائر الرسمي لها، وزهرتها الرسمية، والعام الذي اعتُرِف بها فيه الاتِّحاد، وأيُّ رؤساء جمهورية -إذا كان ثمَّة أحدهم- أتى منها، وعندما تنجح في الحصول على مُلصقات الولايات الثمانِ وأربعين وتضعهم على خريطتك، تحصل على كتابٍ مجَّاني هدية. يا لها من صفقة جيِّدة. كان بن قد اعتزم أن يفعل ما يقترحه المُلصق تمامًا: لا تُضع وقتًا، سجِّل الآن.

لكن بين هذه الفوضى الجميلة الملوَّنة المُبهجة من المُلصقات، برز مُلصقٌ بسيطٌ صارمٌ مُعلَّقٌ فوق مكتب الخروج.. لم تكن ثمَّة رسومٌ كارتونية أو صورٍ فوتوغرافية بارعة هنا. فقط طباعة بالحبر الأسود على ورقة بيضاء تقول:

تذكَّروا حظر التجوُّل

في السابعة مساءً

قسم شُرطة ديري

مُجرَّد النظر إلى المُلصق جعل القشعريرة تزحف على جسد بن. في وسط معمعة حصوله على شهادته، والقلق من تحرُّش هنري باورز، والتحدُّث إلى بيڤرلي، وبدء العُطلة الصيفية، نسيَ بن كل شيء عن حظر التجوُّل، وعن الجرائم.

تجادل الناس كثيرًا حول عدد الجرائم التي وقعت، لكن جميعهم اتَّفق

---

(1) الكُرة اللينة Softball: تنويعة على رياضة البيسبول الأمريكية، تُلعب بكُرة أكبر حجمًا وفي ملعب أصغر. اختُرعت عام 1887 في شيكاجو لتُمارس في الملاعب المُغلقة عكس البيسبول، وحازت اسمها لأن الكُرة التي تُستخدم في اللعب ليِّنة ككرة التنس.

أن أربعًا على الأقل وقعت منذ الشتاء الماضي.. بل خمس إذا حسبت واقعة چورچ دِنبروه (كثيرٌ اعتقدوا أن وفاة ربيب آل دِنبروه حادثة غريبة وشاذَّة من نوعٍ ما). أما أوَّل ضحية تأكَّد الجميع من أنها ماتت مقتولة هي بيتي زيبسوم، التي عُثر عليها في اليوم الذي تلى الكريسماس قرب حواجز البناء عند التخوم الخارجية لشارع چاكسون. الفتاة ذات الثلاثة عشر ربيعًا وُجِدت مُشوَّهة ومُتجمِّدة على الأرض الطينية. لم يُذكر هذا في الصُحُف، ولم يتحدَّث به أيٌّ من الكبار أمامه. كان هذا شيئًا التقطته أُذُناه من أطراف الأحاديث التي تدور في أطراف المدينة.

بعد ذلك بنحو ثلاثة أشهر ونصف، بعد بداية موسم صيد أسماك السلمون، التقط أحد الصيَّادين الذين يعملون على ضِفَّة الجدول الذي يبعد عشرين ميلًا شرق ديري شيئًا بعُقَّافه ظن للوهلة الأولى أنه عصا. لكن تبين له بعدها أنه يد ومعصم وأوَّل أربع بوصات من ذراع فتاةٍ ما مقطوعة. لقد انغرس عُقَّافه في هذا التذكار المُريع في قطعة اللحم المحصورة بين الإبهام والإصبع الأوَّل.

عثر قسم الشُرطة على باقي جسد شيريل لامونيكا على بُعد سبعين ياردة في اتِّجاه مجرى النهر، عالقًا في فروع شجرة سقطت عبر التيَّار في الشتاء السابق، وقد كان الحظ وحده السَّبب في أن الجُثَّة لم تنجرف إلى نهر بينوبسكوت، ومنه إلى البحر خلال الذوبان الربيعي.

كانت الفتاة لامونيكا بعمر السادسة عشر. كانت من ديري لكنها لم تكن ترتاد المدرسة، وقبل موتها بثلاث سنوات كانت قد أنجبت فتاة أسمتها أندريا. عاشت لامونيكا وابنتها في منزل والديّ شيريل. أخبر والدها الباكي الشُرطة قائلًا: «كانت الصغيرة شيريل جامحة في بعض الأوقات، لكنها فتاة طيبة في جوهرها. آندي لا تنفك عن سؤال 'أين مامي؟'، ولا أعرف كيف أُجيبها».

لقد أُبلغ عن اختفاء الفتاة قبل العثور على الجُثَّة بخمسة أسابيع، وقد بدأت تحقيقات الشُرطة في قضية موت شيريل لامونيكا بافتراض منطقي إلى حدٍ كبير: أنها رُبَّما قُتلت من قِبَل أحد عُشَّاقها. كان للفتاة أصدقاء حميمين كُثُر، والعديد منهم كانوا مُجنَّدين في القاعدة الجوِّية المُتمركزة على طريق بانجور. قالت أمها للشرطة خلال التحقيق: «مُعظمهم كانوا أولادًا لُطفاء».

أحد أولئك «الأولاد اللُطفاء» كان عقيدًا جوِّيًا سنه أربعون عامًا ولديه زوجة وثلاثة أطفال يعيشون في نيومكسيكو، وآخر يقضي الآن فترة عقوبة في سجن شواشانك بتُهمة السطو المُسلَّح.

فكَّر رجال الشُرطة.. قد يكون عشيقًا، أو رُبَّما مُجرَّد غريب.. مهوَّس بالجنس.

إذا كان مهوَّسًا جنسيًا، فمن الواضح أن لديه ميلًا إلى الغلمان أيضًا. ففي أواخر شهر أبريل، لمح مُدرِّس إعدادي في نُزهة بَرِّيَّة مع مجموعة من تلاميذ الصف الثامن فردتي حذاءٍ رياضي أحمر وسراويل زرقاء تبرز من فوَّهة مصرف في شارع ميريت. هذا الجزء من الشارع كان قد أُغلق بواسطة حواجز الطريق، وقد جُرِّف الأسفلت من الأرض في الخريف الماضي، لتشييد امتداد الطريق السريع الذي سيشق طريقه إلى شمال بانجور مُستقبلًا.

ما عُثر عليه كانت جُثَّة ماثيو كليمنتس ذي الثلاث سنوات، الذي أَبلَغَ والديه عن فقدانه قبلها بيومٍ واحد (احتلَّت صورته الصفحة الأولى من صحيفة أخبار ديري؛ صبي صغير داكن الشعر يبتسم بحيوية في وجه الكاميرا، ويعتمر قُبَّعة فريق ريد سوكس). يعيش آل كليمنتس في شارع كانساس، على الجانب الآخر من المدينة. أمه -التي ألجمها الأسى وبدا أنها تحيا في فُقَّاعة زُجاجية هادئة تفصلها عن العالم- أخبرت رجال الشُرطة أن ماتي كان يقود درَّاجته ذات الثلاث عجلات صعودًا وهبوطًا على الرصيف جوار المنزل عند ناصية شارع كانساس مع زقاق كوسوث، وعندما ذهبت هي لوضع ثيابها المغسولة في المُجفِّف، وأطلَّت برأسها من النافذة كي تطمئن على ماتي، كان قد اختفى.. ولم ترَ شيئًا سوى درَّاجته ثلاثية العجلات مقلوبة على العُشب الذي يفصل الرصيف عن المنزل وإحدى عجلاتها لم تزل تدور بتراخٍ، قبل أن تتوقَّف بعد لحظات في أثناء ما كانت تنظر إليها.

كان هذا كافيًا تمامًا لرئيس الشُرطة بورتون، وقد اقترح تفعيل حظر التجوُّل يوميًّا بدءًا من الساعة السابعة في الجلسة الخاصة التي انعقدت في مجلس المدينة في الليلة التالية، واعتُمد القرار بالإجماع ووُضِعَ حيِّز التنفيذ بدءًا من اليوم التالي.

أُعلِن عن حظر التجوُّل في جريدة أخبار ديري، وشدَّد الخبر على أن جميع الأطفال يجب أن يُراقبوا جيِّدًا من قِبَل «بالغين أكِفَّاء» في كل الأوقات، وفي مدرسة بن، عُقِد مجلسٌ خاصٌ الشهر الماضي. اعتلى رئيس الشُرطة مسرح المدرسة، داسًّا إبهاميه في حزام سلاحهُ، وطمأن الأطفال أنه لا شيء يدعو للقلق ما داموا سيتَّبعون مجموعة من القواعد البسيطة: «لا تتحدَّثوا إلى غُرباء، ولا توافقوا على الركوب مع أشخاص في سيَّاراتٍ إلا إذا كنتم تعرفونهم جيِّدًا، ودائمًا اعلموا أن رجُل الشُرطة صديقكم في أيِّ مكان... والتزموا بحظر التجوُّل».

منذ أسبوعين، نظر صبيٌ يعرفه بن من بعيد (كان في فصل الصَّف الخامس الآخر في مدرسة ديري الابتدائية) إلى داخل أحد مصارف المياه القريبة من شارع نيبولت ورأى ما يبدو ككتلة من الشعر تطفو هناك. هذا الصبي، الذي كان اسمه إما فرانكي أو فريدي روس (أو رُبَّما روث)، كان في رحلة استطلاعية للتنقيب عن بعض الأشياء والأدوات لاستخدامها في اختراعه الخاص، الذي كان يدعوه بـ عصا العلكة الرائعة. عندما كان يتحدَّث عن اختراعه، تستطيع أن تشعُر أنه يُفكِّر فيه بهذه الطريقة، بحروفٍ كبيرة صارخة (ورُبَّما تشعُ كمصباح نيون أيضًا). كانت عصا العلكة الرائعة عبارة عن فرع شجرة تامول أُلصق على أحد طرفيه قطعة كبيرة من العلكة. في أوقات فراغه، يسير فريدي (أو فرانكي) بعصاه في أرجاء البلدة مُتفحِّصًا المصارف والبالوعات. أحيانًا يرى نقودًا -بنسات زهيدة في الغالب- لكن أحيانًا أخرى يعثر على عشرة سنتات أو رُبع دولار حتَّى (كان يُشير إلى العُملات من هذه الفئة الأخيرة -ولسببٍ ما لا يعلمه إلا هو- باسم «وحوش الأرصفة»)، وما أن يلمح فرانكي أو فريدي النقود، يُحرِّك فورًا عصا العلكة الرائعة ويضعها محل الاستخدام، وكزة واحدة منها عبر الحاجز الحديدي المُشبَّك وتصبح العُملة في جيبه بعدها.

كان بن قد سمع إشاعاتٍ عن فرانكي أو فريدي وعصا العلكة خاصته منذ فترة طويلة قبل أن يقفز الصبي إلى دائرة الضوء باكتشافه جثَّة ڤيرونيكا جروجان. «إنه مُقزِّز»، هكذا أفضى صبي اسمه ريتشي توزيير إلى بن في

يوم ما خلال دورة الأنشطة. كان توزييه صبيًّا هزيلًا يرتدي نظّارات، وقد ظنَّ بن أن توزييه رُبَّما يستطيع رؤية أدقّ التفاصيل، تمامًا كالسيِّد ماجو[1]. كانت عيناه المُضخَّمة تسبح وراء عدستي نظّارته السميكة وهي تحمل تعبير اندهاشٍ دائم. أيضًا كانت له أسنان أمامية كبيرة جدًّا أكسبته لقب باكي بيڤر[2]. كان توزييه في فصل الصَّف الدراسي الخامس نفسه الذي يرتاده فريدي أو فرانكي. «إنه يدسُّ عصا العلكة هذه في البالوعات والمصارف طوال اليوم، ثم يلوك العلكة من طرف العصا ليلًا في النهاية».

هتف بن: «أوه، يا إلهي. هذا مُريع!».

قال توزييه: «هذا سحيح، أيُّها الأونب»، ثم سار مُبتعدًا.

أعمل فرانكي أو فريدي عصا العلكة الرائعة بهمَّة يمينًا ويسارًا عبر حاجز مصرف الأمطار الحديدي، ظانًّا أنه وجد جُمَّة شعرٍ مُستعار. فكَّر أنه يستطيع تنظيفها وتجفيفها وإهداءها إلى أمه في عيد ميلادها، أو شيءٍ من هذا القبيل. بعد دقائق قليلة من النخس والوكز بعصاه -وعندما كاد أن يستسلم- طفا وجهٌ خارج مع المياه العكرة من المصرف المسدود؛ وجهٌ تلتصق أوراق الشجر الذابلة على وجنتيه ويُلطِّخ الطين عينيه الشَّاخصتين.

ركض فريدي أو فرانكي عائدًا إلى منزله وهو يصرخ.

كانت ڤيرونيكا جروجان تلميذة في الصف الدراسي الرَّابع في مدرسة كنيسة شارع نيبولت، التي يُديرها أناس تدعوهم أم بن بـ«المُتأقبطين». كانت الفتاة قد دُفنت يوم ما يُفترض أن يكون عيد ميلادها العاشر.

بعد هذه الواقعة المُرعبة الأخيرة، أخذت أرلين هانسكوم ابنها بن إلى غُرفة المعيشة في إحدى الليالي وجلست جواره على الأريكة. أمسكت يديه ونظرت إلى وجهه بإمعانٍ شديد. بادلها بن النظرة، ولم يكن يشعر بالارتياح.

قالت له في التو: «بن، هل أنت أحمق؟».

---

(1) كوينسي ماجو (أو السيِّد ماغو): شخصية كارتونية ابتكارها استوديو الرسوم المتحركة يو بي أيه في عام 1949، وكان يقوم بأدائها الصوتي چيم باكوس.

(2) باكي بيڤر (أو القندس باكي): شخصية أيقونية شهيرة اعتادت الظهور في إعلانات شركة إيبانا التجارية في حُقبة الخمسينيات كان چيمي دود يقوم بأدائها الصوتي.

قال بن شاعرًا بانزعاج أكثر بكثير من أيِّ وقتٍ مضى: «لا يا ماما». لم تكن لديه أدنى فكرة عمَّا يدور الأمر، ولم يكن يتذكَّر حتَّى إنه رأى أمه بمثل هذا الصرامة من قبل.

أمَّنت أمه على كلامه: «أجل، وأنا لا أُصدِّق أنك كذلك».

ثم صمتت بعدها بُرهة طويلة دون أن تنظر إلى بن، وإنما إلى خارج النافذة، وبدت مُستغرقة في تفكيرٍ عميق. تعجَّب بن لحظة ما إذا كانت قد نسيت كل شيء عن وجوده. كانت لا تزال امرأة شابة -فقط في الثانية والثلاثين- لكن تجربة تربية صبي بمُفردها تركت علامة ما على روحها. كانت تعمل أربعين ساعة في الأسبوع في غُرفة اللَّف والترزيم في مغازل ستارك في نيوبورت، وفي بعضِ الليالي بعد العمل التي يكون فيها الغبار والوبر كثيفين، كانت تسعل طويلًا جدًّا وبعُنفٍ شديد لدرجة تُصيب بن بالرعب. في تلك الليالي، يظل بن مستيقظًا فترة طويلة جدًّا، يرمق الظلام في الخارج عبر النافذة المجاورة لفراشه، مُفكِّرًا في ما قد يحدث إذا ماتت. سيُصبح يتيمًا عندها، هكذا افترض. بل رُبَّما ينضوي تحت لواء الولاية (كان يظن أن هذا يعني أن تذهب للعيش مع مُزارعين يجبرونك على العمل من مشرق الشمس إلى مغيبها)، أو رُبَّما يُرسل إلى ملجأ بانجور للأيتام. حاول بن إقناع نفسه أنه من الحماقة التفكير في مثل هذه الأشياء، لكنه هذا لم يُطمئنه قط، ولم يكن هذا يعني أنه يقلق فقط على نفسه، بل كان قلقًا عليها بالمثل. لكم هي امرأة صلبة -أمه هذه- ودائمًا ما تصر على أن تُسيِّر الأمور بطريقتها الخاصة. لكنها أُمٌ رؤوم، وبن يُحبها كثيرًا.

قالت وهي تنظر إليه مرَّة ثانية أخيرًا: «أنت تعلم عن الجرائم».

أومأ برأسه.

- «في البداية ظن الناس أنها...» ثم تردَّدت قبل أن تتلفَّظ بالكلمة التالية، فهي لم تذكرها أمام ابنها من قبل، لكن الظروف الآن استثنائية تمامًا، وقد وجدت نفسها مُضطَّرة لذلك: «... جرائم جنسية. رُبَّما هي كذلك، ورُبَّما لا. رُبَّما تكون انتهت، ورُبَّما لا. لا يوجد من يستطيع التيقُّن من أيِّ شيءٍ بعد الآن باستثناء حقيقة واحدة جليَّة: ثمَّة رجل مجنون يفترس الأطفال الصغار طليق في الخارج. هل تفهمني يا بن؟».

أومأ بن برأسه.

- «وأنت تعرف ما أقصد حين قُلت بأنها رُبَّما تكون جرائم جنسية؟».

لم يكن يعلم في الحقيقة -ليس تمامًا- لكنه أومأ مُجدَّدًا. إذا بدأت أمه التحدُّث الآن -مُضطرَّة- عن البلوغ وأمور الكبار بالإضافة إلى هذه الجرائم، فلسوف يخر ميِّتًا من الخجل.

- «أنا قلقة عليك يا بن. قلقة لأنني لست بجانبك لوقتٍ كافٍ».

شعر بن بالارتباك ولم ينبس بكلمة.

- «أنت تمضي كثيرًا من الوقت بمفردك.. كثيرًا جدًّا على ما أظنُّ. أنك...».

- «ماما...».

- «صه وأنا أتحدَّث إليك يا فتى»، هكذا قالت وهكذا أذعن بن وخرس: «يجب أن تحترس يا بيني. الصيف قادم وأنا لا أُريد أن أُفسد عليك عُطلتك، لكن يجب أن تكون حذرًا. أريدك في المنزل يوميًّا بحلول العشاء. متى نأكل عشاءنا يا بن؟».

- «في السادسة».

- «شاطر! اسمع إذًا ما أقول: إذا أعددت المائدة وصببت اللبن واكتشفت أنه لا يوجد بن عند حوض الحمام يغسل يديه، سأذهب مُباشرةً إلى الهاتف وأتَّصل بالشُرطة وأُبلغ أنك مفقود. هل تعي هذا؟».

- «أجل يا ماما».

- «وهل تُصدِّق أنني أعني تمامًا ما أقول؟».

- «نعم».

- «سيتَّضح بعدها في الغالب أنني فعلت ذلك دون داع، هذا إذا اضُطررت لفعله من الأساس. أنا لست بلهاء ولا أجهل أمور الصبية. أعرف أنهم ينغمسون تمامًا في ألعابهم ومشاريعهم في أثناء عُطلة الصيف، سواء كانوا يتقفُّون أثر دروب النحل لاكتشاف أعشاشه، أو يلعبون الكُرة، أو يركلون عُلب الصفيح الفارغة، أو أيًّا كان. لديَّ فكرة جيِّدة عما تعتزم فعله أنت وأصدقاؤك كما ترى».

أومأ بن بحصافة، مُفكِّرًا أنها إذا لم تكن تعلم أنه لا يمتلك أيَّ أصدقاء، فهي غالبًا لا تعرف أدنى شيءٍ عن صِباه كما تظن. لكنه لم يكن يحلُم حتَّى أن يصارحها بشيءٍ كهذا لها، ولا بعد عشرة آلاف سنة من الحُلم.

أخرجت أمه شيئًا من جيب منامتها المنزلية ودسَّته في يده. كان صندوقًا بلاستيكيًّا صغيرًا. فتحه بن، وعندما رأى ما بداخله فُتِح فوه على اتِّساعه وهتف بإعجابٍ لا يشوبه أدنى تكلُّف «واو! شكرًا يا أمي».

كانت الهدية ساعة معصم طراز تايمكس مزوَّدة بأرقام فِضِّية صغيرة وسوارٍ من جلد صناعي. كانت قد شغَّلتها وضبطتها له، واستطاع بن سماعها تُتكتك.

- «الله، إنها أروع ساعة!».

ثم أعطاها عناقًا مُتحمِّسًا وطبع قُبلة بصوتٍ عالٍ على خدِّها.

ابتسمت الأم سعيدة لسعادته، وأومأت برأسها. ثم احتلَّت الجدية ملامحها من جديد. «ضعها دائمًا يا بن، حافظ عليها، أبقِ عليها مضبوطة الميقات، لا تغفل عنها، ولا تفقدها».

- «حسنًا».

- «الآن بما أن لديك ساعة، فلا عُذر لك للتأخُّر في العودة إلى المنزل. تذكَّر ما قلته لك: إذا لم تعُد في الوقت المُحدَّد، ستجوب الشُرطة الشوارع بحثًا عنك بالنيابة عنِّي. التزم بالتعليمات على الأقل إلى أن يعتقلوا ذلك الوغد الذي يقتل الأطفال هنا.. لا تجرؤ على أن تتأخَّر دقيقة واحدة يا بن، وإلا سأرفع سمَّاعة ذلك الهاتف».

- «حسنًا يا ماما».

- «شيءٌ آخر. لا أُريدك أن تتسكَّع بمُفردك. أنت تعلم أنه يجب ألا تقبل حلوى أو دعوى ركوب سيَّارة من أيِّ شخصٍ غريب، كلانا مُتَّفق أنك لست بهذا الحمق، وأن عقلك أكبر من سنك. لكن أيَّ رجُلٍ بالغ -خصوصًا إذا كان مجنونًا- يستطيع التغلُّب على أيِّ طفل إذا أراد. عندما تذهب إلى الحديقة أو إلى المكتبة، اذهب برفقة أحد أصدقائك».

- «سأفعل يا ماما».

نظرت من جديد إلى خارج النافذة وزفرت تنهيدة مليئة بالاضطراب. «يعرف المرء أن الأمور آلت إلى سوءٍ حقيقي عندما يستمر أمرٌ كهذا في الحدوث. ثمَّة شيءٍ قبيح بخصوص هذه البلدة. لطالما ظننت ذلك». ثم نظرت إليه مُجدَّدًا بحاجبين مسحوبين إلى أسفل وأردفت: «أنت مُتسكِّعٌ حقيقي يا بن. لا بُدَّ أنك تجوَّلت في كل شبر من ديري، أليس كذلك؟ على الأقل المناطق الحضرية منها».

لم يكن بن يظن أنه يعلم كل الأماكن، ولا حتَّى معظمها، لكنه يعلم كثيرًا منها بالفعل، وقد كان مُتحمِّسًا تمامًا بهذه الساعة الهدية غير المُتوقَّعة لدرجة أنه كان سيوافق أمه هذه الليلة في أيِّ شيءٍ تقوله حتَّى إذا اقترحت أن چون واين يجب أن يلعب دور أدولف هتلر في فيلمٍ موسيقي كوميدي عن الحرب العالمية الثانية.

أومأ بن برأسه.

سألته: «أنت لم ترَ شيئًا، أليس كذلك؟ أقصد أيَّ شيءٍ أو أيَّ شخصٍ... حسنًا، مُريبٍ؟ أيُّ شيءٍ شاذ عن المألوف؟ أيُّ شيءٍ أثار خوفك؟»

في ظل انتشائِه وهيامه بالساعة، وشعوره بالحب الجارف نحوها، وسعادته كصبيٍ بقلقها عليه (التي كانت في الوقت نفسه مشوَّبة ببعض الخوف من جراء صرامتها الواضحة القاطعة)، كاد أن يُخبرها بالشَّيء الذي حدث في شهر يناير الماضي.

فتح فمه ليتكلَّم ثم حضر شيءٌ -حدسٌ قويٌ ما- وأغلقه مُجدَّدًا.

ما كان هذا الشَّيء؟ إنه حدسٌ. لا أكثر.. ولا أقل.

حتَّى الأطفال يمكنهم استشعار مسؤوليات الحب الأكثر تعقيدًا من حينٍ لآخر، واستشعار أنه في بعض الأحيان قد يكون من الأفضل التزام الصمت. كان هذا جزءًا من السَّبب الذي أغلق بن فمه من أجله. لكن ثمَّة شيئًا آخر أيضًا.. شيئًا ليس بذات النُبل. قد تكون أمه صعبة المراس أحيانًا، وقد تكون مُسيطرة أحيانًا. إنها لم تدعوه من قبل قط بـ «بدين»، لكنها تدعوه بـ «كبير» (وأحيانًا تؤكِّد أنه «كبير بالنسبة إلى سِنِّهُ»)، وأحيانًا عندما تُوجد بعض بقايا من وجبة عشاء، فهي كثيرًا ما تجلبها إليه وهو يُشاهد التلفاز أو يقوم بواجباته، وهو لا يتورَّع عن أكلها، رغم أن جزءًا باهتًا داخله يكره نفسه بسبب ذلك

(لكنه لم يكره أمه قط لوضعها الطعام أمامه. لا يجرؤ بن هانسكوم على كُره أمه، فالرَّب بالتأكيد سيُميته فورًا لكونه اختلج بمثل هذا الشعور الجاحد البهيمي ولو لثانية واحدة). أحيانًا، يوجد جزءٌ أكثر خفوتًا داخله -يسكن أعمق أعماق أفكار بن- يرتاب في دوافعها التي تجعلها تواصل هذا الإطعام المُستمر له. أهو حُب مُجرَّد؟ هل يمكن أن يكون أيَّ شيءٍ آخر؟ بالتأكيد لا. لكنه... كان يتساءل، والأهم من ذلك، هي لا تعرف أنه ليس لديه أصدقاء. هذا النقص المعرفي جعله لا يثق بها.. جعله غير مُتأكِّدٍ من ردَّة فعلها تجاه قصته عن الشيءِ الذي حدث له في يناير، إذا كان أيُّ شيء قد حدث من الأساس. رُبَّما لا يكون الرجوع إلى المنزل في السادسة والبقاء بهذا السوء. يُمكنه قضاء الوقت في القراءة، أو مُشاهدة التلفاز، أو الأكل، أو بناء أشياء بمجموعته من المُكعَّبات والتراكيب. لكن أن يظل حبيس المنزل طوال اليوم لهو أمرٌ سيِّئٌ بالفعل... وإذا أخبرها بما رأى -أو ما ظن أنه رأى- في يناير، فلرُبَّما تجبره على فعل ذلك.

لذا -ولمجموعة متنوِّعة من الأسباب- أمسك بن قصته ولم يسردها.

قال لها: «لا يا ماما. فقط رأيت السيِّد ماكيبين يعبث في صفائح قمامة الآخرين».

نجحت هذه العبارة في أن تُضحكها. لم تكن أمه تحب السيِّد ماكيبين، الذي كان جمهوريًّا وأيضًا «مُتأقبطًا»، وقد أنهت ضحكتها النقاش وأغلقت الموضوع. في تلك الليلة، استلقى بن مُستيقظًا في فراشه، لكن دون أن تُزعج عقله أفكار اليُتم والتلطُّم في عالمٍ قاسٍ. شعر بأنه آمن ومحبوب وهو هاجعٌ في الفراش يتأمَّل ضوء القمر الذي يتخلل نافذته وينتشر على الأرض والفراش، وأخذ ينقل ساعته بالتبادل بين أُذُنه كي يستمع إلى تكتكة آلية تروسها وعيناه كي ينظر مُعجبًا إلى نافذتها التي تشع كالطيف.

وفي النهاية خرَّ نائمًا وحلم بأنه يلعب مُباراة بيسبول مع صبية آخرين في المساحة الشاغرة وراء مستودع شاحنات الأخوين تراكر، وأنه قد أنهى لتوِّه الركض دورة كاملة حول الملعب قبل هبوط الكُرة، مُنزلقًا بكعبيه عند خط النهاية، وأن رفاق فريقه قابلوه مُتجمهرين مُهلِّلين عند خط النهاية، ثم

اجتاحوه فرحين وصافعين ظهره. بعدها حملوه على أكتافهم واتَّجهوا به إلى البُقعة التي تتناثر فيها أغراضهم. في الحلم، كاد بن أن ينفجر من فرط الفخر والسعادة... ثم نظر بعدها نحو مُنتصف الملعب، حيث يرسم سياج حديدي شبكي حدود الأرض العُشبية وراءه التي تنحدر إلى البرِّية. كان هناك شيءٌ يقف وسط الأعشاب المُتشابكة والشجيرات المنخفِضة بالكاد يُرى. كان الشَّيءُ يُمسك بمجموعة بالونات -حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء- في يدٍ يُغطيها قُفَّازٌ أبيض، ويُشير بيده الأخرى. لم يتمكَّن بن من رؤية وجه الرَّجُل، لكنه استطاع رؤية الحُلَّة الفضفاضة المُطرَّزة بكُريات بُرتقالية كبيرة من الصوف الوبري في المُنتصف، مع بابيون أصفر عريض عند العُنُق.

إنه المُهرِّج.

هذا سحيح، أيُّها الأونب. هكذا أمَّن صوتٌ شبحي في عقله.

عندما استيقظ بن من النوم في الصباح التالي كان قد نسيَ الحلم، لكن وجد أن وسادته مُبتلَّة تمامًا... كما لو أنه بكى كثيرًا خلال الليل.

7

اتَّجه بن إلى مكتب الاستقبال الرئيس في مكتبة الأطفال، وهو ينفض عنه قطار الأفكار الذي بدأهُ مُلصق حظر التجول، بالبساطة ذاتها التي ينفض بها كلب الماء عن جسده بعد خروجه من المسبح.

حيَّته السيِّدة ستاريت قائلة: «مرحبًا يا بيني». كانت المرأة تحبه بصدق، تمامًا كمسز دوجلاس من المدرسة. بشكلٍ عام، اعتاد الكِبار حُب بن، خصوصًا أولئك الذين تحتاج وظائفهم أحيانًا أطفالًا مُنضبطين، لأنه كان مُهذَّبًا ويتحدَّث بلطافة وذكيًّا بل مُسلٍ أحيانًا بطريقة هادئة جدًّا؛ وهذه جميعها كانت الأسباب نفسها التي جعلت مُعظم الأطفال يزدرونه.

- «هل سئِمت العُطلة الصيفية بعد؟».

ابتسم بن. كانت هذه مُزحة السيِّدة ستاريت المُعتادة. قال لها: «ليس بعد، بما أن العُطلة الصيفية بدأت لتوِّها منذ...» نظر إلى ساعته «... ساعة وسبع عشرة دقيقة. أمهليني ساعة أخرى».

ضحكت السيِّدة ستاريت، وغطَّت فمها كي لا تُجلجل ضحكتها عاليًا.

سألت بن ما إذا كان يُريد التسجيل في برنامج القراءة الصيفي، وأجابها أن نعم. ناولته خريطة الولايات المُتَّحدة وشكرها بن شُكرًا جزيلًا.

طاف بن بين رفوف الكتب المُكدَّسة، يسحب كتابًا من هنا وهناك، وينظر فيه، ثم يعيده مطرحه. ليس اختيار الكتب عملية بسيطة؛ يجب أن تكون حريصًا. إذا كُنت بالغًا، يُمكنك الحصول على أيِّ عددٍ تشاء الكُتُب، لكن الأطفال يُمكنهم فقط الحصول على ثلاثة في كل مرَّة. إذا اخترت كتابًا عديم القيمة، فستعلق معه.

أخيرًا حسم بن قراره واختار كتبه الثلاثة. الجرَّافة، والحصان الأسود، والأخير الذي اختاره اعتباطًا: كتاب عنوانه هوت رود، كتبهُ رجُلٌ يُدعى هنري جريجور فيلسن.

أبدت السيِّدة ستاريت رأيًا وهي تختم الكتاب: «قد لا تُحب هذه القِصَّة يا بن، إنها دموية جدًّا. أحيانًا أحث المُراهقين على قراءتها، خصوصًا أولئك الذين حصلوا على رُخص قيادتهم حديثًا، لأنها تعطيهم شيئًا ليفكِّروا به. أتصوَّر أنها تُبطئ من وتيرة بعضهم أسبوعًا كاملًا».

قال بن: «حسنًا، سأُعطيها فُرصة»، ثم حمل كتبه وسار إلى إحدى المناضد البعيدة عن رُكن ويني ذا بوه، حيث كان الماعز جراف الكبير على وشك نطح القزم الساكن تحت الجسر بقرنيه الكبيرين.

استمرَّ بن في قراءة هوت رود بعض الوقت، ولم يجدها رديئة تمامًا. ليست رديئة على الإطلاق. كانت تحكي عن فتى ذي مهارة كبيرة في قيادة السيَّارات السريعة، لكن ثمَّة شُرطي هادم للذَّات دائمًا ما يحاول كبح جماحه. اكتشف بن أنه لا توجد حدود مُقرَّرة للسُرعة في ولاية أيوا، حيث تدور أحداث الكتاب، وقد كانت هذه معلومة مُدهشة نوعًا ما.

رفع بن عينيه عن الكتاب بعد ثلاثة فصول، والتقطت عيناه شيئًا جديدًا على الحائط. كان المُلصق الدعائي في الأعلى (إن المكتبة مهوَّسة بالمُلصقات بالفعل) يعرض ساعي بريد سعيد يُسلِّم خطابًا إلى صبي مُبتسم، وفي الأسفل يقول الشعار استخدم المكتبة في الكتابة أيضًا. لِمَ لا تكتب إلى صديقٍ اليوم؟ البهجة مضمونة! أسفل المُلصق، توجد فتحات مليئة بالبطاقات البريدية والأظرف مختومة

بطوابع بريد مُسبقًا، وورقٌ أبيض مزوَّد برسم لمكتبة ديري العامة بالحبر الأزرق في طرفه العلوي. سعر الأظرف المختومة مُسبقًا كان خمسة سنتات للواحد، والبطاقات البريدية ثلاثة سنتات للواحدة، والأوراق المزدوجة سعر الواحدة منها سنت واحد.

تحسَّس بن جيبه. كانت الأربعة سنتات الباقية من مُقايضة الزُجاجات ما زالت في مكانها. علَّم الصفحة التي وصل إليها في كتاب هوت رود واتَّجه إلى مكتب الاستقبال من جديد. «هل لي أن أحصل على واحدة من هذه البطاقات البريدية من فضلك؟».

– «بالتأكيد يا بن».

كالعادة، وجدت السيِّدة ستاريت نفسها مأخوذة بأدب الصبي الجمَّ، وحزينة بسبب حجمه. كانت أمها تقول إن الولد يحفر قبره بحماسة مُستخدمًا شوكةٍ وسكِّينٍ. ناولته البطاقة وراقبته يعود إلى مقعده من جديد. كان يجلس إلى منضدة تسع ستة أفراد، لكنه الوحيد هناك. لم ترَ ستاريت بن مع أيٍّ من الصبية الآخرين من قبل، ولكم كان هذا مؤسفًا، لأنها طالما اعتقدت أن بن لديه كنوزٌ مخبوءةٌ بداخله، ولسوف يهبها إلى أيٍّ باحثٍ صبور وطيب القلب... إذا حدث وجاء أحدهم من الأساس.

8

أخرج بن قلم الحبر الجاف، وضغط سوستته، وعَنوَن البطاقة ببساطة إلى: الآنسة بيڤرلي مارش، جنوب الشارع الرئيس، ديري، ولاية مين، المنطقة الثانية. لم يكن يعرف رقم بنايتها بالتحديد، لكن أمه أخبرته أن مُعظم سُعاة البريد لديهم فكرة جيِّدة عن من مِن عُملائهم المقصود ما إن يطرقوا بابهم لبعض الوقت. إذا استطاع ساعي البريد المسؤول عن منطقة جنوب الشارع الرئيس تسليم هذه البطاقة سيكون أمرًا رائعًا، وإذا أخفق، فستعود إلى مكتب البريد الذي لم يُستدل على مُستلِمه، وسيخسر هو ثلاثة سنتات. بالتأكيد لن تعود البطاقة إليه مرَّة أخرى، لأنه لا يحمل أدنى نيَّة لكتابة اسمه وعنوانه عليها.

حمل بن البطاقة مُخفيًا الجهة المكتوب عليها العنوان (لم يكن يجرؤ على المُخاطرة بأيِّ شيءٍ، رغم أنه لم يكن يرَ حوله أيَّ شخصٍ يعرفه)، والتقط

بعض الأوراق المُربَّعة الصغيرة من الصندوق الخشبي المجاور لملف البطاقات، وعاد بها إلى مقعده وبدأ يخطُ سريعًا، ويشطب، ثم يخطُ مُجدَّدًا.

خلال الأسبوع الأخير في الدراسة قبل الامتحانات، كانوا يتعلَّمون قراءة وكتابة الهايكو في حصص اللغة الإنجليزية. الهايكو نوعٌ ياباني من الشِعر، مُختصَر ومُنضبِط. أخبرتهم مسز دوجلاس أن أشعار الهياكو تتألَّفُ من من بيت واحد فقط، مكوَّن من سبعة عشر مقطعًا صوتيًا، لا أكثر ولا أقل، وعادةً ما تُركِّز على صورة واحدة جليَّة تُعبِّر عن مشاعر دفينة مُحدَّدة: شجن/ فرحة/ حنين/ سعادة... حُب.

خلبت الفكرة لُب بن تمامًا.كان يستمتع عادةً بحصص اللغة الإنجليزية، لكنها المُتعة الخفيفة التي لا تذهب إلى أبعد من هذا. كان يقوم بواجباته، لكن بشكلٍ عام لم يكن ثمَّة شيءٌ فيها يستولي عليه. لكن ثمَّة شيءٌ ما في مفهوم الهايكو استطاع إشعال مُخيِّلتهُ. الفكرة ذاتها جعلته سعيدًا. شعر بن أن الهايكو شعرٌ جيد، لأنه شعرٌ مُنظَّم، لا قواعد سِرِّية له. فقط انظم سبعة عشر مقطعًا صوتيًّا، وصورة واحدة مربوطة بشعورٍ واحد، هذا كل ما يتطلَّبه الأمر. كان نظيفًا.. كان نافعًا.. كان محصورًا تمامًا في قواعده الخاصة ومُعتمدًا عليها. لقد أحبَّ حتَّى الكلمة ذاتها، وطريقة نُطقها التي ينكسر فيها الهواء مع حرف الكاف في مؤخرة حلقك: هايكو.

شَعرها.. هكذا فكَّر بن وهو يراها في مُخيِّلته من جديد تهبط درجات سُلَّم المدرسة وشعرها يتقافز على كتفيها. الشمس لم تكن تنعكس مُتلألأة عليه، بل بالأحرى بدت كأنها تحترق بداخله.

أخذ بن يعمل بحرص طوال عشرين دقيقة (مع استراحة واحدة ذهب فيها وجلب مزيدًا من الأوراق)، مُبدِّلًا الكلمات التي يشعر بأنها طويلة جدًّا، ومُحسِّنًا، وشاطبًا، وفي النهاية توصَّل إلى هذا البيت:

شعرك شمسُ الشِّتاء،
جمرة يناير،
قلبي يحترق بين خصلاته أيضًا.

لم يُعجب بما كتبه تمامًا، لكنه بدا أفضل ما في جُعبته. خاف بن من أنه

لو فكَّر في الأمر أكثر من اللازم، وسيطر القلق عليه، سيصيبه التوتُّر وينتهي بكتابة بيتٍ أسوأ بكثير، أو لا يكتب شيئًا على الإطلاق، وهو لم يكن يريد أن يحدث ذلك. كانت اللحظة التي اقطتعتها من وقتها للتحدُّث إليه فيها فارقة بالنسبة إلى بن، وأراد أن يحفرها في ذاكرته إلى الأبد. في الغالب بيڤرلي مُعجبة بفتى أكبر سِنًّا، في الصف السادس أو حتَّى السابع، ورُبَّما تظن أن ذلك الفتى هو من أرسل قصيدة الهايكو إليها. سيجعلها هذا سعيدة، وبالتالي اليوم الذي ستتلقَّاها فيه سيُحفر في ذاكرتها إلى الأبد. لا يهم إن كانت لن تعلم أبدًا أن بن هانسكوم هو من حفر الذكرى لأجلها، فيكفيه أنه يعرف.

نسخ بن قصيدته في صورتها الأخيرة إلى ظهر البطاقة البريدية (ناقشًا إياها بحروفٍ كبيرة قوطية، كمن ينسخ رسالة طلب فدية لا قصيدة غزل)، ثم وضع القلم في جيبه بعدما انتهى، ودسَّ البطاقة بين دفَّتي كتاب هوت رود.

ونهض بعدها مودِّعًا السيِّدة ستاريت في طريقه إلى الخروج.

ردَّت السيِّدة ستاريت تحيَّته: «مع السلامة يا بن. استمتع بعُطلتك الصيفية، لكن لا تنس حظر التجوُّل».

- «لن أفعل».

سار بتؤدة عبر الممرِّ الزجاجي بين المبنيين، مُستمتعًا بسخونته (تأثير الصوبة الخضراء، هكذا فكَّر مزهُوًّا بمعلوماته)، ثم برودة مكتبة الكبار. ثمَّة رجُلٌ مُسِنٌّ يقرأ جريدة أخبار ديري غائصًا في أحد المقاعد العتيقة المُريحة الضخمة في غُرفة القراءة المنزوية. العنوان الرئيس في الصفحة الأمامية يصرخ: الولايات المُتَّحدة تتعهَّد بإرسال جنودٍ لمُساعدة لبنان إذا طلبت المُساعدة! كانت هناك أيضًا صورة لأيزنهاور يُصافح رجُلًا عربيًّا في الحديقة الوردية بالبيت الأبيض. أمه تقول إنه عندما ستنتخب الأُمَّة هيوبرت همفري في عام 1960، ستبدأ الأمور في التحرُّك من جديد.. رُبَّما. كان بن يعي بالكاد فقط أن ثمَّة شيئًا يُدعى ركودٍ اقتصادي في البلاد حاليًا، وكانت أمه خائفة من أن تُسرَّح من وظيفتها.

في مُنتصف الصفحة الأولى، يوجد عنوانٌ آخر أصغر قليلًا يقول: جهود الشُرطة في مُطاردة القاتل المُختل عقليًا تتواصل.

دفع بن باب المكتبة الكبير وخطا إلى الخارج.

كان هناك صندوق بريد عند نهاية الممشى. أخرج بن البطاقة البريدية من دفَّتي كتابه وأسقطها في الصندوق شاعرًا بقلبه يتسارع قليلًا وهي تنزلق بعيدًا عن أصابعه. ماذا لو عرفت أنني المُرسِل بطريقةٍ ما؟

لا تكن أحمق، هكذا ردَّ على نفسه، جازعًا قليلًا من الكيفية التي بدت له هذه الفكرة بها مُثيرة.

سار مُتَّجهًا شمال شارع كانساس، غير عالم وجهته بالتحديد ولا مُهتمًا بذلك.. فقد كان حُلم يقظة خلَّابًا يتشكَّل في عقله. في الحُلم، رأى بيڤرلي مارش تسير إليه، وعيناها الخضراوان الرماديتان مُتَّسعتان، وشعرها الكستنائي معقوص في ذيل حصانٍ. أريد أن أطرح عليك سؤالًا يا بن، هكذا قالت هذه الفتاة المُزمعة في عقله، ويجب أن تُقسم أنك ستقول الحقيقة، ثم رفعت البطاقة البريدية وأردفت، هل أنت من كتب هذا الكلام؟

كان هذا تخيُّلًا مُروِّعا. كان هذا تخيُّلًا رائعًا.. أراده بن أن يتوقَّف، وفي الوقت نفسه أن يستمر. كان وجهه قد بدأ في الاتِّقاد بالحرارة.

سار بن بلا هدي يحلُم وينقل كتبه المُستعارة من ذراعٍ إلى أخرى، ثم بدأ يُصفِّر. قد تظن أنني قليلة الحياء، هكذا قالت بيڤرلي، لكنَّني أريدك أن تُقبِّلني، وانفرجت شفتاها قليلًا.

فجأة شعر بن بشفتيه جافتين تمامًا حتَّى أنه لم يعد قادرًا على الصفير.

وهمس: «أظنُّ أنني أريد ذلك»، وابتسم ابتسامة بليدة، وحالمة، وجميلة تمامًا.

إذا كان قد نظر أمامًا عبر الرصيف، للاحظ أن ثمَّة ثلاثة ظلال أخرى بدأت تنمو جوار ظلِّه؛ إذا كان ينصت جيِّدًا، لسمع صوت بزابيز حذاء ڤيكتور في أثناء اقترابه هو وبيلش وهنري. لكنه لم يرَ أو يسمع شيئًا. كان بن في عالمٍ آخر تمامًا، يستشعر شفتي بيڤرلي الناعمتين على شفتيه، ويرفع يديه المُتردِّدتين ليلمس النيران الأيرلندية الغامضة المُشتعلة في جنبات شعرها.

9

كالعديد من المُدن الكبيرة والصغيرة، لم تُخطَّط ديري مُسبَّقًا. لقد نمت

فحسب، تمامًا كتوبسي[1]. فلم يكن يتسنَّى لمُخطِّطي المُدن تحديد موقعها في المقام الأوَّل. يوجد وادي في منطقة وسط مدينة ديري شكَّله نُهير الكِندوسكيج، الذي يجري عبر المنطقة التُّجارية قاطعًا البلدة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي. أما باقي المدينة فقد تشعَّبت وانتشرت على جوانب التلال المُحيطة.

كان الوادي الذي جاءه المستوطنون الأوائل موحِل وتنمو الشُجيرات بكثافة على جوانبه، وكان المجرى ونهر بينوبسكوت الذي يصُبُّ الكِندوسكيج فيه نعمتين للتُجَّار ونقمتين للذين يزرعون المحاصيل ويبنون منازلهم بالقرب منهما.. وتحديدًا الكِندوسكيج، لأنه اعتاد أن يفيض كل ثلاث أو أربع سنوات. ظلَّت المدينة تعاني من نكبة الفيضان على الرغم من الأموال الطائلة التي أُنفقت خلال الخمسين عامًا الأخيرة للسيطرة على المُشكلة. لو كان الفيضان يحدُث فقط بسبب مجرى النُهير ذاته، فرُبَّما استطاعت منظومة من السدود العناية بأمره. غير أن عوامل أخرى كانت تُسهم في الأمر. كانت ضِفَّتا الكِندوسكيج المُنخفضتان أحد هذه العوامل، وشكَّلت شبكة تصريف المجاري بليدة الحركة في المنطقة برُمَّتها عاملًا آخر، ومنذ مطلع القرن، مرَّت فيضانات كثير خطيرة على ديري، أحدُها كارثيٌّ وقع في عام 1931، ولجعل الأمور أسوأ، كانت التلال التي شُيِّد عليها مُعظم مدينة ديري تعجُّ بجداولٍ صغيرة. أحد هذه الجداول هو جدول تورلو، الذي عُثر فيه على جُثَّة شيريل لامونيكا. خلال فترات الأمطار الغزيرة، كانت جميع الجداول عُرضة لأن تفيض بوفرة متجاوزة ضفافها. «إذا أمطرت السماء مُدَّة أسبوعين، فإن المدينة اللعينة تُصاب بانسداد في جيوبها الأنفية»، هكذا لخَّص والد بيل المُتلعثم الأمر ذات مرَّة.

لُجِّم نُهير الكِندوسكيج بعدها وحُوصر في قناة خرسانية طولها ميلان في المنطقة التي يعبر فيها وسط المدينة. تغوص القناة تحت أرض الشارع

(1) الطفلة سوداء البشرة من رواية «مقصورة العم توم» للكاتبة هيريت ستو. لم يكن لتوبسي أبوان، وعندما كانت تُسأل عن الأمر كانت تُجيب: «أعتقد أنني نَمَوْت فحسب». تُذكر توبسي عندما يشير المُتكلِّم إلى شيءٍ نما سريعًا دون أن يُلاحظ.

الرئيس بالقرب من تقاطعه مع شارع القناة، وتصير نهرًا جوفيًّا مسافة نصف ميل أو نحو ذلك، قبل أن تصعد إلى السطح مُجدَّدًا عند حديقة باسي. كان شارع القناة -حيث تصطف حانات ديري كطابور مُجرمين معروض على الشُرطة- موازيًا للقناة في امتدادها خروجًا من المدينة، وكل بضعة أسابيع أو نحو ذلك اعتادت دائرة الشُرطة انتشال سيَّارة أحمقٍ ما مخمور من مياهها، التي صار مستوى تلوُّثها فادحًا من جراء مياه الصرف الصحي ونفايات الطاحونة. أحيانًا يُصاد بعض السَّمك من مياه القناة، لكنه كان مسوخًا مُتطفِّرة غير صالحة للأكل.

على الجانب الشمالي الشرقي من المدينة -جانب القناة- جرت السيطرة على النهر، إلى حدٍ ما على الأقل، وقد ازدهرت التجارة على طوله بالرغم من فيضانه المُتقطِّع. اعتاد الناس السَّير على جانب القناة، أحيانًا مُتشابكي الأيدي (هذا إذا كان اتِّجاه الريح مُناسبًا؛ أما إذا هبَّت الرياح في الاتِّجاه المُقابل، فالرَّائحة النتنة تكون كفيلة بنزع أيِّ رومانسية من التمشية)، وفي حديقة باسي -التي تقع في مواجهة المدرسة الثانوية على الجهة الأخرى من القناة- كانت تُنصَّب مُخيَّمات أشبال الكشَّافة وتُقام حفلات شواء النقانق. في عام 1969، صُدِم المواطنون عندما اكتشفوا أن الهيبيين يدخِّنون الحشيش ويتداولون المُخدِّرات هناك (واحدٌ منهم خاط العلم الأمريكي على مِقعدة سراويله؛ هذا الشاذ الصغير ضُبِطَ من قِبَل رجال الشُرطة قبل أن يعرف الناس نُطق اسم يوچين مكارثي[1]). بحلول عام 69، صارت حديقة باسي صيدلية مفتوحة في الهواء الطلق، وكان الناس يقولون فيما بينهم: فقط انتظروا، سيُقتَل أحدهم في هذا المكان قبل أن يضعوا حدًّا لهذه المهزلة. وفي النهاية قُتِل أحدهم بالفعل. عُثِرَ على مُراهق عمرهُ سبع عشرة سنة ميِّتًا في القناة، واتَّضح أن عروقه ملأى بالهيروين النَّقي، ما يدعوه الهيبيون بالجُرعة البيضاء المُفرطة. بعدها بدأ المُتعاطون يهجرون حديقة باسي، وظهرت قصص تقول إن روح

(1) يوچين چوزف مكارثي (1916-2005): سيناتور أمريكي تزعم الحملة المتنامية داخل الولايات المتحدة لمعارضة حرب ڤيتنام التي راح ضحيتها الآلاف من الجنود الأمريكيين. يعترف الكثيرون بدوره الفعال في إنهاء حرب فيتنام.

الفتى تسكن المكان. كانت القِصَّة بلهاء بالطبع، لكنها ما دامت نجحت في الإبقاء على مُدمني السبيد[1] ومُتعاطي الأفيون بعيدًا، فعلى الأقل هي قِصَّة بلهاء نافعة.

في الجانب الجنوبي الغربي من المدينة، كان النهر يُسبِّب مُشكلة أكبر. هنا شُقَّت التلال بعُمق في عصورٍ مضت نتيجة مرور النهر الجليدي العظيم بالمنطقة، وأُصيبت بجروح أُخرى بسبب التآكُل الذي لا ينتهي الذي تُحدثهُ مياه كِندوسكيج وشبكته العاملة من الروافد، وقد بزغت الطبقة السُفلية من صخر الأديم في أماكن عديدة مُتفرِّقة كعظام دينوصورات مُبعثرة نصف مكشوفة. كان الموظفون المُخضرمون في إدارة ديري للأشغال العامة يعلمون أنه بعد سقوط أوَّل صقيع في الخريف يمكنهم التيقُّن من وجود قدر غير هيِّن لازم من إصلاحات الأرصفة على الجانب الجنوبي الغربي للمدينة. تنكمش الخرسانة وتصير هشَّة، ثم يبرز صخر الأديم من وسطها مُحطِّمًا إيَّاها، كما لو أن الأرض تُريد أن تفقِس شيئًا ما.

أفضل ما كان ينمو في التُربة الضحلة الباقية هي النباتات ذات الجذور السطحية والطبيعة الجلفة، كالأعشاب والنباتات عديمة الفائدة.. بألفاظٍ أخرى: أشجارٌ قميئة، وشُجيراتٍ خفيضة سميكة، وغزوٌ خبيث من اللبلاب السَّام والبلوط السَّام ينمو في كل مكانٍ غير تاركٍ موطئ لقدم. أما الجنوب الغربي للمدينة فكان المكان الذي تنخفض فيه الأرض بوعورة إلى المنطقة المعروفة في ديري بالبرِّية. كانت البرِّية -التي لم يكُن ثمَّة شيء بَار بخصوصها- مساحة أرض فوضوية كبيرة عرضها نحو ميلٍ ونصف وطولها ثلاثة أميال محصورة بين الامتداد الشمالي لشارع كانساس من ناحية، واللسان القديم من الناحية الأخرى. اللسان القديم منطقة سكنية لذوي الدخل المُنخفض، والصرف الصحي هناك سيِّئ تمامًا لدرجة أنه كانت ثمَّة قصص عن مراحيض وأنابيب صرف صحي تنفجر حرفيًّا.

---

(1) Speed أو عقار السُرعة: الاسم المتداول للأمفيتامين، وهو عقار مُخدِّر مُنشِّط يُستخدم للترويح والعلاج وتعزيز الأداء الرياضي، ويرتبط ارتباطا وثيقًا بالميتامفيتامين، ودائما ما يحدث خلط بينهما على الرغم من أن العقارين مُختلفان.

يجري نُهير الكِندوسكيج-شاقًّا البرِّية من مُنتصفها تمامًا. لقد توسَّعت المدينة كثيرًا شمال شرقي البرِّية وعلى جانبيها، لكن الآثار الوحيدة لأشغال المدينة بداخلها لم تكن تتعدَّى مركز مضخَّات ديري رقم 3 (محطَّة ضخ مياه المجاري المحلِّية) ومكبَّ نفايات المدينة. إذا شُوهدت من الجو، تبدو البرِّية أشبه بخنجرٍ أخضرٍ ضخم موجَّه إلى قلب المدينة.

بالنسبة إلى بن، كل هذه الجُغرافية الچيولوچية لم تكن تعني سوى معرفة ضبابية مُلتبسة تُفيد بأن لا منازل أخرى تقع على الجهة اليُمنى من حيث هو الآن.. فالأرض تهبطت مُنحدرة بعيدًا. ثمَّة سور حديدي مُتزعزع مُتكلِّس بارتفاع الخاصر تقريبًا يجري على طول الرصيف كإيماءة حماية رمزية. استطاع بن سماع صوت جريان المياه الخافت، وقد شكَّل الصوت الموسيقى التصويرية لحُلم يقظته المُتواصل.

توقَّف بن وأشاع بصره في البرِّية، وهو لا يزال يتخيَّل عينيها، ورائحة شعرها الزكيَّة.

من موقعه هنا، لم يكن الكِندوسكيج سوى انعكاساتٍ مُتلألئة تُرى بالكاد عبر الفجوات بين أوراق الشجر الكثيفة. يقول بعض الأطفال أنه يوجد بعوض في حجم العصافير هناك في هذا الوقت من السنة. آخرون يقولون إنه توجد رمالٌ مُتحرِّكة عندما تقترب من النهر. لم يكن بن يُصدِّق قِصَّة البعوض، لكن فكرة الرمال المُتحرِّكة أخافته.

إلى يساره قليلًا، استطاع بن رؤية سحابة دوَّارة من النوارس يغوص بعضها نحو الأرض: إنه مكبُّ النِّفايات. ترامت صيحات الطيور خافتة إليه. عبر الشارع، استطاع أن يرى مُرتفعات ديري، والأسقف المُنخفِضَّة لمنازل اللسان القديم الأقرب إلى البرِّية. إلى يمين اللسان القديم، يقف بُرج مياه ديري شامخًا إلى السماء كإصبعٍ أبيضٍ جاثم، وأسفله مُباشرةً، بربخ مجارٍ صدئ يبرز من الأرض، يسكُب مياهًا تغيَّر لونها في تيارٍ صغير مُتلألئ يختفي ساريًا وسط الأشجار والنباتات المُتشابكة.

فجأة انقطع خيال بن الحالم المُبهج عن بيفرلي بواسطة فكرة أكثر قتامة بكثير: ماذا لو بزغت يدٌ ميِّتة من ذلك البربخ الآن، في هذه اللحظة، بينما

هو ينظر؟ ماذا لو وجد -في أثناء التفاتته بحثًا عن هاتفٍ عمومي للاتِّصال بالشُرطة- مُهرِّجًا ينتظره هناك؟ مُهرِّجًا مُضحكًا يرتدي حُلَّة فضفاضة بكُرياتٍ بُرتقالية من الوبر على الصدر؟ افترض...

أمسكت يدٌ بكتف بن، فصرخ بأعلى صوته.

ثم سمع أصوات الضحك. التفت بن إلى الوراء مُنكمشًا إلى السور الأبيض الذي يفصل رصيف شارع كانساس المأمون عن البرِّية غير المنضبطة (وقد صرَّ السور بصوتٍ مسموع أسفل وزنه)، ورأى هنري باورز وبيلش هاجنز وڤيكتور كريس يقفون هناك.

قال هنري: «كيف حالك يا ذا الثديين؟».

سأله بن محاولًا أن يبدو شُجاعًا: «ماذا تُريد؟».

قال هنري: «أُريد أن أضربك». بدا على وجهه أنه كان يُفكِّر في هذا الأمر بشكلٍ جدي، بل خطير. لكن أوَّاه، لكم تتألَّق عيناه السوداوان. «أُريد أن أُلقِّنك درسًا يا ذا الثديين. أظنك لن تُمانع، فأنت تُحب تعلُّم أشياء جديدة، ألست كذلك؟».

ثم مدَّ يده إلى بن، لكنه انحنى مراوغًا.

- «أمسِكاه جيِّدًا يا رفاق».

قبض بيلش وڤيكتور ذراعيه، ولول بن بصوتٍ رعديد. كان صوتًا جبانًا وضعيفًا، لكنه فلت رغمًا عنه. أرجوك يا الله لا تدعهم يُبكونني، لا تدعهم يُحطِّمون ساعتي، هكذا فكَّر بن مسعورًا من الذُعر. لم يكن يعلم ما إذا كانوا سيحطِّمون ساعته أم لا، لكنه كان مُتأكِّدًا أنهم سيجعلونه يبكي. كان مُتأكِّدًا أنه سيبكي كثيرًا قبل أن ينتهوا منه.

صاح ڤيكتور: «يا للمسيح، هذا يبدو كقباع الخنازير تمامًا» ثم لوى معصم بن وأردف: «ألا يبدو صوته كخنزير؟».

ضحك بيلش قائلًا: «بالتأكيد هو كذلك».

لكز بن أوَّلهم دافعًا إيَّاه، ثم لكز الآخر. سايره بيلش وڤيكتور بأريحية، وتركاه يدفعهما، ثم جذباه بعُنف مُجدَّدًا.

أمسك هنري طرف سُترة بن ورفعها إلى أعلى، كاشفًا عن بطنه، الذي يتدلَّى فوق حزامه في انتفاخٍ مُرتخٍ.

صرخ هنري في اندهاشٍ مُشمئِزًا: «انظرا إلى حجم هذه المعدة. أسعِدنا أيُّها المسيح!».

ضج ڤيكتور وبيلش بالضحك أكثر. نظر بن حوله مذعورًا بحثًا عن مُساعده، لكنه لم يرَ أيَّ شخص.. وخلفه -في عُمق البرِّية- كانت النوارس تنوح والصراصير تغفو.

قال بن: «من الأفضل لك أن تكف الآن!». لم يكن قد بكى بعد، لكنه شارف. «من الأفضل أن تكف!».

- «أو ماذا؟». سأله هنري باهتمامٍ صادق، ثم أردف: «أو ماذا يا ذا الثديين؟ أو ماذا؟ هه؟».

وجد بن نفسه فجأة يُفكِّر في برودريك كروفورد، الذي يلعب شخصية ماثيوز في مُسلسل هايواي باترول.. هذا الوغد قوي.. هذا الوغد لئيم.. هذا الوغد لا يقبل أدنى هُراء من أيِّ شخصٍ.. ثم انفجر في البكاء بعدها. كان دان ماثيوز سيدفع هؤلاء الفتية عبر السور، ويرميهم أسفل ضِفَّة النهر، ثم إلى الشُجيرات المُتشابكة.. وكان سيفعلها ببطنه.

قال ڤيكتور مُستهزئًا: «أوه يا رجُل، انظر إلى هذا الطفل!»، وانضم بيلش إليه. أما هنري فابتسم قليلًا، لكن وجهه احتفظ بتلك المسحة الصارمة المُتأمِّلة.. المسحة التي بدت -بطريقةٍ ما- حزينة تقريبًا. أصابت تلك المسحة بن بالهلع، فهي تُلمِّح إلى أنه رُبَّما سينال ما هو أكثر من مُجرَّد علقة ساخنة.

وكأنه قرأ الفكرة وودَّ تأكيدها، مدَّ هنري يده إلى جيب سراويله الچينز وأخرج مطواته.

انفجر الذُعر في جسد بن. كان يواصل دفع جسده عبثًا إلى كلا الجانبين، لكنه الآن اندفع أمامًا فجأة. مرَّت لحظة ظنَّ فيها أنه سيتمكَّن من الهرب. كان مُتعرِّقًا بكثافة، والفتيان المُمسكان بذراعيه لا بُدَّ أن قبضتهما زلقة على الأقل. تمكَّن بيلش من التشبُّث بمعصمه الأيمن بالكاد، لكنه استطاع التحرُّر من قبضة ڤيكتور تمامًا. اندفاعة أخرى...

لكن قبل أن يتمكَّن من فعلها، تقدَّم هنري خطوة إلى الأمام وعالجه بدفعة قوية. طار بن إلى الخلف، وقد صرَّ الحاجز الحديدي بصوتٍ أعلى هذه

المرَّة، وشعر بن أنه يتداعى قليلًا تحت وزنه. ثم أمسكه بيلش وڤيكتور مرَّة ثانية.

قال هنري آمرًا: «الآن، أمسِكاه جيِّدًا.. أتسمعاني؟».

قال بيلش وقد بدا مُرتبكًا قليلًا: «بالتأكيد يا هنري. لن يذهب إلى أيِّ مكان. لا تقلق».

تقدَّم هنري أمامًا إلى أن لمس بطنه المُسطَّح بطن بن الكبير. حدَّق بن فيه، والدموع تنهمر يائسة من بين عينيه المُتَّسعتين، وراح جزءٌ من عقله ينتحب: انتهى أمري! قُضي عليَّ! حاول إيقاف الأمر -لم يكن يستطيع التفكير على الإطلاق وهذا النحيب يتواصل- لكنه لم يتوقَّف. انتهى أمري! انتهى أمري! انتهى أمري!

سحب هنري نصل المدية، الذي كان طويلًا وعريضًا ومحفورًا عليه اسمه. التمع الطَّرف الحاد في ضوء أشعة شمس الأصيل.

قال هنري بالصوت الشارد ذاته: «سأختبرك الآن. إنه موعد الامتحان يا ذا الثديين، ومن الأفضل لك أن تكون مُستعِدًّا».

بكى بن بحرقة، وقلبه يقصف بجنون في صدره. سال المُخاط من أنفه وتجمَّع على شفته العُليا. استلقت كُتُبه المُستعارة مُبعثرة عند قدميه. داس هنري على كتاب الجرَّافة، ثم نظر إلى أسفل، ودفعه إلى المجرور بركلة جانبية من حذائه الأسود عالي الرقبة.

- «هاك السؤال الأوَّل في امتحانك يا ذا الثديين. عندما يقول لك أحدهم 'غَشِّشني' في امتحان نهاية العام، ماذا ستقول له؟».

صاح بن فورًا: «تفضَّل. سأقول له تفضَّل! بالتأكيد! حسنًا! انقل ما شئت!».

انزلق طرف المدية عبر الهواء وضغط معدة بن. كان باردًا كعُلبة مُكعبات ثلج خرجت لتوِّها من المُجمِّد. شفط بن بطنه بعيدًا عنها. للحظة، اصطبغ العالَم من حوله باللون الرمادي. كان فم هنري يتحرَّك لكنه لم يكن يُميِّز ما يقول. بدا هنري كتلفازٍ مكتوم الصوت، وأخذ العالم يسبح... ويسبح...

إيَّاك أن تفقد الوعي. هكذا صرخ الصوت المذعور داخله. إن غبت عن الوعي لرُبَّما جُنَّ جنونه بما يكفي لقتلك!

عاد العالم يتركَّز مرَّة أخرى في بؤرة واضحة نوعًا. شاهد بن أن بيلش وڤيكتور قد كفَّا عن الضحك، وبدا التوتُّر عليهما... كانا خائفين تقريبًا. كان لهذا المشهد تأثير الصَّفعة المُنبِّهة على بن. إنهما فجأة لم يعُدا يعلمان ما قد يفعله، أو إلى أيِّ مدى سيتمادى. مهما كان تخمينك لمدى سوء الأمور، فهذا هو مدى سوئها حقًّا... بل رُبَّما حتَّى أسوأ قليلًا. يجب أن تُفكِّر. إذا لم تُفكِّر من قبل قط أو لن تُفكِّر ثانيةً أبدًا، فمن الأفضل لك التفكير الآن. لأن عينيه تقولان إن من حقِّهما أن تكونا عصبيتين.. عيناه تقولان إنه مجنونٌ ككلب مسعور.

قال هنري: «هذه إجابة خاطئة يا ذا الثديين. إذا قال لك أحدهم ‘غشِّشني’ فأنا لا أكترث البتَّة بما ستفعل، هل فهمتني؟».

قال بن وبطنه يرتجف من النشيج: «أجل. أجل فهمت».

– «حسنًا إذًا. هذه إجابة خاطئة واحدة. لكن الأسئلة الهامة لم تأتِ بعد. هل أنت جاهز للأسئلة الهامة؟».

– «أ... أظنُّ ذلك».

اقتربت سيَّارة فورد طراز عام 51 ببطء منهم. كان الغبار يكسوها، وفي مقعديها الأماميين يجلس رجُل مُسن وامرأة عجوز كتمثالي عرض ملابس مُهملين في مخزنٍ مهجور. رأى بن رأس الرَّجُل المُسن تلتفت إليه. اقترب هنري أكثر من بن، مُخفيًا مديته. استشعر بن طرف النصل يضغط لحمه فوق السُّرة بالكاد. كان ما زال باردًا، ولم يفهم بن كيف أن هذا مُمكن، لكنه كان كذلك.

قال هنري: «هلُم، اصرخ، ولسوف تجمع أمعاءك اللعينة من على حذائك الرياضي».

كان الصبيان مُلتصقين تمامًا أحدهما بالآخر. استطاع بن شمّ الرَّائحة الحلوة للعلكة المُنكَّهة بالفواكه المُنبعثة من أنفاس هنري.

عبرتهم السيَّارة وواصلت طريقها جنوب شارع كانساس، بالهدوء والبُطء ذاتهما لسيَّارات مُسابقات مواكب الورود.

– «حسنًا يا ذا الثديين، إليك السؤال الثاني. إذا قُلت لك أنا ‘غشِّشني’ في امتحان نهاية العام، ماذا ستقول؟».

- «حاضر. سأقول حاضر.. فورًا».

ابتسم هنري، ثم قال: «هذا جيِّد. لقد أجبت عن هذا جيِّدًا يا ذا الثديين. الآن ها هو السؤال الثالث: كيف سأتأكَّد من أنك لن تنسى هذا أبدًا؟».

همس بن: «لـ... لا أعرف».

ابتسم هنري. أشرق وجهه بالكامل، وللحظة بدا وسيمًا تقريبًا. ثم قال كأنه اكتشف حقيقة عظيمة: «أعرف! أعرف يا ذا الثديين أنك تجهل! سأحفر اسمي على بطنك الكبير البدين».

انخرط ڤيكتور وبيلش في نوبة ضحك جديدة. للحظة، شعر بن بنوعٍ من الارتياح الحائر، شاعرًا أن الموقف كله لم يكن شيئًا سوى تلاعُبٍ منهم.. خُدعة صغيرة نسجها ثُلاثتهم لإثارة ذُعره. لكن هنري باورز لم يكن يضحك، وفجأة أدركِ بن أن ڤيكتور وبيلش يضحكان لأنهما شعرا بالارتياح. كان واضحًا لكليهما أن هنري لا يُمكن أن يكون جادًّا. لكنه كان كذلك.

انزلقت المدية إلى أعلى بنعومة كقطعة زبد، وسالت الدماء في خطٍّ أحمرٍ فاقع على جلد بن الشَّاحب.

صرخ ڤيكتور: «هاي!». خرجت الصيحة مكتومة من فمه، مصحوبة بغصَّة مشدوهة.

شخر هنري: «أمسِكه! فقط أمسِكه، هل تسمعني». الآن لم يعد ثمَّة تعبيرٌ جدِّيٌّ أو شاردٌ على وجه هنري؛ الآن كان وجه الشيطان المشوَّه يحتلُّ ملامحة.

صرخ بيلش، وكان صوته عاليًا رفيعًا، بالكاد كصوت فتاة: «يا للمسيح يا هنري، لا تفتح بطنه!».

حدث كل شيء بعدها سريعًا، لكن بالنسبة إلى بن هانسكوم كان بطيئًا. الأمر برُمَّته بدا كأنه يجري في سلسلة من الصور الثابتة المُتتابعة، كاللقطات المصوَّرة المُرفقة بمقال في مجلة لايف. لقد ذهب ذُعره بالكامل. لقد اكتشف بن فجأة شيئًا داخله، ولأن هذا الشيء لم يجد للذُعر فائدة، فالتهمه ببساطة بالكامل.

في الصورة الأولى، مزَّق هنري سُترته من أسفل وصولًا إلى حلمتيه، وكانت الدماء تتدفَّق من الجرح السطحي العمودي أعلى سُرَّته.

في الصورة الثانية، حرَّك هنري المدية إلى أسفل من جديد.. وسريعًا.. كجرَّاح مجنون في ميدان معركة يعمل تحت قصفٍ جوِّي، وفاضت دماءٌ طازجة جديدة.

إلى الخلف، هكذا فكَّر بن ببرود أعصاب بينما الدماء تسيل أسفل بطنه وتحتشد بين حزام سراويله الچينز وجلده. يجب أن أهرب إلى الخلف، هذا الاتِّجاه الوحيد الذي أستطيع الهروب إليه. لم يعُد بيلش وڤيكتور يُمسكانه الآن. سحب الاثنان أيديهما بعيدًا على الرغم من أمر هنري لهما.. كانا يتراجعان في رعب. لكن باورز سيتمكَّن من اللحاق به لو ركض.

في الصورة الثالثة، أوصل هنري القطعين العمودين على بطن بن بقطعٍ عرضي. استطاع بن الآن الشعور بالدماء تجري إلى لباسه الدَّاخلي، كزحفٍ لزج لحلزون يجدُّ في سيره على فخذه الأيسر.

تراجع هنري إلى الخلف للحظة، وقطب جبينه مُتأمِّلًا صنيعته باهتمام كرسَّامٍ يرسم لوحة لمنظرٍ طبيعي. بعد حرف الـ H يأتي حرف الـ E، هكذا فكَّر بن. كان هذا كل ما يلزمه كي يبدأ في التحرُّك. انحنى أمامًا قليلًا فدفعه هنري إلى الوراء مُجدَّدًا. دفع بن نفسه بساقيه، مُضيفًا قوَّته إلى قوَّة دفعة هنري، وصدم حاجز شارع كانساس الحديدي ومال جسده إلى البرِّية خلفه.. وبينما هو يفعل ذلك، رفع قدمه اليُمنى وسدَّد ضربة إلى معدة هنري. لم يكن هذا ردًّا انتقاميًا؛ كل ما كان بن يريده هو زيادة قوَّة الدفعة إلى الخلف. لكن رغم هذا، وعندما رأى نظرة الذهول التام على وجه هنري، شعر بمُتعة وحشية مُصفَّاة.. كان شعورًا كثيف النشوة جعله لجزءٍ من الثانية يظن أن مُقدِّمة رأسه ستنخلع من مكانها.

أصدر الحاجز أصوات صريرٍ وتشقُّق وانكسار. شاهد بن كلًا من ڤيكتور وبيلش يُمسكان بهنري قبل أن يسقط على مُؤخِّرته في المصرف جوار صفحات كتاب الجرَّافة المُمزَّقة، وشعر بعدها بجسده يسقط حُرًّا عبر الفضاء، وصرخ صرخة بدا نصفها كضحكة في الواقع.

صدم بن الأرض المُنحدرة بظهره وأردافه بالكاد أسفل البربخ الذي رصده في وقتٍ سابق. كان حظًّا جيِّدًا أن يتجاوزه، فإذا سقط فوقه، فرُبَّما

قُصِم ظهره إلى نصفين. لكن ما حدث أنه سقط على وسادة سميكة من الحشائش الضَّارة وأجمة سرخس وبالكاد شعر بالصدمة. ثم تدحرج مُتشقلبًا إلى الخلف، وحامت قدماه وساقاه فوق رأسه، ثم هبط على الأرض في وضع الجلوس، وتزحلق عبر المُنحدر عكسيًّا كصبي يركب لُعبة شلَّال ملاءٍ خضراء كبيرة.. سُترته مسحوبة إلى أعلى عُنُقه، وكفَّاه يُحاولان الإمساك بأيِّ شيءٍ ولا ينجحان سوى في انتزاع قبضة تلو القبضة من أجمة السرخس والعُشب الضَّار.

لمح بن قمَّة المُنحدر تبتعد في سُرعة كارتونية كبيرة (وبدا له أن وقوفه هناك في الأعلى منذ ثانية أمر مُستحيل). رأى ڤيكتور وبيلش اللذان بدا وجهاهما كدائرتين بيضاوتين كبيرتين وهما ينظران إلى أسفل نحوه. كان أمامه مُتَّسع من الوقت ليأسف على كتبه المُستعارة.. ثم اصطدم بشيء ما بقوَّة مؤلمة وكاد أن يقضم لسانه إلى نصفين.

كانت شجرة ساقطة، وقد أعاقت سقطة بن عن طريق كسر ساقه اليُسرى تقريبًا. أنشب بن أظافره في أرض المُنحدر وتسلَّق أعلاه قليلًا، مُحرِّرًا قدمه وهو يئن من الألم. لقد أوقفته الشجرة في مُنتصف الطريق إلى أسفل.. وتحته، كانت الشُجيرات أكثر كثافة. انساب الماء من البربخ على يديه في تيَّاراتٍ رفيعة.

سمع بن صيحة من أعلى، ونظر ليجد هنري باورز يطير نحوه بسرعة كبيرة، والمدية محشورة بين أسنانه. هبط هنري واقفًا على كلتا قدميه، وجذعه ينحني إلى الوراء في زاوية حادة كي لا يفقد توازنه. ثم انزلق بقوَّة مُخلِّفًا آثار أقدام عملاقة خلفه، وبدأ يركض أسفل المُنحدر في سلسلة من القفزات السريعة كالكنغر.

- «ثوف أكتُلك يا ذ الثديين!». هكذا كان يصيح بصوتٍ تعوقه المدية المحشورة في فمه، ولم يكن بن يحتاج مُترجمًا من الأمم المُتَّحدة ليُخبره أن هنري يقول سوف أقتلك يا ذا الثديين.

- «ثأكتُل أمك».

الآن، بتلك الأعصاب الباردة التي اكتشفها وهو في الأعلى، عرف بن ما

يجب عليه فعله. لقد تمكَّن من تحرير قدمه بالكاد قبل وصول هنري إليه. كانت المدية في يده الآن، ومدَّها أمامه كحربة. كان بن يعي جيِّدًا أن الساق اليُسرى من سراويله الچينز مُمزَّقة تمامًا، وأن ساقه ذاتها تنزف بكثافة أكثر من بطنه بكثير... لكنها كانت لا تزال تدعم وزنه، وهذا يعني أنها لم تُكسر.. أو على الأقل تمنَّى بن أن هذا ما يعنيه الأمر.

انحنى بن قليلًا ليُحافظ على توازنه غير المُستقر، وعندما مدَّ هنري يدًا إليه وحرَّك المدية في قوسٍ عرضيٍّ طويل في الهواء باليد الأخرى، قفز بن جانبًا. بالطبع فقد توازنه، لكن في أثناء سقوطه غرس ساقه اليُسرى المُمزَّقة في الأرض. اصطدمت قصبة هنري بها، وتخاذلت قدماه من تحته بفاعلية تامة. فغر بن فاه للحظة، وقد انهزم ذعره أمام شعوره بالدهشة والإعجاب. طار هنري باورز تمامًا كسوبرمان من فوق الشجرة الساقطة التي توقَّف بن عندها، وذراعاه ممدوتان أمامه بالطريقة ذاتها التي يمد بها چورچ رييڤز ذراعيه في المُسلسل التلفزيوني، باستثناء أن تحليق چورچ رييڤز يبدو أمرًا طبيعيًّا كالاستحمام أو تناول الغداء في الشُرفة الخلفية. أما هنري فبدا كأن أحدهم غرس قضيبًا مُذكًّى بالنار في ثقب مؤخِّرته. راح فمه يُفتح ويُغلق، وخيط رفيع من اللُعاب يسيل مُندفعًا من رُكنه، ووصل إلى شحمة أذنه في أثناء ما كان بن يُراقبه.

اصطدم هنري بالأرض. طارت المدية مُنفلته من قبضته. تدحرج على كتفه ثم طُرِح أرضًا على ظهره، وانزلق جانبًا إلى الشُجيرات المُنخفِضَة وقد تباعدت ساقٌ عن الأخرى على هيئة حرف V. أطلق هنري صرخة، وتبعها هدرٌ مكتوم، ثم عم الصمت.

جلس بن مكانه مُنبهرًا، ناظرًا إلى بُقعة الشُجيرات المُتشابكة التي اختفى فيها هنري. فجأة بدأ سيلٌ من الحجارة والحصى في الهطول من حوله. نظر بن إلى أعلى. كان ڤيكتور وبيلش يهبطان المُنحدر الآن في حرصٍ أزيد من هنري، وبالتالي أكثر بُطئًا، لكنهما سيصلان إليه في غضون ثلاثين ثانية أو أقل إن لم يفعل شيئًا.

أطلق بن زفرة حارَّة. ألن ينتهي هذا الجنون أبدًا؟

مُبقيًا عينيه عليهما، تسلَّق بن الشجرة الساقطة وبدأ يزحف أسفل المُنحدر لاهثًا بشدَّة. كان يشعُر بوجعٍ حادٍ في جانبه ولسانه يؤلمه كالجحيم. صارت الشُجيرات الآن في ارتفاع بن تقريبًا، وملأت الرَّائحة الخضراء الكثيفة أنف بن. استطاع سماع جريان ماء من مكانٍ ما قريب يسري فوق الأحجار وينزلق بينها.

انزلقت قدمه مُجدَّدًا، وراح ينزلق ويتدحرج مرَّة أخرى، خامشًا ظهر يديه في الصخور الناتئة، مُندفعًا عبر كُتلة من الأشواك اقتنصت بعض الخيوط الوبرية الزرقاء من سُترته وانتزعت أجزاء من اللحم من يديه ووجنتيه.

ثم جاء إلى توقُّفٍ مُفاجئٍ مؤلمٍ في الوضع جالسًا، بكلتا قدميه مغمورتين في الماء. كان هذا رافدًا ملتويًا يشق طريقه إلى مجموعة كثيفة من الأشجار حديثة النمو إلى يمينه. رأى بن ما بدا أنه كهفٌ مُظلم وراء الأشجار. نظر إلى يساره ورأى هنري باورز مُستلقيًا على ظهره وسط الجدول وعينيه نصف المفتوحتين لا يظهر منهما سوى بياضهما، والدم يسيل من إحدى أذنيه ويجري إلى حيث بن في خيوطٍ رقيقة مع الماء.

يا إلهي لقد قتلته! يا إلهي أنا قاتل! يا إلهي!

ناسيًا أن بيلش وڤيكتور ما زالا خلفه (أو رُبَّما واعيًا أنهما سيفقدان كل رغبة في إبراحه ضربًا عندما يكتشفان أن زعيمهما الذي لا يعرف الخوف قد مات)، اندفع بن عبر الماء مسافة عشرين قدمًا مع التيَّار إلى حيث هنري، وقد صارت سُترته أسمالًا بالية، وسراويله سوداء بلون الطين، وقد فقد فردة حذاء. كان بن يعي مُشوَّشًا بحالته المُزرية، وأنه لا تستُره سوى شذرات ملابس، وأن جسده كله عبارة عن عربة بالية من الأوجاع والآلام. كان كاحله الأيسر هو الأسوأ حالًا؛ لقد انتفخ الآن بالفعل واستمرَّ في ضغط حذائه الغارق بالماء، لذا واصل بن محاولات إبعاد وزنه عنه حتَّى أنه لم يعد يمشي بل يترنَّح كبحار يلمس شاطئ البحر للمرَّة الأولى بعد رحلة بحرية طويلة.

انحنى بن فوق هنري باورز. انفتحت عينا هنري على اتساعهما، وأمسك ساق بن بيدٍ مجروحة ودامية، وفتح فمه وأخرج أصواتًا لم تتعد مجموعة من الهمهمات والصفير، لكن بن كان لا يزال قادرًا على استبيان ما يقول: سأقتلك أيُّها البدين القذر.

حاول هنري جذب نفسه إلى أعلى، مُستخدمًا ساق بن كدعامة. تراجع بن إلى الوراء بشكلٍ محموم. انزلقت يد هنري إلى أسفل ساقه، ثم ارتخت قبضتها عنها. اندفع بن إلى الخلف، مُحرِّكًا ذراعيه في حركة دائرية، ثم سقط على مؤخِّرته للمرَّة الثالثة في آخر أربع دقائق مُخطِّمًا رقمًا قياسيًّا جديدًا. أيضًا عضَّ لسانه مرَّة أخرى. تناثر الماء من حوله، وتلألأ قوس قزح للحظة خاطفة أمام عيني بن. لم يأبه بن البتَّة بأمر قوس قزح. لم يأبه البتَّة بأمر جرَّة الذَّهب عند نهايته. لسوف يكتفي بحياته البائسة البدينة.

تدحرج هنري على الأرض محاولًا الوقوف، لكنه سقط مُجدَّدًا. ثم تمكَّن من الاستناد على كفَّيه ورُكبتيه، وفي النهاية اعتدل مُترنِّحًا على قدميه. نظر إلى بن بهاتين العينين السوداوين، والآن، أخذت خُصلات شعره تتمايل من جهة إلى أخرى، كأوراق محصول ذُرة تمرُ ريحٌ عنيفة خلالها.

فجأة شعر بن بغضبٍ شديد. لا، ليس هذا مُجرَّد غضب، بل هو يتمايز غيظًا. لقد كان يسير حاملًا كتبه المُستعارة تحت إبطه، ويحلُم حُلم يقظة بريئًا صغيرًا عن تقبيل بيڤرلي مارش دون أن يُزعج أحدًا، والآن انظر إلى حاله. فقط انظر. سراويل مُمزَّقة.. كاحلٌ أيسر مكسور رُبَّما، أو على الأقل ملتوٍ بُعنف ومُزِّقت أربطته.. ساقٌ مجروحة في أكثر من موضع.. لسانٌ ينبض بالألم.. وأخيرًا الحرف الأوَّل من اسم هنري اللعين محفور على بطنه. ما رأيكم في كل هذا الهُراء الرائع يا أبطال؟ في الغالب كانت فكرة فساد كتبه المُستعارة -التي هي مسؤولية في عُهدته- ما جعلته يندفع نحو هنري باورز. كتبه المُمزَّقة والصورة الذهنية التي رسمها عقله لشكل نظرة السيِّدة ستاريت المؤنِّبة عندما يُخبرها. أيًا كان السَّبب -الجروح أو التواء كاحله أو كتبه أو حتَّى الشهادة القابعة في جيبه الخلفي التي ابتلَّت وصارت الدرجات فيها غير صالحة للقراءة- فقد كان كافيًا لحثِّه على الحركة ومُهاجمة هنري. اندفع بن أمامًا بكامل وزنه، وحذاؤه الموحل يشق الماء الضحل، وركل هنري مُباشرةً في خصيتيه.

فلتبت صرخة ألم مروَّعة واهنة من هنري فزعت لها الطيور وطارت مُحلِّقة من على الأشجار المُحيطة، ووقف في مكانه بفخذين مضمومين ويدين

مُتشابكتين بينهما وحدَّق غير مُصدِّقٍ إلى بن. ثم قال في صوتٍ ضئيلٍ واهن: «آآاه».

قال بن: «أجل».

كرَّر هنري في صوتٍ أكثر وهنًا: «آه».

قال بن مُجدَّدًا: «أجل».

ركع هنري ببطء على رُكبتيه.. لم يكن يسقط بالمعنى الدارج بل يتكوَّر على نفسه.. وظلَّ ينظر إلى بن بتلك العينين السوداوين الذَّاهلتين.

- «آه».

قال بن: «بالضبط».

سقط هنري على أحد جانبيه وهو ما زال مُمسكًا بخصيتيه، وبدأ يتدحرج ببطء من جانب إلى آخر وهو يئن:

- «آه! خصيتاي! آه! لقد هرست خصيتيَّ! آه، آه».

كان قد بدأ يكتسب بعض القوَّة حاليًا، وبدأ بن في التراجُع إلى الوراء خطوة بخطوةٍ. شعر بن بالاشمئزاز ممَّا فعله، لكنه أيضًا امتلأ بنوعٍ من الخيلاء والافتنان الذَّاهل.

- «آه!... محاشمي اللعينة... آآاه.. آه.. خصيتاي!».

رُبَّما كان بن سيظلُّ واقفًا هنا مُدَّة لا يعلم أحدٌ مداها، رُبَّما حتَّى إلى أن يستعيد هنري قوَّة كافية ليُطارده، لكن في هذه اللحظة صدمه حجرٌ فوق أُذُنهُ اليُمنى بقوَّة كاسحة سبَّبت ألمًا عميقًا نافذًا حتَّى إن بن ظنَّ أن زنبورًا عملاقًا قد لدغه قبل أن يشعر بالدماء الساخنة تسيل من رأسه.

استدار بن ورأى الاثنين الآخرين يندفعان نحوه عبر الجدول. كلٌّ منهما يحمل حفنة من حجارة النهر المُستديرة. قذف ڤيكتور حجرًا آخر، وسمعه بن يُصفِّر من جوار أذنه، ثم انحنى قبل أن يصدم آخر رُكبته اليُمنى ويجعله يصرخ من الألم، ثم ارتدَّ ثالثٌ من على وجنته اليُمنى وامتلأت العين التي تعلوها بالماء.

زحف بن إلى الضِفَّة البعيدة وتسلَّقها بأسرع ما يستطيع، مُتشبِّثًا بالجذور الناتئة ومُمزِّقًا أجزاءً من الشُجيرات. نجح بن في الوصول إلى القمَّة (ضربةُ

حجرٌ أخير على مؤخِّرته وهو يسحب نفسه إلى أعلى)، وألقى نظرة سريعة إلى الخلف من فوق كتفه.

كان بيلش يركع جوار هنري بينما ڤيكتور يقف على بُعد ستة أقدام منه يقذف الحجارة، وقد قطعت واحدة منها في حجم كرة البيسبول طريقها عبر شُجيراتٍ في ارتفاع قامة رجُلٍ جوار بن. لقد رأى بن ما يكفي؛ في حقيقة الأمر، لقد رأى أكثر بكثير ممَّا يكفي.

أسوأ ما في الأمر، أن هنري باورز يعتدل واقفًا مرَّة أخرى. هنري- تمامًا مثل ساعة معصم بن طراز تايمكس- قادر على تلقِّي ضربة قوية دون أن يتعطَّل. استدار بن وشقَّ طريقه عبر الشُجيرات، مُتقدِّمًا بصعوبة في اتِّجاه تمنَّى أن يكون غربًا. إذا استطاع أن يصل إلى جانب حي اللسان القديم من البرِّية، فيُمكنه تسوُّل خمسة سنتات من أحدهم واستقلال الحافَّة إلى المنزل، وعندما يفعل ذلك سوف يغلق الباب من خلفه ويدفن هذه الملابس الملوَّثة بالدماء في صندوق القمامة، ويكون هذا الكابوس الجامح قد انتهى أخيرًا. تخيَّل بن نفسه جالسًا في مقعده المُفضَّل في حجرة المعيشة، وقد استحمَّ لتوِّه، وارتدى روب الحمَّام الموبَّر الأحمر، ويشاهد حلقات داڤي داك الكارتونية وهو يشرب اللبن عبر مصَّاصة مُحلَّاة بطعم الفراولة. قال بن لنفسه مُتجهِّمًا، تمسَّك بهذه الخاطرة، وواصل تقدُّمه الوعر عبر الأشجار.

راحت الخمائل تلطم وجهه، فدفعها بن جانبًا. خمشته الأشواك وتعلَّقت به، فحاول تجاهلها. ثم وصل إلى منطقة مُسطَّحة من الأرض سوداء وموحلة. كانت هناك نباتات شبيهة بأعواد الخيزران تنمو بكثافة من الأرض، وثمَّة رائحة كريهة تنبعث الأخيرة. عبرت خاطرة مشؤومة (رمال مُتحرِّكة) عقله كطيفٍ وهو ينظر بإمعان إلى لمعان الماء الرَّاكد الذي يلف الأجسام الشبيهة بالخيزران. لم يكن يريد الدخول إلى هناك. حتَّى لو لم تكن هذه رمالًا مُتحرِّكة، فالطين السميك سيبلع حذاءه. بدلًا من ذلك، استدار بن إلى اليمين، وركض موازيًا لحافَّة بُستان الخيزران إلى أن وصل في النهاية إلى منطقة من الأشجار المُعتادة.

كانت الأشجار -التي مُعظمها من فصيلة الشوح- كثيفة وتنمو في كل

مكان، وتُحارب إحداها الأخرى للظفر بمسافة تؤمِّن لها كمًّا مُناسبًا من أشعة الشمس. لكن الشجيرات المُنخفِضَّة والأعشاب المُتشابكة أقل، واستطاع بن شق طريقه بسرعة أكبر عبرها. لم يكن يعد مُتيقِّنًا من صحَّة الاتِّجاه الذي يسير فيه، لكنه ظل يظن أنه -بالقياس- يتقدَّمهم بنحوٍ جيِّد نسبيًّا. إن البرِّية مُحاطة بعُمران البلدة من ثلاثة جوانب، وتحدها من الجانب الرابع إنشاءات امتداد الطريق السريع. عاجلًا أو أجلًا إذًا، سيخرج من البرِّية إلى مكانٍ ما.

أخذ بطنه يؤلمه بعنف، فسحب بقايا سُترته المُمزَّقة إلى أعلى ليلقي نظرة.. وما إن فعل جفل وأطلق زفيرًا طويلًا ذا صفيرٍ من بين أسنانه. كان بطنه يُشبه كُرة زينة مُقزِّزة على شجرة كريسماس، يكسوه الدم الأحمر واللطخ الخضراء من انزلاقته الوعرة على الضِفَّة المُنحدرة. أسدل بن ما تبقَّى من سُترته من جديد؛ رؤيته لهذه الفوضى جعلته يشعر بالغثيان وأنه على وشك أن يقيء غذاءه.

الآن، بدأ يسمع صوت أزيزٍ مُنخفض آتيًا من مكانٍ ما أمامه. كان أشبه بنغمة واحدة ثابتة تعلو بقليل عن النطاق الأدنى لمستوى سمع البشر. لو كان بالغًا، رُبَّما تجاهل الصوت، أو حتَّى لم يلتقطه من الأساس (كان البعوض قد عثر على بن حاليًا، ورغم أنه لم يكن بأيِّ حال في حجم العصافير، إلا أنه كان كبيرًا حقًّا). لكن بن كان صبيًّا، وقد بدأ بالفعل يتغلَّب على خوفه. انحرف إلى يساره وشقَّ طريقه عبر بعض أجمات الغار الخفيضة، ووراءها، برز من الأرض الطرف العلوي من أُسطُوانة أسمنتية بارتفاع ثلاثة أقدام وعرض أربعة أقدام تقريبًا، وكانت مُتوَّجة بغطاءٍ حديديٍ يعمل كفتحة تهوية. الغطاء مختومٌ بالكلمات التالية: إدارة ديري للصرف الصحي. كان الصوت -الذي بدا من هذه المسافة كطنينٍ وليس أزيزًا- يصدر من مكانٍ ما عميق داخل الأُسطُوانة.

نظر بن بعينٍ واحدة عبر ثقوب الغطاء الدائرية لكنه لم يرَ شيئًا. كان يسمع الطنين، بالإضافة إلى ماءٍ يجري في مكانٍ ما بالأسفل، هذا كل شيء. أخذ نفسًا عميقًا والتقط أنفه رائحة قذارة ورطوبة لاذعة، فتراجع إلى الوراء جافلًا. إنها شبكة المجاري، هذا كل شيء. أو رُبَّما مزيجٌ من المجاري ونفق تصريف أمطار. يوجد الكثير من هذه الأنفاق في مدينة ديري المنكوبة بالفيضانات

المُتتالية. ليس أمرًا هامًا إذًا. لكن البُقعة أثارت في جسده قشعريرة غريبة غير مُبرَّرة. أحد أسباب ذلك هو رؤية شيءٍ من صنع الإنسان في هذه البرِّية العشوائية كثيفة الأشجار. لكنه افترض أن السَّبب الآخر شكل الشيء ذاته. تلك الأُسطُوانة الخرسانية التي تبرز من جوف الأرض. لقد قرأ بن قِصَّة هربرت چورچ ويلز آلة الزمن قبل عامٍ في نسختها المُصوَّرة أوَّلًا، وبعدها قرأ الكتاب الأصلي كاملًا. ذكَّرته هذه الأُسطُوانة بغطائها الحديدي بالآبار والأنفاق التي تقود إلى مدينة شعب المورلوك الرهيب.

ابتعد بن عنها سريعًا، وبدأ يحاول العثور على اتِّجاه الغرب مُجدَّدًا. ذهب إلى منطقة صغيرة خالية من الأشجار، واستدار إلى أن صار ظله خلفه مُباشرةً بقدر ما يستطيع، ثم جدَّ السير في طريقٍ مُستقيم.

بعد مرور خمس دقائق سمع مزيدًا من الماء الجاري، مخلوطًا بأصواتٍ أخرى... أصوات صبية.

توقَّف وأنصت، وكان هذا حين سمع صوت فروعٍ تتكسَّر وضجَّة أخرى آتية من خلفه.. وقد ميَّزها تمامًا وعلى الفور. هذه الضجَّة تنتمي إلى ڤيكتور وبيلش، وهنري باورز الوحيد والأوحد.

يبدو أن الكابوس لم ينته بعد.

نظر بن حوله ليعثر على مكانٍ يصلح للاختباء.

10

خرج بن من مخبأه بعد ساعتين تقريبًا، أكثر اتِّساخًا بكثير من ذي قبل، لكن مُنتعش إلى حدٍ ما. بدا الأمر غير معقولٍ بالنسبة إليه، لكنه قد غفا بالفعل.

عندما سمع بن ثلاثتهم خلفه -ما زالوا يبحثون عنه- كاد تفكيره أن يُشل تمامًا تقريبًا وبخطورة، كحيوانٍ يعبر طريقًا وجد نفسه قُبالة المصباحين الأماميين الباهرين لشاحنة مُسرعة. بدأ نعاس مُشِلٌّ يسري في بدنه، وبالفعل مرَّت بخاطره فكرة الاستلقاء أرضًا ببساطة، والتكوُّر حول نفسه كقنفذ، والسماح لهم بفعل ما يحلو لهم به. كانت فكرة خرقاء، لكنها بدت أيضًا جيِّدة جدًّا بشكلٍ غريب.

لكن بدلًا من ذلك، بدأ بن في التحرُّك نحو صوت جريان الماء وأولئك

الصبية الآخرين. حاول بن فك طلاسم أصواتهم واستيضاح ما يقولون. كان يشغل نفسه بأيِّ شيء كي ينفض عن روحه هذا الشَّلل المُخيف الذي أصابها. إنهم يتحدَّثون عن مشروعٍ ما. كما أن صوتًا أو اثنين بديا مألوفين له قليلًا. ثمَّة صوت ماء يتناثر، متبوعًا بزوبعة من الضحك النابع من القلب. ملأ صوت الضحك قلب بن بحنينٍ أحمق، وجعله يدرك خطورة وضعه أكثر من أيِّ شيءٍ آخر.

إذا كان مُقدَّرًا له أن يُمسك، فلا حاجة أن يذوق أولئك الصبية جرعة ممَّا سيذوقه. انعطف بن يمينًا من جديد. مثل العديد من الأشخاص الضخام الآخرين، كان بن رشيق الخُطى بشكلٍ لافت للنظر. لقد مرَّ على مقربة وثيقة من الصبية حتَّى إنه رأى ظلالهم تتحرَّكُ جيئةً وذهابًا على صفحة الماء البرَّاقة، لكنهم لم يروه أو يسمعوه، وتدريجيًّا، بدأت أصواتهم في الخفوت من خلفه.

جاء بن إلى دربٍ ضيِّق جُرِّف تمامًا من كل شيءٍ ولم يكن يبرز من أرضه سوى أديمها. فكَّر بن في سلكه قليلًا، ثم هزَّ رأسه بعدها. عبره بن وانتقل منه إلى النباتات الكثيفة مرَّة أخرى. كان يسير ببطء أكبر الآن، وهو يدفع الشُجيرات جانبًا بدلًا من دهسها للتقدُّم. كان ما زال يسير بمُحاذاة مجرى النهر تقريبًا الذي يلعب جواره الصبية الآخرين. بمُجرَّد النظر عبر الأشجار والنباتات المُتشابكة الكثيفة استطاع بن أن يرى أنه -النهر- أوسع كثيرًا من الذي سقط إليه هو وهنري.

هنا توجد أُسطُوانة خرسانية أخرى، بالكاد ظاهرة من وسط تشابك أشجار عليق مُتعرِّشة نمت فوقها، وتصدر طنينًا خفيضًا إلى نفسها. من خلفها، تنحدر الضِفَّة إلى مجرى النهر، وهناك شجرة دردار عتيقة كثيرة العُقد تنحني مُنعقفة بشدَّة إلى حافَّة الماء. بدت جذورها التي تبرز جُزئيًّا بسبب تآكل الضِفَّة كشعرٍ مُتَّسخ مُتشابك.

آملًا ألا تكون هناك حشراتٌ أو أفاعٍ لكن في الوقت ذاته بدا مُتعبًا جدًّا وخائفًا لدرجة عدم الاكتراث بتلك الأمور حقًّا، شقَّ بن طريقه بين الجذور وعبر الكهف السطحي الضيِّق أسفلها. انحنى إلى الخلف، وطعنهُ جذرٌ في ظهره كإصبعٍ غاضب. عدَّل بن من وضعيته قليلًا، فاستقرَّ موضعه ودعَّمه الجذر بشكلٍ جيِّدٍ حقًّا.

وهنا أتى هنري وبيلش وڤيكتور. لقد ظنَّ أنه رُبَّما ضلَّلهم عن دربه، لكنه لم يكن محظوظًا لهذه الدرجة، وقف ثُلاثتهم بالقرب منه لحظاتٍ، لو كانوا أقرب قليلًا لاستطاع مدَّ يده من مخبأه ولمس أقدامهم.

قال بيلش: «أراهن أن أولئك البُلهاء في الخلف قد رأوه».

أجابه هنري: «حسنًا، لنذهب ونرى». ثم عادوا أدراجهم في الطريق الذي أتوا منه. بعد لحظاتٍ سمع بن هنري يصيح: «ما الذي تفعلونه هنا يا أطفال بحق اللعنة؟».

جاء ردٌّ من نوعٍ ما، لكن بن لم يُميِّز كُنهه: كان الصبية بعيدين جدًّا، وقربهُ هو إلى هذا الحدِّ من النهر -بالتأكيد هو الكِندوسكيج- جعل خرير الماء عاليًا جدًّا وطامسًا. لكن بن ظنَّ أن صوت الطفل بدا خائفًا، وشعر بشعوره الآن، وتعاطف معه.

بعدها صاح ڤيكتور بشيءٍ لم يفهم بن معناه على الإطلاق: «يا له من سدٍّ صغيرٍ لعينٍ!».

سدٌّ صغير؟ لعينٌ صغير؟ أم أن ڤيكتور يقول يا لهم من حفنة أطفال لعينين وقد أساء بن سماعه.

اقترح بيلش قائلًا: «لنهدمهُ لهم».

صدرت صيحات احتجاج متبوعة بصرخة ألم. بدأ أحدهم يبكي. أجل، بن قادر على التعاطف معهم. إنهم لم يمسكوا به -ليس بعد على الأقل- لكن يوجد صبية آخرون يستطيعون إفراغ شحنتهم المجنونة فيهم.

قال هنري: «بالتأكيد، لنهدمهُ».

أصوات تناثر مياه.. صيحات.. زوبعة من الضحك السمج الأبله من بيلش وڤيكتور.. صرخة كرب غاضبة من أحد الصبية.

هنري باورز يقول: «لا تُلق إليَّ بأيٍّ من هُرائك أيُّها المُتلعثم الصغير غريب الأطوار.. لن أتقبَّل هُراء أيِّ شخصٍ آخر اليوم».

سمع بن صوت تحطُّمٍ قوي، ثم علا صوت الماء الجاري وخار بقوَّة قليلًا قبل أن يعود إلى خريره الرائق السَّابق. فجأة فهم بن الأمر. سدٌّ صغير.. أجل.. هذا ما قاله ڤيكتور. إن الصبية الثلاثة -أو الاثنين كما بدا له وهو يمرُّ

من جوارهما- يبنون سدًّا، وقد حطَّمه هنري وأصدقاؤه تمامًا لتوِّهم. بن حتَّى يظن أنه يعرف أحد أولئك الصبية. «المُتلعثم الصغير غريب الأطوار». المُتلعثم الوحيد الذي يعرفه بن من المدرسة الابتدائية هو بيل دِنبروه، من فصل الصَّفِّ الدراسي الخامس الآخر.

- «لم يكن ثمَّة داعٍ لأن تفعلوا هذا». هكذا صاح صوتٌ رفيع راجف، وقد ميَّز بن هذا الصوتَ أيضًا، على الرَّغم من أنه لم يستطع ربطه بوجهٍ بشكلٍ مُباشر. «لِمَ فعلتم ذلك؟».

ردَّ هنري في حِدَّة هازئة: «لأنني شعرت أنني أريد ذلك، يا أولاد الكلاب!». ثم صدر صوت ضربة مكتومة على جسدٍ، تبعته صرخة ألمٍ عنيفة، وتبع الصرخة بُكاء وعويل.

- «اخرس»، قالها ڤيكتور ثم أردف: «كُفَّ عن هذا البُكاء أيُّها الصغير وإلا شددتُ أُذنيك وربطتهما في ذقنك».

تحوَّل البُكاء إلى سلسلة من النهنهات المُختنقة.

قال هنري: «سنرحل، لكن قبلها أريد معرفة شيءٍ واحد. هل رأيت عيِّلًا بدينًا في آخر عشر دقائق أو نحو ذلك؟ عيِّل بدين ضخم دام تملأهُ الجروح؟».

كان الرَّد موجزًا تمامًا ولا يُمكن أن يكون أيَّ شيءٍ بخلاف «لا».

سأل بيلش: «متأكِّد؟ يجب أن تكون مُتأكِّدًا يا أعرج الفم».

أجاب بيل دِنبروه: «أ-أ-أنا مُتأ-أ-أ-كِّد».

قال هنري: «هيَّا بنا. لا بُدَّ أنه شقَّ طريقه رجوعًا من هذا الطريق».

صاح ڤيكتور: «تا تا يا أولاد. لقد كان سدًّا عديم القيمة صَدِّقاني، أنتما أفضل حالًا من دونه».

صوت ماء يتناثر، ثم ترامى صوت بيلش مرَّة أخرى، لكنه كان بعيدًا جدًّا الآن. لم يُميِّز بن الكلمات. في الحقيقة، لم يكن يُريد تمييز الكلمات. بعد ذلك، واصل الصبي الذي كان يبكي بُكاءهُ الآن، وسمع بن أصوات تهدئة من الصبي الآخر. قرَّر بن أن ثمَّة اثنين فقط: بيل المُتلعثم، والباكي.

قبع بنٍ في مكانه نصف جالس نصف مُضَّجع، يستمع إلى الولدين الآخرين قُرب النهر وإلى صوت هنري وصديقيه الدينوصورين يشقون

طريقهم في جلبة نحو الجهة البعيدة من البرِّية. لمعت أشعت الشمس في عينيه وصنعت دوائر صغيرة من الضوء على الجذور المُتشابكة من فوقه وحوله. كان المكان قذرًا هنا، لكنه دافئ مُريح أيضًا... وآمن. صوت الماء الرتيب عمل كمُهدِّئ. حتَّى صوت الطفل الباكي كان مُهدِّئًا أيضًا بطريقةٍ ما. تقلَّصت آلامه وأوجاعه وتبلَّد إحساسه بها، وتلاشت أصوات الدينوصورات من الهواء بالكامل. سينتظر في مكمنه قليلًا، فقط ليتأكَّد أنهم لن يعودوا، ثم سيخرج ويُسرع الخُطى عائدًا إلى منزله.

استطاع بن سماع نبض آلات الصرف الصحي آتيًا عبر قشرة الأرض، بل استشعره بالأحرى: ذبذبة خفيضة مُنتظمة تسري من جوف الأرض إلى الجذر الضخم الذي يستند عليه وصولًا إلى ظهره. فكَّر بن في شعب المورلوك الوحشي مرَّة أخرى.. في جلدهم العاري.. وتخيَّل أن رائحته لا بُدَّ أنها أشبه برائحة الهواء الرَّطب النَّتن الذي يصعد من فتحات تهوية ذلك الغطاء الحديدي. فكَّر في آبارهم التي تغوص عميقًا في باطن الأرض.. الآبار التي ثُبِّتت في جوانب جُدرانها سلالم صدئة. انجرف بن بعيدًا، وعند نُقطةٍ ما تحوَّلت أفكاره إلى أحلام.

11

لم يحلم بن بالمورلوك، بل بالشَّيءِ الذي حدث له في يناير، الشَّيءُ الذي لم يستطع إخبار أمه به.

كان اليوم أوَّل أيَّام الدراسة بعد عُطلة الكريسماس الطويلة. طلبت مسز دوجلاس من التلاميذ متطوِّعًا يبقى معها بعد وقت المدرسة ليُساعدها في إحصاء دُفعة الكتب الجديدة التي جاءت قبل العُطلة مُباشرة، فرفع بن يده.

قال مسز دوجلاس: «شكرًا يا بن»، وابتسمت له ابتسامة مُفعَمة بالإشراق جعلت الدفء يسري في جسده من رأسه إلى أخمص قدميه.

همس هنري باورز بصوتٍ خفيض: «مُتذاكٍ أحمق».

كان اليوم أحد أفضل وأسوأ أيَّام الشتاء في ولاية مين في الآن ذاته: يومًا مُشرقًا، لا سُحُب فيه، لكنه شديد البرودة لدرجة أنه صار مُخيفًا نوعًا، ولجعل البرودة أسوأ، واصلت الرياح القوية هبوبها العنيف لتُضاعف البرد بردًا.

بدأ بن يحصي الكتب ويعطي مسز دوجلاس أرقامًا لتكتُبها في مُذكرة (دون أن تُزعج نفسها بمُراجعة عمله ولو بصورة عشوائية، وهو ما جعله يشعر بالفخر)، ثم حمل كلاهما الكتب بعدها إلى المخزن عبر ممرَّاتٍ يهمهم فيها نظام التدفئة المركزي على نحوٍ رتيب. عندما بدآ مهمَّتهما، كانت المدرسة تعجُّ بالأصوات: أبواب خزائن التلاميذ تُصفع. صوت نقر آلة مسز توماس الكاتبة لا ينقطع من مكتبها. أصوات كورال نادي الغناء غير المُتناغمة بعد من الدور العلوي. دوي كُرات السلَّة بوم-بوم-بوم المخموم في صالة الألعاب الرياضية، وصرير أحذية اللاعبين الرياضية وخبطها المكتوم وهم يتقدَّمون نحو مرمى السلَّة، أو في أثناء مراوغتهم على الأرض الخشبية القشيبة المصقولة.

شيئًا فشيئًا، بدأت هذه الأصوات تخفت، ومع الانتهاء من وضع آخر مجموعة من الكتب في صفوفٍ طولية (أحدها قصير، لكن لا يهم، فجميعها تستند معًا بالكاد؛ هكذا قالت مسز دوجلاس مُتنهِّدة) كانت الأصوات الوحيدة الباقية هي صوت نظام التدفئة، وصوت الفيشت-فيشت لمكنسة السيِّد فازيو وهو يكنس نشارة الخشب الملوَّنة في الطابق الأرضي، وصوت عواء الريح في الخارج.

نظر بن إلى نافذة غرفة تخزين الكتب الوحيدة الضيِّقة، ورأى الضوء يتلاشى من السماء في الخارج سريعًا. إنها الرابعة الآن والغروب قد شارف. هبَّت رقائق جافة من الثلج على أرجوحات الأطفال في الخارج وحامت حول ألعاب المتوازي المُتجمِّدة في مكانها على الأرض، وحده الذوبان في شهر أبريل سيقدر على كسر هذا اللحام الجليدي الصلد. لم يرَ بن أيَّ شخصٍ على الإطلاق يسير في شارع چاكسون. أمعن النظر فترة أطول، متوقِّعًا أن تمر سيَّارة عبر تقاطع شارعي ويتشام وچاكسون، لكن هذا لم يحدث. كل شخص في ديري باستثنائه ومسز دوجلاس قد يكون ميِّتًا أو هرب، على الأقل هذا ما يبدو عليه الأمر من هنا.

نظر إليها ورأى -بمسحة من الخوف الحقيقي- أنها تشعر بالأحاسيس نفسها التي يشعرها. استطاع معرفة ذلك من هيئة عينيها، اللتين بدتا عميقتين وشاردتين

ومُستغرقتين في التفكير، ولا تُشبهان عيني مُدرِّسة في الأربعين من عمرها، بل أقرب إلى عيني طفلة. كانت يداها مطويَّتين أسفل صدرها، كأنها تُصلِّي.

أنا خائف، وهي خائفة بدورها، هكذا فكَّر بن، لكن مِمَّ نخاف حقًّا؟

لم يكن يعرف. ثم نظرت إليه مسز دوجلاس وفلتت منها ضحكة خجلى قصيرة: «لقد أخَّرتك كثيرًا، معذرة يا بن».

قال ناظرًا إلى أسفل نحو حذائه: «لا مُشكلة». كان يُحبها قليلًا، لكن ليس ذلك الحب غير المشروط الذي كنَّه من قبل لمسز تيبودو مُدرِّسته في الصف الأوَّل الابتدائي... لكنه يحبها بالفعل.

قالت له: «كنت سأقلك إذا كانت معي سيَّارة. لكن زوجي سيقلني في حدود الخامسة والرُّبع. إذا لم يكن لديك مانع في الانتظار، يُمكننا أن...».

قال بن: «لا، أشكرك. يجب أن أكون في المنزل قبل ذلك». لم يكن هذا سبب رفضه الحقيقي، لكنه شعر بنفورٍ شاذ من فكرة مُقابلة زوج مسز دوجلاس.

- «رُبَّما تستطيع أمك أن...».

قال بن: «هي أيضًا لا تقود. سأكون على ما يُرام. البيت يبعد مسافة ميلٍ واحد».

- «ميلٌ واحد ليس بمسافةٍ طويلة في الجو الصحو، لكنه مسافة كبيرة جدًّا في هذه الأجواء. عِدني يا بن أن تجد مكانًا للاحتماء إذا صار الجو شديد البرودة، حسنًا؟».

- «أوه، بالطبع. سأدلف إلى متجر كوستيلو وأقف قرب الموقد لفترة أو شيئًا ما. السيِّد خدرو لن يُمانع. كما أن معي سراويلي الشتوية الداخلية الثقيلة، وكوفية الكريسماس أيضًا».

بدت مسز دوجلاس أكثر اطمئنانًا، ثم نظرت نحو النافذة مرَّة أخرى وقالت: «يبدو الجو قارس البرودة في الخارج هذا كل شيء... ومُعاديًا... مُعاديًا جدًّا».

لم يكن يعلم معنى الكلمة لكنه علم تمامًا ما تعنيه. شيءٌ ما حدث لتوِّه... تُرى ما هو؟

فجأة أدرك بن أنه للمرَّة الأولى يراها كشخصٍ وليس كمُعلِّمة فحسب. هذا ما حدث. فجأة استطاع رؤية وجهها في ثوبٍ جديدٍ تمامًا، ولأنه فعل ذلك، صار وجهها وجهًا جديدًا... وجه شاعرة مُتعبة. تخيَّلها تعود إلى منزلها برفقة زوجها، تجلس جواره في السيَّارة بينما المُكيِّف الساخن يهسُّ، ويتحدَّث هو عن أمور يومه. تخيَّلها تُعد العشاء لهما. عبرت خاطرة غريبة عقله وقفز سؤال تعارف ودِّي غير منطوق على طرف لسانه فجأة: ألديكِ أطفال يا مسز دوجلاس؟

قالت مسز دوجلاس: «كثيرًا ما أُفكِّر خلال هذه الفترة من السنة أن البشر لم يكن من المفترض لهم أن يعيشوا على كل هذا البُعد شمال خط الاستواء؛ على الأقل ليس على هذا الارتفاع». ثم ابتسمت بعدها، ثم غادرت الغرابة إما وجهها أو عينيه، واستطاع بن أن يراها -جُزئيًّا على الأقل- كما اعتاد رؤيتها. لكنك لن تراها بتلك الطريقة مُجدَّدًا قط.. ليس تمامًا، هكذا فكَّر شاعرًا بالانزعاج.

- «سأشعر بأنني عجوزٌ إلى أن يأتي الصيف، عندها سأشعر أنني يافعة مرَّة أخرى. يحدث هذا لي كل عام. هل أنت مُتأكِّد من أنك ستكون على ما يُرام يا بن؟».

- «سأكون بخير».

- «أجل، أفترض كذلك. أنت صبيٌّ مُهذَّب يا بن».

عاد يتأمَّل قدميه مرَّةً أخرى وحُمرة الخجل تسري في وجنتيه، وشعر بأنه يحبها أكثر من أيِّ وقتٍ مضى.

في طريقه عبر مدخل بناء المدرسة، قال السيِّد فازيو له دون أن يرفع بصره عن نشارة الخشب الحمراء التي يكنسها: «احذر قضمة الصقيع يا بُني».

- «سأفعل».

وصل بن إلى دُرج خزانته وفتحه، وأخرج سراويله الشتوية الداخلية الثقيلة. عندما أصرَّت أمه أن يرتديها مرَّة أخرى هذا الشتاء شعر بن باستياءٍ شديد، ظانًّا أنها لباس للأطفال، لكنه شعر بالسعادة أنها معه عصر هذا اليوم. سار مُتثاقلًا نحو الباب، وهو يغلق سوستة معطفه، ويزمُّ أشرطة غطاء الرأس عليه بإحكام،

ويضع يديه في القُفَّازين. خرج بن إلى الشارع ووقف على الدرجة العلوية من السُّلم المُغطَّاة بالثلوج، مُستمعًا إلى الباب الذي يُغلق ببطء من خلفه.

قبع مبنى مدرسة ديري كئيبًا تحت جلد السماء المُتورِّم. كانت الريح تعصف بثبات، وراحت خطاطيف سارية العلم تقرع العمود الحديدي في موضع واحد مُخلِّفه وراءها نُدبة بدت كوشمٍ وحيد. شقَّت الرياح الباردة طريقها صافعة جلد وجه بن الدَّافئ غير المُستعد دُفعة واحدة، وجعلته يفقد الإحساس بوجنتيه.

احذر قضمة الصقيع يا بُني.

سريعًا سحب بن وشاحه حتَّى بدا ككاريكاتير صغير وبدين في قصص ريد رايدر المصوَّرة. كان للسماء المُدلهمة جمال آسر من نوعٍ ما، لكنه لن ولم يتوقَّف ليتأمَّلهُ، فالجو كان أبرد ممَّا يُحتمل. بدأ بن يتحرَّك.

في البداية كانت الرياح تهب من خلفه ولم تبدُ الأمور بهذا السوء.. بل بدت في الحقيقة كأنها تُساعده على التقدُّم. لكن عندما وصل إلى شارع القناة، كان عليه الاتِّجاه يمينًا في مواجه الرياح مُباشرةً. الآن بدت كأنها ترغب في تعطيله، كما لو أن لها شأنًا معه. ساعدته الكوفية قليلًا، لكن ليس بشكلٍ كافٍ. خفقت عيناه وتجمَّد المُخاط في أنفه كالزجاج. بدأ الخدر يسري في ساقيه، واستمرَّ بن في دس كفَّيه المُجمَّدين تحت إبطيه لتدفئتهما. عوت الريح وناحت، وأحيانًا بدا صوتها بشريًّا تقريبًا.

شعر بن بالخوف والابتهاج على حدٍ سواء. الخوف لأنه الآن استطاع فهم القصص التي اعتاد قراءتها، كقِصَّة چاك لندن كي تُشعل نارًا، التي مات أناسٌ فيها مُتجمِّدين. يمكن للمرء تمامًا أن يموت مُتجمِّدًا في ليلةٍ كهذي.. ليلة تنخفض فيها درجة الحرارة إلى خمس عشرة درجة تحت الصفر.

أما الابتهاج فكان من العسير شرح أسبابه. كان شعورًا بالوحدة؛ شعورًا مُقبضًا نوعًا ما. ها هو في الخارج، يمضي عبر أجنحة الريح، ولا أحد من القابعين في المُربَّعات المُضيئة خلف نوافذهم يراه أو يعلم عنه شيئًا. جميعهم في الداخل.. حيث الضوء والدفء، لا يعلمون أنه يمرُّ بهم، فقط وحده يعلم. بدا الأمر كشيءٍ سِرِّي.

الهواء المُتلاطم ينغز وجهه كإبرٍ حارقة، لكنه نظيف ومُنعش، والبخار الأبيض يتصاعد من أنفه في تيَّاراتٍ صغيرة أنيقة.

مع غروب الشمس، واحتلال الخط الأصفر البُرتقالي البارد الأخير الأُفُق الغربي، وبزوغ النجوم المُتلألئة الأولى في السماء من فوقه، وصل بن إلى القناة. كان على مسافة ثلاث بنايات فقط من بيته الآن، ويتوق إلى الشعور بالدفء على مسام وجهه وجلد ساقيه لتتحرَّك الدماء فيها من جديد، ويُسري الوخز في أوصالها.

لكنه رغم هذا، توقَّف.

كانت القناة مُجمَّدة في مجراها الخرساني كنهرٍ مخفوق الحليب مُثلَّج، وسطحها مُحدودبٍ ومُتصدِّع وغائم. كانت هامدة بلا حراك لكنها تفيض بالحياة تمامًا في هذه الأجواء الشتويةً المُتقلِّبة.. وكان لها جمال خاص مُتفرِّد ومُعقَّد.

اتَّجه بن إلى الجهة المُعاكسة. الجنوب الغربي، في اتِّجاه البرِّية. عندما أعطى وجهه إلى هذا الاتِّجاه، عادت الرياح تهب من خلفه مرَّة أخرى، وراحت تهزُّ وتُرفرف سراويله الشتوية كالعلم. كانت القناة تجري في خطٍّ مُستقيم محصورة بين حوائطها الخرسانية مسافة نصف ميل، ثم تنتهي الحوائط الخرسانية ويشق النهر طريقه زاحفًا عبر البرِّية، التي تكون في هذا الوقت من السنة عالمًا عظميًّا من العلائق النباتية المُتجمِّدة والأفرع الناتئة العارية من الأوراق.

ثمَّة هيئة مُبهمة ما تقف على الجليد بالأسفل.

نظر بن نحوها وفكَّر: قد يكون رجُلًا واقفًا هناك، لكن هل يُعقل أنه يرتدي ما يبدو أنه يرتديه؟ هذا مُستحيل، أليس كذلك؟

كان الشكل المُبهم يرتدي ما يبدو كأنه حُلَّة مُهرِّج فِضِّية بيضاء، وكانت تُرفرف حول جسده في هذه الرياح القُطبية الشعواء، وفي قدميه، يوجد حذاءٌ بُرتقاليٍ مُبالغ في حجمه، يتماشى مع كُريات الوبر التي تلتصق بصدر الحُلَّة. في إحدى يديه، يُمسك الشكل بباقة من الخيوط تتَّصل بمجموعة من البالونات، وعندما دقَّق بن النظر وجد أن البالونات تطفو بميلٍ في اتِّجاهه.

سرى شعورٌ قويٌ بعدم الواقعية في أوصال بن.. كأنه وهم. أغلق الصبي عينيه، ثم فتحهما، ووجد أن البالونات ما زالت تبدو كأنها تطفو في اتِّجاهه.

سمع بن صوت السيِّد فازيو يدوِّي في رأسه. احذر قضمة الصقيع يا بُني.

لا بُدَّ أنها هلوسة أو سرابٌ من نوعٍ ما سبَّبته إحدى ألاعيب الطقس الصاخب. قد يكون هناك رجُل بالأسفل على الثلج بالفعل، وافترض بن أنه -من الناحية التقنية- يُحتمل أن يكون مُرتديًا حُلَّة مُهرِّج. لكن يستحيل أن تطفو البالونات عكس اتِّجاه الريح، لكن هذا بالضبط ما يبدو أنها تفعله.

بن! هكذا نادى المُهرِّج الواقف على الثلج. ظن بن أن الصوت يدوِّي داخل عقله فقط، لكن رغم هذا بدا أنه يسمعه في أُذُنيه. أتريد بالونة يا بن؟

ثمَّة خصيصة شريرة في ذلك الصوت، خصيصة مُريعة جعلت بن يرغب في الركض بعيدًا بأقصى سُرعة، لكن بدت قدماه مُلتصقتين بأرض الرصيف بالطريقة ذاتها التي تلتصق بها ألعاب المُتوازي بالتُربة في فناء المدرسة.

إنها تطفو في الهواء يا بن! كلها تطفو! جرِّب واحدة وسترى!

بدأ المُهرِّج في السير عبر الجليد مُتَّجهًا إلى الجسر الذي يعلو القناة حيث يقف بن الآن. شاهده بن يقترب ولم يتحرَّك، كالطَّائر الذي يشاهد اقتراب ثُعبانٍ دون أن يُحرِّك ساكنًا. كان لا بُدَّ لهذه البالونات أن تنفجر في هذا الصقيع الحاد، لكنها لم تنفجر، بل ظلَّت تطفو فوق رأس المُهرِّج وتسبقه بدلًا من أن تُحلِّق خلفه كما ينبغي مُحاولة الهروب إلى البرِّية من حيث أتى هذا المخلوق -هكذا أكَّد جُزء من عقل بن له- في المقام الأوَّل.

الآن لاحظ بن شيئًا آخر.

على الرغم من أن ضوء النهاء الأخير كان يلقي نورًا ورديًّا مُشِعًّا على مياه القناة الجليدية، لم يكن المُهرِّج يلقي ظِلًا وراءه. لا ظلّ على الإطلاق.

قال المُهرِّج: ستحب المكوث هنا يا بن. الآن كان قد اقترب منه بما يكفي ليسمع بن صوت الطقطقة التي يُصدرها الحذاء المُضحك وهو يسير على الجليد غير المستوي. أعدك، ستحب المكوث هنا، كل الصبيان والبنات الذين أقابلهم يحبون المكوث هنا لأن المكان يُشبه جزيرة المُتعة في قِصَّة بينوكيو أو أرض الأبد أبدًا في حكاية بيتر بان؛ لا أحد يكبر هنا، وهذا ما يُريده

كل الصغار! الذا تعال! تأمَّل المشاهد.. خذ لك بالونة.. أطعِم الأفيال.. اركب لُعبة الشلَّال! أوه يا بن لكم ستحب الأمر، وأوه يا بن لسوف تطفو...

بالرغم من خوفه، وجد بن أن جُزءًا داخله يُريد بالونة بالفعل. من في العالم يمتلك بالونة تطفو عكس اتِّجاه الريح؟ بل من سمع بأمرٍ كهذا؟ أجل... إنه يريد بالونة، ويريد رؤية وجه المُهرِّج، الذي كان مُنكَّسًا نحو الجليد، كأنه يتحاشى تلك الرياح العاتية.

لم يكن بن يعلم ما الذي كان سيحدث لو لم ينطلق صفير الساعة الخامسة في تلك اللحظة من فوق مبنى قاعة مدينة ديري، ولم يكن يريد أن يعلم. الشَّيء المُهم أنه انطلق بصوته المدوِّي كمعول جليد ينغرس عميقًا في ثلوج شتاءٍ طويل بارد. نظر المُهرِّج إلى أعلى -كمن شُدِه- واستطاع بن رؤية وجهه.

المومياء! يا إلهي إنه المومياء! كانت هذه أوَّل خاطرة تمرُّ بعقله، مصحوبة بفزعٍ رهيب جعله يتشبَّث بشراسة بكلتا يديه في سور الجسر الحديدي كي لا يفقدَ وعيه. بالتأكيد لم يكن المومياء، لا يُمكن أن يكون المومياء. أجل توجد مومياوات مصرية قديمة، إنه يعلم ذلك، لكن أوَّل خاطرة مرَّت بعقله أن هذا الشَّيءُ هو المومياء ذاتها، المسخ المُغبَّر الذي لعب دوره بوريس كارولف في ذلك الفيلم القديم الذي سهر بن مُتأخِّرًا لمُشاهدته الشهر الماضي في برنامج مسرح الصدمة.

لا، هذا ليس المومياء، مُستحيل! وحوش الأفلام ليست حقيقية، الجميع يعلم ذلك، حتَّى الأطفال الصغار. لكن...

لم يكن المُهرِّج يضع مُستحضرات تنميق من أيِّ نوع، ولم يكن ملفوفًا ببساطة في حفنة من الضمَّادات. توجد ضمَّادات بالفعل، معظمها حول العُنق والمعصمين، وتطير خلفه مع الريح، لكن بن يستطيع رؤية وجه المُهرِّج بوضوح. كان مليئًا بالخطوط العميقة، وجلده يبدو كرقٍّ عتيق مليء بالتجاعيد، والوجنتان مُهترئتين، واللَّحم أسفلها جافًّا أعجف. كان الجلد على جبهته مشقوقًا لكنه غير دَامٍ، والشفاة الميِّتة مشدودة إلى الخلف في ابتسامة مُريعة لفمٍ تصطف الأسنانُ فيه كشواهد القبور، واللثة من فوقها مُنقَّرة وسوداء. لم يرَ بنُ عينين، إنما شيءٌ يلتمع كفحمٍ مُشتعل في هذين المحجرين

المُغضَّنين، شيءٌ كالجواهر الباردة في عيون تمائم الخنافس المصرية، ورغم أن الرياح كانت تهب في الاتِّجاه المُعاكس، بدا أنه قادر على شم رائحة القرفة والتوابل، والكفنِ العتيق النَّخر المُعالج بأعشابٍ غريبة، ورمال، ودماء قديمة جدًّا حتَّى أنها جفَّت إلى رقائق وحبوبٍ صدِئة.

«كلنا نطفو هنا بالأسفل». هكذا نعق المُهرِّج المومياء، وأدرك بن مذعورًا أنه بطريقةٍ ما كان قد وصل إلى الجسر، وأنه الآن يقف تحته تمامًا يحاول الوصول إليه مادًّا يدين مشوَّهتين تُرفرف منهما أنسال الجلد المُهترئ كأعلامٍ رفيعة.. يدان تبرز منهما عظامٌ صفراء كعاج أنياب الفيل.

داعب أصبعٌ خالٍ من اللحم تقريبًا طرف حذائه. انكسرت حالة الشَّلل المُنوِّم التي ألمَّت ببن، وركض ضاربًا أرض الجسر من تحته بكلِ ما أوتيَ من قوَّة، بينما صفير السَّاعة الخامسة ما زال يصرخ في أذنيه، ولم يتوقَّف إلا حينما بلغ الجانب الآخر البعيد. لا بُدَّ أنه سراب، لا بُدَّ. لا يُمكن للمُهرِّج التقدُّم كل هذه المسافة خلال العشر أو الخمس عشرة ثانية التي انطلق فيها الصفير.

لكن ذعره لم يكن سرابًا، ولا أيضًا الدموع الساخنة التي نضحت من مقلتيه وتجمَّدت بعدها بثانية على وجنتيه. ركض بن ضاربًا أرضِ الرصيف بحذائه بقوَّة، ومن خلفه استطاع سماع صوت المومياء في حُلَّة المُهرِّج تتسلَّق الجسر صعودًا من القناة، والأظافر العتيقة الحجرية تخمش حديد السور، ومفاصل جسدها اليابسة تئن وتصرُّ كمفصَّلاتٍ بالية جافة. استطاع سماع الصفير القاحل الخشن لأنفاسها وهي تدخل وتخرج من منخارٍ تعوزه الرطوبة كما الأنفاق تحت الهرم الأكبر. استطاع اشتمام الكفن الذي تفوح منه رائحة التوابل والرمال، وكان يعلم أنه في أيِّ لحظة ستهبط يداها العظميتان منزوعتا اللحم والجلد كالنماذج الهندسية التي يبنيها بمجموعة مُكعَّباته فوق كتفيه، ولسوف تُديرانه إلى الخلف وسيجد نفسه يُحدِّق إلى ذلك الوجه المُجعَّد المشدود في ابتسامةٍ كريهة. سيغمره نهر أنفاسه البائد، وسينحني هذان المحجران الأسودان بما يلتمع في أعماقهما فوقه، وسيُفغُر هذا الفوه عديم الأسنان على اتِّساعه، ولسوف يحصل على بالونته. أوه أَجل، سيحصل على كل البالونات التي يُريدها.

لكنه عندما بلغ بن ناصية شارعه باكيًا ومُتقطِّع النَفَس وقلبه ينبض بجنون باعثًا النبضات إلى أُذُنيه، وعندما نظر إلى الوراء من فوق كتفه، وجد الشارع خاليًا. كان الجسر المُقوَّس بجوانبه الخرسانية المُنخفِضَّة ورصيفه عتيق الطراز المرصوف بالحصاة الكبيرة خاليًا بدوره. لم يكن قادرًا على رؤية القناة ذاتها من مكانه هذا، لكنه شعر أنه إذا استطاع، فلن يرى شيئًا هناك أيضًا. لا، إذا لم تكن المومياء هلوسة عقلية أو سرابًا، وإذا كانت حقيقية، فستكون مُنتظرة أسفل الجسر، كالقزم في قِصَّة «مِعَاز جراف الثلاثة».

إنها في الأسفل.. تختبئ في الأسفل.

أسرع بن الخُطى إلى المنزل، يختلس النظر خلفه كل بضعة أقدام، إلى أن أُغلق الباب بأمانٍ من خلفه. أخبر أمه -التي كانت مُنهكة تمامًا من يوم شاقٍ في العمل في الطاحونة ما جعلها لم تفتقده في حقيقة الأمر- أنه كانَ يساعد مسز دوجلاس في إحصاء الكتب. ثم جلس يتناول العشاء المكوَّن من الشعرية وبقايا لحم الديك الرومي من يوم الأحد. غرف لنفسه ثلاث حصص من الطعام، وراحت ذكرى المومياء في التلاشي بعيدًا كحلم يُزوى مع كل حصَّة. لم تكن المومياء حقيقية، هذه الأشياء لا تكون حقيقية على الإطلاق، إنها تصير حقيقية فقط بين إعلانات أفلام التلفزيون التي تُعرض في وقتٍ مُتأخِّر من الليل، أو خلال عروض السبت المسائية في دار العرض، حيث يمكنك إن كنت محظوظًا مُشاهدة فيلمين عن الوحوش مُقابل رُبع دولار... وإذا كان لديك رُبع دولارٍ آخر، يُمكنك شراء كل الفشار الذي تستطيع أكله.

لا، إنها ليست حقيقية، وحوش التلفزيون أو وحوش الأفلام أو وحوش القصص المصوَّرة ليست حقيقية؛ على الأقل ليس قبل أن تأتي اللحظة التي تخلد فيها إلى فراشك ليلًا ولا تستطيع النوم.. ليس قبل أن تزدرد آخر أربع قطع من الحلوى التي لفقتها في مناديلٍ ورقية ووضعتها تحت الوسادة لدرء شر مسوخ الليل.. ليس قبل أن يتحوَّل الفراش ذاته إلى بُحيرة من الكوابيس العفنة بينما الرياح تهب في الخارج وتخاف أن تنظر من النافذة لأنه رُبَّما يوجد وجهٌ ما هناك بالخارج.. وجهٌ بالٍ مُبتسم لم يتعفَّن لكنه يَبِس كورقة شجر قديمة جافة، وصارت عيناه ألماستين غائرتين عميقًا في ظلام

محجريهما.. ليس قبل أن ترى يدًا مُهتّكة تبرز أصابعها كالمخالب وتمسك باقة من البالونات: تأمَّل المشاهد.. خذ لك بالونة.. أطعِم الأفيال.. اركب لُعبة الشلّال! بن، أوه يا بن، لسوف تطفو...

12

استيقظَ بن شاهقًا وكابوس المومياء ما زال عالقًا بعقله، وذُعِرَ من الظلام الخانق الضيِّق الذي يُحيط به. انتفض الصبي، وتوقَّف الجذر عن دعم وزنه، ونغزه في ظهره مرَّة أخرى كأنه ساخط.

رأى بن الضوء وتسلَّق مُتَّجهًا إليه. زحف صعودًا إلى ضوء الأصيل في الخارج وإلى خرير الجدول، وعاد كل شيءٍ إلى طبيعته من جديد. إنه الصيف، وليس الشتاء. المومياء لم تأخذه بعيدًا إلى مقبرتها في الصحراء، بل هو اختبأ ببساطة من الفتية الكبار في حُفرة رملية أسفل شجرة مُقتلعة جُزئيًّا من جذورها. كان لا يزال في البرِّية. هنري وعصابته تحرَّشوا -نصف راضين- باثنين من الصبية يلعبان في مجرى النهر، لأنهم فشلوا في إنهاء تحرُّشهم به. تا تا يا أولاد. لقد كان سدًّا عديم القيمة صَدِّقاني، أنتما أفضل حالًا من دونه.

نظر بن كالحًا مُتجهِّمًا إلى أسفل نحو ملابسه التي فسدت. ستذيقه أمه ستة عشر نوعًا مُختلف المذاق من التوبيخ الجحيمي بسبب هيئته.

لقد نام فترة كافية لاستعادة قوَّته. انزلق بن إلى الضِفَّة وبدأ سيره على طول مجرى النهر مُتأوِّهًا مع خطوه. كان جسده مزيجًا من الأوجاع والآلام، وبدا الأمر كأن سبايك چونز[1] يعزف مقطوعة سريعة الإيقاع على زُجاج مكسور داخل أغلب عضلاته. كان يبدو أن هناك دماءً جافَّةً أو تجفُّ على كل بوصةٍ من جلده المكشوف. لكن الصبية بُناة السَّد سيكونون قد رحلوا على أيِّ حال، هكذا عزَّى نفسه. لم يكن واثقًا من المُدَّة التي نامها، لكن حتَّى إن كانت نصف ساعةٍ فقط، فإن مواجهة هنري ورفيقيه حتمًا كانت ستقنع دِنبروه وصديقه أن أيَّ مكانٍ آخر -تمكتبو على سبيل المثال- سيكون أفضل لهما.

---

(1) سبايك چونز (1961-1911): عازف أمريكي وقائد فرقة تخصَّص في المُحاكاة الساخرة للأغاني الشعبية والموسيقى الكلاسيكية.

واصل بن طريقه كَدِرًا، عالمًا أنه إذا عاد الفتية الكبار الآن لن يكون أمامه أدنى فُرصة ليتفوَّق عليهم ركضًا.. لكنه لم يهتم لهذا تقريبًا.

أنهى بن انعطافه في مجرى النهر ووقف مكانه لحظة ناظرًا حوله. إن مُشيِّدا السَّد ما زالا هناك. أحدهما هو بيل دِنبروه المُتلعثم بالفعل، وهو ينحني جوار الصبي الآخر الذي يستند إلى حافَّة ضِفَّة الجدول في وضع الجلوس. إن رأس هذا الصبي الآخر تلتوي بشدَّة إلى الخلف بحيث تبرز تُفَّاحة آدم في عُنُقه كمقبس ثلاثي القضبان. ثمَّة دماء جافة حول أنفه وذقنه وتسيل على رقبته في خطَّين مُتعرِّجين، وكان يمسك شيئًا أبيض بقبضة مُرتخية في إحدى يديه.

نظر بيل المُتلعثم حوله في حِدَّة ورأى بن يقف هناك. أدرك بن فزعًا أن ثمَّة خطبًا مُريعًا يلِمُّ بالصبي المُستند على الضِفَّة، لأن دِنبروه يبدو عليه أنه يموت رُعبًا. فكَّر بن بائسًا: ألن ينتهي هذا اليوم أبدًا؟

صاح دِنبروه: «أتساءل إن كـ-كـ-كنت تستطيع مُساعدتـ-تـ-تـ-تي. إن بخـ-خـ-خا-خـ-خه نـ-نفد. أظنُّ أنه يـ-يـ-يـ-يـ-يـ...».

ثم تجمَّد وجهه واستحال لونه أحمر. كان يحاول إخراج الكلمة من فمه مُتلعثمًا كمدفع رشَّاش. تناثر الرذاذ من بين شفتيه، واستغرق الأمر نحو ثلاثين ثانية من الـ«يـ-يـ-يـ-يـ» قبل أن يدرك بن أنه يحاول إخباره أن الصبي رُبَّما يحتضر.

الفصل الخامس

بيل دِنبروه يُسابق الشيطان - (أ)

1

كان بيل دِنبروه يُفكِّر: أنا قريب جدًّا من سُرعة السَّفر في الفضاء، بل قد أكون جالسًا داخل رصاصة أُطلقت من فوَّهة بُندقية.

هذه الفكرة، رغم أنها صحيحة تمامًا، لم تكن فكرة مُريحة له. في الحقيقة، طوال الساعة الأولى من إقلاع (أو رُبَّما انطلاق ستكون كلمة أفضل لوصف الأمر) طائرة الكونكورد من مطار هيثرو، كان عليه أن يتعامل مع حالة متوسطة من رُهاب الأماكن المُغلقة. إن الطائرة ضيقَّة بشكلٍ غير مُريح تمامًا، وعلى الرغم من أن وجبة الطعام لا غُبار عليها، إلا أن المُضيفات اللاتي يُقدمنها كان عليهن الانحناء والالتواء والقرفصة لإنجاز عملهن. لقد بدوْن كفرقة من لاعبات الجُمباز. مُراقبة هذه المهمة العسيرة انتقصت بعضًا من مُتعة الطعام بالنسبة إلى بيل، رغم أن جاره في المقعد لم يبدُ انزعاجًا من أيِّ نوع.

ولقد كان هذا الجار مُنغِّصًا آخر. كان بدينًا وغير نظيف تمامًا. رُبَّما كان ما يفوح من جلده عطرَ تيد لابيدوس، لكن أسفله ميَّز بيل روائحَ عرقٍ واتِّساخ واضحة. كما أنه لم يكن يحتاط لحركة كوعه الأيسر أيضًا، وبين الفينة والأخرى راح يلكز بيل به لكزًا ناعمًا.

راح نظرُ بيل ينجذب مرارًا وتكرارًا إلى معلومات الشاشة الرقمية على المقصورة الأمامية التي تُظهر مدى السُرعة التي تتحرَّك بها هذه القذيفة البريطانية التي يركبها. الآن، في الوقت الذي بلغت فيه الكونكورد سرعتها القصوى، كانت قد تخطَّت ضعف سرعة الصوت بقليل. أخرج بيل قلمه

من جيب قميصه واستخدم طرفه لنقر أزرار اللابتوب الذي أهدته إيَّاه أودرا الكريسماس الماضي. إذا كانت قراءة مقياس الماخوميتر صحيحة -ولم يكن لدى بيل أدنى سبب ليشك في أنها ليست كذلك- فهم يندفعون الآن بسُرعة ثمانية عشر ميلًا في الدقيقة. لم يكن بيل واثقًا أنه يُريد معرفة أمرٍ كهذا.

خارج نافذته -التي كانت صغيرة وسميكة كنوافذ كبسولات ميركري الفضائية القديمة- استطاع رؤية السماء التي لم تكن زرقاء بل تصطبغ بأرجوانية الغسق، رغم أن الوقت كان مُنتصف النهار. عند نقطة التقاء السماء بالبحر، استطاع بيل رؤية أن خط الأُفُق ينحني قليلًا. فكَّر بيل في قرارة نفسه: ها أنا أجلس هنا، أحمل كأسًا من كوكتيل ماري الدموية في يدي، وينغزني كوع رجلٍ بدين في عضلة ذراعي، وأتأمَّل انحناء الأرض.

ثم ابتسم قليلًا للخاطرة، متصورًا أن الرَّجُل الذي يستطيع مواجهة شيءٍ كهذا يجب ألَّا يخاف من أيِّ شيءٍ في العالم. لكنه خائف، ليس فقط من التحليق بسرعة ثمانية عشر ميلًا في الدقيقة في هذه الصدفة الضيقّة الهشَّة، بل لأنه يستشعر ديري تندفع نحوه تقريبًا؛ وهذا تحديدًا التعبير المُناسب لوصف الأمر. سواء بسُرعة ثمانية عشر ميلًا في الدقيقة أم لا، كان شعوره الداخلي أنه جالسٌ في مكانه لا يُحرِّك أنمُلة، بينما ديري تندفع نحوه كمُفترسٍ عملاقٍ كان رابضًا لزمنٍ طويلٍ جدًّا وقد غادر عرينه أخيرًا. ديري، أوَّاه يا ديري! هلَّا كتبنا قصيدة إلى ديري؟ في وصف إنتان طواحينها وأنهارها؟ في وصف الصَّمت الجليل الذي يلفُّ شوارعها الهادئة التي تصطف الأشجار على جانبيها؟ في وصف بُرج المياه؟ حديقة باسي؟ مدرسة ديري الابتدائية؟

البرِّية؟

الأضواء تسطع فوق رأسه كمصابيح كليج[1] عملاقة. يبدو الأمر كأنه كان جالسًا في مسرح مُظلم مُدَّة سبع وعشرين سنة ينتظر حدوث شيءٍ ما، والآن قد بدأ الشيء في الحدوث أخيرًا. إلا أن المسرح الذي يُضاء تدريجيًّا الآن

(1) نوع من مصابيح الإضاءة القوية تُستخدم في صناعة السينما.

بُقعة تلو الأخرى، ومصباحًا تلو الآخر، لا يعرض مسرحية كوميدية بريئة كالزرنيخ والدانتيل القديم، بل شيئًا أقرب إلى فيلم مقصورة د. كاليجاري[1].

فكَّر بيل بطريقة لاهية بلهاء نوعًا:كل هذه القصص التي كتبتها، وكل هذه الروايات، منشأها ديري. لقد ظلَّت ديري معينًا لا ينضب. ما حدث في الصيف، وما حدث لچورج في الخريف الذي سبقه، ألهمني كل ما كتبت. سُحقًا لكل المُحاورين الذي سألوني «ذلك السؤال»، لقد أعطيتهم إجابة خاطئة.

لكزه كوع الرَّجُل البدين مرَّة أخرى، فسكب بعضًا من شرابه. كاد بن أن يقول شيئًا له، لكنه عدل عن رأيه.

كان «ذلك السؤال» بلا ريب هو «من أين تستقي أفكارك؟». افترض بيل أن هذا سؤالٌ يُجبر كل الكتاب الروائيين على إجابته -أو التظاهر بإجابته- على الأقل مرَّتين أسبوعيًا. لكن بالنسبة إلى رجُلٍ مثله يكسب قوته من الكتابة عن أشياء لم تحدث ولا يُمكن أن تحدث فيجب أن يُجيبه -أو يتظاهر بإجابته- أكثر من ذلك بكثير.

«لدى كل الكُتَّاب خط أنابيب يغوص عميقًا في عقلهم اللاواعي»، هكذا أخبرهم مُتجاهلًا أن يذكر أنه مع مرور كل عام يزداد شكُّهُ في وجود ما يُسمَّى العقل اللاواعي من الأساس. «أما لدى المرأة أو الرَّجُل الذي يمتهن كتابة قصص الرعب خط أنابيب يغوص إلى مناطق أعمق من ذلك.. ربَّما إلى لا وعي عقله اللاواعي، إذا جاز التعبير».

كانت إجابة أنيقة، لكنها إجابة لم يُصدِّقها قط. اللاوعي؟ حسنًا، ثمَّة شيءٌ ما هناك بالأسفل بالفعل، لكن لطالما ظنَّ بيل أن الناس ضخَّموا وظيفة الشَّيء جدًّا، التي هي على الأرجح المُعادل العقلي لإفراز العين للدموع عندما تدخل ذرَّات الغبار فيها، أو إخراج الريح بعد ساعةٍ أو نحو ذلك من عشاءٍ كبيرٍ. هذا التشبيه الثاني هو الأفضل من بين الاثنين، لكنك لا تستطيع إخبار المحاورين

(1) فيلم رعب ألماني قديم إنتاج 1919، ينتمي إلى المدرسة التعبيرية الألمانية، ويصنف كواحد من أفضل أفلام الرُعب في قوائم كثيرة.

بذلك. تلك الأشياء التي ندعوها أحلامًا وحنيناً غامضًا وتلك الأحاسيس الغريبة كالديجا فو، لا تعدو في جَوهرها ضرطًا عقلياً في الواقع. لكن يبدو أن كل أولئك المحاورين -بمُفكِّراتهم وأجهزة التسجيل يابانية الصنع التي يحملونها- يريدون إجابة أعمق، وقد كان بيل يرغب في مُساعدتهم قدر استطاعته. كان يعلم أن الكتابة مهنة صعبة.. مهنة صعبة لعينة.. ولم يكن ثمَّة داعٍ لجعل وظائفهم أصعب عن طريق القول لأحدهم: «يمكنك أيضًا أن تسألني يا صديقي: من الذي ضرط؟ وتُريح نفسك من الأمر».

فكَّر بيل الآن: لقد علمت دومًا أنهم يسألون السؤال الخطأ، حتَّى قبل أن يتَّصل مايك بي. لكنك الآن صرت تعرف ما المفترض أن يكونه السؤال الصحيح. إنه ليس من أين تأتيك أفكارك، بل لماذا تأتيك أفكارك. ثمَّة خط أنابيب بالفعل، لكنه لم يكن يمتد خارجًا من اللا وعي الذي تصوَّره فرويد أو يونج، ولا من مجرور صرفٍ عقلي، ولا من مغارة سُفلية تحت الأرض يسكنها شعب المورلوك. لا يوجد على الطرف الآخر من خط الأنابيب هذا سوى ديري ذاتها. ديري فحسب، و...

من ذا الذي يجرؤ ويسير على جسري؟

اعتدل بيل فجأة في جلسته، هذه المرَّة كان كوعه هو ما طاشت حركته، وغُرِس عميقًا في جانب جاره البدين على المقعد المجاور.

قال الرَّجُل البدين: «انتبه لنفسك يا صاح، المكان ضيِّق كما ترى».

- «كُفَّ أنت عن نغزي بكوعك وسأحاول عندها أن أكُفُّ عن نغزك في المُقابل». حدَّجه الرَّجُل البدين بنظرة شرسة غير مُصدِّقة من طراز ما-الذي-تتحدَّث-عنه-بحق-الجحيم؟ لكن بيل ظل يُثبِّت بصره عليه إلى أن أشاح الرَّجُل البدين ببصره بعيدًا متذمِّرًا.

من هناك؟

من ذا الذي يسير على جسري؟

نظر بيل إلى خارج النافذة مرَّة أخرى وفكَّر: نحن نسابق الشيطان.

سرت قشعريرة في ذراعيه ومؤخِّرة عنُقه، فجرع ما تبقَّى من شرابه في جرعة واحدة، وسطع عليه ضوءٌ آخر من أضواء ذلك المسرح الكبيرة.

سيلڤر.. درَّاجته.. هكذا سمَّاها، تيمُّنًا باسم حصان الجوَّال من مُسلسل الحارس الوحيد. كانت درَّاجة كبيرة طراز شوين، طولها ثماني وعشرون بوصة. قال له والده دون اكتراثٍ حقيقي: «سوف تقتل نفسك بهذه الدرَّاجة يا بيل». في الفترة التي تلت موت چورچ، لم يعد والده يهتم أو يُظهر اكتراثًا. قبل ذلك كان صارمًا. عادلًا نعم، لكن صارمٌ. لكن منذ الحادثة، كان بيل ينجح كثيرًا في إقناعه. كل ما سيفعله أنه سيُصدر إيماءاتٍ أبوية، ويُقدِّم نصائح أبوية، لكن هذا كل شيء، وفي النهاية سيوافق. بدا الأمر كأنه كان ينتظر دائمًا سماع صوت عودة چورچ إلى المنزل.

رأى بيل الدرَّاجة في واجهة محل بايك أند سايكل القابع في نهاية الشارع الأوسط. كانت تميل بشكلٍ كئيب على مسندها، وكانت أكبر من أكبر درَّاجة أخرى معروضة. باهتة بينما الأخريات تلمع، هيكلها مُستقيم في المواضع التي ينحني فيها هيكل الأُخريات، وينحني في المواضع يستقيم فيها هيكل الأخريات، وعلى عجلتها الأمامية وضعت لافتة تقول:

درَّاجة مُستعملة

قدِّم عرضًا.

ما حدث بالفعل هو أن بيل دخل المتجر وصاحب المكان هو من قدَّم العرض، وقد قبله بيل (لم يكن ليعرف كيفية المساومة على السعر مع مالك محل الدرَّاجات حتَّى وإن كانت حياته تتوقَّف على ذلك. أيضًا المبلغ الذي طلبه الرَّجُل -أربعة وعشرون دولارًا- بدا مُنصفًا تمامًا بالنسبة إلى بيل، بل كرمًا زائدًا.

ابتاع بيل الدرَّاجة سيلڤر بالنقود التي ادَّخرها طوال السبعة أو الثمانية أشهر الماضية. نقود عيد ميلاده، ونقود الكريسماس، ونقود جز الحشائش. كان قد لاحظ الدرَّاجة في نافذة المتجر منذ عيد الفصح، ولقد اشتراها وقادها إلى المنزل حالما بدأت الثلوج تذوب للمرَّة الأخيرة. كان الأمر غريبًا، لأنه لم يكن يُفكِّر كثيرًا في اقتناء درَّاجة قبل العام الماضي. بدت الفكرة كأنها احتلَّت عقله دفعة واحدة، رُبَّما في واحد من تلك الأيَّام التي لم تنتهِ منذ موت چورچ.. أو مقتله بالأحرى.

في البداية، كاد بيل أن يقتل نفسه بالفعل. الجولة الأولى على درَّاجته الجديدة انتهت بإسقاطه لها مُتعمِّدًا لمنعها من الاندفاع نحو حادث اصطدام مؤكَّد بالسياج الحدودي في نهاية جادة كوسوث (لم يكن خائفًا تمامًا من الاصطدام بالسياج، وإنما من المرور عبره مُباشرةً والسقوط من ارتفاع ستين قدمًا إلى البرِّية). لقد خرج من تلك السقطة بجرح بالغ يجري على طول معصم ذراعه اليُسرى وصولًا إلى كوعه، وبعدها بأسبوع فقط، وجد نفسه عاجزًا عن كبحها في الوقت المُناسب، واندفع بها عبر تقاطع شارعي ويتشام وچاكسون بسرعة خمسة وثلاثين ميلًا في الساعة تقريبًا.. صبيٌ صغير على درَّاجة رمادية عملاقة باهتٌ لونها (الِفضَّة في الاسم سيلڤر كانت ِفضَّة فقط حسب الخيال الجامح لمُخيِّلة خصبة طيِّعة)، وأوراق الكوتشينة المُثبَّتة في عجلتيها الأمامية والخلفية تهدر كمدفع رشَّاش. إذا كانت هناك سيَّارة قادمة من أيٍّ اتجاه، لكان سيلقى حتفه على الفور.. تمامًا كچورچي.

أحكم بيل سيطرته على سيلڤر شيئًا فشيئًا مع تقدُّم الربيع. لم يلحظ أيٌّ من والديه أنه كان يُغازل الموت يوميًّا خلال تلك المُدَّة بدرَّاجة. ظن بيل أنهما بعد مُضيِّ الأيَّام القليلة الأولى توقَّفا عن مُلاحظة وجود الدرَّاجة من الأساس.. بالنسبة إليهما، كانت مُجرَّد أثر قديم بطلاءٍ مُتساقط يستند على حائط المرآب في الأيَّام المطيرة.

لكن سيلڤر كانت أكثر من مُجرَّد أثرٍ عتيقٍ يكسوه الغبار. رُبَّما لم تكن هيئتها تبدو بتلك الروعة، لكنها تمضي كالريح. كان صديق بيل -صديقه الحقيقي الوحيد- صبيًا يُدعى إدي كاسبراك، وكان ماهرًا مع الأغراض الميكانيكية، وقد علَّم بيل كيف يُحسِّن من هيئة سيلڤر. علَّمهُ أيَّ البراغي ينبغي عليه ربطها وتفقُّدها باستمرار.. علَّمه كيف يُشحِّم تروس السير المُسنَّنة، وكيف يشد جنزيرها، وكيف يلحم إطارها إذا حدث وثُقب منه في الطريق.

«يجب أن تُعيد طلاءها»، هذا ما قاله إدي له يومًا، لكن بيل لم يكن يُريد طلاء سيلڤر. كان يُريد ترك الدرَّاجة الشوين على هيئتها الحالية لأسبابٍ لم يستطِع تفسيرها حتَّى لنفسه. كانت تبدو بحالة مُزرية تمامًا، كذلك الطراز من الدرَّاجات البائسة التي يتركها صاحبها في حديقة المنزل في المطر. تلك

الدرَّاجات التي تصدر صريرًا وتُطقطق وترتجف وتحتك أجزاؤها بعضها ببعض ببطء. كانت تبدو في حالة مُزرية لكنها تمضي كالريح. إنها قادرة...

- «إنها قادرة على سبق الشيطان ذاته»، هكذا قال بصوتٍ عالٍ وضحك. نظر إليه جاره البدين في المقعد المجاور. كانت ضحكته يشوبها عويلٌ من الذي أثار القشعريرة في بدن أودرا سابقًا.

أجل، كانت تبدو بالية تمامًا، بطلائها القديم وحامل الحاجيَّات عتيق الطراز المُثبَّت أعلى العجلة الخلفية والبوق القديم بانتفاخه المطَّاطي الأسود الشبيه بالمصباح. هذا البوق كان يلتحم بالمقود إلى الأبد بمسمارٍ مُلوْلب صدئ في حجم قبضة طفل. كانت بالية حقًّا.

لكن ألم تكن سيلڤر قادرة على أن تكون سريعة؟ ألم تكن كذلك؟ يا للمسيح!

ولكم كان هذا أمرًا طيِّبًا لعينًا، لأن سيلڤر أنقذت حياة بيل دِنبروه في الأسبوع الرَّابع من يونيو عام 1958.. الأسبوع الذي تلى لقاءهُ ببن هانسكوم للمرَّة الأولى.. الأسبوع الذي تلى بناء ثلاثتهم -هو وبن وإدي- للسَّد.. الأسبوع الذي أتى فيه بن وريتشي توزيبه سليط اللسان وبيڤرلي مارش إلى البرِّية بعدما خرجوا من الحفلة الصباحية في دار السينما. كان ريتشي يركب خلفه -على حامل الحاجيَّات- في اليوم الذي أنقذت فيه سيلڤر حياته... لذلك افترَضَ أنها أنقذت حياة ريتشي أيضًا. يتذكَّر بيل بجلاء المنزل الذي كانا يفرَّان منه. يتذكَّره جيِّدًا جدًّا. ذلك المنزل الملعون في شارع نيبولت.

لقد قادها في ذلك اليوم ليسبق الشيطان. أوه أجل، بالتأكيد، ألا تعرفون ذلك. شيطانٌ ما ذو عينين لامعتين كعُملتين معدنيتين قديمتين مُميتتين. شيطانٌ قديمٌ ما مُشعر ذو فم مليء بالأسنان الدامية. لكن كل هذا أتى لاحقًا. إذا كانت سيلڤر قد أنقذت حياته وحياة ريتشي في ذلك اليوم، إذًا ربَّما أنقذت أيضًا حياة إدي كاسبراك في اليوم الذي قابل فيه بيل وإدي بن عند بقايا السَّد المُحطَّم في البرِّية. لقد هرس هنري باورز -الذي بدا كأن أحدهم ألقى به في شاحنة نفايات- أنف إدي بقبضته، وبعدها اشتدَّت حالة الرَّبو على إدي ونفد الرذاذ من بخاخه. لقد كانت سيلڤر البطلة أيضًا ذلك اليوم.. سيلڤر النَّاجدة.

نظر بيل دِنبروه -الذي لم يركب درَّاجة منذ سبع عشرة سنة تقريبًا- خارج نافذة طائرة لم يكن يُمكن أن تُذكر -أو حتَّى يتخيَّلها أحدٌ- خارج صفحات مجلَّة خيال علمي في العام 1958. هيَّا يا سيلڤر، انطلقـــــــي! هكذا فكَّر مُتذكِّرًا، ثم اضطرَّ إلى غلق عينيه بسبب لدغة الدموع المُفاجِئة.

ماذا حدث لسيلڤر؟ إنه لا يتذكَّر. هذا الجزء من المسرح ما زال في الظلام. مصباح الكليج هذا لم يُضِئ بعد. ربُّما هذا أمرًا طيبًا أيضًا.. ربُّما هذه رحمة.

هيَّا

هيَّا يا سيلڤر.

هيَّا يا سيلڤر...

2

«... انطلقـــــــي!». هكذا صاح. دفع الهواء الكلمات خلف كتفه كأوراق زينة مُلوَّنة تُرفرف. كانت تخرج من فمه قوية وكبيرة -تلك الكلمات- في صيحة مُظفَّرة.. وقد كانت الكلمات الوحيدة التي تفعل ذلك معه.

بدَّل بيل بقدميه داعسًا دوَّاستي الدرَّاجة على طول شارع كانساس مُتَّجهًا إلى المدينة، مُكتسبًا سُرعته ببطء في البداية. كانت سيلڤر تمضي كالريح ما إن تكتسب زخمًا، لكن إكسابها هذا الزَّخم يتطلَّب مجهودًا مُضاعفًا مرَّة ونصف. كانت رؤية الدرَّاجة الرمادية تزداد سُرعةً أشبه قليلًا بمُراقبة طائرة كبيرة تكتسب سُرعتها على مَدْرَج الإقلاع. في البداية لا تستطيع تصديق أن مثل هذه الآلة الضخمة المُتهادية قادرة فعلًا على مُغادرة الأرض.. الفكرة في حد ذاتها غير معقولة. لكن بعدها ترى أن ظِلَّها صار أسفلها، وقبل أن يكون لديك وقت كافٍ لتتساءل إن كان هذا سرابًا، تجد أن الظِّل يتقهقر خلفها وأنها في الجو، تشُقُّ طريقها عبر الهواء بأناقة ورشاقة حُلم في عقلٍ راضٍ.

كانت سيلڤر تبدو كذلك.

أعطى المُنحدر دفعة إضافية لبيل، وبدأ في دعس الدوَّاستين بسُرعة أكبر، وراحت ساقاه تضخان كل طاقتهما وهو يقف مُنحنيًا على مُقدِّمة الدرَّاجة. تعلَّم بيل سريعًا جدًّا أن يرفع لباسه الداخلي قدر استطاعته قبل اعتلاء سيلڤر،

بعدما خُبِط أكثر من مرَّة من هيكلها المُرتفع في أسوأ مكان يُمكن لصبي أن يُخبط فيه. لاحقًا خلال هذا الصيف، سيُعلِّق ريتشي وهو يُراقب هذا العملية قائلًا: بيل يفعل ذلك لأنه يظن أنه رُبَّما سيرغب في إنجاب أبناءٍ يومًا ما. تبدو هذه فكرة سيئة بالنسبة إليَّ، لكن لِمَ التشاؤم! رُبَّما أطفاله سيشبهون زوجته في النهاية، أليس كذلك؟

خفَّض بيل وإدي ارتفاع مِقعد الدرَّاجة إلى أدنى ارتفاع ممكن، وقد كان الآن يرتطم ويحتكُّ بظهره وهو يعمل جاهدًا في قيادة الدرَّاجة مُبدِّلًا بساقيه. رفعت امرأة تُشذِّب حديقة زهورها من الأعشاب الضَّارة عينيها لتُراقِب مروره، ثم ابتسمت قليلًا. مشهد الصبي على الدَّراجة الضخمة ذكَّرها بقردٍ رأته ذات مرَّة يقود درَّاجة بعجلة واحدة كبيرة في سيرك بارنوم وبيلي. سوف يقتل نفسه، هذه الدرَّاجة كبيرة جدًّا عليه. هكذا فكَّرت قبل أن تعاود العمل في حديقتها.. لم يكن هذا من شأنها على أيِّ حال.

3

كان بيل يمتلك من الحصافة ما أحجمه عن مُجادلة الفتية الكبار عندما خرجوا من وسط الأشجار المُتشابكة كصيَّادين سيِّئي المزاج يتعقَّبون وحشًا شديد البأس نهش واحدًا منهم سابقًا. غير أن إدي تهوَّر وفتح فمه، ومن ثم أفرغ هنري باورز حنقه عليه.

كان بيل يعلم هويَّات الفتية الثلاثة: إن هنري وبيلش وڤيكتور من أسوأ فتية مدرسة ديري. لقد ضربوا ريتشي توزييه -الذي كان بيل يتسكَّع معه أحيانًا- أكثر من مرَّة. من وجهة نظر بيل، كان الأمر غلطة ريتشي إلى حدٍ ما، فهو لم يُعرف بـ«سليط اللسان» دون داعٍ.

في يومٍ ما من شهر أبريل، علَّق ريتشي قائلًا شيئًا عن ياقات قُمصانهم بينما الثلاثة يمرُّون من جواره في فناء المدرسة. كانت ياقاتهم مفرودة إلى أعلى، كڤيك مورور في فيلم بلاكبورد چانجل. لم يسمع بيل -الذي كان مُستندًا إلى حائط مبنى مُجاور ويلهو ببعض البلي- كل ما قاله، وكذلك هنري وأصدقاؤه، لكنهم سمعوا ما فيه الكفاية ليلتفتوا نحو ريتشي. ظنَّ بيل أن ريتشي قصد قول

أيًّا كان ما قاله بصوتٍ خفيض. المُشكلة الحقيقية أن ريتشي لا يمتلك صوتًا خفيضًا حقًّا.

سأله ڤيكتور كريس: «ماذا قُلت أيُّها المتذاكي الصغير ذا العيون الأربع؟».

قال ريتشي: «لم أقُل شيئًا». هذا التصريح -بالإضافة إلى التعبير القنوط التام والخوف الذي بدا على وجهه- رُبَّما كان سيُنهي الموقف. إلا أن لسان ريتشي لجوادٍ نصف مروَّض يميل إلى الرَّفسِ من دون سببٍ على الإطلاق. أضاف لسانه بعدها: «من الأفضل أن تُنظِّف الشمع من أُذُنيك أيُّها الفتى الكبير، أتُريد حفنة من مسحوق البارود لمُساعدتك؟».

وقف ثُلاثتهم ينظرون إليه لحظة غير مُصدِّقين، ثم انطلقوا وراءه. راقب بيل السباق غير المُتكافئ من بدايته إلى نهايته المحسومة مُسبقًا من مكانه عند حائط المبنى. لا داعي للتورُّط.. سيسعد أولئك المردة الثلاثة تمامًا للنيل من صبيين وضربهما بحَجرٍ واحد.

ركض ريتشي بميلٍ عبر فناء أطفال الروضة، قافزًا فوق المتوازيات ومُنحنيًا أسفل الأرجوحات، وأدرك أنه اندفع إلى زقاقٍ مسدودةٌ نهايته عندما صدم السياج الحديدي الذي يفصل الفناء عن الحديقة المُتاخمة لأرض المدرسة، ومن ثم حاول تسلُّق السياج مُتشبِّثًا بأطراف أصابعه وغارسًا مُقدِّمة حذائه الرياضي في الفتحات الصغيرة. كان قد قطع ثُلثي المسافة إلى أعلى عندما جذبه هنري وڤيكتور كريس إلى أسفل مرَّة أخرى.. هنري مُمسكًا إيَّاه من طرف معطفه، وڤيكتور قابضًا مِقعدة سراويله الچينز. صرخ ريتشي وهما ينتزعانه من على السياج وارتطم بأسفلت الطريق واقعًا على ظهره. طارت نظَّارته من على وجهه، ومدَّ يده لالتقاطها لكن بيلش هاجنز ركلها بعيدًا.. لهذا السَّبب ظلَّ أحد ذراعيها مُثبَّتًا بشريطٍ لاصق طوال هذا الصيف.

أجفل بيل وسار حول المبنى وصولًا إلى مُقدِّمته. كان قد لاحظ أن مسز موران -إحدى مُدرِّسات الصَّف الرَّابع- تهرول بالفعل لفض الاشتباك، لكنه علم أن الفتية سيُمسكون بريتشي قبل ذلك بكثير، وفي الوقت الذي ستصل فيه إليه، سيكون ريتشي قد بدأ في البُكاء بالفعل. طفلٌ باكٍ.. طفلٌ باكٍ.. انظروا إلى هذا الطِّفل الباكي.

كانت مشكلات بيل معهم طفيفة. كانوا يسخرون من ثأثأته بلا شكٍّ بقسوة عارضة بين حينٍ وآخر مصحوبة بسُخرية لاذعة. في أحد الأيَّام المطيرة، عندما كانوا ذاهبين لتناول الغداء في صالة الألعاب الرياضية، أسقط بيلش هاجنز حقيبة غداء بيل من يده ودهسها بقوَّة بحذائه الغليظ طويل الرقبة مساويًا إيَّاها بالأرض وساحقًا جميع محتوياتها.

- «أوه، يا للـ-لـ-لـ-لمسيح!». هكذا صاح بيلش في رُعبٍ زائف، رافعًا يديه ومُحرِّكًا إيَّاهما أمام وجهه. «معذ-ذ-ذ-ذرة على غدائـ-ئـ-ئك يا ذا الوجه القـ-قـ-قبيح!»، ثم سار بتؤدَّة مُتَّجهًا إلى مُبرِّد المياه أمام حمَّام الأولاد حيث يستند ڤيكتور كريس ويضحك بعُنفٍ حتَّى كاد أن يُصاب بفتقٍ، ورغم هذا، لم يكن الأمر بهذا السُّوء؛ تسوَّل بيل نصف شطيرة زبدة الفول السوداني بالمربى من إدي كاسبراك، وقد سُرَّ ريتشي لإعطائه البيضة المسلوقة التي تصرُّ أمه على إدراجها في غدائه كل يومين، والتي تجعله يُريد أن يقيء على حدِّ قوله.

لكن لتجنُّبهم، يجب عليك الابتعاد دائمًا عن طريقهم، وإذا لم تستطع فعل ذلك، فعليك أن تصير خفيًّا.

إدي نسيَ القواعد.. لذا عجنوه.

لم تكن حالته قد ساءت تمامًا عندما عبر الفتية الكبار مجرى النهر وشقُّوا طريقهم ناثرين الماء في كل اتِّجاه إلى الضِفَّة الأخرى، رغم أن أنفه راح ينزف كينبوع. عندما امتلأ منديل إدي بالدماء عن آخره، أعطاه بيل منديله وجعله يضع يده على مؤخِّرة عُنُقه ويُرجع رأسه إلى الوراء. كان بيل يتذكَّر هذا الإجراء من أمه التي اعتادت جعل چورچي يفعل ذلك، لأن أنف چورچي كان ينزف أحيانًا.

أوه، لكم يؤلم التفكير في أمر چورچي.

لم يشتدَّ الربو على إدي إلا عندما تلاشى صوت الفتية الكبار تمامًا وهم يشقُّون طريقهم كقطيع جاموسٍ برِّي عبر البرِّية، وعندما توقَّف نزيف أنفه. بدأ إدي يُجاهد من أجل الهواء، راحت يداه تنبسطان وتنقبضان كمصيدة ضعيفة، ثم صار صوت تنفُّسه كصفير مزمارٍ يأتي من حلقه.

شهق إدي: «اللعنة! الربو! اللعنة!».

بحث إدي عن بخَّاخه في خرق وأخرجه في النهاية من جيبه. كان يُشبه زجاجة مُنظِّف الأسطح ويندكس، من النوع المزوَّد ببخَّاخ أعلاه. دسَّهُ إدي في فمه وضغط الزِناد.

سأله بيل متوتِّرًا: «أحسن؟»..

- «لا، إنه فارغ». قالها إدي وهو ينظر إلى بيل بعينين تقولان: لقد قُضي عليَّ يا بيل.. قُضي عليَّ.

انفلت البخَّاخ مُتدحرجًا من بين يديه، وواصل الماء خريره الضَّاحك غير مُبالٍ بحقيقة أن إدي كاسبراك يتنفَّس بالكاد. فكَّر بيل بعقلٍ مشوَّش أن الفتية الكبار مُحقُّون بشأن أمرٍ واحد: لقد كان السَّدُ عديم القيمة بالفعل. لكنهما كانا يقضيان وقتًا مُمتعًا بحق الجحيم. شعر بيل بغضبٍ مُفاجئ لكون الأمر تطوَّر وصولًا إلى هذا الموقف.

قال له: «هـ-هـ-هـوِّن عـ-عليك يا إ-إ-إدي».

طوال الأربعين دقيقة التالية أو نحو ذلك جلس بيل إلى جواره، متوقِّعًا تلاشي نوبة الربو تدريجيًّا في أيِّ لحظة وتحوُّلها إلى مُجرَّد شعورٍ بعدم الارتياح. لكن بحلول الوقت الذي ظهر فيه بن هانسكوم، تحوَّل عدم الارتياح إلى ذُعر. لم تخفُت حِدَّة النوبة قط، بل كانت تزداد سوءًا.. وصيدلية الشارع الأوسط -التي يبتاع منها إدي عبوَّات الدواء- تبعد ثلاثة أميال تقريبًا. ماذا لو ذهب لجلب دواء إدي وعاد ليجده فاقد الوعي؟ فاقد الوعي أو

(أرجوك توقَّف ولا تُفكِّر في هذا)

أو حتَّى ميِّت، هكذا أصرَّ عقله بعناد.

(مثل چورچي، ميِّت مثل چورچي)

لا تكن بهذا الحمق! لن يموت.

لا، على الأرجح لا. لكن ماذا لو عاد ووجد إدي في غيبوبة عميقة؟ كان بيل يعرف كل شيء عن الغيبوبات، بل إنه استخلص أنها سُميَّت على اسم تلك الأمواج الكبيرة التي يمطتيها راكبو الأمواج في هاواي.. وقد بدا هذا صائِبًا تمامًا، فبعد كل شيء، ما الغيبوبة إلا موجة تُغرق العقل؟ في مُسلسلات

الأطباء مثل بن كاسي، ينزلق الناس إلى غيبوبات كثيرًا، وأحيانًا يرزحون فيها على الرغم جميع صرخات بن كاسي الصاخبة.

لذا قبع بيل مكانه، عالمًا أنه يجب عليه الذهاب لإحضار الدواء، وأنه لن ينفع إدي بأيٍّ حال بجلوسه هنا، لكنه لم يرغب في تركه بمفرده. كان ثمَّة جزءٍ غير منطقي في عقله يُصدِّق الخُرافات ظلَّ مُتيقِّنًا أن إدي سينزلق إلى غيبوبة في اللحظة التي سيُدير له بيل ظهره فيها. ثم نظر بعدها في اتِّجاه مجرى النهر ورأى بن هانسكوم يقف هناك. كان يعرف بن بالطبع، دائمًا ما تكون للصبي الأكثر بدانة في أيِّ المدرسة شُهرته الخاصة التعيسة بشكل أو بآخر. إن بن في فصل الصَّف الدراسي الخامس الآخر، وكان بيل يراه أحيانًا يقف وحيدًا -عادةً في أحد الأركان- يقرأ كتابًا ويأكل غداءه من حقيبة في حجم كيس غسيل.

بالنظر إلى الهيئة التي يبدو عليها بن الآن، شعر بيل أن حالته أسوأ كثيرًا من حالة هنري باورز. كان الأمر صعبًا على التصديق، لكنه حقيقي. لم يكن بيل قادرًا على بدء تخيُّل المعركة الكارثية التي خاضها هذان الاثنان. كان شعره ينتصب في كُتلٍ مُتَّسخة مخلوطة بدماءٍ جافة، ومعطفه أو سُترته -من الصعب تحديد الحالة التي كانت عليها في أوَّل اليوم، وبالتأكيد لم يكن الأمر يهم الآن على الإطلاق- باتت خرقة شعثاء، مُلطَّخة بمزيجٍ مُمرض من الدماء والحشائش. أما سراويله فساقطة إلى رُكبتيه.

لاحظ بن أن بيل ينظر إليه فانتكص قليلًا، وزاغت عيناه.

صاح بيل: «لـ-لـ-لا تـ-تـ-ترحل»، ورفع يديه الخاليتين عاليًا في الهواء، مُظهرًا راحتيهما بالكامل، ليريه أنه مُسالم. «نـ-نـ-نحن في حاجة إلى مُـ-مُـ-مُساعدة».

اقترب بن أكثر، بعينين لم يفارقهما الحذر. كان يسير كأن إحدى ساقيه أو كلتيهما تقتله ألمًا. «هل رحلوا؟ باورز وأولئك الفتية؟».

قال بيل: «أ-أجل. اسمعني، هـ-هل تـ-تـ-تستطيع البقاء مع صـ-صـ-صديقي إلى أن أذهب وأجلب دوائـ-ـئه؟ إنه مُصاب بالر-ر-ر...».

- «الربو؟».

أومأ بيل.

قطع بن الطريق وصولًا إلى بقايا السَّد، وسقط سقطة مؤلمة على رُكبة واحدة جوار إدي، الذي كان يستلقي على ظهره مُغلق العينين وصدره يعلو ويهبط.

- «أيُّهم ضربه؟». هكذا سأل بن في النهاية، ثم نظر إلى أعلى، ولاحظ بيل على وجه الصبي البدين الغضب الحانق ذاته الذي استشعره هو نفسه. «أهو هنري باورز؟».

أومأ بيل.

- «منطقي. بالتأكيد، اذهب. سأبقى معه».

- «شُـ-شُـ-شُكرًا لك».

قال بن: «أوه، لا تشكرني. أنا السَّبب الذي جعلهم يهبطون عليك من السماء في المقام الأوَّل. هيَّا اذهب. أسرِع. يجب أن أعود إلى المنزل قبل الغداء».

ذهب بيل دون قول المزيد. كان من باب الكياسة إخبار بن أن لا يضع عبء الأمر كله على كاهله، فما حدث لم يكن خطأ بن أكثر من كونه خطأ إدي لأنه فتح فمه متفوِّهًا بحماقة. إن الأولاد على شاكلة هنري ورفاقه هم حادثة على وشك الوقوع دائمًا.. صورة مُصغَّرة من الفيضانات أو الأعاصير أو حصى المرارة. كان من الأفضل إخباره بذلك، لكن لسانه معقود الآن بشدَّة، وكان الأمر سيستغرق منه عشرين دقيقة أو نحو ذلك لينهي جملته، وبحلول ذلك الوقت قد ينزلق إدي في غيبوبة (كان هذا شيئًا آخر تعلَّمه بيل من الدكتور كَاسي والدكتور كيلدير.. المرء لا يسقط في غيبوبة، بل دائمًا ينزلق إليها).

هرول بيل في اتِّجاه مجرى النهر، ونظر خلفه مرَّة واحدة.. وشاهد بن هانسكوم يجمع بعض الحجارة من قرب حافَّة الماء. لبُرهة، لم يستنبط بيل ما يريد فعله بها، ثم استوعب بعد ذلك. إنه يُكدِّس ذخيرة، فقط تحسُّبًا لعودتهم.

لم تكن البرِّية أرضًا مجهولة لبيل، لقد جاء للعب هنا كثيرًا هذا الرَّبيع، أحيانًا برفقة ريتشي، وغالبًا مع إدي، وفي أحايين أخرى وحده تمامًا. بالطبع لم يستكشف المنطقة كلها بأيِّ حال من الأحوال، لكنه يستطيع العثور على طريقه إلى شارع كانساس من عند نهير الكِندوسكيج بلا مشكلات، وقد فعل ذلك الآن. لقد خرج إلى شارع كانساس من الجسر الخشبي الذي يعبر البرِّية فوق أحد تلك الجداول التي لا اسم لها التي تتدفَّق من شبكة الصَّرف الصِّحي وتصب في الكِندوسكيج. كانت سيلڤر مُخبَّأة أسفل الجسر، ومقودها مربوط إلى إحدى دعائمه بقطعة حبل للإبقاء على عجلتيها خارج الماء.

حلَّ بيل الوثاق ودسَّه في قميصه، ودفع سيلڤر صعودًا إلى الرصيف بقوَّة كبيرة، لاهثًا ومُتعرِّقًا، فاقدًا اتِّزانه أكثر من مرَّة، وساقطًا على مؤخِّرته.

لكنه وصل في النهاية، ورفع ساقه عاليًا مُمطتيًا هيكل الدرَّاجة المُرتفع.

وكما هو الحال دائمًا، ما إن يمتطي بيل سيلڤر، يصير شخصًا آخر.

5

«هيَّا يا سيلڤر، انطلقـــــــــي!».

خرجت الكلمات من فمه أعمق من صوته الطبيعي. كان هذا تقريبًا صوت الرَّجُل الذي سيصيره يومًا. اكتسبت سيلڤر السرعة ببطء، وراح الإيقاع المُتسارع لرفرفة أوراق الكوتشينة المُثبَّتة بمشبك غسيل إلى المكابح في التزايد، وقف بيل على الدوَّسات، مُثبِّتًا يديه على مقبضي الدرَّاجة بإحكام ومعصميه مرفوعين إلى أعلى. بدا مظهره كرجُلٍ يحاول رفع وزنًا ثقيلًا جدًّا. انتفخت أوداجه، ونبضت الأوردة في صدغيه. التوى فمه إلى أسفل مُرتجفًا من المجهود الهائل الذي يبذله لمقاومة العدوَّين المُعتادين: الوزن والقصور الذاتي، باذلًا كل ما في جعبته لجعل سيلڤر تنطلق.

وكالعادة، كان الأمر يستحق كل هذا الجهد.

بدأت سيلڤر في الاندفاع بسرعة أكبر. تراجعت المنازل على الجانبين إلى الخلف بسلاسة بدلًا من التقهقر بتلكُّؤ فحسب. إلى يساره –حيث يتقاطع شارع كنساس مع شارع چاكسون– تحوَّل نهير الكِندوسكيج البرِّي

إلى القناة. بعد التقاطُع، يهبط شارع كانساس بنعومة أسفل التلَّة نحو الشارع الأوسط والشارع الرئيس.. قلبي الحي التُجاري لمدينة ديري.

تتغيَّر إشارات المرور هنا باستمرار، لكن من حظٍّ بيل أن جميعها كان مفتوحًا من حيث يأتي. لم يخطر بعقله الاحتمال القائم أن سائقًا قد يعبر مُسرعًا من جوارِ إحدى هذه العلامات غير عابئٍ ويدهسه ويساويه بالأسفلت ويُحيله إلى ظلٍّ دامٍ، وكان من المُستبعد أن يُغيِّر طريقه إذا كانت تلك الخاطرة قد مرَّت بعقله. رُبَّما كان سيفعل ذلك إما سابقًا أو لاحقًا من حياته، لكن هذا الربيع وبدايات هذا الصيف كانت أوقاتًا غريبة وعاصفة بالنسبة إليه، وإن كان بن سيتعجَّب لو ساله أحدهم ما إذا كان يشعر بالوحدة، فبيل كان سيتعجَّب بالمثل لو سأله أحدهم إن كان يُغازل الموت. بالطـ-طـ-طبع لـ-لـ-لا، هكذا كان سيرد سريعًا (وبسخط)، لكن هذا لا يُغيِّر حقيقة أن رحلاته عبر شارع كانساس في اتِّجاه وسط المدينة أضحت كهجمات بانزاي[1] أكثر فأكثر كلَّما دنا الصَّيف واشتدَّت الحرارة.

هذا الجزء من شارع كانساس كان معروفًا بتلَّة أب-مايل. عبره بيل بالسُرعة القصوى، جاثمًا فوق مقبضي سيلڤر ليحد من مقاومة الهواء، وإحدى يديه مُتحفِّزة فوق البوق المطَّاطي المُشقَّق لتحذير الغافلين، وشعره الأحمر يُرفرف وراءه في موجاتٍ مُتموِّجة. صارت رفرفة أوراق الكوتشينة زئيرًا ثابتًا، وتحوَّل التواء فمه العازم إلى ابتسامة بلهاء كبيرة. أفسحت المساكن إلى يمينه المجال للمباني التجارية (ومعظم هذه مُستودعات تعبئة لحوم)، التي صارت بدورها مشوَّشة من فرط السُرعة المُخيفة لكن المُرضية كذلك، وإلى يساره، صارت القناة كومضة نار في رُكني عينيه.

صرخ بيل مُظفَّرًا: «هيًّا يا سيلڤر، انطلقـــــــي!».

طارت سيلڤر من فوق حافَّة التقاء الرصيف بالشارع الأولى كما تفعل

---

(1) هجمة بانزاي: مصطلح استخدمته قوات الحلفاء لوصف هجمات الموجات البشرية اليابانية التي تُنفِّذها وحدات المشاة. يعود أصل المصطلح إلى الصيحة اليابانية «تينو هايكا بانزاي» أو «فليحيا الإمبراطور».

دائمًا تقريبًا في تلك النقطة، وفقدت قدماه اتِّصالها بالدَّواستين. كان يندفع أمامًا حينها بلا قيد، وقد صار بالكامل في رعاية أيِّ إلهٍ موجود هناك في الأعلى مُوكل بمهمَّة حماية الصبية الصغار. انحرف بيل إلى الشارع، مُزيدًا نحو خمسة عشر ميلًا في الساعة على السُرعة السابقة التي وصلت إلى خمسة وعشرين ميلًا في الساعة.

صار كل شيء وراء ظهره الآن: لعثمته، عينا والده الفارغتان المُتألِّمتان وهو يعمل بتوانٍ في ورشة مرآبه، المنظر المُريع للغبار الذي يعلو البيانو المُغلق في الدور العلوي لأن أمه لم تعد تعزف عليه بعد الآن (المرَّة الأخيرة كانت في جنازة چورچ، عندما عزفت ثلاثة تراتيل ميثودية)، ذكرى خروج چورچ إلى المطر مُرتديًا معطف المطر الأصفر وحاملًا القارب المصنوع من ورق الجريدة المفروك بالبرافين، قدوم السيِّد جاردنر بعدها بعشرين دقيقة حاملًا جسده الطفل ملفوفًا في لحافٍ مُلطَّخ بالدماء. كل هذا صار وراء ظهره. إنه الآن الحارس الوحيد، إنه چون واين، إنه بو ديدلي، إنه أيُّ شخصٍ يُريد أن يكونه باستثناء ذلك الطفل الباكي المذعور الذي يُريد أمـ-أمـ-أمه.

حلَّقت سيلڤر، وحلَّق بيل دِنبروه معها.. وحلَّق ظِلُّهما الهازل خلفهما. اسرعا عبر تلَّة أب-مايل معًا، بينما أوراق الكوتشينة تهدر. عثرت قدما بيل على الدَّواستين مرَّة أخرى، وبدأ في تحريكهما، طامعًا في مزيدٍ من السُرعة.. طامعًا أن يصل إلى سُرعة افتراضية ما -ليست سُرعة الصوت وإنما سُرعة الذاكرة- لكسر حاجز الألم والمرور وتجاوزه.

واصل بيل سباقه، مُنحنيًا على مقبضي المقود.. وراح يُسرع ويُسرع ليسبق الشيطان.

كان التقاطع الثلاثي لشوارع كانساس والأوسط والرئيس يقترب منه بسرعة. كان هذا التقاطع منطقة رعب كثيرة المُدخلات تتألف من حركة مرور موحَّدة الاتِّجاه وتضارب في إشارات المرور التي يُفترض أن تكون مُتزامنة لكنها في الحقيقة لم تكن كذلك.. والنتيجة كانت محورًا مُروريًّا صُنع في الجحيم كما أعلنها مُحرِّرٌ في جريدة أخبار ديري قبل عام.

كالعادة، طرفت عينا بيل يمينًا ويسارًا سريعًا لقياس التدفُّق المروري بحثًا

عن ثغرات. إذا أخطأ حُكمهُ -إذا تلعثم عقله، لو راقك التعبير- سيُصاب بشدَّة أو سيُقتل.

اندفع بيل كالسهم نحو حركة المرور البطيئة التي تسدُّ التقاطع، متجاوزًا إشارة حمراء ومنعطفًا إلى اليمينِ لتفادي سيَّارى بويك خرقاء. أطلق رصاصة سريعة من عينيه خلف كتفه ليتأكَّد أن الحارة الوسطى خالية. ثم نظر أمامًا ورأى أنه خلال خمس ثوانٍ سيصطدم بمؤخِّرة شاحنة نصف نقل توقَّفت لتوِّها في منتصف التقاطع بينما قائدها الغريب عن المنطقة يمد عُنُقه أمامًا ليقرأ كل اللافتات ويتأكَّد من أنه لم يأخذ مُنعطفًا خاطئًا كي لا ينتهي به الحال بطريقةٍ ما في شاطئ ميامي.

كانت الحارة التي تقع إلى يمين بيل مُكتظَّة بحافلات السَّفر التي تقلُّ الرُكَّاب من بانجور إلى ديري والعكس، ورغم ذلك انزلق بيل سريعًا إليها، وانسل في الفرجة بين شاحنة النصف نقل المتوقِّفة والحافلة وهو ما زال يندفع بسُرعة أربعين ميلًا في الساعة. في الثانية الأخيرة، أبعد رأسه بعنف إلى أحد الجانبين، كجندي يُنفِّذ أمر النظر يمينًا في طابورٍ عسكري بحماسةٍ زائد، وذلك لمنع مرآة مقعد القيادة في الشاحنة من تحطيم أسنانه. أحرق دُخان الديزل الساخن المُنبعث من الحافلة حلقه كجرعة خمرٍ قويَّة، وسمع صريرًا رفيعًا حادًا مع احتكاك أحد مقبضي مقود درَّاجته بجانب الشاحنة المصنوع من الألومنيوم، ولم تلتقط عيناه سوى لمحة من سائق الحافلة، الذي شحب وجهه أسفل قُبَّعة شركة حافلات هادسون التي يضعها على رأسه. كان السائق يلوِّح بقبضته إلى بيل ويصيح بشيءٍ ما، ولم يظن بيل أنه تحيَّة عيد ميلاد.

الآن، ثلاث نساء عجائز يعبرن الشَّارع الرئيس من ناحية بنك نيو إنجلاند، مُتَّجِهات إلى رصيف متجر ذا شوبوت. سمع ثلاثتهن الرفرفة القويَّة لأوراق الكوتشينة ونظرن إليه، وفغرت أفواههن على اتِّساعها مع عبور الصبي الذي يركب درَّاجة عملاقة من مسافة نصف قدم منهن كأنه سراب.

الآن، كان قد تخطَّى أفضل -وأسوأ- جزء في الرحلة وراء ظهره. تأمَّل بيل في احتمالات وفاته المُتكرِّرة، ووجد في نفسه عدم الاكتراث والقدرة على الإشاحة بتفكيره بعيدًا. لم تدهسه الحافلة. إنه لم يقتل نفسه أو النسوة

الثلاث العجائز اللاتي يحملن حقائب تسوُّقهن من فريسي وشيكات ضمانهن الاجتماعي. إن أشلاءه لم تتناثر على الباب الخلفي لشاحنة الغريب طراز دودج. إنه يصعد الآن مع الطريق أعلى التلَّة، وسرعته تذوي بعيدًا، وثمَّة شيءٍ ما -سَمِّه الرَّغبة إن شئت، فهذا جيِّد بما يكفي، أليس كذلك؟- يذوي معها. عادت كل الأفكار والذكريات تلحق به -كيف حالك يا بيل، لقد كدنا أن نفقد أثرك هناك، لكن ها نحن أولاء- وتسري جواره، تتسلَّق قمصيه وتقفز إلى أُذُنيه وتتزحلق إلى عقله كأطفالٍ صغار يتحلقون عبر زحلوقة. كان يشعر بها تستقرُّ في أماكنها المعهودة، وأجسادها المحمومة تُصارع بعضها بعضًا. يا إلهي! واو! ها نحن داخل رأس بيل من جديد! لنُفكِّر في چورچ! حسنًا! من يُريد البدء؟

أنت تُفكِّر كثيرًا جدًّا يا بيل.

لا، لم تكن تلك المُشكلة. المُشكلة أنه يتخيَّل كثيرًا جدًّا.

انعطف بيل إلى زُقاق ريتشارد وخرج إلى الشارع الأوسط بعدها بلحظاتٍ، ضاغطًا الدوَّاسات ببطء، شاعرًا بالعرق الغزير على ظهره وفي شعره. ترجَّل بيل من سيلڤر وركنها أمام أمام صيدلية الشارع الأوسط ودلف إليها.

6

لو أن هذا الموقف كان قد حدث قبل وفاة چورچ، كان بيل سيتحدَّث إلى السيِّد كين الصيدلي ويُطلعه على التفاصيل. لم يكن الصيدلي رجُلًا لطيفًا تمامًا -أو هذه كانت فكرة بيل عنه على الأقل- لكنه صبورٌ بما فيه الكفاية، ولم يكن يُمازح أو يسخر. لكن تأتأة بيل بدت الآن في أسوأ حالاتها، وقد كان يعتقد حقًّا أن مكروهًا قد يقع لإدي إذا لم يتصرَّف سريعًا.

لذا عندما حيَّاه السيِّد كين وسأله: «مرحبًا يا بيلي دِنبروه، هل أستطيع مُساعدتك؟»، أمسك بيل بمُجلَّد يُعلن عن أنواع الڤيتامينات وقلبه وكتب على ظهره: أنا وإدي كاسبراك كنا نلعب في البرِّيَّة، وقد باغتته نوبة ربوٍ عنيفة، أعني أنه بالكاد يتنفَّس. هل يُمكنك أن تعطيني عبوَّة دواء لبخَّاخه؟

دفع بيل هذه الملحوظة عبر الحاجز الزجاجي إلى السيِّد كين، الذي

قرأها، ثم نظر إلى بيل بعينين زرقاوتين يملأهما القلق وقال: «بالطبع. انتظر هنا، ولا تعبث بأيٍّ شيء».

بدَّل بيل بين قدميه بعصبية بينما ذهب السيِّد كين إلى ما وراء الرفوف الخلفية، ورغم أنه استغرق أقل من خمس دقائق هناك، فقد بدت كدهرٍ كاملٍ بالنسبة إليه، ثم عاد الرَّجُل حاملًا واحدة من زجاجات إدي البلاستيكية القابلة للضغط. ناولها الصيدلي إلى بيل مُبتسمًا وقال: «هذه ستعتني بالأمر».

قال بيل: «شـ-شـ-شكرًا. ليس معـ-معي أ-أيَّ نـ-نـ-نـ-نـ-نـــــ...».

- «لا عليك يا بُني. السيِّدة كاسبراك لديها حساب هنا عندي، وسأضيف ثمن هذه إليه. أنا مُتأكِّد أنها سترغب في شُكرك على طيبتك وعنايتك».

شكر بيل السيِّد كين وغادر سريعًا والارتياح يغمره. التف السيِّد كين من وراء الحاجز ليُراقبه وشاهد بيل يُلقي بالبخَّاخ إلى سلَّة درَّاجته ويركبها برعونة. تعجَّب السيِّد كين، هل يستطيع حقًّا قيادة درَّاجة بهذا الحجم؟ أشك في هذا. أشك في هذا كثيرًا. لكن صبي آل دِنبروه نجح في ركوبها بطريقةٍ ما من دون أن يسقط ليشج رأسه وابتعد بها ببطء. تمايلت الدرَّاجة التي بدت للسيِّد كينٍ كمُزحةٍ من شخصٍ تعوزه روح الدعابة بجنونٍ من جانب إلى آخر، وأخذ البخَّاخ يتدحرج في سلَّتها يمينًا ويسارًا.

ابتسم السيِّد كين قليلًا. إذا كان بيل قد رأى هذه الابتسامة، لا بُدَّ أنها كانت ستُرجِّح كثيرًا فكرته عن أن السيِّد كين ليس أحد أبطال العالم في اللُطف والكياسة. كانت ابتسامة فجَّة. ابتسامة رجُلٍ وجد كثيرًا جدًّا ليتساءل عنه لكنه لم يجد شيئًا مُبهجًا تقريبًا في الطبيعة البشرية. أجل.. إنه سوف يُضيف دواء إدي إلى فاتورة سونيا كاسبراك، وكالعادة دائمًا ستتعجَّب سونيا -وستشتبه أكثر من أن تمتن- من رُخص الدواء. الأدوية الأُخرى عزيزة جدًّا، هكذا كانت تقول. يعلم السيِّد كين أن السيِّدة كاسبراك واحدة من أولئك الناس الذين يظنون أن لا شيء رخيص نافع، ولقد كان في مقدوره أن يستنزفها ماليًّا مُقابل الهيدروكس ميست الذي يصرفه لابنها، ولكم من مرَّة غرَّهُ الأمر... لكن لِمَ يجعل نفسه طرفًا في حماقة امرأة؟ إنه لا يتضوَّر جوعًا كي يفعل ذلك.

رخيص؟ أوه يا إلهي أجل. إن الهيدروكس ميست رخيص الثَّمن بشكلٍ

رائع (استخدمه كُلَّما دعت الحاجة. هذا ما كان مكتوبًا بحروفٍ أنيقة على المُلصق الذي يلطعهُ على كل زُجاجة). لكن رغم هذه الحقيقة، كانت السيِّدة كاسبراك مُستعدَّة للاعتراف أن الدواء يُسيطر بنجاح على نوبات الرَّبو التي تنتاب ابنها. كان الدواء رخيصًا لأنه مُركَّب من الهيدروچين والأُكسچين، مع نفحة كافور لإعطاء المزيج نكهة دواء خافتة.

بعبارةٍ أخرى، كان دواء إدي ماءَ صنبورٍ.

7

استغرق الأمر من بيل وقتًا أطول للعودة لأنه كان يقود سيلڤر صاعدًا أعلى التلَّة، واضطُّرَّ للترجُّل ودفع سيلڤر في أكثر من موضع. ببساطة لم يكن يمتلك القوَّة العضلية الكافية التي تُبقي على صعود الدرَّاجة لأكثر من مطالع خفيفة.

كانت الساعة الرابعة وعشر دقائق بحلول الوقت الذي أودع فيه درَّاجته مخبأها وشقَّ طريقه عائدًا إلى البرِّية. مظنَّات سوداء من كل نوع أخذت تعصف بعقله. الصبي هانسكوم رُبَّما يكون قد غادر تاركًا إدي ليموت، أو أن الفتوَّات قد عادوا أدراجهم وأوسعوا كليهما ضربًا وركلًا، أو... الأسوأ.. رُبمَّا يكون الرَّجُل الذي يقتل الأطفال في ديري قد قبض أحدهما أو كليهما.. كما قبض چورچ.

كان يعلم أن كثيرًا من القيل والقال وتكهُّناتٍ عديدة تدور حول هذا الأمر. يعاني بيل من ثأثأة سيِّئة لكنه ليس أصمَّ، رغم أن الناس أحيانًا يظنونه كذلك لأنه لا يتحدَّث إلا نادرًا وفي الضرورة القصوى. شعر بعض الناس أن مقتل أخيه ليس ذا صلة بحوادث قتل بيتي ريبسوم وشيرل لامونيكا وماثيو كلمينتس وڤيرونيكا چورچان. آخرون ادَّعوا أن چورچ وريبسوم ولامونيكا قتلهم رجُلٌ واحد، وأن الاثنين الآخرين اقتنصهما قاتلٌ مُقلِّدٌ. قالت مدرسة أخرى من الآراء إن الصبية قُتلوا من قبل رجُلٍ، والفتيات من قبل رجُلٍ آخر.

كان بيل يؤمن أن جميعهم قتلوا بواسطة الرَّجُل نفسه، هذا إن كان رجُلًا من الأساس. كان أحيانًا يتعجَّب من ذلك، كما يتعجَّب من مشاعره تجاه بلدة ديري خلال هذا الصيف. أهي تبعات واقعة موت چورچ، والطريقة التي

يتجاهله بها والداه وينخرطان في أحزانهما على ابنهما الأصغر دون وعي للحقيقة البسيطة أنه ما زال حيًّا وأنه قد يؤذي نفسه؟ هذا بجانب جرائم القتل الأخرى؟ أهي الأصوات التي يبدو أنها تتحدَّث في رأسه الآن، هامسةً له، ناصحةً إياه بفعل أشياء بعينها؟ (وبالتأكيد ليست تلك الأصوات تنويعات لصوته الدَّاخلي، لأنها لا تتلعثم. إنها خافتة، لكن واثقة). أهذه الأشياء ما جعلت ديري تبدو مُختلفة بطريقةٍ ما الآن؟ مُعادية نوعًا، ببعض شوارعها غير المُستكشَفَة التي لا تُرحِّب بل تبدو كأنها تتثاءب في صمت مشؤوم؟ أهذه الأشياء ما جعلت بعض الوجوه تبدو غامضة وخائفة؟

لم يكن بيل يعرف الإجابة، لكنه يؤمن بأن ديري تبدَّلت (كما يؤمن أن كل الجرائم تمت بفعل قوَّة واحدة)، وأن موت أخيه كان علامة على بداية هذا التبدُّل. هذه المظنَّات السوداء في رأسه نبعت من الفكرة الرَّابضة به أن أيَّ شيء قد يحدث في ديري الآن.. أيَّ شيء.

لكن مع اقترابه من الانحناءة الأخيرة بدا كل شيء على ما يُرام. ما زال بن هانسكوم هناك، جالسًا جوار إدي، وإدي نفسه يجلس مُعتدلًا الآن ويداه مُتدلِّيتان بين فخذيه، ورأسه مُنكَّس، وما زال يُكافح لاستنشاق الهواء. لقد غربت الشمس بما يكفي الآن لتلقي ظلالًا طويلة خضراء على صفحة مياه الجدول.

قال بن وهو ينهض واقفًا: «كان هذا سريعًا. لم أتوقَّع حضورك قبل نصف ساعةٍ أخرى».

قال بيل ببعض الفخر: «لديَّ د-درَّاجة سـ-سـ-سريعة». راح الاثنان ينظران أحدهما إلى الآخر بحيطة وحذر. ثم ابتسم بن على استحياء، فرَدَّ بيل ابتسامته بمثيلتها. كان الصبي بدينًا لكنه جدير بالثقة، كما أنه لم يبرح مكانه. لا بُدَّ أن هذا تطلَّب منه بعض الشجاعة، مع الاحتمال القائم أن هنري وأصدقاءه الجانحين للإجرام قد يكونون في الجوار.

غمز بيل إلى إدي، الذي كان ينظر إليه بامتنانٍ أبكم. ثم طوَّح له البخَّاخ قائلًا: «هـ-هـ-هاك يا إ-إ-إ-إدي»، وضع إدي البخَّاخ في فمه وضغط الزناد وشهق متشنِّجًا، ثم مال إلى الوراء وأغلق عينيه. راقبه بن في قلق.

- «يا للمسيح، إن حالة مرضه سيِّئة حقًّا، أليس كذلك؟».

أومأ بيل.

قال بن بصوتٍ خفيض: «لقد خفت قليلًا هنا. رحت أتساءل ماذا سأفعل إذا أُصيب بتشنُّج أو شيءٍ من هذا القبيل، وظللت أحاول تذكُّر الأشياء التي علمونا إيَّاها في رحلة الصليب الأحمر التي حظيْنا بها في أبريل. كل ما أتى في ذهني أن أضع عصا في فمه كي لا يقضم لسانه».

- «أظنُّ أن هذا الإجراء للمُصابين بالصـ-صـ-صرع».

- «أوه، أجل. أظنُّ أنك على حق».

قال بيل: «لن يـ-يحدُث لهُ تشنـ-نـ-نـ-نُّج على أيِّ حال. هذا الد-د-دواء سيعـ-عالجه على الفور. انـ-انـ-انظر».

هدأ تنفُّس إدي العسير، وفتح عينيه ونظر نحوهما وقال: «شكرًا يا بيل. كانت نوبة مزعجة حقًّا».

سأل بن: «أظنُّ أنها انتابتك عندما حطَّموا أنفك، أليس كذلك؟».

ضحك إدي بابتئاس، ثم نهض واقفًا، ودسَّ البخَّاخ في جيبه الخلفي وقال: «لم أكن حتَّى أُفكِّر بأمر أنفي، كنت أُفكِّر بأُمي».

- «فعلًا؟ حقًّا؟». بدا بن مُندهشًا، لكن امتدَّت يداه إلى أسمال سُترته المُمزَّقة وبدأت تضمَّها بعصبية.

- «أجل، ستلقي نظرة واحدة إلى الدم على قميصي، وبعد خمس ثواني ستأخذني إلى غُرفة طوارئ مُستشفى ديري».

سأله بن: «لماذا؟ لقد توقَّف النزيف، أليس كذلك؟ يا الله، أتذكَّر ذلك الصبي الذي اعتدت الذهاب إلى الحضانة معه.. سكوتر مورجان.. لقد أُدميَ أنفه عندما سقط من قُضبان التعلُّق في ساحة الألعاب. لقد أخذوه إلى غُرفة الطوارئ، لكن فقط لأن أنفه لم ينفك عن النزيف».

سأل بيل مُهتمًّا: «حقًّا؟ هل مـ-مـ-مات؟».

- «لا، لكنه تغيَّب عن المدرسة أسبوعًا».

قال إدي مُكفهرًّا: «لا يهم إن كان النزف قد توقَّف أم لا، ستأخذني إلى

هناك على أيٍّ حال. ستظن أن أنفي مكسور وأن شظايا العظام تنغرس في مُخي أو شيءٍ من هذا القبيل».

سأل بيل: «هـ-هـ-هل يمكن أن تـ-تدخل شـ-شظايا العظام إلى المـ-مـ-مخ؟». كان الأمر قد بدأ يتحوَّل إلى أكثر النقاشات إثارة التي حظى بها منذ أسابيع طويلة.

- «لا أعرف. إذا أنصتَّ إلى أمي، فيُمكنك أن تُصاب بأيِّ شيءٍ» ثم التفت إدي إلى بن وأضاف: «إنها تأخذني إلى غُرفة الطوارئ مرَّة أو مرَّتين في الشهر. أنا أكره ذلك المكان. في مرَّة قال لها ذلك المُمرِّض إنه ينبغي لهم تكليفها بدفع إيجارٍ للمكان، ولكم أثار هذا حنقها».

- «واو!». هكذا صاح بن مُفكِّرًا أن والدة إدي لا بُدَّ أنها غريبة الأطوار تمامًا. كان غير واعٍ لحقيقة أن كلتا يديه الآن تعبثان برُفات سُترته «لِمَ لا ترفض الأمر فحسبٌ؟ قُل لها شيئًا على غرار: 'هاي يا ماما، أنا بخير، كل ما أريده البقاء في المنزل ومُشاهدة مُسلسل سي هانت'».

- «أووو». قالها إدي منزعجًا، ولم يزد عليها.

سأل بيل: «أنت بن ها-ها-هانسكوم.. أليس كذلك؟».

- «نعم، وأنت بيل دِنبروه».

- «أ-أجل، وهذا إ-إ-إ-إ-إ...».

قال إدي: «إدي كاسبراك. لكم أكره حين تُتأتئ في نُطق اسمي يا بيل، صوتك يبدو شبيهًا بإلمر فاد[1]».

- «معـ-معذرة».

قال بن: «حسنًا، أنا سعيد لمقابلتكما». خرجت العبارة مخنَّثة ومبتذلة قليلًا، ولفَّ الصمت ثلاثتهم بعدها. لم تكن هذه لحظة صمت مُحرجة في عمومها.. فخلالها صاروا أصدقاء.

سأل إدي في النهاية: «لماذا كان أولئك العيال يطاردونك؟».

---

(1) إلمر فاد: إحدى شخصيات حلقات «لووني تونز» الكارتونية. يشتهر بعدم قدرته على نطق بعض الأحرف، فينطق حرف W بدلًا من حرف R.

قال بيل: «إنهم د–د–دائمًا ما يط–ط–طاردون شـ–شخصًا ما. أ–أنا أكره أولئك المنايك».

ظلَّ بن صامتًا بُرهةً –مُستحسنًا الأمر في الغالب– قبل أن يستخدم بيل الكلمة التي تصفها أمه أحيانًا بالـ«الكلمة القبيحة حقًّا». لم يتلفَّظ بن بالـكلمة القبيحة حقًّا بصوتٍ عالٍ من قبل في حياته قط، على الرغم من أنه كتبها –بحروفٍ صغيرة جدًّا– على أحد أعمدة خطوط الهاتف في عيد الهالوين قبل الماضي.

في النهاية قال بن: «كان باورز جالسًا جواري في أثناء الامتحانات، وأراد أن يغش من ورقة إجاباتي، لكنني لم أسمح له».

قال إدي متعجبًا: «لا بُدَّ أنك تستعجل نهايتك أيُّها الشاب». انفجر بيل المُتلعثم ضاحكًا. نظر له بن بحدَّة وأدرك أنه لم يكن يسخر منه بالتحديد (من الصعب معرفة كيف عرف، لكنه عرف)، لذا ابتسم.

ثم قال: «لا بُدَّ أنني كذلك. على أيِّ حال، لقد أُجبر على ارتياد الدروس الصيفية، لذا تربَّصني برفقة هذين الفتيين الآخرين، وكانت هذه النتيجة».

قال بيل: «يـ–يـ–يبدو مـ–مـظهرك كـ–كـ–كأنهم قـ–قـ–قتلوك بالفعل».

– «لقد سقطت إلى هنا من شارع كانساس، عبر منحدر التَّلة»، ثم نظر إلى إدي وأردف: «بعد التفكير في الأمر قليلًا، على الأرجح سأراك في غُرفة الطوارئ. عندما ستلقي أمي نظرة واحدة إلى ملابسي، ستضعني هناك على الفور».

انفجر كل من بيل وإدي ضاحكين هذه المرَّة، وانضم بن إليهما. أوجع الضحك معدته المُقطَّعة، لكنه ضحك على أيِّ حال، بحِدَّة تشوبها بعض الهستيريا. في النهاية أُضطُرَّ إلى الجلوس على الضِفَّة، وقد جعله صوت البلوب الذي صدر من التقاء مؤخَّرته بالطين يضحك من البداية. أحب بن الطريقة التي جلجلت بها ضحكاته معهما. كان هذا صوتًا لم يسمعه من قبل: لم يكُن هذا مُجرَّد ضحك جماعي –لقد سمع كثيرًا من الضحك الجماعي من قبل– بل ضحك جماعي يشترك فيه.

رفع بن بصره إلى بيل دِنبروه، والتقت أعينهما، وكان هذا كل ما تطلَّبه الأمر لينفجرا ضاحكين من جديد.

جذب بيل خاصرة سراويله إلى أعلى، ورفع ياقة قميصه، وسار بكتفين مُتهدِّلين وظهرٍ محني في نوعٍ من التبختر الموحي، ثم انخفضت نبرة صوته وهو يقول: «سأقتلك يا فتى، لا تتفوَّه معي بأيٍّ هُراء. أنا غبي لكنني ضخم. أستطيع كسر قشر الجوز بجبهتي، أستطيع أن أشُخَّ خلًّا وأتغوَّط أسمنتًا. اسمي هنري العسلية وأنا الرئيس النَّاكح المتجوِّل في جميع أرجاء ديري».

انهار إدي على ظهره فوق ضِفَّة الجدول، وراح يرفُس بقدميه وهو يمسك ببطنه عاويًا بالضحك. أما بن فركع مُقهقهًا ورأسه بين رُكبتيه، والدموع تنهمر من عينيه، والمخاط يتدلَّى من أنفه، ضاحكًا مِلء حنجرته كالضبع.

جلس بيل معهما، وشيئًا فشيئًا هدأ ثلاثتهم.

قال إدي: «ثمَّة شيءٌ واحد جيِّد في الأمر. ما دام باورز سيرتاد الدروس الصيفية، فلن نُقابله هنا كثيرًا».

سأله بن: «هل تلعبان في البرِّية كثيرًا؟». لم تكن هذه فكرة يمكن أن تخطر على باله ولا بعد ألف عام، ليس مع سُمعة البرِّية.. لكن الآن وهو هنا، لم يبد الأمر بهذا السوء. في الحقيقة، كان هذا الجزء من الضِفَّة المُنخفِضَة مُمتعًا جدًّا في ذلك التوقيت الذي يشقُّ العصر فيه طريقه ببطء نحو الغسق.

- «أ-أجل. إنها أ-أنيقة. غـ-غالبًا لـ-لا أحد يـ-يـ-يزعجنا هـ-هنا، ونـ-نفعل ما يحـ-حلو لـ-لـنا. بـ-بـ-باورز وأولئك الفـ-فتية الآخـ-خرون لا يأتون إ-إ-إلى هنا على أيٍّ حـ-حـ-حالٍ».

- «إذًا أنت وإدي فقط؟».

هزَّ بيل رأسه وقال: «ريـ-ريـ-ريـ...». لاحظ بن أن وجه بيل ينتفخ كإسفنجة مُبتلَّة عندما يتلعثم، وفجأة عبرت خاطرة غريبة عقله: بيل لم يتلعثم قط وهو يقلِّد طريقة كلام هنري باورز. هتف بيل في هذه اللحظة: «ريتشي!»، ثم توقَّف هنيهة قبل أن يواصل: «ريتشي تـ-توزيير يأتي معنا أيضًا. لكنه اليوم هو و-والده سيُنظِّفان العلـ-علـ-علـ...».

ترجم إدي: «العلية»، وقذف حجرًا إلى الماء. بلونك.

قال بن: «أجل، أعرفه. إذًا أنتم تتسكَّعون هنا كثيرًا يا رفاق، أليس كذلك؟». خلبت الفكرة لُبَّهُ، وجعلته يشعر بنوعٍ أحمق من الحنين أيضًا.

قال بيل: «كـ-كـ-كثيرًا جدًّا. لـ-لـ-لِمَ لا تـ-تأتي غـ-غدًا؟ أ-أنا وإ-إدي نـ-نحاول بناء سـ-سـ-سدٍّ».

لم يستطِع بن قول شيء. لم يُعقد لسانه بسبب العرض فحسب، وإنما بسبب الأريحية التي قيل بها.

قال إدي: «رُبَّما سنُجرِّب شيئًا آخر. لم يكن السَّد ناجحًا تمامًا على أيِّ حال».

نهض بن وسار إلى الجدول مُنظِّفًا الطين عن فخذيه. كانت أكوام فروع الشجر ما زالت مُلقاة على جانبي النهر، لكن كل ما شيَّداه خلاف ذلك جرفهُ التيَّار.

قال بن: «يجب أن تستخدما بعض الألواح. اجلبا ألواحًا وضعوها في صفٍّ، أحدها في مُقابلة الآخر، كالخبز في الساندويتش».

نظر إليه كل من بيل وإدي في حيرة. ركع بن على رُكبة واحدة وقال:

- «انظرا.. ضعا ألواحًا هنا وهنا.. ألصقا أحدها في مواجهة الآخر في منتصف مجرى النهر، حسنًا؟ بعدها، قبل أن يجرفها الماء مع جريانه، املأ الفراغ بينها بالحجارة والرمال و...».

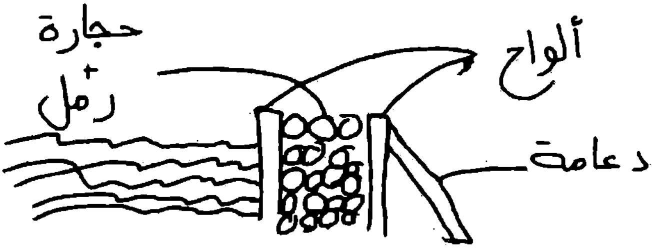
قال بيل: «سنـ-نـ-نملأ».

- «ماذا؟».

- «سـ-سـ-سنفعل ذلك معًا».

- «أوه»، نطقها بن شاعرًا بالغباء الشديد، ومتأكِّدًا أنه يبدو كذلك أيضًا. لكنه لم يأبه إن كان يبدو غبيًّا أم لا، لأنه فجأة شعر بسعادة بالغة. لم يكن يتذكَّر آخر مرَّة شعر فيها بمثل هذه السعادة. «أجل، سنملأ. على أيِّ حال، إذا ملأنا الفراغ بين الألواح بالحجارة والأشياء الأخرى ستصمد في مكانها. اللوح المُقابل للتيار سيميل على الصخور والطين بينما الماء يتراكم، واللوح الآخر سيميل إلى الوراء وسينجرف مع التيَّار بعد فترة على ما أظنُّ. لكن إذا كان لدينا لوح ثالث.. حسنًا، انظرا».

رسم بن على الطمي بعصاه. انحنى بيل وإدي كاسبراك وتأمَّلا الرَّسم بتركيزٍ شديد:



سأله إدي: «هل شيَّدت سَدًّا من قبل؟». لاحت في صوته نبرة توقير تكاد تكون انبهارًا.

- «لا».

- «إذًا كـ-كـ-كيف تعرف أن كل هذا سيـ-يـ-ينجح؟».

نظر بن إلى بيل وبدا حائرًا ثم قال: «بالتأكيد سينجح. لِمَ لا؟».

سأله بيل: «لـ-لـكن كيف تعـ-تعـ-تعرف؟».

ميَّز بن أن سؤاله لم يكن يحوي عدم تصديقٍ ساخر بل اهتمامٍ حقيقي. «لِمَ أ-أ-نت و-و-واثق؟».

قال بن: «أنا أعرف فحسب»، ثم نظر إلى أسفل نحو الرَّسمة على الطين كأنما ليشحن ثقته بنفسه. لم يكن قد رأى سدًّا مؤقَّتًا في حياته من قبل قط، لا على الورق ولا في الحقيقة، ولم تكن لديه أدنى فكرة أنه رسم تمثيلًا قريبًا جدًّا من الواقع لأحد هذه السدود.

هتف بيل مُربِّتًا على ظهر بن: «حـ-حسنًا. نـ-نـ-نراك غـ-غـ-غدًا».

- «في أيِّ وقت؟».

- «سنكون هـ-هنا في الثـ-ثـ-ثامنة والنـ-نـ-نصف أو نحو ذلك...».

قال إدي مُتنهِّدًا: «إذا لم أكن أنا وأمي في غُرفة الطوارئ حينها».

قال بن: «سأجلب بعض الألواح. الرَّجُل المُسنُّ في البناية المقابلة لمنزلي لديه مجموعة منها، سآخذ بعضها».

قال إدي: «اجلب بعض الزاد أيضًا. أشياء لتأكلها. ساندويتشات، كعك رينج دينج، أشياء من هذا القبيل».

- «حسنًا».

- «هل لـ-لـديك أيَّ لـ-لـ-لعب أسلحة؟».

قال بن: «لِديَّ بُندقيتي الهوائية طراز ديزي، لقد أهدتني أمي إيَّاها في الكريسماس، لكنها تستشيط غضبًا إذا أطلقتها في المنزل».

قال بيل: «ا-ا-اجلبها معك، رُبَّما نلعب بالمُسـ-مُسدَّسات».

قال بن فَرِحًا: «حسنًا. اسمعاني، يجب أن أرحل الآن يا رفاق للعودة إلى المنزل».

قال بيل: «ونـ-نحن أيضًا».

غادر ثلاثتهم البرِّية معًا. ساعد بن بيل في دفع سيلڤر أعلى مُنحدر الضِفَّة، وجرجر إدي قدميه خلفهما مُجاهدًا لالتقاط أنفاسه من جديد، ومُتأمِّلًا بعبوس حالة قميصه المُبقَّع بالدماء.

حيَّاهما بيل وانطلق راكبًا سيلڤر وهو يصيح ملء رئتيه: «هيَّا يا سيلڤر، انطلقـــــــي».

غمغم بن: «يا لها من درَّاجة عملاقة».

قال إدي: «تستطيع الرهان بلباسك على هذا».

كان قد استنشق جرعة أخرى من بخَّاخه وبدأ يتنفَّس بطريقة طبيعية من جديد، ثم قال مُردفًا: «أحيانًا يأخذني خلفه. إنها تجري بُسرعة وتشعفني تمامًا. إنه شابٌ طيب، هذا الـ 'بيل'». لفظ إدي عبارته الأخيرة بطريقة عارضة، لكن عينيه قالتا شيئًا أكثر من هذا.. وفيهما شاعت نظرة تبجيل. «أنت تعرف ما حدث لأخيه، أليس كذلك؟».

- «لا.. ماذا حدث له؟».

- «لقد قُتِل في الخريف الماضي. قتله شخصٌ ما واقتلع إحدى ذراعيه بالكامل، كمن ينتزع جناح ذبابة من جسدها».

- «يا ليسوع المسيح!».

لاحظتها؟».

- «في الواقع... قليلًا».
- «لكن عقله لا يتلعثم.. هل تعي ما أقصد؟».
- «أجل».
- «على أيِّ حال، أنا أخبرك بهذا فقط لأنك إذا أردت لبيل أن يكون صديقك، فمن الأفضل ألَّا تتحدَّث عن شقيقه الأصغر أمامه. لا تسأله أسئلة أو أيَّ شيءٍ، إن الأمر يزعجه تمامًا».

قال بن: «كنت سأشعر بالمثل لو كنت مكانه يا رجُل».

تذكَّر بن الآن بصعوبة واقعة الطفل الصغير الذي قُتِل الخريف الماضي، وتعجَّب ما إذا كانت أمه تُفكِّر في چورچ دِنبروه عندما أعطته الساعة التي يرتديها الآن، أم أنها كانت قلقة فقط من حوادث القتل الأخيرة. «هل حدث هذا بعد الفيضان الكبير؟».

- «أجل».

وصل الصبيان إلى ناصية التقاء شارعي كانساس وچاكسون، حيث ينبغي عليهما الافتراق. كان هناك صبية كُثُر يركضون في كل مكان، يلعبون المسَّاكة ويتناقلون كُرة السلَّة. مرَّ طفلٌ أخرق مُختال أمام إدي وبن، يرتدي قلنسوة من فراء الرَّاكون كالتي اعتاد ديڤي كروكيت[1] ارتداءها بالعكس، وبالتالي تدلَّى الذيل المُشعر مُتراقصًا بين عينيه. كان يُحرِّك طوق هولا هوب حول خصره صائحًا: «أيُريد أحد لعب مسَّاكة الهولا هوب يا رفاق؟ من يُريد اللعب؟».

نظر إليه الصبيان الأكبر سنًّا باستمتاع، ثم قال إدي:

- «حسنًا، يجب أن أذهب».

قال بن: «انتظر لحظة. لديَّ فكرة إن كنت لا ترغب حقًّا في الذهاب إلى غُرفة الطوارئ بالمُستشفى».

(1) ديڤي كروكيت (1786 – 1836) بطل شعبي أمريكي من سكان الحدود. تربَّى في غابات تينيسي، واكتسب منها سمعته كصياد وصانع فخاخ.

نظر إدي إلى بن بشكٍ يشوبه أملٌ: «أحقًّا؟».

- «أمعك خمسة سنتات؟».

- «معي عشرة. ما قصدك؟».

رمق إدي البُقع الحمراء الداكنة الجافة على قميص إدي وقال: «اعرج على المتجر واشترِ حليبًا بالشيكولاتة، واسكب نصفه على قميصك، وعندما تعود إلى المنزل قل لأمك أنك سكبته كله عليك».

التمعت عينا إدي. خلال السنوات الأربع التي تلت وفاة والده، ضعف نظر أمه بدرجة ملحوظة، وبسبب الكِبر -ولأنها لم تكن تعرف قيادة السيَّارات- رفضت الذهاب إلى طبيب عيون لعمل نظَّارة. بقع الدماء الجافة وبقع الحليب بالشيكولاتة تبدو سواء. هذا قد...

قال إدي: «هذا قد ينجح».

- «فقط لو اكتشفت أمرك، لا تخبرها أنها فكرتي».

قال إدي: «لن أفعل. أراك لاحقًا يا بطل».

- «حسنًا».

قال إدي بأناةٍ: «لا. عندما أقول ذلك يجب أن ترد قائلًا 'بعد حينٍ يا زعيم'».

- «أوه، بعد حينٍ يا زعيم».

ابتسم إدي قائلًا: «الآن تفهمني».

قال بن: «أتعرف شيئًا؟ أنتما رائعان بالفعل يا صاح».

بدا إدي مُحرجًا أكثر من اللازم، لدرجة أنه بدا عصبيًا وهو يقول: «بل بيل الرائع»، ثم مضى في طريقه.

راقب بن ابتعاده عبر شارع چاكسون، ثم انعطف مُتَّجهًا إلى منزله.

سار بن مسافة ثلاثة أبنية، ورأى بعدها ثلاث هيئات مألوفة جدًّا تقف عند محطَّة الحفالات عند ناصية التقاء شارع چاكسون بالشارع الرئيس. كان ثلاثتهم يعطون ظهورهم إلى بن، وقد كان هذا من حسن حَظِّه تمامًا. انحنى بن أسفل أحد الأسوجة وقلبه يدق بين ضلوعه بعنف. بعدها بخمس

دقائق بدأت الحافلة المُتَّجهة من ديري إلى نيوبورت في التحرُّك. حرَّكَ هنري وأصدقاؤه مؤخِّراتهم وتسلَّقوها ومضوا معها.

انتظر بن حتَّى غابت الحافلة عن الأنظار، وهرول إلى المنزل.

8

في تلك الليلة، حدث شيءٌ مُروِّعٌ لبيل دِنبروه.. وقد حدث للمرَّة الثانية.

كان أبوه وأمه يشاهدان التلفاز في الدور الأرضي شبه صامتين، جالسين على مُباعدة عند طرفي الأريكة كمساند الكتب. لقد مضى وقت كانت فيه غرفة المعيشة المفتوحة على المطبخ مليئة بالحديث والضحكات، لدرجة أنك أحيانًا لم تكن تسمع التلفاز على الإطلاق. «اخرس يا چورچي»، هكذا يصيح بن. فيرد چورچ: «كف عن ازدراد أكثر من نصيبك من الفشار وسأخرس». «يا ما، اجعلي بيل يعطيني الفشار». «بيل، أعطِ أخاك الفشار، وچورچ، لا تناديني بـ'ما'. هذا صوت الخراف». أو أحيانًا يلقي أبوه دعابة فيضحك الجميع، حتَّى أمهما. كان بيل يعلم أن چورچ لم يكن يفهم كل النكات دائمًا، لكنه يضحك رغم ذلك لأن الجميع يضحكون.

في تلك الأيام أيضًا كان أبوه وأمه سنَّادتي كُتُب على طرفي الأريكة، لكنه وچورچ كانا الكُتُب. منذ مقتل چورچ، حاول بيل أن يكون كتابًا بينهما وهما يُشاهدان التلفاز، لكنه شعر بالبرودة. كانا يبثَّان البرد بكثافة من كلا الجانبين، ولم يكن مزيل الصقيع لدى بيل قادرًا على التعامل مع الأمر. كان يجد نفسه مُجبرًا على المُغادرة لأن هذا النوع من البرودة دائمًا ما يُجمِّد وجنتيه ويُنضح عينيه بالماء المالح.

- «أ-أ-أترغبان في سـ-سـ-سماع نكتة سمعتها في المـ-مـ-مدرسة اليوم؟»، هكذا حاول مرَّة منذ بضعة شهورٍ خلت.

أجابه الصمت من كليهما. على شاشة التلفاز، ثمَّة مُجرم يستجدي أخاه -الذي كان قسًّا- ليُخبئهُ عنده.

رفع والده عينيه عن مجلة ترو التي يتصفَّحها ورمق بيل بقليلٍ من الاندهاشِ، ثم غمد بصره في المجلَّة من جديد. كانت هناك صورة في المجلَّة

لصيَّادٍ مُنبطح في كومة من الثلج يُحدِّق إلى دبٍّ قُطبيٍّ عملاق يُكشِّر عن أنيابه، وعنوان المقال يقول: «نُهِش من قبل القاتل الذي يجوب الضياع البيضاء». فكَّر بيل، أنا أعلم أن ثمَّة ضياعًا بيضاء بين أبي وأمي هنا على هذه الأريكة.

أما أمه فلم ترفع نظرها عن التلفاز على الإطلاق.

قال بيل مُقامرًا: «إنها عن عدد الر–ر–رجال الفـ–فـ–فرنسيين الذين يتطلَّبهم الأمر لتـ–تـ–تركيب مصباح كـ–كـ–كهربائي». شعر الصبي بسحابة خفيفة من العرق تتفصَّد من جبينه، كما يحدث له أحيانًا في المدرسة عندما يدرك أن المُدرِّسة تجاهلته. كان صوته مرتفعًا جدًّا، لكنه لم يبدُ قادرًا على خفضه، وراحت أصداء الكلمات تتردَّد في رأسه كقرع أجراسٍ مجنونة تدوي، وتدوي، وتدوي.

– «هـ–هـ–هـ–هل تـ–تـ–تعلمان كم ر–ر–ر–رجلًا؟».

قال زاك دِنبروه في شرود: «واحد ليمسك المصباح، وأربعة ليديروا المنزل له»، ثم قلب صفحة مجلَّته.

سألته أمه: «هل كنت تقول شيئًا يا عزيزي؟»، وأخبر الأخ القس الأخ السفَّاح في مسلسل مسرح أربع نجوم أن يُسلِّم نفسه للشرطة ويُصلِّي للرب من أجل الغفران.

جلس بيل مكانه مُتعرِّقًا لكن جسده بارد.. شديد البرودة. لقد برُد لأنه لم يكن –في الحقيقة– الكتاب الوحيد بين المسندين. إن چورچي ما زال هنا، فقط لم يعد قادرًا على رؤيته. لقد صار ذلك الـ «چورچ» الذي لا يطلب الفشار أبدًا أو الذي يتذمَّر أن بيل يأخذ أكثر من نصيبه. هذه النسخة من چورچ لم تكن تنبس ببنت شفة. كانت نسخة چورچ الشاحبة ذات الذراع الواحدة التي تجلس صامتة في وهج ضوء التلفاز الأزرق والأبيض. رُبَّما لم يكن مصدر تلك البرودة القارصة والدي بيل، بل هذه النُسخة من چورچي. رُبَّما چورچي هو قاتل الضياع البيضاء الحقيقي. في النهاية، فرَّ بيل مُنصرفًا من ذلك الأخ البارد الخفي إلى غُرفته، حيث استلقى على فراشه ووجهه لأسفل، وبكى كثيرًا في وسادته.

ظلَّت غُرفة چورچي على حالها الذي كانته في اليوم الذي مات فيه. جرؤ

زاك في أحد الأيام على وضع مجموعة من ألعاب چورچي في صندوقٍ بعد دفنه بأسبوعين، وافترض بيل أنه يزمع التبرُّع بها إلى جمعية النوايا الحسنة أو جيش الخلاص أو أي مؤسسة أخرى. هنا لمحته شارون دِنبروه خارجًا بالصندوق بين ذراعيه فطارت يداها إلى رأسها كجناحي طيرٍ رُوِّع فجأة، ثم غرستهما في شعرها وبدأت تجذبه في جنونٍ مسعور. رأى بيل هذا المشهد وسقط مستندًا إلى الحائط بعد أن خانته ساقاه فجأة وهربت القوَّة منهما. في تلك اللحظة، بدت أمه مجنونة تمامًا كإلسا لانشستر في فيلم عروس فرانكنشتاين.

جأرت صارخة في ذُعرٍ: «إيَّاك أن تجرؤ على أخذ أغراضه!».

جفل زاك وانتكص وراءً، ثم عاد بصندوق الألعاب مُجدَّدًا إلى غُرفة چورچي دون التفوُّه بكلمة واحدة، بل أعادها إلى أماكنها بالترتيب ذاته الذي أخذها منه. دلف بيل إلى الغُرفة وشاهد أباه راكعًا جوار فراش چورچ (الذي واصلت أمه على تغيير شراشفه مرَّة واحدة في الأسبوع الآن بدلًا من مرَّتين في السابق) ورأسه مسنود إلى معمصيه العضليين المُشعرين. شاهد بيل أباه يبكي، وقد زاد هذا من ذُعره. ثم خطر احتمالٌ مُرعب فجأة على عقله: رُبَّما الأمور لا تسوء أحيانًا فحسب، بل تواصل انحدارها أكثر فأكثر إلى أن يخرب كل شيء.

– «بـ–بـ–بابا...».

قال والده: «امشِ يا بيل». كان صوته مخنوقًا ويرتعش، وظهره يعلو ويهبط. أراد بيل أن يلمس ظهر أبيه بشدَّه، ليرى إن كانت لمسته قادره على تهدئة هذا الجيشان السَّاخط. «امشِ.. اذهب بعيدًا».

غادر بيل زحفًا عبر الرواق العلوي مُتَّجِهًا إلى غُرفته، وسمع أمه تمارس نصيبها من البُكاء في المطبخ بالأسفل. كان نحيبها حادًا وعاجزًا. فكَّر بيل، لِمَ يبكي كلٌّ منهما بمفرده؟ ثم طرد بعدها الفكرة بعيدًا.

9

في أوَّل ليلة في العُطلة الصيفية، ذهب بيل إلى غُرفة چورچي. كان قلبه

يتواثب بين ضلوعه، وشعر بساقيه متصلِّبتين وتتصرَّفان بخرق من فرط التوتُّر. إنه يأتي إلى غُرفة چورچ كثيرًا، لكن هذا لا يعني أنه يحب المكان. إن الغُرفة مفعمة بحضور چورچ لدرجة أنها تبدو مسكونة. دخل بيل الغُرفة دون أن يستطيع منع نفسه من التفكير أن باب خِزانة الملابس قد يُفتح محدثًا صريرًا في أيِّ لحظة، وأنه سيجد نسخة من چورچ بين القمصان والسراويل التي ما زالت مُعلَّقة بأناقة في أماكنها.. چورچ الذي يرتدي معطفًا واقيًا من المطر ممزَّقًا ومغطًّى ببُقَعٍ حمراء.. معطف بذراعٍ واحدة مُتدلِّية. ستكون عينا چورچ بيضاوين ومُريعتين، كعيون الموتى الأحياء في أفلام الرعب، وعندما سيخرج من الخِزانة سيُصدر حذاؤه المطَّاطي صوتًا اسفِنجيًّا وهو يسير عبر الغُرفة مُتَّجهًا إلى حيث يجلس على الفراش مُتيبِّسًا مكانه من الذُعر. عندما تنقطع الكهرباء أحيانًا في بعض الليالي التي يكون فيها بيل هنا على فراش چورچ يتأمَّل الصور على حائطه أو النماذج والألعاب التي تعلو المنضدة، كان يشعر بأن أزمة قلبية -مُميتة غالبًا- على وشك أن تضرب قلبه في خلال عشر ثوانٍ أو نحو ذلك. لكنه دخل الغُرفة على أيِّ حال. ففي قرارة نفسه، ظلَّت حاجة صامتة ومُلِحَّة تحارب ذعره من شبح چورچ، في محاولة لتخطي موت أخيه والعثور على طريقة لائقة لمواصلة الحياة. لا لنسيان أمره، بل لإيجاد طريقة لا تجعل لرحيله هذا الوقع اللعين البشع. كان يتفهَّم أن والديه لا ينجحان كثيرًا في هذا، وإذا كان سيفعل الأمر لنفسه، فسيتحتَّم عليه أن يفعله بنفسه.

لكن لم يكن هذا يعني أنه جاء من أجل ذاته فقط، بل هو أتى من أجل چورچ أيضًا. لكم أحب بيل چورچ. بالنسبة إلى أخ وأخيه، كان الاثنان منسجمين تمامًا. أوه، بالطبع كان لهما لحظاتهما المُزعجة (كأن يعتصر بيل جلد ساعد چورچ بقوَّة حتَّى يصرخ، أو أن يشي چورچ ببيل عندما يهبط الأخير إلى الدور الأرضي ليلًا بعد أن تُطفأ الأنوار ويلتهم باقي حلوى كريمة الليمون المُثلَّجة)، لكنهما كانا منسجمين في أغلب الأوقات، وبالرغم من أن موت چورچ كان أمرًا سيِّئًا تمامًا، إلا أن بالنسبة إلى بيل، كان تحويل أخيه إلى شبح مُرعب أمرًا أسوأ بمراحل.

الحقيقة أنه يفتقد هذا الصبي الصغير بشِدَّة. يفتقد صوته.. يفتقد ضحكته..

يفتقد الطريقة التي ترمق بها عينا چورچ عينيه بثقة، متيقنتين بأن لدى بيل أجوبة عن أيٍّ أسئلة تدور في رأسه. لكن ثمَّة شيئًا آخر غريبًا إلى حدٍ كبير: لقد مرَّت على بيل فتراتٌ شعر فيها أن أكثر وقت شعر فيه بالحب نحو چورچ كان في أثناء خوفه. لأنه حتَّى وهو خائف -حتَّى وهو يجيش بهذه الخيالات عن أن نسخة ميِّتة حيَّة من چورچ رُبَّما تترصَّده داخل خِزانة الملابس أو تحت الفراش- يستطيع تذكُّر أنه يحب چورچ أكثر وهو هنا في غرفته، وأن چورچ يحبه.

وفي خضم جهوده للتوفيق بين هذه الشعورين -حبه وذعره- شعر بيل أنه صار أقرب لإيجاد الموضع الذي يكمُن فيه القبول والرضا النهائيان.

لم تكن هذه أشياء يستطيع البوح بها لأحد. بالنسبة إلى عقله الصبي، لم تكن هذه الأفكار سوى خليط فوضوي غير مُتَّسق؛ لكن قلبه الطيب والراغب فهم الأمر، وهذا كل ما يهم.

أحيانًا كان يجلس يتصفَّح كُتُب چورچ، وأحيانًا كان يعبث بألعابه.

لكنه لم ينظر في ألبوم صور چورچ منذ ديسمبر الماضي.

الآن -في تلك الليلة التي أعقبت لقاءه ببن هانسكوم- فتح بيل باب خِزانة ملابس چورچ وجذب الألبوم الموضوع على الرَّفِ العلوي (سريعًا كالعادة خوفًا من أن يلمح چورچي واقفًا هناك في الظلام الخانق بين الملابس المُعلَّقة، مُرتديًا معطفه الأصفر الدامي، متوقِّعًا -كالعادة أيضًا- رؤية يدٍ شاحبة زلقة الأصابع تمتد من الظلام لتمسك بذراعه).

كانت الكلمة الذهبية الكبيرة على غلاف الألبوم تقول: صوري. أسفلها، ملصقة بشريطٍ لاصق تقشَّر الآن وحال لونه إلى الأصفر، توجد الكلمات التالية مطبوعة بعناية: چورچ إلمر دِنبروه، 6 سنوات. أخذ بيل الألبوم وعاد إلى الفراش الذي اعتاد چورچ النوم عليه وقلبه يدُق بقوَّة أعنف بكثيرٍ من أيِّ وقتٍ مضى. إنه لا يعرف السبب الذي جعله يُخرج الألبوم مرَّة ثانية، بعدما حدث في ديسمبر...

نظرة أخرى، هذا كل شيء. فقط لتقنع نفسك أن المرَّةَ الأولى كانت وهمًا. تلك المرَّة الأولى لم تكن سوى عقلك يُعابث نفسه.

حسنًا، كانت هذه الفكرة تبدو مقبولة على أيِّ حال.

بل قد يتَّضح أنها حقيقية أيضًا. لكن بيل شك في أن الألبوم نفسه هو ما يعبث به. إنه يحمل سحرًا وفتنة مُعيَّنتين لا ريب فيهما بالنسبة إليه. ذلك الشَّيءُ الذي رآه، أو الذي ظنَّ أنه رآه...

فتح بيل الألبوم الآن. كان مليئًا بالصور التي ألحَّ چورچ على أمه وأبيه وأعمامه وعمَّاته كي يعطوها له. لم يكن چورچ يهتم ما إذا كانت الصور تعرض أشخاصًا أو أماكنَ يعرفها من عدمه. كانت فكرة التصوير ذاتها هي ما تخلب لُبَّهُ. عندما كان چورچ يفشل في إزعاج أيِّ شخصٍ بإلحاحه، مُستجديًا إيَّاه أن يعطيه صورة جديدة ليضعها في الألبوم، كان يجلس بساقين معقودتين على فراشه حيث يجلس بيل الآن وينظر إلى الصور القديمة، مُقلِّبًا الصفحات برفق، مُتفحِّصًا اللحظات المُجمَّدة في الزمن بالأبيض والأسود. ها هي صورة لأمه وهي شابة وتبدو مُذهلة تمامًا.. وهنا والدهما -الذي لم يتخطَّ الثمانية عشر عامًا بعد- يتوسَّط ثلاثة شباب يحمل جميعهم بنادق ويقفون مُبتسمين فوق جُثَّة آيل مفتوحة العينين.. ها هو العم هويت يقف فوق بعض الصخور ويحمل سمكة بيكريل.. وصورة للعمَّة فورتونا في معرض ديري الزراعي تنحني بفخرٍ جوار سلَّة مليئة بحبَّات الطماطم التي زرعتها بنفسها. ها هي صورٌ متنوِّعة لسيَّارة بويك عتيقة، وكنيسة، ومنزل، وطريق يؤدِّي من مكانٍ ما إلى مكانٍ ما. كل هذه الصور التي التقطها أشخاصٌ مجهولون لأسبابٍ مجهولة محبوسة هنا في ألبوم طفلٍ ميِّت.

ها هي صورة رأى فيها بيل نفسه في سنِّ ثلاث سنوات، وهو مستلقٍ على فراش مُستشفى بعمامة من الضمَّادات تُغطي شعره. كانت الضمَّادات تلتف حول وجنتيه وأسفل فكِّه المكسور. لقد صدمته سيَّارة قديمًا في ساحة انتظار متجر أيه أند بي في الشارع الأوسط. إنه يتذكَّر أقل القليل عن فترة مكوثه في المُستشفى، كل ما يتذكَّره أنهم كانوا يُطعمونه مخفوق الحليب بالأيس كريم عبر شفَّاطة، وأن رأسه ظلَّ يؤلمه بفظاعة ثلاثة أيَّام.

هنا صورة للعائلة مُجتمعة في حديقة المنزل، وبيل يقف جوار أمه ممسكًا يدها، بينما چورچ الذي لم يزل طفلًا بعد يغفو بين ذراعي زاك. هنا...

لم تكن هذه نهاية الألبوم، لكن الصفحة الأخيرة هي التي تهم حقًّا، لأن الصفحات التالية كلها فارغة. الصورة الأخيرة كانت صورة مدرسة التُقطت لچورچي في أكتوبر من العام الفائت، قبل عشرة أيَّام من موته. في الصورة، كان چورچ يرتدي تيشيرت بلا ياقة، وشعره المُبعثر مُملَّسًا ومُصفَّفًا بالماء. كان يبتسم كاشفًا عن فراغين لم تنم فيهما سنَّتان جديدتان قط. إلا إذا كانت الأسنان تواصل النمو بعد الموت. هكذا فكَّر بيل، وارتجف.

نظر بيل بثبات إلى الصورة بعض الوقت، وكان على وشك إغلاق الكتاب عندما تكرَّر ما حدث في ديسمبر الماضي.

تحرَّكت عينا چورچ في الصورة، والتفتت ناظرة مُباشرةً في عيني بيل. استحالت ابتسامة چورچ المُصطنعة إلى ابتسامة خبيثة بشعة. ثم أغلقت عيناه اليُمنى في غمزة ذات معنى: أراك قريبًا يا بيل. في خزانة ملابسي. ربَّما الليلة.

طوَّح بيل الكتاب على طول ذراعه عبر الغُرفة، وغطَّى فمه بيديه.

ارتطم الكتاب بالحائط وسقط مفتوحًا على الأرض. أخذت الصفحات تُطوَى رغم عدم وجود تيَّار هواء. ثم فتح الكتاب نفسه على الصورة المُريعة مرَّة أخرى، الصورة التي كُتِب أسفلها أصدقاء المدرسة 1957–1958...

وبدأ الدَّم يتدفَّق من طرفها.

تجمَّد بيل مكانه في ذعر، وقد تشنَّج لسانه إلى أن صار كُتلة مُنتفخة تخنقه، وانتصب الشَّعر في جميع جسده مع زحف القشعريرة الذي غزا جلده. أراد أن يصرخ، لكن لم يخرج من حلقه سوى صوت نشيج خافت كان هو كل ما يقدر عليه.

فاضت الدماء عبر الصفحات وبدأت تسيل على الأرض.

فرَّ بيل راكضًا من الغرفة، وصفع الباب خلفه غالقًا إيَّاه.

الفصل السَّادس

أحد المفقودين: حكاية من صيف 1958

1

لم يُعثر عليهم جميعًا. لا لم يُعثر عليهم جميعًا؛ ومن حينٍ إلى آخر كانت افتراضات خاطئة تُحاك.

2

مقتطف من جريدة أخبار ديري، عدد 21 يونيو 1958 (الصفحة الأولى):

صبيٌ مفقود يؤجِّج مخاوفَ جديدة

الصبي إدوارد إل كوركوران القاطن في 73 شارع شارتر في مدينة ديري أُبلغ أنه في عداد المفقودين ليلة أمس مِن قِبَل أمه مونيكا ماكلين وزوج أمه ريتشارد بي ماكلين. صبي آل كوركوران في العاشرة من عمره، وقد أثار اختفاؤه مخاوف جديدة تتعلَّق بأن الأطفال في ديري يُجرى التربُّص بهم من قِبل قاتلٍ طليق.

وقد صرَّحت السيِّدة ماكلين أن الصبي متغيِّب عن المنزل منذ يوم 19 يونيو، عندما لم يعُد من المدرسة في آخر يوم دراسة قبل الإجازة الصيفية.

وعندما سُئِل كل من السيِّد والسيِّدة ماكلين عن سبب انتظارهما أربعًا وعشرين ساعة قبل الإبلاغ عن فقد ابنهما، رفض كلاهما التعليق. أيضًا رفض رئيس الشُرطة ريتشارد بورتون التعليق بدوره، لكن مصدرًا من داخل قسم الشُرطة أخبر مُحرِّر الجريدة أن علاقة الصبي كوركوران بزوج أمه لم تكن جيِّدة، وأنه اعتاد أن يمضي أيَّامًا خارج المنزل من قبل، وقد افترض المصدر أن درجات الصبي النهائية في الدراسة رُبَّما لعبت دورًا في عدم رجوعه

إلى المنزل حتَّى الآن. هذا وقد رفض ناظر مدرسة ديري الابتدائية هارولد ميتكالف التعليق على درجات الصبي في الاختبارات النهائية، مُشيرًا إلى أنها مسألة ليست من الشأن العام.

وفي الليلة الماضية، علَّق رئيس الشُرطة بورتون قائلًا: «آمُل ألَّا يثير اختفاء هذا الطفلِ مخاوف لا داعيَ لها. إن المجتمع مهموم وقلق وهذا مفهوم، لكنني أودُّ التأكيد على حقيقة أننا نتلقَّى من ثلاثين إلى خمسين بلاغًا عن قُصَّر مفقودين كل عام، يتَّضح أن أغلبهم أحياء وبصحَّة جيِّدة خلال أسبوع من البلاغ، وستكون هذه الحالة مع إدوارد كوركوران بمشيئة الله».

كما كرَّر بورتون أيضًا قناعته الرَّاسخة أن حوادث قتل چورچ دِنبروه، وبيتي ريبسوم، وشيريل لامونيكا، وماثيو كليمنتس، وڤيرونيكا چورچان ليست من عِمل شخصٍ واحد. «ثمَّة فروق جوهرية في كل جريمة». هكذا قال بورتون، لكنه امتنع عن التفسير. أيضًا أضاف أن الشُرطة المحلِّية -التي تعمل بتعاونٍ وثيق معِ مكتب مُدَّعي ولاية مين العام- ما زالت تتبَّع عددًا من الخيوط، وعندما سُئِلَ فيِ حوارٍ عبر الهاتف عن هذه الخيوط، أجاب الرئيس بورتون أنها: «واعدة جدًّا»، وعندما سُئِلَ إذا كان من المتوقَّع ضبط مُرتكب أيٍّ من هذه الجرام قريبًا، رفض بورتون التعليق.

مُقتطف من جريدة أخبار ديري، عدد 22 يونيو 1958 (الصفحة الأولى):

المحكمة تُصدِر أمرًا صادمًا بنبش القبور

في تطوُّرٍ جديد وغريب في قضية اختفاء الصبي إدوارد كوركوران، أمر إيرهارت كيه مولتون قاضي محكمة ديري أمس بنبش قبر شقيق كوركوران الأصغر دورسي واستخراج جُثَّته، وقد جاء أمر المحكمة بِناءً على طلب مشترك من المُدَّعي العام للمُقاطعة وطبيبها الشرعي.

تُوفي دورسي كوركوران، الذي كان يعيش بدوره مع أمه وزوج أمه في المنزل رقم 73 شارع شارتر، بسبب ما قيل أنه أسباب عارضة في مايو من عام 1957. كان الصبي قد أُحضِرَ إلى مُستشفى ديري العام وهو يُعاني من كسور متعددة بما في ذلك كسر في الجمجمة، وكان زوج أم الصبي، ريتشارد بي ماكلين، هو من أودعه غُرفة الطوارئ، وقد ذكر أن دورسي كوركوران كان

يلعب على السُّلَم النقَّال في المرآب ويبدو أنه سقط من أعلاه. توفي الصبي دون أن يستعيد وعيه بعدها بثلاثة أيَّام.

هذا وكان الصبي إدوارد كوركوران (عشر سنوات) قد أُبلِغَ عن اختفائه في ساعة مُتأخِّرة من يوم الأربعاء الماضي، وردًّا على سؤال ما إذا كان السيِّد أو السيِّدة ماكلين يُشتبه في ضلوع أحدهما أو كليهما في وفاة الصبي الصغير أو اختفاء الصبي الأكبر سنًّا، امتنع رئيس الشُرطة ريتشارد بورتون عن التعليق.

مُقتطف من جريدة أخبار ديري، عدد 24 يونيو 1958 (الصفحة الأولى):

ضبط وإحضار ماكلين بتهمة ضرب أفضى إلى موت
والاشتباه بضلوعه في واقعة الاختفاء المُعلَّقة

دعا ريتشارد بورتون رئيس شُرطة ديري إلى مؤتمرٍ صحفي للإعلان عن أن ريتشارد بي ماكلين، القاطن في 73 شارع شارتر، قد تم اعتقاله ووُجِّهت إليه تُهمة قتل ربيبه دورسي كوركوران.. وكان الصبي كوركوران قد تُوفيَ في مُستشفى ديري العام من جراء «أسباب عارضة» في 31 مايو من العام الماضي.

وقد صرَّح بورتون قائلًا: «أوضح تقرير الطبيب الشرعي أن الصبي ضُرِبَ بعُنفٍ»، وعلى الرغم من ادِّعاء ماكلين أن الصبي سقط من على سُلَّم وهو يلعب في المرآب، قال بورتون إن تقرير الطبيب الشرعي أظهر الضرب المُبرح الذي مُورِسَ عليه بأداةٍ حادة، وردًّا على سؤال عن ماهية الآلة، علَّق بورتون: «غالبًا مطرقة. الشيء الهام الآن هو استنتاج الطبيب الشرعي بأن الصبي ضُرب ضرباتٍ مُتكرِّرة بأداة صلبة بما يكفي لكسر عظامه، وأن ليست جميع الجروح -تحديدًا تلك التي في جمجمته- تتَّفق على الإطلاق مع تلك التي قد يُصاب بها صبي من جراء سقطة. لقد ضُرِب دورسي كوركوران حتَّى شارف الموت، ثم أُلقي في غُرفة الطوارئ بالمُستشفى العام ليلقى حتفه».

وردًّا على سؤال ما إذا كان الأطبَّاء الذين عالجوا الصبي كوركوران أهملوا في أداء واجبهم عندما لم يُبلغوا عن واقعة اعتداء على طفل أو ذِكْر السَّبب الحقيقي للوفاة، قال بورتون: «جميعهم ستكون لديهم أسئلة عسيرة ليُجيبوا عنها عند مثول السيِّد كوركوران أمام المحكمة».

وعندما سُئِل عن رأيه حول كيفية تأثير هذه التطوُّرات على اختفاء شقيق دورسي كوركوران الأكبر إدوارد، الذي أُبلغ عن اختفائه من قِبَل ريتشارد ومونيكا ماكلين منذ أربعة أيَّام، أجاب رئيس الشُرطة بورتون: «أظنُّ أن الأمر يبدو أكثر خطورة ممَّا افترضنا في البداية، ألا ترى ذلك؟».

مُقتطف من جريدة أخبار ديري، عدد 25 يونيو 1958 (الصفحة الثانية):

مُدرِّسة تقول إن إدوارد كوركوران «كثيرًا ما كان يأتي مكدومًا»

قالت السيِّدة هنريتا ديومونت -التي تُدرِّس للصَّف الخامس في مدرسة ديري الابتدائية الكائنة في شارع چاكسون- إن إدوارد كوركوران الذي أُبلِغ أنه في عداد المفقودين لقرابة أسبوع الآن كثيرًا ما كان يأتي إلى المدرسة «ووجهه مليء بالكدمات والرضوض»، وأضافت السيِّدة ديومونت، التي لم تتوقَّف عن تدريس تلاميذ أحد فصلي الصَّف الدراسي الخامس في مدرسة ديري منذ الحرب العالمية الثانية، أن الصبي كوركوران جاء إلى المدرسة في أحد الأيَّام قبل اختفائه بثلاثة أسابيع «بكلتا عينيه مُغلقتين ومتورِّمتين، وعندما سألته ماذا حدث له، قال لي إن والده 'أوسعهُ ضربًا' لأنه لم يأكُل طعامه».

وعندما سُئِلت السيِّدة ديومونت لماذا لم تُبلغ الشُرطة بمثل هذا الضرب القاسي، قالت: «ليست هذه المرَّة الأولى التي أرى فيها شيئًا كهذا في سنوات عملي الطويلة كمُدرِّسة. في المرَّات الأولى القليلة، كان لديَّ تلميذ لا يعي والده الفرق بين الضرب والتهذيب، وقد حاولت فعل شيئًا تجاه الأمر. لكنني أُخبرت من قِبَل مُساعدة المُدير -التي كانت جويندولين رايبرن في تلك الأيَّام- أن أظلَّ بعيدة عن الأمر، وأخبرتني أنه عند تورُّط موظفي المدرسة في الحالات التي يُشتبه فيها سوء معاملة أطفالٍ، فإن الأمر دائمًا ما ينقلب على إدارة المدرسة في وقت تقديم الاعتماد الضريبي. ذهبت بعدها إلى مدير المدرسة الذي أمرني بأن أنسى الأمر وإلا سأحظى بلفت نظر. سألته إن كان لفت النَّظر على أمرٍ كهذا سيوضع في ملفِّي، فقال لي إن لفت النَّظر ليس لزامًا أن يوضع في ملف المُعلِّم، ففهمت الرسالة».

وبالسؤال عمَّا إذا كانت المسائل في مدرسة ديري ما زالت تُدار بالطريقة نفسه، أجابت مسز ديومونت: «حسنًا، ماذا يتَّضح لك في ضوء الموقف

الحالي؟ وأريد أيضًا أن أُضيف أنني لم أكن سأتحدَّث إليك بأريحية إذا لم أكن سأتقاعد في نهاية العام الدراسي الحالي».

وواصلت مسز ديومونت كلامها قائلة: «مُنذ أن عرفت بأمر هذه الواقعة وأنا أركع كل يوم وأدعو الله أن يكون إيدي كوركوران قد سأم العيش في كنف زوج أمه البهيمة هذا وأنه فرَّ بحياته. أدعو أن يعود إيدي إلى المنزل عندما يسمع في الأخبار، أو يقرأ في الصُحُف، خبر اعتقال ماكلين».

من ناحية أُخرى، دحضت مونيكا ماكلين –في مقابلة هاتفية قصيرة– التُهَم التي وجَّهتها مسز ديومونت: «لم يعتدِ ريتش على دورسي قط، ولا على إدي. أنا أخبرك بذلك الآن، وعندما سأموت سوف أقف أمام عرش الحق وسأنظر مُباشرةً في عيني الرَّب وسأخبره بالشيء ذاته».

مُقتطف من جريدة أخبار ديري، عدد 28 يونيو 1958 (الصفحة الثانية):

«أبي اضطر أن يضربني لأنني ولد سيئ» كلمات طفلٍ إلى مُدرِّسته في الحضانة قُبيل ضربه حتَّى الموت

صرَّحت مُدرِّسة في إحدى الحضانات المحلِّية بعد أن رفضت الكشف عن هويتها لمُراسل الجريدة أمس أن الصبي دورسي كوركوران جاء إلى فصله في الحضانة قبل أقل من أسبوع من وفاته في حادث المرآب المزعوم، بكدمة سيِّئة نتيجة التواء إبهامه الأيمن وثلاثة أصابع أُخرى من الكف نفسه.

قالت مُدرِّسة الحضانة: «كانت يد الصغير البائس تؤلمه بشدَّة لدرجة أنه لم يستطع تلوين مُلصق السيِّد دو لتعليمات السلامة. كانت أصابعه مُنتفخة كالنقانق، وعندما سألت دورسي عمَّا حدث أجابني أن أباه (أو زوج أمه ريتشارد بي ماكلين) قد لوى أصابعه إلى الوراء لأنه سار على الأرضية التي انتهت أمه من مسحها وتلميعها لتوِّها. ‹أبي اضطرَّ أن يضربني لأنني ولد سيئ›، هذا ما قاله على حدِّ تعبيره. شعرت أنني سأبكي وأنا أرمق أصابعه البائسة العزيزة. لقد كان يرغب في تلوين مُلصقه كباقي الأطفال، لذا أعطيته بعض الأسبرين وتركته يُلوِّن بينما الأطفال الآخرين يستمعون إلى قِصَّة. لكم كان إيدي يحب تلوين مُلصقات السيِّد دو، كان هذا أكثر شيءٍ يحب فعله، وأنا سعيدة جدًّا الآن لأنني استطعت منحه بعض السرور في ذلك اليوم».

«عندما توفي، لم يخطر ببالي قط التفكير أن الأمر قد يكون أيَّ شيءٍ آخر سوى حادث. في البداية فكَّرت أنه لا بُدَّ سقط لأنه لم يستطِع التشبُّث جيِّدًا بيده المصابة تلك. الآن أظنُّ بأنني لم أكن قادرة وقتها على تصديق أن شخصًا بالغًا قد يفعل شيئًا كهذا بطفلٍ صغير.. لكن ها أنا ذا أعلم، ولكم كنت أتمنَّى من الله أن أظل على جهلي».

ما زال إدوارد -شقيق دورسي كوركوران الأكبر- مفقودًا.. ومن عنبره في سجن مُقاطعة ديري، يواصل ريتشارد ماكلين إنكار أيِّ صلةٍ له بوفاة ابن زوجته الأصغر، أو في اختفاء ولدها الأكبر.

مُقتطف من جريدة أخبار ديري، عدد 30 يونيو 1958 (الصفحة الخامسة):

مصدر يدَّعي: استجواب ماكلين في قضيتي مقتل چورچان وكليمنتس يؤكِّد براءته منهما

مُقتطف من جريدة أخبار ديري، عدد 6 يوليو 1958 (الصفحة الأولى):

رئيس الشُرطة بورتون: ماكلين مُتَّهم فقط في قضية قتل ربيبه دورسي وإدوارد كوركوران ما زال مفقودًا

مُقتطف من جريدة أخبار ديري، عدد 24 يوليو 1958 (الصفحة الأولى):

زوج الأم الباكي يعترف بضرب ربيبه بمطرقة ما أفضى إلى موته

في تطوُّرٍ دراماتيكي في مُحاكمة ريتشارد ماكلين المُتَّهم بقتل ربيبه دورسي كوركوران المنعقدة في محكمة المُقاطعة، تحطَّمت إرادة ماكلين تحت الاستجواب الدقيق والقاسي من قِبَل مُحامي المُقاطعة برادلي ويتسون، واعترف أنه ضرب الضحية البالغة من العمر أربع سنوات حتَّى الموت بمطرقة اسكتلندية الطراز قليلة الارتداد، تلك التي دفنها بعد ذلك في نهاية حديقة الخضر التي تزرعها زوجته، قبل اصطحاب الصبي إلى غُرفة طوارئ مُستشفى ديري العام.

ذُهلت قاعة المحكمة وعمَّها الصَّمت في أثناء ما راح ماكلين الباكي -الذي اعترف قبل ذلك بضرب كلا ابني زوجته «أحيانًا، عندما يُسيئان التصرُّف، ومن أجل مصلحتهما»- يسرد قصَّته.

- «لا أعرف ماذا ألمَّ بي. لقد رأيته يتسلَّق السُّلَّم اللعين مرة أخرى،

فجذبت المطرقة من الدَّكة التي كانت موضوعة عليها، وبدأت باستخدامها عليه فحسب. لم أقصد قتله. الله شهيدي أنني لم أقصد قتله قط».

سأله ويتسون: «هل قال أيَّ شيءٍ قبل أن يفقد وعيه؟».

أجابه ماكلين: «قال لي: 'توقَّف يا أبي، أنا آسف، أنا أحبك'.».

- «وهل توقَّفت؟».

قال ماكلين: «في النهاية».

ثم انفجر في البُكاء بعدها بطريقة هِستيرية حتَّى إن القاضي إيرهارت مولتون اضطُرَّ إلى رفع الجلسة.

مُقتطف من جريدة أخبار ديري، عدد 18 سبتمبر 1958 (الصفحة السَّادسة عشر):

أين إدوارد كوركوران؟

يواصل زوج الأم ماكلين -الذي حُكِمَ عليه بالسجن مدَّة تتراوح بين سنتين وعشر سنوات في سجن شواشانك الحكومي لقتله شقيق إيدي البالغ من العمر أربع سنوات دورسي- الادِّعاء بأنه ليست لديه أدنى فكرة عن مكان إدوارد كوركوران، وقد قالت أمه -التي تسير في إجراءات دعوى طلاقها من ريتشارد بي ماكلين- إنها تظن أن زوجها -الذي سيصير طليقها قريبًا- يكذب. فهل هو يكذب حقًّا؟

«بالنسبة إليَّ، لا أعتقد أنه يكذب». هكذا قال الأب آشلي أوبراين، الذي يخدم المسجونين الكاثوليك في سجن شواشانك. لقد بدأ ماكلين تلقِّي دروسٍ في الإيمان الكاثوليكي بعد فترة وجيزة من بدء فترة سجنه، والأب أوبراين قد أمضى أوقاتًا كثيرة معه. «إنه آسف بإخلاص عمَّا ارتكبه». هكذا واصل الأب أوبراين كلامه، مُضيفًا أنه عندما سأل ماكلين للمرَّة الأولى عن السَّبب الذي جعله يرغب في أن يصير كاثوليكيًّا، أجابه ماكلين: «سمعت أن لديهم مبدأ التوبة، وأنا بحاجة إلى كثيرٍ منها وإلا سوف أذهب إلى الجحيم عندما أموت».

قال الأب أوبراين: «إنه يُدرك جيِّدًا ما فعله بالصبي الصغير، وإذا كان قد فعل شيئًا بأخيه الأكبر، فهو لا يتذكَّره. لذا بغض النظر عمَّا قد حدث لإدوارد، فهو يظن أن يديه لم تتلوَّثا به».

السؤال الذي ما زال يؤرِّق سُكَّان ديري حتَّى الآن هو: ما مدى نظافة يدي ماكلين فيما يتعلَّق بربيبه إدوارد؟ الأمر المؤكَّد أنه بُرِّئ تمامًا من جرائم قتل الأطفال الأخرى التي وقعت هنا، فقد استطاع تقديم أدلَّة غياب لا تدحض بخصوص الجرائم الثلاث الأولى، وقد كان في السجن عندما وقعت السبع جرائم الأخرى في أواخر يونيو، ويوليو، وأغسطس.

لم تزل الجرائم العشر دون حل.

في حوارٍ حصري مع جريدة أخبار ديري جرى الأسبوع الماضي، أكَّد ماكلين مرَّة أخرى أنه لا يعلم أيَّ شيءٍ عن اختفاء أو مكان إدوارد كوركوران. «كنت أضربهما»، هكذا قال في مونولوج مؤلم تخلَّلته نوبات بكاء كثيرة «لقد أحببتهما، لكنني اعتدت ضربهما. لا أعرف السَّبب، ولا أعرف لماذا لم تكن مونيكا تعترضني، ولا لماذا تكتَّمت على ما فعلت بعد موت دورسي. كان يُمكن أن أقتل إيدي كما قتلت دورسي، لكنني أقسم أمام الرَّب وأمام يسوع وأمام كل القدِّيسين في السماء أنني لم أفعل. أعرف كيف يبدو الأمر، لكنني لم أفعلها. أظنُّ أنه فرَّ من المنزل فحسب، وإذا كان قد فعل، فهذا أحد الأشياء التي ينبغي أن أشكر الرَّب عليها».

وعندما سُئِل إذا كان يعلم عن وجود أيِّ سقطات في ذاكرته، وهل من المحتمل أن يكون قتل إدوارد ثم طرد الذكرى بعيدًا عن عقله، أجاب ماكلين: «لا أعلم عن وجود أيِّ ثغرات في ذاكرتي. أنا أعرف جيِّدًا ما فعلت. لقد وهبت حياتي للمسيح، ولسوف أقضي البقية الباقية منها في محاولة التكفير عمَّا ارتكبته».

مُقتطف من جريدة أخبار ديري، عدد 27 يناير 1960 (الصفحة الأولى):

بورتون رئيس الشُرطة يُعلن: الجُثَّة المُنتشلة ليست جُثَّة صبي آل كوركوران

أخبر رئيس قسم شُرطة ديري ريتشارد بورتون المُراسلين باكرًا صباح اليوم أن الجُثَّة شديدة التحلُّل التي تنتمي إلى صبي في عمر إدوارد كوركوران تقريبًا -الذي اختفى من منزله في ديري في شهر يونيو عام 1958- ليست قطعًا جُثَّة الصبي المفقود. عُثِرَ الجُثَّة عليها في مدينة آينسفورد في ولاية

ماساتشوستس مدفونة في منجم حصى. في البداية، افترضت شُرطة ولاية مين وشُرطة ماساتشوستس أن الجُثَّة قد تكون جُثَّة الصبي كوركوران، ظانين أن مُتحرِّشًا جنسيًا اختطفه بعد هروبه من منزله في شارع شارتر حيث تعرض شقيقه الأصغر للضرب والقتل.

وقد أظهر فحص الأسنان بشكلٍ قاطع أن الصبي الذي عثر عليه في آينسفورد ليس صبي آل كوركوران، الذي اختفى منذ تسعة عشر شهرًا.

مُقتطف من جريدة بورتلاند الرسمية، برس هيرالد، عدد 19 يوليو 1967 (الصفحة الثالثة):

قاتل مُدان ينتحر في مدينة فالماوث

عُثر على ريتشارد بي ماكلين -الذي أُدين بجريمة قتل ربيبه الأصغر ذي الأربع سنوات منذ تسعة أعوام- ميِّتًا في شقته في الطابق الثالث بمدينة فالماوث في وقتٍ مُتأخِّر من عصر أمس. كان السجين الذي أُطلِق سراحه يعيش ويعمل بهدوء في فالماوث منذ تسريحه من سجن شواشانك الحكومي في 1964، ومن الواضح أنه انتحر.

«الرسالة التي تركها تُشير إلى حالة عقلية مُشوَّشة بشدَّة»، هكذا صرَّح براندون كيه روش مُساعد قائد شرطة فالماوث، رافضًا الكشف عن محتويات الرسالة. لكن مصدرًا في إدارة الشرطة قال إنها تتألَّف من جملتين: «لقد رأيت إيدي الليلة الماضية. كان ميِّتًا».

إيدي المذكور في الرسالة قد يكون ربيب ماكلين، وشقيق الصبي الذي أُدين ماكلين بقتله في عام 1958، ولقد كان اختفاء إدوارد كوركوران ما بدأ سلسلة أحداث أدَّت في النهاية إلى إدانة ماكلين بضربٍ أفضى إلى موت شقيق إدوارد الأصغر دورسي. في حين أن الأخ الأكبر ما زال في عداد المفقودين لقُرابة تسع سنوات الآن، وفي دعوى قضائية قصيرة أُقيمت في عام 1966، أعلنت والدة الصبي عن وفاة ابنها قانونًا كي تتمكَّن من وضع يدها على حساب ادِّخار إدوارد كوركوران. كان الحساب يحوي مبلغًا قدره ستَّة عشر دولارًا.

2

كان إدوارد كوكوران ميِّتًا، بل شبع موتًا.

لقد مات ليلة التاسع عشر من شهر يونيو، ولم يكن لزوج أمه أيُّ دخلٍ بموته. لقد مات في الوقت الذي كان فيه بن هانسكوم يُشاهد التلفاز مع أمه.. في الوقت الذي تلمَّست فيه أم إدي كاسبراك جبينه بحثًا عن عرض يدل على وجود مرضها المُفضَّل: «الحُمَّى الوهمية».. في الوقت الذي ركل فيه زوج أم بيڤرلي مارش -وهو چنتلمان مُهذَّب يشبه زوج أم إدوارد كوركوران، مزاجيًّا على الأقل- بيڤي في مؤخِّرتها وأخبرها أن «اذهبي وجفِّفي تلك الصحون اللعينة كما أخبرتك أمك».. في الوقت الذي مرَّ فيه بعض الأولاد في الثانوية العامة (سينجب أحدهم بعد سنوات ذلك الشاب اليافع حسن الخُلق المُعادي للمثليين چون جارتون) في سيَّارة دودچ عتيقة وسبُّوا مايك هانلون وهو يجز الأعشاب الضارة في الحديقة المجاورة لمنزل آل هانلون الصغير في شارع ويتشام القريب من مزرعة والد هنري باورز المجنون.. في الوقت الذي كان فيه ريتشي توزييه يختلس النَّظر إلى الفتيات نصف العاريات في ذلك العدد من مجلة چيم الذي عثر عليه في قاع درج جوارب والده وملابسه الداخلية، ما جعله يحظى بانتصابٍ جيِّد.. في الوقت الذي كان فيه بيل دِنبروه يلقي بألبوم صور شقيقه الميِّت عبر الغُرفة في شكٍّ مذعور.

وعلى الرغم من أن أيًّا منهم لن يتذكَّر القيام بذلك لاحقًا، رفع جميعهم رؤوسهم إلى أعلى في اللحظة ذاتها التي لقيَ فيها إيدي كوركوران حتفه... كأنهم سمعوا صيحةً ما من بعيد.

كانت جريدة أخبار ديري مُحِقَّة بالكامل بخصوص أمرٍ واحدٍ فقط: لقد أتت درجات إيدي النهائية سيِّئة بما يكفي ما جعله يخاف العودة إلى المنزل ومواجهة زوج أمه. بالإضافة إلى أن أمه والرَّجُل تشاجرا كثيرًا هذا الشهر، وهذا جعل الأمور أسوأ. عندما كانا ينخرطان في مُشاجرة حامية الوطيس، كانت والدته كثيرًا ما تصيح باتِّهاماتٍ غير مُتماسكة في الأغلب. في البداية،

يرد زوج أمه عليها بهمهماتٍ غير واضحة، تستحيل بعدها إلى صيحاتٍ آمرة بأن تخرس، وفي النهاية يبدأ في الشخر كذكر خنزيرٍ برِّي مُرغٍ ومُزبد، ومع ذلك، لم يرَ إيدي الرَّجُل يضربها قط. لم يظن إيدي أنه كان يجرؤ على ذلك، لذا كان يدَّخر قبضتيه لإيدي ودورسي في الماضي. أما الآن -بما أن دورسي قد رحل- كان إيدي يأخذ نصيب شقيقه الأصغر من الضرب، فضلًا عن نصيبه.

كانت مباريات الصراخ هذه تأتي وتمضي في دوراتٍ، وقد كانت أكثر شيوعًا في نهاية الشهر، عندما تأتي الفواتير. أحيانًا كان يأتي رجل شرطة إلى المنزل بعد استدعائه من قِبَل أحد الجيران عندما تؤول الأمور إلى أسوأ حالاتها ويُخبرهما أن يهدئا قليلًا. عادةً ما يتكفَّل ذلك بالأمر، رغم أن أمه كانت تميل أحيانًا إلى رفع إصبعها الأوسط في وجه الشُرطي وتتحدَّاه أن يأخذها معه؛ لكن زوج أمه لم يكن يتفوَّه بشيءٍ إلا نادرًا.

إن زوج أمه يخاف رجال الشُرطة، هكذا فكَّر إيدي.

اعتاد إيدي تجنُّبهما خلال هذه الفترات العصيبة. ذلك أكثر حكمة. إذا لم تكن تظن ذلك، فقط انظر إلى ما حدث لدورسي. لم يكن إيدي يعلم التفاصيل ولم يرغب في ذلك، لكن استطاع تكوين نظرية بخصوص ما حدث لدورسي. كان يظن أن دورسي وُجِد في المكان الخطأ في الوقت الخطأ: في المرآب في آخر يومٍ في الشهر. لقد أخبروه أن دورسي سقط من فوق السُّلَم النقَّال في المرآب. «لقد أخبرته ستين مرَّة أن يظل بعيدًا عنه»، هكذا قال زوج أمه، لكن أمه لم تكن تنظر إليه كثيرًا... وعندما كانت عيونهما تتلاقي، لاحظ إيدي رُعبًا شرسًا لم يحبه يلتمع في عينيها. جلس الرَّجُل صامتًا إلى منضدة المطبخ حاملًا لترًا من بيرة راينجولد، ولا ينظر إلى أيِّ شيء من أسفل حاجبيه الكثيفين المُثقلين. ظل إيدي بعيدًا عن متناول يديه. عندما يتشاجر زوج أمه ويجأر وهو ما يفعله عادةً -عادةً وليس دائمًا- تكون الأمور مأمونة الجانب، لكنك يجب أن تحذر حقًا عند صمته.

منذ ليلتين، رمى الرَّجُل مقعدًا على إيدي عندما نهض إيدي متَّجهًا إلى التلفاز ليرى ماذا تعرض القنوات الأخرى. فقط التقط أحد مقاعد المطبخ

المصنوعة من الألومنيوم، ورفعها فوق رأسه، وتركها تطير. لقد صدم المقعد إيدي في مؤخِّرته وأسقطه أرضًا. آلمته مؤخِّرته كثيرًا، لكن إيدي عرف أن الأمور كان يمكن أن تكون أسوأ: رأسهُ مثلًا.

في إحدى الليالي، نهض الرَّجُل فجأة ومَهَكَ كُتلة من البطاطس المهروسة في شعر رأس إيدي بلا سببٍ على الإطلاق، وفي أحد الأَيَّام في سبتمبر الماضي، عاد إيدي من المدرسة وترك بحماقة الباب يُصفع من خلفه مُغلقًا بينما زوج أمه يغفو غفوة القيلولة. خرج ماكلين من غرفة النوم مُرتديًا سراويل المُلاكمة القصيرة، وشعر رأسه مُنتصب كفتّاحات زُجاجات الخمر، وبوجنتين يُغطيهما شعر لحية نامية منذ يومين، وأنفاسٍ كريهة بفعل احتساء البيرة طوال يومي عطلة نهاية الأسبوع، قال: «الآن يا إيدي. يجب أن تؤدَّب لرزعك ذلك الباب اللعين»، وفي مُعجم ريتشي ماكلين لفظة «تؤدَّب» تأتي كناية عن «سأوسع مؤخِّرتك ضربًا»، وهو ما فعله بعدها بإيدي بالفعل. لقد سقط إيدي فاقدًا الوعي عندما ألقاه الرَّجُل إلى الردهة الأمامية. كانت أمه قد وضعت زوجين من علَّاقات المعاطف المُنخفِضَّة هناك له ولدورسي ليُعلِّقا معطفيهما عليها. نغزت الخطاطيف إيدي أسفل ظهره بقوَّة مع ارتطمه بها، وهذا ما أفقده وعيه. عندما عاد الوعي إليه بعد عشر دقائق سمع أمه تصرخ قائلة إنها ستأخذه إلى المُستشفى وأنه لا يستطيع منعها.

أجابها زوج أمه: «بعد ما حدث لدورسي؟ أتُريدين الذهاب إلى السجن يا امرأة؟».

كان هذا بمثابة نهاية لجدالهما عن المُستشفى. ساعدته أمه بعدها على الصعود إلى غُرفته، حيث مكث في الفراش يرتجف وجبينه يتفصَّد عرقًا. كانت المرَّة الوحيدة التي غادر فيها إيدي الغرفة خلال الثلاثة أيَّام التالية عندما لم يكن كلاهما بالمنزل. تخبَّط الصبي ببطء متَّجهًا إلى المطبخ وهو يئن بصوتٍ خفيض، وأخرج زجاجة الويسكي الخاصة بزوج أمه من أسفل الحوض. نجحت رشفات قليلة في تسكين الألم، الذي انتهى تقريبًا بحلول اليوم الخامس، لكنه ظلَّ يبول دمًّا أسبوعين بعدها.

أيضًا، لم تعد المطرقة موجودة في المرآب بعد الآن.

ماذا عن ذلك؟ ماذا عن ذلك أيُّها الأصدقاء وأيا الجيران؟

أوه، في الحقيقة المطرقة العادية ما زالت هناك. إنما المفقودة هي المطرقة الاسكتلندية قليلة الارتداد.. مطرقة زوج أمه الأثيرة، التي يحرم عليه وعلى دورسي لمسها. «إذا لمس أحدكما هذه الصغيرة، سيرتدي كلاكما أمعاءه أقراطًا في أُذُنيه»، هكذا أخبرهما في اليوم الذي اشتراها فيه. سأله دورسي بحياء ما إذا كانت تلك المطرقة باهظة الثمن، فأخبره الرَّجُل أنه مُخنَّثٌ لعين، وقال إنها محشوَّة بكُراتٍ حديدية ولا يمكن جعلها ترتد إلى الاتِّجاه المُعاكس بغض النَّظر عن مدى القوَّة التي ألقيتها به.

الآن، تلك المطرقة اختفت.

لم تكن درجات إيدي النهائية جيِّدة لأنه تغيَّب كثيرًا عن المدرسة منذ زواج أمه، لكنه لم يكن صبيًّا بليدًا على الإطلاق. إنه يظن أنه يعرف ماذا حدث للمطرقة الاسكتلندية قليلة الارتداد. إنه يظن أن زوج أمه استخدمها على دورسي ثم دفنها في الحديقة أو رُبَّما ألقى بها إلى القناة. إنه هذا من الأشياء التي تتكرَّر دائمًا في قصص الرعب المصوَّرة التي يقرأها إيدي.. القصص التي يُبقيها في الرَّف العلوي من خِزانة ملابسه.

سار إيدي قريبًا من القناة التي ترقرق ماؤها بين الحدود الخرسانية كحرير مُعالج بالزيت. التمع ضوء القمر على سطحها الداكن بشكلٍ ملتوٍ. جلس إيدي على حافَّة حائط القناة يخبط حذاءه الرياضي في الخرسانة بقرعٍ مكتوم غير منتظم الإيقاع. كانت الأسابيع الستَّة الماضية جافَّة إلى حدٍّ كبير، وكان الماء يجري على مسافة تسعة أقدام أسفل أخمص فردتي حذائه الرياضي الباليتين. لكنك إذا نظرت جيِّدًا إلى جانبي القناة، يُمكنك قراءة علامات المستويات المُختلفة التي يرتفع الماء إليها. كان الجدار الخرساني مُعلَّم بخطٍ بُنِّي داكن يعلو بالكاد منسوب ارتفاع الماء. هذه العلامة البُنِّية كانت تخفت ببطء وتستحيل صفراء، ثم إلى لونٍ يكاد يكون أبيض عند المستوى الذي يلتقي فيه كعبا حذاء إيدي مع الجدار وهو يخبطه في أثناء أرجحة قدميه.

تدفَّقت المياه في نعومة وصمت تاركة القوس الخرساني المرصوف بالحصى، عابرة البُقعة التي يجلس إيدي فيها، ثم جرت بعدها أسفل جسر

المُشاة الخشبي -جسر القُبُلات- المُعلَّق بين حديقة باسي ومدرسة ديري الثانوية. كان جانبا الجسر والألواح الخشبية -وحتَّى عوارض السقف- مُغطَّاة بنقوشٍ للحروف الأولى لأسماء ناقشيها وأرقام هواتف والكثير من التصريحات. تصريحات بالحب.. تصريحات بأن كذا وكذا أمور سيِّئة أو خراء.. تصريحات بأن أولئك المُفعمين بالهُراء والخراء سيُسلخ جلد أعضائهم الذكرية أو سيُصبُّ القطران الساخن في ثقوب مؤخِّراتهم.. تصريحات غريبة مُنحرفة تستعصي على الفهم. ثمَّة واحد منها ظلَّ يُحيِّر إيدي طوال هذا الربيع، كان يقول: أنقِذوا اليهود الروس! أُحصُلوا على جوائز قيِّمة!

ما الذي يعينه هذا بالضبط؟ أيعني أيَّ شيءٍ أصلًا؟ وهل يهُم؟

لم يذهب إيدي إلى جسر القُبُلات الليلة، فلم يكن لديه رغبة في العبور إلى جانب المدرسة الثانوية. فكَّر أنه سينام في الحديقة غالبًا. رُبَّما بين أوراق الشجر الذَّابلة تحت مسرح الغناء. لكن في الوقت الحالي، فإن الجلوس هنا فحسب أمر طيب. كان يُحب أجواء الحديقة، وكثيرًا ما يأتي إليها عندما يحتاج إلى عُزلة للتفكير. أحيانًا كان يرى شُبَّانًا وشابَّاتٍ يُقبِّل بعضهم بعضًا بين بساتين الأشجار المُنتشرة في الحديقة، لكن إيدي لم يكن يزعجهم، وكانوا يتركونه وشأنه بدورهم. لقد سَمِع قصصًا رهيبة في فناء المدرسة عن الشواذ الذين يجوبون حديقة باسي بعد مغيب الشمس، ولقد صدَّقها على الفور دون أدنى شك، لكنه لم يُقابل بنفسه ما يُزعج. إن الحديقة مكانٌ مُسالم، وكان يظن أن أفضل بقاعها تلك التي يجلس فيها حاليًا. كان يُحبها في مُنتصف فصل الصيف، عندما يكون منسوب المياه مُنخفضًا جدًّا ويخرُّ بصخب من فوق الحجارة ويتكسَّر إلى تيَّاراتٍ مُتفرِّقةٍ معزولةٍ ملتوية تلتحم أحيانًا مرَّةً أخرى. كان يُحبها في أواخر مارس وأوائل شهر أبريل، حين يقف أحيانًا قرب القناة (يكون الجو باردًا جدًّا للجلوس وقتذاك لدرجة أن مؤخِّرتك قد تتجمَّد) مُدَّة ساعة أو أكثر، وقلنسوة معطفه الفرائي -الذي صار صغيرًا عليه الآن بعد سنتين- تُحيط برأسه، ويداه مدسوستان في جيبيه، دون أن يعي أن جسده الهزيل يرتجف ويرتعش. إن للقناة حضورًا مُريعًا لا يُقاوم في فترة الأسبوع

أو الأسبوعين اللذين يتبعان ذوبان الجليد. كان يُفتن من الطريقة التي يثور بها الماء ويُزبد وهو يخرج من القوس المرصوف بالحصى ويهدر أسفله، حاملًا معه العصي وفروع الشجر وجميع أنواع القمامة البشرية. لكم تخيَّل السَّير جوار سور القناة في شهر مارس برفقة زوج أمه، وإعطاء النَّغل دفعة قوية عظيمة بنت منيوكة. بالتأكيد سيصرخ ويسقط وذراعاه تدوران في كل اتِّجاهٍ، ولسوف يعتلي إيدي الحاجز الخرساني كي يُراقبه وهو يُحمل بالتيَّار، ورأسه لا يعدو بكرة سوداء مُتخبِّطة في خضم تيَّارٍ جامحٍ مُزبد. أجل، لسوف يقف هناك، ويُحيط فمه بكفَّيه ويصيح: هذا من أجل دورسي يا ماصَّ الأعضاء الذكرية! عندما تذهب إلى الجحيم أخبر الشيطان أن آخر شيء سمعته في حياتك صوتي وهو يُخبرك أن تختار خِصمًا في حجمك! لن يحدث هذا أبدًا بالتأكيد، لكنه حلم يقظة شديد الروعة. حلم عظيم لتحلمه في أثناء جلوسك هنا على حافَّة القناة. حـ...

أطبقت يدٌ على كاحل إيدي.

كان جالسًا ينظر عبر القناة في اتِّجاه المدرسة، ويبتسم ابتسامة ناعسة جميلة نوعًا وهو يتخيَّل زوج أمه محمولًا وسط تخبُّط ذوبان الجليد الربيعي العنيف خارجًا من حياته إلى الأبد؛ لذا أفزعته القبضة الناعمة -لكن القوية تمامًا- حتَّى إنه كاد أن يفقد توازنه ويهوى ساقطًا إلى القناة.

فكَّر إيدي، إنه أحد الشواذ الذين دائمًا ما يتحدَّث عنهم الصبية الأكبر سنًّا، ثم نظر إلى أسفل. فُغِر فوه، وفقد سيطرته على مثانته فسال البول ساخنًا بين ساقيه مُحيلًا لون الچينز الأزرق إلى الأسود في ضوء القمر. لم يكن قابضه بشاذٍّ.

بل كان دورسي.

كان دورسي في الحالة التي دُفِن بها. دورسي الذي يرتدي سُترة زرقاء وسراويل رمادية، فقط كانت السُترة أسمالًا بالية موحلة، وقميصه خِرقٌ صفراء، وسراويله مُبتلة وتلتصق بساقين ناحلتين كأنهما عصوان مكنسة، وكان رأسه مُضعضعًا، كأنه انهار من الخلف وبالتالي انضغط إلى الأمام.

كان دورسي يبتسم.

نعب الشقيق المتوفَّى «إيديـــــــــــي» كأحد الموتى الذي يعودون دائمًا من قبورهم في قصص الرعب المصوَّرة التي يقرأها. اتَّسعت ابتسامة دورسي، والتمعت أسنانه الصفراء، وفي مكانٍ ما بعيد في خلفية المشهد المُعتمة تلك، بدأت الموجودات تتمعَّج.

- «إيديـــــــــي... لقد جئت لرؤيتك يا إيديـــــــــــــي».

حاول إيدي الصراخ. لكن موجات من الصدمة لفَّتهُ، واعتراه شعورٌ غريب بأنه يطفو. لكن هذا ليس حُلمًا، إنه مُستيقظ. كانت اليد المُتعلِّقة بحذائه بيضاء كبطن سمك السلمون، وكانت قدم شقيقه العارية تتشبَّث بشكلٍ ما بالحائط الخرساني. بدا أن شيئًا ما قضم أحد كاحلي دورسي.

- «تعال إلى هنا يا إيديـــــــــــــي».

لم يقوَ إيدي على الصراخ. لم يكن ثمَّة هواءٌ كافٍ في رئتيه كي يتمكَّن من الصراخ. فلت منه أنينٌ غريبٌ رفيعٌ، وبدا أن أيَّ صوتٍ أعلى من ذلك لم يكن في مقدوره. لا ضير في ذلك. فبعد ثانية أو اثنتين سينهار عقله ولن يهم شيء بعدها. كانت يد دورسي صغيرة لكن عنيدة، وقد بدأت مؤخِّرة إيدي في الانزلاق من حافَّة السور الخرساني نحو القناة.

في أثناء ما كان يصدر هذا الأنين الرفيع، مدَّ إيدي ذراعه خلفه وأمسك بحافَّة الخرسانة وجذب نفسه بعنف إلى الوراء. شعر إيدي باليد تنزلق عنه لحظيًّا، وسمع هسيسًا غاضبًا، وكان لديه وقتٌ ليُفكِّر: هذا ليس دورسي. لا أعلم ما هذا، لكنه ليس دورسي. بعدها فاض الأدرينالين في عروقه وهو يزحف مُبتعدًا، محاولًا الركض قبل حتَّى أن يقف على قدميه، وأنفاسه تخرج من صدره في صرخات قصيرة حادة.

ظهرت يدان بيضاوان على شفَّة سور القناة الخرساني، وأصدر نزولهما عليه صوت صفعٍ مُبتلًا. طارت قطرات الماء إلى أعلى في ضوء القمر من الجلد الميِّت الشَّاحب. الآن بزغ وجه دورسي من فوق الحافَّة. التمع شررٌ أحمر قاتم في عينيه الغائرتين، وكان شعره المُبتل مُلتصقًا بجمجمته، والوحل يُلطِّخ وجنتيه كعلامات الحرب.

تحرَّر صدر إيدي أخيرًا. أخذ الصبي نفسًا عظيمًا وحوَّله إلى صرخةٍ عاتيةٍ،

ثم وقف على قدميه وأطلقهما للريح. ركض إيدي وهو ينظر من فوق كتفه، راغبًا في تحديد مكان دورسي، ونتيجة لهذا التهوُّر ارتطم بعُنف في شجرة دردار ضخمة.

شعر إيدي أن أحدهم -زوج أمه مثلًا- فجَّر إصبع ديناميت في كتفه الأيسر. دارت النجوم كدوَّامةٍ في رأسه، وسقط عند قاعدة الشجرة كالمثقوب والدماء تسيل من صدغه الأيسر. سبح إيدي في بحار نصف الوعي قرابة دقيقة ونصف تقريبًا، ثم نجح في الوقوف على قدميه مرَّة أخرى. فلتت آهة منه عندما حاول رفع ذراعه اليُسرى التي لم تستجب له. شعر إيدي بالخدر في جميع جسده.. شعر بأنه ينجرف بعيدًا.. لذا رفع ذراعه اليُمنى ودعك رأسه الذي يقتله ألمًا.

ثم تذكَّر السَّبب الذي جعله يركض مُباشرةً إلى شجرة الدردار في المقام الأوَّل، وتلفَّت حوله.

ها هي حافَّة سور القناة تقبع هناك، بيضاء كالعظمة ومُستقيمة كالوتر في ضوء القمر. لا أثر للشَّيءِ الآتي من القناة، إذا كان ثمَّة شيء من الأساس، واصل الصبي الالتفات حوله، متفحِّصًا ببطء كل شبر في محيط 360 الدرجة من حوله. كانت حديقة باسي صامتة وساكنة كصورة فوتوغرافية بالأبيض والأسود. أشجار الصفصاف الباكية تُدلِّي أذرُعها المُدلهمة في الوحل، وبدا من المُحتمل أن أيَّ شيءٍ قد يكون واقفًا أو يسير بتثاقُلٍ مجنون محتجبًا بها.

بدأ إيدي يسير، محاولًا النظر في كل الاتِّجاهات في الوقت نفسه. كان كتفه الملتوي يدق في تزامُنٍ مؤلم مع نبض قلبه.

أنَّ النسيم عبر الأشجار، إيديـــــــــي، ألا تُريد رؤيتي يا إيديـــــــــي؟ شعر الصبي بأصابع جُثَّةٍ رخوة تتلمَّس جانب عُنُقه. انعطف إيدي فجأة، وارتفعت يداه إلى أعلى، ومع تشابك قدميه وتعثُّره رأى أن ما لمسه ليس سوى سعف الدردار الذي يتحرَّك مع الهواء.

نهض إيدي مُجدَّدًا. أراد أن يركض، لكنه عندما حاول شعر بإصبع ديناميت آخر ينفجر في كتفه وأُجبِر على التوقُّف. عَلِم إيدي بطريقة أو بأخرى أنه كان من المفترض أن يتغلَّب على خوفه بحلول هذا الوقت، ونعت نفسه

بالطفل الصغير الأحمق الذي أثار انعكاسٌ ما ذعره أو نعس قليلًا دون أن يشعر وحظيَ بكابوسٍ. لكن ذلك لم يحدث، بل العكس تمامًا في الواقع. كان قلبه يدقُّ بسرعة مُخيفة لم يعُد يُميِّز معها النبضات، وتأكَّد أنه سينفجر قريبًا من الذُعر. لم يكن يقدر على الركض، لكنه حينما خرج من بين سعف شجر الدردار، تمكَّن من الهرولة ببطء بعرجٍ قليل.

ثبَّت إيدي ناظريه على ضوء الشارع الذي ينير بوابة الحديقة الرئيسة. هرول إيدي في ذلك الاتِّجاه، مُزيدًا من سُرعته قليلًا وهو يُفكِّر: سأصل إلى الضوء، وسيكون كل شيء على ما يُرام. سأصل إلى الضوء، وسيكون كل شيء على ما يُرام. ضوءٌ ساطع، لا خوف بعد الآن، طوال الليل، يا له من مشهد...

ثمَّة شيءٍ يتبعه.

استطاع إيدي سماعهُ يشُقَّ طريقه عبر بستان شجر الدردار. إذا التفت إلى الوراء لسوف يراه. إنه يقترب. إنه قادرٌ على سماع خطواته الواسعة الخرقاء نوعًا الغائرة في الوحل، لكنه لن ينظر وراءً.. لا.. سينظر إلى الأمام نحو الضوء.. الضوء جيِّد.. سيواصل فحسب رحلته إلى الضوء.. ها هو قد شارف على الوصول.. بالكاد...

لكن الرَّائحة كانت ما أجبرته على النظر وراءً. الرَّائحة الغامرة التي بدت كرائحة سمك تُرِك لينتن في كومة عملاقة إلى أن صار جِيفًا ذائبة من حرارة الشمس. كانت رائحة مُحيطٍ ميِّت.

لم يكن دورسي من يتبعه الآن، بل المخلوق من البحيرة السوداء[1]. بدا أنف الشيءِ طويلًا وأفطسًا، وثمَّة سائلٌ أخضر لزج يقطر من فتحاتٍ سوداء كأنها أفواه في وجنتيه. كانت عيناه بيضاء وهُلامية القوام، وأصابعه المُبتلَّة تنتهي بمخالب حادَّة كالنصال. كان تنفُّسه فُقَّاعي الصوت وعميق، كصوت غوَّاصٍ يحمل مُنظِّم هواءٍ معطوب. عندما رأى الشَّيءُ أن إيدي ينظر، شُدَّت شفتاه الخضراوان السوداوان المُجعَّدتان كاشفة عن أنيابٍ ضخمة في ابتسامة ميِّتة خالية من التعبير.

(1) مسخ الخمسينيات الشهير من فيلم Creature from the Black Lagoon إنتاج 1954.

تعثَّر الشَّيءُ من خلفه، مُقطرًا، وفهم إدي فجأة. إنه ينوي أخذه معه إلى القناة. سوف يحمله إلى ظلام ممرَّات القناة الرَّطب تحت الأرض ليلتهمه هناك.

أطلق إيدي ساقيه للريح. اقتربت أضواء مصابيح البوَّابة أكثر، واستطاع رؤية هالة العثِّ والحشرات المُحيطة بها. مرَّت شاحنة في الشارع مُتَّجهة إلى الطريق 2، وعشَّق سائقها ناقل التروس إلى السُرعة التالية. مرَّ بعقل إيدي اليائس المذعور أنه رُبَّما يحتسي القهوة من كوبٍ ورقي ويستمع إلى إحدى أغاني بادي هولي عبر الراديو غير مُدرك تمامًا أنه على بُعد أقل من مئتي ياردة هناك صبيٌّ قد يُفارق الحياة خلال العشرين ثانية التالية.

رائحة العفونة.. رائحة العفونة الغامرة التي تزكم الأنوف.. إنها تقترب من كل مكانٍ حوله.

وجاء تعثُّره في إحدى دكك الحديقة التي أسقطها بعض الأطفال دون اكتراث سابقًا هذا المساء في أثناء اتجاههم إلى منازلهم راكضين قبل حظر التجوُّل. لقد نتأ طرف مِقعد الدكَّة بارتفاع شبرٍ واحدٍ أو اثنين من العُشب الذي تتراكب ظلاله الخضراء بعضها على بعض. لم يكن مرئيًّا تقريبًا في ذلك الظلام المدفوع بضوء القمر. ضرب طرف المقعد إيدي في قصبتي ساقيه مُسببًا ألمًا عاتيًا حادًّا. انقلبت ساقاه إلى الخارج من ورائه، ووقع إيدي بعُنفٍ على الأرض.

نظر الصبي خلفه فوجد المخلوق ينحني إلى أسفل، وعينيه البيضاوين كالبيض المسلوق تلمعان، وحراشيفه تقطر مادَّة لُعابية لزجة بلون طحالب البحر، والخياشيم على وجنتيه وعُنُقه المُنتفخ تُفتح وتُغلق تباعًا.

«آغ!». هكذا غرغر إيدي بصوتٍ مُتحشرج بدا أنه الصوت الوحيد الذي يستطيع إخراجه. «آغ! آغ! آغ! آغ!».

كان يزحف وهو يغرس أصابعه عميقًا في طبقة العُشب، ولسانه يتدلَّى خارجًا من فمه.

وفي الثانية التي سبقت إطباق المخلوق يده الشَّبقة التي تفوح منها رائحة عفونة السمك، مرَّت خاطرة مُريحة بعقله: هذا حُلم، لا بُدَّ أنه كذلك. لا

يوجد مخلوق حقيقي، ولا بُحيرة سوداء حقيقية، وحتَّى لو كانت حقيقية، فهي في أمريكا الجنوبية أو مُستنقعات فلوريدا أو أيِّ مكانٍ آخر. هذا مُجرَّد حُلم، وسأستيقظ في فراشي أو رُبَّما بين أوراق الشجر الجافة أسفل مسرح الغناء، ولسوف...

بعدها، أطبقت يدان ضُفدعيَّتان على عُنُقه، ما خنق صيحات إيدي الأجشة في حلقه.. وبينما كان المخلوق يُدير إليه، رسمت سنانير الجلد الصَّلبة التي تبرز من هاتين اليدين علاماتٍ دامية على عُنُقه. حدَّق إيدي إلى العينين البيضاوين اللامعتين، وشعر بالأغشية التي تُحيط بأصابع الشَّيءِ تضغط حنجرته كضمَّاداتٍ مصنوعة من طحالب بحرية حيَّة. لاحظ إيدي الزُعنفة المحدودبة والمصفَّحة التي تعلو رأس المخلوق ببصرٍ حادٍ شحذه الرعب، كانت شيئًا يُشبه عُرف الديك أو الزعنفة الظهرية السَّامة لسمك الهورنبوت، وعندما أُحكمت القبضتان، وانسدَّ مجرى الهواء تمامًا، رأى الضوء الأبيض المُنبعث من مصباح البوَّابة يستحيل إلى أخضر ضبابيٍّ وهو يعبر من خلال غشائي زُعنفتي رأسه.

«أنت... لست... حقيقيًّا»، هكذا قال إيدي مخنوقًا، لكن سُحُبٌ رمادية راحت تحتشد الآن من حوله، وأدرك واهنًا أن المخلوق حقيقيٌّ بما فيه الكفاية.. فهو يسلبه الآن حياته، رغم كل شيءٍ.

ومع ذلك احتفظ ببعض التعقُّل إلى قُرب النهاية.. وعندما غرس المخلوق مخالبه في لحم عُنُقه، وعندما استسلم شُريانه السباتي وانفجر الدَّم الدافئ بلا ألم في وجه المخلوق البرمائي، تحسَّست يد إيدي ظهر المخلوق باحثة عن سحَّاب هذه البزَّة الزائفة، ولم ترتخِ إلا حينما خلع المخلوق رأسه من كتفيه وهو يطلق خوارًا خفيضًا راضيًا.

وفي أثناء ما كانت صورة إيدي الذهنية عن المخلوق تتلاشى، بدأ الشَّيءُ يتحوَّل إلى هيئةٍ أخرى.

4

مؤرَّقًا، غير قادرٍ على النوم، تنهش الكوابيس عقله، نهض صبيٌّ اسمه

مايك هانلون من فراشه بعد لحظاتٍ من انبلاج أوَّل ضوءٍ في أوَّل يوم من العُطلة الصيفية. كان الضوء شاحبًا ومعلَّقًا في ضبابٍ كثيفٍ مُنخفض سينقشع بحلول الثامنة صباحًا كاشفًا الغطاء عن يوم صيفيٍ مثالي.

سيحدث هذا لاحقًا. أما الآن، فالعالم مُغطًّى باللونين الرمادي والوردي، وصامتٍ كهرٍّ يسير على بُساط.

هبط مايك -الذي يرتدي شورت وتيشيرت وحذاء كيدس أسود عالي الرَّقبة- الدرج، وأفطر صحنًا من حبوب وايتيس الممزوجة بالحليب (لم يكن يُحب حبوب وايتيس في الحقيقة، لكنه أراد الهدية التي في العلبة: لعبة شارة التشفير من مُسلسل كابتن ميدنايت الإذاعي)، ثم قاد درَّاجته إلى المدينة سائرًا على الرصيف بسبب الضباب. يغيِّر الضباب كل شيءٍ، ويجعل الموجودات المُعتادة كحنفيات الحريق وعلامات المرور أجسامًا غامضة.. أشياء غريبة ومُعادية نوعًا على حدٍ سواء. في الضباب، تسمع أصوات السيَّارات لكنك لا تراها، وبسبب طبيعة ضوضاء الضباب الغريبة، فلا تستطيع تحديد ما إذا كانت قريبة أو بعيدة إلى أن تراها بأم عينيك خارجة من الضباب بهالاتٍ شبحية من الرطوبة حول مصابيحها الأمامية.

انعطف مايك يمينًا إلى شارع جاكسون، متجاوزًا وسط المدينة، ثم عبر بعدها إلى الشارع الرئيس عن طريق زقاق بالمر، وفي أثناء مروره القصير في هذا الشارع الجانبي الصغير الذي لا يتعدَّى مسافة مبنى واحد طولًا، مرَّ بالبيت الذي سيعيش فيه حينما يكبر. لم يلتفت مايك إليه، فلم يكن سوى منزل من طابقين بمرآبٍ وحديقة صغيرة. لم يثر المنزل أيَّ شعورٍ في وجدان الصبي العابر الذي سيقضي أغلب حياته كرجل مالكه وقاطنه الوحيد.

عند الشارع الرئيس، انعطف الصبي يمينًا وقاد درَّاجته إلى حديقة باسي وهو ما زال يهيم على وجهه، يقود بلا هوية مستمتعًا بسكون الصباح الباكر.. وما أن عبر بوَّابة الحديقة الرئيسة، ترجَّل مايك من على درَّاجته وأنزل سنَّدتها وسار باتِّجاه القناة. كان لا يزال -حسب علمه- غير مُنقاد بأكثر من هوى خالص. بالتأكيد لم يتأتَ له التفكير أن أحلامه في الليلة السابقة لها أدنى علاقة بمساره الحالي، بل إنه لم يكن يتذكَّر بالتحديد ماهية تلك الأحلام، كل

ما في الأمر أنها راحت تتوالى واحدًا بعد الآخر إلى أن استيقظ في الخامسة صباحًا مُتعرِّقًا لكن يرتجف أيضًا، وبفكرة مُلِحَّة تدفعه لتناول إفطار سريع ثم اصطحاب درَّاجته في جولة إلى المدينة.

هنا في الحديقة، اشتمَّ مايك رائحة في الضباب لم يحبها: رائحة بحرٍ مالحٍ وعتيق. لقد اشتمَّ هذه الرَّائحة من قبل بالتأكيد، فإبَّان ضباب الصباح الباكر في ديري يُمكِّنك دائمًا شمُّ رائحة المُحيط، رغم أن الساحل يبعد نحو أربعين ميلًا.

لكن رائحة هذا الصباح بدت أكثر كثافة، وأكثر حيوية، ومؤذية تقريبًا.

لفت شيءٌ ما نظره. انحنى مايك أرضًا والتقط سكين جيب مزدوج النصل رخيص الصنع. أحدهم نقش عليها الحرفين الأوَّلين من اسمه: إي سي. رمقها مايك مُفكِّرًا برهة ثم دسَّها في جيبه. من يجد شيئًا يُبقيه، ومن يخسره يبكيه.

نظر مايك حوله. ثمَّة دكَّة حديقة مقلوبة هنا قرب المكان الذي وجد السكين فيه. عدلها مايك، واضعًا قواعدها الحديدية في الثقوب التي حفرتها على مدى أشهر وسنوات. خلف الدكَّة رأى مايك رُقعة مُسطَّحة في العُشب ويمتد أخدودان منها. كان العُشب قد بدأ يستقيم مرَّةً أخرى، لكن هذين الأخدودين كانا لا يزالان واضحين إلى حدٍ ما، ويمتدَّان في اتِّجاه القناة.

ثمَّة دماء أيضًا.

(الطائر تذكَّر الطائر تذكَّر الـ...)

لكنه لم يكن يرغب في تذكُّر الطائر لذا نفض الفكرة عن عقله. عراك كلاب، هذا كل شيء. يبدو أن أحدهما قد جرح الآخر جرحًا بالغًا. كانت الفكرة مُقنعة لكنه لم يقتنع بها لسببٍ ما، وظلَّت أفكارٌ عن الطائر تحاول العودة إلى عقله.. الطائر الذي قابله عند أطلال مصنع حديد كيتشنر.. الطائر الذي لم يعثر ستان يوريس على مثيلٍ لهُ في كتابه عن الطيور.

توقَّف. اهرب من هنا.

لكن بدلًا من المُغادرة، تقفَّى مايك أثر الأخدودين، وقد اختلق قِصَّة صغيرة عنهما وهو يفعل ذلك. كانت كما ترى قِصَّة جريمة تدور عن ذلك

الصبي الذي ظلَّ بالخارج حتَّى وقتٍ مُتأخِّر، بعد حظر التجوُّل. لقد اقتنصه القاتل. لكن كيف تخلَّص الأخير من الجُثَّة؟ لقد جرَّها إلى القناة وألقاها بها، من دون شك! تمامًا كحلقة من حلقات مُسلسل ألفريد هيتشكوك يُقدِّم.

افترض مايك أن الأخدودين اللذين يتبعهما الآن قد يكونان حُفرا في الأرض نتيجة لجرِّ فردتي حذاءٍ رياضي أو حذاء عادي.

سرت القشعريرة في بدن مايك ونظر حوله في شكٍّ. القِصَّة تبدو حقيقية جدًّا بشكلٍ أو بآخر.

افترض أن القاتل لم يكن رجُلًا بل مسخ.. مسخ كمسوخ قصص الرعب المصوَّرة أو روايات الرعب أو أفلام الرعب

(أو حُلم مُزعج)

أو قِصَّةٌ خيالية أو أيِّ شيء.

قرَّر مايك أنه لا يُحب هذه القِصَّة. إنها قِصَّة بلهاء. حاول طردها بعيدًا عن عقله لكنها أبت المغادرة. ماذا يهم؟ دعها تبقى. إنها غبية. إن قيادة الدرَّاجة إلى المدينة هذا الصباح كانت فعلًا غبيًّا. تتبُّع هاتين العلامتين المحفورتين في العُشب فعلٌ غبي. إن أباه يدَّخر له كثيرًا من الأعمال لإنجازها بها اليوم. يجب عليه العودة والبدء فيها وإلا سيجد نفسه يُكدِّس أكوام القشِّ في المخزن العلوي للحظيرة خلال أحرَّ أوقات اليوم. أجل، يجب أن يعود. هذا ما سيفعله.

بالتأكيد ستفعل، هكذا فكَّر، أتودَّ الرهان على ذلك؟

وبدلًا من العودة إلى درَّاجته وقيادتها رجوعًا إلى المنزل ليبدأ مهامه، تتبَّع مايك الأخدودين المرسومين في العشب. ثمَّة مزيدٌ من قطرات الدماء الجافة هنا وهناك. ليست كثيرة رغم ذلك، ليست بالكثرة التي رآها عند البُقعة المدهوسة من العشب قُرب الدكَّة التي عدلها.

تمكَّن مايك الآن من سماع مياه القناة تجري بنعومة، وبعد لحظة رأى حافَّة الحائط الخرساني تتجسَّد خارجه من الضباب.

يوجد شيءٌ آخر هنا على الأرض العشبية. يا إلهي، لا بُدَّ أنه يوم حظِّك في العثور على الأشياء، هكذا قال عقله في ودٍّ مُرتاب، ثم صاح أحد النوارس من

مكانٍ ما فأجفل مايك وفكَّر من جديد في الطائر الذي قابله ذلك اليوم.. ذلك اليوم خلال هذا الربيع.

أيًّا ما كان في العشب، فأنا لا أريد النَّظر إليه. لكم كان هذا شعورًا صادقًا.. لكن ها هو ذا ينحني بالفعل فوقه -ويده تستندان بالكاد فوق رُكبتيه- ليرى.

قطعة ثياب مُمزَّقة وملوَّثة ببُقعة دم.

نعق النورس مرَّة أخرى. حملق مايك في خرقة الثياب الدامية وتذكَّر ما حدث له هذا الربيع.

5

في كل عام خلال شهري أبريل ومايو تستيقظ مزرعة آل هانلون من سباتها الشتوي العميق.

لم يكن مايك يعرف بعودة الربيع من جديد عندما تنمو أولى أزهار الزعفران أسفل نافذة مطبخ أمه، ولا عندما يبدأ الأولاد في جلب البلي وسمك النعاب معهم إلى المدرسة، ولا حتَّى عندما يفتتح فريق واشنطن سيناتورز موسم دوري كرة البيسبول (مُتلقِّين عادةً هزيمة نكراء)، لكن فقط عندما يصيح أبوه فيه لمساعدته في دفع الشاحنة الهجينة من الحظيرة. كان نصف الشاحنة الأمامي عبارة عن سيَّارة فورد قديمة الطراز من فئة A، أما نصفها الخلفي فشاحنة نصف نقل مزوَّدة بباب خلفي يُذكِّرك بأبواب حظائر الدجاج القديمة. عندما يكون الشتاء الذي مضى شديد البرودة، يحثُّ كلاهما الشاحنة على السير عن طريق دفعها أسفل الدرب. لم يكن لمقصورة الشاحنة أبواب، ولا زُجاج أمامي، والمقاعد الأمامية مكوَّنة من نصف أريكة قديمة التقطها ويل هانلون من مكب نفايات ديري، وينتهي ناقل تروسها بمقبضِ بابٍ زُجاجي.

كان يدفعانها أسفل الدرب -واحد على كل جانب- وعندما تكتسب سُرعة مُناسبة يقفز ويل إلى المقصورة، ويُدير المُفتاح، ويؤجِّل شرارة شمعة الإشعال، ويضغط أُسطُوانة التعشيق، ويعشِّق ناقل التروس إلى الغيار الأوَّل بيده الضخمة التي تُمسك بمقبض الباب الزُجاجي، ويصيح بعدها: «فلنتجاوز

الجزء الصعب يا صغيرة!» ثم يرفع قدمه عن أُسطُوانة التعشيق ليبدأ مُحرِّك الفورد القديم السعال والاختناق والانفجار والنكوص... وأحيانًا يبدأ في العمل بالفعل بخشونة في البداية، ثم يهدأ بعدها رويدًا. يقود ويل شاحنته الهادرة على الطَّريق مُتَّجهًا نحو مزرعة رولين، ويلتف حول دربهم (إذا حدث وذهب في الطريق الآخر، فرُبَّما فجَّر بوتش باورز المجنون والد هنري رأسه بطلقة من بُندقيَّته)، ثم يعود أدراجه، بينما المُحرك المكشوف ينعر في حِدَّة، في حين يتواثب مايك صعودًا وهبوطًا من الإثارة، ومُشجِّعًا، في الوقت الذي تقف فيه أمه عند مدخل المطبخ تُجفِّف يديها في منشفة الصحون وتتظاهر باشمئزازٍ لا تشعُر به حقًّا.

في أحايينٍ أُخرى، يأبى مُحرِّك الشاحة العمل، ويضطَّرُّ مايك الانتظار إلى أن يعود والده من الحظيرة حاملًا ذراع تدوير المُحرِّك وهو يتمتم بصوتٍ خفيض. كان مايك متيقِّنًا أن بعض الكلمات الخفيضة جدًّا التي تخرج من فم والده سبابٌ، وعندها كان يجتاحه بعض الخوف منه (لم يكتشف مايك إلا لاحقًا جدًّا -في أثناء إحدى تلك الزيارات التي لا تنتهي إلى غرفة المُستشفى التي قطنها ويل هانلون في فترة احتضاره- أن والده كان يُتمتم لأنه يخاف ذراع المُحرِّك.. ففي مرَّة، كانت ردَّة فعلها عنيفة وركلته بشراسة وطارت من فتحتها مُمزِّقة جانب فمه).

- «قف بعيدًا يا مايك»، هكذا كان يقول وهو يزج الذراع في فتحتها عند قاعدة المُبرِّد، وعندما يبدأ مُحرِّك الفورد في العمل أخيرًا، يقول إنه سيستبدله بمُحرِّك شيفورليه، لكنه لم يفعل ذلك أبدًا. ظلَّت شاحنة الفورد العتيقة الهجينة هذه في باحة المنزل الخلفية، وقد نمت الحشائش عليها حتَّى غطَّت محاور عجلاتها وبابها الخلفي الشبيه بأبواب حظائر الدجاج.

عندما كانت تعمل، وعندما يجلس مايك في مقعد الراكب يشتمُّ رائحة الزيت الساخن والعادم الأزرق مُنتعشًا بالهواء القوي الذي يهب من الفتحة التي كان يُغطِّيها فيما مضى الزُجاج الأمامي، كان يُفكِّر: لقد عاد الربيع. كل شيء استيقظ، وفي أعماق روحه، يرتفع هتافٌ حماسي يرجُّ حوائط تلك الغُرفة البهيجة في مُعظمهما. كان مايك يشعر بحُبٍّ جارف لكل شيءٍ حوله،

ولوالده بالأخص، الذي كان يبتسم له ويصيح قائلًا: «تمسَّك يا مايك! سنُسرع بهذه الصغيرة! سنفزع بعض الطيور ونرسلها إلى الهواء باحثة عن ملجأ».

ثم يندفع بعدها مُمزِّقًا الدرب بسُرعته، وعجلات الفورد الخلفية تلفظ سُحُبًا من الطين الأسود والغبار الرمادي، بينما كلاهما يتقافزان على مقاعد الأريكة داخل المقصورة المفتوحة عديمة الأبواب، ويضحكان كمن وُلِدا أحمقان بالفطرة. يبدأ ويل في قيادة الفورد عبر العُشب المُرتفع في الحقل الخلفي المُخصَّص لزراعة القش، ومنه إما إلى الحقل الجنوبي (البطاطس)، أو الحقل الغربي (الذُرة والفول)، أو الحقل الشرقي (البازلَّاء والقرع واليقطين). بمرورهما، تندفع الطيور مُحلِّقة من وسط العُشب قبل أن تهجم الشاحنة حاملة الذُعر، وما أن تُحلِّق طيور الحجل -وهو جنسٌ رائع من الطيور بُنِّيٌّ كأشجار السنديان في أواخر الخريف- تصير رفرفة أجنحتها الصاخبة مسموعة حتَّى فوق قصف المُحرِّك.

كانت تلك الجولات السنوية بوَّابة مايك هانلون إلى فصل الربيع.

يبدأ العمل السنوي بحصاد الصخور. كل يوم -ولمُدَّة أسبوع- يأخذ الأب وابنه الشاحنة إلى الحقول ويُحمِّلانها بالصخور التي قد تكسر شفرة مشط المحراث عندما يحين وقت تقليب الأرض وزراعتها. أحيانًا كانت الشاحنة تنغرس في التُربة الربيعية الموحلة ويبدأ ويل في التمتمة بقتامة بصوتٍ خفيض. مزيدٌ من السُباب، هكذا يظن مايك. كان يعلم بعض كلمات السُباب، لكن تعبيراتٍ أخرى كـ «ابن العاهرة» كانت تُثير حيرته. لقد صادف الكلمة في الإنجيل، وبقدر ما فهم، فالعاهرة امرأة تقطن مكانًا يُدعى بابل. كان سيسأل والده ذات مرَّة، لكن الشاحة كانت غائصة في الوحل إلى نوابضها اللولبية، وكان يرى سُحُبًا رعديه تعصف بجبين والده، لذا قرَّر أن ينتظر وقتًا أفضل. في النهاية سأل ريتشي توزييه لاحقًا هذا العام، وأخبره ريتشي أن والده أخبره أن العاهرة امرأة تُمارس الجنس مع الرجال مُقابل المال. سأله مايك: «ما معنى تمارس الجنس؟»، فتركه ريتشي وسار مُبتعدًا ممسكًا برأسه.

في إحدى المرَّات سأل مايك والده عن السَّبب الذي يجعل دائمًا مزيدًا من الصخور تظهر في أبريل التالي من كل عام، إن كانا يجمعانها بالكامل كل أبريل.

كانا واقفان قُرب مغيب الشمس عند المكان الذي يتخلّصان فيه من الحجارة في آخر يوم حصاد صخور لهذا العام. كان هناك مدقٌّ مُترَّبٌ -غير مُمهَّد بشكلٍ يَسمح بأن يُدعى طريقٌ- يمتد من نهاية الحقل الغربي إلى هذا الوادي المُتاخم لضِفَّة نهير الكِندوسكيج. كان الوادي قفرًا يعج بالصخور التي أُخرجت من أرض مزرعة ويل عبر السنين.

ناظرًا إلى هذه الأراضي الوعرة، التي شكَّلها بمُفرده أوَّلًا ثم بعدها بمعونة ابنه (كان يعلم أنه في مكانٍ ما أسفل الصخور توجد بقايا الأشجار المُتحلِّلة التي قطعها واحدة تلو الأخرى منذ زمن قبل أن يستطيع حرث أيٍّ من تلك الحقول)، أشعل ويل سيجارة وقال: «كان والدي يقول لي إن الرَّب يُحب الصخور والذُباب والأعشاب والفُقراء أكثر من جميع خلقه، ولذا خلق كثيرًا منها».

- «لكن تبدو الصخور كأنها تعود كل عام».

قال ويل: «أجل، أظنُّها تعود بالفعل. إنه التفسير الوحيد الذي أعرفه».

نعق عقابٌ بحري من جانب الكِندوسكيج البعيد في الغسق الداكن الذي أحال لون المياه إلى أحمر مشوَّب ببُرتقالي. بدا الصوت مُوحِشًا، مُوحِشًا لدرجة أن الجلد على ذراعي مايك المُتعبتان تحوَّل إلى جلد إوزة من القشعريرة.

- «أنا أحبك يا أبي». قالها مايك فجأة شاعرًا بأن الحب في قلبه عظيم القوَّة لدرجة جعلت عينيه تغرورقان بالدموع.

قال أبوه: «وأنا أيضًا أحبك كثيرًا يا مايكي»، ثم احتضنه بقوَّة بين ذراعيه القويَّتين. شعر مايك بنسيج قميص أبيه التحتاني الخشن على وجنته. «الآن ما رأيك أن نعود أدراجنا؟ الوقت بالكاد يسمح أن يستحم كلانا قبل أن تضع لنا المرأة الطيبة الطعام على الطاولة».

قال مايك: «أيوا».

قال ويل هانلون: «أيوا يا فالح»، وضحك كلاهما. كانا يشعران بالتعب، لكن يغمرهما شعورٌ طيبٌ في الوقت نفسه. لقد أُرهقت الأذرُع والسيقان من العمل، لكنها لم تُنهَك.. لقد اخشوشنت الأكُف من جمع الصخور، لكنها لم تُؤلَم.

لقد جاء الربيع، هكذا فكَّر مايك في تلك الليلة وهو ينعس في غُرفته بينما أبوه وأمه يشاهدان مُسلسل هونيمونرز في الغرفة الأخرى. لقد عاد الربيع. الحمد لله، الحمد لله كثيرًا، وبينما هو يخلد إلى النوم غائبًا في نُعاسٍ عميق، سمع نعيق العقاب مرَّة أخرى، وامتزجت مُستنقعاته البعيدة برغبات أحلامه. إن الربيع لفصلٍ مُزدحمٍ مليء بالعمل، لكنه فصلٌ جميل.

بعد انتهاء حصاد الصخور، سيوقف ويل الشاحنة في مؤخرة المنزل عالية العُشب، ويُخرج الجرار من الحظيرة، ثم يبدأ كلاهما التمشيط. يقود أبوه الجرار، ويركب مايك إما في المؤخِّرة متمسِّكًا بالمقعد الحديدي أو يسير إلى جواره مُلتقطًا أيَّ حجارة فاتتهما ويقيها جانبًا. ثم تأتي الفلاحة بعدها، وتتبع الفلاحة مهام الصيف: عزق الأرض... ثم عزق الأرض... ثم عزق الأرض. بعدها تُجدِّد أمه الفزَّاعات الثلاث: لاري وموي وكيرلي، ويساعد مايك أباه في وضع المنافخ التي تُصدر أصوات آيل الموظ أعلى كل رأسٍ مملوءٍ بالقش. إن المنافخ عبارة عن علبة صفيح مفتوحة من الطرفين، في منتصفها خيطٌ مغطى بالشمع بكثافة مشدودٌ عن آخره؛ وعندما تهب الرياح عبرها، يُسفر الأمر عن صوتٍ مُخيفٍ تمامًا، كأنه نعيبٌ ناحبٌ. كانت الطيور آكلة المحاصيل سريعًا ما تعتاد على لاري وموي وكيرلي، وتدرك أنها لا تُشكِّل تهديدًا لها، لكن المنافخ لم تنفك عن إخافتها.

ابتداءً من شهر يوليو، يكون عليهما قطف المحصول فضلًا عن العزق. البازلَّاء والفجل في البداية، ثم بعدهما الخس والطماطم التي استهلَّت حياتها كبراعم في سُقُفٍ مُظلَّلة، ثم الذُرة والبقوليات في أغسطس، ومزيدٍ من الذُرة والبقوليات في سبتمبر، ثم القرع واليقطين في النهاية، وفي وقتٍ ما في خضم كل ذلك تأتي البطاطس الجديدة، ثم بعدها –مع ازدياد النهار قِصرًا وازدياد الهواء حِدَّةً– يخلع مايك وأبوه منافخ الفزَّاعات (وأحيانًا تختفي المنافخ خلال الشتاء من تلقاء نفسها؛ بدا له أنهم يُجبروا على صُنع منافخ جديدة في كل ربيع). في اليوم التالي، يتَّصل ويل بنورمان سادلر (الذي كان غبيًّا كولده موس لكن أطيب قلبًا بكثيرٍ جدًّا)، ويأتي نورمي إلى المزرعة ومعه حفَّار البطاطس.

خلال الثلاثة أسابيع التالية يعمل جميعهم في جمع البطاطس، وفضلًا عن العائلة، يستأجر ويل مجهودات ثلاثة أو أربعة طُلَّاب في الثانوية ليساعدوه في جمع المحصول، ويدفع لهم رُبع دولار عن كل برميل.

تجوب الشاحنة الفورد ببطء ربوع الحقل الجنوبي -أكبر الحقول- جيئةً وذهابًا، دائمًا على السُرعة الأولى، ببابها الخلفي مُرخى لأسفل، وصندوقها مليئًا بالبراميل، كلٌ منها مُعلَّم باسم الشخص الذي يجمع فيه، وفي نهاية اليوم يفتح ويل محفظته القديمة المُجعَّدة وينقد كل جامع بطاطس ماله. يحصل مايك على أجرٍ بدوره، وكذلك أمه. هذا المال يصبح ملكًا لهما، ولم يسأل ويل هانلون أيًا منهما مرَّة واحدة عمَّا يفعلانه به. منح ويل مايك عندما كان سنه خمس سنوات أسهمَ بقيمة خمس بالمئة في المزرعة، وقد كان سِنُّه يسمح وقتها ليخبرهُ ويل أن يحمل معولًا ليُريه الفرق بين الحشائش الشيطانية ونبات البازلاء. كل عام كان مايك يُمنح أسهم إضافية بقيمة واحدٍ بالمئة، وفي كل عام في اليوم الذي يلي عيد الشُكر، يحسب ويل أرباح المزرعة ويخصم نصيب مايك منها. لكن مايك لم يرَ شيئًا من هذا المال. فقد كان يذهب إلى حساب مصاريف كُلِّيته المُستقبلية، ولم يكن يُسمح بلمسه تحت أيِّ ظرفٍ على الإطلاق.

في النهاية يأتي اليوم الذي يقود فيه نورمي سادلر حفَّار البطاطس إلى منزله. بحلول ذلك الوقت يكون الهواء قد استحال رماديًّا وباردًا على الأرجح، وثمَّة بعض الثلوج المُتراكمة على كومة اليقطين البُرتقالي المُكدَّسة على جانب الحظيرة.

يقف مايك في فناء الحظيرة بأنفٍ أحمر، ويداه المُتَّسختان مدسوستان في جيبي سراويله الجينز، ويشاهد أباه وهو يقود الجرار في البداية ثم من بعده الشاحنة الفورد رجوعًا إلى مكانهما داخل الحظيرة، ويُفكِّر: نحن نستعد للسُبات من جديد. الربيع تلاشى. الصيف انتهى، وقت الحصاد ولَّى. كل ما قد تبقَّى الآن هو نهايات الخريف: أشجارٌ بلا أوراق.. أرضٌ مُجمَّدة.. وشريط من الثلوج يجري بطول ضِفَّتي الكِندوسكيج، وفي الحقول، تهبط الغربان على أكتاف موي ولاري وكيرلي وتمكث كيفما شائت. لقد أضحت الفزَّاعات خرساء وآمنة.

لم يكن مايك يقنط تمامًا من فكرة أن سنة أخرى قد انتهت، ففي سني التاسعة والعاشرة كان لا يزال صغيرًا جدًّا لوضع استعارات مجازية عن الفناء، لأن ثمَّة كثيرًا من الأمور للتطلُّع إليها: التزلُّج في حديقة مكارون (أو من أعلى تلَّة رولين في مدينة ديري إذا كنت شجاعًا، رغم أن هذا كان في الأغلب نشاطًا للفتية الأكبر سنًّا)، والتزحلق على الجليد، ومعارك كُرات الثلج، وبناء قلاع الثَّلج.. كما يوجد مُتَّسعٌ من الوقت للتفكير في البحث عن شجرة كريسماس مع والده، ومُتَّسعٌ للتفكير في أحذية التزلُّج ماركة نورديكا التي قد يحصل أو لا يحصل عليها في الكريسماس. الشتاء جيِّد... لكن مُراقبة والده وهو يُعيد الشاحنة إلى الحظيرة...

(الربيع تلاشى. الصيف انتهى، وقت الحصاد ولَّى)

... دائمًا ما أشعرته بالحزن، بالطريقة ذاتها التي تُشعره بها أسراب الطيور المُتَّجهة جنوبًا بالحزن، أو الطريقة التي يميل بها الضوء ويجعله أحيانًا يشعر بالرغبة في البُكاء دون سبب وجيه. نحن نستعد للسُبات من جديد...

لكن لم يكن جل ما يفعله مايك الذهاب إلى المدرسة والعمل في المزرعة، والعمل في المزرعة والذهاب إلى المدرسة. لقد أخبر ويل هانلون زوجته أكثر من مرَّة أن الصبي يحتاج بعض الوقت للذهاب إلى صيد السمك، حتَّى إن لم يكن ما يفعله هو الصيد حقًّا. عندما يعود مايك من مدرسته يضع كتبه أوَّل شيء فوق التلفاز في الصَّالة، ثم بعدها يعد لنفسه وجبة سريعة -كان يحب شطائر زبدة الفول السوداني مع البصل، مذاقٌ يجعل أمه ترفع يدها إلى أعلى في ذُعرٍ عاجز- ثم ثالثًا يتفحَّص الملاحظات التي تركها والده له يُخبره فيها عن مكانه في المزرعة، ومُفصِّلًا مهام مايك: عليه أن يجتزَّ الأعشاب الضارة من صفوف بعينها من الأرض، أو أن يجمع محصولها. ثمَّة سلال يجب نقلها، أو غلَّة يجب زرعها، أو يجب عليه تنظيف الحظيرة، أو أيًّا كان. لكن أحيانًا، في يوم أو يومين من الأسبوع، لم يكن والده يترك تلك الورقة. في هذه الأيَّام، يذهب مايك لصيد السمك، حتَّى إن لم يكن ما يفعله هو الصيد حقًّا. تلك كانت أيَّامًا عظيمة.. أيَّامًا لم يكن لديه مكانٌ مُعيَّن للذهاب إليه، وبالتالي لم يكن يشعر بحاجة مُلحَّة فيها لأن يكون في عجلة من أمره.

أحيانًا كان والده يترك له نوعًا آخر من المُلاحظات: «لا مهام. اذهب إلى اللسان القديم وتفحَّص قضبان عربات القطارات». كان مايك يذهب إلى منطقة اللسان القديم، ويبحث عن الشوارع التي ما زالت القضبان مُتجذِّرة فيها، ويتفحَّصها من كثب مُتعجِّبًا من التفكير في أمورٍ مثل أن القطارات اعتادت السير هنا في منتصف الشوارع. تلك الليلة قد يتحدَّث مع أبيه عنها، وسيُريه أبوه صورًا من ألبوم ديري الخاص به لعربات ترام تعمل بالفعل: ثمَّة أقطاب مُضحكة تمتد من سقف العربة وتصل إلى الأسلاك الكهربائية، وثمَّة إعلانات عن أنواع سجائر على جوانبها. في إحدى المرَّات الأخرى أرسل والد مايك ابنه إلى الحديقة التذكارية -حيث ينتصب بُرج المياه- ليرى حوض الطيور، وذات مرَّة ذهبا معًا إلى قاعة المحكمة ليُشاهدا الأداة المُريعة التي عثر عليها رئيس الشُرطة بورتون في العليَّة. هذه الأداة اسمها مقعد المُشرَّدين. كان مقعدًا مصنوعًا من الحديد، وتوجد أغلالٌ مُلحقة بأماكن وضع الذراعين والساقين، ومقابض دائرية تبرز من الظهر والمِقعدة. لقد ذكَّر المِقعد مايك بصورة رآها في كتابٍ ما.. صورة للكُرسي الكهربائي في سجن سنج سنج. سمح الرئيس بورتون لمايك الجلوس على المقعد وتجربة الأغلال.

وبعدما راحت عنه السكرة الأولى القابضة لتجربة ارتداء الأغلال، نظر مايك بتساؤل إلى والده والرئيس بورتون، غير مُدرك لماذا توضع مثل هذه العقوبة الرهيبة للـ «صيَّع» (وهي الكلمة التي يحب بورتون وصفهم بها) الذين نزحوا إلى المدينة في العشرينيات والثلاثينيات. تلك المقابض تجعل الكرسي غير مريح في الجلوس نوعًا، والأغلال على معصميك وكاحليك تحدُّ من قدرتك على تعديل جلوسك إلى وضع أكثر راحة، لكن...

قال الرئيس بورتون مُقهقهًا: «حسنًا، أنت مُجرَّد طفل. تُرى كم تزن؟ سبعين أو ثمانين رطلًا؟ مُعظم الصيَّع الذين وضعهم النقيب سولي في ذلك المقعد وقتها كانوا بضعف هذا الوزن. كانوا يشعرون بعدم راحة طفيف بعد مرور ساعة أو نحو ذلك، وتململوا منزعجين تمامًا بعد ساعتين أو ثلاث، ثم يشعرون بضيقٍ خالص مُقطَّر بعد أربع أو خمس ساعات. بعد مرور سبع أو

ثماني ساعات يكونون قدَ طُهيوا تمامًا ويضجُّون مِلء حناجرهم بالشكوى، وبعد ست عشرة أو سبع عشرة ساعة يجلسون مُنخرطين في بُكاءٍ طويل غالبًا، وبعد مرور أربع وعشرين ساعة بالتمام والكمال، يكونون مُستعدين أن يقسموا أمام الله والعباد أنه في المرة القادمة التي يأتون فيها على متن شبكة قطارات نيو إنجلاند لن تمر بخواطرهم فكرة الهبوط في ديري، وحسب علمي، معظمهم لم يفعل. إن قضاء أربع وعشرين ساعة على مقعد المُشرَّدين لتجربة كاسحة الإقناع.

فجأة، بدا لمايك أن ثمَّة مزيدًا من المقابض في المقعد، وأنها تقبض أكثر فأكثر على مقعدته وعموده الفِقَري وأسفل ظهره وحتَّى مؤخِّرة عُنُقه. قال مايك بأدبٍ: «هل يمكنني النهوض الآن من فضلك؟»، فضحك الرئيس بورتون مرَّة أخرى، ومرَّت لحظة مُرعبة ظنَّ فيها مايك أن الرئيس بورتون سوف يُدلِّي مفاتيح الأغلال والقيود أمام عيني مايك ويقول له، بالتأكيد سأدعك تنهض... فقط عندما تنتهي الأربع وعشرون ساعة الخاصة بك.

سأل مايك وهما في طريقهما إلى المنزل: «لِمَ أخذتني إلى هناك يا بابا؟».

أجابه ويل: «ستفهم عندما تكبر».

– «أنت لا تحب الرئيس بورتون، أليس كذلك؟».

– «بلى». هكذا أجابه ويل بصوتٍ فظٍّ مقتضب لم يجرؤ معه مايك على طرح أيَّ أسئلةٍ أخرى.

لكن مايك أحب معظم معالم ديري التي أرسله والده لزيارتها أو اصطحبه إليها.. وبحلول الوقت الذي بلغ فيه مايك عشر سنوات نجح ويل في نقل اهتمامه العميق بأغوار تاريخ ديري إلى ابنه. أحيانًا، عندما كان مايك يُمرِّر أصابعه على سطح العمود الخشن الذي ينتصب عليه حوض طيور في الحديقة التذكارية، أو عندما يجلس القرفصاء ليتفحَّص من كثب أكثر قضبان عربات الترام التي تُخدِّد شارع مونت في منطقة اللسان القديم، كان يخلب لبه الشعور العميق بالزمن... الزمن كشيءٍ ملموس، كشيءٍ له ثِقل غير مرئي، بالطريقة ذاتها التي يُزعم بها أن لأشعة الشمس وزنًا (بعض الصبية في المدرسة ضحكوا عندما أخبرتهم مسز جرينجاس ذلك، لكن مايك

شُدِه تمامًا بهذا المفهوم ولم يقوَ على الضحك، وأوَّل فكرة جالت بخاطره وقتذاك، للضوء وزن؟ يا إلهي، هذا أمرٌ صاعق!)... الزمن كشيءٍ من شأنه أن يدفنه في نهاية المطاف.

كانت المُذكِّرة الأولى التي تركها والده له ذلك الربيع من عام 1958 مكتوبة على ظهر مظروف وموضوعة أسفل رجَّاجة الملح. كان الجو ربيعيًّا دافئًا، وعذبًا تمامًا، وقد فتحت أمه جميع نوافذ المنزل. كانت المُذكِّرة تقول: لا مهام اليوم، إذا رغبت يمكنك قيادة درَّاجتك في طريق المراعي. لسوف ترى كثيرًا من الأبنية المُتداعية والميكنات العتيقة في الحقل إلى يسارك. تجوَّل وانظر واجلب معك تذكارًا، ولا تقترب من الوهدة! وعُد قبل الظلام، أنت تعرف لماذا.

كان مايك يعرف السَّبب بالطبع.

أخبر مايك أمه إلى أين هو ذاهب فعبس جبينها وقالت: «لِمَ لا تذهب وترى إن كان راندي روبنسون يُريد الذهاب معك؟».

قال مايك: «حسنًا، سأعرج عليه وأسأله».

وقد فعل ذلك بالفعل، لكن راندي كان قد ذهب إلى بانجور مع والده لشراء شتلات البطاطس. لذا قاد مايك درَّاجته إلى طريق المراعي بمفرده. كانت جولة لا بأس بها، تزيد قليلًا عن أربعة أميال. شعر مايك أنها الثالثة عصرًا عندما أسند درَّاجته إلى سياجٍ خشبيٍ قديم يقع على الجانب الأيسر من طريق المراعي وتسلَّقه إلى الحقلِ القابعِ وراءه. ستكون أمامه ساعة تقريبًا من الاستكشاف قبل أن يتعيَّن عليه العودة أدراجه إلى المنزل من جديد. عادةً، لا تستاء أمه منه ما دام يعود بحلول السادسة، عندما تضع العشاء على الطاولة، لكن واقعة عارضة لا تُنسى علَّمته أن الحال ليس هكذا هذا العام. في ذلك اليوم عندما تأخَّر على العشاء، كانت أمه في حالة أقرب إلى الهستيريا. اندفعت نحوه بخرقة تجفيف الصحون، وراحت تضربه بها وهو يقف فاغرًا فاه عند عتبة المطبخ، وسلَّته المجدولة المليئة بسمك السلمون الملوَّن قابعة عند قدميه.

كانت تصرخ فيه: «لا تُخفني عليك هكذا أبدًا! أبدًا! أبدًا! أبدًا!».

وكل أبدًا تتخلَّلها ضربة أخرى بخرقة الصحون. توقَّع مايك أن يتدخَّل والده لإيقافها، لكن والده لم يفعل ذلك... رُبَّما كان يعلم أنه إذ فعل فلسوف تُدير غضبها الشرس عليه بدوره. تعلَّم مايك الدرس، وقد كانت لسعة واحدة من الخرقة هي كل ما تطلَّبه الأمر. العودة قبل الظلام. أجل يا سيِّدتي، معك كل الحق.

سار عبر الحقل مُتَّجهًا إلى الأطلال الجبَّارة القائمة في مُنتصفه. هذه -بالطبع- أطلال مصنع كيتشنر للحديد. كان يمرُّ من جواره كثيرًا لكنه لم يُفكِّر من قبل قط في استكشافه، ولم يسمع من أحد الصبية في المدينة أنه فعل. الآن، بينما هو يتلمَّس طريقه مُنحنيًا لتفحُّص بعض القرميد المُتراكم الذي شكَّل كومة وعرة، ظن مايك أنه فهم السَّبب. إن الحقل مُشرق تمامًا، وتغسله الشمس من فوق سماءٍ ربيعية صافية (أحيانًا، عندما تمرُّ سحابة أمام قرص الشمس، فإن مصراعًا كبيرًا من الظل يتحرَّك ببطء عبر الحقل) لكن ثمَّة شيئًا مُخيفًا بخصوصه رغم ذلك. صمتٌ كئيب لا يكسره سوى صوت الريح. شعر مايك أنه مُستكشف عثر على آخر بقايا مدينة مفقودة خلَّابة.

أمامه وإلى اليمين، رأى مايك الجانب المُستدير لأُسطُوانة قرميدية عملاقة تبرز من وسط حشائش الحقل العالية، فركض إليها على الفور. إنها مدخنة مصنع الحديد الرئيسة. كانت المدخنة نائمة على جانبها. انحنى مايك مُطِلًّا داخل تجويفها وشعر برجفة مُنعشة تُحمي عموده الفِقَري. كانت المدخنة كبيرة بما يكفي كي يسير داخلها إذا رغب. لكنه لم يكن يرغب في ذلك؛ وحده الله يعلم أيُّ طفح غريب قد يكون بالداخل عالقًا بالقرميد الذي سوَّده الدُخان، أو أيُّ حشراتٍ أو وحوش اتخذتها ملجأً. هبَّت الريح، وعندما اندفع الهواء عبر فوَّهة المدخنة أصدر صوتًا مُريعًا كصوت الريح عندما تهزُّ الخيوط المكسوَّة بالشمع التي يضعها هو وأبوه على رأس الفزَّاعات كل ربيع. انتكص مايك إلى الخلف بتوتُّرٍ، مُتذكِّرًا فجأة الفيلم الذي شاهده مع والده الليلة الماضية في برنامج العرض المُبكِّر. كان اسمه رودان، وكانت مشاهدته تسلية عظيمة وقتها بينما أبوه يضحك ويصيح «عليك بهذا الطائر يا مايكي!» في كل مرَّة يظهر فيها الطائر العملاق رودان، فيضع مايك يديه على

شكل مُسدَّس ويطلق النار من أصابعه، إلى أن برزت رأس الأم في الغرفة وأخبرتهما أن يُخفِضا صوتهما قبل أن يُصيباها بصُداعٍ نصفي بهذه الجلبة.

لكن الأمر لم يبدُ مُسلِّيًا الآن. في الفيلم، تحرَّر رودان من أحشاء الأرض بسبب عُمَّال مناجم الفحم اليابانيين، أولئك الذين كانوا يحفرون أعمق نفق في العالم. بالنظر الآن عبر التجويف الأسود لهذا الأنبوب الهائل، كان من السهل تخيُّل أن ذلك الطائر يربض عند طرفه البعيد، وجناحاه الجلديان الشبيهان بأجنحة الوطاويط مطويَّان إلى ظهره، بينما يُحملق إلى وجه الصبي الصغير المُستدير الذي ينظر من الطرف الآخر.. يُحملق.. يُحملق بعينيه الحلقيَّتين الذهبيتين...

راجفًا، أقدم مايك مرَّة أخرى.

خطا مايك سائرًا أسفل المدخنة الغائصة في باطن الأرض إلى نصف مُحيط دائرة تجويفها. كانت الأرض مُرتفعة قليلًا، ثم بدافعٍ خفي، تسلَّق مايك قمَّة المدخنة وجلس على سطحها الخارجي. كانت المدخنة أقل ترويعًا بكثير من الخارج، بسطحها القرميدي الدافئ. نهض مايك على قدميه وسار بطولها، مُباعدًا بين ذراعيه، ومستمتعًا بالطريقة التي تتخلَّل بها الرياح شعره (كان سطح المدخنة من الخارج عريضًا جدًّا بالنسبة إلى جسده الصغير بحيث لم يكن ثمَّة داعٍ له للقلق من السقوط من فوقه، لكنه كان يتظاهر بأنه لاعب أكروبات يسير على الحبل في السيرك).

عند الطرف الآخر قفز مايك وبدأ يتفحَّص الرُكام: مزيدٌ من الطوب.. قوالب مشوَّهة.. كتل من الخشب.. أجزاء من آلاتٍ صدِئة. اجلب معك تذكارًا، هكذا أخبره والده في المُذكِّرة، وهو يُريد تذكارًا جيِّدًا.

هام مايك على وجهه مُقتربًا من الوهدة، مُتفحِّصًا الحُطام، حريصًا كي لا يجرح نفسه بشظايا الزُجاج المتناثرة، التي يوجد كثيرٌ منها في الجوار.

لم يكن مايك غافلًا عن الوهدة التي نبَّه عليه والده الابتعاد عنها، مثلما لم يكن غافلًا عن الموت الذي حاق بهذه البُقعة منذ نيف وخمسين عامًا مضت. كان يفترض أنه إذا وُجد مكانًا مسكونًا في بلدة ديري، فسيكون هذا المكان.

لكن إما على الرغم من ذلك أو بسبب ذلك، كان مُصِرًّا على البقاء إلى أن يجد شيئًا جيِّدًا حقًّا ليأخذه معه ويُريه لأبيه.

سار الصبي ببطءٍ وحرصٍ نحو الوهدة، مُعدِّلًا من مساره كي يمشي موازيًا لحافتها الخشنة. همس صوتٌ داخلي مُحذِّرًا إيَّاه أنه صار قريبًا تمامًا منها، وأن رُكامًا ما أضعفته أمطار الربيع سوف ينهار من تحت كعبيه وسيقذف به إلى الحُفرة، حيث لا يعلم سوى الله كم من بقايا حديدٍ مشحوذه تنتظر سقوطه كي تثقبه كحشرة، تاركة إيَّاه يموت ميتةً شنيعة صدِئة.

التقط مايك إطار نافذةٍ ثم ألقاه جانبًا. هنا توجد مغرفة كبيرة تصلح لمائدة عملاقة، وقد تجعَّد مقبضها الحديدي وانبعج بفعل سخونة كاسحة ما لا يُمكن تصوُّر شِدَّتها. هنا يوجد مكبس أكبر من أن يستطيع زحزحته، فضلًا عن حمله. خطا مايك من فوقه.. لقد خطا من فوقه و...

ماذا لو وجدتُ جمجمة؟ هكذا فكَّر فجأة. جمجمة أحد الأطفال الذين قتلوا هنا وهم يبحثون عن بيض شيكولاتة عيد الفصح قديمًا في عام ألف وتسعمئة وكذا؟

نظر مايك حوله في أرجاء الحقل القفر الذي يستحمُّ في أشعة الشمس وراعته الفكرة تمامًا. هبَّت الريح في أذنه مُصفِّرةً بخفوت بصوت صدف البحر، وأبحر ظلٌّ صامتٌ آخر عبر الحقل كظلٍّ وطواطٍ عملاق... أو طائر. أدرك مايك من جديد مدى الصمت المزلزل الذي يلف المكان، وكم يبدو الحقل غريبًا بكل أكوام الأطلال المُتفرِّقة هذه وبالهياكل الحديدية العملاقة المتداعية هنا وهناك. بدا المشهد كأن معركة هائلة مُريعة خِيضت هنا منذ زمنٍ بعيد جدًّا.

أجاب الصبي نفسه على مضض: لا تكن أحمق، لقد عثروا على كل ما يُكن أن يُعثر عليه منذ خمسين عامًا مضت بعد حدوث الأمر، وحتَّى إذا لم يعثروا على كل شيء، فلا بُدَّ أن صبيًّا آخر -أو أحد الكبار- قد وجد... البقية... منذ ذلك الحين. أم هل تظن نفسك الوحيد الذي أتيت إلى هنا بحثًا عن تذكارات.

لا... لا أظنُّ ذلك، لكن...

لكن ماذا؟ هكذا أصر الجانب المُتعقِّل من عقله، وقد شعر مايك أنه يتحدَّث إليه بصوتٍ عالٍ إلى حدٍ ما، وسريع نوعًا أيضًا. حتَّى إن كان ثمَّة شيءٌ ما زال باقيًا للعثور عليه، فسيكون قد تحلَّل منذ أمدٍ بعيد. لذا... ما بك؟

وجد مايك درج مكتب مكسور بين الأعشاب. رمقه قليلًا، وقلبه جانبًا، ثم اقترب من الوهدة حيث يتكدَّس الرُكام. بالتأكيد سيجد شيئًا ما هناك.

ماذا عن الأشباح؟ هذا مُجرَّد فرض. ماذا لو رأيت أياديَ تمتد من حافَّة الوهدة، وماذا لو بدأوا في التسلُّق؟ أولئك الأطفال الذين ما زالوا يرتدون ملابس العيد، الملابس التي اهترأت وتمزَّقت ولُطِّخت بخمسين عامًا من طين الربيع وأمطار الخريف وثلوج الشتاء؟ أطفالٌ لا رؤوس لهم (لقد سمع في المدرسة أن بعد الانفجار، عثرت امرأة على رأس أحد الضحايا مُعلَّقة في الشجرة في باحة منزلها الخلفية)، أطفالٌ لا سيقان لهم، أطفالٌ مسلوخةٌ جلودهم كسمك القد، أطفالٌ مثلي تمامًا قد يأتون للعب... في الأسفل حيث ينتشر الظلام... أسفل العوارض الحديدية المائلة والتروس الكبيرة القديمة الصدِئة...

أوه، توقَّف، بالله عليك!

لكن قشعريرة بدأت تشق طريقها زاحفة علىَ عموده الفِقَري فقرَّر مايك أن الوقت حان ليأخذ شيئًا -أيَّ شيءٍ- ويفر من هنا فراره من الجحيم. مدَّ مايك يده إلى أسفل، وبشكلٍ عشوائي، التقط عجلة مُسنَّنة قُطرها نحو سبع بوصات. كان معه قلم في جيبه وقد استخدمه سريعًا ليُخرج الطين المُتكتِّل بين أسنانه، ثم دسَّ التذكار في جيبه. سيرحل الآن. سيرحل. أجل...

لكن قدميه سارتا ببطء إلى الاتِّجاه الخاطئ، نحو الوهدة، وقد أدرك في رُعبٍ موحش أنه يرغب في النظر داخلها. يجب أن يرى.

أمسك مايك بعارضة دعم ليِّنة تبرز مائلة من سطح الأرض وتأرجح إلى الأمام محاولًا اختلاس النظر إلى أسفل. لم ينجح في الأمر تمامًا. استطاع أن يقترب مسافة خمس عشرة قدمًا من الحافَّة، لكن هذا ما زال بعيدًا جدًا نوعًا ما لرؤية الجزء السفلي من الوهدة.

لا آبه لرؤية القاع من عدمه.. سأرحل الآن. لقد حصلت على تذكاري،

ولستُ في حاجة للنظر إلى أيِّ حُفرةٍ قديمةٍ مُزْرِيةٍ، كما أن أبي شدَّد عليَّ بضرورة الابتعاد عنها.

لكن الفضول المحموم الشقيّ الذي قبض تلابيبه لم ينوِ أن يُفلته. اقترب مايك من الوهدة خطوة بخطوة، وشعورٌ بالغثيان يتراكم في حلقه، واعيًا أنه ما إن تصير العارضة الخشبية بعيدًا عن متناوله، لن يكون أمامه شيئًا للتمسُّك به، ومُدركًا أيضًا أن التُربة هنا مُخلخلة وضعيفة بالفعل. في أماكن كثيرة حول الحافَّة، استطاع رؤية مُنخفضات بدت كقبورٍ سقطت بأصحابها، وقد علم أنها مواقع انهياراتٍ سابقة.

راح قلبه يدق في صدره كوقع خطوات جُندي يضرب الأرض بحذائه، خطوات مدروسة قويَّة، ووصل إلى الحافَّة ونظر بداخلها.

رفع الطائر المعشِّش في الوهدة بصره، ونظر إليه.

في البداية لم يكن مايك مُتأكِّدًا ممَّا يراه. بدا أن جميع المسارات والأعصاب في جسده جُمِّدت، بما فيها تلك المسؤولة عن توليد الأفكار. لم يكن هذا بسبب صدمة رؤية طائرٍ مسخٍ فحسب، طائرٍ بصدرٍ بُرتقالي كعصفور أبو حناء، وبريشٍ رمادي زغبي كريشِ عصفورٍ دوري، لكن أغلب الصدمة كانت بسبب المُفاجأة غير المُتوقَّعة تمامًا. لقد توقَّع رؤية وحداتٍ مُتراصة من ميكنات نصف مغمورة في برِكٍ آسنة وطينٍ أسود، لكن بدلًا من ذلك ها هو ينظر إلى عشٍّ عملاق يملأ الوهدة من طرفها إلى طرفها، ومن جانبٍ إلى الآخر. لقد بُني العُشُّ بكمِّية من عُشب تيموثي تكفي لصُنع اثنتي عشرة بالة من القش، لكن هذا العُشب كان فِضِّيًّا وعتيقًا. جلس الطائر في منتصفه، وعيناه حلقيَّتان تلمعان بسواد قطرانٍ طازج ساخنٍ، وللحظة جنونية خاطفة قبل انصهار شلله، استطاع مايك رؤية انعكاس صورته في كلٍّ منهما.

ثم بدأت الأرض فجأة بعدها في التحرُّك من تحت قدميه. سمع الصبي أصوات استسلام وتمزُّق الجذور السطحية وأدرك أنه ينزلق.

ألقى مايك بنفسه إلى الوراء صارخًا، مطوِّحًا ذراعيه في كل الاتِّجاهات لاستعادة توازنه، لكنه فقده وارتطم بقوَّة بالأرض المكسوَّة بحُطامٍ مُبعثر. انغرست قطعة قاسية من معدنٍ بلحم ظهره على نحوٍ موجع، وكان لديه وقت

ليُفكِّر في مقعد المُشرَّدين قبل أن يسمع صوت رفرفة جناحي الطائر القاصفة.

اندفع مايك على رُكبتيه زاحفًا وهو ينظر من فوق كتفه، وشاهد الطائر يصعد من الوهدة. كانت مخالبه الحُرشفية بُرتقالية داكنة بلون الغسق، وجناحيه القاصفين -اللذين يبلغ طول كلٍ منهما عشرة أقدام- يبعثران العُشب الذابل في هذا الاتِّجاه وذاك بعشوائية، كرياحٍ ولَّدتها مراوح طائرة مروحية. صرخ الطائر بزقزقة طانَّة، وسقط بعض الريش الفضفاض من جناحيه مرَّة أخرى إلى قاع الوهدة.

استعاد مايك السيطرة على قدميه وبدأ يركض.

تخبَّط الصبي الآن راكضًا عبر الحقل دون أن ينظر وراءه.. خائفًا من أن ينظر وراءه. الطائر لا يُشبه روادان، لكن مايك شعر بأنه روح روادان التي تصعد من فم وهدة مصنع حديد كيتشنر كلُعبة طائر عُلبة عفريتي مُريع. تعثَّر مايك، وسقط على إحدى رُكبتيه، ونهض، ثم واصل الركض.

اندلعت الصرخة المُزقزقة الطانَّة مُجدَّدًا. غمرهُ ظلٌّ كبير، وعندما رفع بصره رأى المخلوق: لقد مرَّ على ارتفاع خمسة أقدام فوق رأسه. انفتح منقاره الأصفر القذر وانغلق، كاشفًا عن بطانة وردية بداخله. حام الطائر في الهواء عائدًا تجاه مايك، ولفحت الرياح التي أحدثها وجهه حاملة رائحة جافة مُقزِّزة معها: رائحة قبوٍ مُغبَّر.. رائحة تُحفٍ بائدة.. رائحة وسائدٍ نتنة.

اندفع مايك إلى يساره، واستطاع الآن رؤية المدخنة الساقطة مرَّةً أخرى. انطلق مُسرعًا نحوها، بكل ما أوتيَ من قوَّة، وذراعاه تتحرَّكان بإيقاعٍ محمومٍ إلى جانبيه. صرخ الطائر، وسمع مايك صوت جناحيه. كان يُشبه صوت أشرعة سفينة. ارتطم شيءٌ ما بمؤخِّرة رأسه، وشعر الصبي بنيرانٍ دافئة تسري في قفاه، ثم شعر بالدماء تتقاطر على ياقة قميصه.

دار الطائر مرَّةً أخرى، قاصدًا أن يمسكه بمخالبه ويحمله بعيدًا كصقرٍ يقتنص فأر غيطان.. قاصدًا أن يحمله معه إلى العُشِّ.. قاصدًا أن يأكله.

ثبَّت الطائر عينيه الحيويَّتين المُريعتين عليه وهو ينزلق مُنقضًّا عليه، فاندفع مايك إلى اليمين بزاوية حادة. أخطأه الطائر.. بالكاد، وترامت إلى أنف مايك رائحة جناحيه المُترَّبين التي لا تُطاق.

إنه يركض الآن بمُحاذاة المدخنة الساقطة، ويبدو قرميدها ضبابيًا مشوَّشًا من فرط سُرعته. كان قادرًا على رؤية نهايتها. إذا استطاع بلوغ طرفها والإمساك به ثم الانعطاف يسارًا إلى الداخل، قد ينجو. فكَّر مايك أن الطائر أكبر من أن يحشر جسده داخلها. كاد مايك أن يخفق في محاولته. اندفع الطائر نحوه مرَّة أخرى، مُزيدًا من سُرعته مع اقترابه، وجناحاه يُرفرفان ويثيران الهواء كإعصارٍ، ومخالبه الحُرشفية تترصَّده وتهبط إليه. صرخ الطائر مرَّة أخرى، وهذه المرَّة استشعر مايك انتصارًا في صيحته.

خفض الصبي رأسه، واحتمى بذراعه، واندفع أمامًا في خطٍّ مُستقيم. أنشبت المخالب نفسها في ذراعه، وللحظة حاز الطائر صيده قابضًا إيَّاه. كانت القبضة كقبضة أصابع كاسحة القوَّة تنتهي بأظافر قاسية بشكلٍ يُستعصى تصديقه. كانت المخالب تعض كأنها أسنانٌ، وصار صوت رفرفة جناحي الطائر كهزيم الرَّعد في أذنيه، ولم يع مايك تمامًا بالريش الذي يتساقط في كل مكانٍ من حوله، الذي راح بعضه يتلمَّس وجنتيه كقُبُلاتٍ شبحية. أقلع الطائر بعدها، وللحظة شعر مايك بجسده يُرفع عاليًا إلى أن استقام، ثم وجد نفسه على أطراف أصابعه... وللحظة تجمَّد فيها الدم في عروقه شعر مايك بحذائه الرياضي الكيدس يفقد اتصاله بالأرض.

«أفلتني!». هكذا صرخ وهو يلوي ذراعه. للحظة، ظلَّت المخالب مُنشَبة فيه، ثم تمزَّق كُمُّ قميصه بعدها. سقط مايك على الأرض، ونعب الطائر. ركض مايك من جديد، مُندفعًا خلال ريش ذيل المخلوق، مُكمِّمًا أنفه من تلك الرَّائحة الخانقة. كان الأمر كالاندفاع عبر ستارة حمَّامٍ مصنوعة من الريش.

تعثَّر مايك في المدخنة الساقطة بينما هو ما زال يسعل وعيناه تدمعان من ذلك الغبار الخبيث الذي يُغلِّف ريش الطائر. لم يكن ثمَّة مجالٌ الآن للتفكير في ما قد يكون رابضًا بالداخل. ركض مايك إلى جوف الظلام، واكتسبت شهقاته المذعورة رجع صدى تردَّد عبر التجويف. عاد إلى الوراء مسافة عشرين قدمًا تقريبًا ثم انعطف إلى دائرة برَّاقة من الضوء. كان صدره يعلو ويهبط بسُرعة خاطفة، وقد أدرك فجأة أنه لو كان أساء تقدير حجم الطائر أو

حجم فوَّهة المدخنة، فكان سيقتل نفسه من دون شك بذات الكفاءة لو ثبَّت فوَّهة مُسدَّس أبيه إلى صدغه وأطلق الزناد. لم يكن هناك مخرج. هذه ليست مُجرَّد ماسورة. إنها حارة سد. الطرف الآخر للمدخنة مدفون في الأرض.

زعق الطائر مرَّة أخرى، وفجأة حُجِب الضوء الآتي من نهاية المدخنة. استطاع رؤية القدمين الصفراوين الحُرشفيتين، كلٍ منهما في سُمكِ ساقِ رجُلٍ ضخم، ثم خفض الطائر رأسه إلى أسفل ونظر داخل المدخنة، وجد مايك نفسه مرَّة أخرى يُحدِّق في هاتين العينين اللامعتين كالقطران السائل الطازج، اللتين تحدُّ حدقتيهما حلقتان لامعتان كخاتمي زواج. فُتح مُنقار الطائر وأُغلِق، ثم فُتح وأُغلِق، وفي كل مرَّة أُغلِق فيها صدرت عنه نقرة مسموعة، كالصوت الذي تسمعه في أذنيك عندما تطق أسنانك معًا بقوَّة. إنه حاد، هكذا فكَّر مايك، إن منقاره حادٌ. أظنُّ أنني أعلم أن للطيور مناقيرَ حادة، لكنني لم أُفكِّر في الأمر حقًّا إلا الآن.

زعق الطائر شاكيًا مرَّة أخرى بصوتٍ حاد. سرى الصوت قويًّا في حلق المدخنة القرميد لدرجة أن مايك سجن أذنيه بكفَّيه.

بدأ الطائر يحشر جسده في فوَّهة المدخنة.

صرخ مايك مُحتجًّا: «لا. لا، لن تستطيع!».

خفت الضوء أكثر بينما يضغط الطائر جسده شاقًا طريقه داخل تجويف المدخنة (يا ربي، لِمَ لم أتذكَّر أن معظم جسده ريش؟ لِمَ لم أتذكَّر أنه قابل للانضغاط؟). خفُت الضوء... وخفُت... ثم تلاشى. الآن لم تعد توجد سوى الظُلمة الحالكة بلون الحبر، ورائحة الطائر الخانقة المُغبَّرة، وصوت حفيف ريشه.

ركع مايك على رُكبتيه وبدأ يتلمَّس سطح أرضية المدخنة المُنحني، مُباعدًا بين كفَّيه، مُتحسِّسًا. عثر على قطعة قرميدٍ مكسورة حوافها الحادة مكسوَّة بما شعر بأنه طحالب. طوَّح ذراعه إلى الوراء وألقاها في اتِّجاهه، وسمع صوت الضربة القوية. أصدر الطائر صوت الزقزقة الطانَّة من جديد.

صرخ مايك: «اخرج من هنا!».

تبع ذلك صمتٌ... ثم بعدها تواصل صوت الحفيف والخشخشة مرَّة

أخرى فيما واصل الطائر زجَّ جسده الضخم داخل الأنبوب. تحسَّس مايك كل شبر في الأرض من حوله، عاثرًا على أجزاءٍ أخرى من القرميد، وبدأ في رميها واحدة تلو الأخرى. اصطدمت جميعها بجسد الطائر بصوت خبطٍ مكتومٍ، ثم سقطت على أرضية سطح المدخنة مُحدثة قعقعة معدنية.

فكَّر مايك مُشوَّشًا: أرجوك يا ربي. أرجوك يا ربي. أرجوك يا ربي. أرجوك...

ثم لمعت في عقله فكرة أن ينسحب إلى الوراء عبر تجويف المدخنة. لقد دلف إليها عبر الجزء الذي شكَّل قاعدتها قديمًا، ومن المنطقي أنها ستضيق مع تحرُّكِه مُنسحبًا إلى الخلف خلالها. أجل سوف ينسحب، وسيستمع إلى ذلك الحفيف المُترَّب بينما يشق الطائر طريقه من خلفه. سوف يتراجع، وإذا كان محظوظًا بما يكفي فقد يتجاوز النقطة التي لا يُمكن للطائر أن يتقدَّم بعدها.

لكن ماذا لو انحشر الطائر؟

إذا حدث ذلك، فلسوف يموت هو والطائر هنا معًا. لسوف يموتان معًا ويتحلَّلان معًا.. في جوف الظلام.

صرخ مايك: «أرجوك يا ربي!»، دون أن يعي أنه يجهر بها بصوتٍ مُرتفع. رمى مايك قطعة قرميدٍ أخرى، وهذه المرَّة كانت الرمية أكثر قوَّة.. لقد شعر -كما سيُخبر الآخرين لاحقًا- كأن شخصًا ما كان خلفه في تلك اللحظة، وهذا الشخص قد أعطاه دفعة هائلة. هذه المرَّة لم يكن ثمَّة دويٍ مكتوم، وإنما صوت صفعٍ كالذي يُمكن أن يصدر عندما يخبط طفلٌ بيده سطح صحن هُلام نصف صلب. هذه المرَّة لم يصرخ الطائر غاضبًا وإنما من الألم. ضجَّت المدخنة بحفيف جناحيه، وتدفَّق الهواء النَّتن في اتِّجاه مايك كالإعصار مُحرِّكًا ملابسه، وجعله يسعل ويختنق ويتراجع بينما يتطاير الغبار والطحالب من حوله.

بزغ الضوء مرَّة أخرى، ضعيفًا في البداية، ثم ساطعًا ومُتغيِّرًا فيما كان الطائر يتراجع خارجًا من فوَّهة المدخنة. انفجر مايك باكيًا، وسقط على رُكبتيه ثانيةً، وبدأ يجمع بجنون مزيدًا من قطع القرميد.

دون أي تفكيرٍ واعي، انطلق مايك راكضًا إلى الأمام بيدين مليئتين بشظايا القرميد (في هذه الإضاءة استطاع رؤية أن القطع مكسوَّة بطحالب زرقاء رمادية ونبات الأشنة، تمامًا كأسطح شواهد القبور الحجرية)، إلى أن شارف على فم المدخنة. كان ينتوي منع الطائر من العودة إذا استطاع.

انحنى المخلوق، مُحرِّكًا رأسه سريعًا بالطريقة التي يُحرِّك بها طائرٌ مُدرَّب رأسه أحيانًا، وشاهد مايك المكان الذي أصابته رميته الأخيرة. لقد ذهبت عين الطائر اليُمنى بالكامل تقريبًا، وبدلًا من حُفرة القطران الأسود اللامع، يوجد الآن تجويفٌ مليءٌ بالدماء. تقاطر سائلٌ أبيض رمادي من محجر عينه وارتشح بامتداد طول منقار الطائر. ثمَّة طُفيليات صغيرة تتلوَّى وتتملَّص في هذا القيح المُتدفِّق.

شاهده المخلوق فاندفع أمامًا. بدأ مايك في رمي القرميد عليه، وارتطمت الأجزاء برأسه ومنقاره. تراجع الشَّيءُ لحظة، ثم هجم من جديد بمنقارٍ مفتوح، كاشفًا عن بطانته الداخلية الوردية مرَّة أخرى، وكاشفًا عن شيءٍ آخر جعل مايك يتجمَّد في مكانه هنيهة بفمٍ مفتوح هو الآخر. كان لسان الطائر فِضِّيًا، وسطحه مُشقَّقًا ومصدوعًا كسطح تُربة بُركانية كانت ساخنة وبردت.

وعلى ذلك اللسان، توجد مجموعة من الكريات البُرتقالية، كحشيشة مُتدحرجة تجذَّرت في مكانها بصفة مؤقَّتة.

رمي مايك آخر قطعة قرميد في جعبته إلى ذلك البلعوم المفتوح فتراجع الطائر من جديد صارخًا من الغيظ والغضب والألم. استطاع مايك رؤية مخالبه الحُرشفية للحظة... ثم ضرب جناحيه الهواء وذهب.

راح الطائر يسير جيئةً وذهابًا فوق رأسه على سطح المدخنة الخارجي: تاك- تاك- تاك- تاك.

تراجع مايك قليلًا، وجمع مزيدًا من قطع القرميد، وكدَّسها قُرب فم المدخنة بقدر ما تجرَّأ. إنه يريد أن يكون قادرًا على قذفه بها من مسافة قريبة إذا عاد. الضوء في الخارج ما زال ساطعًا... الآن بما أننا في مايو، فما زال أمام العالم كثيرٌ من الوقت ليحلِ ظلامه... لكن افترض أن الطائر قرَّر الانتظار؟

ابتلع مايك لُعابه، واحتكَّت جوانب حنجرته الجافة ببلعومه للحظة.

ومن فوق رأسه استمرَّ الصوت: تاك- تاك- تاك.

لديه كومة جيِّدة من الذخيرة الآن. في الضوء الخافت، هنا وراء البُقعة التي خلَّف فيها ضوء الشمس الساقط بميلٍ ظلًّا حلزونيًّا داخل الماسورة، بدت ذخيرته ككومة آنية فُخارية مُحطَّمة جمعتها ربَّة منزل بمكنستها. فرك مايك راحتي يديه المُتَّسختين في جانبي سراويله الچينز وانتظر ليرى ماذا سيحدث بعدها.

مرَّت فُسحة من الوقت قبل أن يحدث أمرٌ... لم يعرف مايك إن كانت خمس دقائق أم خمس وعشرين دقيقة. كان يدرك فقط أن الطائر يمشي ذهابًا وإيابًا فوق رأسه كمُصابٍ بالأرق يذرع الرُدهة في الثالثة صباحًا.

ثم خفق الجناحان من جديد، وهبط الطائر أمام فتحة المدخنة. أطلق مايك الجاثم على رُكبتيه خلف كومة القرميد قذائفه عليه قبل أن يستطيع حني رأسه والنظر إلى الداخل. ارتطمت إحداها بقدمه الصفراء الخشنة ورسمت خيطًا من الدماء بدا شديد القتامة كلون عيني الطائر السوداوين تقريبًا. صرخ مايك مُظفَّرًا. كان صوته رفيعًا وضاع تقريبًا وسط نعيق الطائر الغاضب.

صاح مايك: «ابتعد عن هنا! سأواصل ضربك إلى أن تبتعد عن هنا، والله سأفعل!».

طار الطائر إلى قمة المدخنة وواصل سيره المحموم.

انتظر مايك.

في النهاية سمع رفرفة الجناحين من جديد وهو يُقلع. انتظر مايك، متوقِّعًا ظهور القدمين الصفراوين الشبيهتين بأقدام الدجاج، لكنهما لم تظهرا، واصل الصبي انتظاره، مُقتنعًا أن في الأمر خُدعة ما، ثم أدرك في النهاية أن هذا ليس سبب انتظاره الحقيقي على الإطلاق. إنه ينتظر لأنه يخاف الخروج. يخاف مُغادرة مأمن ملجأه هذا.

لا تُلقِ بالًا! لا تُلقِ بالًا بأمورٍ كهذي! أنا لستُ جبانًا.

حمل مايك كل ما يستطيع حمله من شظايا القرميد، ثم وضع مزيدًا منها في قميصه. خطا خارج المدخنة، وهو يحاول النظر في كل الاتِّجاهات في وقتٍ واحد، وتمنَّى لو كان يمتلك عيونًا في مؤخِّرة رأسه. لم يرَ سوى

الحقل المُمتد أمامه ومن حوله الذي تتناثر فيه البقايا الصدئة لانفجار مصنع حديد كيتشنر. التفت خلفه، بالتأكيد سيرى الطائر جاثمًا على شفة المدخنة كالصقر -كصقرٍ بعينٍ واحدة الآن- مُنتظرًا اللحظة التي سيراه فيه الصبي قبل أن يهجم مُنقضًّا عليه مرَّة أخيرة، عاملًا هذا المنقار الحاد في جسده طاعنًا ومُمزِّقًا وشارطًا.

لكن الطائر لم يكن هناك.

لقد رحل بالفعل.

تفكَّكت أعصاب مايك.

صرخ مايك كاسرًا حاجز الخوف وركض إلى السياج الفاصل بين الحقل والطريق الذي أكلته عوامل التعرية، مُسقطًا آخر قطع القرميد من يديه. كان معظمها قد سقط من قميصه عندما تحرَّر الأخير من حزامه. قبض الصبي السياج بيدٍ واحدة واعتلاه مثل روي روچرز عندما يستعرض مهاراته أمام دال إيڤانز في طريق عودته من المزرعة مع بات برادي وبقية رُعاة البقر. أمسك بمقابض مقود درَّاجته وركض جوارها مسافة أربعين قدمًا عبر الطريق قبل أن يمتطيها، ثم دعس دوَّاستيها بجنون دون أن يجرؤ على النظر وراءه -ودون أن يجرؤ على إبطاء سُرعته- حتَّى وصل تقاطع طريق المراعي مع الشارع الرئيس الخارجي، حيث كانت سيَّارات عديدة تعبر الطريق ذهابًا وإيابًا.

عندما وصل إلى المنزل، كان أبوه يُغيِّر شمعات الجرَّار. لاحظ ويل أن مايك يبدو مُتَّسخًا وملوَّثًا بالطين بشدَّة. تردَّد مايك لحظة قبل أن يخبر والده أنه تعثر وسقط من درَّاجته وهو في طريقه إلى المنزل وهو يُحاول تفادي حُفرة.

سأله ويل وهو يتفحَّصه من كثب أكثر: «هل كسرت أيًّا من عظامك يا مايكي؟».

- «لا يا سيِّدي».

- «أيُّ التواءات؟».

- «تؤ تؤ».

- «مُتأكِّد؟».

أومأ مايك.

- «هل حصلت لنفسك على تذكارٍ؟».

مدَّ مايك يده إلى جيبه وأخرج العجلة المسنَّنة. أراها لوالده، الذي نظر إليها سريعًا ثم التقطَ بعض فُتات القرميد من أسفل ظفر إبهام مايك، وبدا مُهتمًّا بهذا أكثر من تلك.

سأله ويل: «أهذا من تلك المدخنة القديمة؟».

أومأ مايك.

- «هل سرت بداخلها؟».

أومأ مايك مرَّة أخرى.

سأله ويل: «هل رأيت أيَّ شيءٍ بالداخل؟»، ثم ليجعل سؤاله فُكاهيًّا أكثر -والذي لم يبد كذلك على الإطلاق- أضاف: «كنزًا مدفونًا مثلًا؟».

هزَّ مايك رأسه نافيًا وهو يبتسم قليلًا.

قال ويل: «حسنًا، لا تخبر أمك أنك كنت تعبث هناك، لسوف تُطلق النار عليَّ أوَّلًا ثم عليك»، ونظر بعدها إلى ابنه بحرصٍ أكبر وأردف: «مايك، هل أنت بخير؟».

- «ماذا؟».

- «تبدو شاحبًا وهازلًا قليلًا وعيناك غائرتان».

قال مايك: «أظنُّ أنني مُرهق قليلًا، لا تنس أنها مسافة ثمانية أو عشرة أميال وصولًا إلى هناك والعودة مرَّة أخرى. أتريد أيَّ مُساعدة في صيانة الجرَّار يا بابا؟».

- «لا، لقد شارفت على الانتهاء من تخريبه بما يكفي لهذا الأسبوع. اذهب أنت واغتسل».

سار مايك مُبتعدًا، ثم ناداه أبوه بعدها مرَّة أخرى. نظر مايك إلى الوراء.

قال ويل: «لا أُريدك أن تذهب إلى ذلك المكان مرَّة أخرى يا مايك، على الأقل إلى أن تنتهي هذه المحنة ويُمسكوا بالرَّجُل الذي يرتكب هذه الأمور... أنت لم ترَ أيَّ شخصٍ هناك، أليس كذلك؟ لم يُطاردك أو يتعقَّبك أحدٌ؟».

قال مايك: «لم أرَ بشرًا هناك على الإطلاق».

أومأ ويل مُتفهِّمًا وأشعل سيجارة: «أظنُّ أنني كنت مُخطئًا عندما أرسلتك إلى هناك، الأماكن القديمة كهذا المكان... قد تكون خطرة أحيانًا».

تسمَّرت نظرتاهما معًا بُرهة وجيزة.

قال مايك: «حسنًا يا بابا، أنا لا أريد العودة إلى هناك على أيِّ حال. المكان مُخيف إلى حدٍ ما».

أومأ ويل مُجدَّدًا وقال: «قلة الكلام أفضل، أظنُّ ذلك. اذهب واغتسل الآن، وأَخبِرها أن تضع ثلاث أو أربع نقانق إضافية في صحنك».

وقد فعل مايك.

6

لا تُلق بالًا بهذا الآن، هكذا فكَّر مايك هانلون وهو يرمق الأخدودين المُمتدَّين إلى حافَّة جدار القناة الخرساني ويتوقَّفان هناك. لا تُلقِ بالًا بهذا، رُبَّما كانت التجربة كلها مُجرَّد حلم يقظة على أيِّ حال، و...

ثمَّة بُقع دماءٍ جافة على حافَّة القناة.

نظر مايك إلى الدماء، ثم نظر إلى أسفل تجاه القناة. كانت المياه السوداء تجري بنعومة، وكانت هناك رغوة صفراء قذرة تلتصق على جانبي القناة، وأحيانًا كانت تتحرَّر وتتدفَّق مع مجرى النهر في مُنحنياتٍ وحلقاتٍ كسولٍ. للحظة -فقط للحظة- تداخلت كُتلتان من هذه الرغوة وشكَّلتا وجهًا.. وجه صبي عيناه شاخصتان كشعارٍ للرعب والعذاب.

انحشرت أنفاس مايك، كأن شوكة علقت في حلقه.

تكسَّرت الرغوة، وصارت عديمة المعنى والهيئة من جديد، وفي هذه اللحظة علا صوت تناثر ماء إلى يمينه. لفَّ مايك رأسه حوله، وانكمش قليلًا، وللحظة عابرة ظن أنه شاهد شيئًا في ظلال النفق الخارجي حيث تعاود القناة الظهور خارجة من مسارها أسفل وسط المدينة.

ثم تلاشى الصوت.

فجأة -مرتعدًا وشاعرًا بالبرد- مدَّ مايك يده إلى جيبه ليُخرج السكين الذي عثر عليها في العُشب. ألقى بها مايك إلى القناة، وأحدثت (طرطشة)

صغيرة تبعها تموُّجٌ بدأ كدائرة ثم مطَّهُ التيَّار إلى هيئة رأس سهمٍ... ثم لم يبقَ شيءٌ.

لا شيء سوى الذُعر الذي بدأ يخنقه فجأة، ويقينه القاتل أن ثمَّة شيئًا ما قريبًا: شيءٌ يُراقبه.. يقيس فُرصهُ.. ينتظر لحظته المُناسبة.

استدار مايك قاصدًا العودة إلى حيث ترك درَّاجته -إذا ركض سيضاعف مخاوفه ويزدري نفسه- وترامى صوت تناثُر الماء إليه من جديد. كان أكثر ارتفاعًا هذه المرَّة الثانية. فجأة بدأ يركض بأسرع ما يستطيع، مُندفعًا بكل ذرَّة في كيانه إلى البوَّابة ودرَّاجته، ثم ضرب مسندها بأحد كعبيه وبدأ يدهس دوَّاساتها بكل ما في جعبته من قوَّة. لقد غلظت رائحة البحر دُفعة واحدة... غلظت تمامًا.. إنها تأتي من كل اتِّجاه.. وصوت الماء الذي يقطر من فروع الأشجار الرطبة بدا مرتفعًا جدًّا في أُذُنيه.

شيءٌ ما قادم. لقد سمع وقع أقدامه البطيئة المترنِّحة فوق العُشب.

وقف مايك على دوَّاستي الدرَّاجة باذلًا كل ما في جعبته من مجهود، مُنطلقًا إلى الشارع الرئيس دون أن ينظر خلفه. اتَّجه إلى المنزل بأسرع ما يستطيع، مُتعجِّبًا -في ذُعر- ممَّا استحوذ عليه في المقام الأوَّل وجعله يأتي إلى هنا... ما الذي استدرجه؟

بعدها، حاول صب جل تفكيره في مهام المزرعة.. جميع المهام.. ولا شيء غير المهام.. وبعد مرور بعض الوقت نجح بالفعل.

عندما قرأ مايك في اليوم التالي عنوان الخبر الرئيس في الجريدة (صبيٌّ مفقود يؤجِّج مخاوفَ جديدة)، فكَّر في المدية التي ألقى بها إلى القناة.. المدية التي تحمل الحرفين الأوَّلين إي سي محفورين على جانبها. فكَّر في الدم الذي شاهده على العُشب.

وفكَّر أيضًا في ذينك الأخدودين اللذين ينتهيان عند حافَّة القناة.

الفصل السَّابع

السدُّ في البَرِّية

1

عند رؤيتها من الطريق السريع في الخامسة إلا الرُّبع فجرًا، تبدو بوسطن كمدينة موتى مهمومة بمأساة ما حدثت في ماضيها.. طاعون رُبَّما، أو لعنة. رائحة الملح الكثيفة المُزكِمة تأتي من المُحيط، وضباب الصباح الباكر يحجب كثيرًا من الحركة كانت سترُى بخلاف ذلك.

في أثناء ما كان جالسًا خلف مقود سيارة الكاديلاك السوداء طراز 84 التي أخذها من بوتش كارينجتون من مقرِّ كيب كود لليموزين، وبينما كان يقودها شمال البلاد على طول طريق ستورو السريع، فكَّر إدي كاسبراك أنه قادر على استشعار عُمر المدينة. رُبَّما لا يستطيع المرء أن يستشعر هذا الشعور بالزمن العميق في أيِّ مكانٍ آخر في أمريكا بخلاف هنا. إن بوسطن لطفلة غريرة إذا ما قُورنت بلندن، ورضيعة إذا ما قُورنت بروما، لكنها وفقًا للمعايير الأمريكية على الأقل قديمة.. قديمة حقًّا. لقد أبقت على مكانها فوق هذه التلال الخفيضة مُدَّة ثلاثمئة سنة، عندما لم يكن أحد قد فكَّر بعد في فرض الضرائب على الشاي والبريد، وقبل ميلاد بول ريفير[1] وباتريك هنري[2].

كل هذه الأمور مُجتمعة وتَّرت إدي.. عمر المدينة.. صمتها.. والضباب

(1) بول ريفير (1735–1818): صائغ فضة أمريكي وأحد رواد الصناعة في البلاد، وكان أحد الوطنيين في الثورة الأمريكية.

(2) باتريك هنري (1736–1799): مُزارع ومحامٍ وسياسي أمريكي شغل منصب أول وسادس حاكم لولاية ڤرچينيا بعد الاستعمار.

المُحمَّل برائحة البحر.. وعندما يتوتَّر إدي فإنه يمد يده إلى بخَّاخه. دسَّ إدي البخَّاخ في فمه وضغط الزناد مُطلقًا سراح سحابة رذاذ مُنعشة في حلقه.

ثمَّة سيَّارات قليلة في الشوارع التي يعبرها، واثنان أو ثلاثة مُشاة يسيرون على معابر الطريق، وقد أعطوه انطباعًا أنه ضل طريقه بطريقةٍ ما إلى إحدى القصص اللاڤاكرافتية التي تحكي عن مُدنٍ ملعونة، وشرورٍ عتيقة، ووحوشٍ بأسماءٍ يتعذَّر نُطقها. شاهد إدي نادلات، ومُمرِّضات، ومُوظَّفين بوجوهٍ عاريةٍ من التعبير ومنتفخة من أثر النوم، متجمِّعين حول محطَّة حافلات أسفل لافتة تقول وسط المدينة ميدان كنمور.

شُطَّار، هكذا فكَّر إدي وهو يمرُّ الآن أسفل لافتة طريق تعلن جسر توبين. شُطَّار، اركبوا الحافلات. انسوا أمر مترو الأنفاق. إن مترو الأنفاق لفكرة سيِّئة، ولن أُفكِّر في الذهاب إلى هناك إن كنت مكانكم. ليس في الأسفل.. ليس في الأنفاق.

هذه أفكارٌ سيِّئة يجب ألَّا يُمعن التفكير بها. إذا لم يتخلَّص منها لسوف يستخدم بخَّاخه قريبًا مرَّة أخرى. شعر إدي بسعادة بسبب الكثافة المرورية أعلى جسر توبين. إنه يمرُّ بالمعالم التذكارية، وعلى الجانب الحجري للجسر مطبوع النصيحة التالية المُقلقة نوعًا: هدِّئ السرعة! نستطيع الانتظار.

هنا لافتة أخرى خضراء عاكسة تقول: الطريق 95 إلى مين، نيوهامبشير، شمال نيو إنجلاند. نظر إدي إليها وشعر فجأة برجفة تسري في عظامه. التحمت يداه بشكلٍ لحظي بمقود الكاديلاك. كان يود لو أنه يعتقد أن هذا بداية مرضٍ ما، ڤيروس أو إحدى حُمِّيات أمه الوهمية، لكنه كان أذكى من ذلك. إنها تلك المدينة من خلفه التي ترقد في صمتٍ على الحافَّة المُستقيمة التي تفصل النهار عن الليل، وما تعد به اللافتة الأخرى أمامه. إنه مريض بالطبع، لا شكَّ في ذلك، لكنه ليس مريضًا بڤيروس أو بحُمَّى وهمية.. إنما تُسمِّمه ذكرياته الخاصة.

أنا خائف، هكذا فكَّر إدي، هذا مربط الفرس. أنا خائف فحسب، هذا كل شيء. لكنني أظنُّ أننا قلبنا السحر على الساحر بطريقةٍ ما، لقد استغللناه، لكن كيف؟

إنه عاجز عن التذكُّر، ولا يعرف إن كان أحدٌ من الآخرين يستطيع التذكُّر أم لا.. لكنه يأمل ذلك من أجل خواطرهم جميعًا.

عبرت شاحنة من يساره. كانت مصابيح سيَّارة إدي مُضاءة بالفعل، والآن أومض إدي النور العالي بشكل خاطف فيما توجَّهت الشاحنة بأمان أمامًا. لقد فعلها دون أن يُفكِّر لأن الأمر صار وظيفة تلقائية.. هذا ما يكتسبه من يقود سيَّارات من أجل كسب قوته. أضاء سائق الشاحنة الخفي مصابيحها الإضافية مرَّتين سريعًا في المُقابل، شاكرًا إدي على كياسته. آه لو أمكن أن يصير كل شيء بهذه البساطة والوضوح، هكذا فكَّر.

تتبَّع إدي اللافتات إلى الطريق 95-1. إن حركة المرور شمالًا خفيفة، رغم أنه لاحظ أن الممرَّات الجنوبية إلى المدينة بدأت تمتلئ، حتَّى في هذه الساعة المُبكِّرة. قاد إدي السيَّارة الكبيرة بسلاسة، مُخمِّنًا إلى أين ستشير معظم اللافتات الإرشادية قبل أن يراها، وعارجًا إلى الحارات الصحيحة قبل أوانها بفترة كبيرة. لقد مرَّت سنون -سنون بالفعل- منذ أن خمَّن تخمينًا خاطئًا تسبَّب في إبعاده عن المخرج الذي يقصده. إنه يختار حاراته بالتلقائية ذاتها التي أومض بها ضوء مصابيحه إلى سائق الشاحنة برسالة «يُمكنك المرور»، بالتلقائية ذاتها التي عثر بها على طريقه عبر تشابُك المسارات المُعقَّد في برِّية ديري. في الواقع هو لم يقُد من قبل قط في شوارع وسط مدينة بوسطن، ولم يبدُ أن إحدى أكثر مُدن أمريكا إرباكًا في القيادة تُزعجه في شيء.

فجأة تذكَّر إدي شيئًا آخر عن ذلك الصيف، شيئًا قاله له بيل ذات يوم: «أنت لـ-لـ-لـ-لديك بو-بو-بوصلة في ر-ر-رأسك يا إ-إ-إدي».

لكم أسعده ذلك القول! وها هو يُسعده من جديد بينما الكاديلاك طراز 84 تعبر محطَّة تحصيل الرسوم. زاد إدي من سُرعة الليموزين إلى خمسة وسبعين ميلًا في الساعة (وهي سُرعة آمنة من شُرطة المرور) وقلَّب في الراديو إلى أن وجد موسيقى هادئة فأبقاها. ظنَّ إدي أنه كان مُستعدًا للموت في سبيل بيل في ذلك الوقت إذا طُلِبَ منه ذلك. لو أن بيل سأله فعل الأمر، فكان سيُجيب بمنتهى البساطة: «بالتأكيد يا بيل يا كبير.. هل ثمَّة وقتٌ مُعيَّنٌ في بالك؟».

ضحك إدي. لم يضحك بصوتٍ عالٍ، بل فلتت منه شخرة قصيرة، لكن

صوتها جعله يضحك ضحكة حقيقية. نادرًا ما يضحك إدي هذه الأيَّام، وبالتأكيد هو لا يتوقَّع أن يحظى بهأهآت كثيرة (تلك لفظة ريتشي للضحك، كما اعتاد قولها في سؤاله الدائم له قديمًا: «أحظيت بهأهآت جيِّدة اليوم يا إدز؟») في هذه السفرية السوداء. لكن لو كان الله لئيمًا بما يكفي لتعذيب المؤمنين بأكثر ما يرغبون في الحياة، فربَّما هو مُراوغٌ بما يكفي لانتزاع هأهأة أو اثنتين منك على طول الطريق.

«أحظيت بأيٍّ هأهآت جيِّدة مؤخَّرًا يا إدز؟». قالها إدي بصوتٍ عالٍ وضحك مرَّة أخرى. لكم كان يكره أن يُناديه ريتشي بإدز... لكنه كان يُحب الأمر نوعًا ما في الوقت نفسه، بالطريقة نفسها التي ظن بها أن بن هانسكوم يُحب أن يدعوه ريتشي بكومة القش. لقد بدا الأمر له كـ... كاسم سرِّي.. كهوية سرِّية.. كبوَّابة عبور ليصيرون أشخاصًا لا علاقة لهم بمخاوف آبائهم وآمالهم ومطالبهم المُستمرَّة. لم يكن ريتشي قادرًا على الانتفاع بتقليد الأصوات في شيء، لكنه ربَّما كان يعرف مدى أهمِّية أصواته لتوافِه مثلهم، وكيف أنها جعلتهم يصيروا أناسًا آخرين ولو لبعض الوقت.

نظر إدي إلى الفكَّة المتراصة بأناقة على لوحة عدَّادات السيَّارة الكاديلاك. كان تنظيم الفكَّة في صفوفٍ إحدى تلك الحيل التلقائية التي صارت طبيعة ثانية له. عندما تقترب أكشاك تحصيل الرسوم، لن تحب أبدًا البحث عن الفضِّية في جيبك، لن تحب أبدًا أن تقود سيَّارتك إلى حارة تحصيل آلية وأنت تحمل قطعًا نقدية غير مُلائمة.

بين العملات النقدية، ثمَّة دولاران أو ثلاثة دولارات فضِّية عليها نقش وجه سوزان أنتوني[1]. فكَّر إدي: هذه عملات غالبًا لن تجدها إلا في جيوب سائقي التاكسي القادمين من منطقة نيويورك هذه الأيَّام، تمامًا كما أن المكان الوحيد الذي أنت عُرضة لترى فيه كثيرًا من الأوراق فئة دولارين لهو شباك

---

(1) سوزان برونويل أنتوني (1820- 1906): مُصلحة اجتماعية أمريكية وناشطة في مجال حقوق المرأة. لعبت دورًا محوريًّا في حصول المرأة على حقّ الاقتراع، وأصبحت وكيلة ولاية نيويورك للجمعية الأمريكية لمكافحة الرق عام 1856.

أرباح مضمار سباق سيَّارات. كان إدي دائمًا ما يحتفظ بحفنة منها في متناول يده لأن كبائن تحصيل الرسوم الآلية الناطقة على جسري چورچ واشنطن وتريبورو تأخذها منه.

باغتت ذكرى أخرى رأسه كشرارة برقٍ مُفاجئة: الدولارات الفِضِّية! لا ساندويتشات النحاس الزائفة تلك وإنما الدولارات الفِضِّية الحقيقية المختومة بنقش تمثال سيِّدة الحُرِّية المُسربلة في ردائها الشفاف. دولارات بن هانسكوم الفِضِّية. أجل! لكن هل كان بيل أم بن أم بيڤرلي من استخدم أحد هذه الدولارات الفِضِّية ذات مرَّة لإنقاذ حياتهم؟ إنه ليس متأكِّدًا تمامًا من الأمر. في الحقيقة، هو ليس متأكِّدًا على الإطلاق من أيِّ شيءٍ... أم أهو غير راغبٍ في التذكُّر فحسب؟

كان المكان مُظلمًا هناك في الداخل، هكذا فكَّر إدي فجأة. أنا أتذكَّر هذا جيِّدًا. كان المكان مُظلمًا بشدَّة.

صارت بوسطن خلفه الآن بمسافة كبيرة وقد بدأ الضباب في الانقشاع. أمامه لافتة تقول: الطريق 95 إلى ولاية مين، نيوهامبشير، شمال نيو إنجلاند. إن ديري أمامه، وثمَّة شيءٍ في ديري يُفترض أنه مات منذ سبع وعشرين سنة لكن يبدو أنه لم يزل حيًّا. شيءٌ بألف وجه تمامًا كلون تشاني الأكبر[1]. لكن أهو كذلك بالفعل؟ ألم يروه في النهاية في صورته الحقيقية، عندما خُلِعت جميع الأقنعة عنه؟

آه، إنه يتذكَّر كثيرًا من الأمور... لكن ليس بما يكفي.

إنه يتذكَّر كم أحب بيل دِنبروه.. يتذكَّر ذلك جيِّدًا. لم يكن بيل يسخر قط من نوبات ربوه. لم ينعته بيل قط بالشاذ المُخنَّث الصغير. لقد أحب بيل بالقدر الذي كان سيحب به أخاه الأكبر... أو أباه. بيل يعرف أشياء لفعلها، وأماكن لارتيادها، وأمورًا لرؤيتها. بيل لم يكن شيءٌ يصعب عليه. عندما تركض مع

(1) لون تشاني (1883–1930): ممثِّل أمريكي، وأحد أشهر متقمِّصي الشخصيات الغرائبية في أفلام الرُّعب قديمًا في الحقبة الصامتة. نُعِت باسم «الرجل ذو الألف وجه» بفضل تحكمه الجيِّد بفن الماكياج، وعشرات الشخصيات مختلفة الملامح التي تقمَّصها.

بيل فإنك تركض لتسبق الشيطان وأنت تضحك... لكن أنفاسك لا تتقطَّع أبدًا، وألَّا تتقطَّع أنفاسك لهو أمرٌ عظيم، بل شديد العظمة، هكذا كان إدي يرغب في إخبار العالم. عندما تركض مع بيل الكبير، فأنت تحظى بهأهآتك كل يوم.

«بالتأكيد يا غُلام، كل-يوم». قالها إدي بصوت ريتشي توزييه، وضحك مرَّةً أخرى.

لقد كانت فكرة إقامة السدَّ في البرِّية فكرة بيل، وكان السدُّ -بطريقةٍ ما- هو ما جمع شملهم. صحيح أن بن هانسكوم هو الذي أراهم كيفية بناء السدِّ، وصحيح أنهم شيَّدوه بإتقانٍ تام بناء على تعليماته لدرجة أنهم وقعوا في مُشكلة كبيرة مع السيِّد نيل شُرطي الدورية، لكنها كانت فكرة بيل من البداية، وعلى الرغم من أن جميعهم باستثناء ريتشي شهدوا أشياء غريبة -أشياء مُخيفة- في ديري منذ مطلع ذلك العام، إلا أن بيل كان أوَّل من وجد الشجاعة للحديث عن الأمر بصوتٍ عالٍ.

ذلك السدُّ.

ذلك السدُّ اللعين.

تذكَّر إدي كلمات ڤيكتور كريس: «تا تا يا أولاد. لقد كان سدًّا عديم القيمة صَدِّقاني، أنتما أفضل حالًا من دونه».

وبعدها بيومٍ، كان بن هانسكوم يبتسم وهو يقول:

«يمكننا

«يمكننا أن

«يُمكننا أن نُغرِق...

2

... البرِّية برُمَّتها إذا أردنا».

نظر بيل وإدي إلى بن بارتياب، ثم إلى الحاجيات التي جلبها بن معه: مطرقة ثقيلة، ومجرفة، وبعض الألواح الخشبية (التي اختلسها من باحة السيِّد مكيبون جاره؛ لكن لا ضير في ذلك، بما أن السيِّد مكيبون رُبَّما اختلسها من فناء منزل شخصٍ آخر)

قال إدي ناظرًا إلى بيل: «لا أعرف. عندما حاولنا بالأمس لم يسرِ الأمر على نحوٍ جيِّد تمامًا. ظل التيار يجرف عصينا بعيدًا».

قال بن: «هذا سينجح»، ثم نظر بدوره إلى بيل لاتِّخاذ القرار النهائي.

قال بيل: «حسنًا، لـ-لـ-لنُجرِّب الأمر. لقد اتـ-تـصلت بر-ر-ر-ريتشي توزييه هذا الصباح، وقـ-قال لي إنه سـ-سـ-سوف يعرج علينا هنا لـ-لاحقًا. رُبَّما هو وسـ-سـ-ستانلي سيرغبان في المـ-مساعدة».

سأل بن: «ستانلي من؟».

أجابه إدي: «يوريس»، وهو ما زال ينظر بحذر إلى بيل، الذي بدا مُختلفًا بطريقةٍ ما اليوم. إنه أكثر هدوءًا وأقل حماسة لفكرة السدِّ. يبدو بيل شاحبًا اليوم.. وشاردًا.

- «ستانلي يوريس؟ لا أظنني أعرفه، هل يرتاد مدرسة ديري الابتدائية معنا؟».

قال إدي: «إنه في سنِّنا لكنه أنهى لتوِّه الصف الدراسي الرابع. لقد دخل المدرسة مُتأخِّرًا بعام لأنه اعتاد أن يمرض كثيرًا في طفولته. أتظن أنك بُهدِلت يوم أمس؟ في الحقيقة يجب أن تشعر بالامتنان لأنك لست ستان يوريس.. فدائمًا يوجد من يُذيق ستان العذاب والمهانة بشكلٍ دوري».

قال بيل مُفسِّرًا: «إنه يـ-يـ-يهودي. كـ-كثيرٌ من الصـ-صبية لا يـ-يحبونه لـ-لأنه يهودي».

«أوه، أحقًا؟ يهودي، هه؟»، قالها بن وقد ثار فضوله، وتوقَّف بعدها قبل أن يضيف بحرصٍ: «أهذا كأن يكون المرء تُركيًّا، أم أنه أشبه بأن يكون، مصريًّا؟».

قال بيل: «أظنُّ أنه أقرب لأن تكون تُركيًّا»، ثم أمسك بأحد الألواح التي جلبها بن معه ونظر إليه. كان طول اللوح ستة أقدام وعرضه ثلاثة أقدام: «أ-أ-أبي يقول إن مُعظم اليـ-يهود لديهم أُ-أُ-أُنوف كبيرة وأمـ-أمـ-أموالًا طائلة، لكن سـ-سـ-سـ...».

أكمل إدي: «لكن ستان لديه أنف عادي ومُفلس دائمًا».

صاح بيل: «أجل»، ثم كشف ثغره عن ابتسامة للمرَّة الأولى لذلك اليوم.

فابتسم بن.
وابتسم إدي.
ألقى بيل اللوح جانبًا، ونهض وهو ينفض التراب عن مِقعدة سراويله الچينز، ثم سار إلى حافَّة الجدول وتبعه الصبيان الآخران. دسَّ إدي يديه في جيبي سراويله الخلفيين وتنهَّد بعمق. كان إدي مُتأكِّدًا أن بيل على وشك أن يقول شيئًا هامًا. نقل بيل بصره من إدي إلى بن ثم إلى إدي مرَّةً أخرى بلا ابتسام الآن، فشعر إدي بالخوف فجأة.
لكن كل ما قال بيل كان: «هل مـ-مـ-معك بـ-بـ-بخَّاخك يا إ-إدي؟».
صفع إدي جيبه وقال: «أنا جاهز لاصطياد دب».
سأله بن: «صحيح، كيف سار الأمر مع قِصَّة الحليب بالشيكولاتة؟».
ضحك إدي قائلًا: «سار بشكلٍ رائع!»، ثم انفجر هو وبن في نوبة ضحك، بينما ظلَّ بيل ينظر إليهما مُبتسمًا في حيرة. فسَّر إدي الأمر فأومأ بيل مُتفهِّمًا، وابتسم من جديد.
- «أُمٌّ إ-إ-إدي تـ-تـ-تقلق أن ينكسر منها، وألَّا تـ-تستطيع استعادة ما د-د-دفعته من مـ-مال».
أطلق إدي صوت شخيرٍ وتحرَّك كأنما سيدفعه إلى الجدول.
صاح بيل كهنري باورز قائلًا: «انتبه يا ذا الوجه اللعين. لسوف أدير رأسك إلى الوراء بالكامل حتَّى تصير قادرًا على رؤية نفسك وأنت تتغوَّط».
سقط بن أرضًا من الضحك وهو يرتجف. نظر إليه بيل وهو ما زال يبتسم، ويداه ما زالتا مدسوستين في جيبي سراويله الچينز. كان يبتسم أجل، لكنه بدا شاردًا قليلًا مرَّة أخرى، وغامضًا إلى حدٍ ما. نظر بيل إلى إدي ثم أشار برأسه ناحية بن وقال:
- «الفتى ر-ر-رخوٌ».
وافقه إدي: «أجل»، لكنه شعر بطريقةٍ ما بأنهم يبذلون جهدًا ليشعروا أنهم يقضون وقتًا طيِّبًا. ثمَّة شيءٌ في عقل بيل، وافترض إدي أنه سيبوح به عندما يكون مُستعِدًّا. السؤال الآن هو: هل سيرغب في سماع ما سيقوله؟
- «الفتى مُتخلِّف عقليًا».

كرَّر بن: «مُتخلِّف»، وهو ما زال يُقهقه.

- «ه-هل سـ-سـ-ستُرينا طريقة بناء السدَّ أم أ-أنك ستـواصل الضـ-ضـ-ضحك طوال اليـ-يوم هنا إلى أن تـ-تـ-تغوطُ على نفسك؟»

نهض بن واقفًا من جديد. نظر أوَّلًا إلى الجدول الذي يجري من جوارهم بسُرعة معقولة. لم يكن الكِندوسكيج عريضًا جدًّا هنا في عُمق البرِّية، لكنه هزمهما أمس رغم ذلك. لم يكن إدي ولا بيل قادرين على معرفة كيفية إيجاد موطئ قدم وسط هذا التيار. لكن بن كان يبتسم ابتسامة شخص يُفكِّر في القيام بشيءٍ جديد للمرَّةِ الأولى.. شيءٍ سيكون مُسلِّيًا لكنه ليس صعبًا تمامًا. فكَّر إدي: إنه يعرف كيفية تشييده... أنا أُصدِّق ذلك حقًّا.

قال بن: «حسنًا، يُستحسن أن تخلعا حذاءيكما يا صاحباي، لأن أقدامكما الصغيرة سوف تبتل حقًّا».

تحدَّث عقل أُمِّ إدي في رأسه فجأة، وكان صوتها صارمًا آمرًا كصوت شُرطي دورية مرور: إيَّاك أن تجرؤ على فعل ذلك يا إدي! إيَّاك! الأقدام المُبتلة إحدى الطرق -إحدى آلاف الطرق- التي تبدأ بها نزلات البرد، والبرد يقود إلى الالتهاب الرئوي، لذا إيَّاك.

كان بيل وبن يجلسان على الضِفَّة يخلعان جواربهما وحذائيهما. كان بن يُشمِّر طرفي سراويله الجينز بعناية فائقة. رفع بيل بصره إلى إدي. كانت عيناه صافيتان ودافئتان ومُتعاطفتان. فجأة تأكد إدي أن بيل الكبير يعلم تمامًا فيما يُفكِّر، وشعر بالخزي من ذلك.

- «هـ-ه-هل سـ-سـ-ستأتي؟».

- «أجل، بالطبع». قالها إدي وجلس على الضِفَّة يخلع حذائيه بينما تعصف أمه داخل رأسه وفي تلافيف عقله... لكن صوتها كان يزداد بُعدًا ويصير أصداء، وشعر إدي بالارتياح من شعوره بأن أحدهم أنشب صنَّارة ثقيلة في بلوزتها من الخلف وهو الآن يسحبها بعيدًا عبر رواقٍ طويلٍ طويلٍ جدًا.

3

كان اليوم واحدًا من أيَّام الصيف المثالية تلك التي -في عالم يسير كل شيءٍ فيه على الطريق الصحيح- لا تنساها أبدًا. ثمَّة نسيم مُعتدل يُبقي على البعوض والذباب الأسود بعيدًا. السماء صافية وناضرة الزُرقة. درجة الحرارة مُنخفِضَة. الطيور تشدو وتُمارس أعمالها الطيرية فوق الأشجار والشُجيرات. احتاج إدي استخدام بخَّاخه مرَّة واحدة، وبعدها بدا أن صدره راق، وبدت حنجرته كأنها اتَّسعت بطريقة سحرية إلى عُرض طريق سريع، وقضى باقي النهار والبخَّاخ منسي في جيبه الخلفي.

أصبح بن هانسكوم -الذي بدا في اليوم السابق مُتردِّدًا ومُرتابًا بدرجة كبيرة- قائدًا واثقًا من نفسه ما أن انخرط بكلِ حواسه في عملية بناء السدِّ الفعلية، وبين الفينة والأخرى كان يتسلَّق الضِفَّة ويقف هناك ويداه الملوَّثتان بالوحل على فخذيه، يتأمَّل المهام الجارية ويُتمتم إلى نفسه. أحيانًا كان يُمرِّر يده في شعره بشكلٍ عارض، وبحلول الحادية عشرة أضحت خصلاته مُنتصبة كأشواكٍ مجنونة هزلية.

شعر إدي بعدم يقين في البداية، ثم ببعض المرح، وفي النهاية غمرهُ شعورٌ جديدٌ تمامًا. شعورٌ بالغرابة والرَّوع والابتهاج في الآن ذاته. كان شعورًا دخيلًا وغريبًا تمامًا على حالته الوجودية المُعتادة لدرجة أنه لم يستطِع وضع اسم له إلا مع حلول تلك الليلة وهو مُستلقي في فراشه رامقًا السقف بعينين مفتوحتين يعيد أحداث اليوم في ذاكرته. القوَّة. هذا هو الشعور الذي غمره. القوَّة. فكرة بناء السدُّ ستنجح بفضل الله، ولسوف تنجح بشكلٍ أفضل ممَّا تصوَّر هو وبيل -ورُبَّما حتَّى بن نفسه- في أقصى أحلامهم جموحًا.

استطاع إدي مُلاحظة أن بيل انخرط في العمل بدوره، قليلًا في البداية وهو لا يزال مشغولًا بأيٍّ ما كان يجول في عقله، ثم كرَّس ذاته بعدها -رويدًا رويدًا- للعمل بالكامل. لقد ربَّت مرَّة أو مرَّتين على كتف بن المُكتنز باللحم وأخبره أنه لا يُصدَّق، وقد تورَّد بن بالفرحة في كل مرَّة.

أوكل بن إلى إدي وبيل مهمة الإمساك بأحد الألواح وسط التيَّار بينما استخدم هو المِرزبَّة الثقيلة ليُثبِّته في قاع مجرى النهر. «لقد انتهيت، لكن سيتعيَّن عليك الاستمرار في الإمساك بها وإلا سيخلعها التيَّار من مكانها»، هكذا أخبر بن إدي، لذا ظلَّ إدي واقفًا وسط الجدول مُمسكًا باللوح في حين انساقت المياه من فوقه وجعلت يديه تتموَّجان مُتَّخذتين هيئة نجم البحر.

مَوضَع بن وبيل اللوح الثاني على بُعد قدمين في اتِّجاه مجرى النهر من اللوح الأوَّل. استخدم بن المِرزبَّة ثانيةً لُيثبِّته، وأمسكه بيل مُبقيًا عليه في حين ما بدأ بن في ملء المساحة المحصورة بين اللوحين بالتُّربة الرملية التي جلبها من ضِفَّتي الجدول. في البداية، راحت التربة تذوب وتنجرف من عند أطراف الألواح في عكارة رملية، وظنَّ إدي أن الأمر لن ينجح على الإطلاق. لكن عندما بدأ بن في إضافة الصخور والطمي الموحل الذي استخرجه من قاع الجدول، تناقص مُعدَّل هروب عكارة الرمال، وفي أقل من عشرين دقيقة كان قد صنع قناة من التُربة المُكدَّسة وأكوام الحجارة بين اللوحين القائمين في منتصف التيَّار. بالنسبة إلى إدي، كان الأمر أشبه بحيلة بصرية.

قال بن وهو يلقي بالمجرفة جانبًا في النهاية ويجلس على الضِفَّة لالتقاط أنفاسه: «إذا كان معنا أسمنتًا حقيقيًّا... بدلًا من... طين وصخور فحسب، لاضطررناهم لنقل المدينة برُمَّتها إلى جانب اللسان القديم بحلول مُنتصف الأسبوع القادم». ضحك بيل وإدي، وابتسم بن لهما. عندما يبتسم، كان شبح الرَّجُل الوسيم الذي سيصيرهُ يومًا يلوح في خلجات وجهه. بدأ الماء في التجمُّع خلف اللوح المُعاكس للتيَّار الآن.

سأل إدي عمَّا سيفعلون حيال الماء الذي يتسرَّب مناسبًا من الأطراف.

– «دعه يتسرَّب. لا يهُم».

– «حقًّا؟».

– «أجل».

– «كيف؟».

– «لا أستطيع التفسير بالضبط. لكن يجب أن تسمح لبعضه بالمرور على ما أظنُّ».

- «كيف عرفت؟».

هزَّ بن كتفيه بما معناه: أعرف فحسب، فصمت إدي بعدها.

جلب بن اللوح الثالث بعدما استراح -وهو الأسمك من بين الأربعة أو الخمسة التي حملها بمشقَّة من المدينة إلى البرِّية- وأسنده بحرص على اللوح المُعاكس للتيَّار، حاشرًا أحد طرفيه في قاع الجدول برسوخٍ، ومُريحًا الطرف الآخر على اللوح الذي يُمسكه بيل، صانعًا الدُعامة التي خطَّها في الرسمة الصغيرة التي رسمها لهما يوم أمس.

قال بن وهو يتراجع خطوة إلى الوراء ويبتسم لهما: «حسنًا، يمكنكما إفلات اللوحين الآن يا رفاق. الرُّكام بين اللوحين سيتحمَّل مُعظم ضغط الماء، والدُعامة ستتحمَّل الباقي».

سأله إدي: «ألن يجرفها الماء بعيدًا؟».

- «لا، سيتسبَّب الماء في غرسها أعمق».

قال بيل: «وإذا كُنت مـ-مـ-مخطئًا، سـ-سـ-سوف نقتلـ-لـ-لك؟».

قال بن بطريقةٍ ودود: «لك هذا».

تراجع كلٌّ من بيل وإدي إلى الخلف. صرَّ اللوحان اللذان يُشكِّلان قاعدة السدِّ ومالا في اتِّجاه مجرى النهر قليلًا... هذا كل شيء.

صرخ إدي مُتحمِّسًا: «اللعنة!».

قال بيل وهو يبتسم: «إنه ر-ر-رائع».

قال بن: «أجل. هيَّا لنأكل».

4

جلس ثلاثتهم على الضِفَّة يلتهمون طعامهم -دون أن يتحدَّثوا كثيرًا- وهم يراقبون تجمُّع الماء خلف السدِّ وتدفُّقه قليلًا من عند أطراف الألواح. لاحظ إدي أنهم غيَّروا شيئًا بالفعل في جُغرافية ضِفَّتي النهر: لقد بدأ التيَّار المُحوَّل في شق تجاويف دائرية في الضِفَّتين، وفي أثناء ما كان ينظر، قوَّض مسار التيَّار الجديد جزءًا من قاعدة الضِفَّة على الجانب الآخر منهم مُحدثًا انهيارًا صغيرًا.

شمال السدِّ، شكَّل الماء بركة دائرية تقريبًا، وفي أحد المواضع استطاع أن يُغرق الضِفَّة بالفعل. راحت أغادير صغيرة لامعة عاكسة لضوء الشمس تجري بين الحشائش والخمائل. بدأ إدي يدرك ببطء ما كان بن يعلمه من البداية: لقد بُنِيَ السدُّ بالفعل. كانت الفتحات المحصورة بين اللوحين والضِفَّتين بمثابة ترع تصريف. لم يستطع بن إخبار إدي لأنه لم يكن يعرف المصطلح. خلف الألواح، اتَّخذ الكِندوسكيج مظهرًا مُنتفخًا. تلاشى صوت خرير الماء الضحل وهو يسري فوق الأحجار والحصى الآن، فكل الأحجار شمال السدِّ غاصت مطمورة أسفل الماء، وبين الحين والآخر، مزيدٌ من الأرض العُشبية والتُربة، المقوَّضة بفعل التيار المُتَّسع، راحت تنهار إلى الماء مُحدثة صوت طشيشٍ ناعم.

جنوب السدِّ، كان المجرى المائي فارغًا تقريبًا. ثمَّة أغادير هزيلة ظلَّت تجري بلا هوادة عبر مركزهُ، لكن ذلك كل شيء. الأحجار التي ظلَّت آمادًا لا يعلمها إلا الله مطمورة أسفل صفحة الماء بدأت تجفُّ الآن أسفل أشعة الشمس. نظر إدي إلى تلك الأحجار بقليلٍ من العجب مصحوبًا بذلك الشعور الآخر الغريب. هم من أحدثوا ذلك. هُم. شاهد الصبي ضفدعًا يتقافز مُبتعدًا وفكَّر أنه رُبَّما السيِّد ضفدوع وقد تعجَّب أين ذهب كل الماء. ضحك إدي بصوتٍ عالٍ.

كان بن يُستِّف أغلفة الطعام الفارغة بعناية في حقيبة الغداء التي أحضرها معه. لقد شُدِه كلٌّ من إدي وبيل من حجم المأدُبة التي فردها بمهارة واحترافية: شطيرتا زبدة فول سوداني بالمربَّى، وشطيرة لانشون، وبيض مسلوق (مع قبضة ملح في ورقة ملفوفة)، وقطعتا بسكويت فيج-بار، وثلاث كعكات كبيرة برقائق الشيكولاتة، وقطعة رينج دينج.

سأله إدي: «ما كانت ردَّة فعل أمك عندما رأت رثاثة هيئتك يوم أمس؟».

«همم؟»، قالها بن رافعًا بصره عن البُحيرة الآخذة في الانتشار خلف السدِّ، ثم تجشَّأ على استحياء مُداريًا فمه بظهر يده قبل أن يردف: «أوه، حسنًا، كنت أعلم أنها ستذهب لتسوُّق بعض البقالة عصر أمس، لذا تمكَّنت من استباقها إلى المنزل. أخذت حمَّامًا وغسلت شعري، ثم تخلَّصت من الچينز والسُترة

اللذين كنت أرتديهما. لا أعلم إن كانت ستلاحظ عدم وجودهما لاحقًا أم لا. رُبَّما لن تُلاحظ غياب السُترة، فلدي الكثير مثلها، لكنني أظنُّ أنه يجب عليَّ شراء سراويل جديدة قبل أن تبدأ في دسِّ أنفها في أدراج ملابسي».

ألقت فكرة إضاعة المال على مثل هذا البند غير الضروري كآبة لحظية على وجه بن.

- «مـ-مـ-ماذا عن كد-كد-كدماتك وسحـ-سحـجاتك؟».

- «أخبرتها أنني كنت شديد التحمُّس لانتهاء الدراسة لدرجة أنني اندفعت راكضًا عبر الباب وسقطتُّ على السُلَّم»، قالها بن وأُصيب بالدهشة وقليلٍ من الألم عندما راح كلٌّ من إدي وبيل يضحكان. اندفع فُتاتٌ بُنِّيٌّ خارجًا من فم بيل، الذي كان يمضغ قطعة من كعكة أمه المُربعة، وأعترته نوبة سُعال متواصل، فصفعه إدي- الذي كان لا يزال يعوي من الضحك- على ظهره.

قال بن: «حسنًا، لقد كدت أن أسقط من على السُلَّم بالفعل، لكن هذا فقط لأن ڤيكتور كريس دفعني، لا لأنني كنت أركض».

قال بيل مُنهيًا القطعة الأخيرة من كعكته: «سـ-سـ-سأغرق في العـ-عـ-عرق إذا ارتديت سـ-سـ-سـ-سترة كـ-كتلك».

تردَّد بن قبل أن يقول شيئًا، وللحظة بدا أنه لن يقول شيئًا. في النهاية قال: «عندما تكون بدينًا، فالسُترات تُناسبك أفضل».

سأله إدي: «بسبب كرشك؟».

ضحك بيل ضحكة قصيرة ساخرة: «بسبب ثـ-ثـ-ثـ-ثـ...».

- «أجل، ثدياي، وماذا في ذلك؟».

قال بيل باعتدال: «أجل، ومـ-ماذا في ذلك؟».

مرَّت لحظة من الصمت الحَرِج، ثم قال إدي: «انظرا لدكانة لون الماء وهو يعبر من ذلك الطرف للسدِّ».

قفز بن واقفًا وهو يصيح: «أوه، اللعنة! التيَّار يسحب الردم معه! يا للمسيح، لكم أتمنى لو كان معنا أسمنت!».

أصلحوا الضرر سريعًا، لكن حتَّى إدي استطاع أن يُدرك ماذا سيحدُث إذا لم يوجد شخصٌ هنا باستمرار ليضع مزيدًا من الرُكام الطازج بين اللوحين:

سيتسبَّب التآكل المتواصل في سقوط اللوح الشمالي على اللوح الجنوبي في النهاية، ثم سينهار كل شيٍ بعضه على بعض.

قال بن: «نستطيع تدعيم الجوانب. هذا لن يُوقف التآكُل، لكنه سيُبطِئهُ».

سأله إدي: «إذا استخدمنا الرمال والطمي، ألن تواصل الانجراف مع الماء؟».

- «سنستخدم كُتلًا من الكلأ».

أومأ بيل مُبتسمًا، وصنع دائرة بواسطة إبهام وسبَّابة يده اليُمنى. «هـ-هـ-هيَّا بـ-بـ-بنا. سـ-سـ-سأحفر لاستخراجها وأ-أنت سـ-سـ-ستُريني أين أ-أ-أضعها أيُّها الزعيم بن».

من خلفهم، صاح صوتٌ ببهجةٍ عامرةٍ مُناديًا: «يا ربي، لقد أنشأ أحدهم حمَّام سباحة في وسط البرِّية بكل مُستلزماته!».

التفت إدي، مُلاحظًا كيف توتَّر بن وتشنَّج جسده وزُمَّت شفتاه بفعل الصوت الغريب. أمامهما أعلى النهر، وفي الدرب الذي عبره بن في اليوم السابق، كان كلٌّ من ريتشي توزييه وستانلي يوريس يقفان.

اقترب ريتشي مُختالًا في مشيته، وهو ينظر إلى بن ببعض الفضول، ثم قرص إدي في وجنته.

- «لا تفعل ذلك! أكره حينما تفعل ذلك».

ابتسم ريتشي له بشكلٍ مُصطنع: «أوه، أنت تحب الأمر يا إدز؟ كيف الحال إذًا؟ هل حظيت بهأهآتٍ جيِّدة أم ماذا؟».

5

توقَّف خمستهم عن العمل في حدود الرابعة عصرًا. جلسوا في بُقعة أعلى من الضِفَّة -لأن المكان الذي أكل فيه بيل وبن وإدي غدائهم كان مغمورًا الآن تحت الماء- مُتأمِّلين صنيعتهم. حتَّى بن وجد أن الأمر يستعصي قليلًا على التصديق، ولفَّهُ شعورٌ بالإنجاز المُتعب ممزوجًا بخوفٍ قلوق، وجد بن نفسه يُفكِّر في فيلم فانتازيا، وكيف أن ميكي ماوس تعلَّم ما استطاع به دَبَّ الحياة في المكانس وجعلها تبدأ العمل... لكنه لم يتعلَّم كيفية إيقافها.

قال ريتشي توزييه بنعومة وهو يرفع نظَّارته إلى أعلى أنفه: «عبقرية لعينة».

نظر له إدي، لكن ريتشي لم يكن يمارس إحدى ألاعيبه الآن. كان التفكير باديًا على وجهه، وبدا أقرب إلى الرصانة.

على الجانب البعيد من الجدول، حيث ترتفع الأرض أوَّلًا ومن ثم تنحدر مائلة بزاوية خفيفة، كانوا قد خلقوا قطعة جديدة من الأرض السَّبخة. انتصبت الشجيرات ونباتات البهشية وسط مياه بارتفاع شبر على الأرض، وحتَّى من مكانهم هذا استطاعوا رؤية المُستنقع ينتشر باطراد غربًا.. ومن خلف السدِّ، أضحى نهر الكِندوسكيج -الذي كان ضحلًا ومُسالمًا هذا الصباح- تجمُّعًا مائيًّا مُتورِّمًا آخذًا في التضخُّم.

بحلول الثانية ظهرًا، احتلَّت البركة المنتشرة خلف السد مساحة كبيرة من الضِفَّة لدرجةِ أن ترع الصرف قد نمت إلى حجم الأنهار نفسها تقريبًا. الجميع عدا بن ذهبوا في حملة طارئة إلى مكبِّ النفايات بحثًا عن مزيدٍ من المواد. مكث بن في الجوار، واستمرَّ في حشو الكلأ في مواضع التسريب بشكلٍ مُمنهج. لم يعد النابشون الأربعة فقط بمزيدٍ من الألواح، وإنما بأربعة إطارات وباب سيارة هدسون هورنت طراز 1949 صدئ ولوح معدني مُمعَّج. تحت إشراف بن، شيَّد الفريق جناحين على السدِّ الأصلي، مانعين تسرُّب الماء من الجانبين، ومع وضع الجناحين بزاوية مُناسبة ضد التيَّار، أدَّى السدُّ عمله بنجاح أكبر من ذي قبل.

قال ريتشي: «لقد حجَّمت هذا اللعين تمامًا. أنت عبقري يا رجل».

ابتسم بن وقال: «ليس إلى هذا الحد».

قال ريتشي: «معي بعض سجائر وينستون، من يريد واحدة؟».

أخرج ريتشي علبة سجائر مُجعَّدة لونها أبيض وأحمر من جيب سراويله ومرَّرها بينهم. رفض إدي أخذ واحدة ظانًّا أن التبغ سيُفاقم من حالة ربوه، ورفض ستان أيضًا. أخذ بيل واحدة، وبعض لحظة تفكير، سحب بن واحدة بدوره. أخرج ريتشي علبة ثقاب مكتوبًا عليها روي-تان، وأشعل سيجارة بن أوَّلًا ثم سيجارة بيل.. وكان على وشك إشعال سيجارته عندما نفخ بيل عود الثقاب مُطفِئًا شُعلته.

قال ريتشي: «شكرًا جزيلًا يا دِنبروه، أيُّها الأحمق».

ابتسم بيل مُعتذرًا، وقال: «ثـ-ثـ-ثـلاث سجائر بعـ-بعـ-بعودٍ واحد... فـ-فـ-فألٌ سـ-سـ-سيئ».

- «الفأل السيئ هو ما أصاب والديك عندما وُلِدت». قالها ريتشي وهو يُشعل سيجارته بعود ثقابٍ آخر. ثم استلقى أرضًا عاقدًا ذراعيه تحت رأسه. أخذت السيجارة تتقافز بين شفتيه وهو يقول: «سجائر وينستون جيِّدة المذاق. إنها السيجارة كما ينبغي». ثم أدار رأسه قليلًا نحو إدي وغمز له مُردفًا: «أليس هذا صحيحًا يا إدز؟».

لاحظ إدي أن بن ينظر نحو ريتشي بخليطٍ من الانبهار والحيطة. استطاع إدي أن يتفهَّم ذلك. إنه يعرف ريتشي توزييه منذ أربعة سنوات، وما زال إلى الآن لم يفهم تمامًا كُنه ريتشي. كان يعلم أن ريتشي يحصل على ممتاز وجيِّد جدًّا في الواجب المدرسي، لكنه أيضًا يعلم أنه دائمًا ما يحصل على ضعيف وضعيف جدًّا في حُسن السير والسلوك. كان والده يُقرِّعه بسبب ذلك، وكانت أمه تبكي في كل مرَّة يأتي ريتشي إليها بدرجات سوء السلوك هذه. عندها يُقسم ريتشي أنه سيُحسن التصرُّف، ورُبَّما يفعل ذلك بالفعل... لرُبع العام أو نصفه. مُشكلة ريتشي أنه لا يستطيع أن يهمد مكانه أكثر من دقيقة في المرَّة الواحدة، ولا يستطيع الإبقاء على فمه مُغلقًا عل الإطلاق. هنا في البرِّية لم يكن هذا يورِّطه في مشاكل عديدة، لكن البرِّية ليست أرض الأبد أبدًا وهم لا يستطيعون لعب دور الأولاد الضائعين لأكثر من بضع ساعات على أقصى تقدير (فكرة أن يحمل أحد الصبية الضائعين بخَّاخًا في جيبه الخلفي جعلت إدي يبتسم). مُشكلة البرِّية أنك مُرغمٌ دائمًا على مُغادرتها، وهناك في العالم واسع، كان لسان ريتشي السليط يوقعه في مُشكلاتٍ دائمًا مع الكبار (وهذا سيِّئ) ومع فتية مثل هنري باورز (وهذا أسوأ).

خُذ عندك دخلته عليهم في وقتٍ سابق اليوم. لم يجد بن مُتَّسعًا للتلفُّظ بشيءٍ أكثر من مرحبًا قبل أن يخرَّ ريتشي راكعًا على رُكبتيه أمام قدمي بن. ثم بدأ سلسلة من التحيَّات المُبالغ فيها، بذراعين مفتوحتين على اتِّساعهما،

ويدين تتلمَّسان الضِفَّة الموحلة في كل مرَّة يكرِّر الانحناء فيها.. وفي الوقت نفسه بدأ يتحدَّث بأحد أصواته الغريبة.

لريتشي نحو دزينة من الأصوات المُختلفة. إن طموحه -هكذا أخبر إدي في أحد العصاري المطيرة عندما كانا في غُرفة السقيفة الصغيرة التي تعلو مرآب آل كاسبراك يقرآن قصص ليتل لولو المصوَّرة- أن يصير أعظم مُتكلِّم من البطن في العالم. لقد أخبره أنه سوف يصير أعظم حتَّى من إدجار بيرجين، وأنه سيظهر في برنامج إد سوليڤان كل أسبوع. في البداية، كانت جميع أصوات ريتشي المُصطنعة تُشبه صوت ريتشي توزييه إلى حدٍ كبير. لكن هذا لم يكن يعني أن ريتشي يعجز عن أن يكون مُضحكًا من حينٍ إلى آخر، لأنه قادرٌ على ذلك، وقد كان لريتشي مُصطلح واحد يستخدمه للإشارة إلى الكلمات اللاذعة أو الضرطات عالية الصوت: كان يُسمِّي الأمر «إطلاق واحدة مُحترمة»، وقد كان ريتشي يُخرج وُحدانًا مُحترمة بصفة دورية من كليهما... لكن عادةً مع الأناس الخطأ. ثانيًا، عندما يتكلَّم ريتشي من بطنه، فإن شفتيه تتحرَّكان.. لا الحركة الطفيفة التي تفرضها حروفٍ كالميم والباء، وإنما كثيرة، وفي كل الأصوات. ثالثًا، عندما يقول ريتشي أنه سوف يتكلَّم من بطنه، فإنه لا ينجح عادةً. معظم أصدقائه كانوا ألطف -أو أكثر ارتباكًا بسبب طريقته الفاتنة أحيانًا والمُرهِقة غالبًا- من أن يصارحوه بمثل هذه الإخفاقات الصغيرة.

لقد تحدَّث ريتشي بعد أن دخل عليهم بما يُسمِّيه صوت الزنجي چيم، مؤدِّيًا التحيَّات وفروض الولاء بصورة محمومة أمام بن هانسكوم المشدوه والمُحرج.

صاح ريتشي صارخًا: «رحماك يا رب الكون، أنا في حضرة چون كالهون[1] كومة القش! لا تقع عليَّ يا سيِّدي المُحترم كومة القش! سأُبطَّط لو فعلت! الرحمة يا رب، رُحماك يا يسوع! ثلاثمئة رطلٍ من اللحم المُترجرج،

(1) جون كالهون (1934-1989): مصارع أمريكي مُحترف، اشتهر بلقب «هايستاك» الذي يعني كومة القش.

ثماني وثمانون بوصةً من البزِّ للبزِّ، إن لكومة القش هذه رائحة حمولة خراء نمورٍ! سأقتل نفسي إذا دخلت الحلبة معك يا سيِّد هايستاك! سأقتل نفسي من دون شك. فقط لا تقع على ذلك الصبي الأسود!».

قال بيل: «لا-لا تـ-تقلق، هذا ر-ر-ريتشي فـ-فـ-فحسب. إنه مجـ-مجـ-مجنون».

قفز ريتشي واقفًا وصاح: «لقد سمعت ذلك يا دِنبروه. من الأفضل أن تدعني وشأني وإلا سأُحرِّض كومة القش هذه عليك».

قال بيل: «إن أ-أ-أفضل خـ-خـ-خصالك انسالت مـ-مـ-مع مني أبيك خـ-خـ-خارج أمك».

قال ريتشي: «صحيح، لكن انظر كم بقي من خصالٍ حميدة. كيف حالك يا كومة القش؟ اسمي ريتشي توزييه، وتقليد الأصوات لُعبتي»، ثم مد يده إليه. مدَّ بن يده في المُقابل وهو لا يزال مُرتبكًا تمامًا، فسحب ريتشي يده إلى الخلف مُجدَّدًا. رمش بن بعينيه، فرجع ريتشي في قراره وصافحه.

قال بن: «اسمي بن هانسكوم، في حال إن كنت مُهتمًّا».

قال ريتشي: «أعرفك من المدرسة»، ثم أشار بيده إلى بركة المياه الآخذة في الانتشار: «لا بُدَّ أن هذه فكرتك.. هذان الأخرقان عاجزان عن إشعال ورقة بقاذفة لهب».

قال إدي: «تحدَّث عن نفسك يا ريتشي».

- «أوه، أتقصد أن هذه فكرتك يا إدز؟ يا للمسيح، أنا آسف». ثم خرَّ ساجدًا أمام إدي وبدأ يُقدِّم فروض الطاعة والولاء له بحماسة من جديد.

صاح إدي: «انهض، توقَّف، إنك ترشُّ الطين عليّ».

قفز ريتشي واقفًا للمرَّة الثانية وقرص إدي من وجنته وهو يهتف: «لطيف، لطيف، لطيف!».

- «توقَّف، أنا أكره ذلك».

- «اعترف يا إدز، من بنى السدَّ؟».

قال بيل: «بـ-بـ-بن عـ-عـ-علَّمنا الطريقة».

- «يا لها من صفقة رابحة». قالها ريتشي والتفت إلى الوراء ليجد أن

ستانلي يوريس يقف خلفه ويداه في جيبيه، يشاهد بهدوء العرض الذي يُقدِّمه ريتشي. قال ريتشي موجِّهًا كلامه إلى بن: «هذا الواقف أمامك هو ستان الإنسان. ستان يوريس. ستان يهودي بالمناسبة، إنه من قتل المسيح، أو هذا على الأقل ما أخبرني به ڤيكتور كريس ذات يوم، ولقد صادقت ستان منذ ذلك الحين. أظنُّ أنه ما دام بهذا القِدَم، فيجب أن يكون قادرًا على شراء بعض البيرة لنا. أليس كذلك يا ستان؟».

- «أظنُّ أنك تقصد أبي»، قالها ستان في صوتٍ خفيض جذل، ما جعلهم جميعًا ينفجرون بالضحك، بما فيهم بن. استمرَّ إدي يضحك إلى أن تقطَّعت أنفاسه وسالت الدموع من عينيه.

هتف ريتشي: «حلوة منك!»، وهو يسير بذراعيه مرفوعتين فوق رأسه كأنه حكم في مُباراة كُرة قدم أمريكية يُشير إلى أن النُقطة الإضافية كانت جيِّدة.

- «ستان الإنسان أطلق واحدة مُحترمة! يا لها من لحظة تاريخية عظيمة! ياوزا-ياوزا-ياوزا».

قال ستان لبن «مرحبًا»، ولم يبدُ أنه يُلاحظ ريتشي على الإطلاق.

أجاب بن تحيَّته: «أهلًا. لقد كنا في الفصل ذاته في الصفِّ الدراسي الثاني. أنت الولد الذي...».

أكمل ستان عبارته: «... لم يكن تفوَّه بشيءٍ»، وابتسم قليلًا.

- «صحيح».

قال ريتشي: «ستان لن يتفوَّه بأيِّ خراء حتَّى لو كان فمه مليئًا به. هذا الحال دائمًا... ياوزا-ياوزا-ياوزا».

قال بيل: «ا-ا-اخرس يا ريتشي».

- «حسنًا، لكن أوَّلًا يجب أن أخبركم بشيءٍ رغم كُرهي له. أظنكم تفقدون سدَّكم. الوادي على وشك الغرق يا شُركاء. لنُخرج النساء والأطفال أوَّلًا».

قالها ريتشي وقفز إلى الماء مُباشرةً من دون أن يُزعج نفسه بتشمير سراويله أو حتَّى نزع الحذاء عن قدميه، وبدأ في إلقاء الكلأ في مكان التسريب عند الجناح القريب من السدِّ، حيث يواصل التيَّار المُثابر شق طريقه إلى جداول مُوحِلة من جديد. كانت قطعة من شريطٍ لاصق تعود للصليب الأحمر ملفوفة

حول إحدى ذراعي نظَّارة ريتشي، وقد ظلَّ طرفها السائب يخفق على وجنته وهو يعمل. تلاقت نظرة بيل بنظرة إد، وابتسم قليلًا، ثم هزَّ كتفيه. هذا هو ريتشي؛ يُمكنه أن يُثير جنونك... لكن من اللطيف نوعًا أن يكون في الجوار.

استمرَّ خمستهم في العمل على السدِّ طوال الساعة التالية أو نحو ذلك. تقبَّل ريتشي أوامر بن -التي صارت مُتردِّدة نوعًا من جديد بسبب الصبيين الجديدين- باستعدادٍ مثالي، ونفَّذها بوتيرة مسعورة.. وعند الانتهاء من كل مهمَّة، كان يُبلغ بن للحصول على أوامر جديدة، وهو يؤدي التحية البريطانية الرسمية ويضرب كعبي حذائه الرياضي معًا. بين الحين والآخر، أخذ ريتشي يخطب في الآخرين بمجموعة من أصواته المُتعدِّدة: القائد الألماني، وكبير الخدم تودلز، وعضو مجلس الشيوخ الجنوبي (الذي بدا صوته شبيهًا بصوت شخصية فوغهورن ليغهورن الكارتونية قليلًا، والذي سيتطوَّر بمرور الزمن إلى الشخصية التي ستشتهر ببوفورد كيسدريڤل)، ومُقدِّم نشرة الأخبار.

لم يمضِ العمل قُدُمًا فحسب، بل هرول قُدُمًا.. والآن، قبل حلول الساعة الخامسة بقليل، وفي حين ما كان خمستهم يجلسون على الضِفَّة، بدا لهم أن ما قاله ريتشي صحيح: لقد أوقفوا هذا اللعين. لقد شكَّل باب السيَّارة واللوح المعدني المُموَّج والإطارات القديمة المرحلة الثانية من السدِّ، وقد دعَّمتها جميعًا تلَّة ضخمة من الحجارة والتُربة والكلأ. دخَّن كلٌّ من بيل وبن وريتشي السجائر، واستلقى ستان على ظهره فوق الأرض. إذا مرَّ غريب بهم لرُبَّما ظن أنه ينظر إلى السماء، لكن إدي كان أكثر دراية. إن ستان يرمق الأشجار التي تقف على الجهة الأخرى من الجدول، مُراقبًا طائرًا أو اثنين كي يستطيع الكتابة عنهما في مُفكِّرته هذه الليلة. إدي نفسه جلس القرفصاء، شاعرًا بإرهاقٍ لذيذ أقرب إلى النشوة. في تلك اللحظة، بدا الآخرون كأعظم مجموعة من الرفاق يأمل المرء أن يتسكَّع معهم على الإطلاق. ثمَّة شعور بالصواب يلُفُّهم وهم معًا. كانت أكتافهم تتراص كالبنيان الذي يشُدُّ بعضه بعضًا. لم يستطِع تفسير الأمر لنفسه بطريقة أفضل من تلك، وبما أن الأمر لم يكن في حاجة حقًّا إلى أيِّ شرح، قرَّر إدي ألا يُفكِّر كثيرًا في الأمر.

نظر إدي إلى بن الذي كان يمسك بقلَّة خبرة سيجارة انتهى نصفها،

ويبصق كثيرًا كأنه لم يحب مذاقها تمامًا.. ثم في أثناء ما كان إدي يُراقبه، نقر بن السيجارة بعيدًا وغطَّى عقبها الطويل بالتُربة.

رفع بن بصره، وشاهد إدي يتأمَّله، فأشاح بنظره بعيدًا شاعرًا بالحرج.

نظر إدي إلى بيل وشاهد شيئًا لم يحبه يلوح في وجهه. كان بيل ينظر عبر صفحة الماء إلى النخيل والنباتات على الجهة البعيدة من النهر، وعيناه الرماديتان مُمعنتان في تفكيرٍ عميق. لقد عاد التعبير المهموم إلى وجهه. فكَّر إدي أن بيل يبدو كمن يتعقَّبه شبحٌ.

وكأنما قرأ أفكاره، التفت بيل ونظر إليه. ابتسم إدي، لكن بيل لم يرد الابتسامة. فقط أطفأ سيجارته ونظر حوله إلى الآخرين. حتَّى ريتشي كان مُنعزلًا في صمت أفكاره الخاصة، وهو حدث نادر الحدوث كخسوف القمر.

كان إدي يعلم أن بيل نادرًا ما يقول أيَّ شيءٍ ذي أهمِّية إلا عندما يعم المكان صمتٌ تام، لأن الكلام كان فعلًا شاقًّا تمامًا عليه. فجأة تمنَّى إدي لو أن في سريرته شيئًا ليقوله، أو أن ينخرط ريتشي في مونولوج بأحد أصواته. لقد صار مُتأكِّدًا فجأة أن بيل سيفتح فمه وسينطق بأمرٍ مُريع.. أمرٍ سيُغيِّر حال كل شيء. مدَّ إدي يده بشكلٍ عفوي إلى بخَّاخه، وأخرجه من جيبه، وأمسكه في يده. فعل هذا دون حتَّى أن يُفكِّر بالأمر.

سألهم بيل: «هـ-هـ-هل أستطيع إ-إ-إخباركم بشيءٍ يا شـ-شـ-شباب؟».

نظر جميعهم إليه. فكَّر إدي: ألقِ بدعابة يا ريتشي! فَجِر دعابة، قُل شيئًا جامحًا، احرجه، لا آبه، فقط اجعله يخرس. أيًّا كان ما سيقوله، فأنا لا أودُّ سماعه، لا أُريد للأمور أن تتغيرَّ، لا أريد أن يستحوذ الخوف عليّ.

وفي ذهنه همس صوتٌ داكنٌ خشنٌ: سأفعلها مُقابل عشرة سنتات.

قال ريتشي: «بالتأكيد يا بيل يا كبيرنا. ما الأمر؟».

فتح بيل فمه (تعاظم قلق إدي)، ثم أغلقه (يا لها من راحة مُباركة لإدي)، ثم فتحه من جديد (تجدَّد القلق).

قال بيل: «إ-إ-إذا ضـ-ضـ-ضحكتم يـ-يا ر-ر-رفاق، فـ-فلن أخـ-

أخرج مـ-معكم مُجدَّدًا أبدًا. إنها قـ-قِصَّة مـ-مـ-مجنونة تمامًا، لـ-لكنني أقسم أنني لم أ-أ-أختلقها. لقد حـ-حـ-حدثت بالفعل».

قال بن ناظرًا في وجوه المجموعة: «لن نضحك، أليس كذلك؟».

هزَّ ستان رأسه، وكذا فعل ريتشي.

أراد إدي أن يقول، أجل يا بيلي، لسوف نضحك إلى أن تنفجر رؤوسنا وسنعتك بالحمق، لذا لِمَ لا تخرس الآن؟ لكنه بالطبع لم يجرؤ على قول أيِّ شيءٍ كهذا. فهذا بيل الكبير قبل كل شيء. هزَّ إدي رأسه في تعاسة. لا، بالتأكيد لن يضحك، فهو لم يشعر بانعدام الرغبة في الضحك في حياته أكثر من الآن.

كانوا يجلسون هناك فوق السدِّ الذي علَّمهم بن كيف يبنوه، ينقلون أبصارهم من وجه بيل إلى البركة الآخذة في الانتشار وكذا المُستنقع الذي يتعاظم من ورائها ثم إلى وجه بيل مرَّة أخرى، مُنصتين بحرصٍ بينما راح هو يُخبرهم بما جرى عندما فتح ألبوم الصور الخاص بچورچ، وكيف استدارات صورة چورچ وغمزت له، وكيف نزف الكتاب دمًا عندما ألقى به عبر الغرفة. كانت رواية طويلة مُرهِقَة، وبحلول الوقت الذي انتهى فيه من سردها استحال وجه بيل إلى الأحمر وتفصَّدت جبهته عرقًا. لم يسمعه إدي يتلعثم بهذا السوء من قبل قط.

لكن رغم هذا، قُصَّت الأقصوصة في النهاية. نقَّل بيل بصره في وجوههم، غير هيَّاب وخائفًا في الآن ذاته، ولاحظ إدي تعبيرًا مُماثلًا على وجوه بن وريتشي وستان.. تعبير خوفٍ رهيبٍ باهر لا يشوبه أدنى شعورٍ بعدم التصديق. اعترته رغبة عارمة وقتها بأن يقف على قدميه ويصرخ: يا لها من قِصَّة مجنونة! أنت لا تُصدِّق في هذه القِصَّة الخرقاء، أليس كذلك؟ وحتَّى إن كنت تُصدِّقها، فأنت لا تتوقَّع منا تصديقها، أليس كذلك؟ صور المدرسة لا تغمز! الكتب لا تدمي! لقد فقدت عقلك أي بيل الكبير!

لكنه لم يقوَ على فعل أو قول ذلك، لأن تعبير الخوف الرهيب ذلك كان مرسومًا على وجهه هو أيضًا.. وإن لم يكن قادرًا على رؤيته، فقد شعر به.

همس الصوت الغليظ مرَّة أخرى في رأسه، عُد إلى هنا أيُّها الصبي! سأمتص قضيبك مجَّانًا. عُد إلى هنا!

لا، هكذا تأوَّه إدي مُعترضًا في وهن. أرجوك ارحل، لا أريد التفكير بالأمر.

عُد إلى هنا أيُّها الصبي.

الآن رأى إدي أمرًا آخر لا على وجه ريتشي -أو على الأقل هو لم يشعُر بذلك- بل على وجهي بن وستان، وقد عرف ماهية الأمر.. لقد عرف ماهيته لأن ذلك التعبير كان مرسومًا على وجهه هو أيضًا.

الاستيعاب.

سأمتص قضيبك مجانًا.

يقع المنزل رقم 29 في شارع نيبولت على مشارف ساحة قطارات ديري مُباشرة. إنه منزلٌ قديمٌ ونوافذه مُغطَّاة بألواح الخشب، وشُرفته الأرضية تغوص في الأرض بالتدريج وحديقته عبارة عن حقلٍ كثيف الأعشاب، وهناك درَّاجة صَدِئة ثُلاثية العجلات مقلوبة نصف مطمورة في تلك الأعشاب الطويلة، وإحدى عجلاتها تبرز من وسط الحشائش بزاوية مائلة.

لكن على يسار الشُرفة ثمَّة رُقعة كبيرة خالية من الأعشاب تستطيع من خلالها رؤية نوافذ القبو المُتَّسخة المبنية في الأساسات الحجرية المُتداعية للمنزل.

وقد حدث أن شاهد إدي كاسبراك وجه المجذوم المُتآكل للمرَّةِ الأولى عبر واحدة من تلك النوافذ منذ ستة أسابيعٍ مضت.

6

في أيَّام السبت، عندما لا يجد إدي أحدًا ليلعب معه، كان غالبًا ما يذهب إلى ساحة القطارات. لم يكن ثمَّة سببٌ مُعيَّنٌ لذلك؛ كان فقط يحب الذهاب إلى هناك.

كان يقود درَّاجاته إلى شارع ويتشام، ثم يقطعه إلى الشمال الغربي عبر الطريق 2 الذي يتقاطع مع شارع ويتشام. إن مدرسة كنيسة شارع نيبولت

تقف عند ناصية تقاطع الطريق 2 مع شارع نيبولت على بُعد ميل أو نحو ذلك. المدرسة عبارة عن بناءٍ أنيقٍ بالٍ بحوافٍ خشبية وصليب كبير على القمة ولافتة تعلو الباب الأمامي بنحو قدمين مكتوب عليها بحروفٍ مُذهّبة: دَعُوا الأَوْلاَدَ يَأْتُونَ إِلَيَّ وَلاَ تَمْنَعُوهُمْ. في أيّام الآحاد، أحيانًا ما كان إدي يسمع أصوات موسيقى وغناء تأتي من الداخل. كانت موسيقى إنجيلية، لكن أيًّا من كان يعزف البيانو فقد بدا أقرب إلى چيري لي لويس[1] أكثر من عازف بيانو عادي في كنيسة. لم يبدُ الغناء ذو مسحة دينية تمامًا بالنسبة لأُذُن إدي، برغم أن كلمات كثيرة في الأناشيد تدور عن «جبل صهيون الجميل» و«الاغتسال في دماء الحملان» و«كم أن يسوع صديقٌ رائع لنا». في رأي إدي، كان المنشدون يبدو عليهم أنهم يقضون وقتًا طيّبًا تمامًا في الغناء، حتّى أن المرء لم يكن ليُصدِّق أنهم مُنخرطون في غناءٍ ديني. لكن إدي كان يحب ذلك الغناء رغم أنه ابتهالات، بالقدر نفسه الذي يحب الاستماع به إلى چيري لي وهو يصيح قائلًا «كثيرٌ من الرقص يجري هنا». أحيانًا، كان يتوقّف بعض الوقت عبر الشارع، ساندًا درّاجته على جذع شجرة متظاهرًا بالقراءة على المرج وهو في الحقيقة يُخادِع ليستمع إلى الموسيقى.

لكن في أسباتٍ أُخرى تكون المدرسة الإنجيلية مُغلقة وصامتة، فيقود إدي درّاجته إلى ساحة القطارات دون أن يتوقّف، حيث ينتهي شارع نيبولت بساحة انتظار ينمو عشبٌ كثيرٌ فيها من شقوق عديدة في أسفلت الطريق. هنا يُريح إدي درّاجته إلى السياج الخشبي ويجلس ليراقب القطارات التي تروح وتجيء. قطاراتٌ عديدة تعبر الساحة في أيّام السبت. لقد أخبرته أمه أنه قديمًا كان يُمكنك اللحاق بقطار المُسافرين، فيما كان يُعرف وقتها بمحطّة شارع نيبولت، لكن قطارات المُسافرين لم تعد تعبر من هنا منذ الفترة التي بدأت فيها الحرب الكورية. قالت أمه: «إذا ركبت القطار المُسافر شمالًا ينتهي بك الأمر في محطّة براونزڤيل، ومن براونزڤيل يمكنك ركوب قطار يأخذك طول

(1) چيري لي لويس: مُغنٍّ وعازف بيانو أمريكي شهير، معروف بلقب «القاتل»، ويوصف بـ «أول الجامحين العظماء في عالم الروك أند رول».

الطريق إلى كندا إذا رغبت، أو غربًا إلى المُحيط الهادئ.. أما القطار الجنوبي فيأخذك إلى بورتلاند ومنها إلى بوسطن، ومن المحطة الجنوبية تصير البلاد بأكملها ملك يمينك. لكن قطارات المُسافرين ولّى أوانها الآن مثلما ولّى أوان خطوط الترولي من قبلها على ما أظنُّ. لا أحد يرغب في ركوب القطار في حين أنه يستطيع القفز إلى سيّارة فورد ويمضي في طريقه. قد لا تتمكّن من ركوب قطارٍ أبدًا يا إدي».

لكن قطارات بضائع عظيمة الحجم ما زالت تعبر ديري مُتّجهة جنوبًا وهي تحمل على متنها لُبَّ الخشب والورق والبطاطس، وشمالًا وهي مُحمَّلة بالسلع المُصنَّعة إلى تلك المُدن التي يصفها أهل ديري أحيانًا بـ «المدن الشمالية الكبيرة»: بانجور، وميلينوكيت، وماشياس، وجزيرة بريسك، وهولتون. كان إدي يحب مراقبة القطارات المُسافرة شمالًا بشكل خاص، بحمولتها اللامعة من سيّارات الفورد والشيفورليه. يومًا ما سأمتلك سيّارة كهذي، هكذا وعد نفسه، واحدة من تلك السيّارات أو رُبَّما أفضل.. رُبَّما أمتلك كاديلاك حتّى.

يوجد في الساحة ستّة قُضبان مُختلفة تهجم إلى داخل المحطّة كخيوط عنكبوت تتقاطع في المركز: خط بانجور وخطوط المُدن الشمالية العظيمة الآتية من الشمال، خطوط المدن الجنوبية وغرب ولاية مين الآتية من الغرب، وخطوط بوسطن ومركز ولاية مين من الجنوب، خطوط مدن الساحل الجنوبي آتية من الشرق.

في أحد الأيام قبل عامين، عندما كان إدي يقف قُرب ذلك الخط الأخير ويُراقب مرور أحد القطارات، ألقى عامل قطارٍ مخمورًا قفصًا عليه من عربة شحن تتحرَّك ببطء. انحنى إدي وتراجع إلى الخلف رغم أن القفص سقط على رماد الفحم على بُعد عشرة أقدام منه. كانت هناك أشياء داخل القفص، أشياء حيَّة تنقر وتتحرَّك.

صاح العامل المخمور: «آخر يومٍ في العمل أيُّها الصبي». ثم أخرج زجاجة مُسطَّحة بُنِّية اللون من أحد جيوب معطفه الخشن، ونزع غطاءها، وجرع منها، ثم ألقى بها على الحجارة حيث تحطَّمت. أشار عامل القطار

إلى القفص وقال: «خذها إلى أمك! إنها هدية من قطار الساحل الجنوبي الفارِه اللعين!». كان قد ترنَّح أمامًا وهو يصيح بكلماته الأخيرة تلك بينما يبتعد القطار مكتسبًا سُرعة الآن، ولثانية خاطفة مُزعجة شعر إدي أن الرَّجُل على وشك التعثُّر فالسقوط.

عندما مضى القطار، ذهب إدي إلى الصندوق وانحنى فوقه بحذر. كان خائفًا من الاقتراب كثيرًا منه. إن الأشياء القابعة في الداخل لزجة ومُقزِّزة. لو كان العامل صاح بأنها هدية له، لتركها إدي في مكانها دون أن يمسَّها.. لكنه قال له أن يأخذها إلى البيت لأمه، وتمامًا مثل بن، عندما كان شخصٌ ما يلفظ كلمة «أمه»، فهو يقفز مُلتاعًا.

اختلس إدي لفَّةَ حبال من أحد المستودعات الخالية وربط الصندوق إلى حامل الحاجيات على درَّاجته. عندما عاد إلى المنزل، أطلَّت أمه داخل الصندوق بحذرٍ أكثر من إدي نفسه، ثم صرخت.. لكن من الفرحة لا الذُعر. كانت توجد أربعة سلطعونات كبيرة في الصندوق، وبراثنها مربوطة بخيوطٍ. طبختها أمه على العشاء وغضبت تمامًا لأن إدي رفض تناول أيٍّ منها.

سألته بسخط: «ماذا تظن آل روكفيلر يأكلون هذا المساء في قصرهم في بار هاربور؟ ماذا تظن أن علية القوم يأكلون في مطعم تونتي واِن ومطعم ساردي في نيويورك؟ زبدة الفول السوداني وشطائر الهُلام؟ إنهم يأكلون السلطعون يا إدي، مثلنا تمامًا! هلم الآن، جرِّب واحدة».

لكن إدي لم يرغب، أو على الأقل هذا ما قالته أمه. رُبَّما كان هذا صحيحًا، لكن بداخله شعر إدي أنه غير قادر أكثر من كونه غير راغب، فقد ظلَّ يُفكِّر في الطريقة التي راحت السلطعونات الزحف بها داخل الصندوق، وأصوات النقر التي تصدرها بمخالبها. استمرَّت أمه في إخباره كم هي لذيذة الطعم وأيَّ مُتعة يفوِّتها، حتَّى بدأ يشهق لالتقاط أنفاسه واضطُر إلى استعمال بخَّاخه، عندها تركته وشأنه.

انسحب إدي إلى غرفة نومه وجلس يقرأ. اتَّصلت أمه بصديقتها إليانور دونتون. جاءت إليانور وانخرط كلاهما في قراءة أعدادٍ قديمة من مجلَّتي

فوتوبلاي وسكرين سيكريتس. ضحكتا كثيرًا على أعمدة النميمة وأَتخَمَتَا نفسيهما بسلاطة السلطعون الباردة.

كان هذا آخر قطار ساحل جنوبي رآه إدي في حياته، وعندما قابل السيِّد برادوك مُدير محطَّة قطارات ديري لاحقًا، سأله بتردُّد عمَّا حدث. قال له السيِّد برادوك: «الشركة أفلست! هذا كل ما في الأمر! ألا تقرأ الصحف. الأمر يحدث في كل شبرٍ من البلاد. الآن امضِ من هنا، ليس هذا مكانًا للأطفال».

بعد ذلك، اعتاد إدي السير بطول القضيب الرابع، وهو القضيب المُخصَّص لقطار الساحل الجنوبي، مُستمعًا إلى الموصِّل العقلي في رأسه يُردِّد أسماء داخل رأسه، ناطقًا إيَّاها في لكنة محلِّية رتيبة.. يردِّد تلك الأسماء.. تلك الأسماء السحرية: كامدن. روكلاند. بار هاربور (التي تُنطق باه هاباه). يسكاسيت. باث. بورتلاند. أوجنكيت. بيرويكس. كان يسير عبر القضيب الرابع مُتَّجهًا غربًا إلى أن يتمكَّن التعب منه، وقد جعلته الحشائش التي نمت بين صخور القضبان يشعر بالحزن. ذات يومٍ، رفع بصره إلى أعلى وشاهد بعض النوارس (رُبَّما كانت فقط مجموعة من النوارس العجوز البدينة الغبية التي لم تكن تأبه إن لم ترَ المُحيط في حياتها قط، لكن هذا لم يخطر بباله وقتذاك) تحوم وتصيح من فوق رأسه، وقد جعلته أصواتها يبكي قليلًا أيضًا.

قديمًا، كانت توجد بوَّابة عند مدخل ساحة القطارات، لكنها خُلعت في إحدى العواصف الرعدية، ولم يُكلِّف أحدهم نفسه عناء استبدالها. كان إدي يجيء ويروح كما يحب، رغم أن السيِّد برادوك كان دائمًا ما يطرده إذا تصادف وراه (أو أيَّ طفلٍ آخر). أيضًا بعض سائقي الشاحنات يطاردونك أحيانًا (لكن ليس لمسافة طويلة) لأنهم يتصوَّرون أنك تتسكَّع في الجوار كي تختلس شيئًا، وأحيانًا كان بعض الصبية يفعلون ذلك بالفعل.

لكن في أغلب الأوقات، كان المكان هادئًا. يوجد كشك حراسة لكنه خاوٍ، وقد حُطِّمت نوافذه الزُجاجية بالأحجار، ولم تتوافر به خدمة أمنية مُتفرِّغة بدوامٍ كامل منذ عام 1950 أو نحو ذلك. فقط السيِّد برادوك يركل الصبية صباحًا بحذائه، والعسَّاس الليلي يقود سيَّارته الستودبيكر العتيقة أربع

أو خمس مرَّات في الليلة حول المكان، بكشَّاف ضوءٍ مُثبَّت خارج النافذة الجانبية.. هذا كل شيء.

وعلى الرغم من ذلك، كان الكثير من المُتشرِّدين والجوَّالين يتردَّدون على المكان أحيانًا. إذا كان يوجد أيُّ شيءٍ يُخيف إدي في ساحة القطارات، فهم هؤلاء... الرجال ذوو الذقون غير الحليقة والجلد المُجعَّد والبثور على أيديهم والقروح الجافة على شفاههم. كانوا يسافرون مع القطارات فترة من الوقت، ويترجَّلون منها فترة من الوقت، ويقضون بعض أوقاتهم في ديري، قبل أن يتسلَّقوا قطارًا آخر إلى مكانٍ آخر. كانْ لبعضهم أصابع مفقودة، وعادةً ما يكونوا مخمورين ويُريدون معرفة إن كان معك سجائر أم لا.

في أحد الأيام، زحف أحد هؤلاء الرجال خارجًا من أسفل شُرفة المنزل رقم 29 في شارع نيبولت وعرض على إدي أن يمتص قضيبه نظير رُبع دولار. انتكص إدي مُتراجعًا إلى الوراء، بجلدٍ باردٍ كالثلج، وشفتين في جفاف كُرات الصوف. كانت إحدى فتحتي أنف المُتشرِّد مُتآكلة، وكنت تستطيع النظر مُباشرةً على القناة الأنفية الجرباء حمراء اللون.

قال إدي مُتقهقرًا نحو درَّاجته: «ليس معي رُبع دولارٍ».

صاح المُتشرِّد بصوتٍ جافٍ: «سأفعلها مُقابل عشرة سنتات»، وهو يقترب منه. كان يرتدي سراويل تحتية خضراء قديمة، وثمَّة قيءٍ جاف على حوضه. فك المُتشرِّد سحَّابه ومد يده إلى داخله. كان يحاول الابتسام.. بينما أنفه يتوهَّج بلونٍ أحمرٍ مُريع.

«ولا معي عشرة سنتات أيضًا». قالها إدي ووجد نفسه يُفكِّر فجأة: يا إلهي، إنه مريضٌ بالجُذام! إذا لمسني سوف تنتقل العدوى إليّ! وفي النهاية انهارت مقاومته وركض. سمع إدي المُتشرِّد يركض خلفه بخطواتٍ مُتثاقله، وحذاءه القديم المعقود بدوبارة يحف ويحتك بحشائش حديقة المنزل المهجور الوافرة.

- «عُد إلى هنا أيُّها الصبي! سأمتص قضيبك مجانًا. عُد إلى هنا!».

قفز إدي مُمتطيًا درَّاجته، وأنفاسه تُصفِّر، شاعرًا بحنجرته تضيق وتتحوَّل إلى ثُقبٍ صغير، بينما يتعاظم صدره بالثِقَل. دهس إدي الدوَّاستين وبدأ

يكتسب سُرعة عندما أصابت إحدى يدي المُتشرِّد حامل الحاجيات الخلفي. تراقصت الدرَّاجة. نظر إدي من فوق كتفه ووجد المُتشرِّد يجري وراء العجلة الخلفية (يقترب!!!)، وشفتاه مزمومتان إلى الخلف كاشفة عن جذور أسنانٍ سوداء في تعبيرٍ قد يكون إما يأسًا أو غضبًا.

وبرغم الحجارة المُستقرة في صدره، قاد إدي درَّاجته أسرع، متوقِّعًا أن تقبض يد المُتشرِّد الجرباء بذراعه في أيِّ لحظة نازعة إيَّاه عن دراجته الرالي ومُغرقة إياه في الخندق، حيث وحده الله من يعلم ما قد يحدث له. لم يجرؤ الصبي على النظر خلفه إلا عندما عبر مُسرعًا من جوار المدرسة الإنجيلية وعبر تقاطع الطريق 2. كان المُتشرِّد قد اختفى.

أبقى إدي على قصته المُريعة هذه في سريرته قرابة أسبوع تقريبًا، ثم باح بها إلى ريتشي توزيبه وبيل دِنبروه في أحد الأيام وهم يقرأون القصص المصوَّرة في المرآب.

قال ريتشي: «لم يكن مُصابًا بالجُذام أيُّها الأحمق.. بل الزهري».

نظر إدي إلى بيل ليرى إن كان ريتشي يسخر منه، فهو لم يسمع عن مرضٍ يُدعى الزهرة. لقد بدا له كأحد الألفاظ التي يختلقها ريتشي.

- «أيوجد مرض يُدعى الزهرة يا بيل؟».

أومأ بيل برزانة: «أجل، لكن اسمه الز-ز-زهري وليس الزهرة. إنها اختصار لداء الزهري».

قال ريتشي: «إنه مرضٌ يُصيبك من النيك. أنت تعرف النيك يا إدز، أليس كذلك؟».

قال إدي: «بالتأكيد»، وتمنَّى ألا تكون وجنتيه قد احمرَّتا خجلًا. كان يعلم أنه مع بلوغ المرء فإن ثمَّة سائلًا يخرج من قضيبك عندما ينشف وينتصب. هكذا أخبره ڤينسينت تاليندو الشهير بالـ «ماخِط» ذات يومٍ في فُسحة المدرسة. ما تفعله حينما تنيك -وِفقًا للماخط- هو أن تفرك قَضيبك على بطن فتاة إلى أن ينشف (قضيبك لا بطن الفتاة).. ثم تواصل الدعك إلى أن «يأتيك الشعور». عندما سأله إدي عن معنى هذا، هزَّ الماخِط رأسه بطريقة غامضة. قال الماخِط إن الأمر يستعصي على الوصف، لكنك ستعلمه ما

إن يأتيك، وقال أيضًا إنه يُمكنك التدرُّب على الأمر بالاستلقاء في مغطس الحمَّام ودعك قضيبك بصابونة أيڤوري (جرِّب إدي هذا لكن كل ما شعر به هو الرغبة في التبوُّل بعد وقتٍ قصير). على أيٍّ حال -هكذا واصل الماخِط- عندما «يأتيك الشعور» يخرج هذا السائل من قضيبك. قال له الماخط إن معظم الصبية يُسمُّون السائل «اللبن»، لكن شقيق الماخِط الأكبر أخبره أن اللفظ العلمي الصحيح له هو «المني»، وعندما «يأتيك الشعور» يجب أن تُمسك بقضيبك وتوجِّههُ سريعًا كي تستطيع أن تقذف المني في سُرَّة الفتاة بُمجرَّد خروجه منك، ومن ثم يخترق بطنها ويكوِّن جنينًا داخله.

وهل تُحب الفتيات هذا الأمر؟ هكذا سأل إدي تاليندو الماخِط، فقد شعر هو نفسه كولد بالذُعر.

أظنُّ ذلك، هكذا أجابه الماخِط، وقد بدا مُتحيِّرًا بدوره.

قال ريتشي: «اسمعني الآن يا إدز، لأنه قد تحدث تساؤلات لاحقًا. بعض النساء مُصاباتٍ بهذا المرض، وبعض الرجال أيضًا، لكن الأغلبية العُظمى نساء.. والرَّجُل قد يُصاب بالعدوى من المرأة...».

أضاف بيل: «أو من ر-ر-رجُلٍ آخر لو كان شـ-شـ-شاذًّا».

- «صح. النقطة هنا هي أنكَ تُصاب بالعدوى عند مُضاجعة شخصٍ يحملها».

سأله إدي: «وماذا يفعل المرض؟».

قال ريتشي ببساطة: «يجعلك تتعفَّن حيًّا».

نظر إليه إدي، مذعورًا.

قال ريتشي: «الأمر مُقزِّز، لكنه حقيقي. الأنف أوَّل عضوٍ يفسد. بعض الرجال المُصابين بالزهري تسقط أنوفهم بالكامل، ثم تتبعها قُضبانهم».

قال بيل: «أ-أ-أرجوك... لقد أ-أ-أكلت لتوِّي».

قال ريتشي: «هاي يا صاح، هذا عِلم».

سأل إدي: «إذًا ما الفارق بين الجُذام والزهري؟».

قال ريتشي فورًا: «المرء لا يُصاب بالجُذام من النيك». ثم انخرط بعدها في عاصفة من الضحك تركت كُلًّا من بيل وإدي في حيرة.

7

بعد ذلك اليوم، صار للمنزل رقم 29 في شارع نيبولت نوع من الوهج في مُخيِّلة إدي. بالنظر إلى حديقته الشعثاء وشُرفته المطمورة في التُربة والألواح الخشبية المُسمَّرة على النوافذ، كان يشعر بافتتانٍ مريض يستحوذ عليه. منذ ستَّة أسابيع كان قد أوقف درَّاجته عند حافَّة أسفلت الطريق الخشنة (فقد كان الرصيف ينتهي قبل المنزل على بُعد أربعة منازل إلى الخلف)، وسار عبر الحديقة مُتَّجهًا إلى شُرفة المنزل.

كان قلبه ينبض بعنف بين ضلوعه، وفي حلقه استشعر ذلك الجفاف مرَّة أخرى. بعدِ استماعه إلى قِصَّة بيل عن تلك الصورة المُخيفة، كان يعلم أن ما يشعر به وهو يقترب من المنزل الآن الشعور ذاته الذي اعترى بيل وهو يدلف إلى غرفة شقيقه چورچ. لم يكن إدي يشعر بأنه يُسيطر على ذاته، بل بأنه مدفوع.

لم يبد له أن قدميه تتحرَّكان، بل أن المنزل الصامت الكئيب ذاته يقترب منه رويدًا رويدًا.

استطاع أن يسمع صوت مُحرِّك الديزل الخافت الآتي من ساحة القطارات، بالإضافة إلى صوت تعشيق معدني مائع. إنهم يحوِّلون بعض العربات إلى المسارات الجانبية مكوِّنين قطارًا.

أمسكت يده بالبخَّاخ بقوَّة، لكن -للغرابة- لم تدهمه نوبة الربو غالقة شُعبَهُ الهوائية كما فعلت في اليوم الذي فرَّ فيه من المُتشرِّد ذي الأنف المُتآكل. لم يكن يعتريه سوى الشعور بأنه واقفٌ في مكانه يُشاهِد المنزل وهو يقترب نحوه، وكأنه يتحرَّك على مسارٍ خفي.

نظر إدي أسفل الشُرفة. لم يكن هناك أحد، ولم يكن هذا مُفاجئًا حقًّا. هذا موسم الربيع، والمُتشرِّدون يبدأون الظهور في ديري غالبًا بدايةً من أواخر سبتمبر وأوائل نوڤمبر. في غضون تلك الأسابيع الستَّة، يستطيع الواحد منهم أن يحصل على يوم عمل نظير أجر في واحدة من المزارع النائية إذا

كان مظهره نصف لائق فقط. ثمَّة بطاطس كثيرة وتُفَّاح في حاجةٍ إلى الجمع، وأسوجة في حاجة إلى الصيانة، وحظائر وأسقُف في حاجة إلى الترقيع قبل حلول ديسمبر حاملًا الشتاء معه.

لا مُتشرِّدون أسفل الشُرفة؛ لكن توجد علاماتٍ عديدة على أنهم كانوا هنا. عبوَّات بيرة فارغة. زُجاجات بيرة فارغة. زُجاجات خمرٍ فارغة. دثارٌ مُغطًّى بالوَسَخ مُلقى على أساسات المنزل الحجرية كالكلب الميِّت. ثمَّة أكوامٍ من الجرائد المُجعَّدة وفردة حذاء قديم رائحتها كالمزبلة. أيضًا توجد طبقاتٌ سميكة من أوراق الشجر القديمة مكوَّمة هناك بالأسفل.

زحف إدي أسفل الشُرفة وهو غيرُ راغبٍ في فعل الأمر، لكنه لم يستطِع إيقاف نفسه. كان يشعر بنبض قلبه يقرع في رأسه الآن، جارفًا بُقعًا بيضاء من الضوء إلى مجال إبصاره.

الرَّائحة أسوأ في الأسفل.. بقايا خمرٍ وعرق وعبق أوراق الشجر المُتحلِّلة العطن. لم تتكسَّر أوراق الأشجار القديمة أسفل كفَّيه ورُكبتيه، فقط أنَّت بلزوجة هي وأوراق الجرائد.

فكَّر إدي بعقلٍ مشوَّش: أنا مُتشرِّد. أنا مُتشرِّد أُسافر خلسةً في القطارات. هذا ما أفعله. لا مال معي، ولا بيت لديّ، لكن معي زُجاجة ودولار ومكان أبيت فيه. سأجمع التفَّاح هذا الأسبوع، والبطاطس في الأسبوع الذي يليه، وعندما يُجمِّد الصقيع الأرض كالمال المُخزَّن في أقبية البنوك، سأتسلَّق عربة قطارٍ تفوح منها رائحة سُكَّر البنجر، وسأجلس في الرُكن مُكوِّمًا بعض القشِّ فوقي إذا وجدت بعضه وسأحتسي قليلًا من الشراب وأُدندن بعض الأغاني، وعاجلًا أو آجلًا سوف أصل إلى بورتلاند أو بينتاون، وإذا لم يعتقلني أحد أفراد أمن السكك الحديدية الحمقى، سأقفز إلى إحدى عربات قطارات شركة باما ستار وأتوجَّه جنوبًا، وعندما أصل إلى هناك سأجمع بعض الليمون أو البرُتقال.. وإذا قُبضتُ بتهمة التشرُّد سوف أرصف الطُرق للسياح كي يسيروا عليها. اللعنة، لقد شاركت في ذلك من قبل، أليس كذلك؟ أنا مُجرَّد شريد مُسن وحيد، لا مال معي، لا بيت لديّ، لكن لدي شيئًا واحدًا: لديَّ مرضي الذي يأكلني حيًّا. إن جلدي يتشقَّق، وأسناني تتساقط، وتعرف ماذا

أيضًا؟ أستطيع الشعور بجسدي يتعفَّن كتفَّاحة تتغضَّن وتطرى، أستطيع الشعور بالعفن يسري في بدني، يأكلني من الداخل إلى الخارج.. يأكلني.. يأكلني.. يأكلني.

أبعد إدي الدثار اليابس جانبًا، مُمسكًا طرفه بإصبعيه السبَّابة والإبهام، مُشمئزًّا من ملمسه المُلبَّد. كانت إحدى نوافذ القبو المُنخفِضَّة تستترُ خلف الدثار مُباشرةً، أحد مصراعيها مكسورًا، والآخر مُدلهم بالوَسَخ والقذارة. انحنى إدي أمامًا وهو يشْعر الآن كالمنوَّم إيحائيًّا تقريبًا. مال أكثر على النافذة، أقرب إلى ظلام القبو، وبالتأكيد كان المجذوم ليُمسكه في هذه اللحظة لو لم تنتقِ نوبة الربو هذه اللحظة تحديدًا لتتكالب عليه. لقد أُثقِلت رئتاه فجأة بوزنٍ هائل غير مؤلم لكنه مُخيف، واحتدَّت أنفاسه دُفعة واحدة وتحوَّل صوتها إلى الصفير البغيض المألوف.

انسحب إدي إلى الخلف، وفي هذه اللحظة ظهر الوجه للمرَّة الأولى. كان مجيئه مُباغتًا تمامًا ومفزعًا تمامًا (لكنه في الوقت نفسه متوقَّع تمامًا)، لدرجة أن إدي لم يكن ليقوى على الصراخ حتَّى لو لم تكن هجمة الربو تعتريه. انتفخت عيناه، وسقط فكُّه مفتوحًا. لم يكن هذا المُتشرِّد إيَّاه ذو الأنف المجدوع، لكن ثمَّة تشابُهات بينهما.. تشابُهات مُريعة، ورغم ذلك، لا يُمكِن أن يكون هذا الشيء بشريًّا. لا شخص يتحمَّل هذه الدرجة من التآكُل ويظلُّ حيًّا.

كان الجلد على جبهته مشقوقًا بالطول، ومن أسفله أطلَّ عظمٌ أبيض مُغلَّف بغشاءٍ من مادَّة مُخاطية صفراء كعدسة كشَّاف ضوءٍ غائم. أما الأنف فكان جسرًا من غضاريف نيِّئة تعلو قناتين حمراوين متوهِّجتين. إحدى العينين زرقاء مسعورة، ومحجر الأخرى مليء بكُتلة نسيج إسفنجية بُنِّية وسوداء. كانت شفة المجذوم السُفلى مُتدلِّية ككبِدٍ متورِّم، ولم تكن له شفة علوية من الأساس.. ومن وجهه أطلَّ صفُّ أسنانه المقوَّس هازئًا.

دفع الشَّيءُ إحدى يديه عبر اللوح المكسور، والأخرى عبر الزجاج القذر مُحطِّمًا إيَّاه إلى شظايا. كانت يداه الباحثة التي تحاول الإمساك بإدي مُغطَّاة بالبثور والقروح المُتقيِّحة، وتمرح الخنافس عليها جيئةً وذهابًا.

تراجع إدي إلى الخلف على ظهره وهو يموء ويشهق طلبًا للهواء. كان بالكاد يتنفَّس، وقلبه يعمل كمُحرِّك بطاقته القصوى. بدا أن المجذوم يرتدي بقايا خشنة شعثاء من حُلَّة فِضِّية غريبةٍ ما، وتزحفُ أشياء في تيه شعره البُنِّي المُلبَّد.

تكلَّم الظهور بصوتٍ أجش قائلًا: «ما رأيك لو أمتص قضيبك يا إدي؟»، وهو يبتسم مُحرِّكًا بقايا فمه، ثم راح يُنشد بجذالة: «بوبي يفعلها مُقابل عشرة سنتات، في أيِّ الأوقات، ولمرَّة إضافية مُقابل خمس عشرة أخرى من العُملات»، وأردف بعدها: «هذا أنا يا إدي، بوب جراي، والآن بما أننا تعارفنا بشكلٍ لائق...» قالها وهو يُريح إحدى يديه على كتف إدي الأيمن، فصرخ إدي بصوتٍ رفيع.

قال الظهور بصوتٍ أجش: «لا بأس»، ورأى إدي بذعرٍ أشبه بكابوسٍ يُرى في المنام أن الشَّيءَ يزحف خارجًا من النافذة. ضرب النتوء العظمي البادي من خلف جلد جبينه المُقشَّر الشريط الخشبي الرقيق بين المصراعين، وأنشبت يداه نفسها في التُربة المُغطَّاة بأوراق الشجر. بدأت الأكتاف الفِضِّية لحُلَّته، أو زيِّهُ، أو أيًّا ما كان يرتديه، في الدفع عبر الفتحة دون أن تطرف تلك العين الزرقاء اللامعة أو تُفارق وجه إدي.

نعب الشَّيءُ: «ها أنا آتي يا إدي. الأمر على ما يُرام. سوف تُحب المكان هنا بالأسفل. بعض أصدقائك هنا أيضًا».

امتدَّت يده إليه مرَّة أخرى، وفي جزءٍ ما من عقله الصارخ الملسوع بالهلع، تأكَّد إدي فجأة أنه إذا لمس ذلك الشَّيءُ جلدهُ العاري، فسوف يبدأ في التعفُّن بدوره على الفور. كسرت الفكرة حاجز الخوف الذي يشلُّه. تراجع إدي سريعًا حابيًا على يديه ورُكبتيه، ثم استدار واندفع راكضًا إلى الطرف البعيد من الشُرفة. راحت أشعة الشمس الساقطة في حزم مُغبَّرة رفيعة عبر شقوق ألواح الشُرفة الخشبية تنجرف على وجهه من لحظةٍ إلى أُخرى، واندفع رأسه عبر بيوت عنكبوتٍ مُترَّبة أخذت لنفسها مُستقرًّا في شعره. نظر إدي إلى الوراء من فوق كتفه ورأى أن المجذوم قد تحرَّر نصفه.

نعق الشَّيءُ: «الركض لن يُفيدك بأيِّ حالٍ من الأحوال يا إدي».

وصل إدي إلى الجانب البعيد من الشُرفة، حيث توجد تعريشة خشبية تعمل كدرابزين. كانت أشعة الشمس تسقط من خلاها راسمة أشكالًا هندسية من الضوء والظل على وجنتيه وجبينه. خفض إدي رأسه وضربها به بقوَّة مُندفعًا عبرها دون أدنى تردُّد مُحطِّمًا التعريشة بأكملها، ما جعل المسامير الصدئة الزهيدة التي ثُبِّتت بها تُطلق صريرًا صارخًا عالية.

خلفها، كان هناك تشابك كثيف من شُجيرات الورد، وقد شقَّ إدي طريقه خلال هذه أيضًا داهسًا الورود بقدميه مُتعثِّرًا غير مُبالٍ بالأشواك التي أحدثت جروحًا سطحية بطول ذراعيه ووجنتيه ورقبته.

استدار إدي متراجعًا على ساقين ليِّنتين، مُخرجًا البخَّاخ من جيبه، وضاغطًا الزناد. هذا حلم من دون شك. لقد كان يُفكِّر بأمر ذلك المُتشرِّد وصوَّر له عقله... حسنًا... فقط...

(خادعهُ)

أراه فيلمًا، فيلمَ رعب، كأحد أفلام عروض السبت الصباحية التي تحكي عن فرانكنشتاين أو الرَّجُل الذئب التي يعرضوها أحيانًا في سينما بيچو أو الجوهرة أو علاء الدين. هذا كل شيء. لقد أخاف نفسه! يا له من أحمق!

كانت أمام إدي فسحة من الوقت لتفلت منه ضحكة عصبية ساخرة من خياله الخصب غير المتوقَّع قبل أن تخرج اليدان المُتحلِّلتان من أسفل الشُرفة، وتنشبان في أجمة الورود بوحشية غاشمة، وتُمزقانها، وتجُرَّان الجسد المُتآكل طابعتين حبَّاتٍ من الدماء عليها.

انتفض إدي صارخًا.

إن المجذوم يزحف خارجًا. كان يرتدي حُلَّة مُهرِّج.. إنه رآها الآن.. حُلَّة مُهرِّج حريرية بكُرياتٍ بُرتقالية وبرية على الصدر. شاهد الشَّيءُ إدي وابتسم. سقط فكَّه النصفي مفتوحًا وتدلَّى لسانه خارجًا منه. انتفض إدي مرَّة أخرى صارخًا، لكن أحدًا لم يكن ليسمع صرخة الصبي مُتقطِّع النفس مع صخب مُحرِّك الديزل الآتي من ساحة القطارات. لم يتدل لسان المجذوم من بين فكِّيه فقط، بل كان طوله ثلاثة أقدام على الأقل، وقد انفضَّ كهدية ملفوفة.

سرى طرف اللسان المُدبَّب على التُربة، وتخلَّفت رغوة صفراء كثيفة ولزجة في أثره، في حين واصلت حشراتٍ عديدة زحفها عليه.

الآن، ذبلت أجمة الورود -التي كانت تظهر عليها أولى لمسات الربيع اليانعة عندما اندفع إدي عبرها- واستحال لونها إلى الأسود.

همس المجذوم: «جنس فموي»، ونهض مُترنِّحًا على قدميه.

هرع إدي إلى درَّاجته، بالهروع الهَلِع ذاته الذي اعتراه من قبل، فقط هذه المرَّة كان له إحساس الكابوس، حيث تجد نفسك تتحرَّك ببطءٍ شديد مُعذِّب مهما حاولت الركض سريعًا. في هذا النوع من الأحلام، ألا تسمع دائمًا أو تشعر بشيءٍ ما -مخلوق ما- يطاردك؟ ألا تشم دائمًا أنفاس هذا الشَّيءِ كريهة الرَّائحة، كما يشمَّها إدي الآن؟

للحظة شعر إدي بأملٍ جامح: رُبَّما هذا حلم بالفعل. رُبَّما سيستيقظ في فراشه غارقًا في العرق، مُرتجفًا، بل يبكي... لكنه سيكون حيًّا.. وآمنًا. دفع إدي الفكرة بعيدًا عن عقله. إن سحرها مُميت، وسلواها قاتلة.

لم يحاول إدي ركوب درَّاجته على الفور.. بل ركض بجوارها مُنكَّس الرأس وهو يدفعها من مقبضيها. كان يشعر أنه يغرق، لا في الماء، لكن في صدره ذاته.

همس المجذوم مرَّة أخرى: «سأمتص قضيبك. عُد في أيِّ وقتٍ تُحب يا إدي؛ اجلب أصدقاءك معك».

بدا أن أصابعه المُتعفِّنة تلمس عنقه من الخلف، لكن رُبَّما كان ذلك خيطًا من نسيج العنكبوت المنتشر أسفل الشُرفة وقد التصق بشعره وهو الآن يدغدغ جلده المُنكمش من الهلع. قفز إدي فوق درَّاجته وقادها مُبتعدًا غير عابئ بأن حنجرته قد ضاقت كسم الخياط من جديد، وغير آبه بنوبة الربو التي تخنقه، ودون أن ينظر إلى الوراء. لم ينظر إدي وراءه إلى أن بلغ المنزل تقريبًا، وبالتأكيد عندما نظر أخيرًا لم يكن خلفه شيءٌ باستثناء صبيين يتوجَّهان إلى الحديقة للعب الكُرة.

في تلك الليلة، وهو مُستلقٍ مُستقيمًا كالعصا في فراشه، وإحدى يديه معقودة بإحكام على بخَّاخه، ويرمق الظلال، سمع صوت المجذوم يهمس في أذنه: الركض لن يفيدك بأيِّ حالٍ من الأحوال يا إدي.

8

«واو»، هكذا صاح ريتشي بشيءٍ من الإجلال. كان هذا أوَّل ما نطقه أيٌّ مَنهم بعدما أنهى بيل دِنبروه قصَّته.

- «أ-أ-أمعك سـ-سـ-سيجارة أخرى يا ر-ر-ريتشي؟».

ناوله ريتشي السيجارة الأخيرة في العلبة التي اختلسها شبه فارغة من درج مكتب والده، بل أشعلها له أيضًا.

سأل ستان فجأة: «أنت لم تحلم بالأمر يا بيل؟».

هزَّ بيل رأسه نافيًا وقال: «لـ-لـ-لم يكن حـ-حلمًا».

- «بل حقيقة». هكذا همس إدي بصوتٍ خفيض.

نظر إليه بيل بحدَّة وقال: «مـ-ماذا؟».

نظر إليه إدي باستياء تقريبًا وقال: «قلت حقيقة. لقد حدث الأمر بالفعل. كان حقيقيًّا»، وقبل أن يستطيع إيقاف نفسه، بل قبل أن يعرف أنه سوف يفعلها من الأساس، وجد نفسه يحكي لهم قِصَّة المجذوم الذي خرج زاحفًا من قبو المنزل رقم 29 في شارع نيبولت، وفي منتصف حكايته بدأ يشهق طلبًا للهواء، واضطُرَّ لاستخدام بخَّاخه.. وفي النهاية انفجر في بكاءٍ شديد، وراح جسده النحيل يرتجف.

نظر جميعهم إليه بانزعاج، ثم وضع ستان يدًا على ظهره. أعطاه بيل عناقًا مُحرِجًا، في حين ما أشاح الآخرون بنظرهم بعيدًا متململين.

- «هـ-هـ-هوِّن عليك يا إ-إدي. الأمر على مـ-مـ-ما يُرام».

قال بن فجأة: «لقد رأيته أيضًا». كان صوته جافًّا وخائفًا ولا روح فيه.

رفع إدي بصره إليه بوجهٍ ما زال يدمع وعينين حمراوتين كاللحم النيِّئ وقال: «ماذا؟».

قال بن: «لقد رأيت المُهرِّج. فقط لم يكن يبدو كما وصفته. على الأقل ليس عندما رأيته. لم يكن مُقزِّزًا كما قُلت... كان جافًّا» ثم توقَّف وحنا رأسه ونظر إلى يديه المستلقيتين في شحوبٍ على فخذيه العملاقين وأردف: «أظنُّه كان المومياء».

سأله إدي: «كما في الأفلام؟».

قال بن ببطء: «كذلك وليس كذلك. في الأفلام تبدو المومياء مُلفَّقة. مُخيفة أجل، لكنك تُدرك أنها خُدعة، هل تفهمني؟ كل تلك الأكفان التي تُدثِّرها تبدو نظيفة وأنيقة نوعًا. لكن هذا الذي رأيته... أظنُّه بدا نسخة من مومياءٍ حقيقة كما يجب أن تكون. أعني، إذا عثرت حقًّا على واحدة في غُرفة دفنٍ أسفل الهرم. باستثناء الحُلَّة بالتأكيد».

- «أ-أ-أيُّ حُـ-حُـ-حُلَّة؟».

نظر بن إلى إدي وقال: «الحُلَّة الفِضِّية ذات الأزرار البُرتقالية الكبيرة على الصدر».

فغر إدي فاه على اتِّساعه، ثم أغلقه بعدها وهو يقول: «اعترِف إن كنت تمزح. أنا ما زلت... ما زلت أحلم بذلك الرَّجُل الخارج من أسفل الشُرفة».

قال بن: «ليست مُزحة». ثم بدأ يسرد حكايته. حكاها ببطء، بادئًا من تطوُّعه لمُساعدة مسز دوجلاس في إحصاء الكتب، وانتهاءً بكوابيسه الخاصة المُزعجة. كان يتحدَّث بروِيَّة، دون أن ينظر إلى الآخرين، وسرد حكايته كأنه شديد الخجل من سلوكه، ولم يرفع رأسه إلا عندما انتهت القِصَّة.

قال ريتشي في النهاية: «بالتأكيد حَلِمتَ بالأمر» لكنه رأى بن يجفل فسارع مُضيفًا: «لا تأخذ الأمر بمحملٍ شخصي يا زعيم، لكن كما ترى.. البالونات لا تطفو عكس اتِّجاه الريح...».

قال بن: «والصور لا تغمز أيضًا».

نقل ريتشي بصره من بن إلى بيل مُتحيِّرًا. اتِّهام بن بأنه يحلم مُتيقِّظًا شيء، واتِّهام بيل بالأمر نفسه شيء آخر. إن بيل قائدهم.. إنه الفتى الذي يتطلَّع جميعهم إليه. لم يتفوَّه أحدهم بذلك قط، فلم يكن أيُّهم يحتاج ذلك. كان بيل جُعبة الأفكار.. كان الرفيق الذي يستطيع التفكير في أمرٍ مُسلٍّ لفعله في يومٍ مُمل.. الرفيق الذي يتذكَّر الألعاب التي ينساها الآخرون.. وبطريقة ما غريبة شعر جميعهم بنوعٍ من الرُشد المُريح في شخصية بيل. رُبَّما نبع هذا من شعورهم بأنه مسؤول، بأنه سيتحمَّل المسؤولية إذا اقتضت الحاجة

المسؤولية أن تُحمل. في الواقع، لقد صدَّق ريتشي قِصَّة بيل، برغم ما تنطوي عليه من جنون، ورُبَّما لم يرغب في تصديق قِصَّة بن، أو إدي أيضًا.

سأل إدي ريتشي: «ألم يحدث لك أمرٌ شبيه، هه؟».

صمت ريتشي بُرهة، ثم همَّ بقول شيءٍ، قبل أن يهزَّ رأسه ويصمت من جديد، وفي النهاية قال: « أرعب شيء شاهدته مؤخرًا هو مارك برندرليست يتبوَّل في حديقة مكارون.. أقبح خنزير يُمكن أن تروه في حياتكم».

قال بن: «ماذا عنك يا ستان؟».

قال ستان سريعًا: «لا»، ثم نظر في اتِّجاهٍ آخر. كان وجهه الصغير شاحبًا، وشفتاه مزموتين بقوَّة إحداهما مع الأخرى، وقد استحال لونهما إلى الأبيض.

سأل بيل: «هـ-هـ-هل حدث شـ-شـ-شيء يا ستان؟».

- «لا، لقد أخبرتكم!». قالها ستان ونهض واقفًا وسار إلى الضِفَّة داسًّا يديه في جيبي سراويله، وقف الصبي يُراقب مسار الماء المنساب من فوق قمَّة السدِّ الأصلي ويتراكم خلف مصد الماء الثاني.

صاح ريتشي صيحة عالية مُصطنعة: «هلم الآن يا ستانلي!». كان هذا صوتًا آخر من أصواته: صوت الجدَّة جرانت. عندما يتحدَّث ريتشي بصوت الجدَّة جرانت، فإنه يسير بشكلٍ أعرج عاقدًا إحدى قبضتيه خلف ظهره، ويُثرثر كثيرًا. لكن الصوت رغم ذلك بدا أشبه بريتشي توزييه أكثر من أيِّ شخصٍ آخر.

- «تكلَّم يا ستانلي، أخبِر جدَّتك العجوز بأمر المُهرِّج الشريــــــــــــــر وسأعطيك قطعة من الكعك. فقط أخبِر...».

زعق ستانلي فجأة: «اخرس!» مُلتفتًا بحدَّة إلى ريتشي الذي تراجع خطوة أو خطوتين إلى الوراء مصعوقًا. «اخرس فحسب!».

صاح ريتشي: «ياوزا يا كبير»، ثم جلس أرضًا وهو ينظر إلى ستان يوريس بعدم ثقة. تورَّدت وجنتا ستانلي بخليطٍ من ألوانٍ متوهِّجة، لكنه رغم ذلك بدا خائفًا أكثر منه غاضبًا.

قال إدي بلُطف: «اهدأ يا ستانلي. لا عليك».

قال ستانلي: «لم يكن مُهرِّجًا». ثم انتقل بصره من واحدٍ إلى الآخر إلى الآخر إلى الآخر. بدا كأنه يجاهد نفسه.

قال بيل مُتحدِّثًا بهدوء بدوره: «يُـ-يُـ-يُمكنك أن تـ-تـحكي، فقد حـ-حـ-حكينا».

- «لم يكن مُهرِّجًا، بل كان...».

كان هذا حين قاطعهم صوت السيِّد نيل خشن النَّبرة بسبب الويسكي وجعلهم جميعًا يقفزون إلى الهواء كمن أُصيبوا بطلقٍ ناري: «يا للمسيح الحي! ما هذه الفوضى! يا للمسيح الحي».

الفصل الثّامن

غرفة جورجي ومنزل شارع نيبولت

1

أغلق ريتشارد توزييه المذياع الذي يصدح بأغنية مادونا «كالعذراء» مضبوطًا على محطّة *WZON* (وهي المحطّة التي تُعلن عن نفسها بوصفها «إذاعة بانجور المُزلزلة على مواجات الـ *am*1» بتكرارٍ هستيري نوعًا ما) ثم ركن إلى جانب الطريق، وأوقف مُحرِّك السيارة الموستانج التي أجَّرها له الرفاق في شركة آڤيس في مطار بانجور الدولي، وترجَّل منها. كان يسمع صوت شهيقه وزفيره في أذنيه. لقد رأى لافتة طريق جعلت الجلد على مؤخِّرة عنقه يستحيل إلى قطع صلبة من جلد الإوز.

سار إلى مُقدِّمة السيَّارة وأراح يديه على الغطاء الأمامي، وسمع المُحرِّك يتكتك بنعومة بينما تبرد حرارته، ثم سمع صيحة عصفور أبو زُريق قصيرة خرس الطائر بعدها. كان صرير صراصير الليل يسري في البقاع، مُشكِّلًا أغلب الموسيقى التصويرية الخلفية للمكان.

لقد رأى اللافتة، وتجاوزها، وها هو قد صار في ديري من جديد. بعد مرور خمسة وعشرين عامًا عاد ريتشي توزييه «سليط اللسان» للوطن. إنه...

انغرس ألمٌ مُبرح فجأة في عينيه قاطعًا حبل أفكاره. أطلق ريتشي صرخة قصيرة مخنوقة وطارت يداه إلى وجهه. المرَّة الوحيدة التي استشعر فيها ألمًا قريبًا من هذا الوجع الحارق كانت عندما انزلق أحد رموشه أسفل عدساته اللاصقة وهو في الجامعة، وقد كان ذلك في عينٍ واحدة. هذا الألم المُريع يحيق بكلتا عينيه.

لكن الألم تلاشى قبل أن تعبر يداه منتُصف المسافة إلى وجهه.

خفض ريتشي يديه مُجدَّدًا ببطء، مُتحسبًّا، ونظر إلى الطريق 7 المُمتد أمامه. لقد ترك الطريق السريع الرئيس خلفه عند مخرج إتنا–هاڤن، لأنه رغب –لسببٍ ما لا يعلمه– ألّا يعود إلى البلدة من هذا الطريق، الذي كان ما زال تحت الإنشاء عندما غادر ريتشي وذووه تاركين غبار هذه البلدة الصغيرة غريبة الأطوار يتبعثر خلفهم مُتَّجهين إلى الغرب الأوسط. لا.. الطريق الرئيس قد يكون أسرع، لكنه ليس الطريق الصحيح.

لذا قاد ريتشي عبر الطريق 9 مارًّا جوار مجموعة المباني الغافية التي تُشكِّل قرية هاڤن، ثم انعطف إلى الطريق 7، ومع تقدُّمه راح ضوء اليوم الجديد ينمو باطِّراد ويصير أكثر سطوعًا.

ثم جاءت هذه اللافتة. إنها من نوع اللافتات التي تنتصب على حدود أكثر من ستمئة مدينة في ولاية مين، لكن تلك تحديدًا اعتصرت شغاف قلبه!

مقاطعة بينوبسكت

د

ي

ر

ي

ولاية مين

خلفها، توجد لافتة رابطة الأيائل، ولافتة نادي الروتراي، واستكمالًا للثالوث، توجد تلك اللافتة التي تقر الحقيقة التالية: أسود ديري تزأر تأييدًا لصندوق التمويل المُتَّحد! وخلف هذه الأخيرة، يمتد الطريق 7 مُستكملًا مساره المستقيم، تحدّه من الجانبين أشجار الصنوبر والتنوب. في ضوء النهار الساكن هذا، وبينما يُعزِّز اليوم من سطوته، بدت تلك الأشجار غامضة وضبابية كدُخان سيجارة رماديٍّ أزرق مُعلَّقًا بلا حراك في هواء غرفة مُحكمة الغلق.

ديري، هكذا فكَّر، إنها ديري. ساعدني يا رب. إنها ديري. يا للبلاء.

ها هو على الطريق 7. على بُعد خمسة أميال، توجد أراضي مزارع رولين، حيث اعتادت أمه ابتياع كل ما يحتاجونه من بيض الدجاج، وأغلب

ما يحتاجونه من الخُضر، وبعد ميلين، يصير الطريق 7 طريق ويتشام، وفي النهاية بالتأكيد يتحوَّل طريق ويتشام إلى شارع ويتشام، هللويا هلَّا سبَّحتم الربَّ كثيرًا؟ ثم في مكانٍ ما بين مزرعة آل رولين والبلدة سيمضي عائدًا من جوار مزرعة باورز ومزرعة هانلون، وبعد ميلٍ أو نحو ذلك من مزرعة هانلون سيرى أوَّل انعكاس لأشعة الشمس على نهر الكِندوسكيج وأوَّل تفشٍّ للنطاق الأخضر الكثيف، أو بعبارةٍ أخرى الأراضي المنخفِضة الخصيبة التي كانت تشتهر بكلمة «البرِّية» لسببٍ ما.

لا أعرف حقًّا إن كنت قادرًا على مواجهة كل ذلك، هكذا فكَّر ريتشي. أعني، لنكن صرحاء يا رفاق، أنا حقًّا لا أعلم مقدرتي على ذلك.

الليلة السابقة برُمَّتها مرَّت عليه كالحلم.. والحُلم سيستمرُّ ما دام يواصل السفر قاطعًا الأميال وراء الأميال. لكنه توقَّف الآن -أو بالأحرى أوقفته اللافتة- مستيقظًا على حقيقة غريبة: الحلم حقيقة. ديري حقيقة.

يبدو أنه لن يستطيع إيقاف نفسه عن التذكُّر، وهو يظن أن الذكريات ستجعله يجن في النهاية. ها هو الآن يعض على شفتيه ويعقد كفَّيه معًا بقوَّة كأنه يحمي نفسه من التناثر إلى أشلاء. إنه يشعر بأنه سيتناثر إلى أشلاء بالفعل، بل قريبًا جدًّا. يبدو أن ثمَّة جزءٍ مجنون بداخله يطلَّع إلى الأحداث القادمة، لكن بقية ذاته تتساءل كيف ستتسنَّى له النجاة من الأيَّام القليلة القادمة. إنه...

الآن انقطع حبل أفكاره من جديد.

ثمَّة ظبي يعبر الطريق. إنه يسمع صوت الخبط الخافت الذي تُحدثه حوافره الليِّنة على الأسفلت.

كتم ريتشي نفسه في منتصف زفيره، ثم أطلق سراحه ببطء مرَّةً أخرى. كان مصعوقًا، وثمَّة جزءٍ داخله يُفكِّر أنه لم يرَ شيئًا كهذا قط في حيٍّ روديو درايف. لا... كان يحتاج العودة إلى الديار لرؤية مشهدٍ كهذا.

إنها أنثى غزال (رنَّت الأغنية المرحة في رأسه: «دو، غزال، أنثى غزال»). لقد خرجت من الغابة إلى يمينه وتوقَّفت في منتصف الطريق 7، واضعة ساقيها الأماميتين على أحد طرفي الشريط الأبيض المُتقطِّع، والخلفيَّتين على

الطرف الآخر. اختلست عينا أنثى الغزال الداكنتان نظرة إلى ريتشي توزييه، وقد لاحظ فضولًا في تينك العينين لكن لا خوفٍ.

نظر إليها في عَجب، وفكَّر أنها فألٌ أو نذيرٌ أو نوعٌ ما من تُراهات مدام أزونكا قارئة أوراق التاروت. ثم بعدها، وبشكل غير متوقَّع إلى حدٍ كبير، طفت إلى عقله ذكرى السيدّ نيل. يا لها من فزعة تلك التي أصابهم بها في ذلك اليوم، مُخترقًا خلوتهم في أعقاب قِصَّة بيل وقِصَّة بن وقِصَّة إدي! لقد كاد جميعهم أن يفارقوا الحياة ويذهبوا إلى الجنَّة.

الآن، وفي أثناء مُراقبته للغزالة، سحب ريتش نفسًا عميقًا ووجد نفسه يتحدَّث بأحد أصواته... لكنه كان صوت الشُرطي الأيرلندي الذي لم يستخدمه منذ خمسة وعشرين عامًا، وهو الصوت الذي أدرجه إلى ترسانته بعد ذلك اليوم المشهود. انزلق الصوت خارجًا من حلقه في سكون الصباح ككُرة بولينج كبيرة عملاقة... كان أعلى وأكبر ممَّا تخيَّله ريتش يومًا في حياته.

«يا للمسيح الحي! ما الذي تفعله فتيات رقيقة مثلكن في مثل هذه البرِّية! يا للمسيح! من الأفضل لكُن العودة إلى المنزل قبل أن أخبر الأب ستاجرز بأمركن».

على الفور، وقبل أن يذوي صدى صوته، وقبل أن يبدأ أوَّل عصفور أبو زُريق مذعور في توبيخه على تدنيسه الصمت، هشَّت أنثى الغزال ذيلها في اتِّجاهه كراية هُدنة واختفت بين أشجار التنوب الضبابية كالدُخان المُعلَّق إلى يسار الطريق، مُخلِّفة وراءها كومة صغيرة من كُريات الرَّوث التي يتصاعد البخار منها، مُبرهنة أن ريتشي توزييه –حتَّى في سن السابعة والثلاثين– ما زال قادرًا على «إطلاق واحدة مُحترمة» من حين إلى آخر.

بدأ ريتشي يقهقه بينه وبين نفسه في البداية، مشدوهًا من سخافته الكبيرة. ها هو يقف هنا في ضوء فجر نهار جديد في ولاية مين، على بُعد ثلاثة آلاف وأربعمئة ميل من منزله، يصيح في وجه ظبية بلكنة شُرطي أيرلندي. تحوَّلت القهقهة إلى ضحك، وتحوَّل الضحك إلى سلسلة من القهقهات، والقهقهات إلى عويل، وانتهى به الأمر مُمسكًا ببدن سيَّارته والدموع تنساب على وجهه وهو يتساءل ما إذا كان سيبُلل سراويله الآن أم ماذا. في كل مرَّة حاول فيها

السيطرة على نفسه، ترنو عيناه إلى تلك الكومة الصغيرة من كُريات الروث فيبدأ في نوبةٍ عاصفة جديدة من الضحك الهستيري.

في النهاية استطاع ريتشي العودة والجلوس في مقعد القيادة وهو يُقرقر ويُحمحم، وأعاد تشغيل مُحرِّك الموستانج. مرَّت شاحنة تابعة لشركة أورينكو للأسمدة الكيميائية من جواره مُثيرة هبَّة رياحٍ قويَّة. بعدما تجاوزته، قاد ريتشي السيَّارة مُتَّجهًا إلى ديري من جديد. كان يشعر أنه أفضل حالًا الآن، وقد سيطر على ذاته... أو رُبَّما هو يشعر بذلك لأنه يتحرَّك من جديد، قاطعًا الأميال، وقد أعاد الحلم فرض واقعه عليه من جديد.

بدأ يُفكِّر في السيِّد نيل ثانيةً.. في السيِّد نيل وفي ذلك اليوم قُرب السدِّ. لقد سألهم السيِّد نيل عمَّن فكَّر في هذه المزحة الصغيرة. استطاع ريتشي -بعين الذاكرة- رؤية خمستهم ينظر أحدهم بانزعاج إلى الآخر، وتذكَّر كيف تقدَّم بن بوجنتين شاحبتين وعينين كاسفتين ووجهٍ ترتجف جميع خلجاته وهو يُجاهد كي لا يُفشي السر. فكَّر ريتش الآن أن الصبي المسكين غالبًا ظنَّ آنذاك أنه على وشك قضاء عقوبة من خمس إلى عشر سنوات في سجن شواشانك لإغراقه نطاق البرِّية المُتاخم لشارع ويتشام، لكنه اعترف بالأمر رغم ذلك، وبفعلته هذه أجبر بقيتهم على التقدُّم بدورهم لدعمه. لم يكن للأمر من بُدٍّ، فإما هذا أو يتحتَّم عليهم اعتبار أنفسهم حفنة أشرار.. جبناء.. وكل تلك الصفات الذميمة التي تُناقض أبطالهم المُفضَّلين. عزَّز هذا الموقف من أواصرهم، وجعلهم يلتحمون معًا، في السرَّاء والضرَّاء. بل يبدو من الواضح أنه أبقى على التحامهم طوال السبع وعشرين سنة الماضية. أحيانًا تكون الأحداث أحجار دومينو مُتراصَّة. تُسقِط الأولى الثانية، والثانية الثالثة، وهلم جرًّا.

تساءل ريتشي: ما اللحظة التي فات فيها أوان التراجع؟ هل كان هذا عندما ظهر برفقة ستان وانخرطا مع المجموعة في بناء السدِّ؟ أم عندما أخبرهم بيل عن كيف أن صورة شقيقه حرَّكت رأسها وغمزت له؟ رُبَّما. لكن بالنسبة إلى ريتش توزييه، بدا أن أحجار الدومينو قد بدأت في التساقُط عندما خطا بن هانسكوم إلى الأمام وقال: «أنا من علَّمهم...

2

... كيفية بنائه. إنها غلطتي».

كل ما فعله السيِّد نيل أنه ظلَّ واقفًا مكانه ينظر إليه.. شفتاه مزمومتان، ويداه معقودتان على حزامه الجلدي الأسود. راح ينظر من بن إلى البركة التي تتَّسع خلف السدِّ ثم إلى بن مرَّة أخرى، وعلى وجهه تعبير من لا يُصدِّق ما يراه. كان الرَّجُل أيرلنديًّا قوي البنية، شاب شعره قبل أوانه، وقد صفَّفه في موجاتٍ أنيقة أسفل قُبَّعته الزرقاء المُدبَّبة. كانت عيناه زرقاوين نيِّرتين، وأنفه أحمر خافت، وثمَّة تجمُّعات شُعيرات دموية مُنفجرة في وجنتيه. كان رجلًا متوسِّط القامة، لكن بالنسبة إلى الصبية الخمسة المُحتشدين أمامه بدا طوله ثمانية أقدام على الأقل.

فتح السيِّد نيل فمه ليتكلَّم، لكن قبل أن يفعل، خطا بيل دِنبروه ووقف جوار بن.

«لـ-لـ-لـ-لقد كـ-كـ-كانت فـ-فـ-فـ-فـ-فكرتي»، هكذا استطاع القول في النهاية. كان صدره يعلو ويهبط في خفقاتٍ عملاقه، وفي أثناء ما كان السيِّد نيل يتفحَّصه بلا مُبالاة، والشمس تعكس ومضات ملكيَّة من شارته، تمكَّن بيل من التلعثم مُضيفًا ما يود إضافته: إن الأمر لم يكن خطأ بن، وأنه تصادف مروره بهم، وكل ما فعله أن علَّمهم كيف يُشيِّدون بطريقةٍ أفضل ما كانوا يشيِّدونه بالفعل بشكلٍ سيِّئ.

قال إدي بغتةً: «وأنا أيضًا»، وبادر إلى جانب بن الآخر.

سأل السيِّد نيل: «ماذا تقصد بـ 'وأنا أيضًا'؟ أهذا اسمك أم عنوانك يا راعي البقر؟».

احمرَّت وجنتا إدي بكثافة، وسرى اللون صعودًا إلى جذور شعره وهو يقول: «كنت برفقة بيل قبل أن يأتي بن من الأساس. هذا ما قصدته».

تقدَّم ريتشي ووقف جوار إدي. في رأسه، طرأت فكرة أنه إذا انتحل أحد أصواته فقد يحث السيِّد نيل على التفكير بإيجابية تجاههم. لكن مع إعادة

التفكير (ولطالما كانت مسألة إعادة التفكير شيئًا غير معقول وشديد النُدرة بالنسبة إلى ريتشي) بدا له أن انتحاله صوتًا أو أكثر رُبَّما يُزيد الأمور سوءًا، فالسيِّد نيل لم يبدُ في الحالة المزاجية التي يُسمِّيها ريتشي أحيانًا المزاج العالي. في الحقيقة، بدا الآن أن آخر شيء في عقل السيِّد نيل المزاح، لذا قال ريتشي بصوتٍ خفيض: «لقد اشتركت في الأمر أيضًا»، ثم أخرس نفسه.

تقدَّم ستان واقفًا جوار بيل وصاح: «وأنا كذلك».

الآن كان خمستهم يقفون أمام السيِّد نيل في صفٍّ مستقيم. نظر بن من جانب إلى آخر، ولفَّهُ شعورٌ يفوق الدوار. لقد خدَّرهُ موقفهم الداعم تقريبًا. للحظة ظن ريتشي أن كومة القش سينفجر باكيًا بدموع الامتنان.

«يا للمسيح»، هكذا هتف السيِّد نيل مرَّةً أخرى.. وعلى الرغم من اشمئزازه البادي، بدا وجهه كأنه على وشك الضحك. «يا لكم من ثُلة أولاد مُستيقظي الضمير لم أقابل مثلها قط. أعتقد لو أن أهاليكم علموا بتسكُّعكم هنا، فإن مؤخِّراتٍ كثيرة ستتلسوع الليلة».

لم يقوَ ريتشي على كبح جماح نفسه أكثر من ذلك، وسقط فمه مفتوحًا ببساطة، ثم مضى كالقطار المُسرع كما يفعل دائمًا.

تلفَّظ لسانه السليط بلكنة أيرلندية قائلًا: «كيف الأحوال في بلدتك القديمة يا سيِّد نيل؟ آه، يا لك من دواءٍ للعيون المريضة، أقسم بالله، أنت رجُلٌ بديع، ومفخرة للـ...».

قاطعه السيِّد نيل بنبرة جافَّة: «سأفخر بنيل شرف ضربك على مؤخِّرتك في غضون ثلاث ثوانٍ يا صديقي العزيز الصغير».

التفت بيل إليه وزمجر قائلًا: «ا-ا-اخرس يا ر-ر-ريتشي بـ-بـ-بـالله عليك. ا-اخرس!».

قال السيِّد نيل: «نصيحة جيِّدة يا سيِّدي ويليام دِنبروه. أراهن أن زاك لا يعرف أنك هنا في البرِّية تلهو بجوار تلك القذارة العائمة، أليس كذلك؟».

خفض بيل عينيه، وهزَّ رأسه، واشتعلت ورودٌ حمراء قانية في وجنتيه.

نظر السيِّد نيل إلى بن وقال: «لا أذكر اسمك يا بني».

همس بن: «بن هانسكوم يا سيِّدي».

أومأ السيِّد نيل ونظر إلى السدّ من جديد وقال: «هذه فكرتك؟».

همس بن بصوتٍ غير مسموعٍ تقريبًا: «كيفية البناء، أجل».

- «حسنًا، يا لك من مهندسٍ بارع أيُّها الشاب، لكنك لا تعرف أيَّ شيءٍ عن هذه البرِّية أو نظام الصرف الصحي في ديري، أليس كذلك؟».

هزَّ بن رأسه.

أخبره السيِّد نيل بطريقة مُهذَّبة: «هناك جزآن للنظام. أحدهما يحمل الفضلات البشرية الصلبة، أو الخراء، إذا لم يؤذِ هذا أذنيك الحسَّاستين، والآخر يحمل المياه الرمادية.. وهي المياه التي تُصرف من المراحيض أو من الأحواض والغسَّالات والحمَّامات.. وهي أيضًا المياه التي تجري عبر المزاريب إلى مصارف المدينة».

«حسنًا، أنت لم تتسبَّب بضررٍ في نظام الفضلات البشرية الصلبة، حمدًا لله، فكل هذه تُصرف في الكِندوسكيج على مبعدة قليلًا من هنا. على الأرجح، هناك أكوام عظيمة الحجم من الغائط تجِفُّ الآن في الشمس على بُعد نحو نصف ميل بفضل ما قمت به، لكن يمكنك أن تطمئن أنه لا يوجد خراءٌ محشورٌ في سقف بعض الأشخاص بسبب ذلك».

«أما بالنسبة إلى المياه الرمادية... حسنًا، لا توجد مضخَّات للمياه الرمادية. هذه كلها تجري أسفل التلَّة عبر ما يُسميه قطاع المُهندسين بمصارف الجاذبية. أراهن أنك تعلم أين تنتهي جميع مصارف الجاذبية تلك، أليس كذلك أيُّها الشاب؟».

قال بن: «هناك»، وأشار إلى المساحة خلف السدِّ.. المساحة التي أغرقوا قطاعًا كبيرًا منها. فعل ذلك دون أن يرفع بصره، فقد بدأت دمعتان كبيرتان في الإنزلاق ببطء على وجنتيه. تظاهر السيِّد نيل أنه لم يرهما.

- «هذا صحيح، يا صاحبي الشاب الكبير. كل مصارف الجاذبية تجري إلى الجداول، التي تجري بدورها إلى القطاع العلوي من البرِّية. في الحقيقة، عددٌ كبير من الأغادير الصغيرة التي تجد طريقها إلى هنا قوامها مياه رمادية مركَّزة خارجة من مصارف لا تستطيع حتَّى رؤيتها، فهي مدفونة عميقًا بين الشُّجيرات الخفيضة. الخراء يسري في اتِّجاه، وكل شيءٍ عداه يسري في

الاتِّجاه الآخر، فليُبارك الرب العقول الذكية. هل جال بخاطركم أنكم قضيتم اليوم بطوله تلهون بأيديكم وأرجلكم في بول أهل ديري ومياه الغسيل القذرة؟».

بدأ إدي يشهق فجأةً، واضطُرَّ إلى استخدام بخَّاخه.

- «ما فعلتموه أنكم حجزتم الماء في ستَّة من ثمانية صهاريج الاحتجاز التي تخدم شوارع ويتشام وچاكسون وكانساس، بالإضافة إلى الخمسة أو الستَّة شوارع الجانبية التي تجري بينها» قالها السيِّد نيل وثبَّت نظرة جافة إلى بيل دِنبروه قبل أن يُضيف: «أحد هذه الصهاريج يخدم منزلك يا سيِّدي الشاب دِنبروه. لذا ها نحن ذا، نواجه بالوعات مسدودة، وغسَّالات تأبى الصرف، ومواسير تفيض بما فيها من حمولة في الأقبية...».

اختنق بن بعبرةٍ جافَّة وسمح لها أن تخرج. التفت الآخرون إليه ثم نظروا بعيدًا، وضع السيِّد نيل يده الكبيرة على كتف الصبي. كانت يده قاسية وصلبة، لكنها كانت حانية أيضًا في تلك اللحظة.

- «لا داعي للشعور بثقل وطء المسؤولية الآن أيُّها الشَّاب. رُبَّما ليس الأمر بهذا السوء، على الأقل ليس بعد. قد أكون بالغت قليلًا لأتأكَّد أنكم فهمتم وجهة نظري. لقد أرسلوني إلى هنا لأرى إن كان ثمَّة شجرة سقطت عبر النهر وخنقت مجراه. هذا يحدث أحيانًا.. ولا يوجد داعٍ لأن يعرف أحدٌ سواي وخمستكم أن ما حدث خلاف ذلك. أنت تعرفون أنَّ لدينا أمورٌ أكثر أهمِّية لنقلق حيالها هذه الأيَّام من بعض الماء المُحتجز. سأذكر في تقريري أنني حدَّدت مكان الشجر الساقط وأن بعض الأولاد ساعدوني على تحريكها بعيدًا عن مجرى الماء. لا يعني هذا أنني سأذكُر أسماءكم بطبيعة الحال، وبالتالي لن تتلقَّوا أيَّ عقوبة على بنائكم سدًّا في البرِّية».

أنهى السيِّد نيل كلامه وأجال بصره في خمستهم. كان بن يمسح عينيه بمنديلٍ بشراسة، وبيل يتأمَّل السدَّ، وإدي يمسك بخَّاخه بيدٍ واحدة، وستان يقف قريبًا من ريتشي واضعًا إحدى يديه على ذراع الأخير، مُتأهِّبًا لعصرها بقوَّة إذا أبدى ريتشي أدنى علامة على أنه سيتفوَّه بأيِّ شيءٍ عدا شكرًا جزيلًا.

واصل السيِّد نيل كلامه: «لا ناقة لكم على الإطلاق في مكانٍ قذر كهذا يا

أولاد. يوجد على الأرجح ستون نوعًا مُختلفًا من الأمراض يتكاثر هنا»، لَفَظَ كلمة يتكاثر (بريدينج)[1] ككلمة تجدل (برادينج)[2]، كما في: تجدل الفتاة شعرها في الصباح، ثم أردف: «مكبُّ النفايات من جهة، وجداول مُترعة بالبول والمياه الرماديه من جهة أخرى، وطين وقذارة، وحشرات وعليقات شوكية، ورمال مُتحرِّكة... لا ناقة لكم على الإطلاق في مكانٍ قذرٍ كهذا. هناك أربعة ملاعب في المدينة مفتوحة أمامكم لتلعبوا فيها الكُرة طوال اليوم يا أولاد، وأعثر عليكم هنا! يا للمسيح الحي!».

قال بيل فجأة وبتحدٍّ: «نـ-نـ-نحن نـ-نحب المكان هـ-هـ-هنا. عـندما نأتي إ-إلى هنا لا أ-أحد يـ-يـ-يـ-يهزأ بنا».

سأل السيِّد نيل إدي: «ماذا يقول؟».

قال إدي بصوتٍ خفيضٍ هامس لكن يحمل حزمًا لا لبس فيه: «يقول إننا عندما نأتي إلى هنا لا أحد يهزأ بنا.. وهو مُحِقٌّ. عندما يذهب صبية مثلنا إلى الحديقة ونعلن أننا نرغب في لعب البيسبول، يرد الصبية الآخرون: 'بكل تأكيد، أترغبون اللعب في المركز الثاني أم الثالث؟'».

قال ريتشي: «إدي يُطلق واحدة محترمة».

أمال السيِّد نيل رأسه لينظر إليه.

هزَّ ريتشي كتفيه وقال: «معذرة. لكنه على حق، وبيل أيضًا. نحن نحب المكان هنا».

ظنَّ ريتشي أن السيِّد نيل سيغضب ثانيةً بسبب ذلك، لكن الشُرطي أشيب الشعر فاجأه -بل فاجأهم جميعًا- بابتسامة وقال: «أيوا، لقد كنت أحب المكان هنا أنا نفسي وأنا صبي، لا مُزاح. لذا لن أمنعكم. لكن انتبهوا لما سأقول لكم الآن» ورفع إصبعه في وجوههم ونظر جميعهم إليه واجمين «عندما تأتون إلى هنا للعب، تأتون في جماعة كما أنتم الآن. هل تفهمونني؟».

أومأ الجميع برؤوسهم.

---

(1) *Breeding*

(2) *Braiding*

- «أعني في جماعة دائمًا. لا ألعاب كالغُمِّيضة حيث تنفصلون بعضكم عن بعض. جميعكم يعرف ماذا يجري في هذه البلدة. رغم ذلك، لن أمنعكم من النزول إلى هنا، لأنكم ستأتون غالبًا على أيِّ حال. لكن لمصلحتكم الشخصية، هنا أو في أيِّ مكانٍ آخر في الجوار، اعتصموا معًا» ثم نظر إلى بيل وأردف: «هل تختلف معي يا سيِّدي الشاب بيل دِنبروه؟».

قال بيل: «لـ-لـ-لا يا سيِّدي. سـ-سـ-سنبقى مـ-مـ-مـ-مـ...».

قال السيِّد نيل: «هذا كافٍ بالنسبة إلي. فلنتصافح على هذا».

مدَّ بيل يده فصافحها السيِّد نيل.

نفض ريتشي يد ستان عنه وتقدَّم أمامًا، وصاح بلكنة أيرلندية:

- «أقسم بالله يا سيِّد نيل أنك لأميرٍ بين الرجال، حقًّا! رجل طيوب! رجل طيوب جدًّا!» ثم رفع يده وأمسك بيد الرَّجُل الأيرلندي الضخمة، وهزَّها بعنف، دون أن تُفارق الابتسامة وجهه. في عيني السيِّد نيل المُندهش، بدا الصبي كمُحاكاة ساخرة بشعة لفرانكلين روزفلت.

قال السيِّد نيل وهو يستعيد يده: «شكرًا أيُّها الصبي. تحتاج أن تتدرَّب قليلًا على هذا. أما حاليًا، يبدو صوتك أيرلنديًّا كجروتشو ماركس[1] ليس إلا».

ضحك باقي الصبية شاعرين بالإعفاء، لكن حتَّى في أثناء ما كان ستان يضحك، رمق ريتشي بنظرة معاتبة تقول: انضج يا ريتشي!

صافح السيِّد نيل أياديهم جميعًا، مُصافحًا يد بن آخرًا.

- «لا يوجد ما تخجل منه أيُّها الشاب بخلاف سوء التقدير. أما عن ذلك البناء، هل قرأت عن كيفية تشييده في كتابٍ ما؟».

هزَّ بن رأسه نافيًا.

- «فقط تفتَّق في ذهنك؟».

- «نعم يا سيِّدي».

- «سوف تفعل أشياء عظيمة يومًا ما يا بني، لا شكَّ لديّ. لكن ليست

---

(1) جروتشو ماركس (1977-1890): كوميديان ونجم سينمائي وتلفزيوني أمريكي. اشتهر بسرعة بديهته، ويعد واحدًا من أفضل الكوميديين في العصر الحديث.

البرِّية المكان المناسب لفعلها» ثم نظر حوله مُتأمِّلًا: «لا يوجد أشياء عظيمة ستحدث هنا أبدًا. هذا مكانٌ بغيض» ثم تنهَّد قائلًا: «اهدموه يا أعزائي.. دكوه دكًّا.. أظنُّني سأجلس هناك في ظل تلك الشُجيرة وأنتظر قليلًا إلى أن تنتهوا منه». نظر بطريقة ساخرة إلى ريتشي وهو يقول عبارته الأخيرة، كأنما يستفزُّه للاندفاع في نوبة جنونية أخرى.

لكن ريتشي قال بتواضع: «أجل يا سيِّدي»، وكان هذا كل شيء. أومأ السيِّد نيل شاعرًا بالرضا، واندفع الصبية إلى العمل، مُتَّبعين تعليمات بن مرَّةً أخرى، هذه المرَّة ليُريهم أسرع طريقة لهدم الشيء الذي علَّمهم كيفية بنائه. في هذه الأثناء، أخرج السيِّد نيل زجاجة بُنِّية من سُترته، وجرع منها جرعة كبيرة، وسعل بعدها، وأخرج تنهيدة عميقة راضية وراقب الأولاد بعينين رطبتين لطيفتين.

– «ماذا لديك في زجاجتك يا سيِّد؟»، سأله ريتشي صائحًا من حيث يقف مغمورًا في الماء إلى الرُكبتين.

همس إدي: «ريتشي، ألا تستطيع أن تخرس أبدًا؟».

– «تقصد هذه؟»، قالها السيِّد نيل وه ويرمق ريتشي بدهشة طفيفة، ثم نظر إلى الزجاجة مجدَّدًا. لم يكن عليها مُلصق أو بطاقة من أيِّ نوع.

– «هذا دواء للسعال يا ولدي. الآن، دعنا نرى إن كنت قادرًا على حني ظهرك للعمل بالسرعة ذاتها التي تُحرِّك بها لسانك».

3

سار بيل وريتشي متجاورين في شارع ويتشام في وقتٍ لاحق من اليوم. كان بيل يدفع سيلڤر جواره، فبعد المجهود الذي بذله في بناء السدِّ أوَّلًا، ثم هدمه ثانيًا، لم تعد في جسده الطاقة اللازمة للوصول بسيلڤر إلى سُرعة تحليقها. كان كلا الولدين قذرًا، وأشعث، ومُنهك القوى بشكلٍ كبير.

قبل أن يغادروا، سألهم ستان إن كانوا يرغبون العودة معه إلى منزله للعب المونوبولي أو الليدو أو أيِّ شيءٍ، لكن لم يشعر أحدهم بالرغبة في الأمر. كان الوقت قد بدأ يتأخَّر. قال بن بصوتٍ بدا مُتعبًا ومُحبطًا إنه سيعود إلى

المنزل ويرى إن كان أحدهم قد عثر على كتبه المُستعارة وأعادها إليه. كان لديه بصيصٌ من الأمل بخصوص ذلك الأمر، بما أن إدارة مكتبة ديري تصر على كتابة عنوان سكن المُستعير واسمه في كل بطاقة جيب كل كتاب. قال ريتشي إنه سيذهب لمُشاهدة برنامج ذا روك على التلفاز لأن نيل سيداكا سيظهر فيه، وهو يُريد معرفة ما إذا كان نيل سيداكا زنجيًّا أم لا. أخبر ستان إدي ألّا يكون عبيطًا، وأن نيل سيداكا أبيض، وأن المرء يستطيع معرفة ذلك فقط عن طريق الاستماع إلى أغانيه. ادَّعى إدي أنك لا تستطيع الجزم بأيِّ شيءٍ عن طريق الاستماع فقط، فحتَّى العام الماضي كان مُتيقِّنًا أن تشاك بيري أبيض، لكن عندما ظهر في باندستاند اكتشف أنه زنجيٌّ في الحقيقة.

قال إدي: «أمي ما زالت تظن أنه أبيض، وهذا شيءٌ جيِّد، لأنها رُبَّما تُحرمني الاستماع إلى أغانيه إلى الأبد لو اكتشفت أنه زنجي».

راهن ستان إدي على بعض القصص الهزلية أن نيل سيداكا أبيض، ومضى الاثنان معًا إلى منزل إدي ليحسما هذه المسألة.

وهكذا لم يبقَ سوى بيل وريتشي، اللذان سارا في اتِّجاهٍ سينتهي بهما إلى منزل بيل بعد هنيهة، دون أن يتحدَّث أيُّهما كثيرًا، وجد ريتشي نفسه يُفكِّر في قِصَّة بيل عن الصورة التي تحرَّكت وغمزت له بعينها، ورغم إرهاقه جاءته تلك الفكرة. كانت فكرة مجنونة... لكنها انطوت كذلك على جاذبية من نوعٍ خاص.

قال ريتشي: «بيلي يا ولدي، لنتوقَّف قليلًا. خمس دقائق. أنا مقتول».

قال بيل: «لسنا مـ-مـ-محظوظين إلى هذا الحـ-حـ-حد»، لكنه توقَّف، وأراح سيلڤر بحرص على حافَّة الحديقة الإكليريكية اللاهوتية الخضراء اليانعة، وجلس الصبيان على الدرجات الحجرية العريضة التي تقود إلى المبنى الأحمر القديم المبني على الطراز الڤيكتوري.

قال بيل كالحًا: «يا له من يـ-يـ-يوم». كانت توجد بُقعٌ أرجوانية داكنة أسفل عينيه، وبدا وجهه شاحبًا ومُستنزَفًا وهو يواصل: «مـ-من الأفضل أن تتَّصل بمنزلك ما إن نـ-نصل عندي، كي لا يُجنَّ جـ-جـ-جنون و-و-والديك».

- «أجل، بالتأكيد. اسمع يا بيل...».

قالها ريتشي وتوقَّف بُرهةً مُفكِّرًا في مومياء بن، ومجذوم إدي، والشَّيءِ الذي كان ستان على وشك إخبارهم به. للحظات، جال أمرٌ في عقله، أمرٌ يتعلَّق بتمثال بول بونيان القائم في مركز المدينة. لكن ألم يكن ذلك مُجرَّد حُلم بحق الرب؟

نفض ريتشي هذه الأفكار الدخيلة وقال:

- «ما رأيك أن نذهب إلى بيتك ونلقي نظرة على غُرفة چورچي. أريد رؤية تلك الصورة».

نظر بيل إلى ريتشي مصدومًا. حاول الكلام لكنه لم يقوَ، فالضغط الذي شعر به كان عظيمًا تمامًا، وانتهى به الأمر إلى هزِّ رأسه بعُنف رافضًا.

قال ريتشي: «لقد سمعت قِصَّة إدي.. وقِصَّة بن. هل تُصدِّق ما قالانه؟».

- «لا أ-أ-أ-أعرف. أ-أ-أظنُّ أنهما لا-لا بُدَّ أن رأيا شـ-شـ-شيئًا ما».

- «أجل، وأنا أيضًا. أظنُّ أن لجميع الأطفال الذين قتلوا هنا قِصَّة ليخبروها. الفرق الوحيد بين بن وإدي وأولئك الأطفال أنهما لم يمُسكا».

رفع بيل حاجبيه لكنه لم يبدُ مُندهشًا تمامًا. افترض ريتشي أن بيل توصَّل للاستنتاج ذاته بدوره. قد لا يكون بيل مُتحدِّثًا لبقًا جدًّا، لكنه ليس أحمق.

قال ريتشي: «فكِّر في الأمر قليلًا يا بيل الكبير. يُمكن لرجُل أن يرتدي حُلَّة مُهرِّج ويتجوَّل ليقتل الأطفال. لا أعرف السَّبب الذي قد يدفعه لذلك، لكن لا أحد يستطيع الجزم لماذا يرتكب المجاذيب أفعالًا مُعيَّنة، أليس كذلك؟».

- «بـ-بـ-بلـ...».

- «بلى. الأمر لا يختلف كثيرًا عن الچوكر في قصص باتمان المُصوَّرة».

تحمَّس ريتشي من مُجرَّد سماع أفكاره الخاصة بصوتٍ عالٍ. ثم تساءل سريعًا في قرارة نفسه عمَّا إذا كان يحاول بالفعل إثبات شيءٍ ما أم أنه يسدل ستارًا تمويهيًّا من كلمات برَّاقة فقط كي يتمكَّن من رؤية تلك الغرفة، وتلك الصورة. في النهاية، رُبَّما لم يكن الأمر هامًّا حقًّا. في النهاية رُبَّما رؤية عيني بيل تشتعلان بالحماسة كان أمرًا كافيًا له.

- «لـ-لـ-لكن كـ-كـ-كيف تتـَّ-تتَّسق الصـ-الصورة مع تلك الأ-أ-أمور؟».
- «ماذا تظن أنت يا بيلي؟».

بصوتٍ خفيض، ودون النظر إلى وجه ريتشي، قال بيل إنه لا يظن أن للصورة أي علاقة بالجرائم التي جرت. «أظنُّ أنها شـ-شـ-شبح چـ-چورجي».
- «شبحٌ داخل صورة؟».

أومأ بيل.

فكَّر ريتش بالأمر. لم تكن فكرة الأشباح تؤرِّق عقله الطفل في شيءٍ. كان على يقينٍ من وجود مثل هذه الأشياء. إن والديه ميثوديان، وقد اعتاد ريتشي الذهاب إلى الكنيسة كل أحد، وإلى اجتماعات رابطة الميثوديين الصغار مساء كل ثلاثاء أيضًا. إنه مُلمٌّ بالكثير عن الكتاب المُقدَّس، ويعرف أن الإنجيل يقرُّ بجميع أنواع الأمور الغرائبية الخارقة للطبيعة، وفقًا للكتاب المُقدَّس، فالرَّب ذاته ثُلث روح، وهذه مُجرَّد البداية فحسب. يُمكنك التأكُّد من أن الإنجيل يقر بوجود الشياطين لأن المسيح أخرج مجموعة كاملة منها من جسد ذلك الرَّجُل، وقد كانت مجموعة ثرثارة مهزارة أيضًا. فعندما سأل يسوع الرَّجُل المُتلبَّس عن اسمه، أجابته الشياطين أن يذهب للانضمام إلى الفيلق الأجنبي، أو شيءٍ كهذا. الكتاب المُقدَّس يؤمن بالساحرات أيضًا، وإلا لِمَ قال: «لاَ تَدَعْ سَاحِرَةً تَعِيشُ». ثمَّة أشياء في الإنجيل أكثر إرعابًا من الأشياء التي تظهر في القصص المصوَّرة. أناسٌ يُغلون في الزيت الساخن أو يشنقون أنفسهم كيهوذا الإسخريوطي. أيضًا توجد تلك القِصَّة عن كيف سقط الملك الفاسد آحاز من قمة البُرج، وكيف تجمَّعت الكلاب على جُثَّته تلعق دمائه. قصص وقائع القتل الجماعي للأطفال التي رافقت ميلاد كلٍ من موسى ويسوع المسيح. الأشخاص الذين نهضوا من قبورهم أو حلَّقوا في الهواء. الجنود الذين سُحروا أسفل الجُدران. الأنبياء الذين تبصَّروا بالمُستقبل وحاربوا المسوخ. كل ذلك ذُكِر في الكتاب المُقدَّس وكل كلمة منه صحيحة.. كذا قال الموقَّر كريج، وكذا قال والدا ريتشي، وكذا يقول ريتشي نفسه. لذا كان

ريتشي على استعدادٍ تام للاعتراف باحتمالية تفسير بيل، لكن منطق الأمور واتّساقها هو ما أزعجه.

- «لكنك قلت إنك خفت. لِمَ يرغب شبح چورچ في تخويفك يا بيل؟».

وضع بيل يده على فمه ومسحه.. كانت ترتجف قليلًا: «إنـ-نـ-نه غاضبٌ مـ-مـ-مني على الأ-أ-أرجح، لأنـ-نني تسبَّبت فـ-فـ-في مقتله. لقد كـ-كـ-كانت غـ-غلطتي. لقد أرسلته إ-إلى الخارج مع القـ-قـ-قـ-قـ...» لم يكن قادرًا على إخراج الكلمة، لذا حرَّك يده في الهواء بدلًا من ذلك. أومأ ريتشي مُشيرًا لبيل أنه فهم مقصده... لكن ليس لأنه موافق على كلامه.

قال ريتشي: «لا أظنُّ ذلك. إذا كنت طعنته في ظهره أو أطلقت الرصاص عليه لاختلف الوضع. أو حتَّى إن كنت أعطيته مُسدَّس أبيك المحشو بالرصاص ليلعب به وانتهى الأمر به مطلقًا النار على نفسه. لكن ذلك لم يكن مُسدَّسًا، بل مُجرَّد قارب. لم تكن ترغب في إيذائه، في الحقيقة...» قالها ريتشي ورفع إصبعه وحرَّكه أمام بيل بطريقة المُحامين: «... كل ما أردته أن تجعل الصبي يحظى ببعض المرح، أليس كذلك؟».

فكَّر بيل مرَّةً أخرى. فكَّر بسعيٍ بائس. ما قاله ريتشي الآن جعله يشعر بحالٍ أفضل تجاه موت چورچ للمرَّةِ الأولى منذ شهور، لكن ثمَّة جزءٍ منه ما زال مُصرًّا بحزمٍ كبير أنه ليس من المُفترض أن يشعر بأيِّ تحسُّن حيال الأمر. بالطبع الخطأ خطأك، هكذا أصرَّ ذلك الجزء داخله، ليس بشكلٍ كاملٍ ربُّما، إنما جُزئيًّا على الأقل.

إذا لم يكن خطأك، فما تلك البرودة التي تشيع في المساحة على الأريكة المحصورة بين أمك وأبيك؟ إذا لم يكن الخطأ خطأك، لماذا لم يعد أيُّ شخصٍ فيكم يتفوَّه بأيِّ شيءٍ على مائدة العشاء بعد الآن؟ لم يعد يُسمع سوى صوت قرقعة السكاكين وصرير الأشواك على الأطباق، تلك الأصوات التي لم تعد قادرًا على تحمُّلها أكثر من ذلك فتسألهما إن كنت تستطيع الا-ا-انصراف، من فضلكما.

كان الأمر كأن بيل نفسه الشبح. حضورٌ يتكلَّم ويتحرَّك لكنه لا يُسمع أو يُرى في الحقيقة. شيءٌ يُستشعر بشكلٍ خفي لكن لا يُقبل وجوده كحقيقة.

لم يكن بيل يحب التفكير في الأمر بصفته الملوم، لكن البديل الوحيد لذلك التفكير الذي قد يُفسِّر تصرُّفهما تجاهه أسوأ بكثير: أن كل الحب والاهتمام الذي غمراه والداه به من قبل كان نتيجة لوجود چورچ بشكلٍ أو بآخر، وبرحيل چورچ لم يبقَ شيءٌ له... وكل ذلك حدث بشكلٍ عشوائي، دون سببٍ على الإطلاق. إذا وضعت أذنيك مُسترِقًا السمع عبر ذلك الباب المُخيف، ستتمكَّن من سماع رياح الجنون تعوي خلفه.

لذا استرجع بيل الآن ما فعله وشعر به في ذلك اليوم الذي مات فيه چورچي، وجزءٌ منه يأمل أن يكون ما قاله ريتشي صحيحًا، وجزءٌ آخر يأمل بذات القوَّة ألا يكون كذلك. الشيء الوحيد المُؤكَّد أنه لم يكن الأخ الأكبر القديس لچورچ. لقد اعتادا الشجار.. كثيرًا.. من دون شك وقع شجارٌ بينهما ذلك اليوم؟

لا، لم يقع شجارٌ. يومها، كان بيل لا يزال يشعُر بسقم شديد يمنعه من اختلاق شجارٍ جيِّد مع چورچ. كان نائمًا، يحلُم بشيءٍ، يحلُم بـ (سُلحفاة)

بحيوانٍ صغيرٍ غريبٍ لا يستطيع تذكُّر كُنهه، ثم استيقظ على صوت الأمطار الآخذة في التناقص في الخارج، وسمع چورچي يُتمتم لنفسه بتعاسة في حُجرة الطعام. سأل چورچ ما خطبه، فجاءهُ چورچ وأخبره أنه يحاول صُنع قاربٍ من الورق وفقًا لتوجيهات كتاب أفضل الأنشطة لكنه ما انفك يخفق، فأخبره بيل أن يأتيه بالكتاب، وفي أثناء جلوسه الآن جوار ريتشي على الدرجات التي تقود إلى الإكليريكية، تذكَّر كيف لمعت عينا چورچي عندما انتهى صنع القارب بشكلٍ صحيح، وكم أشعرته تلك النظرة التي لاحت في عينيه بشعورٍ طيب، كأن چورچ يظنه بطلًا حقيقيًّا، أو أفضل رامٍ في الغرب، أو شخصًا مُثابرًا دائمًا لا يتوقَّف إلا عندما ينجح. باختصار، جعله يشعر كأخٍ أكبر.

لقد تسبَّب القارب في قتل چورچ، لكن ريتشي مُحق.. الأمر ليس كأنه ناول چورچي مُسدَّسًا محشوًّا بالرصاص ليلعب به. لم يكن بيل يعرف ما سيحدث.. لم يكن أمامه من سبيلٍ لذلك.

سحب بيل نفسًا عميقًا راجفًا، شاعرًا بشيءٍ كالصخرة -شيءٍ لم يعلم حتَّى بوجوده- يتدحرج خارجًا من صدره.. وبغتةً شعر بأنه أفضل، أفضل حيال كل شيءٍ.

فتح فمه ليخبر ريتشي هذا، لكنه انفجر باكيًا.

جافلًا، وضع ريتشي ذراعه حول كتف صديقه (بعدما ألقى نظرة سريعة حوله ليتأكَّد أن أحدًا لا ينظر إليهما ويظنهما زوجين من الشواذ).

قال له: «هوِّن عليك يا بيلي. أنت بخير أليس كذلك؟ هيا، كُف عن هذه الدموع؟».

ناح بيل باكيًا: «لم أ-أ-أرد له أ-أ-أن يُـ-يـقُتل. لـ-لم يـ-يكن ذ-ذلك ما يـ-يدور في عـ-عـ-عقلي على الإ-إ-إطلاق!!».

قال ريتشي: «بحق المسيح يا بيلي، أعرف ذلك. إن كنت تريد قتله، لكنت دفعته من على الدرج أو شيء من هذا القبيل» ثم ربَّت على كتف بيل بخرق وأعطاه عِناقًا صغيرًا قبل أن يفلته قائلًا: «هلم يا بيل، كف عن البكاء؟ تبدو كطفلٍ».

رويدًا رويدًا، توقَّف بيل عن النحيب. كان ما زال موجوعًا، لكن وجعه بدا أنقى وأنظف من ذي قبل، كأنه شقَّ صدره وأخرج شيئًا كان يتعفَّن داخله. كان ذلك الشعور بالإعفاء ما زال يلفه.

كرَّر بيل كلامه قائلًا: «لم أ-أ-أرد له أ-أ-أن يُـ-يـقُتل.. وإذا أخـ-أخبرت أ-أيَّ شخصٍ أنني بـ-بـ-بكيت، سأحـ-حـ-حطم أنـ-أنـ-أنفك».

قال ريتشي: «لا تقلق، لن أخبر أحدًا. لقد كان شقيقك بالله عليك. لو كان شقيقي الذي قُتل، لبكيت حتَّى أفرغت رأسي اللعين من الماء».

- «لـ-لكنك لـ-لـ-يس لديك أ-أ-أخًا».

- «أجل، أقصد لو كان لديّ».

- «أ-أ-أحقًّا؟».

- «بالتأكيد»، قالها ريتشي وتوقَّف مُثبِّتًا عينين حذرتين على بيل، محاولًا تقرير ما إذا كان بيل تجاوز الأمر بالفعل أم لا. كان لا يزال يمسح عينيه الحمراوتين بمنديله، لكن ريتشي قرَّر أنه تعافى غالبًا، فواصل: «كل ما قصدته

أنني لا أعرف السَّبب الذي قد يجعل شبح چورچ يتصيَّدك، لذا رُبَّما كانت للصورةِ علاقة بـ... حسنًا، بذلك الآخر.. ذلك المُهرِّج».

– «رُبَّما چـ–چـ–چورچ لـ–لـ–لا يـ–يـ–يعلم. رُبَّما يظنُّ أ–أ–أن...».

فهم ريتشي مقصد بيل فلوَّح بيديه جانبًا وأوقفه، ثم قال: «بعدما يُقتل المرء، يرفع عنه الحجاب ويعرف كل أفكار الناس عنه يا بيل الكبير». كان يتحدَّث بتلك الطريقة المُتساهلة التي يُصحِّح بها شيخٌ كبير أفكار ريفيٍّ ساذجٍ حمقاء. «الأمر مذكور في الإنجيل الذي يقول: 'أجل، رغم أننا لا نستطيعُ رؤية كثيرٍ من الأمور في المرآة في الوقت الراهن، فسوف نرى عبرها بعد الموت كأنها نافذة'. هذا مكتوب في الرسالة الأولى إلى أهل تسالونيكي أو في الأسفار الثانية، لا أتذكَّر بالتحديد، وتفسير ذلك...».

قال بيل: «أ–أ–أفهم المـ–مـ–مغزى».

– «إذًا ما قولك؟».

– «هه؟».

– «لنذهب إلى غرفته ونلقي نظرة. رُبَّما سنحصل على فكرة عمَّن يقتل كل أولئك الأطفال».

– «أنا خـ–خائف».

– «وأنا أيضًا»، قالها ريتشي ظانًا منه أنه يُجاري بيل فحسب، أنه يقول شيئًا من شأنه حث بيل على التحرُّك.. ثم شعر بشيءٍ ثقيل يعتصر بطنه، واكتشف أنه لم يكن يكذب: إن كل خليةٍ في بدنه ترتجف برعبٍ خالص.

4

انسلَّ الصبيان إلى منزل آل دِنبروه كشبحين.

كان والد بيل ما زال في العمل، في حين كانت شارون دِنبروه في المطبخ تقرأ الجريدة. ملأت رائحة العشاء –وجبة سمك القد– الصالة الأمامية. اتَّصل ريتشي بمنزله كي تعرف أمه أنه ليس مقتولًا في مكانٍ ما، وأنه فقط في منزل بيل.

– «من بالخارج؟». هكذا صاحت مدام دِنبروه فيما كان ريتشي يضع

سماعة الهاتف. تجمَّد كلاهما في مكانه يرمق أحدهما الآخر بعيونٍ يلوح الشعور بالذنب فيها، ثم صاح بيل: «أ-أنا يا ماما، ومعي ر-ر-ريتشي».

صاح ريتشي: «ريتشي توزييه يا سيِّدتي».

ردَّت مدام دِنبروه صائحة بصوتٍ شاردٍ عن الوجود تمامًا: «مرحبًا يا ريتشي؟ أترغب في البقاء للعشاء؟».

- «شكرًا يا سيِّدتي، والدتي ستأتي لتصحبني بعد نصف ساعة أو نحو ذلك».

- «أخبرها أنني ألقي السلام، حسنًا؟».

- «أجل يا سيِّدتي، سأفعل بالتأكيد».

همس بيل: «هـ-هيا بنا. يكفي هذا الحـ-حديث الصغير».

صعدا إلى الدور العلوي، وسارا في الردهة مُتَّجهين إلى غُرفة بيل. كانت الغُرفة مُرتَّبة بالنسبة إلى غُرفة صبي، ما يعني أنها قد تصيب والدة ذلك الصبي بصداع رأس محتملٍ نسبيًا عند النظر إليها. كانت الأرفف مُتخمة بتجميعة من الكُتُب والقصص المصوَّرة المتراصة في هرجٍ ومرج، وثمَّة مزيدٌ منها بالإضافة إلى بعض النماذج والألعاب وكومة من الأُسطُوانات على المكتب. على المكتب أيضًا توجد آلة كاتبة عتيقة طراز أندروود أعطاها له والداه كهدية في الكريسماس قبل عامين، والتي يستخدمها بيل في كتابة بعض القصص أحيانًا. لقد صار يفعل ذلك على نحوٍ أكثر تواتُرًا منذ موت چورچ.. الانشغال بالتأليف بدا أنه يُريح عقله.

ثمَّة فونوغراف على الأرض في مُقابلة الفراش مُغطًّى بكومة من الملابس المطويَّة المُكدَّسة على صندوقه، ووضع بيل الملابس في أدراج خِزانة ملابسه ثم تناول الأُسطُوانات من فوق مكتبه وراح يفرزها، ثم اختار ستًّا منها ووضعها على مغزل الفونوغراف العريض وشغَّل الجهاز. صدح صوت فريق فليتوودز يُغني «تعالي بهدوء يا حبيبتي».

أمسك ريتشي أنفه مُشمئِزًا.

ابتسم بيل على الرغم من قلبه المتواثب وقال: «إ-إنهما لـ-لا يُـ-يُـ-يُحبان الروك أند ر-رول. لقد أ-أعطياني هـ-هذه كهدية عيد مـ-مـ-ميلادي،

بالإضافة إلى أُسطُوانتين لبـ-بات بـ-بـ-بون وتـ-تـ-تومي ساندس. أحتفظ بأُسطُوانات لـ-لـ-ليتل ريتشارد وسـ-سـ-سكريمن چاي هـ-هوكنز وأشغلها عندما لا يكونان بـ-بالمنزل. لكنها إذا سـ-سـ-سمعت الموسيقى الآن ستظن أنـ-نـ-ننا في غُـ-غُرفتي. هـ-هيا بـ-بـ-بنا».

إن غُرفة چورچ على الجهة الأخرى من الرواق، وقد كان بابها مُغلقًا. نظر ريتشي إليها ولعق شفتيه.

همس ريتشي إلى بيل: «ألا يُبقيانها مُغلقة بالمُفتاح؟»، ووجد نفسه فجأة يتمنَّى لو كانت كذلك. فجأة وجد صعوبة في تصديق أن هذه فكرته.

بوجهٍ شاحب، هزَّ بيل رأسه نافيًا وأدار المقبض. خطا الصبي إلى الغرفة والتفت ناظرًا إلى ريتشي. بعد لحظة تبعه ريتشي. أغلق بيل الباب من خلفهما كاتمًا صوت غناء فريق فليتوودز. انتفض ريتشي قليلًا مع صوت تكَّة المزلاج الخافتة.

نظر حوله بتوجسٍ وفضولٍ عارمين في الوقت نفسه. كان أوَّل ما لاحظ هو جفاف وعفونة الجو. فكَّر ريتشي: لم يفتح أحدٌ النوافذ هنا منذ فترة طويلة، تبًّا، لا أحد تنفَّس هنا منذ فترة طويلة. هذا بالفعل ما تستشعره هنا. ارتجف قليلًا من الفكرة ولعق شفتيه مرَّةً أخرى.

سقط بصر ريتشي على فراش چورچ، وفكَّر في چورچ الرَّاقد الآن تحت تراب أرض مقبرة ماونت هوب، يتعفَّن، ويداه غير مُتقاطعتين لأنك تحتاج إلى زوجين من الأيدي للقيام بطقس طيِّ اليدين القديم، وقد دُفِن چورچ بيدٍ واحدة فقط.

أفلت صوتٌ خافت من حلق ريتشي، فالتفت بيل ونظر إليه مستفسرًا.

قال ريتشي بصوتٍ خشن: «كنت مُحِقًّا. المكان مُخيف هنا. لا أعرف كيف استطعت تحمُّل القدوم إلى هنا وحدك».

قال بيل ببساطة: «لقد كـ-كان أ-أخي. أحيانًا أ-أ-أرغب في ذلك، هذا كـ-كل شـ-شيء».

ثمَّة مُلصقات على الحائط، مُلصقات أطفال صغار. أحدها كان يعرض توم تيريفك، الشخصية الكارتونية التي تظهر في برنامج كابتن كنغر. كان توم

مُعلَّقًا فوق رأس كرابي أبلتون ومُتشبِّثًا بيديه، الأخير الذي كان «فاسدًا حتَّى النُّخاع» بطبيعة الحال. يوجد مُلصقٌ آخر يُظهر أبناء أخ دونالد داك: هيوي، ولوي، وديوي، مُتَّجهين إلى البراري مُرتدين قلنسواتهم المصنوعة من الفرو. مُلصقٌ ثالث -وهذا لوَّنه چورچ بنفسه- يُظهر السيِّد دو يوقف السيَّارات كي تستطيع مجموعة أطفال مُتَّجهة إلى المدرسة عبور الطريق، وثمَّة عبارة أسفل المُلصق تقول: السيِّد دو يقول: انتظروا مُرافقًا لعبور الطريق!

لم يكن الصبي مُلتزمًا تمامًا بالطابور في عبور الطريق، هكذا فكَّر ريتشي، ثم ارتجف. كما أنه لن يتعلَّم الالتزام بعد الآن. نظر ريتشي إلى المنضدة القريبة من النافذة. لقد وضعت السيِّدة دِنبروه عليها جميع شهادات چورچ الدراسية، نصف مفتوحة. بالنظر إليها -عالمًا أنه لن يحصل على مزيدٍ منها، عالمًا أن چورچ مات قبل أن يستطيع المكوث في الطوابير التي لوَّنها، عالمًا أن حياته انتهت إلى الأبد وبشكلٍ لا رجعة فيه بحفنة من شهادات الحضانة والصف الدراسي الأوَّل- هبطتْ عليه حقيقة فكرة الموت الساخرة كالصاعقة للمرَّة الأولى في حياته. بدا الأمر كأن خزنة حديدية ضخمة سقطت هارسة مُخَّه ودفنت نفسها هناك، ووجد ريتشي عقله يصرخ فجأة مُرتعدًا بنبرة من خِينَ: قد أموت! أيُّ شخص قد يموت! أيُّ شخص!

قال ريتشي بنبرةٍ راجفة: «وَيلِي». لم يكن يستطيع التحمُّل أكثر.

- «أجل». قالها بيل بنبرة أقرب إلى الهمس، ثم جلس على طرف فراش چورچ وأردف: «انظر».

تبع ريتشي إصبع بيل المُشير ببصره ورأى ألبوم الصور مُلقى مُغلقًا على الأرض. قرأ ريتشي على غُلافه: صوري. چورچ إلمر دِنبروه، 6 سنوات.

6 سنوات! هكذا ارتجف عقله مُتحدِّثًا بالنبرة المُرتعدة المخونة ذاتها. 6 سنوات إلى الأبد! أيُّ شخص قد يموت! اللعنة! أيُّ شخصٍ لعين.

قال بيل: «كـ-كان مـ-مـ-مفتوحًا قـ-قبل ذلك».

قال ريتشي بعدم راحة: «وأُغلِق». ثم جلس إلى الفراش جوار بيل ونظر إلى الألبوم قبل أن يردف: «كثيرٌ من الكُتُب تُغلَق من تلقاء نفسها».

- «الصـ-صـ-صفحات رُبَّما، لكن ليس الغُلاف. لقد أغلق نفسه». قالها

ونظر إلى ريتشي واجمًا بعينين بدتا شديدتي الدكانة في وجهه الشاحب المُنهك، ثم أضاف: «لـ-لكنه يـ-يـ-يريدك أن تـ-تفتحه من جديد. على مـ-ما أ-أظنُّ».

نهض ريتشي وسار ببطء إلى ألبوم الصور. كان قابعًا أسفل قاعدة النافذة المُغطَّاة بستارةٍ خفيفة. بالنظر خارج النافذة، استطاع رؤية شجرة التُفاح في باحة منزل آل دِنبروه الخلفية. ثمَّة أرجوحة تتمايل جيئةً وذهابًا ببطء مُعلَّقة من أحد فروعها السوداء المُغضَّنة.

عاد ريتشي ينظر إلى الكتاب القابع أسفل النافذة من جديد. ثمَّة بقعة حمراء داكنة تلوِّث سُمك الصفحات في مُنتصف الكتاب. يمكن أن تكون بُقعة كاتشب قديمة. بالتأكيد. من السهل تخيُّل چورچ يتصفَّح ألبوم صوره وفي يده شطيرة هوت دوج أو شطيرة برجر مليئة بالعُصارة.. يأخذ قضمة كبيرة منها فيتقاطر بعض الكاتشب على الكتاب. الأطفال الصغار كثيرًا ما يرتكبون أمورًا خرقاء كهذي. يمكن أن تكون البُقعة بُقعة كاتشاب، لكن ريتشي كان يعلم أنها ليست كذلك.

لمس ريتشي الألبوم بشكلٍ خاطف ثم سحب يده بعيدًا. كان باردًا. لقد ظلَّ في مكانه أسفل أشعة شمس الصيف القوية -التي تُخفِّف من حدَّتها هذه الستارة الخفيفة على نحوٍ طفيف- طوال اليوم، لكنه بارد.

فكَّر ريتشي: حسنًا، سأتركه وشأنه فحسب. أنا لا أرغب في إلقاء نظرة على هذا الألبوم القديم الأهبل على أيِّ حال، لأرى أناسًا لا أعرفهم. أظنُّ أنني سأخبر بيل أنني غيَّرت رأيي، ويمكننا بعدها الذهاب إلى غُرفته وقراءة بعض القصص المصوَّرة بعض الوقت، ثم أعود إلى المنزل وأتناول العشاء وأخلد باكرًا إلى الفراش لأنني مُنهك بحق، وعندما سأستيقظ صباح غدٍ سأجد نفسي مُتيقِّنًا من أن هذه البُقعة الجافة ما هي إلا كاتشب. هذا كل ما سأفعله.. ياوزا.

في النهاية فتح ريتشي الألبوم بيدين بدتا كأنهما تبعدان عنه بألف ميل، عند نهاية ذراعين بلاستيكيتين، ووجد نفسه يُحملق في الوجوه والأماكن الموجودة في ألبوم چورچ. العمَّات، والأعمام، والأطفال، والبيوت،

وسيَّارات ستودبيكر وفورد قديمة، وخطوط الهاتف، وصناديق البريد، والأسوجة الخشبية، والأخاديد التُرابية بما تحويه من مياهٍ موحلة، ودولاب الهواء في معرض مُقاطعي إتسي، وبُرج المياه، وأطلال مصنع حديد كيتشنر...

راحت أصابعه تُقلِّب الصور أسرع فأسرع، وفجأة استحالت الصفحات فارغة. قلَّب ريتشي الألبوم إلى نهايته، غير راغبٍ لكن غير قادرٍ على كبح نفسه. ها هي صورة لوسط مدينة ديري، تُظهِر تقاطع الشارع الرئيس مع شارع القناة في عام 1930، وبعدها لم يكن يوجد شيء.

قال ريتشي رامقًا بيل بمزيجٍ من الراحة والسخط: «لا توجد صورة مدرسة لچورچ هنا. ما نوع المُزحة التي تُمارسها عليّ يا بيل الكبير؟».

– «مـ–مـ–ماذا؟».

– «هذه الصورة القديمة للبلدة هي آخر صورة في الكتاب. كل الصفحات الأخرى فارغة».

قام بيل من الفراش وانضمَّ إلى ريتشي. نظر إلى الصورة التي تستعرض وسط مدينة ديري كما كان منذ ثلاثين عامًا تقريبًا، بالسيَّارات والشحانات عتيقة الطُرُز، وإشارات المرور القديمة ذات المصابيح الكروية الشبيهة بالعنب الأبيض الكبير، والمارَّة الذين التقطهم غالق الكاميرا في حركتهم على شطِّ القناة. قلب بيل الصفحة، وكما قال ريتشي، لم يكن ثمَّة شيء بعدها.

لا، انتظر، لا يوجد شيء (تقريبا). ثمَّة جيب جانبي من الذي يُستخدم في حمل الصور.

قال بيل وهو ينقر على الجيب الجانبي: «كـ–كـ–كانت هنا. ا–انظر».

– «يا للهول! ماذا تظن أنه حدث لها؟».

– «لـ–لا أ–أعرف».

أخذ بيل الألبوم من ريتشي وأمسكه بين يديه. راح يُقلِّب في الصفحات باحثًا عن صورة چورچ، ثم استسلم في النهاية، لكن الصفحات لم تتوقَّف، واصلت الصفحات تقليب نفسها، ببطءٍ لكن بوتيرة منتظمة، وبصوت حفيفٍ مُرتفع. نظر بيل وريتشي أحدهما إلى الآخر بعيونٍ مُتَّسعة، وتراجعا إلى الخلف.

وصل الألبوم إلى الصورة الأخيرة من جديد ثم توقَّفت حركة الصفحات. ها هي صورة وسط مدينة ديري المصبوغة بلونٍ بُنِّي داكن. المدينة كما كانت منذ زمنٍ بعيد قبل مولد بيل أو ريتشي.

– «غير معقول!» هكذا صاح ريتشي فجأة وهو يخطف الألبوم من يد بيل. لم يكن ثمَّة خوف في صوته الآن، وبدا وجهه فجأة مليئًا بالعجب. «يا للهُراء المُقدَّس!».

– «مـ–ماذا؟ مـ–مـ–ما الأ–أمر؟».

– «نحن! أنا وأنت! يا للهول! غير معقول، انظر!».

أمسك بيل بإحدى دفَّتي الكتاب وانحنى فوقها. بدت هيئتهما وهما يتقاسمان الألبوم أشبه بصبيين في تدريب كورال غنائي. سحب بيل نفسًا عميقًا، وتأكَّد ريتشي من أنه رأى الأمر بالفعل.

أسفل السطح اللامع لهذه الصورة بالأبيض والأسود، كان هناك صبيان يسيران في الشارع الرئيس مُتَّجهين إلى نقطة تقاطعه مع الشارع الأوسط، النقطة التي تغوص فيها القناة في نفقٍ تحت الأرض مسافة ميلٍ ونصف أو نحو ذلك. كان الصبيان ظاهرين تمامًا جوار الجدار الخرساني المُنخفض الذي يحد حافَّة القناة. أحدهما يرتدي سراويل قصيرة مزمومة عند الرُكبة، والآخر يرتدي شيئًا بدا أشبه بثياب بحَّار، وطاقية تويدية على رأسه. كانت زاوية وقوفهما تجاه الكاميرا تُظهر ثلاثة أرباع جانب وجهيهما، وكان الاثنان ينظران إلى شيءٍ ما على الجانب البعيد من الشارع. الفتى مُرتدي السراويل القصيرة هو ريتشي توزييه بلا أدنى شك، والصبي في ثياب البحار والطاقية التويدية هو بيل المُتلعثم.

حدَّق الصبيَّان إلى ذاتيهما في صورة تكبرهما سنًّا بنحو ثلاثة أضعافٍ تقريبًا وهما مُنوَّمان بالكامل. شعر ريتشي فجأة بفمه من الداخل جافًا كالغُبار وناعمًا كالزجاج. أمام الصبيين بخطواتٍ قليلة، يوجد رجُلٌ يمسك بحافَّة قُبَّعته الرسمية السوداء، وقد تجمَّد طرف معطفه في الزمن إلى الأبد مرفرفًا خلفه بفعل هبَّة هواء مُفاجِئة. في الشارع أيضًا، توجد سيَّارات فورد طراز T، وسيَّارات بيرس آرو، وسيَّارات شيفورليه.. كلها بالأشكال القديمة.

همَّ بيل بالكلام قائلًا: «أ-أ-أ-أنا لا أ-أ-أصدِّق الـ...»، وكان هذا حين تحرَّكت الصورة.

عبرت الفورد طراز T التي كان ينبغي لها أن تظل في مُنتصف التقاطع إلى الأبد (أو على الأقل حتَّى تتحلَّل الجُزيئات الكيميائية في الصورة القديمة في نهاية المطاف) الشارع، وخيط دُخان يخرُج من ماسورة عادمها. مضت السيَّارة في اتِّجاه تلَّة أب-مايل. خرجت يدٌ بيضاء صغيرة فجأة من نافذة السائق الجانبية تستأذن الانعطاف يسارًا، ثم انعطفت السيَّارة بتهوُّر إلى شارع المحكمة ومرَّت إلى ما وراء حافَّة الصورة البيضاء ومن ثم خارج مجال الرؤية.

بدأت البيرس آرو وسيَّارات الشيفورليه والباكارد في الحركة جميعًا بدورها، تراوغ للمضي قُدُمًا في دروبها عبر التقاطع.. وبعد ثمانية وعشرين عامًا أنهى طرف معطف الرَّجُل رفرفته في الهواء، وأحكم الأخير تثبيت قُبَّعته السوداء على رأسه ومضى في طريقه.

أكمل الصبيان التفاتهما، وصار وجهاهما مواجهين للصورة تمامًا، وبعد لحظة رأى ريتشي توزيبه إلام ينظران. كان هناك كلبٌ أجربٌ يهرول عبر الشارع الأوسط. رفع الصبي الذي يرتدي بزَّة البحار -بيل- إصبعين إلى رُكن فمه وأطلق صافرة. أدرك ريتشي مذعورًا بدرجة شلَّت جميع أطرافه وأفقدته القدرة على الحركة أو التفكير أنه يسمع الصافرة، كما يسمع صخب مُحرِّكات السيَّارات. كانت الأصوات خافتة وأشبه بالأصوات التي تُسمع من خلف زُجاج سميك.. لكنها موجودة وحقيقية.

نظر الكلب إلى الصبيين، ثم مضى في طريقه لا يلوي على شيء. نظر الصبيان أحدهما إلى الآخر وضحكا كالسناجب. بدآ في السير، ثم أمسك ريتشي الذي يرتدي السراويل القصيرة ذراع بيل وأشار إلى القناة. استدار كلاهما إلى ذلك الاتِّجاه.

فكَّر ريتشي: لا، لا تفعل ذلك، لا...

اتَّجها إلى الجدار الخرساني المُنخفض، وفجأة بزغ رأس المُهرِّج من خلفه كدُمية مُريعة قافزة من صندوق مُغلق.. مُهرِّجٌ له وجه چورچ دِنبروه

الميِّت بشعره الأملس اللامع المُصفَّف إلى الخلف، وفمه مشدود في ابتسامة قبيحة يسيل من جانبيها الشحم الذي يُستخدم في التنميق، وعيناهُ حُفرتان سوداوان. كان يمسك في إحدي يديه ثلاث بالونات مُعلَّقة بخيوط، بينما الأخرى تمتدُّ لتقبض عُنُق الصبي في بزَّة البحَّارة.

- «لـ-لـ-لاااا!». هكذا صرخ بيل وهو يمد يده إلى الصورة.

يمد يده إلى داخل الصورة.

صاح ريتشي: «توقَّف يا بيل»، ومدَّ يده ليمنعه.

لكن سبق السيف العذل. شاهد ريتشي أطراف أصابع بيل تعبر سطح الصورة دالفة إلى ذلك العالم الآخر. شاهد أطراف أصابعه تستحيل من اللون الوردي الدَّافئ المُميِّز للحم البشري الحي، إلى ذلك اللون الكريمي المُحنَّط المُميِّز للصور القديمة الذي يُطلق عليه جُزافًا لفظة أبيض، وفي الوقت نفسه صارت صغيرة وبعيدة. كان الأمر أشبه بالحيل البصرية الغريبة التي يشاهدها المرء عندما يضع يده في وعاءٍ زجاجي مليء بالماء: الجزء من اليد المغمور في الماء يبدو كأنه يطفو مفصولًا عن الجُزء الذي ما زال خارج الماء.

شرَّطت مجموعة قطعاتٍ مائلة أنامل بيل عند الموضع الذي لم تعد فيه أصابعه ملكه وصارت أصابع الصورة، كأنه مدَّ يده إلى شفرات مروحة لا صورة.

أمسك ريتشي بساعده وجذبه بكل عنف إلى الوراء. سقط كلاهما معًا، وضرب ألبوم چورچ الأرض وأغلق نفسه مُصدرًا صفعة جافَّة. دسَّ بيل أصابعه في فمه، وانسالت دموع ألمٍ من عينيه. استطاع ريتشي رؤية الدماء تجري من راحة يده إلى معصمه في خيوطٍ هزيلة.

قال له سريعًا: «دعني أرى».

قال بيل: «إ-إنها تـ-تؤلم»، ثم أخرج يده إلى ريتشي. ثمَّة قطعات عرضية كدرجات سُلَّم خشبي تجري على أصابعه السبَّابة والوسطى والبنصر، أما الخنصر فبالكاد لمس سطح الصورة (إن كان لها سطح)، ورغم أن ذلك الأصبع الأخير لم يُظهر قطعات، أخبر بيل ريتشي لاحقًا أن ظفره قد قُصَّ بدقَّة شديدة، كأنَّما بفعل مِقص مُدرِّم أظافر ماهر.

صاح ريتشي: «يا الله يا بيل». ضمَّادات. ذلك كل ما استطاع التفكير فيه. يا إلهي، لكم كانا محظوظين. لو كان تأخَّر في جذب ذراع بيل لحظة، لرُبَّما بُترت أصابعه بالكامل بدلًا من كونها جُرِحت جروحًا بليغةً. «يجب أن نُضمِّد هذه الأصابع. أمك سوف...».

قال بيل: «لـ-لـ-لا عـ-عـليك من أ-أ-أمي». ثم أمسك بألبوم الصور مُجدَّدًا، فيما تقاطرت نقط دماء منه على أرضية الغُرفة.

صرخ ريتشي وهو يتمسَّك بكتف بيل كالمسعور: «لا تفتحه ثانيةً! يا ليسوع المسيح يا بيلي، لقد كدت أن تفقد أصابعك».

نفض بيل يده عنه، وأخذ يُقلِّب الصفحات وقد احتلَّ عزمٌ مُتجهِّمٌ ملامح وجهه أثار ذعر ريتشي أكثر من أيِّ شيءٍ آخر. كانت عيناه مسعورتين تقريبًا. لطَّخت أصابعه الدامية ألبوم چورچ بدماءٍ جديدة. هذه لم تكن تبدو كالكاتشب بعد، لكن بعد أن تأخذ وقتها لتجفَّ قليلًا ستبدو كذلك. بالتأكيد ستبدو كذلك.

ها هو مشهد وسط المدينة مرَّة أخرى.

الفورد طراز T تقف في وسط التقاطُع، والسيَّارات الأخرى مُجمَّدة في مواضعها السابقة. الرَّجُل السائر في اتِّجاه التقاطع يُمسك قُبَّعته السوداء، ومعطفه مفرودًا وراءه مُجمَّدًا في مُنتصف رفرفته.

لقد رحل الصبيان.

لا يوجد أيَّ صبية في أيِّ مكانٍ بالصورة. لكن...

همس ريتشي وأشار: «انظر». كان حريصًا على إبقاء إصبعه خارج الصورة بمسافة كافية. ثمَّة قوس طفيف يظهر من وراء الجدار الخرساني المُنخفض الذي يحد القناة... يبدو كقمَّة شيء مُستدير.

شيء كبالونة.

5

خرج الصبيان من غُرفة چورچ في الوقت المُناسب.

كانت أم بيل مُجرَّد ظلٍّ على الحائط وصوتٍ يأتي من نهاية الدرج وهي تسأل بحدَّة:

- «هل كنتما تتصارعان يا أولاد. لقد سمعت خبطًا».
- «قـ-قـ-قليلًا فقط يا أ-أ-أمي»، قالها بيل وهو يحدِّج ريتشي بنظرة حادَّة من طراز، اخرس.
- «حسنًا، أريدكما أن تتوقَّفا. لقد ظننت أن السقف سيسقط فوق رأسي مُباشرةً».
- «سـ-سـ-سنتوقَّف».

سمعها الصبيان تعود إلى مُقدِّمة المنزل. كان بيل قد لفَّ منديله حول يده النازفة، وقد بدأ لون المنديل يستحيل إلى الأحمر، وكان على وشك أن يقطر دمًا خلال لحظات. هبط الصبيان إلى الحمَّام، وأبقى بيل يده تحت الصنبور إلى أن توقَّف النزيف. بعد تنظيفها، بدت الجروح رفيعة لكن عميقة على نحوٍ قاسٍ. النظر إلى حوافها البيضاء واللحم الأحمر القاني أسفلها جعل ريتشي يشعر بغثيانٍ في معدته. بعدها، لفَّها بيل بالضمَّادات بأسرع ما يستطيع.

قال له: «تـ-تؤلم كـ-كـ-كالجحيم».

- «إذًا لماذا مددَّتَها ووضعتها في الصورة من الأساس أيُّها الأخرق؟».

أمعن بيل النظر إلى حلقات الضمَّادات على أصابعه، ثم إلى ريتشي، وقال: «لـ-لـ-لقد كان المُـ-مُـ-مُهرِّج. لـ-لـ-لقد كان المُـ-مُهرِّج ينتحل شخصية جـ-جورج».

قال ريتشي: «هذا صحيح. مثلما كان المُهرِّج يتظاهر بأنه المومياء عندما شاهده بن، وعندما كان يتظاهر بأنه ذلك المُتسكِّع المريض الذي شاهده أدي».

- «المـ-مـ-مجذوم».
- «أجل».
- «لـ-لكن أ-أ-أهو مُـ-مُهرِّجٌ حـ-حقًّا؟».

قال ريتشي بصوتٍ مُحايد: «إنه مسخٌ.. وحشٌ ما.. وحشٌ ما هنا في ديري.. وهو يقتل الأطفال».

يوم السبت، بعد فترة قصيرة من واقعة السدِّ في البرِّية، وقدوم السيِّد نيل، والصورة التي تحرَّكت، التقى كلٌّ من ريتشي وبن وبيڤرلي وجهًا لوجه ليس بوحشٍ واحد، بل اثنان.. وقد دفعوا مالًا نظير ذلك. كان ريتشي من دفع على أيِّ حالٍ. هذان الوحشان كانا مُخيفين لكن خطرهما لم يكن حقيقيًّا تمامًا، وكانا يُطاردان ضحاياهما على شاشة دار عرض علاء الدين، في أثناء ما كان ريتشي وبن وبيڤرلي يُتابعون الأحداث من مقاعد البلكون.

أحد الوحشين كان الرَّجُل الذئب، الذي يلعب دوره مايكل لاندون، وقد كان ظريفًا لأن شعره كان مُصفَّفًا بعناية في قَصَّة «مؤخِّرة البطَّة» الشهيرة حتَّى وهو مُستذئب، أما الآخر فكان مُتسابق سيَّارات مُحطَّم الجسد، أُعيد إلى الحياة بواسطة سليل ڤيكتور فرانكنشتاين، الذي كان يُطعم كل الأعضاء التي لا يحتاجها إلى مجموعة تماسيح يُربِّيها في القبو. أيضًا كان يُعرض في البرنامج نفسه: نشرة أخبار مُصوَّرة تستعرض أحدث صيحات الموضة في باريس وآخر حوادث انفجار صواريخ فانجارد في قاعدة كيب كاناڤريل الجوية، وفيلما كارتون من إنتاج وارنر بروس، وفيلم كارتون لباباي، وحلقة من كارتون تشيلي ويلي (لسببٍ ما كانت القُبَّعة التي يرتديها تشيلي ويلي تجعل ريتشي ينفجر ضحكًا)، وإعلانات عن العروض القادمة. تضمَّنت الأفلام القادمة فيلمين وضعهما ريتشي على الفور في قائمته واجبة المُشاهدة: تزوَّجت وحشًا من الفضاء الخارجي، وذا بلوب.

ظلَّ بن هادئًا تمامًا طوال العرض. افترض ريتشي أن كل ما يؤرِّق كومة القش أن هنري وبيلش وڤيكتور رصدوه في وقتٍ سابق من اليوم. لكن بن كان قد نسيَ كل شيء عن أولئك البلطجية (الذين كانوا يجلسون أسفلهم في مقاعد أقرب إلى الشاشة، يتمازحون بإلقاء الفشار على بعض وهم يصيحون). كانت بيڤرلي سبب صمته الحقيقي. كان لقُربها الشديد منه أثرًا مُنوِّمًا كاسحًا أسقمه تقريبًا. راحت القشعريرة تنتابه.. وإذا حدث وتحرَّكت حركة طفيفة في مقعدها، كان جلده يتوهَّج بالسخونة كأنه مُصاب بحُمَّى استوائية.. وعندما مسَّت يدها يده وهي تمدُّها لتأخذ بعض الفشار، ارتجف

جسده في خشوع. فكَّر الصبي لاحقًا أن تلك الساعات الثلاث التي قضاها جوار بيفرلي في الظلام هي أطول وأقصر ثلاث ساعات مرَّت عليه في حياته.

أما ريتشي -غير العالم أن بن يتعذَّب بتباريح الغرام المُزمنة- فكان في خير حال. في قاموس ريتشي، لو كان ثمَّة شيءٌ أفضل من مُشاهدة فيلمين من أفلام فرانسيس البغل الناطق، فهو بالتأكيد مُشاهدة فيلمي رُعبٍ في قاعة سينما مليئة بالأطفال يصرخون ويصيحون عندما تأتي اللقطات الدموية. بالطبع لم يكن ريتشي يربط أيًّا من أحداث الفيلمين الأمريكيين الرخيصين اللذين يُشاهدهما بما يجري في البلدة... ليس وقتها على الأقل.

كان قد رأى الإعلان عن العرض الصباحي المُرعب المزدوج في جريدة أخبار ديري صباح يوم الجمعة، ثم نسيَ على الفور تقريبًا كم أُرِّق في نومه في الليلة السابقة، وكيف نهض في النهاية مُضيئًا نور المقصورة، وهي حيلة أطفال بالطبع، لكنه لم ينعم بأدنى نفحة نوم حتَّى فعل ذلك. في الصباح التالي عادت الأمور إلى طبيعتها من جديد... تقريبًا. كان قد بدأ يُفكِّر أنه اشترك مع بيل في هلوسة جماعية. بالطبع لم تكن جروح أصابع بيل هلوسة.. رُبَّما كانت مُجرَّد جروح سبَّبتها الأوراق في ألبوم چورچ. إن أوراقه سميكة جدًّا. يجوز. بالإضافة إلى ذلك، لم يكن ريتشي يظن أنه يوجد قانون يجبره على قضاء العشر سنوات القادمة مُفكِّرًا في الأمر، أليس كذلك؟ بالتأكيد لا.

ولذا، بعد تجربة كانت ستجعل أيَّ بالغٍ يُهرول إلى أقرب طبيب أمراض عقلية، نهض ريتشي توزييه من فراشه، والتهم فطورًا هائلًا من الفطائر، وشاهد الإعلان عن فيلمي الرُعب في صفحة التسالي في الجريدة، وفحص أمواله، ووجدها شحيحة (حسنًا، قد تكون «غير موجودة» عبارة أفضل لوصف الأمر)، فبدأ يلح على والده ليوكل إليه بعض الأعمال نظير مال.

وضع والده -الذي جاء إلى منضدة الإفطار يرتدي سُترة أطبَّاء الأسنان البيضاء بالفعل- صفحة الرياضة من يده وصبَّ لنفسه كوب قهوة ثانٍ. كان رجُلًا مليحًا ذا وجهٍ ناحل نسبيًّا، يُريح على أنفه نظَّارة طبية معدنية الإطار، وقد بدأت رُقعة من الصلع تنتشر على مؤخِّرة رأسه، وسيكون مُقدَّرًا له الموت بسرطان الحنجرة في عام 1973. نظر الرَّجُل إلى الإعلان الذي يُشير ريتشي إليه.

قال ونتورث توزييه: «أفلام رعب».

قال ريتشي مُبتسمًا: «أجل».

قال ونتورث توزييه: «ترغب في الذهاب».

– «أجل».

– «تشعر أنك ستموت بتشنُّجات خيبة الأمل إذا لم تذهب لمُشاهدة هذين الفيلمين الرخيصين».

– «أجل، أجل، سأموت! أعرف أنني سأموت! أعااااااج!». هكذا تحشرج صوت ريتشي وهو يسقط من فوق كُرسيه إلى الأرض، مُمسكًا بحلقه، ولسانه يتدلَّى خارج فمه. كانت هذه طريقة ريتشي الشاذة التي لا يخجل منها في إظهار ظُرفه وسحره.

– «أوه يا إلهي يا ريتشي، هلا كففت عن هذا من فضلك؟». هكذا طلبت منه أمه من موقعها عند الموقد، حيث كانت تعد له بيضتين ليلتهمهما مع الفطائر.

صاح والده بينما ريتشي يعود إلى مقعده: «يا للمسيح يا ريتشي، أظنُّ أنني نسيت إعطاءك مصروفك يوم الاثنين، فهذا السَّبب الوحيد الذي يُمكنني التفكير فيه الذي يجعلك تطلب نقودًا أخرى يوم الجمعة».

– «في الواقع...».

– «أنفقته؟».

– «في الواقع...».

قاطعه ونتورث توزييه قائلًا: «هذه طريقة حديث عميقة جدًّا بالنسبة إلى صبي بعقلٍ مُسطَّح كعقلك»، ثم وضع كوعه على المنضدة وأراح ذقنه على كفِّه، وراح يرمق ابنه بما بدا أنه افتتانٌ عميق، ثم أضاف: «أين ذهب مصروفك؟».

تحوَّل ريتشي على الفور إلى صوت تودلز رئيس الخدم الإنجليزي وصاح: «ويحي لقد أنفقته، ألم تشهد على ذلك يا سيِّدي؟ أنفقته في خدمة البلاط الملكي. لقد شكَّل نصيب مُساهمتي في المجهود الحربي. جميعنا يجب أن يؤدي دوره لدحر الهون الدمويين، أليس كذلك؟ يجب أن نتحمَّل الظروف العصيبة، يجب أن نبني بعض التحصينات، يجب أن...».

- «يجب أن نكدِّس كومة كبيرة من الخراء». قالها ونتورث بهدوء، وهو يمد يده إلى مربى الفراولة.

- «أعفِني من البذاءات على مائدة الإفطار إذا سمحت»، هكذا قالت ماجي توزييه لزوجها وهي تجلب بيض ريتشي إلى المائدة، واستطردت قائلة لريتشي: «لا أعرف لماذا تُحب ملء رأسك بمثل هذه التفاهات المُريعة على أيِّ حال».

صاح ريتشي: «أوه، يا أمي». كان مصعوقًا ظاهريًا، ويُهلِّل من الداخل. كان الصبي قادرًا على قراءة والديه كأنهما كتابان مفتوحان... حسنًا، كتابان باليان مُحبَّبان، وقد كان واثقًا تمامًا من أنه سيحصل على ما يُريد: تكليف بعملٍ وإذنٍ للذهاب إلى السينما بعد ظُهر غدٍ السبت.

انحنى ونتورث أمامًا بابتسامةٍ واسعةٍ وقال: «أظنُّ أنني حاصرتك حيث أريد تمامًا».

بادل ريتشي والده الابتسامة وقال على مضضٍ نوعًا: «أهذا صحيح يا أبي؟».

- «أوه أجل. أتعرف حديقة منزلنا يا ريتشي؟ هل أنت على دراية بحديقة منزلنا؟».

قال ريتشي وقد صار تودلز من جديد، أو حاول أن يصيره: «بالطبع يا سيِّدي. إنها شعثاء قليلًا، أليس كذلك؟».

أمَّن ونتورث على كلامه قائلًا: «بلى، بلى.. وأنت يا ريتشي ستُعالج هذه الحالة».

- «أحقًّا سأفعل؟».

- «أجل. ستجز الحشائش يا ريتشي».

قال ريتشي: «حسنًا يا أبي، بكل تأكيد»، ثم تفتَّح شكٌّ مُريع فجأة في عقله.. رُبَّما والده لا يقصد الحديقة الأمامية فحسب.

اتَّسعت ابتسامة ونتورث توزييه حتَّى صارت ابتسامة فك قرشٍ مُفترس وهو يقول: «كلها يا فلذة كبدي الأحمق. الأمامية، والخلفية، والجوانب، وعندما تنتهي، سأُزين راحة يدك بورقتين خضراوتين تحملان صورة چورچ

واشنطن على إحدى وجهيهما، وصورة لهرم على قمَّته عينٌ لا تكُفُّ عن المُراقبة على الوجه الآخر».

قال ريتشي: «لا أفهم يا أبي»، لكنه شعر بالقلق عندما فعل.

- «دولاران».

صاح ريتشي وقد جُرحت كرامته حقيقةً: «دولاران مقابل تشذيب حديقة كلها؟ إنها أكبر حديقة في الحي بأكمله يا أبي! يا للمسيح!».

تنهَّد ونتورث وأمسك الجريدة مُجدَّدًا. استطاع ريتشي قراءة عنوان الصفحة الأولى: صبي مفقود يؤجِّج مخاوف جديدة. فكَّر سريعًا في ألبوم صور چورچ دِنبروه الغريب. لكنها كانت هلوسة بالتأكيد، وحتَّى إن لم تكن، فقد حدثت البارحة، ونحن أبناء اليوم.

- «أظنُّ أنك لا ترغب حقًّا في مُشاهدة ذينك الفيلمين، ليس كما تعتقد»، هكذا قال ونتورث من وراء جريدته، وبعد لحظة، برزت عيناه من أعلى الجريدة تتفحَّصان ريتشي. كان يتفحَّصه بعجرفة قليلة في الحقيقة. يتفحَّصه بالطريقة ذاته التي يتفحَّص بها رجُلٌ معه أربع أوراق متماثلة خصمه في البوكر من خلف أوراقه.

- «عندما يجزُّها التوأمان كلارك، فأنت تنقد كلًا منهما دولارين».

اعترف ونتورث قائلًا: «هذه حقيقة. لكن حسب علمي، هما لا يُريدان الذهاب غدًا إلى السينما، وإذا كانا يريدان، فلا بُدَّ أنهما يملكان مالًا كافيًا، لأنهما لم يظهرا مؤخَّرًا لتفقُّد حالة العُشب الذي يُحيط بمسكننا. أما أنت -من ناحية أخرى- تريد الذهاب للسينما وتفتقر إلى الأموال اللازمة لفعل ذلك. هذا الألم الضاغط الذي تشعر به أعلى معدتك قد يكون البيضتين والفطائر الخمس التي التهمتها على الإفطار يا ريتشي، وقد يكون المزنق الذي وضعتك فيه يا صديقي. ما رأيك؟».

صاح ريتشي إلى أمه التي كانت تزدرد شريحة خبزٍ مُحمَّص: «إنه يبتزُّني». كانت أمخ تحاول أن تفقد بعض الوزن من جديد.

- «هذا ابتزاز، آمُل فقط أن تعرفي ذلك».

قالت أمه: «أجل يا عزيزي، أعرف ذلك. ذقنك ملوَّث بصفار البيض».

مسح ريتشي البيض من على ذقنه وسأل الجريدة: «ثلاثة دولارات وسأنتهي منها مع عودتك إلى المنزل الليلة؟».

برزت عينا والده قليلًا من فوق الجريدة وقال باقتضاب: «دولاران ونصف».

قال ريتشي: «ويحك يا رجل، أنت وچاك بيني[1]».

قال ونتورث من خلف جريدته: «مثلي الأعلى. فكِّر في الأمر يا ريتشي، ولا تكْثر لأنني أريد قراءة نتائج المُباريات هذه».

قال ريتشي متنهِّدًا: «اتفقنا». عندما تكون يدك أسفل ضروس والديك، فهما يعرفان كيف يعُضَّان عليها جيِّدًا. الأمر مُضحك حقًّا، عندما تبدأ في تخيُّله حرفيًّا.

هكذا.. راح ريتشي يجزُّ الحشائش وهو يتدرَّب على أصواته.

7

انتهى ريتشي من الحديقة الأمامية والخلفية والجوانب بحلول الثالثة عصر الجمعة، وفي صباح السبت كان ثمة دولاران وخمسون سنتًا دافئة في جيب سراويله الچينز، وهو مبلغ يكاد يكون ثروة صغيرة. اتَّصل ببيل، لكن بيل أخبره مُغتمًّا أن عليه الذهاب إلى بانجور لخوض اختبارٍ ما لعلاج مشاكل الكلام.

تعاطف ريتشي معه، ثم أضاف بأفضل تقليد استطاعه لصوت بيل المُتلعثم: «أ–أ–أعطهم كـ–كل ما في جـ–جـ–جعبتك يا بـ–بـ–بيل الكـ–كبير».

قال بيل: «و–و–وجهك يـ–يـ–يشبه مـ–مـ–مؤخِّرتي يا تـ–تـ–توزييه». ثم أغلق السمَّاعة.

اتَّصل ريتشي بإدي كاسبراك بعدها، لكن صوت إدي بدا مُكتئبًا أكثر من

(1) چاك بيني (1894–1974): ممثل كوميدي أمريكي، عمل في مجال الاستعراض المسرحي الهزلي، كما عمل بالإذاعة والتليفزيون والسينما. اشتهر بشخصية بيني البخيل، وظلَّ يؤدي الدور على مدار 39 عامًا بالرغم من كبر سنه.

صوت بيل. قال له إن أمه ابتاعت تذاكر تنقُّل بالحافلة لكليهما صالحة ليوم كامل، وأنهما سيزوران خالات إدي في هاڤن وبانجور وهامبدن. إن خالاته الثلاث بدينات تمامًا كالسيِّدة كاسبراك، وثلاثتهن عازبات.

قال إدي: «كل واحدة منهن تقرصني في خدِّي وتخبرني كم كبرت».

– «هذا لأنهن يعرفن كم أنت رقيق يا إدز.. مثلي تمامًا. لقد علمت أيُّ ولدٍ رقيقٍ أنت في أوَّل لقاءٍ لنا».

– «أحيانًا تكون قطعة خراء حقيقية يا ريتشي».

– «لا يعرف قطعة الخراء إلا قطعة خراء مثلها إدز، وأنت تعرف قطع الخراء كلها. هل ستأتي إلى البرِّية الأسبوع القادم؟».

– «أظنُّ ذلك. إذا كنتم ستذهبون. هل تريدون اللعب بالمُسدَّسات؟».

– «رُبَّما. لكن... أظنُّ أن بيل الكبير لديه شيء يرغب في إخبارك إيَّاه».

– «ماذا؟».

– «إنها قِصَّة بيل في الحقيقة، أظنُّ ذلك. أراك قريبًا. استمتع بخالاتك».

– «ظريف جدًّا».

مُكالمته الثالثة كانت لستان الإنسان، لكن والديّ ستان كانا يعاقبانه لأنه كسر نافذتهما المنقوشة. كان يلعب لعبة الأطباق الطائرة بصحن الفطائر، وقد طار الأخير في الاتِّجاه الخاطئ. كراااش. كُلِّف ستان القيام بعدَّة مهام كعقاب طوال نهاية الأسبوع، والأسبوع الذي يليه غالبًا أيضًا، واساه ريتشي ثم سأله إن كان سيأتي إلى البرِّية الأسبوع المُقبل. أجابه ستان أنه يظن ذلك، إذا لم يُقرِّر أبوه استمرار حبسه أو شيءٍ من هذا القبيل.

قال ريتشي: «بحق الرب يا ستان، إنها مُجرَّد نافذة».

قال ستان: «أجل، لكنها نافذة كبيرة». ثم أغلق السمَّاعة.

همَّ ريتشي بمُغادرة حُجرة المعيشة، ثم فكَّر في بن هانسكوم. قلَّب في دفتر أرقام الهاتف بإبهامه ووجد أكثر من تكرار لاسم أرلين هانسكوم.. وبما أنها كانت السيِّدة الوحيدة ضمن الأسماء الأربعة في القائمة، قرَّر ريتشي أنها لا بُدَّ أم بن.

قال بن: «أتمنى المجيء، لكنني أنفقت مصروفي بالفعل». بدا مُحبطًا

وخجلًا من الاعتراف أنه أنفقه عن بكرة أبيه على الحلوى، والمياه الغازية، وشرائح البطاطس المقلية، وشرائح اللحم المقدَّد.

قال ريتشي -الذي كان ثريًّا الآن (والذي لا يحب الذهاب إلى السينما بمفرده)-: «لقد حصلت على مالٍ كثير. سأقرضك وتردُّه لي لاحقًا».

- «فعلًا؟ ستفعل ذلك؟».

قال ريتشي مُتردِّدًا: «بالتأكيد. لِمَ لا؟».

قال بن فرحًا: «حسنًا! حسنًا! سيكون هذا رائعًا! فيلما رعب! أقلت إن أحدهما عن مستذئب؟».

- «أجل».

- «يا رجل، أنا أعشق أفلام المستذئبين!».

- «بحق المسيح يا كومة القش، لا تُبلِّل سراويلك».

ضحك بن وقال: «أراك أمام سينما علاء الدين، اتفقنا؟».

- «أجل، عظيم».

أغلق ريتشي الخط ونظر إلى الهاتف مُفكِّرًا. لقد أدرك فجأة أن بن هانسكوم صبي وحيد، وهذا جعله يشعر ببعض النُبل في المُقابل. راح يُصفِّر وهو يصعد السلالم جريًا كي يقرأ بعض القصص المصوَّرة قبل ميعاد العرض.

8

كان اليوم مُشمسًا، عليل النسيم، رائعًا. تقافز ريتشي مسرورًا عبر الشارع الأوسط مُتَّجهًا إلى سينما علاء الدين، مُطرقِعًا بأصابعه وهو يُتمتم بأغنية «روكين روبين» بصوتٍ خفيض. كان مُبتهجًا. الذهاب إلى السينما دائمًا ما يُبهجه. كان يعشق ذلك العالم الساحر، وتلك الأحلام الفاتنة، ويشعر بالأسى لأيِّ شخص لديه واجبات مُملَّة تصرفه عن مثل هذا اليوم.. بيل وجلسات علاج النطق، إدي وخالاته، ستان الإنسان المسكين الذي سيقضي بعد الظهيرة في كشط الأوساخ عن سلالم الشُرفة الأرضية أو مسح المرآب لأن الصحن الذي كان يلعب به طاش يمينًا في حين كان من المُفترض أن يحلِّق يسارًا.

كان ريتشي يحمل بَكَرة اليويو خاصته مدسوسة في جيبه الخلفي، وقد أخرجها الآن وحاول من جديد إفلاتها إلى الأسفل بحيث تكمن في أدنى مستوى لها قليلًا قبل أن تصعد. كانت هذه مهارة يبتغي ريتشي امتلاك ناصيتها، لكنه واصل الإخفاق في هذا. تلك اللعينة الصغيرة الممسوسة ما انفكَّت تأبي مطاوعته، فإما تدور إلى أسفل وتصعد عائدة إليه مُباشرةً، أو تموت حركتها عند نهاية الخيط.

في منتصف طريقه صعودًا عبر مُرتفع الشارع الأوسط، رأى ريتشي فتاة في تنُّورة بيج ذات ثنيات وبلوزة بيضاء بلا أكمام تجلس على دكَّة أمام صيدلية شوك. كانت تأكل ما بدا أنه كوز أيس كريم بالفُستق. كان شعرها الأحمر الدَّاكن -التي تبدو خُصلاته اللامعة في الضوء نحاسية وأحيانًا شقراء تقريبًا- ينسدل على لوحي كتفيها. يعرف ريتشي فتاة واحدة فقط بلون الشعر استثنائي الدرجات هذا. إنها بيڤرلي مارش.

كان ريتشي يحب بيڤرلي كثيرًا. حسنًا، كان يحبها، لكن ليس بتلك الطريقة. كان مُعجبًا بجمالها (ويعرف أنه ليس وحده. إن فتيات مثل سالي مولر وجريتا بوي يكرهن بيڤرلي كالجحيم، فمثلهن ما زلن صغيرات جدًّا على فهم كيف يمكن أن يملكن كل شيءٍ ومع ذلك يتعيَّن عليهن التنافس في مسألة الجمال مع فتاة تعيش في واحدة من شُقق الفقراء جنوب الشارع الرئيس)، لكنه يحبها في المقام الأوَّل لأنها قوية وشكسة وتتمتَّع بروح دعابة جيِّدة حقًّا، وأيضًا، لأن جعبتها لم تكن تخلى من السجائر. باختصار، كان يحبها لأنها صبيٌّ جيِّد، ومع ذلك، ضبط ريتشي نفسه مرَّة أو اثنتين وهو يتساءل عن لون الكيلوت الذي ترتديه أسفل مجموعتها الصغيرة من التنانير التي بهت لونها إلى حدٍ ما، ولم يكن هذا نوع الأفكار الذي يراودك عن الصبية الآخرين، أليس كذلك؟

كان على ريتشي أن يقرَّ بأنها صبيٌ بارع الجمال لدرجة تؤذي العيون.

بينما كان يقترب من الدَّكة التي تجلس عليها تأكل الأيس كريم، زمَّ ريتشي معطفًا خفيًّا حول وسطه، وأرخى قُبَّعة وهمية ذات حافَّة عريضة مُتدلِّية على جبهته، وتظاهر بأنه همفري بوجارت.. وبإضافة الصوت الصحيح لمظهره،

صار ريتشي همفري بوجارت ذاته، أمام نفسه على الأقل. أما للآخرين فقد بدا فقط كريتشي توزبيه وهو يعاني بردًا في رأسه وجيوبه الأنفية.

قال وهو ينزلق واقفًا جوار الدَّكة التي تجلس عليها ناظرًا بشرود إلى حركة المرور: «مرحبًا يا حبيبة قلبي، لا فائدة من انتظار الحافلة هنا. لقد قطع النازيون علينا خط الرَّجعة. آخر طائرة ستغادر الليلة في مُنتصف الليل. ستكونين على متنها. إنه يحتاجك يا حلوتي، وكذلك أنا... لكنني سأتعايش بطريقةٍ ما».

قالت بيڤرلي: «أهلًا يا ريتشي»، وعندما التفتت إليه رأى كدمة زرقاء مسودَّة تورِّم خدها الأيمن كظل جناح غراب. من جديد راعهُ مدى حُسن مُحيَّاها... لكنه الآن فقط أدرك أنها رُبَّما تكون جميلة بالفعل. لم يكن ريتشي يدرك قبل تلك اللحظة بوجود فتيات جميلات خارج عالم الأفلام، فضلًا عن أن يعرف واحدة منهن هو نفسه. رُبَّما كانت الكدمة هي ما سمحت له أن يرى إمكانيات جمالها المُحتمل.. كنوع من التضاد اللازم.. عيبٌ بعينه يسترعي على الانتباه، ثم بطريقةٍ ما يُظهر ما حوله: العينين الزرقاوين الرماديتين، الشفتين الحمراوين الطبيعيتين، البشرة الناعمة الكريمية اليانعة التي لا تشوبها شائبة. رذاذ النمش الدقيق المحيط بأنفها.

سألته وهي تُحرِّك رأسها بحيوية: «هل رأيت أيَّ شيءٍ غير سار؟».

قال ريتشي: «أنت يا حبيبة قلبي. لقد صرت في حالة مُزرية السوء. لكن عندما نُخرجك من كازبلانكا، ستذهبين إلى أفضل مُستشفى يُمكن للمال استئجار خدماته، وسنُعيدك بيضاء سليمة كالجرس من جديد. أقسم على هذا باسم أمي».

قالت بيڤرلي: «أنت أحمق يا ريتشي. هذا ليس صوت همفري بوجارت على الإطلاق»، لكنها ابتسمت قليلًا وهي تقولها.

جلس ريتشي جوارها وقال: «هل ستدخلين السينما؟».

قالت له: «ليس معي مال. هل يُمكنني أن أرى اليويو؟».

ناولها إيَّاها وأخبرها: «أُفكِّر في إعادتها، من المفترض أن تستقر في نهاية الخيط قليلًا لكنها لا تفعل. لقد نُصِب عليّ».

حشرت بيڤرلي إصبعها في الحلقة الصغيرة عند طرف الخيط، ودفع ريتشي نظّارته إلى نهاية أنفه كي يتمكّن من رؤية ما تفعله بنحوٍ أفضل منه. قلّبت الفتاة كفّها، وصارت راحة يدها في اتّجاه السماء، وقبعت اليويو ماركة دانكان بأناقة في وادي اللحم الذي شكّلته يدها المُقعَّرة. أفلتت بيڤرلي اليويو من إصبعها السبّابة، فتدلّت إلى نهاية خيطها وكمنت في مكانها وأخذت تدور سريعًا، وعندما ضمّت الفتاة يدها في إيماءة من يدعو أحدهم للاقتراب، استجابت اليويو فورًا وتسلّقت الخيط صاعدة إلى راحتها من جديد.

صاح ريتشي مبهورًا: «أوبا.. انظري إلى هذا!».

قالت بيڤ: «هذه أمور أطفال. راقب الآتي». أفلتت اليويو من جديد، وجعلتها تستقر في مكانها عند نهاية الخيط لحظة، ثم سمحت لها بأن تُلامس الأرض وتتقافز عليها في سلسلة سريعة من الهزّات قبل أن تنتهي في راحة يدها مرّة أخرى، في الحيلة المُسمّاة بـ «تمشية الكلب».

قال ريشتي: «أوه، كُفّي عن هذا.. أكره الاستعراض».

سألته بيڤ وهي تبتسم بعذوبة: «أو ماذا عن هذه؟». قالتها وأفلتت اليويو وتركتها تتأرجح جيئةً وذهابًا، ما جعل خشب البكرة الحمراء يبدو كلعبة المضرب والكُرة المتقافزة المربوطة بخيط التي كان ريتشي يمتلكها فيما مضى، ثم أنهت برمي اليويو أمامًا وتطويحها مرّتين في دورة كاملة موازية لذراعها في الحيلة المعروفة بـ «حول العالم» (كادت أن تضرب بها سيِّدة عجوز تجرجر أقدامها ببطء، وقد رمقتها المرأة شزرًا). انهت اليويو دورتها وعادت إلى راحة يدها المضمومة، يلتف خيطها بأناقة حول مغزلها. أعادت بيڤ اليويو إلى ريتشي وجلست على الدّكة مُجدَّدًا. جلس ريتشي جوارها فارغ الفم بانبهارٍ صادقٍ تام.

- «أقفل فمك، أنت تجذب الذباب».

أغلق ريتشي فمه بطقّة عالية.

- «علاوة على ذلك، كانت الحركة الأخيرة محض حظ. إنها المرّة الأولى في حياتي التي أنجح فيها في تنفيذ حيلة حول العالم مرّتين مُتتاليتين من دون أن تتعثّر البكرة في دورانها». كان الأطفال يمرُّون من أمامهما

الآن في طريقهم إلى السينما. بيتر چوردون يسير جوار مارسيا فادن. من المُفترض أنهما يتواعدان، لكن ريتشي افترض أنهما جاران فقط في منطقة وسط برودواي، وأنهما زوجان من الحمقى يحتاج أحدهما إلى دعم واهتمام الآخر. كان وجه بيتر چوردون مليئًا بحب الشباب رغم أنه في الثانية عشرة فقط. كان الفتى يتسكَّع أحيانًا مع باورز وكريس وهاجنز، لكنه لم يكن شجاعًا بما يكفي لفعل أيِّ شيءٍ بمفرده.

نظر بيتر إلى ريتشي وبيڤ الجالسين معًا على الدكة وهتف: «ريتشي وبيڤرلي يتبادلان القُبل! في البدء يأتي الحب، ثم يأتي الزواج...».

أنهت له مارسيا عبارته: «... وها هو ريتشي يأتي دافعًا عربة طفل!»، ثم ضحكت بصوتٍ عالٍ كبقرة.

رفعت بيڤ إصبعها الوسطى في وجهيهما وقالت: «اجلسا على هذا يا عزيزاي». أشاحت مارسيا بنظرها في تقزُّز، كأنها لا تُصدِّق أن أحدًا يُمكن أن يكون بهذه الفظاظة، وضع چوردون ذراعه حولها وصاح من فوق كتفه إلى ريتشي قائلًا:

– «سأراك لاحقًا يا ذا الأربع عيون».

أجاب ريتشي مُتذاكيًا (بكلام فارغ نوعًا): «رُبَّما سترى سوتيان أمك». انهارت بيڤرلي من الضحك، ومالت إلى كتف ريتشي لحظة استطاع فيها أن يُدرك أن لمستها والشعور بوزنها الخفيف على جسده لم يكن أمرًا سيِّئًا تمامًا، قبل أن تعتدل في جلستها مُجدَّدًا.

قالت: «يا لهما من أخرقين».

قال ريتشي: «أجل، أظنُّ أن مارسيا فادن تبول ماء ورد». فضحكت بيڤرلي ثانيةً.

قالت بصوتٍ مكتوم لأن يديها كانتا تُغطِّيان فمها: «أو عطر شانيل رقم 5».

– «بالتأكيد»، هكذا أجابها ريتشي رغم أنه لم تكن لديه أدنى فكرة عن ماهية عطر شانيل رقم 5.

– «بيڤ؟».

– «ماذا؟».

- «هل يُمكنك تعليمي كيف أبقي اليويو عند نهاية الخيط؟».
- «أظنُّ ذلك. لم يسبق أن علَّمت أيَّ شخص».
- «كيف تعلَّمتِ إذًا؟ من علَّمك؟».

عالجته بنظرة مُشمئزَّة وهتفت: «لا أحد علَّمني. لقد اكتشفت الأمر فحسب. تمامًا كتدوير العصا. أنا بارعة في ذلك...».

قال ريتشي وهو ينظر إلى أعلى: «لا غرور في عائلتك».

قالت له: «حسنًا، أنا مغرورة. لكنني بالفعل لم أحضر دروسًا أو أيَّ شيءٍ».
- «أتستطيعين برم العصا حقًّا؟».
- «بالتأكيد».
- «رُبَّما ستصيرين رئيسة المُشجِّعات في الإعدادية، هه؟».

ابتسمت الفتاة ابتسامة لم يرها ريتشي من قبل. ابتسامة مليئة بالحكمة والسخرية والحُزن في الآن ذاته. تراجع ريتشي قليلًا من قوَّتها الطاغية الغامضة، كما تراجع من قبل من صورة ألبوم چورچي عندما بدأت تتحرَّك.

قالت له: «هذه أمورٌ لفتيات مثل مارسيا فادن وسالي مولر وجريتا بوي. الفتيات اللاتي يتبولنّ ماء ورد. الفتيات اللاتي يشتري لهن آبائهن أحدث الأزياء والمُعدَّات الرياضية. مثلهن الفائزات. أنا لن أصير مُشجِّعة قط».
- «بحق المسيح يا بيڤ، هذا ليس موقفًا لاتِّخاذه...».

هزَّت بيڤ كتفيها وقالت: «بالتأكيد هو كذلك، ما دام الحقيقة. كما أنني لا أهتم. من يرغب في أداء حركات بهلوانية وعرض ملابسه الداخلية أمام مليون شخص على أيِّ حال؟ انظر يا ريتشي، راقب هذا».

خلال العشر دقائق التالية، بيَّنت بيڤرلي لريتشي كيف يجعل اليويو تكمُن عند نهاية الخيط. بعد فترة، بدأ ريتشي يدرك كيفية إمساكها، رغم أنه فقط استطاع أن يجعلها تتسلَّق نصف الطريق أعلى الخيط عندما يسحبها.

قالت له: «أنت لا تنخع إصبعك بالقوة الكافية، هذا كل شيء».

نظر ريتشي إلى الساعة التي تعلو مبنى ميريل ترست عبر الشارع وقفز واقفًا ودسَّ اليويو في جيبه الخلفي: «ويحي، يجب أن أذهب يا بيڤ. من

المُفترض أن أقابل الزميل القديم كومة القش. سيظن أنني غيَّرت رأيي أو شيءٍ كهذا».

- «من كومة القش؟».

- «أوه، إنه بن هانسكوم. أنا أدعوه بكومة القش تيمُّنًا بالمُصارع كالهون هايستاك».

عقدت بيڤرلي حاجبيها وقالت: «هذا ليس ظريفًا. بن يروقني».

صرخ ريتشي في صوت طفلٍ زنجي وهو يشيح بعينيه ويُحرِّك يديه أمامه: «لا ضرب يا سيِّدتي! لا ضرب! سأكون عبدًا مُطيعًا يا سيِّدتي، سأكون...».

صاحت بيڤ بصوتٍ رفيع: «ريتشي».

توقَّف ريتشي عن هذره وقال: «أنا أيضًا أحبه. لقد بنينا سدًّا في البرِّية منذ بضعة أيَّام و...».

- «أتذهبان إلى هناك؟ أنت وبن تلعبان هناك؟».

- «بالتأكيد.. مع رفاق آخرين. المكان جامد هناك»، ثم نظر إلى الساعة مرَّة أخرى وأردف: «يجب أن أغادر المشهد الآن بالفعل.. بن سيكون مُنتظرًا».

- «حسنًا».

ثم توقَّف، وفكَّر قليلًا، وقال: «تعالي معي إذا لم يكن لديك شيء تفعلينه الآن».

- «لقد أخبرتك، ليس معي مال».

- «سأعزمك. إن معي دولارين».

ألقت بيڤ باقي كوز الأيس كريم في برميل نفايات قريب، ثم رَنَت عيناها -تلك الصافيتان المشوَّبتان بدرجات الأزرق والرمادي- إليه وقد لاح فيهما استمتاعٌ لعوب، ثم تظاهرت بتزيين شعرها وسألته: «أوه يا عزيزي، هل تطلب مني الخروج معك في موعدٍ غرامي؟».

للحظة، شعر ريتشي بارتباكٍ لم يعهده، وأحس بالدماء الحارَّة تغزو وجنتيه. لقد قدَّم عرضه بطريقة عادية تمامًا، كما فعل مع بن... لكن ألم يذكر لبن شيئًا ما عن إقراضه مالًا؟ أجل. لكنه لم يأتِ بسيرة إقراض أي مالٍ إلى بيڤرلي.

شعر ريتشي فجأة ببعض الغرابة، وخفض عينيه باعدًا إيَّاهما عن نظرتها اللعوب، ولاحظ الآن أن تنُّورتها ارتفعت قليلًا وهي تنحني لإلقاء الأيس كريم في البرميل، وأنه استطاع رؤية رُكبتيها. رفع ريتشي عينيه لكن لم يُساعد ذلك في شيء، فقد وجد نفسه حاليًا ينظر إلى انتفاخ ثدييها الصغيرين البادئ.

وكما اعتاد ريتشي أن يفعل دائمًا في مواقف الارتباك المُشابهة، لجأ إلى المزاح السخيف.

– «أجل! موعدا!»، هكذا صرخ راكعًا على رُكبتيه ورافعًا يدين مضموتين معًا. «أرجوك اقبلي! أرجوك تعالي! سأقتل نفسي إذا رفضتِ وقلتِ لا، موافقة؟ أليس كذلك؟».

قالت بيڤ وهي تقهقه من جديد: «أوه يا ريتشي، يا لك من معتوه»... لكن، ألم تحمرَّ وجنتاها قليلًا هي الأخرى؟ إذا كان الأمر كذلك، فقد جعلها هذا تبدو أجمل من أيِّ وقتٍ مضى. «انهض قبل أن تُعتقل».

نهض ريتشي وألقى نفسه جوارها على الدَّكة، شاعرًا بأنه استعاد توازنه البدني والنفسي. القليل من الحماقة يفيد دائمًا عندما تشعر بسُكرة الافتتان، هكذا اعتقد. «أتريدين المجيء؟».

قالت له: «بالتأكيد. شكرًا جزيلًا لك. فكِّر في الأمر! هذا موعدي الأوَّل. فقط انتظر حتَّى أكتب عن الأمر في مُذكِّراتي الليلة». ثم عقدت يديها بين ثدييها المُتبرعمين، وأخذت ترمش بجفنيها سريعًا، ثم ضحكت.

قال ريتشي: «أتمنَّى أن تكفِّي عن تسمية الأمر كذلك».

تنهَّدت قائلة: «روحك لا تحمل كثيرًا من الرومانسية».

– «حقيقي تمامًا، هي ليست كذلك».

لكنه شعر بسعادة نوعًا ما من نفسه. لقد صار العالم شديد الوضوح فجأة في عينيه، ووردیًّا تمامًا، ووجد نفسه يختلس النظر إليها من حينٍ إلى آخر: كانت تنظر إلى واجهات المحال؛ إلى الفساتين والمنامات المُعلَّقة في واجهة محل كونيل هوبلي، وإلى المناشف والأواني في واجهة حظيرة التخفيضات، وراح هو يختلس النظرات إلى شعرها، وإلى حدود وجهها. لاحظ ريتشي الطريقة التي تخرج بها ذراعيها العاريتين من فتحتي بلوزتها المُستديرين،

ولاحظ حمّالة حزام تنُّورتها الداخلي المانع للانزلاق. كل هذه الأشياء ملأته بالسرور. لم يكن يعرف السَّبب، لكن واقعة غرفة چورچي لم تبدُ أكثر بُعدًا وضبابية ممَّا تبدو في تلك اللحظة. لقد حان أوان التحرُّك لمُلاقاة بن، لكنه سيجلس لحظاتٍ قليلة جوارها وهي تتسوَّق واجهات المحال بعينيها.. لأنه من المُحبَّب النظر إليها، والمكوث معها.

9

كان الأولاد ينقدون أرباع دولاراتهم إلى شبَّاك تذاكر سينما علاء الدين ويدلفون إلى رُدهة الاستقبال. بالنظر عبر الأبواب الزجاجية، استطاع ريتشي رؤية حشد صغير مُتجمهر حول كافيتريا السينما. كانت آلة الفشار تعمل بطاقتها القصوى، لافظة أفواجًا وراء أفواج من الذرة المشوية المُتفتِّقة، وغطائها المعدني يهتزُّ صعودًا وهبوطًا. لم يرَ ريتشي بن في أيِّ مكانٍ. سأل بيڤرلي إن كانت لاحظته، فهزَّت رأسها نافية.

- «رُبَّما سبقنا إلى الداخل».

- «لقد أخبرني أنه لا يملك مالًا.. وابنة فرانكنشتين هذه لن تسمح له بالدخول دون تذكرة». قالها ريتشي وهو يُشير بإبهامه إلى السيِّدة كول، التي ظلَّت تشغل منصب موظَّفة شباك تذاكر سينما علاء الدين قبل العصر الذي نطقت فيه الأفلام بزمنٍ طويل. كان شعرها المصبوغ بلونٍ أحمر زاعق خفيفًا جدًّا لدرجة أنك تستطيع رؤية فروة رأسها عبره. كانت صاحبة شفتين غليظتين مُتدلِّيتين تدهنهما بأحمر شفاة برقوقي اللون، وثمَّة لطخ مسحوق بودرة أحمر فاقع يُلطِّخ وجنتيها. أما حاجباها فمرسومان بقلمٍ أسود بلون الرصاص. كانت السيِّدة كول ديموقراطية مثالية، فهي تكره جميع الأطفال سواء.

قال ريتشي: «تبًّا، لا أريد الدخول من دونه لكن العرض سيبدأ. أين هو بحق الجحيم؟».

قالت بيڤ بمنطقٍ مقبول: «يمكنك أن تبتاع له تذكرة وتتركها في الشبَّاك، وعندما يأتي...».

لكن في تلك اللحظة ظهر بن عند ناصية التقاء شارعي ماكلين والأوسط.

كان يلهث، وبطنه يترجرج من تحت سُترته الثقيلة. رأى ريتشي فرفع ذراعه مُحيِّيًا، ثم رأى بيڤرلي فتجمَّدت ذراعه في الهواء، واتَّسعت عيناه بشكلٍ لحظي، ثم أنهى تلويحه وسار ببطء إلى حيث يقفان أسفل لوحة مسرح علاء الدين.

قال بن: «مرحبًا يا ريتشي»، ثم ألقى نظرة خاطفة على بيڤ. كان يبدو كأنه يخاف النظر طويلًا إليها كي لا يؤدي ذلك إلى غشي بصره. «مرحبًا يا بيڤ».

ردَّت عليه: «مرحبًا يا بن»، ثم هبط صمتٌ غريب عليهما. لم يكن صمتًا حرجًا على وجه التحديد، بل حضور قوي تقريبًا، هكذا فكَّر ريتشي، وشعر بوخزة غامضة من الغيرة، لأن شيئًا ما سرى بينهما، وأيًّا كان كنه هذا الشيء، فقد استُبعِد منه.

قال ريتشي: «كيف حالك يا كومة القش؟ ظننتك جبنت عن القدوم. هذان الفيلمان سيُذيبان عشرة أرطال من جسدك البدين من فرط الرُعب. أوَّاه، لسوف يضربان الشيب في شعر رأسك أيُّها الفتى. عندما ستخرج من دار العرض، ستكون في حاجة إلى حاجبٍ ليُساعدك في عبور الممرِّ، لأنك جسدك سيرتعد بشكلٍ سيئ».

همَّ ريتشي بالذهاب إلى شبَّاك التذاكر، لكن بن أوقفه واضعًا يده على ذراعه. بدأ بن في الكلام ناظرًا إلى بيڤ التي ابتسمت له، فتلعثم واضطَّر إلى البدء من جديد: «لقد جئت إلى هنا قبلكما، لكنني سرت إلى نهاية الشارع وانعطفت عند الناصية عندما أتى أولئك الفتية».

سأله ريتشي ظانًا أنه يعرف مُسبقًا: «أيُّ فتية؟».

– «هنري باورز، وڤيكتور كريس، وبيلش هاجنز.. وآخرون أيضًا».

أطلق ريتشي صفيرًا من فمه وقال: «لا بُدَّ أنهم دخلوا القاعة نفسها، فأنا لا أراهم عند الكافيتيريا يبتاعون الحلوى».

– «أجل، أظنُّ ذلك».

قال ريتشي: «لو كنت مكانهم ما اهتممت بدفع مالٍ لمُشاهدة فيلمي رُعب، كنت سأمكث في المنزل وأنظر في المرآة فحسب، وأوفِّر ثمن التذكرة».

ضحكت بيڤرلي بجذل على المُزحة، لكن بن ابتسم قليلًا فقط. لقد كان

هنري باورز ينوي إيذاءه فقط في ذلك اليوم الأسبوع الماضي، لكن الموقف تطوَّر وانتهى وهو ينوي قتله. كان بن واثقًا من هذا.

قال ريتشي: «أتعرف شيئًا، سنحجز في البلكون. كلهم سيكونون في الصالة أسفلنا في الصف الثاني أو الثالث رافعين سيقانهم على المقاعد أمامهم».

سأله بن: «هل أنت مُتأكِّد؟». لم يكن واثقًا تمامًا أن ريتشي يستوعب مدى التنغيص الذي يُشكِّلهُ أولئك الفتية بالنسبة إليه... وبالتأكيد كان هنري أسوأ مُنغِّصٍ فيهم.

لكن ريتشي -الذي تمكَّن من الفرار بالكاد ممَّا كان سيُسفر عن علقة مُحترمة بأيدي هنري وأصدقائه المسعورين منذ ثلاثة أشهر (لقد استطاع مراوغتهم في قسم ألعاب متجر فيرسي، دونًا عن جميع الأماكن الأخرى)- كان يعلم عن هنري ورفقته المرحة أكثر بكثير ممَّا يظن بن.

قال ريتشي: «لو لم أكن متيقِّنًا تمامًا، لما ذهبت إلى الداخل من الأساس. أنا أريد رؤية هذين الفيلمين يا كومة القش، لكنني لا أريد الموت في سبيلهما».

- «بالإضافة إلى ذلك، إذا ضايقونا على أيِّ نحوٍ، فسنطلب من فوكسي ركلهم إلى خارج القاعة». هكذا قالت بيڤ. كان فوكسي هذا هو السيِّد فوكسورث، مُدير دار سينما علاء الدين النحيل الشاحب كئيب المنظر. كان الآن يبيع الحلوى والفشار للأطفال، وهو يُردِّد ابتهاله المُتكرِّر: «انتظر دورك، انتظر دورك، انتظر دورك». كان مظهره في بِذَّته الرسمية البالية وقميصه الذي اصفرَّ لونه أشبه بحانوتي جار الزمن عليه.

نظر بن بشكٍّ من بيڤ إلى فوكسي إلى ريتشي.

قال ريتشي بلطف: «لا يمكنك أن تدعهم يُسيِّرون لك حياتك يا رجل. ألا تعرف ذلك؟».

قال بن: «أظنُّ ذلك»، وتنهَّد. لم يكن مقتنعًا بذلك، لكن وجود بيڤرلي شوَّه المُعادلة بجنون. إذا لم تكن أتت، كان سيحاول إقناع ريتشي بالذهاب إلى السينما في يومٍ آخر، أو كان سينسحب إذا أصرَّ ريتشي على موقفه حينها. لكن بيڤ هنا، وهو لا يُريد أن يظهر بمظهر دجاجة جبانة أمامها. كما أن فكرة

وجوده معها في مقاعد البلكون في الظلام -حتَّى لو توسَّطهما ريتشي، وهو ما سيحدث غالبًا- كان لها إغراءً كاسحًا.

قال ريتشي: «سننتظر إلى أن يبدأ العرض ثم ندخل». ثم ابتسم إلى بن ولكمه في ذراعه صائحًا: «اللعنة يا كومة القش، هل تريد العيش إلى الأبد؟».

انعقد حاجبا بن، ثم أفلتت منه ضحكة شاخرة، وضحك ريتشي أيضًا. بالنظر إليهما، ضحكت بيڤرلي بدورها.

اقترب ريتشي من شبَّاك التذاكر مُجدَّدًا. نظرت كول ذات الشفتين الشبيهتين بالكبد إليه بحدَّة.

صاح ريتشي في أفضل مُحاكاة استطاعها لصوت البارون بوتول: «عمت مساءً يا سيِّدتي العزيزة، أنا في حاجة ماسَّة إلى ثلاث تذاكر لدخول عروضكم الأمريكية الغالية العزيزة».

- «كُفَّ عن الهُراء وأخبرني بما تريد يا فتى!». هكذا صاحت ذات الشفتين الكبديَّتين عبر الكوَّة الدائرية المقطوعة في الزُجاج، وقد كان ثمَّة شيءٍ في مظهر حاجبيها المرسومين اللذين يتحرَّكان صعودًا وهبوطًا أزعج ريتشي كثيرًا لدرجة أنه دفع الدولار المُجعَّد عبر الكوَّة وهو يُتمتم: «ثلاث تذاكر من فضلك».

برزت ثلاث تذاكر من الكوَّة. أخذها ريتشي، وألقت له المرأة الشمطاء رُبع دولارٍ وهي تقول: «لا تتذاكوا، ولا تلقوا بعلب الفشار، ولا تصيحوا، ولا تركضوا في رواق الاستقبال، ولا تركضوا في الممرَّات».

قال لها ريتشي: «لا يا سيِّدتي». ثم عاد إلى حيث يقف بن وبيڤرلي وقال لهما: «إن مقابلة شمطاء ضارطة تحب الأطفال كهذه المرأة دائمًا ما تثلج صدري».

ظل ثلاثتهم واقفين في الخارج فترة، مُنتظرين بدء العرض. راحت المرأة ترمقهم بشكٍ من داخل قفصها الزجاجي. أمتع ريتشي بيف بقِصَّة السدِّ الذي بنوه في البرِّية، ناطقًا عبارات السيِّد نيل بصوت الضابط الأيرلندي الذي ضمَّه حديثًا إلى مجموعته. قهقهت بيڤرلي كثيرًا في البداية، ثم تحوَّلت قهقهاتها إلى ضحكٍ عنيف بعدها، وحتَّى بن راح يبتسم قليلًا، رغم أن عينيه لم تنفكَّا عن التنقُّل بين باب دار سينما علاء الدين الزُجاجي ووجه بيڤرلي الأخَّاذ.

كانت مقاعد البلكون لا بأس بها. في أثناء عرض البكرة الأولى من فيلم كنت مسخ فرانكنشتاين مُراهقًا، رصد ريتشي هنري باورز وثُلّته من الرعاع. كانوا جالسين في الأسفل في الصف الثاني كما توقّع بالضبط. كانوا خمسة أو ستة، كلهم في الصفوف الدراسية الخامسة والسادسة والسابعة، وكلهم يضعون أحذيتهم الغليظة عالية الرقبة على ظهور المقاعد أمامهم. سيأتي فوكسي بعد قليل ويأمرهم بإنزال أقدامهم، وسينصاعون، ثم سيرحل فوكسي، وبمُجرَّد مُغادرته، سترتفع الأقدام المدسوسة في الأحذية الغليظة عالية الرقبة من جديد.. وبعد خمس أو عشر دقائق لاحقة سيعود فوكسي وستتكرَّر الملهاة الهزلية كلُّها من جديد بحذافيرها. ليست لدى فوكسي الشجاعة الحقيقية لطردهم خارج القاعة، وهم يعلمون ذلك.

كان الفيلمان عظيمين. كان مسخ فرانكنشتاين المُراهق مُقزِّزًا كما يجب، لكن المُستذئب المُراهق كان مُرعبًا أكثر بطريقةٍ ما، رُبَّما لأنه بدا حزينًا بعض الشيء. ما ألمَّ به يكن غلطته. ذلك المنوِّم الإيحائي الخبيث قد عبث بعقله، لكن السَّبب الوحيد الذي مكَّنه من ذلك أن الفتى الذي تحوَّل إلى مُستذئب كان مليئًا بالغضب والمشاعر السيِّئة، وجد ريتشي نفسه يتساءل هل يوجد أناس كثر في العالم يخفون مشاعرًا سيئة كتلك. بالتأكيد هنري باورز يفيض بالمشاعر السيِّئة، لكنه بالتأكيد أيضًا لا يُزعج نفسه بمحاولة إخفائها.

جلست بيفرلي بين الصبيين تلتهم الفشار من علبتيهما وهي تصرخ وتُغطِّي عينيها وتضحك أحيانًا. عندما كان المُستذئب يتعقَّب الفتاة التي تتمرَّن في الصَّالة الرياضية بعد مواعيد المدرسة، دفنت وجهها في ذراع بن، وسمع ريتشي شهقة بن الباهرة الملسوعة حتَّى مع أصوات صراخ مئتي طفل جالسين أسفلهم.

في النهاية قُتِل المُستذئب. في المشهد الأخير أخبر أحد رجال الشرطة زميله في تحذيرٍ مهيب أن ما حدث يجب أن يُعلِّم الناس ألا يعبثوا مع أشياء

من الأفضل تركها للرب. هبط الستار وأُضيئت الأنوار. ثم دوى تصفيقٌ حاد. شعر ريتشي برضا تام وقليلٍ من الصداع. رُبَّما حان الوقت الذي يجب أن يذهب فيه إلى طبيب عيونٍ لتغيير عدستي نظَّارته مرَّةً أخرى. فكَّر ريتشي مُغتمًّا أنه عندما سيأتي الوقت الذي سيرتاد فيه المدرسة الثانوية، بالتأكيد سيكون مُرتديًا عدستين في سُمك كعوب الأكواب على عينيه.

جذبه بن من كُمِّه وقال بصوتٍ جافٍ قانطٍ: «لقد رأونا يا ريتشي».

- «هه؟».

- «باورز وكريس. لقد نظرا في اتِّجاهنا وهما في طريقهما إلى الخارج. لقد شاهدانا».

قال ريتشي: «حسنًا، حسنًا. اهدأ يا كومة القش. فقط اهدااااأ. سنخرج من الباب الجانبي، لا شيء يدعو للقلق».

هبط ثلاثتهم السلالم. ريتشي في الطليعة، وبيڤرلي في المنتصف، وبن في المؤخِّرة ينظر من فوق كتفه كل درجتين تقريبًا.

سألته بيڤرلي: «هل أولئك العيال ضايقوك حقًّا يا بن؟».

قال بن: «أجل، أظنُّ ذلك. لقد تشاجرت مع هنري باورز في آخر يوم في الدراسة».

- «هل ضربك؟».

قال بن: «ليس بالقدر الذي أراده. لهذا لا يزال غاضبًا على ما أظنُّ».

غمغم ريتشي: «أظنُّ أن الرفيق هانك الدبَّابة فقد كمِّية لا بأس بها من الجلد، أو هذا ما سمعته، ولا أظنُّه سعيدًا جدًّا بذلك أيضًا». دفع ريتشي باب الخروج وخطا ثلاثتهم إلى الزقاق الذي يمر بين سينما علاء الدين ومطعم نان لانشونت. فحَّت هرَّة كانت تبحث في سلَّة قمامة وركضت أمامهم إلى نهاية الزقاق الذي كان مسدودًا من طرفه البعيد بسورٍ خشبي. تسلَّقت القطة السور وقفزت من فوقه، ووقع غطاء حاوية قمامة مُحدثًا قرقعة عالية. قفزت بيڤ في الهواء وتشبَّثت بذراع ريتشي، ثم ضحكت بعصبية: «أظنُّني ما زلت خائفة من أثر الفيلمين».

همَّ ريتشي بالكلام: «لن...».

- «أهلًا يا ذا الوجه اللعين». قالها هنري باورز من خلفه.

بهلع، استدار ثلاثتهم إلى الوراء. كان كلٌّ من هنري وڤيكتور وبيلش يقفون عند فم الزقاق؛ بالإضافة إلى فتيين آخرينِ خلفهم.

ناح بن: «أوه اللعنة، كنت أعرف أن هذا سيحدث».

التفت ريتشي سريعًا في اتِّجاه دار السينما، لكن باب الخروج كان قد أُغلق من خلفهم ولم تكن ثمَّة وسيلة لفتحة من الخارج.

قال هنري: «قُل على دُنياك السلام يا ذا الوجه اللعين»، ثم ركض فجأة نحو بن.

ما حدث بعدها بدا لريتشي وقتها وبعد ذلك كمشهدٍ من فيلم. مثل هذه الأشياء لا تقع في الحياة الحقيقية. في الحياة، يُضرب الأطفال الصغار، ثم يُلملمون أسنانهم المكسورة ويرحلون.

لكن لم يكن هذا ما حدث في تلك المرَّة.

تقدَّمت بيڤرلي خطوة على الأمام وانتحت إلى الجانب قليلًا، كأنها تقريبًا تعتزم مُقابلة هنري، ورُبَّما مُصافحته. استطاع ريتشي سماع صوت وقع نعل حذاء هنري عالي الرقبة على الأرض، واندفع ڤيكتور وبيلش في أثره، أما الفتيان الآخران فوقفا في مكانهما عند مدخل الزُقاق يحرسانه.

صاحت بيڤرلي: «اتركه وشأنه. اختر خصمًا في حجمك!».

هنري، الذي لم يكن رجُلًا مُهذَّبًا، قال برقاعة: «إنه ضخم كشاحنة ماك لعينة أيَّتُها الموسم، الآن ابتعدي عن...».

مدَّ ريتشي ساقه. لم يظن أنه قصد فعل ذلك. لقد تصرَّفت ساقه تلقائيًّا بالطريقة نفسها التي تخرج بها الكلمات اللاذعة -التي تُهدِّد سلامته- من فمه من تلقاء نفسها. ركض هنري إليها، وتعثَّر فيها، وسقط مُندفعًا إلى الأمام. كانت أرضية الزقاق القرميدية زلقة ومليئة بالقمامة المسكوبة من حاويات النفايات المُترعة جوار مطعم لانشنوت، وانزلق هنري عليها ككُرة هوكي الجليد.

بدأ الفتى في النهوض وقميصه ملوَّث بلُطخ القهوة والطين وأجزاء من الخس وهو يصرخ قائلًا: «ستموتون جميعًا!».

حتَّى هذه اللحظة، كان بن مذعورًا. الآن تحرَّك شيءٌ داخله. أطلق بن زئيرًا عاليًا ورفع إحدى حاويات القمامة. للحظة عابرة -في أثناء ما كان يمسكُ بها عاليًا والقمامة تتناثر منها في كل مكان- بدا بالفعل شبيهًا بالمصارع كالهون هايستاك..كان وجهه شاحبًا وغاضبًا، وألقى بحاوية القمامة. ضربت الصفيحة هنري أسفل ظهره وسطَّحته على الأرض مُجدَّدًا.

صرخ ريتشي: «لنفر من هنا حالًا!».

ركض الثلاثة إلى فم الزقاق. قفز ڤيكتور كريس مُعترضًا طريقهم. أطلق بن خوارًا وحنى رأسه واندفع كالثور إلى معدة ڤيكتور. شهق ڤيكتور: «ووف!»، وسقط أرضًا في الوضع جالسًا.

أمسك بيلش بقبضة من شعر بيڤرلي المعقوص في ذيل حصان وصفعها باحتدام في جدار سينما علاء الدين الحجري. ارتدَّت بيڤرلي عن الجدار وأكملت ركضها عبر الزقاق وهي تفرك ذراعها. ركض ريتشي خلفها، والتقط غطاء حاوية قمامة في طريقه. طوَّح بيلش هاجنز قبضة في حجم زهرة أقحوان تقريبًا إلى وجهه، فرفع ريتشي غطاء الحاوية الحديدي المجلفن ليُلاقي قبضة بيلش، ما نتج عنه صوت بااااانج! عاليًا. صوت ارتطام جسمٍ ليِّنٍ بسطحٍ قاسٍ. شعر ريتشي بموجة التصادم ترتحل بطول ذراعه وصولًا إلى كتفه، وأطلَق بيلش صرخة عالية وبدأ يتواثب كاللقلُق مُمسكًا بكفِّه المتورِّم.

واثقًا، صاح ريتشي بتقليدٍ مقبول تمامًا لصوت توني كرتيس[1]: «هنالك في البُعد، تقبع خيمة أبي».

أمسك أحد الفتيين الواقفين عند مخرج الزقاق ببيڤرلي، فبدأ بن في الصراع معه. هنا جاء الفتى الآخر وراح يلكم بن أسفل ظهره. طوَّح ريتشي ساقه إلى مؤخِّرة الفتى اللاكم. عوى الفتى من الألم. أمسك ريتشي بذراع بيڤرلي في يدٍ وببن في اليد الأخرى، ثم صاح: «اركضا!».

---

(1) توني كرتيس (1925-2010): ممثل أمريكي امتدت حياته المهنية ستة عقود، لكن ذروة شعبيته كانت في الخمسينيات وأوائل الستينيات، والاقتباس من فيلم Son of Ali Baba عام 1952.

ترك الفتى الذي كان بن يتصارع معه بيڤرلي ولكم ريتشي بقبضته. انفجرت أذنه بألم مُفاجئ، ثم تخدَّرت وسخنت جدًّا، وبدأ صوت طنين عالٍ يدوي بعُنف في رأسه. كان الصوت يبدو كالصوت الذي يفترض أن تسمعه عندما تضع مُمرِّضة المدرسة سمَّاعات الأُذُن على رأسك لاختبار سمعك.

ركض الثلاثة عبر الشارع الأوسط. التفت المارَّة ونظروا إليهم. كانت معدة بن الكبيرة تترجرج صعودًا وهبوطًا، وشعر بيڤرلي المعقوص في ذيل حصان يتقافز. أفلت ريتشي يد بن وثبَّت نظَّارته بإبهامه الأيسر كي لا يفقدها. كان رأسه ينبض والألم يرنُّ داخله. عرف أن أُذُنه ستتورَّم، لكنه شعر بنشوةٍ رائعة، وبدأ يضحك. انخرطت بيڤرلي ضاحكة معه، وسرعان ما انضم بن لهما أيضًا.

قطعوا شارع المحكمة راكضين، ثم انهاروا جالسين على دكَّة أمام قسم الشرطة: في هذه اللحظة، بدا لهما القسم المكان الوحيد في ديري الذي قد يكون آمنًا. لفَّت بيڤرلي ذراعها حول عنق بن والآخر حول عنق ريتشي، وأعطتهما عناقًا عارمًا.

تلألأت عيناها وهي تقول: «كان هذا رائعًا! هل رأيتما ما حدث لأولئك الشباب؟ هل رأيتماهم؟».

قال بن لاهثًا: «لقد رأيتهم جيِّدًا.. ولا أريد رؤيتهم ثانيةً أبدًا».

فجَّر هذا موجة جديدة من الضحك الهستيري. ظلَّ ريتشي يتوقَّع أن تظهر عصابة هنري عند زاوية شارع المحكمة وتنقض عليهم من جديد، دون أن يُشكِّل وجودهم قُبالة مركز الشرطة فارقًا يُذكر، لكنه لم يستطع التوقُّف عن الضحك. بيڤرلي مُحقَّة، لقد كان الأمر رائعًا بالفعل.

صاح ريتشي مُتحمِّسًا: «نادي الخاسرين عالجهم بواحدة مُحترمة، واكا واكا واكا»، ثم ضم يديه على فمه وقال بصوت المذيع بن بيرني: «ياوزا، ياوزا يا رفاق!».

أطلَّ شُرطيٌّ برأسه من نافذة الطابق الثاني وصاح: «أنتم يا أولاد، ابتعدوا عن هنا حالًا! العبوا بعيدًا».

فتح ريتشي فمه ليقول شيئًا مُتذاكيًا، غالبًا بصوت الشُّرطي الأيرلندي

الذي طوَّره حديثًا، لكن بن ركله في قدمه وقال: «إخرس يا ريتشي»، ثم لم يُصدِّق على الفور أنه قال شيئًا كهذا.

– «أجل يا ريتشي»، قالتها بيڤ وهي تنظر إليه بدلال، ثم أضافت: «بيب بيب».

قال ريتشي: «حسنًا. ماذا تريدان فعله؟ البحث عن هنري باورز وسؤاله إذا كان يرغب في تسوية الأمر عن طريق لعب المونوبولي؟».

قالت بيڤ: «عض على لسانك».

– «هه؟ ما معنى ذلك؟».

قالت بيڤ: «لا عليك. بعض الرجال جاهلون تمامًا».

سألها بن متردِّدًا وهو يشعر أن الدماء تتدفَّق بغزارة في وجهه: «هل أذى ذلك الفتى شعرك يا بيڤرلي؟».

ابتسمت بيڤرلي إليه بعذوبة، وفي تلك اللحظة أضحت واثقة من شيءٍ خمَّنته من قبل فقط. بن هانسكوم هو من أرسل لها البطاقة البريدية التي تحوي قصيدة الهايكو. قالت له: «لا، لم يكن الأمر بهذا السوء».

اقترح ريتشي قائلًا: «لنذهب إلى البرِّية».

وهكذا ذهب ثلاثتهم إلى هناك... أو بالأحرى هربوا إلى هناك. سيُفكِّر ريتشي لاحقًا أن تصرُّفهم هذا أرسى نمطًا لبقية الصيف. لقد صارت البرِّية مكانهم. كانت بيڤرلي –تمامًا كبن قبل مواجهته ذلك اليوم مع الفتية الكبار– لم تطأ البرِّية من قبل. توسَّطت الفتاة ريتشي وبن في أثناء مسيرتهم الثلاثية عبر الدرب في طابور أحدهم خلف الآخر. كانت تنُّورتها تتهادى برقَّة، وبالنظر إليها، اجتاحت بن موجاتٌ شعورية بالغة القوَّة أشبه بتقلُّصات المعدة في ألمها. كانت تضع الخلخال حول كاحلها، وكان يومض في شمس الأصيل.

عبروا نهر الكِندوسكيج من الفرع الذي بنى الأولاد السدَّ فيه (كان الجدول ينقسم إلى فرعين بطول سبعين ياردة أمامًا على طول مساره، ويندمج مرَّةً أخرى بعد نحو مئتي ياردة أبعد باتِّجاه المدينة) مُستخدمين الحجارة التي تخلَّفت عن بناء السدِّ، وعثروا على طريقٍ آخر، وفي النهاية انبثقوا من ضِفَّة شوكة النهر الشرقية الأعرض بكثير من الأخرى. كانت مياهها تلتمع

في أشعة شمس الأصيل. إلى يساره، استطاع بن رؤية تَيْنِكَ الأسطوانتين بغطائيهما الحديديين. أسفلهما، ثمَّة أنابيب خرسانية ضخمة تبرز من وسط الجدول، وتفيض أغادير صغيرة من الماء الموحل من حواف أنابيب التدفُّق تلك وتنسكب في مياه الكِندوسكيج. فكَّر بن مُتذكِّرًا تفسير السيِّد نيل لنظام الصرف الصحي في ديري: ثمَّة شخص يتغوَّط في مكانٍ ما، ومن هنا يخرج الغائط. شعر بنوعٍ بليد من غضب من لا حيلة لهم. فيما مضى رُبَّما كانت هناك أسماك في هذا النهر، الآن فُرصتك في اصطياد سمكة سلمون لن تكون عالية جدًّا، بل ستكون فُرصتك في اصطياد كومة مناديل مراحيض ورقية أفضل بمراحل.

أطلقت بيڤ تنهيدة وقالت: «المكان جميل جدًّا هنا».

وافقها ريتشي قائلًا: «أجل، لا بأس به. لقد رحل الذباب، وثمَّة نسيمٌ كافٍ للإبقاء على البعوض بعيدًا»، ثم نظر إليها بأمل وسألها: «أمعكِ سجائر؟».

قالت له: «لا، كان معي بعضها لكنني دخَّنتها أمس».

قال ريتشي: «هذا مؤسف».

اندلعت صافرة عالية فنظروا وشاهدوا قطارًا طويلًا يتوغَّل في طريقه على الجانب البعيد من البرِّية مُتَّجهًا إلى محطة القطارات. فكَّر ريتشي: يا للمسيح، لو أن هذا قطار رُكَّاب فالمشهد سيكون رائعًا. أوَّلًا سيعبر من جوار منازل الفُقراء في اللسان القديم، ثم على مُستنقعات الخيزران على الجانب الآخر من الكِندوسكيج، وقبل مُغادرته البرِّية، سيمر بالحُفرة الكبيرة التي يتصاعد الدُّخان منها التي تعمل كمكبٍّ نفايات المدينة.

للحظة عابرة، وجد ريتشي نفسه يُفكِّر في قِصَّة إدي من جديد. المجذوم الذي خرج من أسفل المنزل المهجور في شارع نيبولت. ثم دفعها بعيدًا عن تفكيره والتفت إلى بن.

- «ما أفضل جزء أعجبك إذًا يا كومة القش؟».

التفت بن إليه ببراءة وقال: «هه؟». كان سارحًا في وجهها وفي الكدمة البارزة على خدِّها، بينما هي ترنو بعيدًا عبر الكِندوسكيج تائهة في أفكارها الخاصة.

- «من الفيلمين أيُّها الغبي. ما كان أفضل جزء منها في نظرك؟».
- «لقد أحببت المشهد الذي بدأ فيه د. فرانكنشتاين إطعام الجُثث إلى التماسيح التي يُبقيها أسفل منزله، هذا أكثر مشهد أعجبني».

قالت بيڤرلي وقد اعترتها رجفة: «كان ذلك مُقزِّزًا. أنا أكره هذه الأشياء.. التماسيح والبيرانا والقروش».

سألها ريتشي باهتمام مُفاجئ: «نعم؟ ما البيرانا؟».

قالت بيڤرلي: «أسماك ضئيلة الحجم لديها أسنان عديدة صغيرة، لكنها حادَّة كالجحيم. إذا حدث ونزلت إلى نهرٍ تعيش فيه، ستلتهمك بالكامل إلى عظامك».

- «واو!».

واصلت بيڤرلي: «لقد رأيت فيلمًا مرَّة فيه مجموعة من السُكَّان المحلِّيين يُريدون عبور النهر، لكن الجسر الخشبي كان مُحطَّمًا. لذا أنزلوا بقرة مربوطة بحبلٍ إلى الماء، وبدأوا في العبور في أثناء ما كانت أسماك البيرانا تلتهم البقرة. عندما سحبوا الحبل بعدها، لم يكن قد تبقَّى من البقرة سوى هيكلها العظمي. لقد اعترتني الكوابيس أسبوعًا كاملًا بعدها».

قال ريتشي مسرورًا: «تبًّا، ليت كان معي بعضًا من ذلك السمك، لكنت وضعته في حوض استحمام هنري باورز».

بدأ بن يُقهقه وقال: «لا أظنُّه يستحم من الأساس».

قالت بيڤرلي: «لا علم لي بذلك، لكن ما أعلمه جيِّدًا أننا يجب علينا الاحتراس من أولئك الفتية»، ثم تحسَّست البروز على وجهها وأردفت: «لقد ضربني أبي على جانب رأسي أوَّل أمس لتحطيمي كومة من الأطباق. علقة واحدة في الأسبوع تكفي».

مرَّت لحظة صمت كان يُفترض أن تكون مُحرجة لكنها لم تكن كذلك. كسرها ريتشي قائلًا إن أفضل مشهد أعجبه هو انتقام المُستذئب من المُنوِّم الإيحائي الشرير. تحدَّثوا قرابة ساعة أو نحو ذلك عن الفيلمين، وعن أفلام رعب أخرى من التي يشاهدونها في برنامج ألفريد هيتشكوك يُقدِّم على التلفاز. لاحظت بيڤرلي أن ثمَّة أقحوانات تنمو على ضِفَّة النهر، فالتقطت

واحدة ووضعتها أسفل ذقن ريتشي، ومن بعدها أسفل ذقن بن، لترى إن كانا يُحبَّان الزبد أم لا[1]. ثم أعلنت أن كليهما يُحبَّانه. في أثناء ما كانت تُمسك بالزهرة أسفل ذقنيهما، استشعر كلاهما لمستها الرقيقة على كتفيهما، واستنشقا عبير شعرها النظيف. كان وجهها قريبًا من وجه بن لثانية أو اثنتين، لكنه حلم في تلك الليلة بعينيها وكيف كانت تبدو خلال تلك الفترة القصيرة اللا نهائية من الزمن.

كان الحديث يتراخى قليلًا عندما سمعوا أصوات أقدام أشخاص يسيرون عبر الدرب قادمين إلى حيث يجلسون. التفت ثلاثتهم سريعًا نحو الصوت وأدرك ريتشي فجأة وبشكلٍ حاد أن النهر يقبع خلفهم، فأين المفرّ؟

اقتربت الأصوات أكثر. نهض ثلاثتهم واقفين، وتحرَّك ريتشي وبن أمام بيفرلي دون تفكير.

اهتزَّت الشُجيرات التي تحد نهاية الدرب، وفجأة انبثق بيل دِنبروه من وسطها. كان يرافقه صبي آخر، وهو زميل يعرفه ريتشي قليلًا اسمه برادلي فُلان، وهو يُعاني من لثغة مُريعة. فكَّر ريتشي أنه غالبًا يذهب إلى بانجور مع بيل لحضور جلسات علاج النطق تلك.

هتف ريتشي في صوت تودلز كبير الخدم: «بيل الكبير! نحن سُعداء لرؤيتك يا سيِّدي العزيز دِنبروه».

نظر بيل إليهم وابتسم، وفورًا استحوذ يقينٌ غريب على ريتشي عندما كان بيل ينقل بصره منه إلى بن إلى بيفرلي ثم خلفه إلى برادلي (أيًا ما كان اسم أبيه). كانت عينا بيل تقولان إن بيفرلي واحدة منهم، وإن برادلي فُلان ليس كذلك. قد يمكث معهم بعض الوقت اليوم، وقد يأتي إلى البرِّية مرَّة أخرى، فلن يستطيع أحد أن يقول له معذرة، لا مكان شاغر في عضوية نادي

---

(1) لعبة يمارسها الأطفال في الولايات المُتَّحدة، وفيها يضعون زهرة حوذان تحت ذقن شخصٍ ما، وإذا انعكس لون الحوذان على ذقن الشخص فهو يحب الزبد. الترجمة الحرفية لزهرة الحوزان هي «كوب الزبد». استخدمت بيفرلي أقحوانة لا زهرة حوذان، رُبَّما لعدم توافرها.

الخاسرين، فنحن لدينا عضونا المُعاق كلاميًا بالفعل. لكنه لن يكون أبدًا من الثُّلة... لن يكون أبدًا واحدًا منهم.

ساقته هذه الفكرة إلى خوفٍ مُفاجئ غير مُبرَّر.. وللحظة شعر بذلك الشعور الذي يعتريك عندما تدرك فجأة أنك سبحت بعيدًا جدًّا عن الشاطئ، وأن الماء يعلو رأسك، وأن لا أرض أسفل قدميك. ثم ومض حدسٌ مُباغت في عقله: نحن نُساق إلى شيءٍ ما. يُجرى اختيارنا واصطفاءنا. لا شيء من هذا مُصادفةً. تُرى، هل اكتمل نصابنا بعد؟

ثم استحال الحدسُ خليط أفكار لا معنى له، كشظايا لوح زُجاجي تكسَّر على أرضٍ حجرية. علاوة على ذلك، لم يكن الأمر يهم. إن بيل هنا، وسيعتني بيل بأمرنا. لن يسمح بيل للأمور أن تخرج عن السيطرة. كان أطولهم، وأكثرهم وسامة من دون ريب. كل ما كان على ريتشي فعله لاستيعاب هذه الحقيقة هو اختلاس نظرة جانبية إلى عيني بيف الشاخصتين إلى بيل، وإلى عيني بن الشاخصتين بإدراكٍ وأسف إلى بيڤ. كان بيل أيضًا أكثرهم قوَّة، وليس بدنيًّا فحسب. ثمَّة شيء فيه يفوق القوَّة البدنية بكثير، لكن بما أن ريتشي لم يكن يعرف كلمة كاريزما أو المعنى الكامل للجاذبية المغناطيسية، فقد شعر بأن قوَّة بيل تسري عميقًا في عروقه وأنها قد تعلن عن نفسها في نواحٍ كثيرة، بعضها غير مُتوقَّع رُبَّما. ظنَّ ريتشي أن لو افتُتِنت بيڤرلي ببيل، أو وقعت في هواه، أو أيًّا ما كان المُسمَّى، فلن يشعر بن بالغيرة (كما قد يشعر لو أُعجِبَت بي أنا، هكذا فكَّر ريتشي)، وأنه سيتقبَّل الأمر كطبيعة الأشياء. أيضًا يوجد آخر يُستشعر في بيل: الفتى صالح. كان من الحمق التفكير في مثل هذا الأمر (ولم يكن ريتشي يُفكِّر فيه على وجه التحديد، بل يستشعره بالأحرى)، لكنها الحقيقة. بدا أن كلًّا من الطيبة والقوَّة تشعَّان من بيل. كان يبدو كالفرسان في الأفلام القديمة. تلك الأفلام المبتذلة التي ما زالت قادرة على إبكائك وإجبارك على التصفيق والهتاف في نهايتها. الفتى قوي وصالح، وبعد خمس سنوات من الآن، في الوقت الذي بدأت فيه ذكرياته عمَّا حدث في ديري خلال ذلك الصيف وما قبله تتلاشى وتبهت سريعًا، سيخطر في عقل ريتشي توزييه المراهق أن چون كيندي يُذكِّره كثيرًا ببيل المُتلعثم.

بمن؟ هكذا ستكون ردَّة فعل عقله المستقبلية على الفكرة.

ولسوف ينظر حينها إلى أعلى -مُتحيِّرًا قليلًا-. وسيهزُّ رأسه مُفكِّرًا: إنه صبيٌ ما كنت أعرفه في طفولتي، وبعدها سيطرد عدم الارتياح الغامض هذا الذي سيعتصر قلبه عنه بدفع نظَّارته أعلى أنفه والانكباب على واجباته المنزلية من جديد. إنه صبي ما اعتدت معرفته منذ أمدٍ بعيد جدًّا.

وضع بيل دِنبروه يديه على خاصرته، وأشرقت ابتسامةٌ على ثغره وهو يقول: «هـ-هـ-ها نـ-نـ-نحن قد جـ-جـ-جئنا... مـ-مـ-مـ-ماذا تـ-تفعلون؟».

سأله ريتشي وقلبه يتواثب بالرجاء: «أمعك سجائر؟».

11

بعد خمسة أيَّام، ومع اقتراب رحيل شهر يونيو، أخبر بيل ريتشي أنه يود الذهاب إلى شارع نيبولت وإلقاء نظرة أسفل الشُرفة حيث قابل إدي المجذوم.

كانا قد عادا لتوِّهما إلى منزل ريتشي، وكان بيل يدفع سيلڤر إلى جانبه. لقد قادها أغلب طريق العودة -وريتشي يركب خلفه- في رحلة سريعة منعشة عبر ديري، لكنه كان حريصًا أن يُنزل ريتشي من الدرَّاجة قبل منزله بمسافة، لأنه إذا رأت والدة ريتشي ابنها يركب خلف بيل سيجن جنونها.

كانت سلَّة سيلڤر مليئة بالمُسدَّسات ذات الست طلقات؛ اثنتين منها لبيل، وثلاثًا لريتشي. كانت الرفقة في البرِّية يعلبون بالأسلحة. انضمَّت بيڤرلي مارش إليهم نحو الساعة الثالثة، وهي ترتدي سراويل چينز بهت لونه وتحمل بندقية لُعبة طراز ديزي عتيقة جدًّا فقدت مُعظم طلقها. عند ضغط زنادها الملحوم بشريطٍ لاصق، كانت البندقية تطلق صفيرًا بدا لريتشي أشبه بصوت شخص يجلس على وسادة هوائية من التي تُستخدم في المكائد المازحة أكثر منه صوت طلق ناري. لعبت بيڤرلي دور قنَّاصة يابانية، فقد كانت ماهرة تمامًا في تسلُّق الأشجار وإطلاق النار على الغافلين الذين يمرُّون من أسفلها. كان لون الكدمة على عظم وجنتها قد خَفَّ واستحال إلى أصفرٍ باهت.

سأله ريتشي: «ماذا قُلت؟». كان مصدومًا، لكنه بدا مفتونًا أيضًا.

قال بيل: «أ-أ-أريد إلقاء نـ-نظرة أسفل الـ-الـ-الشُرفة». كان العناد باديًا في صوته، لكنه لم يقوَ على النظر إلى ريتشي. كانت وجنتاه تشعَّان باحمرارٍ قانٍ، وكانا قد وصلا إلى عتبة منزل ريتشي. ها هي ماجي توزييه جالسة في الشُرفة الأرضية تقرأ كتابًا، ثم رأتهما فصاحت: «أهلًا يا أولاد! أترغبان في بعض الشاي المُثلَّج؟».

صاح ريتشي بأمه: «سنأتي حالًا يا ماما»، ثم وجَّه كلامه إلى بيل: «لن نعثر على أيِّ شيءٍ هناك. إدي رأى مُتشرِّدًا على الأرجح وطار صوابه. بحق المسيح، أنت تعرف إدي».

- «أ-أ-أجل، أعرف إ-إ-إدي. لكن أتذكُر الصـ-صـ-صورة في الأ-أ-أ-ألبوم؟».

بدَّل ريتشي من وضع قدميه شاعرًا بضيق. رفع بيل كفه الأيمن. كان قد خلع الضمَّادات الآن، لكن ريتشي استطاع رؤية القشور الدائرية الصغيرة للجروح المُلتئمة على أصابع بيل الثلاثة الأولى.

- «أجل، لكن...».

قال بيل: «ا-ا-اسمعني»، وبدأ يتكلَّم ببطء شديد جدًّا، وهو يُمسك نَظْرة ريتشي بعينيه، ومرَّة أخرى سرد أوجه التشابه بين قصَّتي بن وإدي، وربطها بما شاهداه هما في الصورة التي تحرَّكت، واقترح مرَّة أخرى تفسيره بأن المُهرِّج هو الذي قتل الصبية والفتيات الذين عُثر عليهم صرعى في ديري منذ ديسمبر الماضي، وأنهى كلامه قائلًا: «ورُ-رُ-رُبَّما لم يـ-يـ-يكن أولئك ضحاياه فـ-فـ-فحسب. مـ-مـ-ماذا عن المفقودين؟ ماذا عـ-عـ-عن إيدي كـ-كـ-كوركوران؟».

قال ريتشي: «اللعنة يا بيل، لقد فرَّ خوفًا من زوج أمه».

قال بيل: «رُبَّما فـ-فـ-فعل، ورُبَّما لـ-لـ-لم يـ-يفعل. لقد كـ-كـ-كنت على مـ-مـ-معرفة سطحية به، وكنت أ-أ-أعلم أن و-و-والده يضربه، كـ-كما أ-أ-أعلم أيضًا أ-أ-أنه اعتاد أن يـ-يـ-يبيت ليالٍ خارج المنزل للابتعاد عـ-عـ-عنه».

قال ريتشي مُفكِّرًا: «إذًا رُبَّما اقتنصه المُهرِّج بينما هو بائت في الخارج. أهذا ما تقصد؟».

أومأ بيل.

- «وماذا تريد إذًا؟ أن تحظى بتوقيعه؟».

قال بيل: «إ-إ-إذا كان المُهرِّج مـ-مـ-من قـ-قـ-قتل الآخرين، فـ-فهو من قـ-قتل چـ-چورچي». كانت عيناه مُثبَّتتان على ريتشي، وقد بدتا عنيدتين وصلبتين كالصخر وغير مُتسامحتين وهو يضيف: «أ-أ-أريد أن أقـ-أقـ-أقتله».

صاح ريتشي خائفًا: «يا ليسوع المسيح. كيف ستفعل ذلك؟».

- «أ-أ-أبي عـ-عـ-عنده مُـ-مُسدَّس»، تطايرت ندفة لُعاب من بين شفتيه لاحظها ريتشي بالكاد. «هـ-هـ-هو لا يـ-يعرف أ-أ-أنني أعرف. لـ-لكنني أ-أعرف. إنه يُخبِّئه فـ-فـ-في الرَّف العلوي مـ-مـ-من خِزانة مـ-مـ-ملابسه».

قال ريتشي: «هذا رائع إن كان رجُلًا، وإن وجدناه جالسًا على كومة من عظام الأطفال...».

قطعت أم ريتشي عبارته وهي تصيح بانشراح: «لقد صببت الشاي يا أولاد! من الأفضل أن تأتيا وتشرباه!».

- «حالًا يا أمي!». هكذا صاح ريتشي مُجدَّدًا عارضًا لها ابتسامه كبيرة كاذبة تلاشت فورًا ما إن استدار إلى بيل. «لأنني لن أقدم على إطلاق النار على شخص فقط لأنه يرتدي حُلَّة مُهرِّج يا بيلي. أنتِ صديقي الصدوق، لكنني لن أفعلها، ولن أسمح لك بفعلها إن استطعت منعك».

- «مـ-مـ-ماذا لو كـ-كان يـ-يجلس بـ-بالفعل عـ-عـ-على كـ-كـ-كومة مـ-من العـ-عظام؟».

لعق ريتشي شفتيه ولم ينطق بشيءٍ لحظات، ثم سأل بيل: «ماذا ستفعل إن اتَّضح أنه ليس إنسانًا يا بيلي؟ ماذا لو كان وحشًا ما حقًّا؟ ماذا لو أن مثل هذه الكائنات موجودة بالفعل؟ لقد قال بن هانسكوم إنه شاهده في صورة مومياء، وأن البالونات كانت تطفو عكس اتِّجاه الريح، وأنه لم يكن يترك ظِلًّا وراءه. ماذا عن الصورة في ألبوم چورچ؟ إما أننا تخيَّلنا الأمر، وإما كان سحرًا..

ودعني أخبركِ أمرًا يا رجل، أنا لا أظنُّ أننا توهَّمنا الأمر، وبالتأكيد ليست أصابعك واهمة، صح؟».

هزَّ بيل رأسه.

- «إذًا ماذا ستفعل إن لم يكن رجُلًا طبيعيًّا يا بيلي؟».

- «عـ-عـندها سـ-سـ-سيتعيَّن علينا التـ-تـ-تفكير فـ-في حـ-حيلةٍ أ-أ-أخرى لقهره».

قال ريتشي: «صح، حقًّا. أستطيع تخيُّل الأمر. بعدما تطلق النار عليه أربع أو خمس مرَّات ويواصل الاقتراب منا كالمُستذئب المُراهق في ذلك الفيلم الذي رأيته مع بن وبيڤ، تستطيع أن تُجرِّب رشقه بنِبالك، وإذا لم تُجدي نِبالك نفعًا، سألقي عليه نفحة من مسحوق العطس خاصتي، وإذا استمرَّ في الهجوم علينا بعد كل ذلك سنطلب منه هُدنة وسنقول: 'على رسلك الآن. أسلحتنا غير مُجدية يا سيِّدي الوحش. اسمع، يجب أن نقرأ عن الأمر في المكتبة. سنعود إليك. الآن نستميحك عذرًا'. أهذا ما ستقوله يا بيل الكبير؟».

أنهى ريتشي كلامه ونظر إلى صديقه ورأسه ينبض باحتدام. كان جزءٌ منه يريد من بيل التمسُّك بفكرته وحثّه على الذهاب والنظر أسفل تلك الشُرفة، لكن جزءًا آخر كان يأمل بشدَّة أن يتنازل بيل عن فكرته. شعر ريتشي أن الأمر برمَّته يبدو -بطريقةٍ ما- كأنك دخلت فيلمًا في إحدى حفلات السبت الصباحية في سينما علاء الدين، لكن من جهة أخرى -جهة مصيرية أخرى- لم يكن يبدو كذلك على الإطلاق. لأن هذه ليست مُغامرة مأمونة العواقب كتجربة مُشاهدة فيلم رعب، حيث تعلم أن كل شيء سيصير على ما يُرام في النهاية، وحتَّى إذا لم يحدث ذلك فالأمر بعيد عن مؤخِّرتك. مواجهة الصورة في غرفة چورچي لم تكن كرؤية فيلم. لقد ظنَّ أنه نسيَ ذلك، لكن يبدو من الواضح أنه كان يخدع نفسه لأنه ها هو الآن يرى تلك الجروح المُلتفَّة حول أصابع بيلي. إذا لم يكن قد جذب يد بيل في الوقت...

كان بيل يبتسم الآن -يبتسم حقًّا- بشكل غير معقول، ثم قال: «لـ-لـ-لقد طلبت مـ-مـ-مني أ-أ-أ أريك الصـ-صورة، الآن أ-أ-أنا أطلب مـ-مـ-منك تـ-تفحُّص المنزل، و-واحدة بـ-بـ-بواحدة».

قال ريتشي: «هذه الواحدة ليست أمك»، وانفجر كلاهما ضاحكًا.

قال بيل كأن الأمر حُسِم: «غـ-غـ-غدًا في الصـ-صـ-صباح».

سأله ريتشي بعينين صارمتين: «ولو كان وحشًا؟ إذا لم يوقفه مُسدَّسُ أبيك يا بيل الكبير؟ إذا واصل تقدُّمه؟».

قال بن من جديد: «سنُفكِّر في شيءٍ آخر.. سنُضطر إلى ذلك». ثم ألقى برأسه إلى الوراء وضحك كالمعاتيه.. وبعد بُرهة انضم ريتشي إليه. كان الإغراء أقوى من أن يُقاوم.

صعد الصبيان معًا الدرجات المرصوفة ببلاطٍ غير مُنتظم إلى شُرفة منزل ريتشي الأرضية. كانت ماجي قد أعدَّت لهما كوبين هائلين من الشاي المُثلَّج مع بعض عيدان النعناع وطبق بسكويت بالڤانيليا.

- «هـ-هل تـ-ترغب في فـ-فعل الأمر؟».

قال ريتشي: «لا، لكنني سآتي رغم ذلك».

ربَّت بيل بقوَّة على ظهره، وقد جعل ذلك الخوف مُحتملًا نوعًا، رغم أن ريتشي صار مُتأكِّدًا فجأة (ولم يكن مُخطئًا في ذلك) أن النوم سيُجافيه طويلًا الليلة.

قالت السيِّدة توزيبه وهي تجلس حاملة الكتاب في يدٍ وكوب من الشاي المُثلَّج في اليد الأخرى: «يبدو أنكما كنتما تُقرِّران أمرًا خطيرًا هناك»، ونظرت إلى الصبيين بترقُّب.

قال ريتشي: «أوه، دِنبروه يظن أن فريق ريد سوكس سيصعد إلى دوري الدرجة الأولى».

قال بيل: «أ-أ-أنا وأبي نـ-نـ-نظنُّ أن أمامهم فُـ-فُرصة في الحـ-حصول على المركز الثـ-ثـ-ثالث»، ثم رشف من شايه المُثلَّج وأردف: «هـ-ه-هذا لـ-لـ-لذيذ تمامًا يا سـ-سيِّدة تـ-توزيبه».

- «بالهناء يا بيل».

- «العام الذي سيصعد فيه فريق السوكس إلى دوري الدرجة الأولى، سيكون العام الذي تكُف فيه عن الثأثأة».

- «ريتشي!». هكذا صرخت السيِّدة توزيبه مصعوقة، وكادت أن تُسقط

كوب الشاي المُثلَّج الذي تحمله. لكن كلًا من ريتشي وبيل دِنبروه كانا يضحكان بهستيرية، وقد فقدا زمام نفسيهما تمامًا. نقلت المرأة بصرها من ابنها إلى بيل ثم رجوعًا إلى ابنها مرَّة أخرى، وقد لمسها عجبٌ معظمه حيرة طفيفة لكن جزءًا منه خوف رفيع وحاد جدًا.. خوف عثر على طريقه عميقًا إلى أعماق قلبها وراح يهتز هناك كشوكة رنَّانة مصنوعة من جليدٍ بحت.

أنا لا أفهم أيًّا منهما، هكذا فكَّرت. أين يذهبان، وماذا يفعلان... أو ماذا سيكون مآلهما. أحيانًا، يشتعل الجموح في عيونهما.. أحيانًا أخاف عليهما وأحيانًا أخاف منهما...

وجدت ماجي نفسها تُفكِّر -ليس للمرَّة الأولى- كم كان من الجميل لو رُزقت هي وزوجها ونتورث بفتاةٍ أيضًا.. فتاة جميلة شقراء تستطيع إلباسها تنُّورات وفيونكات وأحذية سوداء مُبطَّنة بالجلد في أيَّام الآحاد. فتاة جميلة تطلب منها أن تخبز بعض الكعك بعد المدرسة، وترغب في اقتناء الدُمى بدلًا من الكتب التي تتحدَّث عن فن التكلُّم من البطن، ونماذج سيَّارات ريڤيل التي تمضي سريعًا.

فتاة جميلة تستطيع فهمها.

12

سأل ريتشي بيل متوتِّرًا: «هل حصلت عليه؟».

كانا يدفعان درَّاجتيهما في شارع كانساس جوار البرِّية في العاشرة من صباح اليوم التالي. كانت السماء رمادية غائمة. توقَّعت الأرصاد هطول الأمطار بعد الظهيرة. لم يستطِع ريتشي النوم إلا بعد مُنتصف الليل، ومن هيئة بيل، افترض ريتشي أنه أمضى ليلة ليلاء هو الآخر. كان وجه العزيز بيل الكبير يُظهر ظلالًا سوداء متطابقة أسفل كل عين.

قال بيل مُربِّتًا على صدر المعطف الصوفي الأخضر الذي يرتديه: «حـ- حصلت عليه».

هتف ريتشي مبهورًا: «أرني إيَّاه».

قال بيل: «ليس الآن»، ثم ابتسم وأضاف: «قـ-قد يلاحظه أ-أحد، لـ-

لكن ا-ا-انظر مـ-ماذا أحضرت أ-أيضًا». ثم مدَّ يده وراء ظهره وأسفل معطفه، وأخرج النِبلة من جيبه الخلفي.

قال ريتشي: «أوه اللعنة، نحن في ورطة حقيقية الآن»، وبدأ يضحك.

قال بيل مُتظاهرًا بأنه جُرح: «لـ-لـقد كـ-كانت فكرتك يا تـ-تـ-توزييه».

كان بيل قد حصل على قاذفة النِبال المصنوعة من الألومنيوم هذه هدية في عيد ميلاده العام الماضي، وقد كانت بمثابة حلٍّ وسط بين رغبة بيل في بُندقية صيد عيار 22 ورفض أمه المُتعنِّت إعطاء صبي في عمر بيل سلاحًا ناريًّا. كان كُتيب التعليمات يقول إن النِبلة يمكن أن تصير سلاح صيدٍ ممتازًا، ما إن تعلَّمت استخدامها. «في الأيدي المُدرَّبة جيِّدًا، مقلاعك قاتل وفعَّال، كما القوس الجيِّد أو السلاح الناري رفيع المستوى»، هذا ما كان مكتوبًا في كُتيب التعليمات، وبمثل هذه المزايا التي راح يبالغ في تمجيدها، واصل الكُتيب تحذيراته من أن النِبلة يمكن أن تكون أداة خطرة، وأن مالكها يجب أن يعاملها معاملة مُسدَّسٍ محشوٍّ بالرصاص، وألا يصوِّب أيًّا من الأعيرة التي تأتي معها -المُتمثِّلة في عشرين بلية معدنية- إلى شخصٍ ما.

لم يكن بيل ماهرًا في استخدام النِبلة بعد (وفي قرارة نفسه كان يظن أنه لن يبرع في ذلك أبدًا)، لكنه كان يعتقد أن تحذير الكُتيب يستحق أن يوضع في الحسبان، فقد كانت لمطَّاط المقلاع السميك المرن جذبة قويَّة، وعندما تضرب مقذوفًا به في صفيحة معدنية، فإنه يُحدث ثُقبًا كبير الحجم بها.

سأله ريتشي: «هل صرت أفضل في استخدامها يا بيل؟».

ردَّ بيل: «قـ-قـ-قليلًا». لم يكن هذا الرَّد ينطوي سوى على جزءٍ من الحقيقة. فبعد دراسة مُتأنِّية للصور المُدرجة في الكُتيب (التي كانت معنونة بالأشكال.. كما في انظر الشكل 1، والشكل 2، وهلم جرًّا)، وبعد تدريبٍ طويل في حديقة ديري أنهك ذراعه، كل ما نجح فيه هو إصابة ورقة الهدف التي أتت أيضًا مع النِبلة ثلاث مرَّات من كل عشر محاولات تقريبًا.. ونجح مرَّة واحدة فقط في إصابة مُنتصف الهدف... تقريبًا أيضًا.

سحب ريتشي الشريط المطاطي إلى الوراء، ونقره بإصبعه، ثم أعاد النِبلة

إلى بيل. لم يقل شيئًا لكنه ارتاب في سره متسائلًا إن كان يُمكن أن يُعوَّل عليها -تمامًا كمُسدَّس زاك دِنبروه- في قتل الوحوش.

في النهاية قال: «حقًّا؟ لقد أحضرت نِبلتك، حسنًا، يا له من أمرٍ جلل. هذا لا شيء. انظر إلى ما أحضرته أنا يا دِنبروه». من جيب سُترته، أخرج ريتشي عبوة مرسومًا عليها صورة رجُلٍ أصلع يقول أتشوووا وخديه مُنتفخين كخدَّي عازف الجاز ديزي جيليسبي. كانت عبوة مسحوق سُعال د، واكي، وكان الشعار عليها يقول: الضحك إلى الرُكَب!

نظر كلاهما إلى الآخر بُرهة طويلة من الوقت ثم انفجرا صارخين في نوبة من الضحك، وراحا يضربان ظهري أحدهما الآخر.

- «إ-إ-إننا مُـ-مُستعدان لأيِّ شـ-شـ-شيء». هكذا قال بيل في النهاية، وهو ما زال يضحك ويمسح عينيه بكُم معطفه.

قال ريتشي: «وجهك يشبه مؤخِّرتي يا بيل المُتلعثم».

قال بيل: «ظـ-ظننت أ-أ-أن الأمر بـ-بـالعكس»، ثم أردف: «الآن ا-ا-اسمعني. سـ-سـ-سنُخفي درَّاجتك فـ-في البرِّية حـ-حـ-حيث أضع سيلڤر ونـ-نحن نلعب، وسـ-سـ-ستركب خلفي كـ-كـ-كي نـ-نـ-نستطيع الفرار سريعًا لـ-لـ-لو ا-ا-اضُطررنا».

أومأ ريتشي موافقًا دون أن يشعُر برغبة في الجدال. كانت درَّاجته الرالي تبدو قزمة أمام سيلڤر العجفاء العملاقة كالصرح. أحيانًا كانت رُكبتا ريتشي تضربان مقابض مقود درَّاجته وهو يدهس دوَّاساتها سريعًا. كان ريتشي يعلم أن بيل أقوى، وأن سيلڤر أسرع.

وصلا إلى الجسر الصغير، وعاون بيل ريتشي على إخفاء درَّاجته تحته. ثم جلسا أرضًا بعدها، وفي أثناء ما راحت قِلَّة من السيَّارات تمرُّ هادرة من فوق رأسيهما، شد بيل سحاب معطفه الصوفي وأبرز مُسدَّس والده.

قال بيل وهو يناوله إلى ريتشي بعد أن صفَّر الأخير بفمه مُنبهرًا: «خذ حذرك تمامًا. لا يوجد زر أمان في مُسدِّس كهذا».

سأله ريتشي مُنبهرًا: «أهو عمران؟». كان المُسدَّس بي بي كيه والتر الذي اشتراه زاك دِنبروه عندما بدأ عمله الوظيفي يبدو ثقيلًا بشكل غير معقول.

قال بيل: «لـ-لـ-ليس بـ-بعد»، ثم ربَّت على جيبه وهو يردف: «مـ-مـعي بـ-بـ-بعض الطلقات هـ-هنا. لكن أ-أ-أبي يـ-يقول أحيانًا أ-أ-أن المُسدَّس إذا شـ-شـشعر أنك غـ-غير حـ-حـ-حريص، فهو يُعبِّئ نـ-نـ-نفسه كي يـ-يـ-يستطيع الإطلاق». ثم ظهرت على وجهه ابتسامة تقول ضمنيًا إنه رغم عدم تصديقه لكلام بمثل هذه السذاجة، إلا أنه يؤمن به تمامًا.

تفهَّم ريتشي مقصده. ثمَّة موتٍ صامتٍ محبوس في ذلك الشيء، وهو أمرًا لم يستشعره في مُسدَّسات والده ذات الأعيرة المُختلفة، أو حتَّى في بُندقية شَوزن (رغم أنه ثمَّة أمرٌ قابض بخصوص البُندقية، أليس كذلك؟ في طريقة استنادها المائل في رُكن خِزانة المرآب، خرساء ومُزيَّتة، كأنها تقول إذا كانت تستطيع الكلام: أستطيع أن أكون شريرة إن أردت، شريرة جدًّا، يُمكنك الرهان على هذا). لكن هذا المُسدَّس، هذا الوالتر... يبدو كأنه صُنع لأجل غرض وحيد صريح هو قتل الأشخاص.. وقد أدرك ريتشي راجفًا الغرض الرئيس من صُنعه. فما الذي يُمكن فعله بمُسدَّس بخلاف ذلك؟ استخدامه في إشعال سجائرك مثلًا؟

أدار الفوهة نحوه حريصًا على إبقاء يديه بعيدًا عن الزناد. نظرة واحدة إلى فوهة الوالتر السوداء التي لا ترمش جعلته يعي ابتسامة بيل الغريبة تمامًا، وتذكَّر مقولة والده له: إذا أدركت أنه لا يوجد شيء يُدعى سلاحًا غير محشو، ستأمن جانب الأسلحة النارية طوال حياتك. أعاد ريتشي المُسدَّس إلى بيل، سعيدًا بالتخلُّص منه.

دسَّ بيل المُسدَّس في معطفه من جديد. شعر ريتشي فجأة أن منزل شارع نيبولت بدا أقل إرعابًا في نظره... وعلى النقيض، بدت احتمالية أن يسفكا دماءً بهذا السلاح أكثر قوَّة.

نظر ريتشي إلى بيل، رُبَّما قاصدًا أن يُنشاده العدول عن رأيه مرَّة أخرى، لكنه رأى العزم في وجهه، بل قرأه، ولم يقل سوى: «جاهز؟».

13

كالمُعتاد، عندما رفع بيل قدمه الثانية من على الأرض، شعر ريتشي أنهما

سيسقطان لا محالة، ناثرين محتويات جُمجُمتيهما على الأسمنت الصلب. ترنَّحت الدرَّاجة الكبيرة بجنون من طرف إلى طرف، ثم رويدًا رويدًا، لم تعد أوراق الكوتشينة المُثبَّتة بمشابك غسيلٍ إلى دعَّامتها تصدر رفرفة مُتقطِّعة كطلقات مُسدَّس، بل بدأت تدوِّي كمدفعٍ رشَّاش، وصار تمايل الدرَّاجة الثَّمِل أكثر رزانة. أغلق ريتشي عينيه وانتظر وقوع المحتوم.

ثم هتف بيل بعدها: «هيا يا سيلڤر، انطلقي!».

اكتسبت الدرَّاجة مزيدًا من السُرعة، وفي النهاية توقَّفت تمامًا عن الترنُّح. أرخى ريتشي قبضته المُستميتة على خصر بيل وأمسك بمُقدِّمة حامل الحاجيات المُثبَّت فوق العجلة الخلفية. عبر بيل شارع كانساس بميل، واندفع عبر الشوارع الجانبية بتسارُعٍ ثابت، قاصدًا شارع ويتشام كما لو كان يتسابق نزولًا على درجات سُلَّم. اندفعا خارجين كقذيفة من شارع ستراڤام إلى ويتشام بعجلة تسارع فادحة. مال بيل بسيلڤر برعونة إلى أحد جانبيها حتَّى كاد أن يُلامس الأرض، وزأر من جديد: «هيا يا سيلڤر!».

صرخ ريتشي: «اعتليها يا بيل الكبير»، وهو يشعر بخوفٍ كاسح وعلى وشك أن يبول في سراويله، لكن ضاحكًا مِلء شدقيه في الوقت نفسه، ثم أردف: «قف على هذه الطفلة!».

نفَّذ بيل ما قال، ووقف مُنحنيًا إلى المقابض وراح يدعس الدوَّاستين بوتيرة محمومة. بالنظر إلى ظهر بيل -الذي كان عريضًا بشكلٍ مُدهش بالنسبة إلى صبي في الحادية عشرة وعلى وشك بلوغ الثانية عشرة- ورؤية عضلاته تعمل باحتدام أسفل معطفه الصوفي، وكتفيه يميلان من جانب إلى آخر وهو ينقل وزنه من دوَّاسة إلى الأخرى، تأكَّد ريتشي فجأة أنهما منيعان ويتعذَّر إيذاؤهما... أنهما سوف يعيشان إلى الأبد. حسنًا، رُبَّما ليس كلاهما، لكن بيل سيعيش. إن بيل لا يملك أدنى فكرة عن مدى بأسه.. عن كم الثقة والكمال اللذين يسريان في عروقه.

واصل الصبيان إسراعهما عبر الطريق. بدأ عدد المنازل على الجانبين يقل، وصارت الطُرُق الجانبية التي تتقاطع مع شارع ويتشام على فواصل أبعد.

صاح بيل: «هيَّا يا سيلڤر!»، وصرخ ريتشي مُنتحلًا صوت جيم الزنجي: «أجل يا سيِّد، هذا صحيح! هيَّا يا سيلڤر. أنت تقود درَّاجتك الحبيبة للتفاخُر! فليرحمنا الرَّب! هيَّا يا سيلڤر، انطلقي!».

كانا يعبران حاليًا حقولًا خضراء تبدو كئيبة وضحلة تحت السماء الرمادية. استطاع ريتشي أن يرى مبنى محطَّة القطارات القديم في البُعد، وإلى يمينه المستودعات مصطفَّة في صفٍّ واحد. عبرت سيلڤر قافزة من فوق قضيب قطارٍ، ثم آخر.

ها هو شارع نيبولت يلوح قاطعًا الطريق إلى اليمين. هناك لافتة زرقاء أسفل لافتة الشارع تقول: محطَّة قطارات ديري. كانت صدئة ومعوجَّة، وأسفلها توجد لافتة أخرى أكبر بكثير صفراء لونها ومكتوبة بحروفٍ سوداء كبيرة بدت أشبه بتعليقٍ على محطَّة الحافلات ذاتها. كانت تقول: طريق مسدود.

انعطف بيل إلى شارع نيبولت، واقترب من الرصيف، ثم أنزل قدمه عليه مُعلنًا: «لنسير من هذه النُقطة».

انزلق ريتشي مُترجِّلًا من فوق الحامل بخليطٍ من الارتياح والنَّدم، وتمتم: «حسنًا».

سار الصبيان بطول الرصيف التشقِّق الذي تنمو الأعشاب فوقه. أمامهما، في ساحة القطارات، كان صوت مُحرِّك الديزل يتعالى، ثم ينخفض، قبل أن يبدأ الدورة من جديد، وترامى إلى مسمعيهما الرنين المعدني للوصلات التي تحتك معًا في تصادمها.

سأل ريتشي بيل: «هل أنت خائف؟».

قال بيل -الذي يدفع سيلڤر من مقبضيها أمامه- ناظرًا إلى ريتشي نظرة سريعة وهو يومئ: «أ-أجل، وأنت؟».

قال ريتشي: «بالتأكيد أنا خائف».

قال بيل لريتشي إنه سأل والده عن شارع نيبولت ليلة أمس. أخبره والده أن رجالًا كُثُر ممَّن يعملون في السكك الحديدة كانوا يقطنونه حتَّى نهاية الحرب العالمية الثانية. مُهندسون، وقُطَّاع تذاكر، وعُمَّال إشارة، وعُمَّال المحطَّة،

وشيَّالون. لقد ولَّت أيَّام الشارع المجيدة مع انحدار محطَّة القطارات.. ومع تقدُّم بيل وريتشي عبر الشارع، اتَّسعت المسافات بين المنازل وصارت أبعد وأقذر وأكثر رثاثة. كانت المنازل الثلاثة أو الأربعة الأخيرة على كلا الجانبين خاوية، وتكسو ألواح الخشب نوافذها وأبوابها، وتنمو النباتات والحشائش في حدائقها بُحرِّية. ثمَّة لافتة للبيع تخفق بشكلٍ بائس يبعث على الكآبة في الشرفة الأرضية لواحدٍ منها. في نظر ريتشي، بدا سنُّ اللافتة نحو ألف عام. انتهى الرصيف. الآن صارا يسيران فوق مسارٍ مُفلَّق تنمو الأعشاب من شقوقه مشعَّثة.

توقَّف بيل وأشار قائلًا بصوتٍ هادئ: «هـ-هـ-ها هو ذ-ذا».

في يومٍ من الأيام، كان المنزل 29 في شارع نيبولت منزلًا أنيقًا أحمر اللون ذو سقفٍ قرميدي مائل. فكَّر ريتشي أن مُهندسًا ما رُبَّما اعتاد العيش فيه فيما مضى. رجلٌ أعزب لا يرتدي سوى الچينز فحسب، ويمتلك الكثير من تلك القُفَّازات الكبيرة المُبطَّنة الصلبة، وخمس أو ست قُبَّعات مخطَّطة. رجُل يعود إلى منزله مرَّة أو مرَّتين كل شهر في إجازات تمتد ثلاثة أو أربعة أيَّام يقضيها في الاستماع إلى الراديو وهو يتسكَّع في حديقته. رجُلٌ أغلب طعامه مأكولات مقلية (ولا خضر رغم أنه يزرعها إلى أصدقائه)، ومن النوع الذي يُفكِّر في الليالي العاصفة في الفتاة التي هجرها[1].

الآن، بهت طلاء المنزل الأحمر واستحال ورديًّا مائعًا، وبدأ يتقشَّر ويتساقط في رُقعٍ قبيحة المنظر تُشبه القروح. أما النوافذ فعمياء، مُغطَّاة بألواح الخشب. مُعظم قرميد السقف قد سقط، ونمت الحشائش بشكل غزير على كلا جانبي المنزل، وتغطَّت حديقته بمحصول الهندباء البرِّية الأوَّل لهذا الموسم. إلى اليسار، ثمَّة سور خشبي مُرتفع، رُبَّما كان لونه أبيض ناصعًا يومًا ما، لكنه الآن استحال رماديًّا كئيبًا يتماشى مع لون السماء المُدلهمة، ويغوص كسكِّير في بعض موضعٍ بين الشُجيرات الرطبة الخفيض. في مُنتصف الطريق الذي يقطعه ذلك السور، استطاع ريتشي رؤية بستان وحشي من أزهار عبَّاد

(1) تلاعب لفظي يحمل إشارة إلى فيلم The Girl He Left Behind إنتاج 1956.

الشمس، تربو أطولها ارتفاعًا على خمسة أقدام. كان لها مظهر كريه مُنتفخ بالغرور لم يحبه ريتشي. مرَّ النسيم بينها فبدت الأزهار كأنها تتمايل هامسة بعضها إلى بعض: لقد جاء الأولاد، أليس هذا لطيفًا؟ مزيدٌ من الأولاد. أولادنا. ارتجف ريتشي من الفكرة.

عاين ريتشي المنزل في أثناء ما كان بيل يسند سيلڤر إلى شجرة دردار، وشاهد عجلة تبرز من وسط الزجاج السميك المُتناثر قرب الشُرفة الأرضية، فلفت نظر بيل إليها. أومأ بيل.. إنها الدرَّاجة ذات العجلات الثلاث التي ذكرها إدي في حكايته.

نظر الصبيان في كلا اتِّجاهي شارع نيبولت المهجور. كانت الجلبة التي يُحدثها مُحرِّك الديزل ما زالت ترتفع وتنخفض، ثم تبدأ من جديد. بدا الصوت كأنه مُعلَّقٌ بين السُحُب الغائمة الخفيضة كتعويذة ما. كان الشارع خاويًا على عروشه. استطاع ريتشي سماع الأصوات البعيدة السيَّارات العابرة في الطريق 2، لكنه لم يتمكَّن من رؤية أحدها.

علا أزيز مُحرِّك الديزل الهادر وخفت. علا وخفُت.

أومأت أزهار عباد الشمس العملاقة برزانة. صبيان طازجان، ولدان جيِّدان، ولدانا.

سأل بيل: «مـُ-مُـ-مُستعد؟»، فانتفض ريتشي قليلًا.

ثم قال: «أتعرف، كنت أُفكِّر لتوِّي أن آخر مجموعة كُتُب استعرتها من المكتبة قد حان موعد إرجاعها اليوم، رُبَّما يجب أن...».

- «كُـ-كُـ-كُف عن الهُـ-هُراء يا ر-ر-ريتشي. هل أ-أنت مُـ-مُستعد أم لـ-لـ-لا؟».

- «أظنُّ أنني كذلك»، قالها ريتشي عالمًا أنه لم يكُن مُستعِدًّا قط، وأنه لن يكون مُستعدًّا أبدًا لمثل هذا الحدث.

قطع الصبيان الحديقة المُتضخِّمة مُتَّجهين إلى الشُرفة.

قال بيل: «ا-ا-انظر هـ-هـ-هناك».

إلى أقصى اليسار، كان سور الشُرفة الخشبي يميل على مجموعة نباتات متشابكة، واستطاع الصبيان رؤية المسامير الصدئة التي تبرز منها. توجد

شُجيرات وردٍ هناك، لكن في حين أن الورود التي إلى يمين ويسار السور المائل مُتفتِّحة بشكلٍ تعوزه الحيوية، تلك المُحيطة بالسور والواقعة أمامه مدهوسة وميِّتة.

تبادل بيل وريتشي نظراتٍ مُتجهِّمة. كل ما رواه إدي يبدو حقيقيًّا بما يكفي. بعد مرور سبعة أسابيع، ما زالت الأدلة في مكانها.

سأل ريتشي صديقه: «أنت لا ترغب في الزحف أسفل الشُرفة حقًّا، أليس كذلك؟». كان يتضرَّع إليه تقريبًا.

– «بـ–بـ–بلى.. لكنـ–ني سـ–سأفعلها».

بصدرٍ مُنقبض، رأى ريتشي أن بيل يعني ما يقول تمامًا. لقد عاد ذلك الضوء الرمادي البرَّاق يشع من عيني بيلي بثبات، وثمَّة رغبة حازمة شاعت في خطوط وجهه جعلته يبدو أكبر سنًّا. فكَّر ريتشي: أظنُّ أنه ينوي قتله فعلًا، إن كان ما زال موجودًا هناك. قتله وقطع رأسه رُبَّما وحملها إلى والده وقول: «انظر، هذا ما قتل چورچي، الآن هلا تحدَّثت معي ليلًا كما اعتدنا؟ فقط تستطيع أن تحكي لي كيف كان يومك، أو من خسر منكم عندما أجريتم قرعة لتحديد من سيدفع ثمن قهوة الإفطار؟».

– «من...»، قالها ريتشي، لكن بيل لم يعد هناك. كان يلتف حول المكان قاصدًا الجهة اليُمنى للشُرفة، حيث المكان الذي لا بُدَّ أن إدي استخدمه للزحف تحتها. اضطر ريتشي للركض كي يلحق به، وكاد أن يسقط مُتعثِّرًا في الدرَّاجة الثلاثية المقلوبة بين الأعشاب التي تواصل تحلُّلها وغوصها في التُربة.

لحق به في أثناء ما كان يجلس القرفصاء ناظرًا أسفل الشُرفة. لم يكن ثمَّة سور عند هذا الطرف، فأحدهم –مُتشرِّد ما– قد نزعه مُتطفِّلًا منذ فترة طويلة ليحتمي أسفله من ثلج يناير أو مطر نوڤمبر البارد أو مطر الصيف الرعدي.

جلس ريتشي القُرفصاء جواره، وقلبه ينبض في صدره كقرع الطبول. لم يكن هناك شيء أسفل الشُرفة سوى أكوام من أوراق الأشجار المُنجرفة، وصُحُفٍ اصفرَّت أوراقها، وظلال.. ظلال لا حصر لها.

همس ريتشي: «بيل».

قال بيل: «مـ-مـ-ماذا؟». كان قد أخرج مُسدَّس والده الوالتر مرَّة أخرى، ثم بحرص فكَّ خزنة الرصاص من أسفل المقبض وأخرج أربع رصاصات من جيب سراويله ولقَّمها في الخزنة واحدة تلو الأخرى. راقب ريتشي الأمر مبهورًا، ثم أطلَّ ببصره أسفل الشُرفة من جديد. هذه المرَّة شاهد شيئًا آخر جعل معدته تتقلَّص بُعنف. لم يكن ريتشي صبيًّا أبله، وقد فهم أن ما يراه يكاد يؤكد رواية إدي بالكامل. إن شظايا الزُجاج المُتناثرة على أوراق الأشجار المُتحلِّلة أسفل الشُرفة تعني أن النافذة حُطِّمت من الداخل.. من القبو.

- «مـ-مـاذا؟». هكذا كرَّر بيل سؤاله رافعًا بصره إلى إدي. كان وجهه مُتجهِّمًا وشاحبًا كورقة بيضاء. بالنظر إلى ذلك الوجه، فقد ريتشي كل رغبة في مسعيهما.

ثم قال: «لا شيء».

- «هـ-هل سـ-ستأتي؟».

- «أجل».

زحف كلاهما أسفل الشُرفة.

لطالما أحب ريتشي رائحة الأوراق المُتحلِّلة، لكن لم يكن ثمَّة شيءٍ سار بشأن الرَّائحة هنا. بدت الأوراق إسفنجية الملمس أسفل كفَّيه ورُكبتيه، وقد حصل على انطباع بأن سُمك تلك الطبقة يصل إلى قدمين أو ثلاثة. فجأة راعه ماذا سيفعل إن امتدَّت يدٌ أو مخالب خارجة من وسط تلك الأوراق الكثيفة وأمسكت به.

تفحَّص بيل النافذة المكسورة. الشظايا متناثرة في كل مكان، والقطاع الخشبي الذي يفترض أن يتوسَّط المصراعين مطروحًا أرضًا مكسورًا إلى نصفين أسفل درجات الشُرفة، فيما يبرز الجزء العلوي من إطار النافذة كعظمة مكسورة.

قال ريتشي لاهثًا: «شيءٌ ضرب هذه النافذة اللعينة بقوَّة كاسحة». فأومأ بيل الذي أخذ ينظر الآن -أو يحاول النظر- إلى داخل القبو.

أزاحه ريتشي بكوعه كي يتمكَّن من النظر بدوره. كان القبو مُعتمًا وفوضويًّا بالأقفاص والصناديق، وأرضيته تُربة تنضح برائحة رطبة وعطنة، مثل الأوراق

المتحلِّلة. ثمَّة سخَّان مركزي يقبع إلى اليسار تخرج منه أنابيب أسطوانية إلى السقف المُنخفض. خلف ذلك، عند نهاية القبو، استطاع ريتشي رؤية سقيفة كبيرة بجوانب خشبية. في البداية ظنها ريتشي مربط فرس، لكن من يُبقي على جيادٍ في قبوٍ لعين؟ ثم أدرك أن في منزلٍ قديم كهذا لا بُدَّ أن السخان يعمل بالفحم لا الزيت، وبالتأكيد لم يُكلِّف أحدهم نفسه عناء تحديث السخان لأن لا أحد رغب في ابتياع المنزل. هذه التقفيصة الخشبية ذات الجوانب دولاب فحم. إلى أقصى اليمين، استطاع ريتشي رؤية سلالم الدرج التي تقود إلى الدور الأرضي.

الآن بدأ بيل يجلس أرضًا، حانيًا ظهره إلى الأمام.. وقبل أن يستوعب ريتشي ما ينتوي فعله تمامًا، اختفت ساقا صديقه وراء النافذة.

هسَّ ريتشي قائلًا: «بيل! ربَّاه! ماذا تفعل؟ اخرج من هنا!».

لم يرد بيل، وانزلق في طريقه كاشطًا معطفه الصوفي من أسفل ظهره في الخشب، وتجاوز بالكاد قطعة زجاج كبيرة كان يُمكن أن تقطعه قطعًا مُحترمًا. بعدها بثانية، سمع ريتشي صوت ارتطامه بالأرض الصلبة في الداخل.

– «سُحقًا لهذا التهوُّر»، هكذا تمتم ريتشي لنفسه وقد غلت دماؤه وهو ينظر إلى مُربَّع الظلام الذي اختفى صديقه بداخله. «بيل، هل جُننت؟».

جاءه صوت بيل يقول: «يـ–يـ–يمكنك البقاء حـ–حيث أنت يـ–يا ر–ر–ريتشي إذا ر–رغبت. ا–ا–احرس المـ–مدخل».

لكن ريتشي انقلب على بطنه وحشر ساقيه في نافذة القبو قبل أن تخونه أعصابه، آملًا ألا يجرح يديه أو يقطع بطنه بشظايا الزُجاج المكسور.

أمسك شيءٌ بساقيه، فصرخ.

همس بيل: «هـ–هـ–هذا أنا فـ–فحسب»، وبعد لحظة كان ريتشي يقف إلى جواره داخل القبو، يُعيد هندام قميصه وسُترته. «مـ–مـ–من حسبت أنه يُـ–يُمسكك؟».

قال ريتشي وهو يضحك بعصبية: «البُعبُع».

– «ا–ا–اذهب فـ–في ذلك الا–ا–اتِّجاه وسـ–سـ–سأذهب إلى...».

قاطعه ريتشي: «قطعًا لا». كان قادرًا على سماع نبضات قلبه الواجف في

صوته، التي جعلته مُرتعشًا ومُتحشرجًا، بدأ مُرتفعًا ثم انخفض بعد ذلك، «سألزم جانبك يا بيل الكبير».

اتَّجها إلى دولاب الفحم أوَّلًا، بيل يتصدَّرهما قليلًا حاملًا المُسدَّس، وريتشي خلفه تمامًا يحاول النظر في كل الاتِّجاهات في الوقت ذاته، وقف بيل هنيهة مُستندًا بظهره خلف أحد جوانب دولاب الفحم البارزة، ثم قفز قبالتها فجأة مُشهرًا مُسدَّسه أمامًا بكلتا يديه. أغلق ريتشي عينيه بقوَّة، مُهيِّئًا نفسه لدوي الرصاص، لكنه لم يأتِ، ففتح عينيه بحذرٍ مُجدَّدًا.

قال بيل وهو يقهقه بعصبية: «لـ-لـ-لا شـ-شـ-شيء سوى الفـ-فحم».

خطا ريتشي إلى جوار بيل ونظر. كان هناك ركام فحم قديم داخل الدولاب، مُكدَّسٌ في كومة تصل إلى السقف تقريبًا، وقد تساقط بعضه عند قدميهما. كان أسود بلون أجنحة الغربان.

همَّ ريتشي بالقول: «دعنا...».

في تلك اللحظة، تهشَّم الباب الموجود أعلى سلالم القبو مفتوحًا، وضرب الجدار المُقابل في انفجارٍ عنيف، سامحًا لخيوط رقيقة من الضوء الأبيض أن تغمُر درجات السلم.

صرخ الصبيان.

سمع ريتشي أصوات زمجرة. كانت عالية جدًّا، وتشبه الأصوات التي يُصدرها حيوانٌ برِّيٌّ مُفترس في الأسر. ثم شاهد حذاءين يهبطان الدرج، ومن فوقهما سراويل چينز بهت لونها، ويدين مُتأرجحتين...

لكنهما لم تكونا يدين بشريتين، بل كفَّان مخلبيَّان.

كفَّان مخلبيان كبيران شائهان.

كان بيل يصرخ: «تـ-تـ-تسلَّق الفـ-فـ-فحم»، لكن ريتشي تجمَّد مكانه بلا حراك، وقد أدرك فجأة ما الذي يقترب نحوهما، ما الذي سيقتلهما في ذلك القبو العفن الذي تفوح منه رائحة التُّربة الرطبة والخمر الرخيص المسكوب في الأركان. كان يعلم كنهه لكنه أراد أن يراه. «هـ-هـ-هناك نـ-نـ-نافذة أ-أ-أعلى كومة الفـ-فحم!».

كان الكفَّان يكسوهما شعرٌ بُنيٌّ مُجعَّد كثيف وملفوف كالأسلاك،

والأصابع تنتهي بمخالب مسنونة كالمسامير. الآن رأى ريتشي السُترة الحريرية. كانت سوداء وتقطعها خطوطٌ برتقالية... تلك ألوان زيِّ مدرسة ديري الثانوية.

صرخ بيل: «تـ-تـ-تسلق!»، وعالج ريتشي بدفعة هائلة. انبطح ريتشي فوق الفحم، وطعنته حوافه ونتوءاته الحادة في جميع جسده بصورة مؤلمة، ما كسر ذهوله. تساقط مزيدٌ من الفحم على كفَّيه، بينما الزمجرة المسعورة تستمرُّ بغير انقطاع.

أرخى الهلع خِماره على عقل ريتشي.

تسلَّق ريتشي جبل الفحم بالكاد واعيًا بما يفعله. اكتسب أرضًا.. انزلق خلفًا.. ثم اندفع صاعدًا من جديد وهو يصرخ في تقدُّمه. كانت النافذة أعلى الكومة مُتَّسخة بسواد غُبار الفحم، ولا تسمح بمرور أدنى شعاع ضوء. أيضًا كانت موصدة بمزلاج. استولى ريتشي على المزلاج، الذي كان من النوع الذي يُدار، وألقى بجُل وزنه عليه. لم يتحرَّك المزلاج قيد أنملة، وصارت الزمجرة أقرب الآن.

دوى صوت المُسدَّس من أسفله، وكان صوتًا يصم الآذان في هذه المساحة المُغلقة. لسع دُخان العيار الناري الحاد واللاذع أنف ريتشي، وقد أدَّت الصدمة إلى شحذ وعيه نوعًا ما، وأدرك أنه يدير المزلاج في الاتِّجاه الخاطئ. عَكَس ريتشي اتِّجاه القوة التي يبذلها، فاستسلم المزلاج بنحيبٍ صدئٍ طويل. تساقط غبار الفحم على يديه كمسحوق الفلفل الأسود.

دوى رصاص المُسدَّس بهديرٍ ثانٍ يصم الآذان. تعالت صرخة بيل دِنبروه: «لقد قتلت أخي أيُّها البغيض!».

للحظة عابرة، بدا المخلوق الذي يهبط الدرج كأنه يضحك، كأنه يتكلَّم.. كان الأمر كأن كلبًا مسعورًا بدأ ينبح فجأة بكلماتٍ مشوَّهة، وللحظة خاطفة ظنَّ ريتشي أن المخلوق الذي يرتدي سُترة المدرسة الثانوية يردُّ مزمجرًا بدوره: أنا آتٍ لقتلك أيضًا.

صرخ بيل مُناديًا بعدها: «ريتشي»، وسمع ريتشي صوت ركام الفحم ينزلق ويتساقط من جديد مع تسلُّق بيل المتعجِّل له. لم تنقطع الزمجرة أو الزئير..

تكسَّر الخشب.. تعالت أصوات عويل ونباح مُختلطة.. أصوات خارجة من كابوسٍ بارد مُقَشعِر.

عالَج ريتشي النافذة بدفعة هائلة، غير عابئٍ أن يتحطَّم الزجاج مُقطِّعًا يديه إلى نسائل. كان قد جاوز المدى ولم يعد يعبأ بشيء. لكن النافذة لم تنكسر، بل انفتحت على مصراعيها إلى الخارج مُلتفَّة على مفصَّلات بالية فتَّتها الصدأ. تغربل مزيدٌ من غبار الفحم وسقط فوقه، هذه المرَّة على وجهه.

تلوَّى ريتشي وشق طريقه إلى الخارج مُتعرِّجًا مُتملِّصًا كالأنقليس، مُستنشقًا الهواء النقي العذب، مُستشعرًا أعواد العُشب الطويلة على وجهه. أدرك ريتشي نصف واعٍ أنها تُمطر، واستطاع رؤية سيقان أزهار عبَّاد الشمس العملاقة الغليظة، خضراء ومُشعِرة.

دوَّت قعقعة مُسدَّس الوالتر مرَّة ثالثة، وصرخ الوحش الآتي من القبو صرخة بدائية يملؤها غضبٌ هائل. بعدها صرخ بيل: «لقد أ-أمسكني يا ريتشي! الحقني! لقد أ-أ-أمسكني!».

استدار ريتشي وهو جاثٍ على يديه ورُكبتيه، ورأى وجه صديقه المذعور المُلوَى إلى أعلى من نافذة القبو الكبيرة المُربَّعة التي نُقلت حمولة فحم الشتاء عبرها في أكتوبر من كل عام.

كان بيل مُستلقيًا على ظهره فوق الفحم.. ساقاه مُتباعدتان ويداه تحاولان التشبُّث دون جدوى بإطار النافذة الذي يبعد عن متناوله بالكاد، بينما قميصه ومعطفه قد شُلحا إلى مُنتصف قفصه الصدري تقريبًا. كان ينزلق إلى أسفل... لا، بل يُجذب إلى أسفل بواسطة شيءٍ يقع بالكاد في مجال إبصار ريتشي.. ظِلٍّ متحرِّكٍ مستكثرٍ خلف بيل.. ظلٍّ مُزمجرٍ بربري يبدو بشريًّا تقريبًا.

لم يكن ريتشي في حاجة إلى رؤيته. فقد رآه السبت الماضي على شاشة سينما علاء الدين. كان الأمر جنونيًا.. جنونيًا تمامًا.. لكن حتَّى مع ذلك لم يخطر ببال ريتشي أن يشك في رجاحته العقلية أو في استنتاجه.

لقد قبض المُستذئب المراهق بيل دِنبروه، لكنه لم يكن مايكل لاندون بتنميقٍ على وجهه والكثير من الشعر المُستعار.. إنه حقيقي.

وكأنما ليثبت له صحة استنتاجه، صرخ بيل مُجدَّدًا.

مدَّ ريتشي يده عبر الفتحة وأمسك بكفَّي بيل بين راحتيه. كان المُسدَّس في إحداهما، وللمرَّة الثانية وجد ريتشي نفسه ينظر إلى فوَّهته السوداء... فقط هذه المرَّة كان محشوًا بالرصاص.

تصارع الاثنان على بيل. ريتشي يجذبه من ذراعيه، والمُستذئب يقبض كاحليه.

صرخ بيل: «ا-ا-اهرب من هـ-هـ-هنا يا ريتشي! اهـ-اهـ...».

خرج وجه المُستذئب من الظلام إلى الضوء. كانت جبهته ضيِّقة وبارزة، ومُغطَّاة بنُدفٍ شحيحة من الشعر. كانت وجنتاه غائرتين ومُشعرتين، وعيناه بُنِّيتين غامقتين، ويملأهما ذكاءٌ مريع ووعيٌ مُفزع. انفتح فم الشَّيءِ وبدأ يصرخ. سال خيطان من الزبد الأبيض من شفته السُفلى الغليظة والتحما مُتقاطرين من ذقنه. كان شعر رأسه مسحوبًا إلى الوراء في مُحاكاة بشعة لقَصَّة «مؤخِّرة البطَّة» التي يُفضِّلها المُراهقون. أرجع الشَّيءُ رأسه إلى الوراء وزأر، دون أن تُفارق عيناه عيني ريتشي.

تدافع بيل أعلى كومة الفحم. أحكم ريتشي إمساك معصميه وسحبه إلى أعلى. للحظة عابرة ظن أنه بالفعل يفوز، ثم وضع المُستذئب قبضتيه على ساق بيل من جديد ووجد ريتشي نفسه يُساق نحو فوَّهة الظلام مرَّةً أخرى. كان الشَّيءُ أقوى هذه المرَّة، لقد أمسك بيل، وعزم أن يكون له.

ثم بعدها، ودون أدنى وعي بما يفعل ولا لماذا يفعله، سمع ريتشي صوت الشُرطي الأيرلندي يخرج من فمه.. صوت السيِّد نيل. لكنه هذه المرَّة لم يكن مُحاكاة سيِّئة، ولم يكن أيضًا صوت السيِّد نيل بالتحديد، بل صوت كل شُرطي دورية أيرلندي الأصل وُجِد يومًا، ممَّن يطوِّحون بهرَّاواتهم من أحزمتها الجلدية المدبوغة وهم يتفحَّصون أبواب المتاجر المُغلقة بعد مُنتصف الليل.

- «اتركه يا الغلام وإلا سأكسر لك رأسك الغليظ! أقسم بالمسيح الحي! أفلته الآن وإلا سأُقدِّم لك ردفيك على طبق كبير يساعها!».

أطلق المخلوق الرَّابض في القبو زئيرًا غاضبًا يصمُّ الآذان، لكن بدا لريتشي أن ثمَّة نغمة أخرى في ذلك الخوار.. خوف رُبَّما.. أو ألم.

شدَّ ريتشي صديقه شدَّة عنيفة أخيرة، فطار بيل خارجًا من النافذة وسقط

على العشب. حدَّق الصبي في ريتشي بعينين داكنتين يملأهما الهلع، وكان صدر معطفه غارقًا في رماد الفحم الأسود.

قال لاهثًا: «أ-أ-أسرِع!». كان يئن تقريبًا وهو يقولها، ثم أمسك ريتشي من قميصه مُردفًا: «يـ-يـ-يجب أن نـ-نـ-نـ...».

استطاع ريتشي سماع ركام الفحم يتداعى مُتساقطًا من جديد، وبعد لحظة ملأ وجه المُستذئب فتحة نافذة القبو. زمجر الشيء فيهما، وأنشب كفَّيه المخلبيين في العُشب الواهن.

كان مُسدَّس الوالتر ما زال في حوزة بيل؛ لقد ظل مُتشبِّثًا باستماتة بالسلاح طوال المواجهة. الآن أمسكه بكلتا يديه، وضيَّق عينيه، وضغط الزناد. دوى هديرٌ صامٌ آخر. شاهد ريتشي جزءًا من جمجمة المُستذئب يطير بعيدًا، وتدفَّق تيَّار دماء على جانب وجهه مُلبِّدًا كتل شعره ومُغرقًا ياقة السُترة المدرسية التي يرتديها.

بزئيرٍ مروِّع، تسلَّق المخلوق خارجًا من النافذة.

مدَّ ريتشي يده ببطء وشرودٍ حالم إلى جيبه الخلفي، وأخرج المظروف الذي تتصدَّر غلافه صورة رجُلٍ يعطس. فتحه مُمزِّقًا طرفه فيما كان المخلوق الهادر يجذب نفسه خروجًا من النافذة، ويشق طريقه بمخالب تحفُر أخدودين عميقين في التُربة. مزَّق ريتشي المظروف فاتحًا إيَّاه واعتصره وهو يصيح آمرًا بلكنته الأيرلندية: «عُد إلى جُحرك أيُّها الغلام!». انفجرت سحابة بيضاء في وجه المستذئِب، فتوقَّف زئيره في التوِّ. نظر الشَّيءُ إلى إدي في اندهاشٍ هزلي تقريبًا، وأصدر صوتًا حلقيًا مُختنقًا. مالت عيناه الحمراوان الغائمتان إلى ريتشي، وبدتا كأنهما توصمانه مرَّة واحدة وإلى الأبد.

ثم بدأ يعطس.

راح الشَّيءُ يعطس مرارًا وتكرارًا. تطايرت خيوط لعاب لزج من شدقيه، واندفعت كُتل مخاط أخضر غامق مُتخثِّرة من منخريه، وسقطت واحدة منها على جلد ريتشي وحرقت موضعها كالحمض. مسحها الصبي سريعًا وهو يصرخ من الألم والاشمئزاز.

كان ثمَّة غضبٌ ما زال يلوح في وجه الشَّيءِ، لكن ثمَّة ألم أيضًا لا تُخطئه

العين. قد يكون بيل آذاه بمُسدَّس والده، لكن ريتشي آذاه أكثر... في البداية بصوت الشُرطي الأيرلندي، وبعدها بمسحوق العطس.

يا للمسيح، لو كان معي بعض من مسحوق الحكَّة ورُبَّما طنَّان كهربائي خادع لرُبَّما استطعت قتله. هكذا فكَّر ريتشي قبل أن يمسكه بيل من ياقة سُترته وينخعه بقوَّة إلى الخلف.

وحمدًا لله أنه فعل ذلك. لقد توقَّف المُستذئب عن العطس في الوقت نفسه واندفع فجأة أمامًا إلى ريتشي. كان سريعًا.. سريعًا بشكل لا يُصدَّق.

في الغالب كان ريتشي سيظل جالسًا في مكانه مُمكسًا بمظروف مسحوق د، واكي للعطس، ويرمق المُستذئب بولهٍ شاردٍ متأمِّلًا حُمرة دمائه وفراءه البُنِّي، ويُفكِّر كيف أن الحياة الحقيقية ليست بالأبيض والأسود كما الأفلام. رُبَّما كان سيقف مكانه حتَّى تلتفُّ يدا الشَّيءِ حول عنقه وتنغرس أظافره الطويلة عميقًا في حلقه منتزعة حنجرته.. لكن بيل جذبه مرَّة أخرى وأوقفه على قدميه.

تعثَّر ريتشي في أثره، وركضا إلى مُقدِّمة المنزل، وراح ريتشي يُفكِّر: لن يجرؤ على مُطاردتنا بعد الآن، إننا في الشارع. لن يجرؤ على مُطاردتنا، لن يجرؤ، لن يجرؤ...

لكنه جرؤ.. وكان آتيًا. استطاع ريتشي سماعه خلفه بالكاد، يهذرم ويزمجر ويرغي ويزبد.

ها هي سيلفر ما زالت مُتَّكِئة إلى الشجرة. قفز بيل إلى مقعدها وألقى بمُسدَّس والده في سلَّة الحاجيات التي حملوا فيها أسلحة وبنادق زائفة عديدة من قبل. غامر ريتشي وألقى نظرة خاطفة وراءه وهو يقذف جسده على الحامل الخلفي، ورأى المُستذئب على بُعد أقل من خمسة وعشرين قدمًا يعبر الحديقة مُتَّجهًا نحوهما. كان اللعاب مختلطًا بالدماء على سُترة المدرسة الثانوية التي يرتديها، والتمعت شظية من عظم أبيض على صدغه في ضوء الشمس، ولَطخ المسحوق الأبيض متناثرة علَى جانبي أنفه. لاحظ ريتشي شيئين آخرين بديا كأنهما يُكملان الصورة المُرعبة: لم يكن يوجد سحَّاب على صدر سُترة الشَّيء، بل أزرار كبيرة بُرتقالية أشبه بكُريات الزغب. الشيء

الآخر كان أسوأ، وجعل ريتشي يشعر أنه على وشك فقدان وعيه، أو رُبَّما الاستسلام وتركه يقتله. ثمَّة اسم مُطرَّز بخيوطٍ ذهبية على سترته، كالشعارات التي تستطيع تطريزها على ملابسك في متجر ماشن الحائك مُقابل دولارٍ.

على صدر سُترة المُستذئب الأيسر، مُلطَّخًا بمزيج الدماء واللعاب، يوجد الاسم: ريتشي توزييه.

انطلق الشَّيءُ نحوهما.

صرخ ريتشي: «تحرَّك يا بيل».

بدأت سيلڤر في التحرُّك، لكن ببطء.. ببطءٍ شديد، واستغرق الأمر من بيل وقتًا طويلًا كي يُكسبها سُرعة...

عبر المُستذئب الممرَّ الوعر في الوقت الذي قاد فيه بيل درَّاجته إلى مُنتصف شارع نيبولت. رأى ريتشي -الذي تتناثر الدماء على سراويله الچينز الباهت- وهو ينظر من فوق كتفه، وهو مأخوذ بنوعٍ من الافتتان المروَّع أقرب إلى تنويم إيحائي، أن الشقوق في نسيج الچينز تبرزُ من أسفلها نُدفٌ من الفراء البُنِّي الخَشن.

ترنَّحت سليفر بجنون ذهابًا وإيابًا. كان بيل يقف فوق الدوَّاستين، ويمسك بمقبضي المقود من الأسفل، ورأسه مرفوع نحو السماء الغائمة، وتبرز العروق جليَّة في عنقه، ومع ذلك، كانت أوراق الكوتشينة تُرفرف بصوتٍ مُتقطِّع كطلقات مُسدَّس.

تلمَّس كفُّ الشَّيءِ رأس ريتشي. صرخ الصبي بشكلٍ بائس وانحنى ليتفاداه. خار المُستذئب وابتسم. كان قريبًا من ريتشي لدرجة أنه استطاع رؤية قرنيتيه الصفراوين، واشتمَّ رائحة اللحم المُتعفِّن المنبعثة من أنفاسه. كانت أسنانه أنيابًا معقوفة.

صرخ ريتشي ثانيةً عندما طوَّح الشَّيءُ مخالبه نحوه. كان مُتأكِّدًا من أنها ستقتلع رأسه، لكن المخالب عبرت أمامه وأخطأته بما لا يزيد على بوصة واحدة.

صرخ بيل بأعلى صوته: «هيَّا يا سيلڤر.. انطلقـــــــــــــــــــي!».

كان قد بلغ قمة تلَّة قصيرة مُسطَّحة قليلًا. لم تكن ذات شأنٍ، لكنها كافية

لإعطاء سيلفر دفعة جيِّدة. ازدات سرعة رفرفة أوراق الكوتشينة وبدأت تهدر. دعس بيل الدوَّاستين بجنون. توقَّفت سيلفر عن الترنُّح وشقَّت طريقها في مسارٍ مُستقيم أسفل شارع نيبولت مُتَّجهة إلى الطريق 2.

أخذ عقل ريتشي يُردِّد بطريقة مشوَّشة.. حمدًا لله، حمدًا لله، حمدًا لله، حمدًا...

زأر المُستذئب مرَّة أخرى! أوه، ربَّاه، إن صوته يبدو كأنه جانبي تمامًا! وفجأة انغلق مجرى الهواء في حلق ريتشي عندما انجذب قميصه وسُترته إلى الخلف وضغطا بلعومه. أصدر ريتشي غرغرة مُختنقة وتمكَّن من الإمساك بخصر بيل في اللحظة الأخيرة قبل أن يُسحب إلى الوراء من فوق الدرَّاجة. مال بيل خلفًا لكنه ظلَّ مُتشبِّثًا بمقود سيلفر. للحظة، ظن ريتشي أن مقدِّمة الدرَّاجة الضخمة سترتفع وستلقي بكليهما إلى الخلف، لكن معطفه القديم البالي انشقَّ من أسفل ظهره بتمزُّقٍ صاخبٍ غريبًا جدًّا كأنه ضرطة كبيرة، واستطاع ريتشي استنشاق الهواء من جديد.

نظر ريتشي خلفه ووجد نفسه يُحدِّق مُباشرةً إلى تلك العينين الغائمتين القاتلتين.

حاول أن يعوي قائلًا: «بيل!»، لكن لم تكن لكلمته قوَّة، ولا صوت.

لكن بدا أن بيل سمعه رغم ذلك، لأنه بدأ يدعس الدوَّاستين بعُنفٍ أكثر وأكثر من أيِّ وقتٍ مضى في حياته. كان يشعر بأن أمعاءه كلها انفرط وثاقها وتصعد إلى حلقه. استطاع الشعور بمذاق الدم الصدئ في حنجرته، وكادت عيناه أن تقفزان من محجريهما، وانفتح فمه ليعب الهواء عبًّا، ومع كل ذلك غمره شعورٌ بهيج مجنون يتعذَّر مقاومته.. شعورٌ جامح غير مُقيَّد سيطر عليه بالكامل.. نُزُوعٌ ما.

اعتدل بيل واقفًا فوق دوَّاستي الدرَّاجة ماهكًا إيَّاهما.. قاصفًا إيَّاهما.

واصلت سيلفر اكتساب السُّرعة. لقد بدأت تمتلك الطريق الآن.. بدأت تُحلِّق.. واستطاع بيل الشعور بها.

صرخ الفتى من جديد: «هيَّا يا سيلفر، انطلقي... هيَّا يا سيلفر، انطلقـــــــــــــــــــــي!».

كان ريتشي يسمع قعقعة حذاء المخلوق الرياضي الخابطة السريعة وهو يركض فوق الأرض المليئة بالحصى، والتفت إلى الوراء. ضربه كفٌّ المُستذئب فوق عينيه بقوَّة كاسحة، وللحظة ظن ريتشي أن أعلى رأسه اقتُلع من مكانه. فجأة بدأت الموجودات تخفت وتصير غير ذات أهمِّية. خفتت الأصوات بدورها، وأخذت تروح وتجيء. تلاشت الألوان من العالم حوله. أرجع ريتشي رأسه، وتمسَّك بقنوط بجسد بيل، والدماء تسيل دافئة فوق عينه اليُمنى. كانت تلسع.

طار الكفُّ المخلبي من جديد، لكنه ضرب الرفرف الخلفي هذه المرَّة. شعر ريتشي بالدرَّاجة تتمايل بجنون، وللحظة كادت أن تنقلب على جانبها، لكنها شدَّت عودها واستقامت في النهاية مرَّة أخرى. صرخ بيل هيَّا يا سيلڤر انطلقي! مرَّة أخيرة، لكن صوته كان بعيدًا جدًا، كرجع صدى يتردَّد طويلًا قبل أن يذوي.

أغلق ريتشي عينيه وتمسَّك ببيل مُنتظرًا النهاية.

14

سمع بيل بدوره صوت الخطوات الراكضة وأدرك أن المُهرِّج لم يستسلم بعد، لكنه لم يجرؤ على الالتفات والنَّظر. سيعرف إذا لحق به وأسقطه أرضًا، هذا كل ما كان يريد معرفته الآن.

هيَّا يا فتاة. أعطيني كل ما عندك! كل ما في جعبتك! امضي يا سيلڤر! امضي!

هكذا وجد بيل دِنبروه نفسه مرَّة ثانية يسرع ليسبق الشيطان، فقط هذه المرَّة كان الشيطان مُهرِّجًا يتنسم ببشاعة ووجه مُلطَّخ بالأصباغ البيضاء الملوَّثة بالعرق، وفمه مشدود إلى أعلى في ابتسامة حمراء شبقة كابتسامة مصَّاصي الدماء، وعيناه عُملتان فِضِّيتان لامعتان. كان مُطارده مُهرِّجًا يرتدي -لسببٍ ما مخبول- سُترة مدرسة ديري الثانوية فوق حُلَّة فِضِّية تعلو صدرها أزرار هي كُريات زغبية بُرتقالية.

هيَّا يا فتاة.. انطلقي.. ما رأيك؟

راح شارع نيبولت يذوي من خلفه الآن. لقد بدأت سيلڤر في شق الهواء بشكل جيِّدٍ الآن. هل ابتعد وقع تلك الخطوات الراكضة قليلًا؟ ما زال لا يجرؤ على النظر. كان ريتشي يقبضه قبضة موتٍ مُستميتة. كان بيل يُكافح من أجل الهواء، وأراد إخبار ريتشي أن يرخي قبضته قليلًا، لكنه لم يجرؤ على تبديد أنفاسه على هذا الأمر أيضًا.

ها هي علامة التوقُّف التي تؤم تقاطع شارع نيبولت بالطريق 2، مُعلَّقة مكانها كحلمٍ جميل. السيَّارات تغدو جيئةً وذهابًا في شارع ويتشام. بدا مرأى كل هذا أشبه بمعجزة في نظر بيل وهو في هذا الوضع المُزري من الرعب.

الآن، وبما أنه كان سيستعمل المكابح بعد لحظات (أو سيُفكِّر في أمرٍ ما مُبتكر)، خَاطَرَ بيل بالنظر من فوق كتفه.

ما رآه جعله يضغط مكابح سيلڤر بتهوُّرٍ غير محسوب. انزلقت سيلڤر فوق الأسفلت، واحتكَّ مطَّاط عجلتها الخلفية بالأرض الخشنة، وارتطمت رأس ريتشي في كتف بيل الأيمن بشكلٍ مؤلم.

كان الشارع من خلفه خاويًا بالكامل.

لكن على بُعد نحو خمس وعشرين ياردة، عند أوَّل المنازل المهجورة التي تُشكِّل موكبًا جنائزيًا ما يقود إلى ساحة القطارات، كان هناك هبوٌّ بُرتقاليٌّ لامعٌ قرب مصرف الأمطار المحفور في جانب الرصيف.

- «آآآآه...».

أدرك بيل مُتأخِّرًا جدًّا أن ريتشي ينزلق من مؤخِّرة سيلڤر. كان بؤبؤا عيني ريتشي غائبين تمامًا، واستطاع بيل فقط أن يرى حافَّتي قزحيتيه السُفليتين الباديتين من تحت جفنيه العلويين.

أمسكه بيل من ذراعه، وانزلق كلاهما إلى اليمين، فاختلَّ توازن سيلڤر. سقط الصبيان وارتطما بالأرض في تشابكٍ من الأذرع والسيقان. جلط بيل كوعه جلطة مُحترمة وصرخ من الألم، ورمشت عينا ريتشي من جراء الصوت.

ثم قال في غطيطٍ لاهث: «سأبيِّن لك كيف تحصل على ذلك الكنز يا سنيور، لكن احذر لأن هذا الرَّجُل المُدعى دوبس خطرٌ جدًّا». كان هذا صوت بانشو ڤانيلا، لكن تفكُّكه أخاف بيل بشدَّة.

رأى بيل شعراتٍ بُنِّية خشنة عديدة عالقة بالجرح السطحي على جبهة ريتشي. كانت مُجعَّدة قليلًا، كشعر عانة والده. ضاعفت هذه الشعرات من خوفه، وجعلته يعالج ريتشي بلطمة قويَّة على الرأس.

صرخ ريتشي: «آي!»، ورمشت عيناه، ثم فُتحتا عن اتِّساعهما وهو يردف: «لِمَ تضربني يا بيل؟ سوف تكسر نظَّارتي. إن حالتها ليست جيِّدة تمامًا على أيِّ حال إن كنت لم تلحظ».

قال بيل: «ظـ-ظـ-ظننتك تـ-تـ-تموت أ-أ-أو شيئًا كـ-كهذا».

اعتدل ريتشي ببطء فوق الأسفلت واضعًا يده على رأسه، وتأوَّه قائلًا: «ماذا حـ...» ثم تذكَّر بعدها. اتَّسعت عيناه في صدمة مُفاجئة وذُعرٍ تام وزحف في أرجاء المكان على رُكبتيه وهو يلهث بخشونة.

صاح بيل: «ا-ا-اهدأ، لقد ذ-ذ-ذهب يا ر-ر-ريتشي. لـ-لـ-لقد ذ-ذهب».

شاهد ريتشي الشارع الخاوي الذي لا حياة فيه وانفجر باكيًا بغتةً. حدَّق بيل إليه لحظة ثم وضع ذراعيه حوله واحتضنه. تشبَّث ريتشي بعُنُق بيل وعانقه بدوره. كان يُريد أن يقول شيئًا مُتذاكيًا، شيئًا عن كيف كان يجب على بيل تجريب استخدام النِبلة على المُستذئب، لكن أبت الكلمات أن تخرج من فمه، ولم ينضح سوى بالعبرات.

قال بيل: «هوِّن عليك يا ريتشي، هوِّن...»، ثم انفجر باكيًا بدوره.

ظلَّ الاثنان في عناقٍ طويل جاثيان على رُكبتيهما فوق أرض الشارع بجوار درَّاجة بيل المقلوبة، وخطَّت الدموع خطوطًا نظيفة على وجهيهما اللذين لوَّثهما رماد الفحم.

الفصل التَّاسع

تنظيف

1

في مكانٍ شمال ولاية نيويورك في عصر يوم 29 مايو من عام 1985، بدأت بيفرلي مارش تضحك من جديد. خنقت بيفرلي ضحكها بكلتا يديها، خائفة أن يظنها أحدهم مجنونة، لكنها لم تقوَ على كبح جماح نفسها تمامًا.

فكَّرت بيفرلي: اعتدنا أن نضحك كثيرًا آنذاك. كان هذا ضوءٌ آخر يومض في ظلام ذكرياتها. كنا خائفين طوال الوقت، لكننا لم نستطع التوقُّف عن الضحك، مثلما لا أستطيع التوقُّف عنه الآن.

كان الرَّجُل الجالس إلى جوارها في المقعد المجاور للممر يافعًا، وطويل الشعر، وحسن المظهر. راح يختلس إليها نظراتٍ عديدة مُعجبة منذ أن أقلعت الطائرة من مدينة ميلواكي في الثانية والنصف ظهرًا (وقد مرَّ على ذلك ساعتان ونصف مع توقُّفهم في كليفلاند مرَّة، وفي فيلي مرَّةً أخرى)، لكنه احترم رغبتها الواضحة في عدم الكلام.. وبعد أكثر من محاولة لفتح نقاش صدَّتها بيفرلي بكياسة، فتح الشَّاب حقيبته وأخرج منها رواية لروبرت لودلوم.

الآن أغلق الكتاب، واضعًا إصبعه حيث توقَّف، وقال بنبرة يشوبها بعض القلق: «هل كل شيء على ما يُرام؟».

أومأت محاولة أن ترسم بعض الجديَّة على ملامحها، فقط لتفلت منها ضحكات شاخرة أخرى. ابتسم الرَّجُل قليلًا شاعرًا بالحيرة، والفضول.

– «لا شيء»، قالتها وهي تحاول أن تبدو جادة مرَّةً أخرى، لكن بلا جدوى، فكلما حاولت أن ترسم الجدِّية على ملامحها، يفضحها وجهها أكثر

وتنفرج أساريره. تمامًا كالأيَّام الخوالي. «كل ما هنالك أنني أدركت فجأة أنني لا أعلم على متن أيِّ خطوطٍ جويِّة أرتحل الآن. كل ما أعرفه أن هناك شعار بطـ-ههه-بط-ههههه-بطة كبيرة على جـ-ههههه-جانبها...». كانت الفكرة تفوق قدرتها على التحمُّل، فانفجرت في عاصفة من الضحك المرح. الناس من حولها نظروا إليها، وكان بعضهم عابسًا.

قال لها: «الجمهورية».

- «عفوًا؟!».

- «أنتِ تُحلِّقين في الجو بسُرعة أربعمئة وسبعين كيلومترًا في الساعة في ضيافة الخطوط الجوِّية الجمهورية. الاسم مكتوب على غُلاف كُتيِّب الـ قاف ميم ميم في جيب المقعد».

- «قاف ميم ميم ؟».

سحب الرَّجُل الكُتيِّب الذي يحمل شعار الخطوط الجمهورية بالفعل على غُلافه الأمامي من جيب المقعد. كان يستعرض أماكن مخارج الطوارئ، ومواقع مُعدات الطفو، وكيفية استخدام أقنعة الأكسجين، وكيفية تقدير موقع تحطُّم الطائرة، وقال: «كُتيِّب قبْل مُؤخِّرتك مُوَدِّعًا». هذه المرَّة انفجر كلاهما ضاحكًا.

إنه وسيم حقًّا، هكذا وجدت بيڤرلي نفسها تُفكِّر فجأة. بدت الفكرة طازجة ووضَّاحة، من تلك الأفكار التي قد تتوقَّع أن تأتيك عند استيقاظك من النوم، عندما يكون عقلك ما زال صافيًا. إنه يرتدي بولوڤر فوق سراويل چينز باهتة، وشعره الأشقر الداكن معقوص إلى الوراء بسوارٍ من الجلد، وقد جعلها هذا تتذكَّر ذيل الحصان الذي كانت تزمُّ شعرها فيه إبَّان طفولتها.. ومرَّة أخرى وجدت نفسها تُفكِّر: أراهن أنه يمتلك قضيبًا أنيقًا مُهذَّبًا.. طويلًا بما يكفي ليعزف جيِّدًا، وغير سميك بحيث لا يسمح له بأن يصير مُتعجرفًا.

بدأت تضحك من جديد، فاقدة السيطرة على نفسها تمامًا، وأدركت أنه ليس معها منديلٌ حتَّى كي تمسح به عينيها المُبتلَّتين، وقد جعلها هذا تضحك بقوَّة أكبر.

قال لها بجدِّية: «ما الأفضل أن تُسيطري على نفسك وإلا ستُلقي المُضيفة

بكِ من الطائرة». لم تفعل بيڤرلي شيئًا سوى أن هزَّت رأسها، وواصلت الضحك. كان خصرها ومعدتها يؤلمانها الآن.

ناولها منديلًا نظيفًا أبيض، فاستخدمته. على نحوٍ ما ساعدها هذا في السيطرة على نفسها أخيرًا، ورغم ذلك لم تتوقَّف دُفعةً واحدة. فقط راحت ضحكاتها تذوي تدريجيًّا إلى قهقهات ثم إلى تنهُّدات وشهقات مُتقطِّعة. لكنها ما برحت التفكير في البطَّة الضخمة المطبوعة على جانب الطائرة بين الحين والآخر، لتفلت منها موجة أخرى صغيرة من القهقهات.

أعادت المنديل إليه بعد بُرهة وقالت: «أشكرك».

- «يا إلهي، ماذا حدث ليدك يا سيِّدتي؟».

قالها الرَّجُل وهو يُمسك بيدها مُهتمًّا.

خفضت عينيها ونظرت إلى يدها ورأت الأظافر المُمزَّعة، تلك التي كسَّرتها وهي تقلب التسريحة فوق توم. كانت ذكرى ذلك التصرُّف تؤلمها أكثر من أظافرها نفسها، وقد نجح هذا في إيقافها عن الضحك تمامًا. سحبت بيڤرلي يدها بعيدًا عنه، لكن برفق.

قالت: «لقد أغلقت باب السيَّارة عليها في المطار»، وفكَّرت في كل المرَّات التي كذبت فيها عن أشياء فعلها توم بها.. وكل المرَّات التي كذبت فيها بشأن الكدمات التي وضعها والدها على جسدها. أهذه المرَّة الأخيرة؟ الكذبة الأخيرة؟ يا لروعة هذا... هذه فكرة شديدة الروعة لدرجة تجعلها عصيَّةً على التصديق، وجدت بيڤرلي نفسها تُفكِّر في طبيب يزور مريض سرطانٍ ويقول له: الأشعة السينية تُظهر أن الورم يتقلَّص. نحن لا نعرف السَّبب، لكنه يحدث.

قال لها: «لا بُدَّ أنها تؤلِمك كالجحيم».

قالت وهي تفتح مجلَّة من التي توضع لتزجية الوقت في أثناء الرحلات، رغم أنها تعلم أنها تصفَّحتها مرَّتين بالفعل: «أخذت بعض الأقراص المُسكِّنة».

- «إلى أين أنت ذاهبة؟».

أغلقت المجلَّة ونظرت إليه باسمة وقالت: «أنت شخص لطيف جدًّا، لكنني لست راغبة في الحديث، حسنًا؟».

قال لها مُبتسمًا بدوره: «حسنًا. لكن إذا رغبتِ أن تحتسي شرابًا في نخب البطَّة الكبيرة على جانب الطائرة عندما نصل إلى بوسطن، فسيكون على حسابي».

- «شكرًا لك، لكن أمامي طائرة أخرى للحاق بها».

قال وهو يفتح روايته من جديد: «يا للحظ! ألم تكن هناك فرصة أن يكون طالعي هذا الصباح مُخطِئًا بأيِّ طريقة. صوتك شديد الروعة وأنت تضحكين، قد يقع المرء في غرامك بسببه».

فتحت بيڤرلي المجلَّة مُجدَّدًا، لكنها وجدت نفسها تُحدِّق إلى أظافرها المُمزَّقة خشنة الحواف بدلًا من المقال المكتوب عن ملذَّات نيو أورليانز. ثمَّة بُقَع دماء قرمزية داكنة محبوسة أسفل اثنين منها. في جنبات عقلها، استطاعت بيڤرلي سماع صوت توم يصيح عبر بئر السلَّم: «سأقتلك أيَّتُها العاهرة! أيَّتُها العاهرة اللعينة!». ارتجفت بيڤرلي، واجتاحتها برودة. إنها عاهرة في نظر توم، وعاهرة في نظر الخيَّاطين الذين اعتادوا العبث والتحرُّش بها قبل العروض الهامة لينالوا بعضًا من رحيق بيڤرلي روجان، كما كانت عاهرة في نظر أبيها قبل أن يصير توم والخيَّاطون البائسون جزءًا من حياتها بوقتٍ طويل.

عاهرة.

أنت عاهرة.

أنت أيَّتُها العاهرة اللعينة.

أغلقت بيڤرلي عينيها للحظات.

كانت قدمها التي قطعتها شظية زُجاجة عطرٍ مُحطَّمة في أثناء فرارها من الغُرفة تؤلمها أكثر من أصابعها. لقد عالجتها كاي ببعض الضمَّادات والإسعافات الأوَّلية، وأعطتها زوجين من الأحذية، وشيكًا بنكيًا بقيمة ألف دولار صرفته بيڤرلي على الفور في التاسعة مساءً من بنك شيكاجو الأوَّل في ميدان ووتر تاور.

وفي وسط احتجاجات كاي، كتبت بيڤرلي شيكًا بنكيًا بقيمة ألف دولار على ورقة بيضاء فارغة، وقالت لكاي: «لقد سمعت مرَّة أنهم مُضطرُّون إلى قبول الشيك بغض النظر عمَّا هو مكتوب عليه. بدا صوتها كأنه يأتي من مكان بعيد،

كمذياع في غُرفة أخرى ربُّما. «ذات مرَّة صرف أحدهم شيكًا مكتوبًا على قذيفة مدفعية. لقد قرأت هذا في كتاب القوائم على ما أظنُّ»، ثم توقَّفت وضحكت بعصبية. نظرت إليها كاي بإمعان شديد، بل بخطورة، واستطردت بيڤرلي: «لو كنت مكانك لصرفته سريعًا قبل أن يُجمِّد توم الحسابات المصرفية».

على الرغم من أنها لم تكن تشعر بإنهاك الآن (رغم أنها تعلم أن جسدها يعمل الآن بالكامل مُستهلكًا أعصابها وقهوة كاي السوداء)، بدت الليلة السابقة كحُلم راودها لا أكثر.

تستطيع تَذكُّر الثلاثة مُراهقين الذين تتبعوها وهم يصيحون بها ويُصفِّرون بشفاههم، لكن دون أن يجرؤوا على الدنو منها مُباشرة. تذكَّرت الشعور بالخلاص الذي اجتاح خلاياها عندما رأت وميض ضوء أحد فروع سڤن إليڤن الفلورسنت الأبيض الذي ينتشر على الأرصفة عند مُفترق طرق. لقد دلفت إليه وتركت البائع ذا الوجه الباثر يطيل النظر إلى فتحة بلوزتها القديمة وهي تتحدَّث معه ليقرضها أربعين سنتًا تُجري بها مُكالمة هاتفية. لم يكن الأمر صعبًا، خصوصًا مع جمال المظهر وما ينطوي عليه من إمتاع.

اتَّصلت بكاي مكال في البداية، مُستدعية رقمها من الذاكرة. رنَّ الهاتف عشرات المرَّات، فبدأت تقلق من أن تكون كاي في نيويورك، ثم أجابتها غمغمة كاي الناعسة «من الأفضل أن يكون خبرًا جيِّدًا، أيًّا ما كنت» في الوقت الذي كادت فيه بيڤرلي أن تُغلق السمَّاعة.

قالت بيڤرلي مُتردِّدة: «أنا بيڤ يا كاي»، ثم استرسلت مندفعة: «أحتاج مُساعدة».

مرَّت لحظة صمت، ثم تحدَّثت كاي من جديد وقد بدا صوتها مُستفيقًا تمامًا الآن: «أين أنت؟ ماذا حدث؟».

– «أنا في متجر سڤن إليڤن على ناصية جادة تسريلاند وشارع ما آخر. أنا... كاي... لقد تركت توم».

كانت ردَّة فعل كاي سريعة وحاسمة ومُتحمِّسة: «حمدً لله! أخيرًا! مرحى! سآتي لآخذك! ابن الزانية هذا! هذا القذر! سآتي لأقلِّك في سيَّارة مرسيدس لعينة! سأؤجر فرقة أفراح من أربعين عازف! سـ...».

قاطعتها بيف: «سآخذ تاكسي»، قابضة آخر أربعين سنتًا في كفِّها المُتعرِّق، وفي المرآة الدائرية المُعلَّقة في نهاية المتجر استطاعت أن ترى البائع الباثر يُحملق في مؤخِّرتها بتركيزٍ عميقٍ حالم. «لكنني سأضطر أن أنقد السائق أجره عندما أصل، فليس معي نقود.. ليس معي سنت واحد».

بكت كاي وصاحت: «سأنقد اللقيط الذي سيأتي بك خمس دولارات إكرامية. هذه أفضل أخبار لعينة سمعتها منذ استقالة نيكسون! جرجري ذيولك إلى هنا يا فتاة! و...». توقَّفت المرأة برُهة، وعندما تحدَّثت مرَّة أخرى كان صوتها جادًا ويشع كمًّا من الطيبة والحب جعلا بيڤرلي تشعر أنها على وشك البُكاء: «حمدًا لله أنكِ فعلتيها أخيرًا يا بيڤرلي. أنا أعني ما أقول. حمدًا لله».

كانت كاي ماكيل مُصمِّمة أزياء سابقة، تزوَّجت ثرية وطُلِّقت أكثر ثراءً، ودخلت بعدها عالم السياسات النسوية عام 1972 قبل لقائها الأوَّل ببيڤرلي بنحو ثلاث سنوات. في ذروة شعبيتها -أو إثارتها الكبيرة للجدل- اتُّهمت كاي أنها تبنَّت الحركة النسوية بعد استغلالها قوانين شوفينية قديمة لتجريد زوجها رجُل الصناعة من كل سنت يسمح القانون لها بأخذه منه.

ذات مرَّة صرَّحت كاي لبيڤرلي: «هُراء! من يقولون هذا الكلام لم يُضطرُّوا قط لمُشاركة سام فاكوڤيتش الفراش. هزَّتان ومداعبة فقذف، هذا شعار العزيز سامي. المرَّات الوحيدة التي استطاع فيها التحكُّم في نفسه سبعين ثانية كانت وهو يستمني في مغطس الحمَّام. أنا لم أخدعه، فقط أخذت نظير صمودي بأثر رجعي».

كتبت كاي بعدها ثلاثة كتب: أحدها عن الحركة النسوية والمرأة العاملة، وأحدها عن النسوية والعائلة، وأحدها عن النسوية وعلاقتها بالروحانيات. اشتهر الكتابان الأوَّلان إلى حدٍ كبير، لكن خلال ثلاث السنوات التي تلت الكتاب الأخير، صارت كاي موضة عتيقة نوعًا، وقد ظنَّت بيڤرلي أن الأمر شكَّل خلاصًا من نوعٍ ما بالنسبة إليها. استمرَّت استثماراتها في الازدهار («حمدًا لله أن النسوية والرأسمالية لا تستبعد إحداهما الأخرى»، هكذا قالت كاي لبيڤرلي مرَّة)، وقد باتت الآن امرأة ثرية تمتلك منزلًا في المدينة، وأرضًا في الريف، واثنين أو ثلاثة عُشَّاق مُمتلئين فحولة بما يكفي لإخماد

جذوتها وإشباع رغباتها، لكنهم ليسوا فِحالًا بما يكفي كي يتفوَّقوا عليها في لعب التنس. «عندما يتحسَّن مستواهم كثيرًا، أُسقطهم من حساباتي في التوِّ»، هكذا قالت لها، ورغم أن كاي كانت تؤمن أن هذه مُجرَّد مُزحة، تساءلت بيفرلي إن كانت كذلك بالفعل.

اتَّصلت بيفرلي بتاكسي، وعندما وصل تكوَّمت في المقعد الخلفي مع حقيبتها سعيدة لكونها ابتعدت عن عيني البائع، وأعطت السائق عنوان كاي.

كانت كاي تنتظرها عند نهاية الدرب الخاص بمنزلها، وهي ترتدي معطفها المصنوع من فراء المنك فوق منامتها المنزلية الخفيفة، وقد دسَّت قدميها في خُفَّين ورديين وَبَرِيين تعتليهما كُرتان كبيرتان من الزغب. ليستا كرتان بُرتقاليتان حمدًا لله، فقد كان هذا كفيلًا بجعل بيفرلي تهيم على وجهها صارخة في عمق الليل من جديد.

كانت الرحلة بالسيَّارة إلى منزل كاي غريبة: ثمَّة أمور تتداعى إلى ذاكرتها.. ذكريات جليَّة تمامًا تُصبُّ في عقلها بسُرعة كبيرة لدرجة مُخيفة. شعرت كأن شخصًا ما شغَّل جرَّافة عملاقة في رأسها وبدأ ينبش مقبرة عقلية لم تكن تعلم بوجودها من الأساس، الفارق الوحيد أن ما يُنبش ويظهر على السطح أسماء لا جُثث.. أسماء لم تُفكِّر في أصحابها منذ سنواتٍ طويلة: بن هانسكوم، ريتشي توزييه، جريتا بوي، هنري باورز، إدي كاسبراك... بيل دِنبروه. بالتحديد بيل. كانوا يدعونه بيل المُتلعثم، بأريحية الأطفال الصريحة التي تُسمَّى أحيانًا براءة وسلامة نيَّة. كان يبدو طويلًا جدًا في نظرها، وشديد الكمال (إلى اللحظة التي فتح فيها فمه وبدأ يتكلَّم).

أسماء... أماكن... أمورٌ حدثت.

بمزيج من السخونة والبرودة التي راحت تتناوب عليها، تذكَّرت بيفرلي الأصوات الخارجة من البالوعة.. والدماء. لقد صرخت وصفعها والدها لذلك، والدها... توم...

هدَّدت الدموع بالانهمار... ثم بعدها كانت كاي تنقد سائق التاكسي أجره وتعطيه إكرامية كبيرة بما يكفي لتستنطق منه هتاف السائقين المُعتاد: «شكرًا يا هانم! واو!».

اصطحبتها كاي إلى المنزل، وأدخلتها الحمَّام، وناولتها رداءً عندما خرجت، وأعدَّت قهوة، وتفحَّصت إصاباتها، ووضعت الميكروكروم على قدمها المفتوحة، وضمَّدتها. ثم صبَّت جرعة سخيَّة من البراندي في كوب قهوتها الثاني وحثَّتها على رشف كل قطرة منه. ثم طهت لكلتيهما شريحة لحمٍ متوسِّطة النضج، وبعض شرائح الفطر الطازج معها.

وفي النهاية قالت: «حسنًا. ماذا حدث؟ هل نتَّصل بالشُرطة أم نُرسلك فحسب إلى رينو للإقامة هناك؟».

قالت بيڤرلي: «لا أستطيع إخبارك بالكثير. سيبدو الأمر جنونيًّا. لكن الخطأ خطأي، في الغالب...».

صفعت كاي يدها على الطاولة، وقد أصدرت الصفعة صوتًا على خشب الماهوجني المصقول أشبه بصوت طلقة مُسدَّس ضئيل العيار. انتفضت بيڤرلي من الصوت.

قالت كاي: «إيَّاكِ أن تقولي ذلك». كانت الدماء محتقنة في وجهها، وعيناها البُنِّيتان تشتعلان: «منذ متى ونحن أصدقاء؟ تسع سنوات؟ عشر؟ إذا سمعتك تقولين إن الخطأ خطأكِ مرَّة أخرى سأتقيأ. أتسمعينني؟ سأتقيأ فحسب. لم يكن الخطأ خطأكِ هذه المرَّة، أو المرَّة الأخيرة، أو التي قبلها، أو في أيِّ مرَّة. ألا تعلمين أن مُعظم أصدقائك يظنون أن ابن العاهرة هذا كان سيتسبَّب في إحداث عاهة بكِ عاجلًا أو أجلًا، أو ربَّما سيقتلك حتَّى؟».

كانت بيڤرلي تنظر إليها بعينين متَّسعتين.

- «غلطتك الحقيقية -نوعًا ما على الأقل- أنكِ ظللتِ معه وسمحت لذلك بالحدوث. لكنك غادرتِ الآن، حمدًا لله على النعم الصغيرة، فلا تجلسي هنا بقدم مفتوحة ونصف أظافرك مُمزَّعة وعلامات الجلد بالحزام على كتفيك وتخبريني أنها كانت غلطتك».

قالت بيڤ: «لم يضربني بالحزام». هكذا خرجت الكذبة من فمها تلقائيًّا... وكذا الشعور العميق بالخزي الذي دفع الدماء إلى التوهُّج في وجنتيها بشكلٍ بائس.

قالت كاي بهدوء: «إذا كنت انتهيت من توم، فالأحرى بك أن تنتهي من

الكذب كذلك»، ثم نظرت إلى بيڤ طويلًا جدًّا وبحبٍّ هائل حتَّى اضطرت بيڤ إلى خفض عينيها وهي تشعر بمذاق العبرات المالح في حلقها. سألتها كاي بنبرة هادئة: «من كُنتِ تظنين أنك تخدعين؟»، ثم مدَّت يدها عبر الطاولة واحتضنت يدي بيڤ. «النظَّارات السوداء، البلوزات عالية الرقبة طويلة الأكمام، رُبَّما كنت تخدعين الأغراب، لكنك لا تستطيعين خداع أصدقائك يا بيڤ.. ليس الأشخاص الذين يحبُّونك».

هنا انخرطت بيڤ في البكاء. بكت طويلًا وبحُرقة، واستمرَّت كاي تُمسك بها. لاحقًا، وبالكاد قبل أن تخلد إلى الفراش، أخبرت بيڤرلي كاي بقدر ما استطاعت: أن صديقًا قديمًا من بلدة ديري في ولاية مين حيث نشأت هاتفها، وأنه ذكَّرها بوعدٍ قطعته على نفسها منذ زمنٍ طويل، وأن وقت الوفاء بالوعد قد جاء، فسألها هل ستأتين؟ فأجابته أنها ستفعل. ثم بدأت بعدها المشاكل مع توم.

سألتها كاي: «ما كان هذا الوعد؟».

هزَّت بيڤرلي رأسها ببطء وقالت: «لا أستطيع إخبارك بهذا يا كاي، رغم أنني أتوق لذلك».

فكَّرت كاي قليلًا في الأمر، ثم أومأت: «حسنًا.. عدَّاكِ العيب. ماذا ستفعلين بشأن توم بعد عودتك من مين؟».

هنا قالت بيڤ التي كان ينمو داخلها شعورٌ مُتزايدٌ بأنها لن تغادر ديري أبدًا ببساطة: «سآتي إليك أوَّلًا ثم نُقرِّر معًا ماذا سأفعل.. اتفقنا؟».

قالت كاي: «اتفقنا بالطبع. أهذا وعدٌ أيضًا؟».

قالت بيڤ بثبات: «بمُجرَّد ما أعود. يُمكنك الوثوق في هذا». ثم عانقت كاي بقوَّة.

ثم بنقود كاي في جيبها، وحذاء كاي في قدميها، استقلَّت بيڤ إحدى حافلات شركة جرايهاوند المُتَّجهة شمالًا إلى ميلواكي، ينتابها خوفٌ عارم من أن يكون توم قد عرج على مطار أوهير ليبحث عنها. حاولت كاي -التي رافقتها إلى البنك وإلى محطَّة الحافلات- إقناعها بالعكس.

قالت لها: «مطار أوهير يعج بأفراد الأمن يا عزيزتي، لن يكون عليك القلق بشأنه. إذا اقترب منك، كل ما عليك أن تصرخي إلى أن ينفجر رأسك اللعين».

هزَّت بيڤرلي رأسها مُعترضة: «أُريد أن أتحاشاه بالكامل. إنها الطريقة المُثلى لإنهاء الأمر».

نظرت إليها بدهاء وقالت: «أنت خائفة من أن ينجح في إقناعك بكلامه، أليس كذلك؟».

تذكَّرت بيڤرلي سبعتهم وهم واقفين في منتصف مجرى النهر.. في ستانلي وشظية زجاجة الكولا المتلألئة في ضوء الشمس.. في الألم الطفيف الذي شعرت به وهو يقطع راحة كفِّها برفقٍ بخطٍّ مائل.. في أيديهم المتشابكة ودائرتهم التي قوامها سبعة أطفال، في قطعهم عهدًا بالعودة من جديد إذا بدأ الأمر مرَّة أخرى... العودة لقتل الشَّيء إلى الأبد هذه المرَّة.

قالت لها: «لا، لن يستطيع إقناعي بكلامه هذه المرَّة. لكنه قد يؤذيني، بوجود رجال الأمن أو عدمه. أنت لم تشاهدي حالته الليلة الماضية يا كاي».

قالت كاي وهي تُقارب بين حاجبيها: «لقد رأيت ما يكفي في مُناسباتٍ أخرى. هذا الحقير الذي يظن نفسه رجُلًا».

قالت بيڤ: «لقد كان مسعورًا. قد لا يتمكَّن رجال الأمن من إيقافه. هكذا أفضل، صدِّقيني».

قالت كاي بلا حماسة: «حسنًا»، وظنَّت بيڤ بتندُّرٍ طفيف أن كاي تشعر بخيبة أمل لأنه لن تقع مواجهة.. وأن الغضب الذي يعتمل داخلها لن يُنفَّث.

أخبرتها بيڤرلي مُجدَّدًا: «اصرفي الشيك سريعًا قبل أن يُفكِّر في تجميد الحسابات. سيفعلها، أنت تعلمين ذلك».

قالت كاي: «بالتأكيد. إذا فعل، سأذهب للقاء ابن القحبة الفخور بسوطه هذا، وسأقايضه».

قالت بيڤرلي بحدَّة: «ابقي بعيدة عنه يا كاي. إنه خطر. صدقيني. لقد كان...» كأبي، هذا ما تردَّد على شفتيها المُرتعشتين، لكنها قالت «... كرجُل كهفٍ وحشي».

قالت كاي: «حسنًا، ارحمي عقلك يا عزيزتي. اذهبي وأوفي بوعدك، وفكِّري قليلًا فيما ستفعلين بعدها».

قالت بيڤ: «سأفعل»، لكن هذه كانت كذبة. إن لديها أشياء أخرى لا

تُعد يجب أن تُفكِّر فيها: مثلاً، ماذا حدث في ذلك الصيف عندما كانت في الحادية عشرة؟ مثلاً، تعليمها لريتشي كيفية التحكُّم في اليويو خاصته. مثلاً، الأصوات التي تُنادي من البالوعة، والشَّيءَ الذي رأته، الشَّيءَ شديد الشناعة لدرجة أن عقلها لم يسمح لها حتَّى بتخيُّله وهي تُعانق كاي للمرَّة الأخيرة جوار جانب حافلة جريهاوند الفِضِّي الطويل التي تنتظرها مُتبرِّمة.

الآن، في الوقت الذي بدأت فيه الطائرة التي عليها شعار بطَّة هبوطها الطويل إلى مدينة بوسطن، عاد عقلها يُفكِّر في ذلك الأمر من جديد... وفي ستان يوريس... وفي القصيدة غير الممهورة التي جاءتها بالبريد... وفي الأصوات... وفي الثواني القليلة التي التقت فيها وجهًا بوجه بكيانٍ رُبَّما كان سرمديًّا.

نظرت بيڤرلي إلى خارج النافذة، ثم إلى الأسفل، وفكَّرت أن شرَّ توم يبدو ضئيلاً ومُثيرًا للشفقة بالمقارنة مع الشر الذي ينتظرها في ديري. إذا كان يوجد ما يواسيها الآن، فهو أن بيل دِنبروه سيكون هناك... وقد مضى زمنٌ عاشت فيه فتاة سنُّها إحدى عشرة سنة اسمها بيڤرلي كانت تُحب صبيًا اسمه بيل دِنبروه. تذكَّرت البطاقة البريدية والقصيدة العذبة المكتوبة على ظهرها، وتذكَّرت أنها علمت يومًا ما من كاتبها. لم تعد تتذكَّر الآن، أكثر من تذكُّرها كلمات فحوى القصيدة ذاتها... لكنها تظن أنه رُبَّما كان بيل. أجل، من المُرجَّح تمامًا أنه بيل دِنبروه المُتلعثم.

فجأة، وجدت نفسها تتذكَّر استعدادها للخلود إلى الفراش في الليلة التي تلت اصطحاب ريتشي وبن لها لمُشاهدة فيلمي الرعب هذين. بعد موعدها الغرامي الأوَّل. لقد سخرت مع ريتشي كثيرًا من الأمر. في تلك الأيَّام كانت السُخرية خط دفاعها وهي في الطُرُقات، لكن هذا لا ينفي أن جزءًا داخلها شعر بالتأثُّر والحماسة وبعض الخوف. لقد كان موعدها الغرامي الأوَّل بالفعل، رغم أنه كان يضم ولدين لا واحدًا. لقد دفع ريتشي نظير كل شيء، كما يحدث في المواعيد الغرامية الحقيقية بالضبط. بعدها طاردهم أولئك الفتية... ثم أمضوا بعد ذلك بقية اليوم في البرِّيَّة... وقد جاء بيل دِنبروه بصحبة صبيٍ آخر. لم تستطِع بيڤرلي تذكُّر من كان، لكنها تذكَّرت الطريقة

التي استراحت بها نظرة بيل عليها بُرهة، والكهرباء التي استشعرت سريانها في جسدها جراء ذلك... الصدمة والتورُّد اللذين بديا كأنهما يُدفِّئان بدنها بالكامل.

تذكَّرت أيضًا تفكيرها في كل ذلك وهي تضع عليها منامتها وتذهب إلى الحمَّام لتغسل وجهها وتُنظِّف أسنانها. تذكَّرت تفكيرها في أن النوم سيستغرق وقتًا طويلًا قبل أن يداهمها في تلك الليلة، لأنه ثمَّة أشياء كثيرة للتفكير فيها... والتفكير فيها بإيجابية، لأنهم بدوا لها ثُلة من الأولاد الجيِّدي.. أولاد من الذين تستطيع فتاة التسكُّع معهم، وربَّما حتَّى الوثوق فيهم قليلًا. سيكون هذا جميلًا. سيكون هذا... حسنًا، أشبه بالجنَّة.

وفي أثناء ما كانت بيفرلي تُفكِّر في هذه الأمور، التقطت المنشفة وانحنت فوق الحوض لتبُلِّلها بنفحة ماء عندما جاء الصوت...

2

... هامسًا من البالوعة:

- «ساعديني...».

تراجعت بيفرلي إلى الوراء جافلة، وسقطت المنشفة الجافَّة على الأرض. هزَّت رأسها قليلًا كأنها تريد إفاقة نفسها، ثم انحنت فوق الحوض مُجدَّدًا ونظرت إلى البالوعة بفضول. كان الحمَّام يقع في طرف شقَّتهم المكوَّنة من أربع غُرف. كانت تسمع صوت مُسلسلٍ ما عن الغرب الأمريكي آتيًا من التلفاز. عندما سينتهي، سيُغيِّر والدها المحطَّة غالبًا ليُشاهد مُباراة كُرة سلَّة، أو مُصارعة حُرَّة، ثم سيغط في النوم على مقعده المُريح.

كانت حوائط الحمَّام مُغطَّاة بورق حائط مُزركش شنيع الذوق بصور ضفادع تستريح على زنابق الماء، وينتفخ متمعِّجًا فوق الجص غير المستوي أسفله. كان مُبلَّلًا في بعض موضعٍ ومُقشَّرًا في مواضعِ أخرى. علامات الصدأ تحيط بالمغطس، ومقعد المرحاض مُشقَّق، وثمَّة مصباح بقوَّة أربعين وات يبرز من تجويفٍ في الخزف فوق الحوض. تتذكَّر بيفرلي بشكلٍ شبحي مصباحًا آخر كان موجودًا يومًا ما، لكنه كُسر منذ بضع سنوات ولم يُستبدل

قط. أما الأرضية فكانت مُغطَّاة بالمشمَّع الذي حالت زركشته تقريبًا، باستثناء رُقعة صغيرة أسفل الحوض.

لم يُكن حمَّامًا بهيجًا بأيِّ حال، لكن بيڤرلي اعتادت عليه لفترة طويلة جدًّا ولم تعد تلحظ حقيقة حالته المُزرية.

كانت قطرات الماء متناثرة على جوانب الحوض، ولم تكن البالوعة سوى دائرة بمصفاة مُتقاطعة الأسلاك قطرها نحو بوصتين. فيما مضى، كان للبالوعة غطاءً من الكروم، لكن هذا أيضًا ذهب بدوره. ثمَّة سدَّادة بالوعة مطَّاطية تتدَّلى كيفما اتَّفق من الصنبور. كانت فتحة البالوعة مُظلمة لا ينفذ الضوء إلى ماسورتها، ومع انحنائها فوقها لاحظت بيڤرلي للمرَّة الأولى أن رائحة كريهة خفيفة تنبعث منها، رائحة سمك فاسد تقريبًا. جعَّدت بيڤرلي أنفها في تقزُّز.

- «ساعديني يا بيڤرلي».

تناوبت عليها موجات من البرودة والسخونة. كانت قد نزعت الرباط المطَّاطي من شعرها، الذي تدَّلى على كتفيها كسلاسل مُشرقة. شعرت بيڤرلي أن جذوره تنتصب.

دون أن تعي أنها قصدت الكلام، انحنت الفتاة فوق الحوض وقالت نصف هامسة: «مرحبًا؟ هل من أحدٍ هناك؟». كان الصوت الخارج من البالوعة صوت طفل صغير جدًا تعلَّم الكلام لتوِّه على الأرجح.. وبرغم القشعريرة التي سرت في ذراعيها، حاول عقلها التوصُّل إلى تفسير منطقي للأمر. إنها عمارة سكنية، وآل مارش يقطنون الشَّقة الأرضية الخلفية. توجد أربع شُقق أخرى. رُبَّما هناك صبي في المبنى يُسلِّي نفسه بالتحدُّث عبر نظام الصرف. ألاعيب الصوت قد...

- «هل من أحدٍ هناك؟». هكذا أعادت بيڤرلي سؤال بالوعة الحمَّام، بصوتٍ أعلى هذه المرَّة. ثم أدركت فجأة أن والدها لو تصادف مجيئه في أيِّ لحظة الآن سيظنها مجنونة.

لم يأتها جواب من البالوعة، لكن الرَّائحة الكريهة بدت أقوى، وجعلتها تُفكِّر في بركة أعواد الخيزران في البرِّية، والمستنقع الواقع خلفها.. كما

أرسلت إلى عقلها صور الدُخان اللاذع والطين الأسود الذي يرغب في الاستيلاء على فردتي حذائك من قدميك.

المُشكلة أنه لا يوجد أطفال صغار في البناية من الأساس. كان لدى عائلة تريمونت طفل في سنٍّ خمس سنوات، وفتاة سنُّها ثلاث سنوات وستَّة أشهر، لكن السيِّد تريمونت فقد وظيفته في متجر الأحذية في جادة تراكر، وتأخَّر عن سداد الإيجار، وفي أحد الأيَّام قبل انتهاء الدراسة بقليل، رحلت العائلة كلها في سيَّارة السيِّد تريمونت البويك العتيقة الصدئة. ثمَّة من يُدعى سكيبر بولتون في الشقَّة الأمامية في الطابق الثاني، لكن سكيبر في الرابعة عشرة.

- «جميعنا يُريد لقاءك يا بيڤرلي...».

وضعت بيڤرلي يدها على فمها واتَّسعت عيناها في رُعب. للحظة -لمُجرَّدِ لحظة- ظنَّت أنها رأت شيئًا يتحرَّك بالأسفل، وأدركت فجأة أن شعرها يسقط من أمام كتفيها في جديلتين سميكتين تتدلَّيان قريبًا -قريبًا جدًّا- من فتحة البالوعة، لذا -بحركةٍ غريزية- استقامت بيڤرلي سريعًا وأبعدت شعرها عن الفوَّهة السوداء.

نظرت الفتاة حولها. كان باب الحمَّام موصدًا. كانت بالكاد تسمع صوت التلفاز، وميَّزت صوت شايان بودي من التلفاز يُحذِّر الرَّجُل الشرير ليضع بُندقيته أرضًا قبل أن يتأذَّى أحدٌ. كانت وحيدة تمامًا. باستثناء ذلك الصوت بالطبع.

- «من أنت؟». هكذا صاحت عبر البالوعة، خافضة نبرتها.

همس الصوت: «ماثيو كليمنتس. لقد أخذني المُهرِّج إلى هنا عبر المواسير وتوفيت، وقريبًا جدًّا سيأتي لأخذك يا بيڤرلي.. أنت وبن هانسكوم، وبيل دِنبروه، وإدي...».

طارت يداها إلى وجنتيها ولطمتهما. اتَّسعت عيناها.. واتَّسعت.. واتَّسعت. شعرت ببرودة جسدها تتعاظم. الآن بدا الصوت مُختنقًا وعتيقًا... لكن ثمَّة مرح ملحون فاسد ما زال يسري فيه.

- «السوف تَطِفينّ هنا مع أصدقائك يا بيڤرلي، كلنا نطفو هنا. أخبري بيل أن چورچي يبعث تحيَّاته، أخبري بيل أن چورچي يفتقده لكنه سيراه قريبًا

جدًّا، أخبريه أن چورچي سيكون في خِزانة الملابس في ليلةٍ ما ومعه قطعة من سلك بيانو سيفقأ بها عينه، أخبريه...».

تحشرج الصوت فجأة وانخرط في سلسلة من الانقباضات الحلقية المُختنقة، ثم انتفخت فُقَّاعة حمراء فاقع لونها من فتحة البالوعة، وانفجرت ناثرة حبَّاتٍ دماء لا حصر لها على الحوض.

تحدَّث الصوت المُختنق بوتيرة مُتسارعة الآن، وفيما كان يتحدَّث تبدَّلت نبراته. تحدَّث بصوت الطفل الذي سمعته في البداية، ثم صار صوت فتاة مُراهقة، ثم تبدَّل -بشكلٍ مُفزع- إلى صوت فتاة تعرفها بيڤرلي... ڤيرونيكا روجان. لكن ڤيرونيكا ماتت، لقد عُثر على جُثَّتها هامدة في مصرف المجاري...

- «أنا ماثيو... أنا بيتي... أنا ڤيرونيكا... كلنا هنا... مع المُهرِّج... المخلوق... المومياء... المستذِئب... وأنت أيضًا يا بيڤرلي... نحن معكِ هنا، ونحن نطفو... نتغيرَّ...».

بغتةً، تُجشِّئَت لطخة دماء من البالوعة، ولوَّثت الحوض والمرآة وورق الحائط برسومات ضفادعه وزنابقه. صرخت بيڤرلي بشكلٍ مُفاجئ وبصوتٍ ثاقب. تقهقرت إلى الوراء بعيدًا عن الحوض، واصطدمت بالباب، وارتدَّت عنه، ثم أنشبت يدها فاتحة إيَّاه، وركضت إلى غُرفة المعيشة في اللحظة التي نهض والدها واقفًا على قدميه.

سألها قاطبًا حاجبيه: «ماذا بكِ بحق الشيطان؟». كان كلاهما في المنزل بمُفردهما هذه الليلة، لأن والدة بيڤ تعمل في مناوبة مسائية في جرين فارم، أفضل مطعم في ديري.

صرخت بهستيرية: «الحمَّام! الحمَّام يا أبي، في الحمَّام...».

- «هل يسترقُّ أحدهم النظر إليكِ يا بيڤرلي؟ هه؟»، واندفعت ذراعه وأمسكت يده معصمها بعُنف واعتصرت لحمها. كان القلق يشيع على ملامحه، لكنه قلقٌ مُفترس، يُخيف أكثر ممَّا يُطمئن.

- «لا... الحوض... في الحوض... الـ... الـ...» ثم انفجرت باكية بدموعٍ

هستيرية قبل أن تتمكَّن من تفسير أيَّ شيءٍ. كان قلبها يخفق بدويٍ هائل في صدرها حتَّى ظنَّت أنه سيخنقها.

دفعها مارش جانبًا وعلى وجهه تعبير «أوه-يا للمسيح-ما-التالي؟» وذهب إلى الحمَّام، ومكث هناك وقتًا طويلًا ما جعل بيڤرلي ترتعد خوفًا من جديد.

ثم جأر: «بيڤرلي! تعالي إلى هنا يا فتاة!».

لم يكن لذهابها من بُدٍّ. إذا كان كلاهما واقفًا على حافَّة جرفٍ عالٍ وأخبرها والدها أن تقفز منه -حالًا يا فتاة- فإن طاعتها الغريزية من شبه المؤكَّد ستحملها إلى الحافَّة قبل أن يستطيع عقلها الواعي التدخُّل.

كان باب الحمَّام مفتوحًا، وها هو والدها يقف داخله. رُجلٌ ضخم بدأ يفقد شعره الأحمر الذي أورثه لبيڤرلي.كان ما زال يرتدي سراويله الرمادية المرحرحة والتيشرت الرمادي (يعمل مارش حاجبًا في مُستشفى ديري العام)، وينظر بحدَّة إلى بيڤرلي. لم يكن الرَّجُل يحتسي الخمر، أو يُدخِّن التبغ، أو يطارد النساء. لدي كل من أرغب من نساء العالم في بيتي، هكذا قال ذات مرَّة في إحدى المُناسبات، وعندما قالها تلاعبت ابتسامة غريبة كتومة على ثغره لم تُفرج أساريره، بل فعلت العكس تمامًا. مرأى هذه الابتسامة كان أشبه بمرأى ظلِّ غيمةٍ يجري سريعًا عبر حقلٍ صخريٍ قفر. هما تعتنيان بي، وعندما تحتاجاني، أعتني أنا بهما.

- «ما سبب كل هذه الحماقة بحق الشيطان؟». هكذا سألها وهي تقترب.

شعرت بيڤرلي أن حنجرتها شُقَّت بمشرط، وتسارع قلبها بين ضلوعه. شعرت أنها على وشك إفراغ معدتها. كانت الدماء تتناثر على المرآة، وتسيل منها في قطراتٍ طويلة. ثمَّة بُقع دماء على الضوء الذي يعلو الحوض، وكانت تستطيع شم رائحتها تُطهى وتشيط بفعل حرارة المصباح ذي الأربعين وات. الدماء تجري على جوانب الحوض الخزفية وتتساقط في قطراتٍ مُسطَّحة على مشمَّع الأرضية.

همست بصوتٍ مبحوح: «أبي...».

استدار إليها مُشمئزًّا منها (كعادته في كثيرٍ من الأحيان) وهو يغسل يديه

دون اكتراث في الحوض الدامي. «بحق الرَّب يا فتاة، تكلَّمي، لقد أثرتِ ذُعري.. فسِّري تصرُّفك بحقِّ الرَّب».

كان يغسل يديه في الحوض، واستطاعت أن ترى الدماء تُبقِّع نسيج سراويله الرمادية في الموضع الذي احتكَّت به على حافَّة الحوض. إذا حدث وأن لمست جبهته المرآة -لأنها كانت قريبة جدًّا- ستُلطِّخ الدماء جلده. أصدرت بيڤرلي صوتًا مُختنقًا من حلقها.

أغلق مارش الصنبور وأمسك المنشفة التي لطختها دفقتا دماء من البالوعة وبدأ يُجفِّف يديه. راقبته بيڤرلي وهي تكاد أن تفقد وعيها، يدهن الدماء على عقلات أصابعه الكبيرة وخطوط كفِّيه. كانت ترى دماءً أسفل أظافر أصابعه كأنها آثار آثام.

ألقى مارش بالمنشفة الدامية على القضيب الحديدي وقال: «حسنًا؟ أنا مُنتظر».

توجد دماء... دماء في كل مكان... ووالدها لا يستطيع رؤيتها.

- «بابا...». لم تكن لديها أدنى فكرة عمَّا كانت ستقوله تاليًا، لكن والدها قاطعها.

قال مارش: «أنا قلقٌ عليك يا بيڤرلي. لا أظنُّك ستكبرين أبدًا يا بيڤرلي. أنت تتسكَّعين في الخارج، وتقريبًا لا تقومين بأيٍّ من الأعمال المنزلية هنا. لا تتقنين الطهو، ولا الحياكة. نصف وقتك ضائع في الشرود بعيدًا وأنفك مدسوس بين دفَّتي كتاب، والنصف الآخر تُضيعينه تائهة في الاكتئاب والأفكار السوداوية. أنا قلق».

ثم طاحت يده وصفعتها بقوَّة على ردفيها. فلتت منها صرخة، وثبَّتت عينيها عليه. كانت هناك نُقطة دماء صغيرة عالقة في حاجبه الأيمن كثيف الشعر. فكَّرت بيڤرلي بشكلٍ خافت: إذا واصلت التحديق في هذه النقطة مُدَّة أطول سأُجن، ولا شيء من هذا سيهم.

قال لها: «أنا أقلق كثيرًا»، وصفعها مرَّة ثانية بقوَّة أكبر فوق كوعها. سرى ألمٌ كاسح في تلك الذراع ثم بدت كأنها تخدَّرت. ستكمن كدمة صفراء مزرقَّة داكنة في هذا الموضع للأيام الثلاثة القادمة.

- «كثيرًا جدًّا»، قالها ولكمها في معدتها. ثم سحب اللكمة في الثانية الأخيرة، وفقدت بيڤرلي نصف الهواء فقط من تجويف صدرها. انحنت بيڤرلي شاهقة، وبدأت الدموع في التجمُّع في مُقلتيها. حدَّجها والدها بنظرة لا مُبالية، ودسَّ يديه الداميتين في جيبي سراويله.

قال لها وقد بدا صوته طيِّبًا ومُتسامحًا الآن: «يجب أن تكبري يا بيڤرلي. أليس كذلك؟».

أومأت برأسها. كان رأسها ينبض، وبكت، لكن بصمت. إذا بكت بصوتٍ مُرتفع، وبدأت ما يدعوه والدها بـ«نواح الأطفال»، فقد يبدأ في التعامل معها بشكلٍ جدِّي. لقد عاش مارش جل حياته في ديري، وكان يُخبر الناس التي تسأل (وأحيانًا أولئك الذين لا يسألون) أنه ينوي أن يُدفن هنا -آملًا- عن عمر يناهز المئة وعشر سنوات. كان يقول لروچر أورليت، الذي يقصُّ له شعره مرَّة في الشهر: «لا أرى سببًا يمنعني من العيش إلى الأبد. أنا رجُلٌ بلا نواقص».

قال لها: «الآن فسِّري تصرُّفك، وبسرعة».

- «كان هناك...» ابتلعت ريقها وآلمها الأمر لأن حلقها كان جافًّا بلا قطرة لعاب واحدة «... كان هناك عنكبوت.. عنكبوت أسود كبير... لقد خرج زاحفًا من البالوعة و... وأظنُّه زحف عائدًا إليها بعدها».

- «أوه!»، ابتسم إليها قليلًا الآن، كأنه سُرَّ من التفسير. «أهذا ما في الأمر؟ اللعنة! إذا كنت أخبرتيني يا بيڤرلي، لم أكن سأُضطر لضربك. كل الفتيات يخفن العناكب. يا للشيطان! لِمَ لم تتكلَّمي؟».

انحنى فوق البالوعة واضطرَّت بيڤرلي أن تعض على شفتيها لتمنع نفسها من الصراخ مُحذِّرة... ثم تحدَّث صوتٌ آخر داخلها... صوتٌ ما مُريع لا يُمكن أن يكون جُزءًا منها.. إنه بالتأكيد صوت الشيطان ذاته: اتركيه يأخذه، إذا أراد. دعيه يسحبه إلى أسفل. يا للخلاص اللعين الفائق.

أشاحت بنفسها بعيدًا عن الصوت مذعورة. إذا سمحت لهذه الفكرة البقاء في عقلها ولو للحظة فلسوف تُلعن وترزح في الجحيم إلى الأبد.

حدَّق مارش إلى عين البالوعة المفتوحة، وتخضَّبت يداه بالدماء المتناثرة

على حافَّة الحوض. صارعت بيڤرلي الشعور في معدتها. كان بطنها يؤلمها حيث ضربها والدها.

قال لها: «لا أرى شيئًا. كل هذه البنايات عتيقة يا بيڤ، وبها مصارف بحجم شوارع كاملة، ألا تعلمين ذلك؟ عندما كنت أعمل حارسًا في المدرسة الثانوية القديمة، اعتدنا رؤية فئران غارقة في المراحيض كل فترة، وكانت تُطيِّر صواب البنات». ثم ضحك بصوتٍ عالٍ على هِستيريا الفتيات غير المُبرَّرة وأردف: «كان هذا يحدث غالبًا إبَّان فيضان الكِندوسكيج، لكن الحياة البرِّية ندرت في المواسير منذ أن أنشأوا نظام الصرفي الصحي الجديد».

أنهى مارش كلامه وطوَّقها بذراعها مُحتضنًا إيَّاها.

- «اسمعيني. اذهبي إلى فراشك الآن ولا تُفكِّري بالأمر. حسنًا؟».

شعرت بحبها له يتزايد داخلها. أنا لا أضربك قط إن كنتِ لا تستحقِّين ذلك يا بيڤرلي، هكذا أخبرها مرَّة عندما احتجَّت قائلة أن عقابه لها أحيانًا غير عادلٍ، ولا بُدَّ أن ما يقوله الحقيقة، لأنه كان قادرًا على الحب. أحيانًا كان يمضي اليوم بأكمله معها، يُعلِّمها كيفية فعل الأشياء أو يحكي لها أمورًا أو يتمشَّى معها في المدينة، وفي الأوقات التي يكون فيها حنونًا هكذا، كانت تشعر بأن قلبها سيواصل الانتفاخ بالسعادة حتَّى ينفجر ويقتلها. كانت تحبه، وحاولت تَفَهُّم أنه مُضطر إلى تقويمها في كثيرٍ من الأحيان لأن هذه -حسب كلامه- وظيفته التي أوكلها الرَّب إليه. اعتاد مارش أن يقول: البنات تحتاج التقويم أكثر من الأولاد، وهو لم يكن لديه أولاد، وقد شعرت بيڤرلي نوعًا ما أن تلك غلطتها أيضًا بشكلٍ ما.

قالت له: «حسنًا يا أبي، لن أُفكِّر في الأمر».

ساراإلى غُرفة نومها معًا. كانت ذراعها اليُمنى توجعها بشراسة من اللطمة التي تلقَّتها. نظرت إلى الخلف من فوق كتفها وشاهدت الحوض الدامي، والمرآة الدامية، والحائط الدامي، والأرض الدامية. كانت المنشفة المُلطَّخة بالدماء التي استخدمها والدها مُعلَّقة بإهمال فوق القضيب الحديدي. فكَّرت بيڤرلي: كيف سأستطيع الدخول إلى هناك للاغتسال مرَّة أخرى؟ يا رب، يا حبيبي يا رب، أعتذر إن كنت فكَّرت أفكارًا سيئّة بشأن والدي، تستطيع

مُعاقبتي على هذا إن أردت، أنا أستحق العقاب، أسقطني أرضًا واجرحني أو أمرضني بالبرد كالشتاء الماضي عندما رحت أسعل بقوَّة وتقيَّأت مرَّة، لكن أرجوك يا الله اجعل الدماء تختفي في الصباح، أرجو عطفك يا الله، هل توافق؟ هل توافق؟

دسَّها والدها تحت الأغطية كما يفعل دائمًا، وقبَّلها على جبهتها. ثم وقف بعدها في الغُرفة بُرهة بالطريقة التي اعتادت أن تُفكِّر أنها «طريقته» في الوقوف، أو في الوجود عمومًا.. مُنحنيًا قليلًا إلى الأمام، ويداه مدسوستان عميقًا -إلى ما فوق المعصمين- في جيبي سراويله، وعيناه الزرقاوان اللامعتان اللتان تطلَّان من وجهه الحزين كوجه كلب هاوند تنظران إليها من أعلى. في السنوات اللاحقة، عندما توقَّفت عن التفكير في ديري نهائيًّا، سترى بيڤرلي أحد الرجال يجلس في حافلة، أو رُبَّما آخر يقف عند ناصية مُمسكًا بحقيبة عشائه في يديه.. سترى هيئات، أوه، هيئات رجال، أحيانًا قرب انتهاء اليوم، أحيانًا على الجهة الأخرى من ميدان ووترتاور في ظهيرة يوم خريفٍ عاصفٍ صافٍ.. هيئات الرجال، هيمنة الرجال، رغبات الرجال: أو توم، الشبيه جدًّا بوالدها عندما يخلع قميصه عنه ويقف مُسترخيًا نوعًا أمام مرآة الحمَّام ليحلق ذقنه. هيئات الرجال.

قال لها: «أحيانًا أشعر بالقلق عليكِ يا بيڤ». لكن الآن لم يكن ثمَّة غضبٌ أو رغبةٌ في اختلاق مُشكلة في صوته. لمس شعرها بحنان، وأرجعه بعيدًا عن جبهتها.

كادت أن تصرخ فيه: الحمَّام مليءٌ بالدماء يا أبي! ألم ترها؟ إنها في كل مكان! إنها تُطهى على ضوء المصباح فوق الحوض! ألم ترَها؟

لكنها أبقت على صمتها وهو يخرج ويغلق الباب من خلفه، مُشيعًا الظلام في غُرفتها. كانت ما زالت مُستيقظة، وما زالت تُحدِّق عبر الظلام، عندما أتت أمها في الحادية عشرة والنصف وأغلقت التلفاز. سمعت والديها يدلفان إلى غرفتهما، وسمعت السرير يصر بثبات وبشكل مُطَّرد وهما يُمارسان فعل الجنس. لقد سمعت بيڤرلي مُصادفةً جريتا بوي تُخبر سالي مولر أن فعل الجنس هذا يؤلم كالنار، وأن لا فتاة رقيقة قد ترغب في فعله أبدًا (قالت

جريتا: «وفي النهاية يبول الرَّجُل في كل مكان فوق خُنفستك»، فصرخت سالي مُشمئِزَّة: «يع، لن أسمح لأيِّ ولد أن يفعل هذا بي!»). إذا كان الأمر يؤلم بقوَّة كما تدَّعي جريتا، فلا بُدَّ أن أمها تكتم ألمها داخلها. لقد سمعت بيڤرلي أمها تصرخ مرَّة أو مرَّتين بصوتٍ خفيض، لكنها لم تبد صرخات ألمٍ على الإطلاق.

تسارع صرير ألواح الفراش البطيء، وصار إيقاعه محمومًا شديد الاهتياج، ثم توقَّف. مرَّت فترة صمت، تبعها حديثٌ هامس، ثم تعالى صوت خطوات أمها الذاهبة إلى الحمَّام. كتمت بيڤرلي أنفاسها، مُنتظرة أن تسمع صرخات أمها المُلتاعة.

لكن لم يدوِّ أيُّ صراخ. فقط ترامى إلى مسمعيها صوت الماء الجاري في الحوض، وتبعت ذلك أصوات ماء يتناثر، ثم غاب الماء في البالوعة مُفرِّغًا الهواء مُطلقًا صوت البقبقة المُعتادة. بدأت أمها تغسل أسنانها الآن، وبعدها بلحظات صرَّت حشية الفراش في غُرفة والديها من جديد عندما عادت أمها إليه.

بعد خمس دقائق أو نحو ذلك بدأ والدها يغط في نومه.

استولى رُعبٌ أسود على قلب بيڤرلي وسدَّ حلقها، ووجدت نفسها تخاف الانقلاب إلى جانبها الأيمن -وضعيتها المُفضَّلة في النوم- لأنها قد ترى شيئًا يطلُّ عليها من النافذة. هكذا ظلَّت مستلقية على ظهرها، متصلِّبة كقضيب تذكية النار، محملقة في السقف الجاثم. بمرور الوقت -ساعات أو دقائق، لم تكن ثمَّة وسيلة للتأكُّد- انزلقت بيڤرلي إلى نومٍ مُضطَّرب غير هاجع.

3

دائمًا ما تستيقظ بيڤرلي مع انقطاع رنين المُنبِّه في غرفة والديها. يجب أن تكون سريعة، لأن والدها يلطم الجهاز مُخرسًا إيَّاه ما إن يبدأ في الرنين. ارتدت ملابسها سريعًا فيما كان والدها يستخدم الحمَّام. توقَّفت لحظات وجيزة أمام المرآة -كما تفعل الآن دائمًا تقريبًا- للنظر إلى صدرها ومحاولة تقرير ما إذا كَبِرَ نهداها بأيِّ حال خلال الليلة الماضية. لقد بدآ في التبرعُم

أواخر العام الماضي. اعتراها ألمٌ طفيف في البداية، لكنه تلاشى الآن. كانا صغيرين جدًّا، لا يزيد حجمهما على تُفَّاح الربيع في الحقيقة، لكنهما موجودان، وهذا المهم. قريبًا ستنتهي طفولتها، وستصير امرأة.

ابتسمت إلى انعكاسها في المرآة ووضعت يدًا خلف رأسها، ورفعت شعرها إلى أعلى وفردت صدرها إلى الأمام، وضحكت ضحكة فتاة صغيرة غير مُصطنعة... ثم تذكَّرت فجأة الدماء التي قِيئَت من بالوعة حوض الحمَّام الليلة السابقة، فذوَت ضحكتها على الفور.

نظرت إلى ذراعها ورأت الكدمة التي تكوَّنت في نسيجه ليلًا. بقعة قبيحة داكنة بين كتفها ومفصل كوعها. بقعة أصابع مُتغيِّرة الألوان.

سمعت صوت غطاء المرحاض يُصفع، وتبعه صوت رحض الماء.

تحرَّكت سريعًا، لم تكن ترغب في أن تثير غضبته هذا الصباح (لم تكن ترغب حتَّى في أن يُلاحظها هذا الصباح)، وارتدت سراويلها الچينز وسُترة مدرسة ديري، وبعدها، لأنها لم تستطِع تأجيل قضاء حاجتها أكثر من ذلك، غادرت غرفتها واتَّجهت إلى الحمَّام. عبر والدها جوارها عند غُرفة المعيشة في طريق عودته إلى غُرفته ليرتدي ثيابه، ومنامته الزرقاء المفتوحة ترفرف بحُريَّة حول جسده. غمغم إليها بشيءٍ لم تفهمه بصوتٍ غليظ.

لكنها ردَّت على أيِّ حال: «حاضر يا بابا».

وقفت أمام باب الحمَّام المُغلق لحظات، وهي تحاول تهيئة عقلها لما قد تراه بالداخل. على الأقل الوقت نهارًا، هكذا فكَّرت، وقد طمأنها هذا بعض الشيء. ليس كثيرًا، لكن بعض الشيء. أمسكت بالمقبض، وأدارته، وخَطَت إلى الداخل.

4

كان هذا صباحًا حافلًا بالنسبة إلى بيڤرلي. أعدَّت إفطارًا لوالدها مكوَّنًا من عصير برتقال وبيض مخلوط، وشرائح الخبز على طريقة مارش الخاصة (الخبز ساخن لكن ليس مُحمَّصًا بالمعنى المفهوم). جلس والدها إلى المائدة مُتحصِّنًا خلف جريدة أخبار ديري، والتهم كل شيء.

- «أين اللحم المقدَّد؟».
- «نفد يا أبي. لقد أنهيناه البارحة».
- «اطهي لي شريحة هامبرجر».
- «لم يتبقَّ إلا القليل، و...».

صدرت خشخشة من الجريدة ثم هبطت، ونَزَلَت نظرته عليها كحِملٍ ثقيل.

سألها بهدوء: «ماذا قُلتِ؟».

- «قُلت حالًا يا أبي».

نظر إليها لحظاتٍ أخرى، ثم عادت الصحيفة إلى وضعها أمام وجهه، وهرولت بيڤرلي إلى الثلّاجة لتُخرِج اللحم.

طهت له شريحة هامبرجر، ومَهكَت قليلًا من اللحم المفروم المُتبقّي في الثلّاجة بها بقدر ما تستطيع لتجعلها تبدو أكبر. التهمها مارش وهو يقرأ صفحة الرياضة في حين ما راحت بيڤرلي تُجهِّز له وجبة الغداء التي سيحملها معه (شطيرتي زبدة فول سوداني بالچيلي، وقطعة كعك كبيرة جلبتها أمها معها من مطعم جرين فارم محل عملها، وحافظ قهوة ساخنة كبير مُترع بالسُكَّر).

قال لها وهو يتناول سلَّة طعامه: «أخبري أمك أنني أريد تنظيف هذا المكان اليوم، إنه يبدو كحظيرة خنازير لعينة بحق الشيطان! أنا أمضي اليوم كله في تنظيف الفوضى قُرب المُستشفى، لا أريد أن أعود إلى منزلي وأجده زريبة. أخبريها بما أقول يا بيڤرلي».

- «حسنًا يا أبي. سأفعل».

لثمها مارش على وجنتها، وعانقها عناقًا جلفًا، وغادر. كعادتها، ذهبت بيڤرلي إلى نافذة غرفتها وراقبت رحيله سيرًا عبر الشارع.. وكعادتها، شعرت براحة تتسلَّل إلى روحها عندما انعطف عند الناصية. كانت تكره نفسها بسبب ذلك.

غسلت الصحون ثم أخذت الكتاب الذي كانت تقرأه إلى الخارج وجلست على السلالم الخلفية قليلًا. خرج لارس ثيرامينيوس مُتهاديًا من البناية المجاورة، وشعره الأشقر يتوهَّج بنوره الخاص الهادئ، ليُري بيڤرلي

شاحنته اللُعبة الجديدة والخدوش الجديدة على رُكبتيه. أصدرت بيڤرلي إيماءة مُشمئِزَّة لكليهما، ثم نادتها أمها بعدها من الداخل.

تعاونت المرأتان في تغيير شراشف الأسِرَّة، ومسحتا الأرضية ولمَّعتا مشمَّع المطبخ. نظَّفت أمها أرضية الحمَّام، وهو الأمر الذي امتنَّت له بيڤرلي بعُمق. كانت إلفريدا مارش امرأة ضئيلة بنظرة مُتجهِّمة وشعرٍ بدأ الشيب يخط فيه. كانت الخطوط الصارمة على وجهها تُخبر العالم أنها تعيش على الأرض منذ زمنٍ لا بأس به، وأنها تنتوي أن تبقى لوقتٍ أطول... كما كانت تُخبر العالم أن أيًّا من هذا لم يكن سهلًا، وأنها لا تتوقَّع تغييرًا مُبكِّرًا في الوضع الراهن.

سألتها وهي آتية من المطبخ مرتدية زي النادلات: «هلَّا نظَّفتِ نوافذ حُجرة الجلوس يا بيڤي؟»، ثم أضافت: «يجب أن أذهب إلى مُستشفى القديس چو في بانجور لرؤية شيريل تارينت، لقد كسرت ساقها الليلة الماضية».

ردَّت بيڤرلي: «حسنًا. ماذا حدث لمسز تارينت؟ هل سقطت أرضًا أو شيئًا كهذا؟». كانت شيريل تارينت زميلة عمل إلفريدا في المطعم.

قالت أم بيڤرلي واجمة: «لقد أُصيبت هي وذلك الأخرق الذي تزوَّجته في حادث تصادم. كان ثملًا. يجب أن تشكري الرَّب في صلواتك كل ليلة أن أباكِ لا يُعاقر الخمر يا بيوي».

قالت بيڤرلي: «أفعل ذلك»، وقد كانت تفعل ذلك بالفعل.

- «ستفقد وظيفتها على الأرجح، وهو لا يستطيع المكوث في وظيفة»، ثم زحفت نبرة خوفٍ واجم إلى صوت إلفريدا وهي تردف: «سيُضطران للإقامة في مساكن إيواء الفُقراء، على ما أظنُّ».

بالنسبة إلى إلفريدا مارش، كان هذا أسوأ شيءٍ قد يقع للمرء. أمورٌ كفقد طفلٍ أو اكتشاف أنك مريض بالسرطان لا يمكن مساواتها به. يمكن أن تكون فقيرًا، يمكن أن تقضي جل حياتك في ما كانت تصفه بـ «نبش لُقمة العيش»، لكن في ذيل كل الأمور السيئة، في قاع القاع، يقبع الاضطرار للعيش مساكن الإيواء ولعق عرق الآخرين وتقبُّله كمعروف يُفعل بك. كانت إلفيرا تعلم أن هذا هو الاحتمال الذي يواجه شيريل تارينت الآن.

- «ما إن تنتهي من تنظيف النوافذ وإخراج القمامة، يمكنك الذهاب واللعب بعض الوقت إذا رغبتِ. الليلة ليلة ذهاب والدك للعب البولينج، لذا لن يكون عليكِ إعداد العشاء. لكنني أريدك في المنزل قبل حلول الظلام.. أنت تعرفين السَّبب».

- «حاضر يا ماما».

قالت إلفريدا: «ربَّاه، لقد كبرتِ كثيرًا»، ونظرت لوهلة إلى النتوءين البارزين في سُترة بيڤرلي. كانت نظرتها مُحبَّة لكن قاسية: «لا أعلم ماذا سأفعل بمُفردي هنا عندما تتزوَّجين وتعيشين في بيتك الخاص».

قالت بيڤرلي باسمة: «سأظل هنا إلى الأبد تقريبًا».

عانقتها أمها سريعًا، وطبعت قُبلة على رُكن فمها بشفتيها الدافئتين الجافتين وقالت: «أعرف أن هذا لن يحدث، لكنني أحبك يا بيوي».

- «أنا أيضًا أحبك يا ماما».

- «تأكَّدي من عدم وجود أيٍّ آثار مسح على النوافذ عندما تنتهين»، هكذا قالت وهي تلتقط حقيبتها وتتَّجه إلى الباب. «إذا تركتِ أيًّا منها، ستتواثب العفاريت الزُرق في وجه أبيك».

- «سآخذ حذري»، قالتها بيڤرلي، ثم فيما كانت أمها تفتح الباب لتهمُّ بالخروج سألتها بيڤرلي بنبرة تمنَّت أن تكون قد نجحت في جعلها عادية: «هل رأيتِ أيَّ شيءٍ غريب في الحمَّام يا أمي؟».

نظرت إلفريدا إلى الخلف نحوها، وقطبت جبينها قليلًا، وقالت: «غريب؟».

- «حسنًا... لقد رأيت عنكبوتًا ليلة أمس. لقد زحف خارجًا من البالوعة. ألم يخبركِ أبي بالأمر؟».

- «هل أغضبتِ والدك ليلة أمس يا بيڤرلي؟».

- «تؤ! لا! لقد أخبرته أن عنكبوتًا زحف خارجًا من البالوعة وأجفلني، فقال لي إنهم اعتادوا العثور على فئرانٍ غارقةٍ أحيانًا في مراحيض المدرسة الثانوية القديمة بسبب الأمطار. ألم يخبرك بشأن العنكبوت الذي رأيته؟».

- «لا».

- «أوه، حسنًا. الأمر تافه. فقط كنت أتساءل إن كنتِ رأيتيه».

- «لم أرَ أيَّ عنكبوت. أتمنى لو كان معي مالٌ لتغيير مشمَّع أرضية الحمَّام»، ثم نظرت إلى السماء الصافية التي لا تشوبها غيومٌ وأردفت: «يقولون إن قتل عنكبوتٍ ينُزل المطر. أنت لم تقتليه، أليس كذلك؟».

قالت بيڤرلي: «بلى، لم أقتله».

نظرت أمها إليها بشفتين مزمومتين بإحكامٍ شديدٍ لدرجة أنهما اختفيتا تقريبًا، ثم سألتها ثانيةً: «متأكِّدة أن والدك لم يغضب ليلة أمس؟».

- «لا!».

- «بيوي، هل لمسك من قبل؟».

- «ماذا؟». نظرت بيڤرلي إلى أمها وقد لفَّتها حيرة كاملة. ربَّاه، إن والدها يلمسها كل يوم. «لا أفهم ما تـ...».

قاطعتها ألفريدا باقتضاب: «لا عليكِ. لا تنسي القمامة، وإذا تركتِ آثار مسحٍ على النوافذ ستتواثب العفاريت الزُرق في وجه أبيك».

- «لن...

(هل لمسك من قبل؟)

... أنسى».

- «وعودي قبل الظلام».

- «حسنًا».

(هل لمسك؟)

(أنا أقلق عليكِ كثيرًا جدًّا)

غادرت إلفريدا المنزل. ذهبت بيڤرلي إلى غُرفتها وراقبتها وهي تغيب عن النظر عند الناصية كما فعلت مع أبيها. بعدها، عندما تأكَّدت أن أمها في طريقها إلى موقف الحافلات، التقطت بيڤرلي دلو المسح، ومُنظِّف ويندكس، وبعض الخرق من أسفل الحوض، وذهبت إلى حُجرة الجلوس وبدأت في تنظيف النوافذ. بدت الشقَّة هادئة تمامًا. في كل مرَّة أصدرت الأرضية فيها صريرًا أو صُفِع باب أحد الجيران، كانت بيڤرلي تنتفض قليلًا.. وعندما

رُحِضَ مرحاض عائلة بولتون في الطابق الذي يعلوها، صدرت عنها شهقة أقرب إلى صرخة صغيرة.

لم تنفك بيڤرلي عن التحديق المتواصل في باب الحمَّام.

في النهاية، اتَّجهت بيڤرلي نحوه وفتحت بابه ونظرت إلى الداخل. لقد نظَّفت أمها المكان في الصباح، ومعظم الدماء التي تجمَّعت أمس أسفل الحوض في بركة صغيرة كانت قد ذهبت، وكذا الدماء على حواف الحوض. لكن ثمَّة لطشاتٌ عنَّابية قانية تجفُّ في وعاء الحوض نفسه، ولُطخٌ وقطراتٌ منها على المرآة وورق الحائط.

نظرت بيڤرلي إلى انعكاسها الواجم في المرآة وأدركت بهلعٍ مُفاجئ ما ورائي مُتطيِّر أن الدماء على المرآة جعلت وجهها كأنه يدمي، وفكَّرت من جديد: ماذا سأفعل حيال هذا؟ هل جُننت؟ هل أتوهَّم؟

فجأة، أصدرت البالوعة صوت تجشُّؤٍ مكتوم.

صرخت بيڤرلي وركضت خارجة وصفعت الباب خلفها، وبعد خمس دقائق كانت يداها لا تزالان ترتعشانِ بشكلٍ سيِّئ حتَّى أنها كادت أن تفلت زُجاجة الويندكس وهي تُنظِّف النوافذ في حُجرة الجلوس.

5

كانت الساعة تقترب من الثالثة عصرًا عندما انعطفت بيڤرلي إلى زقاق ريتشارد -وهو الممرُّ الضيِّق الذي يربط بين الشارعين الرئيس والأوسط- بعد أن أغلقت الشقَّة ودسَّت مُفتاحها الإضافي في جيب سراويلها الچينز، ووجدت نفسها أمام بن هانسكوم، وإدي كاسبراك، وصبي يُدعى برادلي دونوڤان.. كانوا يلعبون لُعبة إلقاء البنسات.

صاح إدي: «كيفك يا بيف! هل حظيتِ بكوابيس بسبب هذين الفيلمين؟».

- «لا»، هكذا قالت بيڤرلي وهي تجلس القُرفصاء لتُتابع سير اللعب: «كيف عرفت الأمر؟».

قال إدي: «كومة القش أخبرني»، وهو يُشير بإبهامه إلى بن، الذي كان يتورَّد خجلًا بلا أيِّ سبب واضح في نظر بيڤرلي.

سأل برادلي: «أيُّ فيلمين تكثد؟»، الآن تعرَّفته بيڤرلي. لقد أتى إلى البرِّية منذ أسبوع مع بيل دِنبروه. كانا قد ذهبا إلى حصَّة مهارات نُطق معًا في بانجور، وقد أسقطته بيڤرلي تمامًا من عقلها بشكلٍ أو بآخر. إذا سألها أحدهم عن السَّبب، كانت ستقول إنه بدا أقل أهمِّية بطريقةٍ أو بأخرى من بن وإدي.. أقل حضورًا.

قالت له: «فيلما وحوش شاهدناهما»، ثم اقتربت كالبطة في وضعية القُرفصاء إلى أن صارت بين بن وإدي: «دورك في الرمي؟».

قال بن: «أجل»، ونظر إليها سريعًا، ثم أشاح ببصره.

- «من يكسب؟».

قال بن: «إدي. إنه بارع حقًّا».

نظرت بيڤرلي إلى إدي، الذي كان يُلمِّع أظافره بهَيبة في صدر قميصه وهو يضحك.

- «هل يمكنني اللعب؟».

قال إدي: «حسنًا، معي. أمعك بنس؟».

تحسَّست بيدها داخل جيبها وأخرجت ثلاثة.

قال إدي: «يا للمسيح، كيف تجرؤين على الخروج من المنزل بمثل هذه الثروة. لو كنت مكانك لخُفت».

ضحك كلٌّ من بن وبرادلي دونوڤان.

قالت بيڤرلي بخطورة: «البنات يستطعن أن يكُنَّ جسورات بدورهن»، وبعدها بلحظة كان جميعهم يضحكون.

رمى برادلي أوَّلًا، ثم بن، ثم بيڤرلي. أما إدي فرمى آخرًا، لأنه كان يكسب. قذف أربعتهم بنساتهم نحو حائط متجر صيدلية الشارع الأوسط. أحيانًا، كانت البنسات تسقط قبل الحائط قليلًا، وأحيانًا أخرى ترتطم به وترتد عنه. في نهاية كل دورة، يحصل الرامي صاحب أقرب بنسٍ إلى الحائط على البنسات الأربعة. بعد مرور خمس دقائق، كان في حوزة بيڤرلي أربعة وعشرين بنسًا. لم تخسر سوى مرَّة واحدة.

صاح برادلي: «الفتاة تغش!»، ونهض عازمًا الرحيل. تلاشت روح دُعابته،

ونظر إلى بيڤرلي في غضبٍ وشعورٍ بالإهانة على حدٍ سواء: «يجب ألّا يُثمح الفتيات أن...».

قفز بن واقفًا. كان من الرائع رؤية بن هانسكوم يقفز.

- «اسحب كلامك!».

نظر برادلي إلى بن بفمٍ فاغر، وقال: «ماذا؟».

- «اسحب كلامك! إنّها لم تغش!».

نقل برادلي بصره من بن إلى إدي إلى بيڤرلي، التي كانت لا تزال جاثية على رُكبتيها. ثم أعاد نظره إلى بن مُجدَّدًا: «هل تُريد أن تتورَّم ثفتيك للتماثى مع باقي جثدك أيُّها الردف؟».

قال بن: «بالتأكيد»، ثم شاعت ابتسامة فجأة على وجهه. شيءٌ في تلك الابتسامة جعل برادلي يتراجع خطوة مُتردِّدة إلى الوراء. رُبَّما ما رآه في تلك الابتسامة الحقيقة البسيطة أن بن هانسكوم بعد اشتباكه مع هنري باورز والخروج سالمًا مرَّتين لا مرَّة واحدة، لن يرهب صبيًّا ناحلًا كبرادلي دونوفان (الذي يُعاني ثآليل في كل مكان على يديه، فضلًا عن لثغته الكارثية).

قال برادلي وهو يخطو خطوة أخرى إلى الوراء: «أجل، كي تتكالبوا بعدها جميعكم عليَّ»، ثم اكتسب صوته نبرة مُرتعشة وتجمَّعت الدموع في عينيه وهو يصيح: «أنتم مجموعة من الغثَّاثين!».

قال بن: «فقط اسحب الكلام الذي قلته عنها».

قالت بيڤرلي: «لا عليك يا بن»، ثم ناولت بعض العملات إلى برادلي وأردفت: «خذ نقودك. لم أكن ألعب للاحتفاظ بها على أيِّ حال».

تقاطرت دموع الخزي من رموش برادلي السُفلية. اختطف الصبي النقود من يد بيڤرلي وركض إلى طرف زقاق ريتشارد من جهة الشارع الرئيس. ظلَّ الآخرون يرمقونه بأفواهٍ فاغرة. بعد أن ابتعد لمسافة آمنة، التفت برادلي إليهم وصاح بلثغته: «أنتِ مُجرَّد مومث صغيرة، هذا كل شيء! غثَّاثة! غثَّاثة! وأمك عاهرة!».

شهقت بيڤرلي مصعوقة. ركض بن نحو برادلي لكنه لم ينجح سوى في التعثُّر في صندوق والسقوط أرضًا. أما برادلي فاختفى، وكان بن يعلم في

قرارة نفسه أنه لن يلحق به يومًا أبدًا، لذا استدار إلى بيڤرلي ليرى إن كانت على ما يُرام. لقد هزَّته الكلمة بقدر ما هزَّتها تمامًا.

لاحظ المعاناة على وجهها، فتحت فمها لتقول أشياء على غرار إنها على ما يُرام، وأن لا عليك، وأن الحجارة والعصي تكسران عظامي لكن الكلمات لا تؤذني قط، عندما مرَّ بخاطرها السؤال

(هل لمسك من قبل ؟)

الذي طرحته أمها. يا له من سؤالٍ غريب. أجل، بسيط، لكنه بلا معنى، ومُشبَّع بتلميحات باطنية كالحة السواد كقهوة قديمة وتُنذر بشؤم. لذا بدلًا من أن تقول بيڤرلي إن السُباب لا يقدر على إيذائها قط، انفجرت باكية.

نظر إدي إليها مُرتبكًا، وأخرج بخَّاخه من جيب سراويله، وشفط نفحاته، ثم انحنى أرضًا وبدأ يجمع البنسات المُتناثرة على الأرض. كان ثمَّة تعبيرٍ نيِّق وحريص يلوح على وجهه وهو يفعل ذلك.

بشكلٍ غريزي، اقترب بن منها راغبًا في مُعانقتها لتهدئة روعها، لكنه توقَّف. كانت تُشعُّ جمالًا.. وفي مواجهة هذا الجمال الأخَّاذ كان يشعر بالعجز.

قال لها: «ابتهجي»، وهو يعلم أنه يبدو أحمق لكنه لم يستطِع التفكير في شيءٍ أفضل لقوله. لمس كتفيها برقَّة (كانت قد وضعت يديها على وجهها لتُخفي عينيها الدامعتين ووجنتيها القانيتين)، ثم سحب يديه بعيدًا كما لو أنها أسخن من أن يُحتمل لمسها. كان خدَّاه يتورَّدان بشدَّة الآن لدرجة أن بدا على وشك الإصابة بسكتة. قال ثانيةً: «ابتهجي يا بيڤرلي».

أنزلت يديها وصاحت بصوتٍ باكٍ حانقٍ: «أمي ليست عاهرة! إنها... إنها نادلة!».

استقبلها صمتٌ مُطبِق. نظر بن إليها بفمٍّ مفتوح على اتِّساعه، كذلك وإدي من قُرب أرضية الزُقاق سيِّئة الرصف ويده مليئة بالبنسات، وفجأة انفجر ثلاثتهم ضاحكين في هِستيريا.

صاح إدي ضاحكًا: «نادلة!». لم يكن لديه سوى فكرة ضبابية عن معنى كلمة عاهرة، لكن شيئًا في هذه المُقارنة جعلها فُكاهية تمامًا. «أحقًّا هي كذلك!».

شهقت بيڤرلي وهي تضحك وتنهنه في الوقت نفسه: «أجل، أجل، هي كذلك!».

كان بن يضحك لدرجة أنه لم يقوَ على النهوض واقفًا، فألقى بثقله فوق حاوية قمامة. ضغط وزنه الغطاء إلى داخل الحاوية ما جعل الأخيرة تلفظه على أرض الزُقاق ساقطًا على جانبه. أشار إدي إليه وهو يعوي ضاحكًا، وساعدته بيڤرلي على النهوض.

فُتِحَت نافذة من فوقهم وصاحت منها امرأة: «اغربوا عن هنا أيُّها الأولاد! يوجد هنا أناس يعملون في المناوبة المسائية ويرغبون في بعض النوم! العبوا بعيدًا».

ودونما تفكير، شابك ثلاثتهم أيديهم معًا -تتوسَّطهما بيڤرلي- وركضوا إلى الشارع الأوسط، دون أن ينفكُّوا عن الضحك.

6

جمَّعوا ما لديهم من نقود واكتشفوا أن معهم أربعين سنتًا، ما يكفي لابتياع مخفوقيّ أيس كريم من متجر الصيدلية، ولأن السيِّد كين عجوزًا مُتبرِّمًا لا يسمح للأطفال دون الثانية عشرة أن يتناولوا ما ابتاعوه عند المشرب (كان يدَّعي أن أجهزة لعبة بينبول في نهاية الغُرفة قد تُفسد طبيعتهم البريئة)، فأخذ ثلاثتهم المخفوقين في حاويتين بلاستيكيتين عملاقتين، وذهبوا إلى حديقة باسي وجلسوا على العُشب لاحتسائهما. كان مخفوق بن بطعم القهوة، ومخفوق إدي بطعم الفراولة. توسَّطت بيڤرلي بين الصبيين وفي يدها شفَّاطة، ترشف رشفة من كل واحدٍ كفراشة تقتات على رحيق الأزهار. شعرت بأنها صارت على ما يُرام للمرَّة الأولى منذ أن بصق المصرف الدماء في الليلة الماضية. كانت مُنهكة ومُستنزفة عاطفيًا، لكنها بخير، وتشعر بسلام واتِّساق مع ذاتها.. للوقت الحالي على أيِّ حال.

قال إدي في النهاية: «لا أفهم في الحقيقة ما خطب برادلي، إنه لم يتصرَّف هكذا من قبل». كان لصوته نبرة اعتذارية مُحرَجة.

قالت بيڤرلي: «لقد دافعت عني»، ثم لثمت بن على وجنته بغتةً، قبل أن تردف: «شكرًا».

احتقن وجه بن بالدماء من جديد، وغمغم: «لأنك لم تكوني تغشين»، ثم جرع فجأة نصف مخفوق القهوة في ثلاث جرعات عملاقة، ونتج عن ذلك تجشؤٌ عالٍ علو الأعيرة النارية.

سأل إدي: «هل أفرغت بعضه عليك يا زميل؟»، فوجدت بيڤرلي نفسها تضحك رغمًا عنها وهي تُمسك معدتها.

قالت ضاحكة: «كفاكما نكاتًا.. معدتي تؤلمني من كثرة الضحك. توقَّفا أرجوكما»..

كان بن يبتسم. في هذه الليلة، وقبل أن ينام، سيسترجع اللحظة التي لثمته فيها مرارًا وتكرارًا في عقله.

سألها: «هل أنتِ على ما يُرام حقًّا الآن؟».

أومأت إليه: «لم أبكِ بسببه، ولا بسبب ما نعت به أمي. أنا مُنهكة من شيءٍ وقع الليلة الماضية». تردَّدت قليلًا ونظرت من بن إلى إدي ثم إلى بن من جديد: «يجب... يجب أن أخبر شخصًا ما، أو أُريه، أو شيئًا كهذا. أعتقد أنني بكيت لأنني كنت خائفة من الإصابة بالخبال».

سألها صوتٌ جديد: «عمَّ تتحدَّثين يا مخبولة؟».

كان هذا ستانلي يوريس. دائمًا ما يبدو ضئيلًا، ونحيلًا، وأنيقًا بدرجة خارقة.. أنيقًا بدرجة مُبالغ فيها بالنسبة إلى صبي شارف بالكاد الحادية عشرة من عمره. بقميصه الأبيض المزموم بأناقة في سراويله الجينز الجديدة المَكويَّة، وشعره المُصفَّف بعناية، وطرفي فردتي حذائه الكيدس النظيفتين بلا شائبة، كان يبدو أصغر رجُل بالغ في العالم. ثم ابتسم لهم بعدها، فانكسر الإيهام.

فكَّر إدي، خسارة، الآن لن تحكي بيڤرلي ما كانت على وشك حكيه، لأن ستان لم يكن موجودًا عندما نعت برادلي أمها بذلك النعت.

لكن بعد هنيهة من التردُّد، حكت بيڤرلي قصَّتها بالفعل. لأن ستان كان يختلف عن برادلي بشكلٍ ما. إن له حضورًا ما ليس موجودًا في برادلي.

ستانلي واحد منا، هكذا فكَّرت بيڤرلي، وتعجَّبت لماذا يُسبِّب لها هذا قشعريرة تبدو أشبه بطفح جلديٍّ مُفاجِئ. أنا لا أصنع معروفًا لأحدهم بإخباري هذه القصَّة، ولا لنفسي أيضًا.

لكن أوان هذه الأفكار قد فات. فهي تحكي لهم بالفعل. افترش ستان الأرض معهم، وسيماء الخطورة ما زالت تحتلّ وجهه. عرض عليه إدي ما تبقّى من مخفوق الفراولة الذي يحمله، لكن ستان هزّ رأسه مُعتذرًا فحسب، دون أن تُفارق عيناه عيني بيڤرلي، ولم ينبُس أيٌّ من الصبية ببنت شفة.

حكت لهم عن الأصوات، وعن تعرُّفها صوت روني چورچان ضمنها. كانت تعرف أنها ميِّتة، لكنها سمعت صوتها بالفعل. حكت لهم عن الدم، وكيف أن أباها لم يرَه أو يشعر بوجوده، وكيف لم ترَه أمها هذا الصباح.

عندما انتهت، نظرت حولها في الوجوه المُحيطة بها، خشت ما قد تراه فيها... لكنها لم ترَ أيَّ تكذيب. رأت رُعبًا واضحًا، لكن لا تكذيب.

في النهاية قال بن: «لنذهب ونلقي نظرة».

7

دخلوا الشقَة من الباب الخلفي، ليس فقط لأن المُفتاح الذي بحوزتها يفتح هذا الباب فحسب، لكن لأنها قالت إن أبويها سيقتلانها إذا رآها السيِّد بولتون تدخل الشقَّة مع ثلاثة صبية وهم في الخارج.

سأل إدي: «لماذا؟».

قال ستان: «لن تفهم يا أغبى خلقه. فقط كُن هادِئًا».

كاد إدي أنِ يُجيبه، لكنه نظرة أخرى إلى وجه ستان الشاحب المتوتِّر جعلته يُحافظ على فمه مُغلقًا.

كان الباب يفضي إلى المطبخ، الذي كان مغمورًا بشمس الأصيل الغاربة وصمت الصيف. صحون الإفطار تلمع في أمكانها في المصفاة، وقف أربعتهم مُتقاربين جوار منضدة المطبخ، وعندما صُفع بابٌ في الدور العلوي، قفز جميعهم في الهواء، وضحكوا بعدها بعصبية.

سأل بن: «أين؟». كان يهمس.

بقلبٍ ينبض في صدغيها، قادتهم بيڤرلي عبر الرواق الصغير الذي تحفُّه غُرفة نومٍ والديها من جهة، ويقع الحمَّام المُغلق في نهايته. جذبت بيڤرلي الباب وفتحته، وخطت سريعًا إلى الداخل، وسحبت سلسلة السدَّادة على

الحوض، ثم تراجعت إلى الوراء وتوسَّطت بن وإدي مُجدَّدًا. كانت الدماء قد جفَّت وصارت بُقعًا حمراء داكنة على المرآة والحوض وورق الحائط. حدَّقت بيڤرلي في الدماء لأنه كان أسهل عليها التحديق فيها عن النظر إليهم. ثم بصوتٍ ضعيف بالكاد تعرَّفته سألت: «هل ترونها؟ هل يراها أيٌّ منكم؟ أهي موجودة؟».

تقدَّم بن خطوة إلى الأمام، ومرَّة أخرى صدمتها الرشاقة التي يتحرَّك بها بالنسبة إلى صبي في بدانته. لمس بإصبعه إحدى بُقع الدماء، ثم بُقعة أخرى، ومرَّر يده على خطٍّ طويلٍ منها على المرآة: «هنا.. وهنا.. وهنا». كان صوته مُحايدًا وجازمًا وهو يقولها.

قال ستان مشدوهًا نوعًا: «يا للسماء! كأن أحدهم قتل خنزيرًا هنا».

سألها إدي: «تقولين إنها لُفِظت من البالوعة؟». أشعره مرأى الدماء بالسقم وبدأت أنفاسه تتقطَّع، فتشبَّث ببخَّاخه.

جاهدت بيڤرلي كي لا تنفجر في عاصفة دموعٍ أخرى. لم تكن ترغب في فعل ذلك. كانت تخاف أنها لو فعلت سيُعدُّونها مُجرَّد فتاة أخرى وينبذونها، وجدت بيڤرلي نفسها تتشبَّث بمقبض الباب مع اجتياح موجة راحة قوية لدرجة مُخيفة لها. حتَّى هذه اللحظة لم تكن تُدركُ إلى أيِّ مدى كانت متيقِّنة من كونها جُنَّت، أو تهلوس، أو شيءٍ من هذا القبيل.

قال بن مُشدوهًا: «وأبوكِ وأُمكِ لم يرياها قط؟». كان يتلمَّس لطخة دماء جفَّت على الحوض، ثم سحب أصابعه ومسحها في ذيل قميصه وهو يُغمغم: «يا الله!».

قالت بيڤرلي: «لا أدري كيف سأتمكَّن من الدخول إلى هنا ثانيةً للاستحمام أو غسل أسناني أو... تعرفون».

سألها ستانلي فجأة: «حسنًا، لِمَ لا تُنظفين المكان؟».

نظرت بيڤرلي إليه وقالت: «أُنظِّفه؟».

- «بالتأكيد. رُبَّما لن نستطيع إزالة كل البُقع من على ورق الحائط، فهو يبدو، دون مؤاخذة، مُتهالكًا تمامًا. لكننا نستطيع إزالة الباقي. ألا يوجد عندك بعض الخِرَق؟».

قالت بيڤرلي: «أسفل حوض المطبخ. لكن أُمي ستتساءل أين ذهبت إن استخدمناها».

قال ستان بهدوء: «معي خمسون سنتًا»، ثم أردف وعيناه لا تُغادران الدماء التي لوَّثت الجزء من الحمَّام المُحيط بحوض الاغتسال: «سنُنظِّف كل شيء بقدر المُستطاع، ثم سنأخذ الخِرق إلى المغسلة العامة الموجودة من حيث جِئنا. سنغسلها ونُجفِّفها ثم تُعيدينها جميعًا أسفل الحوض قبل أن يعود أبوك وأُمك إلى المنزل».

اعترض إدي قائلًا: «أُمي تقول إن آثار الدماء لا تخرج من الملابس.. تقول إنها عنيدة أو شيءٌ كهذا».

فلتت ضحكة هِستيرية من بن وقال: «لا يهم إن كانت ستزول أم لا، هم غير قادرين على رؤيتها».

لم يحدث أن سأله أحدهم من يقصد بـ «هم».

قالت بيڤرلي: «حسنًا. لنُجرِّب».

8

طوال نصف الساعة التالية، عمل أربعتهم على تنظيف المكان كخدم من الجان مُسخَّرين، ومع تلاشي الدماء رويدًا رويدًا من على الحوائط والمرآة وجسد الحوض، شعرت بيڤرلي بقلبها تذوي انقباضته ويزداد خِفَّة. نظَّف بن وإدي الحوض والمرآة، فيما تولَّت هي الأرضية. عمل ستان على تنظيف ورق الحائط بحذرٍ بالغ، مُستخدمًا خرقة جافَّة تقريبًا. في النهاية، تمكَّنوا من إزالة أغلب الدماء تقريبًا. أنهى بن المهمَّة باستبدال المصباح الذي يعلو الحوض بآخر من صندوق المصابيح الموجود في حُجرة المؤن. كانت هناك مصابيح عديدة، فقد اشترت إلفريدا مارش مخزون عامين كاملين من متجر ديري ليونز في أثناء خصمهم السنوي على المصابيح في الخريف قبل الماضي.

استخدموا دلو المسح الخاص بإلفريدا، وسائل آجاكس للتنظيف، وفيضًا من المياه الساخنة، وراحوا يستبدلون المياه سريعًا لأن أيَّهُم لم يكن يرغب في وضع يده فيها ما إن يستحيل لونها إلى الوردي.

في النهاية تراجع ستانلي إلى الوراء، ونظر إلى الحمَّام بعينٍ ناقدة لصبي لم تكن الأناقة والنظافة خصلتين أصيلتين فيه فحسب، بل غريزيَّتان في الواقع.

كانت هناك آثار دماء باهتة على ورق الحائط يسار الحوض، في المواضع التي كان فيها الورق رقيقًا ومهترِئًا تمامًا، ما منع ستانلي عن فعل ما هو أكثر من تلطيخه برفق. لكن حتَّى في هذا الموضع الصعب كانت حِدَّة الدماء المشؤومة قد خفتت كثيرًا عن ذي قبل، ولم تُشكِّل أكثر من طمسة باهتة بلا معنى.

- «شكرًا لكم».

قالتها بيڤرلي لهم جميعًا. لم تكن تذكُر أنها عنت شُكر شخصٍ بهذا العُمق من قبل قط. «شكرًا لكم جميعًا».

غمغم بن: «لا شكر على واجب»، ومن دون شكٍّ كان يحمرُّ خجلًا من جديد.

وافقه إدي: «بالتأكيد».

قال ستانلي: «لنذهب ونغسل تلك الخِرَق». كان وجهه عازمًا وهو يقولها، بل صارمٌ تقريبًا. لاحقًا ستُفكِّر بيڤرلي أنه رُبَّما ستان وحده من أدرك أنهم أخذوا خطوة أخرى نحو تلك المُواجهة القادمة التي يتعذَّر تصوُّر أبعادها.

9

عايروا ما مِقداره كوبًا من مسحوق تايد الخاص بالسيِّدة مارش، ووضعوه في برطمان مايونيز. عثرت بيڤرلي على كيس تسوُّق ووضعت الخِرَق الدامية فيه، وذهب أربعتهم إلى مغسلة كلين-كلوز العمومية التي تقع عند ناصية التقاء شارعي كوني والرئيس. على بُعد مبنيين، كانوا يرون القناة تلتمع بضوءٍ أزرق ساطع في شمس الأصيل.

كانت مغسلة كلين-كلوز خاوية إلا من امرأة ترتدي زي المُمرِّضات الأبيض، وتجلس مُنتظرة إلى أن يُنهي المُجفِّف دورته. رمقت المرأة الصبية الأربعة ببعض الريبة، ثم عادت تدس وجهها في النسخة ورقية الغُلاف من رواية مدينة بايتون بلاس.

قال بن بصوتٍ خفيض: «سنستخدم ماءً باردًا. أمي تقول إنه يجب غسل الدماء بماءٍ بارد».

ألقوا بالخِرَق في الغسَّالة فيما غيَّر ستان رُبعي الدولار اللذين في حوزته إلى أربعة دايمات ونيكلتين. ثم عاد إليهم وراقب بيڤرلي وهي تنثر التايد فوق الخِرق قبل أن تغلق باب الغسَّالة. دسَّ ستانلي الديمين إلى الفتحة المُخصَّصة للعُملات وأدار مقبض التشغيل.

كانت بيڤرلي قد صرفت كل البنسات التي ربحتها في لعبة الرمي على مخفوقي الأيس كريم، لكنها وجدت أربعة منها ناجية في الجيب الأيسر لسراويلها الچينز. أخرجت بيڤرلي العُملات بصعوبة ومدَّت يدها بها لستان، الذي بدا كمن جُرحت كرامته وهو يقول: «يا للمسيح، أأصطحب فتاة إلى موعدٍ في مغسلة وأوَّل ما تفعلهُ أن ترغب في أن تدفع لنفسها؟».

ضحكت بيڤرلي قليلًا وقالت: «أأنت مُتأكِّد؟».

قال ستان بطريقة جافة: «بلا ريب. أعني، إن قلبي مفطور على فُراق تلك البنسات الأربعة يا بيڤرلي، لكنني مُتأكِّد».

اتَّجه أربعتهم إلى صف المقاعد البلاستيكية الموضوعة بُمحاذاة حائط المغسلة وجلسوا هناك، لا يتكلَّمون. أخذت الغسَّالة طراز مايتاج في القبقبة والأزيز، بينما كُتل رغاوي الصابون تصفع الزُجاج السميك الذي يحيط بكوَّتها. في البداية كانت الرغاوي وردية، وشعرت بيڤرلي وهي تنظر إليها، لكنها وجدت صعوبة في إشاحة نظرها عن المشهد. كانت للرغوة الدامية جاذبية شنيعة. ظلَّت المرأة المُمرِّضة ترمقهم من كثب أكثر فأكثر محتجبة بكتابها. كانت خائفة على الأرجح من أن يكونوا مُشاكسين، لكن الآن، بدأ صمتهم المُريب هذا في إثارة أعصابها. عندما أنهى مُجفِّفها دورته أخرجت ملابسها، وطوتها، ووضعتها في الحقيبة البلاستيكية الزرقاء المُخصَّصة للملابس المغسولة وغادرت، ورمقتهم بنظرة أخيرة مُتحيِّرة وهي تخرج من الباب.

ما إن غادرت، قال بن فجأة وبخشونة صارمة تقريبًا: «لستِ وحدك».

سألته بيڤرلي: «ماذا؟».

كرَّر بن عبارته: «لستِ وحدك. أتعرفين...».

ثم توقَّف ونظر إلى إدي، الذي أومأ برأسه موافقًا. نظر إلى ستان، ووجده غير سعيد... لكنه هزَّ كتفيه بعد لحظة وأومأ بدوره.

سألته بيڤرلي: «عمَّ تتحدَّث بحق السماء؟». كانت قد سئمت الناس الذين يقولون لها أمورًا اليوم يتعذَّر تفسيرها. أمسكت بذراع بن من الأسفل وقالت: «إن كنت تعرف شيئًا عن هذا الأمر، فأخبرني!».

سأل بن إدي: «هل ترغب في فعل ذلك؟».

هزَّ إدي رأسه، وأخرج بخَّاخه من جيبه وشفط منه بشهيقٍ عملاق.

مُتحدِّثًا ببطء، ومنتقيًا كلماته، سرد بن على بيڤرلي كيف التقى بيل دِنبروه وإدي كاسبراك في البرِّية في آخر يوم دراسي. لم يمرَّ على هذا سوى أسبوع تقريبًا، على الرغم من صعوبة تصديق هذا. أخبرها كيف تعاونوا على بناء السدِّ في البرِّية في اليوم الذي تلى ذلك، وحكى لها قِصَّة بيل وكيف حرَّكت صورة أخيه الميِّت رأسها وغمزت له. ثم حكى لها قصَّته الخاصة مع المومياء التي تسير على صفحة مياه القناة المُجمَّدة في عزِّ الشتاء القارس، بينما البالونات التي تمسكها تطفو عكس اتِّجاه الريح. استمعت بيڤرلي إلى كل ذلك بهلعٍ مُتزايد، واستطاعت أن تشعر بعينيها تتَّسعان، وبأطرافها الأربعة تعتريها البرودة.

توقَّف بيل عن الكلام ونظر إلى إدي. استنشق إدي نفسًا ذا صفير من البخَّاخ ثم حكى قصَّته مع المجذوم مرَّةً أخرى، مُتحدِّثًا -على النقيض من بُطء بن- بأسرع ما يستطيع. تعثَّرت كلماته إحداها في الأخرى في أثناء تزاحُمها المُتعجِّل للهروب من فمه والضياع بعدها.. ثم أنهى روايته مُبتلعًا عَبرَة طفيفة، لكنه لم يبكِ هذه المرَّة.

- «وأنت؟». هكذا سألت بيڤرلي وهي تنظر إلى ستان.

- «أنا...».

غشاهم صمتٌ مُفاجئ، وجعلهم جميعًا يجفلون فزعًا بالطريقة ذاتها التي قد يُفزعهم بها انفجارٌ مُفاجِئٌ.

قال ستان: «الغسيل انتهى».

راقبوه جميعًا وهو ينهض -ضئيلًا، حريصًا، حلو الشمائل- ويفتح باب الغسَّالة. أخرج ستان الخِرَق المُلتصقة معًا في تكتُّلٍ واحِدٍ وتفحَّصها.

ثم قال: «ثمَّة لونٌ طفيف ما زال عالقًا، لكنه ليس سيِّئًا تمامًا. يبدو كعصير التوت البرِّي».

عرض عليهم ستان الخِرَق، فأومأ جميعهم بشكلٍ رسمي، كأنما يوافقون على وثائقٍ هامة. شعرت بيڤرلي براحة كالتي شعرتها عندما صار الحمَّام نظيفًا مرَّةً أخرى. إنها قادرة على تحمُّل مرأى الطَّمسة الخافتة فاتحة اللون العالقة بورق الحائط المُقشَّر، كما تستطيع تحمُّل اللون الوردي الخافت على خِرَق التنظيف الخاصة بأمها. لقد فعلوا ما في وسعهم حيال الأمر، وبدا لها أن هذا هو الشيءُ الهام حقًّا. رُبَّما لم ينجح الأمر بالكامل، لكنها اكتشفت أنه نجح بالقدر الكافي كي يبثُّ سلامًا في قلبها، ويمنحها أخوة، وقد كان هذا كافيًا تمامًا بالنسبة إلى بيڤرلي ابنة آل مارش.

ألقى ستان بالخِرَق إلى أحد المُجفِّفات التي على هيئة براميل ولقَّمه عشرة سنتات. بدأ المُجفِّف عمله، فعاد ستان واتَّخذ مقعده بين إدي وبن.

جلس أربعتهم صامتين بعض الوقت مرَّة أخرى، يُشاهدون الخِرَق وهي تعلو وتنخفض، تعلو وتنخفض. كان أزيز المُجفِّف الذي يعمل بالجاز مُهدِّئًا، بل مُخدِّر تقريبًا. مرَّت امرأة بالقُرب من الباب المفتوح وهي تدفع عربة مليئة بالبقالة. نظرت إليهم، ومضت في طريقها.

قال ستان: «لقد رأيت شيئًا بدوري، لكنني لا أريد التحدُّث عنه، لأنني أرغب في الاعتقاد أنه حُلمٌ أو شيء من هذا القبيل، بل رُبَّما نوبة كالتي يُصاب بها ذلك الصبي ستاڤير. أيعرف أحدكم ذلك الصبي يا رفاق؟».

هزَّ بن وبيڤرلي رأسيهما علامة على النفي، لكن إدي قال: «الصبي المُصاب بالصرع؟».

- «أجل هو. لهذه الدرجة كان الأمر مُريعًا. أُفضِّل التفكير في أنني أُصبت بأمرٍ كهذا، عن أنني رأيت شيئًا... حقيقيًا».

سألته بيڤرلي: «ماذا رأيت؟». لكنها لم تكن واثقة من أنها تريد المعرفة حقًّا. لم يكن الأمر كالاستماع إلى قصص العفاريت حول نار المُخيَّم وأنت

تلتهم النقانق في الخُبز المُحمَّص وقطع المارشميلو السوداء المُجعَّدة المشوية على ألسنة اللهب: ها هم يجلسون هنا في هذه المغسلة الخانقة.. تستطيع بيڤرلي رؤية تكتُّلات الغبار الكبيرة المُتجمِّعة أسفل الغسَّالات (أو قذارة الأشباح كما يُسمِّيها أبوها)، تستطيع رؤية ذرَّات الغبار المُتراقِصَّة في سهام الشمس النافذة من النوافذ المُتَّسخة، تستطيع رؤية المجلَّات القديمة ذات الأغلفة المُنتزعة. كل هذه أشياء طبيعية. أشياء لطيفة وطبيعية ومُملَّة. لكنها خائفة، بل مذعورة تمامًا، لأنها استشعرت أن أيًّا ممَّا حكوه ليس قصصًا مُختلقة، أو وحوشًا مُختلقة. إن مومياء بن أو مجذوم إدي -أحدهما أو كليهما- قد يكون في العراء الليلة بعد تغيب الشمس.. أو رُبَّما يبحر شقيق بيل دِنبروه ذو الذراع الواحدة والغليل الذي لا يُشفى في شبكة المصارف السوداء أسفل المدينة بعينين هما عُملتان فِضِّيتان.

ومع ذلك، وعندما لم يُجب ستان سؤالها على الفور، سألته ثانيةً: «ماذا رأيت؟».

مُتحدِّثًا بحذر، قال ستان: «كنت في تلك الحديقة الصغيرة التي ينتصب فيها بُرج المياه...».

قال إدي بقتامة: «يا الله، أنا لا أحب ذلك المكان. إذا كان ثمَّة موضعٌ مسكونٌ في ديري، فهو هذا».

قال ستان بحدَّة: «ماذا؟ ماذا قلت؟».

سأله إدي: «ألا تعرف ما يُقال عن ذلك المكان؟ إن أمي تمنعني عن الذهاب إلى هناك حتَّى قبل أن تبدأ حوادث قتل الأطفال. إنها... إنها تدير بالها جيِّدًا عليّ»، ثم ابتسم لهم ابتسامة مُضطربة وأمسك ببخَّاخه بإحكام أكثر في حِجرهُ. «لقد غرق بعض الأطفال هناك. ثلاثة أو أربعة. إنهم... ستان؟ ستان هل أنت بخير؟».

كان وجه ستان قد شحب تمامًا وصار رماديًا، وراح فمه يتحرَّك بلا صوت. غابت عيناه في محجريهما حتَّى إن الآخرين لم يستطيعوا رؤية شيئًا إلا حافَّتي حدقتيه السُفليتين. تشبَّثت إحدى يديه بالفراغ بوهن، ثم سقطت إلى جانب فخذه.

فعل إدي الشيء الوحيد الذي استطاع التفكير فيه. انحنى فوقه، ووضع ذراعه النحيلة حول كتفيه المُتهدِّلين، وحشر بخَّاخه في فم ستان، وضغط ضغطه كبيرة على الزناد.

بدأ ستان يسعل ويختنق ويكغم. ثم جلس مُعتدلًا، وقد عادت عيناه تعيان العالم من جديد. أخذ يسعل كثيرًا في راحتي يديه المضمومتين، وفي النهاية أطلق شهقة هائلة ورجع بظهره في مقعده.

وعندما استطاع الكلام أخيرًا قال: «ما هذا؟».

قال إدي مُعتذرًا: «هذا دواء الربو الخاص بي».

- «يا إلهي، إن طعمه كبراز كلابٍ ميِّتة».

ضحكوا جميعًا على عبارته، لكنه كان ضحكًا عصبيًا. نظر الآخرون إلى ستان بتوتُّر، وقد بدأت وجناتهم تتوهَّج باحمرارٍ طفيف.

قال إدي بكبرياء: «إنه سيئ جدًّا، أعترف بهذا».

قال ستان: «أجل، لكن هل هو كوشير؟»، فضحك جميعهم مرَّة أخرى، رغم أن أحدهم (بمن فيهم ستان) لم يكن يعلم المعنى الفعلي للكوشير.

توقَّف ستان عن الضحك أوَّلًا، ونظر إلى إدي بإمعان وقال: «أخبرني بما تعلم عن بُرج المياه».

بدأ إدي يحكي، لكن كلًا من بن وبيفرلي أدليا بدلوهما أيضًا. إن بُرج مياه مدينة ديري ينتصب في شارع كانساس، على بُعد نحو ميلٍ ونصف من وسط المدينة، قُرب الحدود الجنوبية للبرِّية. في وقتٍ ما، قُربَ نهاية القرن الماضي، كان هو الذي يمدُّ بلدة ديري بكل احتياجاتها من المياه، بسعته التي تصل إلى ثلاثة أرباع مليون جالون.. ولأن شُرفته الخارجية الدائرية المفتوحة في الهواء الطلق أسفل سطح البُرج مُباشرةً تُقدِّم مشهدًا بانوراميًا خلَّابًا للمدينة والمناطق الريفية المُحيطة بها، ظلَّت مكانًا رائجًا حتَّى عام 1930 أو نحو ذلك. كانت العائلات تأتي إلى الحديقة التذكارية الصغيرة في صدر نهار أيَّام السبت أو الآحاد، عندما يكون الهواء عليلًا، وتصعد درجات سُلَّم البُرج الداخلية المئة وستين وصولًا إلى الشُرفة، ثم تستقبل المنظر. في كثيرٍ من

الأحيان كان الناس يفترشون الأرض ويلتهمون غداء النُزهة بالأعلى وهم يستمتعون بالمشهد.

درجات سُلَّم البُرج محصورة بين بدنه الخارجي -المدهون بلونٍ أبيض يعمي الأعين- وغلافه الأسطواني الداخلي الهائل المصنوع من الفولاذ المقاوم للصدأ الذي يبلغ ارتفاعه مئة وستين قدمًا هائلة. كانت هذه الدرجات تلتفُّ صاعدة في دورانٍ حلزونيٍ ضيِّق.

أسفل مستوى الشُرفة بالكاد، ثمَّة باب خشبي سميك مُلتحم ببدن بُرج المياه الداخلي، ويفضي إلى منصَّة تطل على الماء المُخزَّن. بُحيرة سوداء يتهادى ماؤها برفق مُضاءة بمصابيح ماغنسيوم عارية في أغطية عاكسة من القصدير. عندما يكون البُرج مُمتلئًا عن آخره، يبلغ عمق الماء مئة قدمٍ بالضبط.

سأل بن: «من أين يأتي الماء؟».

نظر كلٌّ من بيڤ وإدي وستان إلى الآخر. كانوا جميعًا يجهلون الجواب.

- «حسنًا، ماذا عن الأطفال الذين غرقوا؟».

كان لديهم معلومات أوضح قليلًا بخصوص تلك التفصيلة. يبدو أنه في تلك الأيَّام («الأيَّام الخوالي»، كما سمَّاها بن، عندما جاء دوره في الحكاية) كان الباب الذي يقود إلى المنصَّة المُطلَّة على الماء دائمًا ما يُترك مفتوحًا. في إحدى الليالي وجد صبيان -أو رُبَّما صبيٌّ واحد، أو ثلاثة على الأكثر- باب البُرج الأرضي مفتوحًا بدوره، فتراهنوا على الصعود إلى أعلى.. ثم عثروا بالخطأ على الطريق الذي يفضي إلى المنصة التي تعلو الماء بدلًا من الشُرفة الخارجية، وفي الظلام الدامس، سقطوا من فوق الحافَّة قبل أن يعرفوا بالتحديد أين هم.

قالت بيڤرلي: «لقد سمعت الحكاية من ذلك الصبي ڤيك كراملي، الذي قال إنه سمعها من والده. لذا قد تكون حقيقية. قال ڤيك إن والده أخبره أنهم ما إن سقطوا إلى المياه كانوا في عداد الموتى لأنه لم يكن ثمَّة شيءٌ في متناولهم يستطيعون التمسُّك به. كانت المنصَّة تعلوهم بالكاد، لكنها بعيدة عنهم. قال إنهم أخذوا يُحرِّكون أجسادهم في الماء، ويصرخون طلبًا للمُساعدة طوال

الليل على الأرجح، لكن أحدًا لم يسمعهم، ويبدأ الوهن يدب في أوصالهم شيئًا فشيئًا إلى أن...».

آثرت بيفرلي السكوت هنا، بعدما شعرت بذُعر الموقف يغوص في أعماق قلبها. استطاعت بعين الخيال رؤية أولئك الصبية -لا فرق إن كانت مأساتهم قد حدثت بالفعل أم أنها مُختلقة- وهم يعومون داخل الصهريج الضخم كالجراء الغارقة، تختفي رؤوسهم أسفل حافَّة الماء ويصعدون شاهقين.. ومع الهلع المتزايد الذي يستمرُّ في ترسيخ نفسه في قلوبهم، يتخبَّطون أكثر ويعومون أقل. تضرب الأحذية المُشبَّعة بالماء في كل اتِّجاه، وتحفر الأصابع في الجدران الصلبة الملساء للأنبوب الضخم بحثًا عن أيِّ مكسب بلا هوادة ولا فائدة. استطاعت تذوُّق طعم الماء الذي لا بُدَّ أنهم ابتلعوه. استطاعت سماع صوت صراخهم الذي تتبدَّد أصداؤه داخل جدران البُرج. كم لبثوا؟ خمس عشرة دقيقة؟ نصف ساعة؟ كم مضى من الوقت قبل أن تذوي صرخاتهم في النهاية، وتطفو أجسادهم على صفحة الماء ووجوههم لأسفل، كصيدٍ غريب سيكون من نصيب الحارس عندما سيأتي في الصباح التالي.

قال ستان بحلقٍ جاف: «ربَّاه».

قال إدي فجأة: «سمعت أن امرأة فقدت رضيعها هناك أيضًا. هذا ما جعلهم يغلقون المكان في وجه العامة إلى الأبد. أو على الأقل، هذا ما سمعته. كانوا يسمحون للناس بالفعل الصعود إلى أعلى، أنا أعرف ذلك. لكن في إحدى المرَّات ذهبت تلك المرأة مع طفلها الرضيع، لا أعلم بالتحديد كم كانت سنُّ الطفل، لكن تلك المنصَّة يقولون إنها تطلُّ على الماء مُباشرةً، وقد توجَّهت السيِّدة إلى الدرابزين، تحمل طفلها كما ترون.. وإما أنها ألقت به أو أنه انزلق من بين ذراعيها. سمعت أيضًا عن ذلك الرَّجُل الذي حاول إنقاذ المسكين، قائمًا بدور البطل الشُجاع. لقد قفز في الماء على الفور، لكن الطفل كان قد ذهب. رُبَّما كان يرتدي معطفًا صغيرًا أو أيَّ شيءٍ آخر، لأنه عندما تبتل ملابسك وتتشبَّع بالماء، تسحبك معها».

وضع إدي يده في جيبه فجأة وأخرج زُجاجة صغيرة بُنِّية، وابتلع منها زوجين من الحبوب البيضاء دون ماء بحلقٍ جاف.

سألته بيڤرلي: «ما هذه؟».

- «أسبرين. عندي صداع»، قالها ونظر إليها بشكلٍ دفاعي، لكن بيڤرلي لم تزد شيئًا.

أنهى بن الحكاية. بعد حادثة الطفل (قال بن إنه سمع أنها كانت في حقيقة الأمر فتاة صغيرة في الثالثة)، صوَّت مجلس المدينة على إغلاق بُرج المياه كمزار للعامة، سواء الطابق السُفلي أو ما فوقه، ووَقْف الرحلات النهارية إلى شُرفته، ظلَّ مُغلقًا منذ ذلك الحين. بالطبع كان الحارس يصعد ويهبط أحيانًا، وكذلك رجال الصيانة كل حينٍ وآخر، وتُقام جولات سياحية إليه مرَّة واحدة كل موسم، يتبع فيها المواطنون المُهتمُّون امرأة من الجمعية التاريخية صعودًا عبر الدرجات الحلزونية وصولًا إلى الشُرفة، حيث يتنهَّدون بـ «أوه» و«آه» بسبب المشهد، ويلتقطون الصور بكاميراتهم الكوداك ليعرضوها على أصدقائهم. لكن الباب الذي يقود إلى الصهريج الداخلي موصد بشكلٍ دائم حاليًا.

سأل ستان: «أما زال مليئًا بالماء؟».

قال بن: «أظنُّ ذلك. لقد شاهدت سيَّارات الإطفاء تملأ خزَّاناتها منه في موسم حرائق الحشائش. إنهم يوصِّلون خراطيمهم بالأنابيب الموجودة في القاع».

أخذ ستانلي يرمق المُجفِّف من جديد، ويشاهد الخِرق تدور بلا نهاية في حلقاتٍ مُفرغة. لقد انفرط تكتُّلها الآن، وطفت بعضها كالمظلَّات.

سألته بيڤرلي برفق: «ما الذي رأيته هناك؟».

لبُرهة، بدا أنه لن يُجيب السؤال على الإطلاق. ثم سحب نفسًا عميقًا مُرتجفًا وقال شيئًا صدمهم جميعًا لبُعده التام عن صُلب الموضوع: «سمَّاها الناس الحديقة التذكارية تيمُّنًا بسريَّة مُشاة ولاية مين التي كان قوامها 23 جنديًا خدموا في جيش الاتِّحاد إبَّان الحرب الأهلية. كانوا يُدعون فتيان ديري الزُرق. كان لهم تمثالٌ هناك في الحديقة، لكنه تحطَّم في إحدى العواصف في الأربعينيات، ولم يكن في البلدة مالٌ يكفي لإصلاح التمثال، لذا بنوا حوضًا للطيور مكانه.. حوض طيور حجريًا كبيرًا».

كانوا جميعًا ينظرون إليه. ابتلع ستان لُعابه، وصدر عن هذا طقطقة مسموعة في حلقه.

– «أنا أهوى مُراقبة الطيور. عندي ألبوم خاص بها، ونظَّارة مُعظِّمة ماركة زايس–أيكون، وأشياء أخرى»، ثم نظر إلى إدي وقال: «هل تبقَّى معك بعض الأسبرين؟».

ناوله إدي الزجاجة، فتناول ستان حبَّتين، ثم تردَّد لحظة، وأخذ حبَّة ثالثة قبل أن يُرجع الزجاجة إلى إدي ويبتلع الحبوب واحدة تلو الأخرى بينما تلتوي قسمات وجهه. ثم واصل سرد حكايته.

10

حدثت مواجهة ستان في آخر نهارٍ مُمطرٍ من أيَّام أبريل قبل شهرين. كان قد ارتدى معطفه الواقي من المطر، ووضع كتابه عن الطيور ونظَّارته المُعظِّمة في حقيبة ضد الماء مزوَّدة برباطٍ في قمَّتها، واتَّجه إلى الحديقة التذكارية. كان في العادة يخرج بصحبة والده، لكن والده يتعيَّن عليه العمل لوقتٍ مُتأخِّر اليوم، وقد اتَّصل خصيصًا في وقت الغداء للتحدُّث إلى ستان.

أحد زبائنه في الوكالة، مُراقب طيورٍ آخر، رصد ما يعتقد أنه عصفور كاردينال ذكر –من نوع فرينچيليداي ريتشموندينا– يشرب من حوض الطيور في الحديقة التذكارية، هكذا أخبره والده. إنها –أي الطيور– تحب أن تأكُل وتشرب وتستحم هناك قُرب المساء، وقد كان من النادر تمامًا رصد كاردينالٍ على هذا البُعد شمالًا من ولاية ماساتشوستس. سأل والد ستان ابنه إن كان يستطيع الذهاب إلى الحديقة ليرى إن كان بإمكانه رصده؟ كان يعلم أن الطقس سيئ تمامًا، لكن...

وافق ستان، وحرصت أمه أن تجعله يَعِدَها أن يُبقي غطاء رأس معطفه على دماغه طوال الوقت. كان ستان سيفعل ذلك على أيِّ حال. كان الصبي حسَّاسًا جدًّا، ولم يحدث من قبل أن وقعت أيُّ معارك لإجباره على ارتداء النعال المطَّاطية أو السراويل التحتية الإضافية في الشتاء.

سار ستان مسافة الميل والنصف إلى الحديقة التذكارية في مطرٍ خافت

خجول لم يكن رذاذًا حتّى، بل أقرب لضباب ثابتٍ مُعلَّق في الهواء. كان النسيم جامدًا لكنه مُنعشٌ في الوقت نفسه، وعلى الرغم من أكوام ثلوج الشتاء الأخيرة الآخذة في التناقص أسفل الشُجيرات وفي بساتين الأشجار (التي كانت يبدو كأكوام أغطية وسادات مُتَّسخة في نظر ستان)، فاحت في الهواء رائحة البراعم الجديدة. بالنظر إلى فروع أشجار الدردار والسنديان والقيقب التي تبرز في مقابلة السماء البيضاء الرمادية، شعر ستان أن صورها الظلِّية تبدو أكثر سُمكًا بشكلٍ غامض. لسوف تنفجر مُتفتِّحة خلال أسبوع أو أسبوعين باسطة أوراقًا خضراء رقيقة وشفَّافة تقريبًا.

للهواء رائحة خضراء اليوم، هكذا فكَّر وابتسم قليلًا.

جدَّ في سيره لأن ضوء النهار سيغيب في غضون ساعة أو أقل. كان ستان نيِّقًا صعب الإرضاء بخصوص رصده للطيور كما هو مع ملابسه وعاداته الدراسية، وإذا لم يكن سيُتاح له ما يكفي من الضوء كي يكون مُتأكِّدًا تمامًا من رصده الكاردينال، فلن يسمح لنفسه بضمِّه إلى كتابه حتّى لو كان يعلم تمام العلم في قرارة نفسه أنه رآه بالفعل.

قطع الصبي الحديقة التذكارية في خطٍّ مائل. كان بُرج المياه بناءً عظيمًا أبيض اللون إلى يساره. بالكاد نظر ستانلي إليه، فلم يكن لديه أدنى اهتمام ببُرج المياه.

إن الحديقة التذكارية مُستطيلٌ تقريبي ينزلق أسفل التلَّة. كانوا يبقون على حشائشها (البيضاء الميِّتة في هذا الوقت من العام) مجزوزة بعناية في فصل الصيف، وكانت تحدُّها أحواض زهورٍ دائرية، غير أنها لم تكن تحتوي على منطقة ألعاب. كانت تُعد حديقة للكبار.

عند الطرف البعيد، تميل الأرض تدريجيًا قبل أن تنزلق بحدَّة إلى شارع كانسباس والبرِّية من ورائه. كان حوض الطيور الذي ذكره والده يقف في هذه المنطقة المُسطَّحة، وهو طبقٌ حجريٌ مُسطَّح موضوع على قاعدة تمثال أكبر حجمًا بكثير من الوظيفة المتواضعة التي عُهدت إليها، والد ستان أخبره أنه قبل نفاد المال، كانوا ينتوون إعادة تمثال الجُندي إلى مكانه مُجدَّدًا.

قال ستان: «أُفضِّل حوض الطيور أكثر يا أبي».

فرك السيِّد يوريس شعره وقال: «أنا أيضًا يا بُني. اصنعوا مزيدًا من الأحواض ورُصاصاتٍ أقل، هذا شعاري».

على قمَّة هذه القاعدة يوجد شعارٌ محفورٌ في الحجر. قرأه ستانلي لكنه لم يفهم معناه، فقد كانت الألفاظ اللاتينية الوحيدة التي يفهمها هي تصنيف أجناس الطيور في كتابه.

كان النقش يقول:

أباريبات إيدولون سينكس[1].

- بلينيوس

جلس ستان على إحدى الدَّكك، وأخرج ألبوم الطيور من حقيبته، وانتقل إلى صورة الكاردينال مرَّةً أخرى مُراجعًا إيَّاها، جاعلًا خصائصه الشكلية المُميَّزة مألوفة لعينيه. من العسير عدم تمييز ذكر كاردينال، فلونه أحمر كالحمم بالرغم من أنه ليس كبيرًا جدًّا، لكن ستان صارم جدًّا في عاداته وتقاليده، ولطالما أراحته هذه الأمور وعزَّزت شعوره بالمكان والانتماء في هذا العالم. هكذا تدارس ستان الصورة جيِّدًا لثلاث دقائق قبل أن يغلق الكتاب (كانت رطوبة الجو قد بدأت في إتلاف أطراف صفحاته)، ويعيده إلى الكيس. ثم أخرج نظَّارته المُعظِّمة ووضعها على عينيه. لم يجد حاجة لتعديل ضبط مجال البؤرة، لأن آخر مرَّة استخدم فيها النظَّارة كان جالسًا على الدكَّة ذاتها، يرصد حوض الطيور ذاته.

يا للصبيِّ النيِّق الصبور. لم يتململ. لم ينهض ليسير في الجوار أو ينقل نظَّارته هنا وهناك ليتفحَّص الموجودات الأخرى التي قد تستحق التفحُّص. فقط جلس مكانه ثابتًا، ونظَّارته الميدانية موجَّهة إلى حوض الطيور، فيما تكاثف الضباب في قطرات ندى مُنتفخة على معطفه الأصفر الواقي من المطر.

لم يشعر بالملل. كان ينظر إلى ما يعادل بيئة طيور طبيعية. ثمَّة أربعة عصافير دورية جالسة في الحوض، تغمس نفسها في الماء بمناقيرها، وتنثر

(1) باللاتينية: قد ظهر شبح رجُلٍ عجوزٍ.

قطرات الماء عبثًا على أكتافها وظهورها. جاء طائر قيقٍ أزرق ينعق كشُرطي يُفرِّق ثُلَّة من المُتسكِّعين. كان القيق كبيرًا في حجم منزل عبر نظَّارة ستان، وبدت صرخاته المُشاكسة رفيعة بشكلٍ سخيف في أذنيه بالمُقارنة (بعدما تطيل النظر بثبات عبر النظَّارة فإن الطيور المُضخَّمة التي تراها تتوقَّف عن كونها غريبة وتكتسب حقيقة جديدة). طارت العصافير بعيدًا. تهادى القيق -الذي صار الزعيم الآن- مُختالًا وتحمَّم، ثم ضجر وغادر. عادت العصافير إلى الحوض، قبل أن تطير من جديد عندما اندفع زوجان من طيور أبو حناء إلى الحوض كي يُناقشا -رُبَّما- المسائل الهامة المُتعلِّقة بعظامها المجوَّفة. كان والد ستان يضحك كثيرًا على ظنِّ ستان المتردِّد بأن الطيور رُبَّما تتناقش معًا. بالتأكيد كان الصبي متيقِّنًا أن الطيور ليست ذكية بما يكفي لتتكلَّم، وأن أدمغتها وأمخاخها صغيرة جدًّا لمثل هذه الأمور... لكن يا الله لكم تبدو كأنها تتكلَّم! انضم إلى زوجي أبو حناء طائرٌ ثالث أحمر اللون. عدَّل ستان بعُجالة مجال تركيز البؤرة في نظَّارته قليلًا. أهو...؟ لا، إنه التانجر القرمزي. طائرٌ جيِّد هو لكنه ليس الكاردينال الذي يبحث عنه. جاء التانجر ومعه عصفور من نوع فليكر، هذا الأخير زائر معتاد ومألوف لحوض الطيور في الحديقة التذكارية. استطاع ستان تمييزه من جناحه الأيمن المُمزَّق.. وكما هو الحال دائمًا، راح ستان يتكهَّن كيف يمكن أن يكون الأمر قد حدث. التفسير الأرجح أنه التقى بقطٍّ ما. هناك طيورٌ أخرى تغدو وتروح. رأى ستان طائر السوادية الذي يبدو قبيحًا وأخرق كعربة نقل طائرة، وعصفورًا أزرق، وفليكر آخر، وفي النهاية كوفئ برؤية طائرٍ جديد. لم يكن كارديناله، بل شحرور البقر الذي بدا هائل الحجم وغبيًّا عبر عدستي النظَّارة المُعظِّمة. دَلَّى ستان النظَّارة على صدره وأخرج كتاب الطيور بحرص من الكيس مرَّة أخرى، آملًا ألا يطير شحرور البقر قبل أن يتثبت من رؤيته. على الأقل، سيحصل على شيءٍ ليريه لأبيه عندما يعود إلى المنزل.. وقد آن أوان الرحيل. كان الضوء يتلاشى سريعًا. شعر ستان بأنه بارد ومُبتلّ. تفحَّص كتابه، وحدَّق عبر النظَّارة من جديد. كان الطائر لا يزال هناك، لا يستحم إنما يقف على حافَّة الحوض فحسب مُختالًا بهيئته البلهاء. من شبه المؤكَّد أنه شحرور البقر. لكن من دون

أيِّ علامة مُميِّزة -أو على الأقل لا علامة يمكن تمييزها من هذا المسافة-، وفي ذلك الضوء الخافت، من الصعب أن يتأكَّد المرء بنسبة مئة بالمئة. لكن رُبَّما ما زال أمامه مُتَّسع من الوقت والضوء لنظرة أخرى مُتفحِّصة. نظر ستان إلى الصورة في كتابه، وتدارسها بعبوسٍ وتركيزٍ شرسين يتناميان على جبينه، ثم رفع نظَّارته ثانيةً. ما إن ثبَّتها على حوض الطيور انطلق دويٌّ مُفرَّغٌ هائل أفزع شحرور البقر -إن كان شحرور بقر حقًّا- وجعله يُحلِّق بعيدًا. حاول ستان تتبُّعه بنظَّارته، مدركًا كم أن فُرصة رؤيته مرَّةً أخرى زهيدة، لكنه أضاعه في النهاية وأصدر هسيسًا نكدًا من بين أسنانه. حسنًا، إن جاء مرَّة قد يعود مرَّةً أخرى، كما أنه مُجرَّد شحرور بقر...

(غالبًا شحرور بقر)

... في النهاية، لا هو النسر الذهبي ولا الأوك العظيم.

أعاد ستان النظَّارة إلى حافظتها ووضع ألبوم طيوره جانبًا، ثم نهض واقفًا ونظر حوله ليرى إن كان قادرًا على تحديد مصدر ذلك الصوت العالي المُفاجئ. لم يبد الصوت كطلقٍ ناري أو فرقعة عادم ماسورة سيَّارة، بل أقرب إلى باب فُتِح عنوة في فيلمٍ مُخيف عن القلاع والأقبية... مصحوبًا بمُؤثر صدى صوتٍ سمعي.

لم يرَ شيئًا.

نهض ستان واتَّجه إلى المنحدر الذي يفضي إلى شارع كانساس. كان بُرج المياه إلى يمينه في تلك اللحظة، أُسطُوانة شامخة بيضاء بلون الطباشير، تبدو كطيفٍ وسط الضباب والظلام المُتنامي. كانت تبدو... كأنها تطفو.

كانت هذه فكرة غريبة. افترض ستان أنها لا بُدَّ نبعت من داخل رأسه، فمن أين يمكن أن تكون قد جاءت؟ لكنها بشكلٍ أو بآخر لم تبد من بنات أفكاره على الإطلاق.

نظر ستان إلى بُرج المياه بإمعانٍ أكثر، ثم اتَّجه إليه دون حتَّى التفكير في الأمر. تلف النوافذ المبنى على مسافاتٍ مُتساوية لكن صاعدة إلى أعلى بشكل حلزوني، ما جعل ستان يُفكِّر في العلامة الملوَّنة التي تُميِّز محال الحلاقة كتلك الموجود أمام محل السيِّد أورليت، حيث يقص شعره هو ووالده. ثمَّة

ألواح خشبية مُثلَّثة الشكل وبيضاء تمامًا تبرز من فوق كل نافذة مُعتمة من تلك النوافذ، كالحواجب التي تعلو الأعين. أتعجَّب كيف بنوها، هكذا فكَّر ستان لكن دون اهتمام حقيقي كالذي قد يؤرِّق بن هانسكوم مثلًا، وكان هذا حين رأى مساحة مُظلمة كبيرة جدًّا عند سفح البُرج.. مُستطيلًا واضحًا في قاعدة المبنى الدائرية.

توقَّف ستان قاطبًا جبينه، وفكَّر أن هذا مكانٌ غريب لفتح نافذة، فهو لا يتناسق مع بقية النوافذ، ثم أدرك بعدها أنه ليس نافذة، بل باب.

إن الصوت الذي سمعته هو صوت هذا الباب يُفتح بقوَّة، هكذا فكَّر.

نظر ستان حوله. الغروب المُبكِّر الكئيب يلف المكان. السماء البيضاء تستحيل إلى لون الغروب الأرجواني الثقيل، والضباب يزداد سُمكًا استعدادًا لليلة المطيرة التي لن ينقطع ماؤها أغلب الليل.

الغروب والضباب ولا رياح على الإطلاق.

إذًا... لو لم يُفتح الباب بفعل الرياح، ترى هل دفعه أحدهم فاتحًا إيَّاه؟ ولماذا؟ كما أنه يبدو بابًا ثقيلًا جدًّا ليُفتح بقوَّة تكفي كي يُصدر صوتًا كذلك الدوي الذي سمعه. افترض أن من فعلها رجلٌ ضخم جدًّا... رُبَّما...

بفضول، اقترب ستان ليلقي نظرة من كثب.

كان الباب أضخم ممَّا افترض في أوَّل الأمر. كان بارتفاع ستَّة أقدام وسُمك قدمين، والألواح التي تكوِّنهُ مُعزَّزة بشرائط نحاسية. أرجحهُ ستان مُغلقًا إيَّاه نصف انغلاقة. تحرَّك الباب بنعومة على مفصَّلاته رغم حجمه، كما تحرَّك بصمت، دون أن يُصدر أدنى صرير. حرَّك ستان الباب ليرى مقدار الضرر الذي وقع للألواح الخشبية عندما فُتِحَ بمثل هذه القوَّة. لم يكن ثمَّة ضررٌ على الإطلاق... ولا نُدبة واحدة حتَّى. مرحبًا بك في مدينة الغرابة، كما كان ريتشي سيقول.

فكَّر ستان: حسنًا، لم يكن الباب هو ما سمعت، هذا كل شيء. رُبَّما كانت طائرة نفَّاثة تهدر فوق ديري، أو أيِّ شيءٍ آخر. رُبَّما كان الباب مفتوحًا منذ البد...

اصطدمت قدمه بشيءٍ. نظر ستان إلى أسفل واكتشف أنه قفل. لحظة

واحدة. تصحيح. إنه بقايا قفل. لقد انفجر القفل مفتوحًا. كان يبدو كأن أحدهم حشا مجرى المُفتاح بالبارود ثم أشعل ثقابًا فيه. كانت شظايا المعدن الحادة تمامًا تبرز من جسد القفل كأشواكٍ صلبة. استطاع ستان رؤية طبقات الفولاذ داخله. كان الرتاج السميك مُعلَّقًا بشكل مُعوج من مسمارٍ واحدٍ تخرج ثلاثة أرباعه من الخشب، بينما مسامير الرتاج الثلاثة الأخرى مُلقاة فوق العُشب المُبتلّ، ملتوية كالمعجنات.

عابسًا، دفع ستان الباب فاتحًا إيَّاه مرَّة أخرى وأطل بنظره إلى الداخل.

هناك سلالم ضيِّقة تقود إلى أعلى في صعودٍ حلزوني لا يُبلغ مداه. كان الجدار الخارجي للسُلَّم خشبًا عاريًا مُدعَّمًا بعوارض خشبية ضخمة وُتِّدَت معًا بدلًا من تثبيتها بمسامير. بدت بعض الأوتاد في نظر ستان أكثر سُمكًا من النصف العلوي لذراعه، أما الجدار الداخلي فكان فولاذيًا وتبرز منه مسامير عملاقة كالدمامل.

سأل ستان: «هل يوجد أحدٌ هنا؟».

لم يأته ردٌّ.

تردَّد الصبي قليلًا، ثم خطا إلى الداخل كي يستطيع رؤية حلق السُلَّم الضيِّق بشكلٍ أفضل قليلًا. لا شيء. إن المكان أشبه بـ «مدينة الذعر» هنا بالداخل، كما كان ريتشي سيقول أيضًا. استدار ستان ليُغادر... وهنا سمع الموسيقى.

كانت خافتة، لكن يُمكن تمييزها على الفور.

تلك موسيقى كاليوبية.

حرَّك ستان رأسه مُستمعًا، وبدأ العبوس على وجهه يذوب قليلًا. إنها موسيقى كاليوبية بالفعل، الموسيقى المُميِّزة للمهرجانات والمعارض الإقليمية. لقد استحضرت في ذهنه ذكرياتٍ نزيرة مبهجة بقدر ما هي عابرة وسريعة الزوال: الفشار، غزل البنات، العجين المقلي في دهنٍ ساخن، مجموعة الألعاب الصاخبة التي تُدار بالسلاسل كالأفعوانات والعربات الدوَّارة والفناجين.

الآن تحوَّل العبوس إلى ابتسامة مؤقَّتة. صعد ستان درجة من السُلَّم، ثم

تبعها بدرجتين، ورأسه ما زال يتمايل، قبل أن يتوقَّف. يبدو أن التفكير في المهرجانات يُمكن أن يخلق واحدًا بالفعل، لأن ستان يستطيع الآن اشتمام رائحة الفشار، وغزل البنات، والفطائر... وما هو أكثر! الفلفل، وشطائر النقانق الحارة، ودخان السجائر ونشارة الخشب. هناك أيضًا رائحة خردل أبيض حادَّة، كالتي تسكبها على البطاطس المقلية عبر ثقبٍ صغيرٍ في علبة من القصدير. استطاع أن يشم رائحة المسطردة الصفراء اللاذعة الحارة التي تفردها على شطيرة الهوت دوج بملعقة خشبية.

كان الأمر بديعًا... ومُدهشًا... ولا يُقاوم.

صعد ستان خطوة أخرى، وهنا سمع حفيف خطواتٍ حريصة تهبط الدرج من فوقه. أمال الصبي رأسه من جديد. لقد ارتفع صوت الموسيقى الكالوبية فجأة، كأنما لحجب صوت الخطوات الهابطة. استطاع ستان تمييز اللحن الآن. إنها أغنية «سباقات كامبتاون».

خطوات، أجل.. لكنها لا تصدر صوت حفيفٍ بالضبط، أليس كذلك؟ إنها تصدر صوتًا إسفنجيًّا، أليس كذلك؟ يبدو الصوت كالذي يصدر من أناس يمشون على أحذية مطَّاطية مليئة بالماء.

يا نساء كامبتاون غنين هذي الأغنية، دووداه دووداه

(خطوات مُشبَّعة بالماء... غلوتش، غلوتش)

مضمار سباق كامبتاون بطول تسعة أميال، دووداه دووداه

(غلوتش، غلوتش.. الصوت أقرب الآن)

سنتسابق طوال الليل

سنتسابق طوال النهار...

الآن ظهرت ظلالٌ متمايلة على الجدار من فوقه.

وثب الذُعر إلى حلق ستان دُفعة واحدة. كان أشبه بابتلاع مُضغة ساخنة ومُريعة، أو أن دواءً كريهًا يبعث رعدة كهرباء في جسدك. كان هذا تأثير الظلال عليه.

لقد رآها ستان للحظة واحدة فحسب، ولم يكن أمامه سوى ذلك الوقت الضئيل ليدرك أن ثمَّة ظِلين لا واحد، وأنهما مُتهدِّلان ويسيران بصورة غير

طبيعية. لم يكن أمامه مُتَّسعٍ من الوقت لأن الضوء كان يخفت، يخفت سريعًا، وعندما استدار، انغلق بابُ بُرج المياه الثقيل بقوَّة من خلفه.

هبط ستانلي الدرج في هرع (لقد صعد نحو دزينة من الدرجات بشكلٍ ما، رغم أنه يتذكَّر فقط صعوده درجتين أو ثلاثًا على الأكثر) والذُعر يلفه بالكامل الآن. المكان مُظلم بشدَّة ما يُعذِّر رؤية أيِّ شيءٍ. كان يسمع صوت أنفاسه في أذنيه، ومن مكانٍ ما فوقه لم ينفك صندوق الموسيقى الكالوبية عن بعث ألحانه.

(ما الذي يفعله صندوق موسيقى بالأعلى في هذه العتمة؟ من يُشغِّله؟)

سمع ستان تقدُّم تلك الخطوات المُبتلَّة إليه الآن.. إنها تقترب.

ارتطم بالباب ويداه ممدودتان أمامه، وقد صدمه بقوَّة كبيرة جعلت الألم الواخز الهائل ينتقل إلى كوعيه. لقد تحرَّك الباب بسهولة من قبل، الآن لا يُريد التزحزح قيد أنملة.

لا... ليس هذا صحيحًا تمامًا. في البداية تحرَّك قليلًا فحسب، بشكلٍ كافٍ ليرى خيطًا من الضوء الرمادي يسقط بشكلٍ عمودي إلى يساره، قبل أن ينغلق مُجدِّدًا.. كأن هناك شخصًا على الجانبِ الآخر من الباب يُمسكه موصِدًا إيَّاه بإحكام.

لاهثًا، ومذعورًا، دفع ستان الباب بكل ما أوتي من قوَّة، وشعر بشرائط النحاس تغوص عميقًا في لحم يديه.. لكن لم يحدث شيء.

أدار جسده، وبدأ يضغط بعضلات ظهره وذراعيه المُتباعدتين المُلتصقتين بالباب. استشعر العرق الدافئ اللزج ينضح من جبهته. ارتفع صوت الموسيقى الكالوبية أكثر. كان صداها يتردَّد عبر درجات السُلَّم الحلزوني. لم يعد ثمَّة شيءٍ مُبهج فيها الآن. لقد تبدَّلت. صارت ترنيمة جنائزية. كانت تصرخ في أذنيه كالريح والسيل، وبعين الخيال رأى ستان معرضًا إقليميًّا في نهاية الخريف تهب الرياح وتهطل الأمطار في طرقاته المهجورة، ترفرف راياته وتنتفخ خيامه بالهواء، ثم تتداعى ساقطة وتحملها الرياح كخفافيشٍ من قماش. رأى ألعابًا خاوية على عروشها تنتصب كالسقَّالات في وجه السماء، بينما تعوي الرياح وتنعر وهي تمرُّ بين دعائمها غريبة الزوايا. فجأة أدرك ستان

أن الموت موجود في هذا المكان معه. أن الموت آتٍ إليه عبر الظلام وأنه لا يستطيع الفرار.

انسكبت دفقة مياه مُفاجئة على درجات السُلَّم. الآن لم يعد يشم رائحة الفشار والكعك وغزل البنات، بل رائحة تحلُّل لحم خنزير ميِّت انفجر بدنه وتعيث الديدان واليرقات فيه في مكانٍ لا تدخله أشعة الشمس.

صرخ ستان بصوتٍ عالٍ مُرتجف: «من هناك؟».

أجابه صوتٌ مُبَقبِق خفيض بدا كأنه يختنق بالطمي وماءٍ قديم.

- «الآحاد الميتون يا ستانلي. نحن الآحاد الميِّتون. لقد غرقنا، لكننا نطفو الآن... وأنت أيضًا ستطفو».

شعر ستانلي بالماء يجري بين قدميه. انكمش الصبي في الباب وعذابٌ هائل لا يُحتمل يعتريه. إنهم قريبون جدًّا الآن. إنه يستشعر قربهم ويشم رائحتهم. راح شيءٌ ينغرس عميقًا في فخذه وهو يضرب الباب مرارًا وتكرارًا بجهدٍ غاشم غير مُجدٍ للهروب.

- «نحن موتى، لكننا نتسكَّع في الجوار أحيانًا يا ستانلي. أحيانًا نـ...».

إن ما ينغرس في فخذه لهو كتاب الطيور.

دونما تفكير، مدَّ ستانلي يده إليه. كان محشورًا في الكيس المقاوم للماء ويأبى الخروج. لقد هبط أحدهم الدرج كله الآن، واستطاع ستان سماعه يُجرجر قدميه نحو المدخل الحجري الذي هو فيه الآن. سيصل إليه في أيِّ لحظةٍ، وسرعان ما سيستشعر ملمس بدنه البارد.

جذب ستان كتاب الطيور جذبة عنيفة أخيرة، فخرج الكتاب بعدها في قبضته. أمسكه ستان أمامه كدرعٍ تافه، دون تفكيرٍ فيما يفعل، لكنه أصبح مُتأكِّدًا فجأة أنه يفعل الشيء الصحيح.

صرخ ستانلي في الظلام: «أبو حناء!». للحظة تردَّد الشيءُ المُقترب (الذي كان على مسافة خمس خطوات تقريبًا)، كان ستانلي واثقًا من أنه فعل. ألم يستشعر بعض الاستسلام من الباب الذي ينكمش إليه الآن؟

لكنه لم يكن مُنكمشًا الآن، بل كان يقف معتدلًا وسط العتمة. ما الذي حدث؟ لا وقت للتساؤل الآن. لعق ستان شفتيه الجافتين وبدأ يرتِّل: «أبو

حناء! البلشون الرمادي! السمَّاك! التناجر الحمراء! السواديات! نقَّار الخشب! القراقف السوداء! النمنمة! البلـ...».

فُتِحَ الباب بصريرٍ مُحتَج، وقفز ستان قفزة هائلة إلى الهواء الغائم بالخارج. سقط مُتدحرِجًا على الأرض فوق العشب اليابس. كان قد ثنى كتاب الطيور من نصفه تقريبًا، ولاحقًا في تلك الليلة سيستطيع رؤية انطباعات أصابعه الواضحة التي تركت آثارًا غائرة على غُلافه، كما لو كانت غُرست في صلصال لعب لا ورق مقوًّى.

لم يحاول النهوض على قدميه، لكنه بدأ يدفع نفسه إلى الوراء بكعبيه، وراحت مؤخِّرته تشقُّ أخدودًا في العشب الزلق. كانت شفتاه مزمومتين بشدَّة من فوق أسنانه. داخل ذلك المُستطيل المُعتم استطاع أن يرى زوجين من الأرجل أسفل خط الظل المائل الذي يلقيه الباب نصف المفتوح. استطاع أن يرى سراويلات جينز بهت لونها وصارت خليطًا من الأرجواني والأسود، وثمَّة خيوط برتقالية تتدلَّى مُلتصقة بها، ويتقاطر الماء من ثنياتها ويتجمَّع في بركٍ صغيرة حول الأحذية التي اهترأت بالكامل تقريبًا كاشفة عن أصابع أقدام مُنتفخة وقرمزية.

كانت الأيدي مُتهدِّلة وتترنَّح جوار أجسادهم طويلة جدًّا.. بيضاء وشمعية جدًّا.. ويتدلَّى من كل أصبعٍ منها كرة زغب برتقالية صغيرة.

همس ستان بصوتٍ غليظ رتيب وهو يُمسك بكتاب الطيور أمامه ووجهه مُبتلٌ برذاذ الماء والعرق والدموع: «الصقور الأمريكية... الشرشوريات... الطنَّان... القطرس... طيور الكيوي».

انقلبت إحدى تلك الأيدي، كاشفة عن كفٍّ مسح الماء الأبدي خطوطه، تاركًا خلفه شيئًا أملس بالكامل ككفوف الدُمى.

انبسط إصبعٌ، ثم طوي مُجدَّدًا. تقافزت كرة الزغب وتأرجحت.. تقافزت وتأرجحت.

إنه يُغريه بالقدوم.

اعتدل ستان يوريس -الذي سيموت في مغطس حمَّامه بصليبين يشقَّان ساعديه بعد سبعة وعشرين عامًا من الآن- على رُكبتيه، ثم على قدميه، ثم

أطلق ساقيه للريح. عبر شارع كانساس دون أن ينظر في أيٍّ الاتِّجاهين تحسُّبًا للسيَّارت، ثم توقَّف لاهثًا على الطرف الآخر من الرصيف ونظر خلفه.

من هذه الزاوية لم يتمكَّن من رؤية باب قاعدة بُرج المياه، فقط رأى البُرج السميك نفسه يقف شامخًا وسط الضباب.

همس ستان مُحدِّثًا نفسه وهو في حالة ذهول: «إنهم موتى!».

ثم استدار بغتةً، وركض عائدًا إلى منزله.

11

أنهى المُجفِّف دورته، وكذا ستان.. أنهى حكايته.

ظلَّ رفاقه الثلاثة يحدِّقون فيه بُرهة طويلة. كانت بشرته قد صارت رمادية تقريبًا كالليلة الأبريلية التي حكى لهم عنها لتوِّه.

هتف بن في النهاية: «واو»، وزفر تنهيدة مبحوحة.

قال ستان بصوت خفيض: «هذا ما حدث. أقسم بالله هذا ما حدث».

قالت بيفرلي: «أُصدِّقك. بعد ما حدث في منزلي، أستطيع تصديق أيِّ شيء».

ثم نهضت فجأة، وكادت أن تقلب مقعدها أرضًا، واتَّجهت إلى المُجفِّف. بدأت تسحب الخِرَق واحدة تلو الأخرى وتطويها. كانت تعطيهم ظهرها، لكن بن شكَّ أنها تبكي. أراد أن يذهب للتخفيف عنها، لكنه جبن.

قال إدي: «يجب أن نتحدَّث مع بيل.. بيل سيعرف ما يجب فعله».

قال ستان وهو يلتفت للنظر إليه: «فعله؟ ماذا تقصد بفعله؟».

نظر إليه إدي مُنزعجًا: «حسنًا...».

قال ستان: «أنا لا أُريد فعل أيِّ شيء حيال الأمر». كان يُحدِّق إلى وجه إدي بنظرة شرسة وصارمة جعلت إدي يتململ في مقعده. «أريد نسيان الأمر. هذا كل ما أريد فعله».

قالت بيفرلي بهدوء وهي تلتفت إليهم: «ليس الأمر بتلك السهولة». كان بن مُحِقًّا، فقد عكست أشعة الشمس الحارة التي تخترق نوافذ المغسلة المُتَّسخة خطَّي دموع متلألئين على وجنتيها. «الأمر لا يحيق بنا وحدنا. لقد

سمعت عن روني چورچان، وعن ذلك الصبي الصغير. صبي آل كليمنتس على ما أظن، ذلك الذي اختفى من على درَّاجته».

قال ستان بتحدٍّ: «وإن يكن؟».

سألته: «وإن اقتنص المزيد؟ ماذا لو اقتنص مزيدًا من الصبية؟».

أجابت عيناه، البُنِّيتان الغامقتان، المُثبَّتان على عينيها الزرقاوين، عن السؤال دون كلام: ماذا لو فعل ذلك؟

لكن بيڤرلي لم تشِح بنظرها إلى أسفل أو بعيدًا، وفي النهاية خفض ستان عينيه، رُبَّما فقط لأنها كانت لا تزال تبكي، لكن رُبَّما لأن اكتراثها جعلها بطريقةٍ ما أقوى.

قالت في النهاية: «إدي مُحِق. يجب أن نتحدَّث إلى بيل، ورُبَّما إلى رئيس الشُرطة بعدها...».

قال ستان: «صحيح». إن كان يقصد أن يكون مُستهزئًا، فالأمر لم ينجح، فقد خرج صوته مُنهكًا فحسب وهو يقول: «صبية أموات أحياء في بُرج المياه، دماء لا يراها إلا الصغار، مُهرِّجون يسيرون على صفحة القناة، بالونات تطير عكس اتِّجاه الريح، مومياوات، مجذومون أسفل شُرفات المنازل المهجورة.. سيضحك رئيس الشُرطة بورتون حتَّى تنفجر أوردته، ثم سيودعنا في مصحَّة المجاذيب».

قال بن باضطراب: «إذا ذهبنا جميعًا إليه.. إذا ذهبنا كلنا معًا، فرُبَّما...».

قال ستان: «بالتأكيد، صح، وماذا أيضًا يا كومة القش؟ أخبرني؟ زدني من علمك»، ثم نهض وسار إلى النافذة داسًّا يديه في جيبيه، وقد بدا عليه الغضب والانزعاج والخوف. حدَّق عبر النافذة لحظات بكتفين مُتيبِّسين رافضين، ودون أن يلتفت إليهم كرَّر جملته الأخيرة: «زدني من علمك المُذهل!».

قال بن بهدوء: «لا، بيل مَن سيُزدنا مِن علمه».

استدار ستان إلى الخلف مُندهشًا، ونظر الآخرون إليه. كانت هناك نظرة مشدوهة تلوح على وجه بن هانسكوم، كأنه صَفَعَ نفسه فجأة.

طوت بيڤرلي الخرقة الأخيرة.

قال إدي: «الطيور».

قال بن وبيف في صوتٍ واحد: «ماذا؟».

كان إدي ينظر إلى ستان ويقول: «لقد استطعت الفرار عن طريق الصراخ بأسماء الطيور في وجوههم».

قال ستان مُتردِّدًا: «يجوز.. أو رُبَّما كان الباب عالقًا فحسب واندفع مفتوحًا في النهاية».

سألته بيڤ: «من دون أن تميل عليه؟».

هزَّ ستان كتفيه. لم تكن إيماءة مُستهجنة، بل تشير فقط إلى أنه لا يدري.

قال إدي: «أظنُّ أن ما حدث حدث بسبب أسماء الطيور التي صرخت بها.. لكن لماذا؟ في الأفلام تجدهم يرفعون صليبًا...».

أضاف بن: «... أو يتلون الصلاة الربَّانية...».

أدلت بيڤرلي بدلوها: «... أو المزمور الثالث والعشرين».

قال ستان مُحتدِمًا: «أنا حافظ المزمور الثالث والعشرين، لكنني لن أنفعكم في مسألة الصليب هذه، فأنا يهودي، أتتذكَّرون؟».

أشاحوا بأنظارهم بعيدًا عنه شاعرين بالحرج، إما لأنه وُلِد على هذه الشاكلة، أو لأنهم نسوا هذه الحقيقة.

قال إدي ثانيةً: «الطيور. يا للمسيح!»، ثم نظر إلى ستان شاعرًا بالذنب، لكن ستان كان ينظر بجهامة إلى مكتب شركة مياه بانجور عبر الشارع.

قال بن فجأة: «بيل سيعرف ما يجب فعله»، كأنه وافق بيڤ وإدي في النهاية: «أراهنك على أيِّ شيء. أراهنك على أيِّ مبلغ من المال».

قال ستان ناظرًا إليهم جميعًا بجدٍّ: «انظروا، لست أمانع، نستطيع التحدُّث إلى بيل عن الأمر إذا رغبتم، لكن هذه نهاية المطاف بالنسبة إليّ. يمكنكم نعتي بالجبان، أو الدجاجة، لا أهتم. لست بدجاجة، لا أظنُّ ذلك. كل ما في الأمر أن تلك الأشياء التي كانت في بُرج المياه...».

قالت بيڤرلي بهدوء: «يجب أن تكون مجنونًا بالكامل إذا لم تشعر بالخوف من شيءٍ كهذا يا ستان».

قال ستان بحرارة: «أجل، كنت خائفًا، لكن ليست تلك المُشكلة. هذا ليس حتَّى ما أتحدَّث عنه. ألا ترون...».

كانوا ينظرون إليه مُنتظرين ما سيقول بعيونٍ مُضطَّربة لكن يلوح فيها أملٌ

خافت، لكن ستان لم يستطع شرح ما يشعر به. لقد نفدت الكلمات منه. ثمَّة شعور مستقر كقالب طوب في بلعومه يكاد يخنقه، ولم يكن قادرًا على لفظه من حلقه. برغم أناقته، وبرغم اعتداده بنفسه، لم يكن ستان سوى صبي في الحادية عشرة من العمر أنهى لتوِّه الصف الدراسي الرابع هذا العام.

كان يُريد إخبارهم أن ثمَّة أمورًا أسوأ من الخوف. يُمكنك أن تخاف من الاصطدام بسيَّارةٍ مُسرعة وأنت في جولة على درَّاجتك، أو أن تُصاب بشلل الأطفال قبل أن تُطعَّم. يُمكنك أن تخاف من ذلك المجذوب خروتشوف، أو من الغرق إذا سقطت على رأسك. يُمكنك أن تخاف من كل تلك الأمور وتواصل حياتك الطبيعية.

لكن تلك الأشياء في بُرج المياه...

أراد ستان إخبارهم أن أولئك الصبية الموتى الذين شقُّوا طريقهم نزولًا عبر السُلَّم الحلزوني مُترنِّحين وبتثاقل فعلوا ما هو أسوأ من الخوف لروحه: لقد أهانوه.

أجل، أهانوه. هذا الكلمة الوحيدة التي يستطيع التفكير فيها لوصف ما يُشعر، وإذا استخدمها سيضحكون عليه. إنهم يحبونه، هو يعلم ذلك، وقد قبلوه كواحدٍ منهم، لكنهم سيضحكون عليه رغم ذلك. ثمَّة أشياء يُفترض ألا تُوجد، أشياء تهين التفكير المنطقي لأيِّ شخصٍ عاقل، أشياء تهين الفكرة الجوهرية الجازمة بأن الرب خلق الأرض ومنحها محورًا مائلًا كي يدوم الشفق اثنتا عشرة دقيقة فقط عند خط الاستواء ويتوانى نحو ساعة أو أكثر في الشمال حيث يصنع رجال الإسكيمو بيوتهم من الثلج، وأنه بعدما فعل -أي الرب- قال ما مفَاده: «حسنًا، إن استطعتم فهم غاية الميل، ستستطيعون فهم غاية أيِّ شيءٍ لعين تبغون. لأن حتَّى الضوء له وزن، ولأن ما يترامى إلى آذانكم مع انخفاض صوت صافرة قطارٍ مُبتعدٍ لهو تأثير دوبلر، وعندما تكسر طائرةٌ ما حاجز الصوت، فذلك الدوي الذي تسمعون ليس صوت تصفيق الملائكة أو غازات بطن الشياطين، بل صوت موجات الهواء وهي تنضغط عائدة إلى مكانها من جديد. لقد وهبتكم ميل محور الأرض ثم عُدت واتَّخذت مقعدي في منتصف المسرح لأشاهد العرض. ليس لديّ شيءٌ آخر يُقال، باستثناء أن اثنين واثنين يساويان أربعة، وأن الأضواء التي تُزيِّن السماء نجومٌ، وأنه إذا تناثرت دماءٌ على الأرض فإن الكبار

سيستطيعون رؤيتها كما الأطفال، وأن الصبية الذين ماتوا سيظلون موتى». أظن أن المرء يستطيع التعايش مع الخوف، هكذا كان ستان سيُخبرهم إن استطاع؛ رُبَّما ليس إلى الأبد، لكن لفترة طويلة جدًّا جدًّا على الأقل. لكنها الإهانة التي لا يستطيع المرء التعايش معها، لأنها تُحدث صدعًا في جدار تفكيرك، وإذا نظرت عبر الصدع سترى أنه ثمَّة أشياء حيَّة هناك بالأسفل، أشياء بعيونٍ صفراء لا جفون لها.. وستشم إنتانًا يفوح من تلك العتمة السُفلية، وبعد فترة قد تُفكِّر أن كونًا كاملًا رُبَّما يقبع بالأسفل. كونًا يبزغ في سماء أرضه قمرٌ مربَّع، وتضحك النجوم فيه بأصواتٍ باردة، وبعض مُثلَّثاته لها أربعة أضلُع، وبعضها لها خمسة، وبعضها لها خمسة مرفوعة للأُسِّ خمسة. في ذلك الكون، رُبَّما تنمو أزهارٌ تشدو، وكل شيء يقود إلى كل شيء. هكذا كان ستان سيُخبرهم إن وجد الكلمات. اذهب إلى كنيستك واستمع إلى قصص المسيح الذي سار على الماء كما شئت؛ لكنني لو رأيت شخصًا يفعل ذلك سأصرخ وأصرخ وأصرخ؛ لأن الأمر لن يبدو كمُعجزة في نظري، بل إهانة لتفكيري.

ولأنه لم يستطِع قول أيٍّ من هذا الكلام، كرَّر ستان على مسامعهم ما قاله فحسب: «ليس الخوف المُشكلة. أنا فقط لا أريد الاشتراك في أمرٍ قد يفضي بي في نهاية المطاف إلى فقدان صوابي».

طلبت بيڤرلي منه: «هلَّا أتيت معنا فقط للتحدُّث إليه؟ والاستماع إلى ما سيقول؟».

قال ستان: «بالتأكيد»، ثم ضحك وأضاف: «هل لي أن أحضر كتاب طيوري معي؟».

ضحكوا جميعًا عندها، وهدأت وطأة الأمر قليلًا.

12

غادرتهم بيڤرلي خارج مغسلة كلين-كلوز وحملت الخِرَق إلى منزلها بمُفردها. كانت الشقَّة لا تزال فارغة، وضعتها بيڤرلي مكانها أسفل حوض المطبخ وأغلقت الصوان، ثم نهضت ونظرت عبر الردهة نحو الحمَّام.

فكَّرت بيڤرلي: لن أذهب إلى هناك. سأذهب وأشاهد برنامج باندستاند على التلفاز. لنرى إن كنت سأفلح في الاسترخاء.

اتَّجهت إلى حُجرة الجلوس وشغَّلت التلفاز وبعد خمس دقائق أوقفته عندما كان ديك كلارك يعرض كم الدهون التي تستطيع ضمَّادة ستراي- دكس واحدة إزالتها من على وجه ابنك المُراهق. (كان ديك يقول وهو يُمسك ضمَّادة مُتَّسخة أمام عدسة الكاميرا ليستطيع كل مُراهق في أمريكا إلقاء نظرة جيِّدة عليها: «إذا كنت تُفكِّر أنك تستطيع التنظيف بالماء والصابون فحسب، فأنت تحتاج إلى إلقاء نظرة جيِّدة على هذه»).

عادت بيڤرلي إلى صوان المطبخ الذي يعلو الحوض، حيث يحتفظ والدها بأدواته. كان من بينها شريط قياس، من النوع الذي يخرج منه لسان أصفر طويل، وضعت بيڤرلي الشريط في يدها الباردة واتَّجهت إلى الحمَّام.

كان نظيفًا وهادئًا تمامًا، ومن مكانٍ ما بعيد استطاعت سماع صياح السيِّدة دويون في ابنها چيم ليدخل من الشارع، في الحال.

ذهبت بيڤرلي إلى حوض الحمَّام ونظرت عبر ظلام البالوعة.

ظلَّت واقفة مكانها بعض الوقت، وساقاها باردتان كالرخام في سراويلها، وحلمتاها مُنتصبتان وحادتان بحيث تستطيع قطع ورقة بهما، وشفتاها جافتان كشفاه الموتى. كانت تنتظر سماع الأصوات.

لكن الأصوات لم تأتِ.

خرجت تنهيدة راجفة منه، وبدأت في تلقيم شريط القياس الرفيع إلى حلق البالوعة. هبط الشريط بنعومة، كالسيف الذي ينفذ في مرِّيء حاوٍ في سيرك معرضٍ إقليمي. ست بوصات، سبع بوصات، ثم توقَّف. لقد انحشر في كوع الماسورة أسفل الحوض، هكذا افترضت بيڤرلي. هزَّته ودفعته برفق في الوقت نفسه، وفي النهاية واصل الشريط انزلاقه إلى جوف البالوعة من جديد. ست عشرة بوصة الآن.. ثم قدمين.. فثلاثًا.

راقبت بيڤرلي الشريط الأصفر وهو ينزلق من علبته المعدنية التي استحالت أطرافها سوداء من قبضتي والدها الضخمتين. بعين الخيال، رأت الشريط ينزلق عبر تجويف الماسورة الأسود، تعلق القذارة والأوساخ به، كاشطًا في طريقه قشور الصَّدأ.. هناك بالأسفل حيث لا تشرق الشمس أبدًا، وحيث لا ينتهي الديجور.. هكذا فكَّرت.

تخيَّلت طرف الشريط المعدني الذي يعدو حجمه حجم ظفر الأصبع بقليل وهو ينزلق أعمق وأعمق في فم الظلام، بينما راح جزءٌ من عقلها يصرخ، ماذا تفعلين؟ لم تتجاهل بيڤرلي الصوت، لكنها بدت عاجزة عن الاهتمام به. شاهدت طرف الشريط ينزلق بشكل مُستقيم الآن، هابطًا إلى القبو.. شاهدته يخبط أنبوب الصرف الصحي... وفي اللحظة التي تخيَّلت الأمر فيها، ارتدَّ الشريط إلى أعلى مرَّة أخرى.

حرَّكته مرَّة أخرى، فأصدر الشريط الرفيع بما فيه الكفاية للانثناء صوتًا غريبًا ذكَّرها قليلًا بصوت صفيحة المنشار عندما تثنيها أمامًا وخلفًا.

استطاعت أن ترى -بعين الخيال- طرف الشريط يتلوَّى ضد قاعدة الماسورة الأكبر المصنوعة من السيراميك. استطاعت رؤيته ينثني... ثم تمكَّنت من دفعه قدمًا مرَّة أخرى.

أنهت ستَّة أقدام.. سبعة.. تسعة...

ثم فجأة بدأ الشريط ينزلق من بين كفّيها من تلقاء نفسه، كأن شيئًا يجذبه من طرفه الآخر. لم يكن يجذبه فقط، بل يركض به. حدَّقت إلى الشريط المُتدفِّق بعينين مُتَّسعتين وفم فاغر من الذُعر. ذعر نعم، لكن بلا اندهاش. ألم تكن تعرف؟ ألم تكن تعرف أن شيئًا كهذا سيحدث؟

سُحِب الشريط إلى نهايته. ثمانية عشر قدمًا، ما يُعادل خمسة أمتارٍ ونصف تقريبًا.

فاحت قهقهة ناعمة خارجة من حلق البالوعة، وتبعها همسٌ خفيض يكاد يكون مُوبِّخًا: «بيڤرلي، بيڤرلي، بيڤرلي... لن تقوي على مُقاومتنا... ستموتين إذا حاولتِ... ستموتين إذا حاولتِ... ستموتين إذا حاولتِ... بيڤرلي... يا بيڤرلي... يا بيڤرلي... لي لي لي...».

تكَّ شيءٌ داخل عُلبة شريط القياس، ثم بدأ اللسان ينزلق عائدًا من جديد إلى مأواه، ولم تعد الأرقام والعلامات عليه واضحة من فرط تسارعه. قرب النهاية، في آخر خمسة أو ستة أقدام، صار اللون الأصفر أحمر داكنًا مُتقاطر، فصرخت بيڤرلي وأسقطته على الأرض كأنه تحوَّل فجأة إلى أفعى حيَّة.

سالت دماء طازجة جديدة على بدن الحوض النظيف الأبيض وانزلقت إلى فوَّهة البالوعة الفاغرة. انحنت بيڤرلي باكية الآن، وقد صار الخوف ثقلًا مُثلَّجًا في معدتها، والتقطت الشريط بطرفي إصبعيها السبَّابة والإبهام ورفعته أمام وجهها، ثم أخذته إلى المطبخ. في أثناء سيرها، تقاطر الدم من الشريط فوق المشمَّع الباهت الذي يُغطِّي أرضية الردهة والمطبخ.

هدَّأت بيڤرلي من روعها عن طريق التفكير فيما سيقوله والدها -فيما سيفعله بها- إذا علم أنها لوَّثت الشريط الخاص به بالكامل بالدماء. بالطبع هو لن يرى الدماء، لكن التفكير في الأمر ساعدها على الهدوء.

أخرجت إحدى الخِرق النظيفة -التي لم تزل دافئة بعد كالخبز الطازج بعد خروجها من المُجفِّف- وعادت إلى الحمَّام. قبل أن تبدأ في التنظيف، سدَّت البالوعة بالسدَّادة المطَّاطية الغليظة، مُغلقة العين المفتوحة. كان الدم طازجًا، وقد سهل عليها تنظيفه. سارت بيڤرلي مُتتبِّعة آثارها، ومسحت القطرات الكبيرة المُتناثرة على المشمَّع، ثم شطفت الخرقة، وعصرتها، ووضعتها جانبًا. أخرجت خرقة ثانية واستخدمتها في تنظيف شريط والدها. كانت الدماء ثخينة، ولزجة، وفي بعض المواضع توجد كُتلٌ من القذارة سوداء وإسفنجية.

رغم أن الدماء كانت تلوِّث خمسة أو ستَّة أقدام فقط من الشريط، نظَّفت بيڤرلي الشريط كله، ماسحة عنه كل آثار قذارة الماسورة، وبانتهائها، وضعته مكانه في الصوان الذي يعلو الحوض وأخذت الخرقتين إلى طرف الشقَّة. كانت السيِّدة دويون تصيح في چيم مرَّة أخرى. كان صوتها واضحًا وضوح الجرس في هواء ما بعد الظهيرة الحار الساكن.

في الباحة الخلفية -التي كان أغلبها تُراب وحشائش برِّية وتقطعها حبال الغسيل- يوجد موقد صدئ. ألقت بيڤرلي بالخرقتين فيه، ثم جلست على السلالم الخلفية. تكالبت عليها الدموع فجأة، بُعنفٍ مُباغت، وهذه المرَّة لم تبذل جهدًا في كبحها.

طوَّقت بيڤرلي رُكبتيها بذراعيها، ودسَّت رأسها فيهما، وبكت فيما استمرَّت السيِّدة دويون في النداء على چيم كي يدخل من الشارع، فهل يُريد أن تصدمه سيَّارة ويُقتل؟

ديري: الفاصل الثاني

«كثيرًا جدًّا من الأشياء المُريعة رأيت؛ وفي كثيرٍ منها لَعِبتُ دورًا جوهريًّا».

- ڤيرجيل، الإنيادة.

«يجب ألَّا تعبث مع اللا مُتناهِ».

- فيلم مين ستريتس.

14 فبراير، 1985

يوم القديس ڤالنتاين

اختفى اثنان آخران الأسبوع الماضي -كلاهما طفل- تزامنًا مع الوقت الذي بدأت أتحرَّر فيه من التوتُّر العصبي. أحدهما صبي في السادسة عشر اسمه دينيس توريو، والأخرى فتاة في الخامسة فقط كانت تتزلَّج في باحة منزلها الخلفية في غرب برودواي. عثرت الأم المُلتاعة على زلَّاجتها -إحدى تلك الصحون البلاستيكية الطائرة الزرقاء- ولا شيء آخر. لقد سقط ثلجٌ جديدٌ طازج الليلة السابقة، ووصل ارتفاعه إلى أربع بوصات أو نحو ذلك. لم يُعثر على أيِّ آثار أقدام سوى آثار أقدام الطفلة، هكذا قال رئيس الشُرطة رادميكر عندما هاتفته. أظنُّ أنني صرت مصدرَ إزعاجٍ دائمًا له، وهو أمرٌ لن يقض مضجعي ليلًا، فلديّ أمور أسوأ للتفكير فيها، أليس كذلك؟

سألته إن كنت أستطيع الاطلاع على صور مسرح الواقعة، فرفض.

سألتهُ إن كانت آثارها تقود إلى أيِّ مصرف أو مجرور، فأجابني صمتٌ طويلٌ مُطبق، ثم قال رادميكر: «لقد بدأت أتساءل إن كانت تنبغي لك زيارة طبيب يا هانلون، من النوع النفسي. الأب من اختطف الطفلة، ألا تقرأ الصُحُف؟».

سألته: «وهل خُطِف صبي آل توريو من قِبَل والدهُ أيضًا؟».
برهة صمت طويلة أخرى.
ثم قال: «اتركْ الأمر وشأنه يا هانلون.. اتركني أنا وشأني».
ثم أغلق الخط.

بالطبع أقرأ الصُحُف. ألا أضعها كل صباح بيديّ في غُرفة القراءة في المكتبة العامة؟ إن الفتاة الصغيرة لوري آن وينتيربارجر في حضانة أمها بعد طلاق شنيع وقع في ربيع عام 1982. لدى رجال الشُرطة نظرية تقول إن هورست وينتيربارجر -الذي يُفترض أنه رجل صيانة في مكانٍ ما في ولاية فلوريدا- قاد سيَّارته إلى ولاية مين وخطف ابنته، ثم تمادوا في نظريتهم وقالوا إن الأب أوقف سيَّارته جوار المنزل ونادى ابنته، التي ذهبت إليه ببساطة، وبالتالي لا توجد آثارٌ على الثلج سوى آثار الفتاة الصغيرة. لكنهم لم يتحدَّثوا كثيرًا عن حقيقة أن الفتاة لم ترَ والدها منذ أن كانت في سنٍّ سنتين. جزء من المرارة العميقة التي رافقت واقعة الطلاق يرجع لادِّعاءات السيِّدة وينتيربرجر أن هورست وينتيربارجر تحرَّش جنسيًّا بالطفلة في مناسبتين على الأقل، وقد طلبت من المحكمة أن تُحرِّم عليه جميع حقوق الزيارة، وهو الطلب الذي أقرَّته المحكمة على الرغم من إنكار وينتيربارجر على طول الخط. زعم رادميكر أن قرار المحكمة -الذي أدَّى إلى قطع وينتيربارجر بالكامل عن ابنته الوحيدة- رُبَّما دفع الرَّجُل إلى أخذ ابنته عُنوة. هذه فكرة مُستساغة بعض الشَّيء على الأقل؛ لكن اسأل نفسك هذا السؤال: هل يُعقل أن الصغيرة لوري آن ستتعرَّفه بعد ثلاث سنوات وتركض إليه عندما يُناديها؟ رادميكر يقول أجل، رغم أنها كانت في الثانية عندما رأته آخر مرَّة. أنا لا أظنُّ ذلك. كما أن أم لوري آن تقول إن الفتاة تعرف جيِّدًا أنها لا يجب أن تقترب أو تتحدَّث إلى غُرباء، وهو الدرس الذي يحفظه جميع أطفال في ديري مُبكِّرًا وعن ظهر قلب. قال رادميكر أنه أبلغ شُرطة ولاية فلوريدا بالبحث عن وينتيربارجر، وأن مسؤوليته انتهت عند هذه النقطة.

«مسائل الحضانة من اختصاص المُحامين أكثر من رجال الشُرطة»،

هذا ما نقله عدد الجمعة من صحيفة أخبار ديري منسوبًا إلى ذلك المُختال الأحمق البدين.

أما قضية فتى آل توريو... فمسألة أخرى. يحظى الفتى بحياة منزلية رائعة. يلعب كُرة الرجبي لصالح فريق ديري تايجرز. شابٌ متفوِّق، التحق بأكاديمية أوتوارد باوند لتعليم ماهرات البقاء على قيد الحياة في صيف عام 1984 وتخرَّج بامتياز. لا توجد له سوابق في تعاطي المُخدِّرات. لديه صديقة مُغرم بها حُبًّا. لديه كل شيء ليعيش لأجله. كل شيء ليبقى في ديري من أجله، على الأقل لعامين آخرين.

ومع ذلك، اختفى.

ماذا حدث له؟ هل صار مُهوَّسًا فجأة بالسفر والتجوال؟ أصدمه سائق مخمور، وقتله، ودفنه؟ أم رُبَّما هو لا يزال في ديري.. أقصد في الجانب المُعتم من ديري.. في صُحبة رفاق مثل بيتي ريبسوم وباتريك هوكستيتر وإدي كوركوران والبقية؟

ها أنا أفعلها ثانيةً. ارتاد البقاع نفسها مرارًا وتكرارًا. لا أنجز شيئًا بنَّاءً، فقط أدفع نفسي إلى حافَّة الصراخ. صرت أنتفض عندما تصر السلالم المعدنية التي تقود إلى رفوف الكتب العالية. أقفز في الهواء إذا رأيت خيالًا. أجد نفسي أتساءل ماذا ستكون ردَّة فعلي إذا كنت أُرتِّب الكتب في الأعلى، دافعًا أمامي عربتي مطاطية العجلات، لأجد يدًا تمتد من بين صفَّي كتب مائلين، يدًا تتلمَّس طريقها...

تكالبت عليّ من جديد رغبة مُلحة كادت أن تجبرني على الاتِّصال بهم عصر هذا اليوم. في لحظةٍ ما، وجدتُّني أطلب الرقم 404، رمز منطقة أتلانتا، بينما رقم ستانلي يوريس قابعًا أمام ناظري. ظللت مُمسكًا بسمَّاعة الهاتف على أُذُني، وأسأل نفسي إن كنت أريد الاتِّصال بهم لأنني متيقِّنٌ بالفعل -متيقِّنٌ مئة بالمئة- أم لأنني فزِعٌ تمامًا ولا أستطيع تحمُّل البقاء وحيدًا، وأريد التحدُّث إلى شخصٍ يعرف -أو سيتذكَّر- ما الذي يُرعد فرائصي.

مرَّت لحظة سمعت فيها صوت ريتشي يهتف بصوت بانشو ڤانيلا بوضوح

كأنه يقف جواري: شارات؟ سينور، لسنا في حاجة إلى شاراتٍ لعينة![1]، ثم وضعتُ السمَّاعة. عندما تتوق لرؤية شخصٍ ما بالدرجة ذاتها التي كنت أتوق بها لرؤية ريتشي أو أيٍّ منهم في هذه اللحظة، فلا يُمكنك الوثوق بدوافعك ببساطة. نحن نكذب أفضل ما نكذب حين نكذب على أنفسنا. الحقيقة أنني لستُ مُتأكِّدًا بعد مئة بالمئة من الأمر. إذا عثروا على جُثَّةٍ أخرى، سأتَّصل... لكن في الوقت الحالي يجب عليَّ افتراض أن شخصًا أحمق مُختالًا كرادميكر قد يكون مُحقًّا. الفتاة قد تكون تذكَّرت والدها بالفعل، رُبَّما تمتلك صورًا له. كما أنني أظنُّ أن شخصًا بالغًا قوي الإقناع يستطيع استدراج طفلة إلى سيارته، بغض النظر عمَّا قد يكون هذا الطفل تعلَّمه.

ثمَّة خوف آخر يقضُّ مضجعي. رادميكر يظن أنني في طريقي إلى الجنون. أنا لا أُصدِّق ذلك، لكن لو هاتفتهم الآن فقد يعتقدوا أنني مجنون، أو رُبَّما يحدث الأسوأ. ماذا لو لم يتذكَّروا شيئًا على الإطلاق؟ مايك هانلون؟ من؟ أنا لا أتذكَّر شخصًا اسمه مايك هانلون. أنا لا أتذكَّرك على الإطلاق. عن أيِّ وعدٍ تتكلَّم؟

أشعر أن الوقت المناسب لمهاتفتهم سيأتي... وعندما سيأتي، سأعلم أنه الوقت المناسب. ستُفتح دوائر ذكرياتهم المُغلقة في الوقت نفسه. الأمر أشبه بترسين هائلين يقترب كلاهما ببطء إلى نُقطة التقاء قوية مع الآخر، أنا وديري من ناحية، وكل أصدقاء صباي الذين غادروا من ناحية أخرى.

عندما سيأتي الوقت المُناسب، سأسمع عقيرة السُلحفاة.

إذًا سأنتظر، وإن عاجلًا أو آجلًا سأعرف. أظنُّ أن مهاتفتهم أو عدم مهاتفتهم لم يُعد أمرًا محل سؤال الآن.

السؤال فقط: متى؟

---

(1) مقولة شهيرة جدًّا من فيلم The Treasure of the Sierra Madre عام 1948، سجَّلت ظهورها الأوَّل في رواية The Treasure of the Sierra Madre عام 1927، قبل أن يعاد اقتباسها مرَّات عديدة في كثيرٍ من الأعمال. في عام 2005، اختير الاقتباس الكامل من الفيلم واحد أفضل 100 اقتباس في تاريخ السينما الأمريكية، في المركز السادس والثلاثين، وذلك في قائمة معهد الفيلم الأمريكي.

14 فبراير، 1985
حريق ملهى بلاك سبوت.

«نموذج مثالي للكيفية التي ستُعيد بها الغُرفة التُجارية كتابة التاريخ يا مايك». هذا ما كان العزيز ألبرت كارسون سيقوله لي بصوتٍ مُتحشرجٍ. «سيحاولون، وسينجحون تقريبًا، لكن الشيوخ هنا يتذكَّرون كيف سارت الأمور كما يفعلون دائمًا... وقد يخبرونك إذا طرحت أسئلتك بشكلٍ صحيح».

يوجد أناس يعيشون في ديري منذ عشرين عامًا ولا يعلمون أنه في يومٍ ما كانت توجد ثكنات «خاصة» لضُبَّاط صف قاعدة سلاح الجو القديمة في ديري، وهي ثكنات أُنشئت على بُعد مسافة نصف ميل من القاعدة نفسها. في منتصف شهر فبراير آنذاك، عندما تكون درجة الحرارة ثابتة قُرب الصفر المئوي والرياح تعوي بسرعة أربعين ميلًا في الساعة عبر مهابط الطائرات المستوية ما يجعل برودة الرياح تصل إلى درجة يتعذَّر تصديقها، فإن نصف الميل هذا يصير قادرًا على تجميد أطرافك، أو إصابتك بقضمة الصقيع، أو رُبَّما حتَّى يقتلك.

كانت الثكنات السبع الأخرى مزوَّدة بمدافئ زيتية ونوافذ مقاومة للريح وعزلٍ مُمتاز. كانت مُريحة ودافئة. أما الثكنات «الخاصة» التي أوت سبعة وعشرين رجُلًا من السرية ه، فكانت تُدفَّأ بفرن قديم ضخم، اعتادت إمداداته من الأخشاب أن تأتي حين ميسرة. كان العزل الوحيد المُتاح هي أكوام خشب الصنوبر وأغصان الشجر التي وضعها الرجال في الخارج. عزَّز أحد الرجال المكان بمجموعة كاملة من نوافذ العواصف في أحد الأيَّام، لكن نُزلاء الثكنة «الخاصة» السبعة والعشرين استُدعوا إلى بانجور في ذلك اليوم للمُساعدة في بعض الأعمال في القاعدة، وعندما عادوا في تلك الليلة مُنهكين ويشعرون بالبرد، كانت جميع النوافذ قد تم تحطيمها.

حدث هذا في العام 1930، عندما كانت نصف قوَّة سلاح الجو الأمريكي مكوَّنة من الطائرات مزدوجة الأجنحة. في واشنطن، مَثَلَ بيلي ميتشل أمام المحكمة العسكرية، وخُفِّضت رُتبته العسكرية وأُوكل إليه بأداء الأعمال

المكتبية، لأن إصراره العنيد على محاولة بناء سلاح طيران أكثر حداثة أغضبت رؤسائه في نهاية المطاف بما يكفي لتوجيه صفعة قوية له.. وبعد فترة ليست ببعيدة، سيستقيل.

لهذا، كانت حركة الطيران في قاعدة ديري الجوية قليلة، على الرغم من مدرجاتها الثلاثة (التي كان أحدها مُمهَّدًا بالفعل)، وأعمال أغلب الجنود الذين كانوا مُجنَّدين فيها صورية لا أكثر.

كان أبي أحد جنود السرية ه، وقد عاد إلى ديري بعدما انتهت جولة خدمته في عام 1937، وهو من أخبرني بهذه القِصَّة:

«في أحد أيَّام ربيع عام 1930 –قبل نحو ستَّة أشهر من حريق ملهى بلاك سبوت– كنت عائدًا مع أربعة من أصدقائي من تسريحٍ مُدَّته ثلاثة أيَّام قضيناها في بوسطن».

«عندما دلفنا عبر البوابة، رأينا فتًى ضخمًا يقف في نقطة التفتيش مستندًا إلى رفشٍ ويشدُّ قماش زيه العسكري الصيفي المحشور في مؤخِّرته. كان جاويشًا آتيًا من مكانٍ ما في الجنوب. شعره أحمر كالجزر، وأسنانه سيِّئة، وتغزو البثور وجهه. كان مُجرَّد قرد بلا شعر على جسده إن كنت تفهم ما أعني. كثيرٌ من أمثاله كانوا في الجيش إبَّان الكساد الكبير».

«هكذا اقتربنا، أربعة رفاق عائدين من إجازة ما زالنا نشعر بالانتعاش، ورأينا في عينيه أنه يبحث عن شيءٍ لتكديرنا. لذا أدَّينا له التحيَّة العسكرية كما لو كان الچنرال بلاك چاك بيرشنج ذاته. أظنُّ أن الأمر كان سيمرُّ على ما يُرام، لكنه كان يومًا صحوًا من أيَّام أبريل، والشمس مُشرقة، وكان عليَّ أن أنسحب من لساني. 'مساء الخير يا سيِّدي الرقيب ويلسون'، هكذا قُلتُ، فانتهزها فُرصة ليمسك خطأً عليَّ».

سألني: «هل أعطيتك إذنًا بالكلام؟».

قلت: «لا يا سيِّدي».

«نظر حوله في وجوه الآخرين. تريڤور داوسون، وكارل رون، وهنري وايتسان. الأخير قُتِل في الحريق في ذلك الخريف المشؤوم، ثم قال لهم: 'هذا الزنجي المُتذاكي لديه مُشكلة معي. إذا كان بقيَّتكم يا معشر الزنوج لا

تريدون مشاركته في يوم قذر حافل بالعمل اللعين الشاق، اذهبوا إلى ثكناتكم ورتِّبوا عتادكم، ثم جرجِروا مؤخِّراتكم إلى ضابط النوبتجية، أتفهمونني؟'».

«وهكذا انطلقوا في طريقهم، بينما ويلسون يصرخ: 'أسْرِع يا ملاعين! دعوني أرى ما في جعبتكم اللعينة!'».

«وهكذا ضاعفوا من سرعتهم. أخذني ويلسون إلى واحدة من سقائف المُعدَّات وجعلني ألتقط مجرفة. ثم أخذني إلى الحقل الكبير كان موجودًا في المكان الذي تشغله صالة مُغادرة الخطوط الجوية الشمالية اليوم، ونظر إليَّ وهو يبتسم نوعًا ما، وأشار إلى الأرض وقال: 'أترى هذه الحُفرة هنا أيُّها الزنجي؟'».

«لم تكن هناك حُفرة، لكنني أدركت أنه من الأفضل لي الموافقة على أيِّ شيءٍ سيقوله. لذا نظرت إلى الأرض حيث كان يُشير وقلت إنني أراها بالتأكيد. هنا لطمني على أنفي وأسقطني أرضًا. سالت الدماء من وجهي فوق آخر قميص نظيف أمتلكه».

«صرخ في وجهي قائلًا: 'أنت لا تراها لأن زنجيًّا لقيطًا غليظ الفم ردمها!'. كانت الدماء تشيع في بقعتين كبيرتين على وجهه، لكنه كان يبتسم أيضًا، وقد أدركت أنه يستمتع بالموقف: 'ما ستفعل يا سيِّد في عصر هذا اليوم السعيد هو أنك ستُخرج كل التراب من حُفرتي، وبأقصى سرعة!'».

«وهكذا ظللت أحفر ساعتين، وسرعان ما صرت غائصًا داخل الحُفرة إلى ذقني. آخر قدمين أخرجتهما من التُربة كانت طينًا، وبحلول الوقت الذي انتهيت فيه، كنت أقف وسط ماءٍ يصل إلى كاحليّ، وحذائيّ منقوعان بالكامل داخله».

«قال الجاويش ويلسون: 'اخرج من عندك يا هانلون'. كان جالسًا فوق العُشب يُدخِّن سيجارة. لم يعرض عليَّ أيَّ معونة. كنت مُتَّسخًا بالطين والقذارة من رأسي إلى أخمص قدميّ، فضلًا عن الدماء التي تجف على قميص زيي العسكري. نهض واقفًا، وسار إليَّ. ثم أشار إلى الحُفرة».

سألني: «ماذا ترى يا زنجي؟».

قُلت له: «حُفرتك يا جاويش ويلسون».

قال لي: «أجل، حسنًا، لقد قرَّرت أنني لست في حاجةٍ إليها. لا أُريد حُفرة حفرها زنجي. أعد تُرابي إلى مكانه أيُّها العريف هانلون».

«وهكذا ردمت الحفرة من جديد، وفي الوقت الذي انتهيت فيه كانت الشمس قد غابت تقريبًا وبرد الجو. جاء إليَّ ونظر إليها بعدما أنهيت تسوية آخر طبقة من التُراب بالوجه المسطَّح للمجرفة».

سألني: «الآن، ماذا ترى أيُّها الزنجي؟».

«قلت له: 'مُجرَّد رُقعة من التُراب يا سيدي'، فضربني مُجدَّدًا. أوه يا إلهي يا مايك، كنت على وشك أن أقفز عليه وأشج رأسه بحافَّة تلك المجرفة. لكنني كنت لم أكن سأرى ضوء النهار ثانيةً إلا من وراء قضبانٍ إذا فعلتها، ومع ذلك، مرَّت عليَّ أوقاتٍ ظننت فيها أنه كان عليَّ فعل ذلك. لكنني تمكَّنت من السكوت بطريقةٍ ما»

«صرخ في وجهي واللعاب يتناثر من بين شفتيه: 'هذه ليست مُجرَّد رُقعة من الأرض أيُّها الجلف الغبي. إنها حُفرتي! ومن الأفضل لك أن تُفرغها من التُراب في التو! بضعف سرعتك!'».

«وهكذا فرَّغت الحُفرة من التُربة، ثم ردمتها مُجدَّدًا، ثم سألني لماذا ردمت حُفرته وهو يريد قضاء حاجته فيها. لذا حفرتها مرَّة أخرى، فأتى ودلَّى سراويله وقرفص ساقيه العجفاوتين وهبط بمؤخِّرته الريفية الحقيرة فوق الحُفرة وابتسم في وجهي وهو يغوط فيها وقال: 'كيف حالك يا هانلون؟'».

«أجبته على الفور: 'في خير حالٍ يا سيِّدي'، لأنني كنت عزمت ألا أتوقَّف حتَّى أفقد وعيي أو أسقط ميِّتًا، لذا كظمت غيظي».

«قال لي: 'حسنًا، سأُصلح هذا. كبداية، من الأفضل أن تردم هذه الحُفرة أيُّها العريف هانلون، وأريدك أن تُظهر بعض الحيوية، لقد صرت بطيئًا'».

«وهكذا ردمتها مرَّةً أخرى، واستطعت أن أرى من الطريقة التي يبتسم بها أنه ما زال في مرحلة الإحماء. لكن في هذا الوقت أتاه صديقٌ عبر الحقل حاملًا مصباح يعمل بالجاز وأخبره أن تفتيشًا مُفاجئًا جاء، وشعر ويلسون بالذُعر لأنه غاب عنه. كان أصدقائي قد غطوا غيابي ولم يكن لديَّ شيءٌ أقلق

بخصوصه، لكن أصدقاء ويلسون -إذا كان ذلك ما يدعوهم به- لم يُكلِّفوا أنفسهم عناء الأمر».

«عندها أطلق سراحي. انتظرت لأرى إن كان اسمه سيُدرج في لائحة العقوبة اليوم التالي، لكن هذا لم يحدث. أظنُّه أخبر رؤساءه أنه فوَّت التفتيش لأنه كان يُلقِّن زنجيًّا قليل الأدب درسًا عمَّن يملك كل الحُفر في قاعدة ديري الجوِّية، تلك التي حُفرت والتي لم تُحفر بعد، وقد قلَّدوه نيشانًا الأرجح بدلًا من إعطائه شوال بطاطس لتقشيره. هكذا كانت تُدار الأمور في السرية ه هنا في ديري».

أخبرني والدي القِصَّة في عام 1958، وأظنُّه كان قد قارب الخمسين وقتها، رغم أن أمي كانت في الأربعين أو نحو ذلك. سألته ما دام كان الوضع كذلك في ديري، فلِمَ عاد؟

«قال لي: ’حسنًا، كنت في السادسة عشرة فحسب عندما التحقت بالجيش. لقد كذبت بشأن سنِّي للانضمام إليه. لم تكن هذه فكرتي. لقد وُلِدتُ وترعرعت في بورجو في شمال كارولينا، والمرَّة الوحيدة التي رأينا فيها اللحم كانت بعد دخول زراعة التبغ إلى الولاية، وأحيانًا في الشتاء عندما كان أبي ينجح في اصطياد راكون أو أوبوسم. الشيء الوحيد الجيِّد الذي أتذكَّره من أيَّام بورجو هي فطيرة الأوبوسم والكعك المُنتشر حولها بجمالٍ تشتاقه النفس‘».

«لذا عندما تُوفي والدي في حادثة آلة زراعية، قالت أمي إنها سوف تأخذ فيلي لوبيرد شمالًا إلى كورينث، حيث يعيش بعضٌ من ذويها. كان فيلي لوبيرد وقتها طفل العائلة».

سألته: «أتقصد الخال فيل؟»، وأنا أبتسم من فكرة أن يدعوه أحدهم فيلي لوبيرد. كان مُحاميًا في توكسون بولاية أريزونا، وكان عضوًا في مجلس المدينة هناك طوال ست سنوات، وأنا صغير، كان خالي فيل ثريًّا. بالنسبة إلى رجل أسود في عام 1958، أظنُّه كان كذلك. كان دخله عشرين ألف دولارًا في العام.

قال أبي: «هذا من أقصد، لكنه في تلك الأيَّام كان صبيًّا في الثانية عشرة

فحسب، يضع على رأسه قُبَّعة بحَّارة مصنوعة من ورق الأرز، وأفرول مُرقَّع، ولا يملك أحذية. كان أصغرنا، وكنت أنا التالي في الترتيب. إخواننا الآخرين كانوا قد رحلوا. اثنان ماتوا، واثنان تزوَّجوا، وزُجَّ واحدٌ في السجن. هذا الأخير كان هاورد، الذي لم يكن ذا نفعٍ في شيءٍ على الإطلاق».

«'سوف تلتحق بالجيش'، هكذا أخبرتني جدتك شيرلي، ثم أردفت: 'لا أعلم إن كانوا سيدفعون لك راتبًا على الفور أم لا، لكن ما إن يفعلوا، سترسل لي معونة كل شهر. لكم أكره فراقك يا بُني، لكن إن لم تعتني بي أنا وفيلي، فلا أعلم إلام قد يصير حالنا'. ثم أعطتني شهادة ميلادي لأريها لمكتب التجنيد، ولاحظت أنها زوَّرت عام ميلادي كي تجعلني في الثامنة عشرة».

«لذا ذهبت إلى دار العدل حيث يوجد مكتب التجنيد وطلبت إلحاقي بالجيش. أراني المُختص الأوراق وخانة البصمة، فقلت له: 'أستطيع كتابة اسمي'، فضحك كأنه لا يُصدِّقني».

قال لي: «حسنًا اذًا، تفضَّل بكتابته أيُّها الفتى الأسود».

قلت له في المُقابل: «انتظر لحظة. أُريد أن أطرح بعض الأسئلة».

قال لي: «تحت أمرك. أستطيع أن أُجيبك عن أيِّ سؤالٍ».

سألته: «هل يصرفون اللحم مرَّتين أسبوعيًّا في الجيش؟ لقد أخبرتني أمي بذلك، لكنها تريد إغرائي للانضمام بشدَّة».

قال لي: «لا، اللحم لا يُصرف مرتين في الأسبوع».

قلت له: «حسنًا، هذا ما ظننته تمامًا»، وفكَّرت أن الرَّجُل بغيض، لكنه على الأقل بغيضٌ صادق.

«ثم قال بعدها: 'إنهم يصرفونه كل ليلة'، وجعلني أتعجَّب كم كنت غبيًّا لظنِّي الساذج بأنه صادق».

قلت له: «لا بُدَّ أنك تراني أحمق».

قال لي: «أنت مُحق في هذا أيُّها الزنجي».

قلت له: «حسنًا، إن انضممت، يجب أن أُقدِّم شيئًا لأمي ولفيلي لوبيرد. أمي تقول إنه معونة».

قال لي وهو ينقر على نموذج التخصيص: «هذا ما تسأل عنه. الآن، فيم تفكِّر أيضًا؟».

قلت له: «حسنًا، ماذا عن أن أحظى بتدريب لأصير ضابطًا؟».

«ألقى الرَّجُل برأسه إلى الوراء عندما قلت ذلك، وراح يضحك حتَّى ظننت أنه سيختنق ببُصاقه. ثم قال لي: 'بُني، اليوم الذي يصير فيه الزنوج ضُبَّاطًا في الجيش، هو اليوم الذي سترى فيه يسوع المسيح الدامي يرقص فيه الشارلستون في بيردلاند. الآن إما أن توقِّع أو ترحل، لقد نفد صبري. كما أنك أن تُعبِّئ المكان برائحة نتنة'».

«وهكذا وقَّعت، ورأيته يرفق نموذج التخصيص بورق التعبئة الخاص بي. بعدها جعلني أقسم اليمين، وصرت جنديًّا. اعتقدت أنهم سيرسلوني شمالًا إلى نيو چيرسي، حيث يبني الجيش جسرًا لأنه لم تكن توجد حروب لخوضها. لكن بدلًا من ذلك، أرسلوني إلى ديري في ولاية مين، وإلى السريَّة ه».

تنهَّد أبي -الرَّجُل الضخم ذو الشعر الأبيض المُجعَّد- وتململ في مقعده. في ذلك الوقت كنا نملك واحدة من المزارع الكبيرة في ديري، ورُبَّما أفضل منفذ بيع جانبي لمُنتجات المزارع في جنوب بانجور برُمَّته. كان نعمل بجد نحن الثلاثة، وكان والدي يضطَّر لتأجير فردٍ رابع للمُساعدة في موسم الحصاد، وهكذا صمدنا واستطعنا الوقوف بثباتٍ على أقدامنا.

قال لي: «لقد عُدتُ لأنني رأيت الجنوب ورأيت الشمال، ورأيت الكراهية في كليهما. لم يكن الجاويش ويلسون من أقنعني بذلك، فهو لم يكن سوى معتوهًا من چورچيا يحمل الجنوب داخله أينما حل. لم يكن من الضروري أن يكون آتيًا من جنوب خط ماسون ديكسون ليكره الزنوج، كان يكرههم فحسب. في الحقيقة، حريق ملهى بلاك سبوت هو الذي جعلني أعود. تعرف ما أعني يا مايكي، بشكلٍ ما...».

ثم نظر إلى أمي التي كانت جالسة تحيك. لم ترفع بصرها إليه، لكنني علمت أنها تنصت جيِّدًا، وكان والدي يعلم ذلك أيضًا على ما أظنُّ.

«بشكلٍ ما ذلك الحريق هو ما جعلني رجلًا. لقد مات ستون شخصًا في ذلك الحريق، ثمانية عشر منهم كانوا من السريَّة ه. في الحقيقة، لم ينج أيَّ

من رفاقي بعد انتهاء الحريق. هنري وايتسن، ستورك أنسون، آلان سنوبس، إيڤرت ماكاسلين، هورتون سارتوريس، جميع أصدقائي ماتوا في الحريق.. وذلك الحريق لم يُشعله الجاويش ويلسون وأصدقائه الريفيين الراضعين من ضروع الجاموس. لقد أشعله فرع ديري من رابطة الحشمة البيضاء في ولاية مين. آباء بعض الصبية الذين ترتاد المدرسة معهم يا بُني هم من أشعلوا النيران التي أكلت ملهى بلاك سبوت، وأنا لا أتحدَّث عن الأطفال المساكين، لا».

– «لماذا يا أبي؟ لماذا فعلوها؟».

قال الأب قاطبًا جبينه: «حسنًا، يرجع جزءٌ من الأمر إلى سيرورة الأمور في ديري فحسب». ثم أشعل غليونه ببطء وهزَّ عود الثقاب مُطفئًا إيَّاه وأردف: «لا أعلم لماذا حدث الأمر هنا. لا تفسير لديّ. لكنني لست مُندهشًا في الوقت نفسه».

«كما ترى، كانت رابطة الحشمة البيضاء نُسخة أهل الشمال من مُنظَّمة كو كلوكس كلان. كانوا يسيرون مُرتدين الشراشف البيضاء ذاته، ويحرقون الصُلبان نفسها، ويخطُّون عِبارات الكراهية العنصرية عينها ضد السَّود الذين شعروا أنهم يتقلَّدون مناصب السادة أو يشغلون وظائف مُخصَّصة للرجل الأبيض. كانوا يزرعون أصابع ديناميت في الكنائس التي تتحدَّث عن المساواة مع السود. تحدَّثت معظم كُتُب التاريخ عن الكو كلوكس كلان أكثر من رابطة الحشمة البيضاء. كثيرٌ من الناس لا يعلمون حتَّى بوجود مثل هذه الجماعة. أظنُّ لأن معظم الأحداث التاريخية دوَّنها شماليون، وهم يشعرون بالخزي من تلك المُمارسات».

«ذاعت شهرتهم في المدن الكبيرة والمناطق الصناعية. حظت كلٌ من نيويورك، ونيو چيرسي، وديترويت، وبالتيمور، وبوسطن، وبورتسماوث بنصيبها منهم. حاولت الرابطة تنظيم نفسها في ولاية مين، لكن كانت ديري المكان الوحيد الذي نجحوا بحق فيه. أوه، لقد حظت مدينة لويستون بنصيبٍ جيِّد منهم. كان هذا في ذات توقيت اندلاع حريق البلاك سبوت تقريبًا، لكنهم هناك لم يكونوا قلقين بشأن اغتصاب الزنوج للنساء البيضاء أو الاستيلاء على وظائف تنتمي إلى الرَّجُل الأبيض، لأنه لم يكن ثمَّة زنوج من الأساس. في

لويستون، كانوا يقلقون بشأن الصعاليك والمُتشرِّدين، وبشأن أن توحِّد جبهة تُدعى جيش المُكافأة جهودها مع جبهة تُدعى جيش الدهماء الشيوعي، وقد كان يُقصد بهذه الأخيرة أيَّ رجُلٍ عاطل عن العمل. اعتادت رابطة الحشمة البيضاء أن تنفي أولئك الرجال خارج المدينة بمُجرَّد وصولهم. كانوا أحيانًا يدسُّون بعض السماق السام في مؤخِّرات سراويلهم، وأحيانًا يضرمون النار في قمصانهم».

«حسنًا، أنهت الرابطة أعمالها هنا بعد حريق بلاك سبوت. فقد خرجت الأمور عن السيطرة كما ترى، بالطريقة المألوفة التي تخرج بها عن السيطرة في هذه المدينة أحيانًا».

توقَّف قليلًا مُدخِّنًا غليونه.

«كان الأمر يبدو كأن رابطة الحشمة البيضاء مُجرَّد بذرة يا مايكي.. بذرة وجدت هنا أرضًا خصبة تنمو فيها. لم تكن الرابطة سوى نادي أثرياء مُعتاد. بعد الحريق، نزع جميعهم شراشفه البيضاء وكذَّب بعضهم بعضًا وحدث تعتيمٌ على الأمر». بدا الآن ازدراءٌ وحشي في صوته جعل أمي تنظر إليه قاطبةً جبينها، ثم أردف: «فبعد كل شيء، من الذي قُتِل؟ ثمانية عشر جُنديًا زنجيًا، وأربعة عشر أو خمسة عشر مواطنًا زنجيًا، وأربعة أعضاء من فرقة چاز زنجية، وحفنة من مُحبِّي الزنوج. ما الذي يهم إذًا؟».

قالت أمي بهدوء: «حسنًا، هذا يكفي».

صحتُ قائلًا: «لا، أريد أن أسمع!».

قال لي وهو يُمرِّر يده الكبيرة الصلبة في شعري: «لقد اقترب موعد نومك يا مايكي. لكنني أريد أن أخبرك بشيءٍ واحد آخر. لا أظنُّ أنك ستفهمه، لأنني نفسي لا أفهمه. ما حدث في تلك الليلة في بلاك سبوت بقدر شناعته، لا أعتقد أنه حدث لأننا كنا ذوي بشرة سوداء، ولا حتَّى لأن الملهى كان قريبًا من غرب برودواي، حيث يعيش أثرياء ديري من وقتها وحتَّى اليوم. لا أظنُّ أن أعمال رابطة الحشمة البيضاء استفحلت هنا لأنهم بشكلٍ ما يمقتون السود والصعاليك في ديري أكثر ممَّا يمقتونهم في بورتلاند أو لويستون أو برونزويك. لا. لقد حدث ذلك بسبب طبيعة التُربة هنا. يبدو أن الأمور السيِّئة -الأمور المؤذية-

تزدهر في تُربة هذه البلدة الخصباء. لقد فكَّرت مرارًا وتكرارًا في الأمر عبر السنين، ولم أعلم لماذا تجري الأمور هنا هكذا... لكنها كذلك».

«لكن ثمَّة أناسًا جيِّدين هنا أيضًا، وقد كان هناك أناس جيِّدون وقتها. عندما أقيمت الجنائز بعد الحادث، خرج آلاف الناس من منازلهم.. خرجوا من أجل السود وكذلك البيض. أُغلِقت المتاجر لقرابة أسبوع، واستقبلت المُستشفيات الجرحى مجانًا، وأمام المنازل كنت تجد سلال طعام وخطابات تعزية صادقة. امتدت الأيادي مُساعدة في صبر. لقد قابلت صديقي ديوي كونروي في تلك الأثناء، وأنت تعلم أنه أبيض كأيس كريم الفانيليا، لكنني أشعر بأنه أخي، ومستعد أن أموت في سبيله إذا طلب مني، ورغم أن لا رجُل قادر على أن يعلم مكنون قلب رجُلٍ آخر، أظنُّه مُستعد للموت في سبيلي إن استدعى الأمر».

«على أيِّ حالٍ، نقل الجيش من ظلَّ حيًّا منا بعد الحريق إلى أماكن أخرى، كما لو كانوا يشعرون بالخزي... وأظنُّهم كانوا كذلك. انتهى بي الأمر في قاعدة فورت هود، ومكثت هناك ستة أشهر. قابلت أمك هناك، وتزوَّجنا في جلاڤستون في منزل أهلها. لكن خلال كل السنوات التي تلت، لم تغب ديري عن عقلي، وبعد الحرب، جئت بأمك إلى هنا، ورُزقنا بك، وها نحن أولاء، لا نبعد ثلاثة أميال عن المكان الذي كان يشغله ملهى بلاك سبوت عام 1930. الآن، أعتقد أن موعد نومك قد حان يا سيِّدي الهُمام».

صرخت قائلًا: «أريد أن أسمع قِصَّة الحريق. أخبرني يا أبي».

نظر إليَّ بتلك الطريقة العابسة التي تخرسني دائمًا... رُبَّما لأنه لا يبدو بهذه الحالة في كثيرٍ من الأحيان، ففي أغلب الأوقت كان أبي رجُلًا بشوشًا.

قال لي: «ليست هذه قِصَّة لصبي في سنك. لاحقًا يا مايكي. عندما يمضي كلانا بضع سنوات أخرى».

وقد تبيَّن أن كلانا أمضى أربع سنوات أخرى قبل أن أسمع قِصَّة ما حدث في ملهى بلاك سبوت في تلك الليلة، وبحلول ذلك الوقت كانت أيَّام تجوال أبي في الحياة قد ولَّت. لقد أخبرني بها مستلقيًا في فراشه بالمُستشفى وجسده مليء بالمُخدِّر، وهو يفيق ويغيب عن الوعي بينما يشق السرطان طريقه عميقًا في أمعائه، أكله من الداخل.

14 فبراير، 1985

قرأت مصادفةً آخر ما كتبته في هذه المُفكِّرة واندهشت عندما انفجرت باكيًا على أبي الذي مضت على وفاته الآن ثلاث وعشرون سنة. أستطيع تذكُّر حزني الذي استمرَّ قرابة سنتين عليه. بعدها، عندما تخرَّجت في المدرسة الثانوية عام 1965، نظرت أمي إليَّ وقالت: «كان أبوك ليفخر بك!». سقطنا باكيين أحدنا في ذراع الآخر وظننت أن الأمر انتهى، وأننا أنهينا مَهمَّة دفنه بتلك الدموع المُتأخِّرة. لكن من يدري إلى أيِّ مدى قد يستمر الحُزن؟ أليس من الجائز أنه بعد ثلاثين أو أربعين عامًا من موت طفلٍ أو أخٍ أو أخت، أن يستيقظ المرء من نومه ويُفكِّر في ذلك الشخص بذات إحساس الفقد والفراغ، ذلك الإحساس بأن ثمَّة فجوة في روحه لن يملأها شيءٌ قط، ولا بعد الموت حتَّى؟

ترك أبي الجيش وأعطوه معاش إعاقة في عام 1937. في تلك السنة، صار الجيش ذا نزعة حربية، وأخبرني أبي مرَّة أنه أيُّ شخصٍ بنصف بصيرة كان يستطيع رؤية أن كل الأسلحة ستخرج قريبًا من المخازن من جديد. كان قد ترقَّى إلى رُتبة رقيب بصورة مؤقَّتة، وفقد مُعظم قدمه اليُمنى عندما سحب أحد المُجنَّدين المستجدين دبوس القنبلة يدوية وأسقطها بدلًا من أن يلقيها وهو مذعور تمامًا لدرجة أنه كاد يغوط على نفسه. تدحرجت القنبلة إلى حيث يقف أبي وانفجرت بصوتٍ صاخب بدا أشبه بسُعالٍ في مُنتصف الليل على حدِّ وصفه.

كانت معظم المُعدات الحربية التي يتدرَّب عليها أولئك الجنود معيبة أو ظلَّت مُخزَّنة فترة طويلة جدًّا في مستودعاتٍ منسية حتَّى فسدت. كانوا يصادفون أعيرة نارية لا تُطلق، وبنادق تنفجر في أيدي الجنود مع ضغط زنادها. لم تكن طوربيدات القوَّات البحرية تتَّجه إلى حيث وُجِّهت، ولم تكن تنفجر إذا فعلت. كانت أجنحة طائرات فيلق القوَّات الجوِّية والذراع الجوي للبحرية تسقط مخلوعة إذا هبط الطيَّارون بها بعنف، وقد قرأت أن أحد ضُبَّاط الإمدادات في بينسكولا عام 1939 اكتشف أن أسطولًا كاملًا من شاحنات الجيش الحكومية تعطَّل لأن الصراصير أكلت خراطيمها المطَّاطية وسيور مراوحها.

وهكذا أُنقِذت حياة والدي -بما فيها النطفة التي صارت خادمكم المُطيع مايك هانلون بعد ذلك- بمزيجٍ من بيروقراطية الاعتمادات الحكومية التافهة والمُعدَّات المعيبة. لقد انفجرت القُنبلة اليدوية انفجارًا نصفيًّا فقط، وفقد هو جزءًا من ساقٍ واحدة بدلًا من أن يفقد كل شيء من أسفل قفصه الصدري إلى أخمص قدميه.

عن طريق إعانة الإعاقة، استطاع والدي الزواج بأمي قبل عام ممَّا خطط له، لكنهما لم يرتحلا إلى ديري في التو، بل إلى هيستون أوَّلًا، حيث عملا في أعمال مرتبطة بالحرب حتَّى عام 1945. كان والدي مُراقب عُمَّال في مصنع ينتج أغلفة القنابل، أما أُمي فعملت في أحواض بناء السُفن. لكن التفكير في ديري لم يبرح عقله قط كما أخبرني في تلك الليلة عندما كنت في الحادية عشرة من عمري. الآن أجدني أُفكِّر ما إذا كانت تلك القوَّة العمياء ناشطة وتعمل وقتها، وهي التي جذبته إلى ديري من جديد كي أتمكَّن من اتِّخاذ مكاني في تلك الدائرة في البرِّية مساء ذلك اليوم من أغسطس. إذا كانت الأقدار الكونية حقيقة، فالخير دائمًا يُعوِّض وجود الشَّر، لكن الخير يمكن أن يكون مُريعًا بدوره.

كان أبي مُشتركًا في جريدة أخبار ديري، وظل يتابع الإعلانات المُبوَّبة التي تُعلن عن أراضٍ للبيع. لقد ادَّخر هو وأمي قدرًا جيِّدًا من المال، وفي النهاية، رأى مزرعة معروضة للبيع وشعر أنها فُرصة جيِّدة... على الورق على الأقل. سافر كلاهما من تكساس بالحافلة وألقيا نظرة عليها، وابتاعاها في اليوم نفسه. أصدر بنك التُّجار الأوائِل في مقاطعة بينوبسكوت رهنًا عقاريًا لأبي مُدَّته عشر سنوات، واستقر هو وأمي أخيرًا.

قال لي أبي في وقتٍ آخر: «واجهتنا بعض المُشكلات في البداية. كان هناك أشخاص لا يُريدون أن يعيش الزنوج في الجوار. كنا نعلم أن الأمور ستكون كذلك -فلم أكن نسيت حادثة بلاك سبوت- لذا ظللنا في حالنا وانتظرنا مرور العاصفة. كان الصبية يمرون بنا ويرمونا بالحجارة أو صفائح البيرة. أظنُّ أنني استبدلت نحو عشرين نافذة مكسورة في العام الأوَّل. أيضًا، بعض المعتدين لم يكونوا صبية. في أحد الأيَّام عندما استيقظت من النوم، وجدت الصليب

المعقوف مرسومًا على جانب حظيرة الدجاج، ووجدت الدجاج كله مقتولًا. لقد سمَّم أحدهم العلف. كان هذا آخر دجاج حاولت تربيته».

«اهتم رئيس شُرطة المُقاطعة بالقضية. في تلك الأيَّام، لم يكن يوجد رئيس شُرطة هنا في ديري، لم تكن البلدة كبيرة بما يكفي لمثل هذا المنصب. عمل رئيس شُرطة المُقاطعة جاهدًا. هذا ما قصدته يا مايكي حينما قلت إنه يوجد خيرٌ هنا كما يوجد شرٌّ. لم تُشكِّل بشرتي البُنِّية أو شعري المُجعَّد فارقًا يُذكر لذلك الرَّجُل سوليڤان. لقد أتى إلى هنا ست مرَّات، وتحدَّث إلى الناس، وفي النهاية توصَّل إلى الجاني، ومن تظنه كان؟ سأمنحك ثلاثة تخمينات، ولن أحسب المحاولتين الأوليين».

قلت له: «لا أعرف».

ضحك والدي حتى انبثقت الدموع من عينيه، فسحب منديلًا كبيرًا أبيض من جيبه ومسحها وهو يقول: «كان الفاعل بوتش باورز! والد الفتى الذي تقول إنه الفتوة الأكبر في مدرستك. الأب كومة كبيرة من الخراء، والابن ضرطته الصغيرة».

قلت له: «بعض الصبية في المدرسة يقولون إن والد هنري مجنون». أظنُّ أنني كنت في الصف الرابع وقتها، وهي سنٌّ كافية تمامًا لأن يكون هنري باورز قد ركل مُؤخرتي أكثر من مرَّة. الآن وأنا أُفكِّر في الأمر، أجدني أدرك أن معظم الألفاظ الازدرائية للـ «سود» أو «الزنوج» التي سمعتها طوال حياتي، سمعتها للمرَّة الأولى من شفتي باورز بين الصفَّين الأوَّل والرَّابع.

قال لي: «حسنًا، سأخبرك. مسألة أن بوتش باورز رجُلٌ مجنون رُبَّما لا تكون خاطئة تمامًا. الناس يقولون إنه لم يعد على ما يُرام منذ أن عاد من المُحيط الهادئ. كان فردًا في البحرية آنذاك. على أيِّ حال، لقد وضعه رئيس شُرطة المُقاطعة في الحبس، وراح بوتش يعوي قائلًا إنها عملية وقائية، وإنهم جميعًا حفنة من مُحبي الزنوج. أوه، أجل، كان ينوي مُقاضاة الجميع. أظنُّه كان يمتلك قائمة بأسماء تصل من هنا إلى شارع ويتشام. أشكُّ أنه كان يمتلك شيئًا ليبني ادِّعاءه عليه، لكنه كان ينوي مقاضاتي أنا وسوليڤان ومدينة ديري ومُقاطعة بينسكوبت بأكملها، ويعلم الرَّب من أيضًا».

«ما حدث لاحقًا... حسنًا، لا أستطيع أن أقسم أنه كان حقيقيًا، لكن ما سأقوله هو ما سمعته من ديوي كونروي. قال ديوي إن سوليفان ذهب لرؤية بوتش في السجن في بانجور، وأخبره سوليفان قائلًا: 'حان الوقت لإغلاق فمك والإنصات قليلًا يا بوتش. ذلك الرَّجُل الأسود لا يُريد اتِّهامك بشيء، ولا يُريد أن يُرسلك إلى سجن شاواشنك، فقط هو يُريد ثمن دجاجه، وهو يظن أن مبلغ مئتي دولار كافٍ'».

«أخبر بوتش رئيس الشُرطة أنه يستطيع أن يضع المئتي دولار في ثقب مؤخِّرته، فقال له سوليڤان: 'أتعلم يا بوتش أن لديهم حُفرة جير في سجن شاواشنك؟ لقد أخبروني أنه بعد العمل فيها نحو سنتين، يصير لسانك أخضر بلون مصَّاصة الليمون. الآن حدِّد اختيارك جيِّدًا. ما رأيك، قضاء عامين في تقشير الجير، أو دفع مئتي دولار؟'».

قال بوتش: «لا قاضٍ في ولاية مين يمكنه إدانتي بتُهمة قتل دجاج زنجي».

قال سوليفان: «أعرف ذلك».

سأله بوتش: «إذًا عمَّ تتحدَّث بحق المسيح؟».

- «من الأفضل أن تستيقظ من أحلامك يا بوتش. لن يودعوك السجن بسبب قتلك للدجاج، لكنهم سيودعونك بسبب الصليب المعقوف الذي رسمته على الباب».

«قال لي ديوي إن فم بوتش فُغِر على اتِّساعه، وإن سوليڤان رحل وتركه يُفكِّر في الأمر. بعد مرور ثلاثة أيَّام تقريبًا أخبر بوتش أخاه -ذلك الذي تجمَّد من الصقيع بعد عامين عندما خرج للصيد مخمورًا- أن يبيع سيَّارته الميركري التي اشتراها بوتش بأموال تقاعده من الجيش والتي كان يهيم بها حُبًّا، وهكذا حصلتُ على مئتي دولار، وأقسم بوتش أنه سوف يحرقني حيًّا، وراح يتجوَّل في كل مكان مُخبرًا أصدقائه بذلك. لذا لحقت به في عصر أحد الأيَّام. كان قد ابتاع سيَّارة فورد من طراز قديم بدلًا من الميرك وكنت أقود أنا شاحنتي. قطعت عليه الطريق في نهاية شارع ويتشام قرب ساحة القطارات وترجَّلت حاملًا بندقيتي الوينشستر».

اقتربت منه وقلت له: «أيُّ محاولة منك لإيذائي أيُّها الرفيق القديم، ستفتح

بها على نفسك أبواب الجحيم، وسيخرج منها رجُلٌ أسود سيِّئ المزاج ليطاردك بنيرانه».

قال لي: «لا يُمكنك التحدُّث إليَّ بهذه الطريقة أيُّها الزنجي». كان يتأرجح بين الجنون والخوف وهو على وشك البكاء، ثم أردف: «لا يُمكن لعبدٍ مثلك التحدُّث إلى رجُلٍ أبيض بهذه الطريقة».

«كنت قد نلتُ كفايتي من الأمر برُمَّته يا مايكي، وعلمت أنني إن لم أثر ذعره هذه المرَّة فلن أستطيع التخلُّص منه طوال حياتي. لم يكن هناك أحد في الطريق. مددتُ يدي داخل تلك الفورد وأمسكته من شعره، ثم حشرت قاعدة بُندقيتي في حُلية حزامي ووضعت ماسورتها أسفل ذقنه تمامًا، وقلت: 'المرَّة القادمة التي ستنعتني فيها بالزنجي أو العبد، سيتناثر مُخك على مصباح سيَّارتك الداخلي. صدِّقني يا بوتش عندما أقول لك إن أيَّ محاولة منك ستجعلني أُطاردك ببندقيتي، بل رُبَّما أطلق النار على زوجتك وطفلك المُزعج وأخيك التافه. لقد بلغت روحي الحلقوم'».

«بدأ يبكي بالفعل، ولم أكن قد رأيت مشهدًا أقبح في حياتي كلها. كان يقول: 'انظر إلى أيِّ مدى وصلت الأمور هنا. يستطيع زنـ... زنـ... رجُل تسديد بُندقية إلى رأس رجُلٍ كادح في وضح النهار'».

وافقته قائلًا: «أجل، لا بُدَّ أن العالم في طريقه إلى الجحيم عندما يحدث أمرٌ كهذا. لكن هذا لا يهم الآن. كل ما يهم الآن هو، هل توصَّلنا إلى تفاهمٍ هنا أم تريد أن ترى إن كنت قادرًا على التنفُّس من ثقب في جبهتك؟».

«أوضح لي كيف أنه فهمني تمامًا، وكانت تلك المرَّة الأخيرة التي واجهت فيها مُشكلة مع بوتش باورز، رُبَّما فقط باستثناء موضوع موت كلبك شيبسي، ولست أمتلك دليلًا أن باورز من فعلها. رُبَّما التهم شيبسي سم فئرانٍ أو أي شيءٍ فاسدٍ آخر».

«منذ ذلك اليوم، تُركنا وشأننا لنشق طريقنا الخاص ونديز أمورنا كما نرى. عندما أسترجع الأمر الآن، لا أجد شيئًا أندم عليه أو يؤسفني كثيرًا. لقد حظينا بحياة طيِّبة هنا، وإذا كانت ثمَّة ليالٍ حلمت فيها بالحريق، فما المشكلة في ذلك، لا يُمكن للمرء أن يحيا حياة طبيعية من دون أن تعتريه خلالها بعض الكوابيس».

28 فبراير، 1985

مرَّت أيَّام كثيرة منذ أن جلست ودوَّنت قِصَّة حريق بلاك سبوت كما تلاها أبي عليَّ، ولم أكن أستطيع تقبُّلها بعد. في كتاب سيِّد الخواتم، تقول إحدى الشخصيات: «تفضي الدروب إلى دروب»؛ بمعنى أنه يُمكنك السير بضع خطوات في طريقٍ مُعتاد ممل كالرصيف المجاور لمنزلك، ومن هناك يمكنك الارتحال إلى... إلى أيِّ مكانٍ تقريبًا. كذلك القصص تقود إحداها إلى الأخرى، ثم الأخرى، ثم الأخرى، وقد ترتحل بك إلى مُنعطفات ترغبها، وقد لا تفعل.. ففي النهاية، قد يكون صوت الراوي هو المُهم، لا القصص التي يرويها.

وقد كان صوته هو ما أتذكَّر بكل تأكيد. صوت أبي، الواهن البطيء، وكيف كان يضحك أحيانًا ضحكة مكتومة، أو ينفجر ضاحكًا ملء روحه. أتذكَّر سكناته ووقفاته من حينٍ إلى آخر ليُشعل غليونه أو ليتمخَّط أو ليذهب ويحضر عبوَّة من بيرة ناراجانسيت (أو جانسيت الكريهة كما كان يُسمِّيها) من المُبرِّد. ذلك الصوت، الذي كان في أُذُني صوت الأصوات، صوت كل السنين، الصوت الرسمي لهذا المكان. ذلك الصوت الذي لم يُسمع في أيِّ لقاءٍ إذاعي، أو يُقتبس في أيِّ تأريخ فقير لهذه البلدة، ولا في أيٍّ من أشرطتي المُسجَّلة الخاصة.

صوت أبي.

الساعة الآن العاشرة مساءً، لقد أُغلقت المكتبة قبل ساعة، وقد بدأ الرب يسوع في إثارة الأجواء في الخارج. أستطيع سماع قطرات المطر المتجمِّد الحادة تضرب النوافذ وحوائط الممرِّ الزُجاجي الذي يفضي إلى مكتبة الأطفال. أستطيع سماع أصواتٍ أخرى أيضًا، أصوات صريرٍ واحتكاك خفيَّة تأتي من خارج دائرة الضوء حيث أجلس لأخط الكلمات على صفحات مُفكِّرتي الصفراء المُسطَّرة. أطمئن نفسي قائلا لها إنها مُجرَّد أصوات مبنى قديمٍ ناخر، لكنني أحتفظ بشكوكي. كما أجدني أتساءل إذا ما كان هناك مُهرِّج يقفُ بالخارج يبيع البالونات في تلك الأجواء الليلية العاصفة.

حسنًا... لا تهتم. أظنُّ أنني تذكَّرتُ أخيرًا قِصَّة والدي الأخيرة. لقد سمعتها منه في غُرفة المُستشفى قبل أقل من ستَّة أسابيع من موته.

كنت أذهب لرؤيته مع أمي عصر كل يوم بعد المدرسة، وبمُفردي كل ليلة. كانت والدتي تُضطر للبقاء في البيت مساءً لإنهاء الأعمال المنزلية، لكنها كانت تصر على ذهابي إليه. كنت أذهب بدرَّاجتي، فأمي لم تكن تسمح لي بأن أطلب من أحدٍ توصيلي، ولا حتَّى بعد انتهاء حوادث القتل بأربع سنوات.

كانت تلك ستَّة أسابيع قاسية تمامًا على صبيٍ لم يتجاوز الخامسة عشرة بعد. لقد كنت أحب أبي، لكنَّني بشكلٍ ما كرهت تلك الزيارات المسائية. كرهت مراقبته وهو يذبُل ويذوي، كرهت مشاهدة تعمُّق خطوط الألم وانتشارها في ثنايا وجهه. كان يبكي أحيانًا، رغم أنه حاول كثيرًا ألَّا يفعل. بالإضافة إلى أنه عندما يأتي وقت عودتي، يكون العالم قد بدأ في الإظلام، وأبدأ في استرجاع ما حدث في صيف عام 1958، وأصير خائفًا من النظر خلفي لأن المُهرِّج، أو المُستذئب، أو مومياء بن، أو طائر كوابيسي واقف هناك في الظلام. لكن في الغالب أكثر ما كان يُخيفني أنه بغض النظر عن التجسُّد التي قد يتَّخذه الشَّيء، فإنه سيرتدي معه سحنة أبي التي أسقمها السرطان. لذا كنت أقود درَّاجتي بأقصى ما في جُعبتي من سُرعة، بغض النظر عن قوَّة خفقان قلبي بين ضلوعه، وأصل إلى المنزل لاهثًا متوهِّجًا وشعري ممزوجًا بالعرق. تسألني أمي: «لماذا تقود درَّاجتك بهذه السُرعة يا مايكي؟ ستُمرض نفسك»، فأرد عليها: «لأنني أريد العودة مُبكِّرًا ومساعدتك في الأعمال المنزلية»، فتُعانقني أمي وتطبع قبلة على وجنتي وتقول لي إنني ولدٌ صالح.

بمرور الوقت، لم أعد قادرًا على التفكير في مواضيعٍ للتحدُّث معه فيها. في أثناء رحلاتي عبر البلدة، كنت أُفتِّش رفوف عقليٍ بحثًا عن مواضيع تصلح للنقاش، خاشيًا اللحظة التي ينضب فيها معين كلانا ممَّا يُقال. كانَ احتضاره يخيفني ويغضبني، لكنه كان يحرجني أيضًا، وبدا لي وقتها -كما يبدو لي الآن- أنه عندما يحين أجل رجُلٍ أو امرأةٍ يجب أن يتم سريعًا. لم يكن السرطان يقتله فحسب، بل كان يهينه، ويحط من قدره.

لم يحدث أن أتينا على ذكر السرطان قط. أحيانًا، في بعض فترات الصمت تلك، كنت أُفكِّر أننا لا بُدَّ مُتحدثون عنه إن آجلًا أو عاجلًا، حين تنفد كل المواضيع الأخرى، ونجد نفسينا واقفين كطفلين لم يلحقا مكانًا للجلوس

في لُعبة الكراسي الموسيقية. عندها أكاد أُجن، وأحاول التفكير في شيءٍ -أيِّ شيءٍ- يُقال كي لا نُضطر إلى الاعتراف بالشيء الذي يستهلك والدي الآن.. والدي الذي أمسك يومًا ما ببوتش باورز من شعره وحشر بُندقيته أسفل ذقنه وأمره أن يتركه وشأنه. سنُجبر في النهاية على التحدُّث عن الأمر، وعندها سأبكي. لن أستطيع السيطرة على نفسي. أظنُّ أن فكرة البُكاء أمام أبي وأنا في سنِّ الخامسة عشرة كانت تُخيفني وتفجعني أكثر من أيِّ شيءٍ آخر.

وقد كان في أثناء إحدى فترات الصمت الطويلة المُخيفة هذه أن حدث وسألته عن الحريق الذي نشب في ملهى بلاك سبوت. كانوا قد أثقلوه بالمُخدِّر في تلك الأُمسية لأن الألم كان مروِّعًا، وراح ينزلق غائبًا عن الوعي وعائدًا إليه، يتحدَّث أحيانًا بوضوح، ويتحدَّث في أحايين أخرى بتلك اللغة الغريبة التي أسميها «طمي النوم». أحيانًا كنت أعرف أنه يتحدَّث إليّ، لكن في أحايينِ أخرى بدا أنه يظنني شقيقه فيل. سألته عن حريق بلاك سبوت بلا سبب حقيقي، فقط قفزت الفكرة إلى عقلي فاغتنمتها على الفور.

لمعت عيناه وابتسم قليلًا وقال: «لم تنس ذلك الأمر قط يا مايك، أليس كذلك؟».

قلت له: «لا يا سيِّدي».. ورغم أنني لم أُفكِّر بشأن الحريق منذ أكثر من ثلاث سنوات أو نحو ذلك، أردفت مُقتبسًا ما يقوله أحيانًا: «التفكير في الأمر لم يبرح عقلي قطّ».

قال لي: «حسنًا، سأخبرك الآن. أعتقد أن الخامسة عشرة سنٌّ مناسبة، كما أن أمك ليست هنا لتوقفني. بالإضافة إلى أنك تستحق أن تعرف. أظنُّ أن شيئًا كهذا لم يكن ليحدث في مكانٍ آخر غير ديري، ويجب أن تعلم ذلك أيضًا كي تستطيع أخذ حذرك. يبدو أن الظروف المواتية لمثل هذه الأمور مُتاحة دائمًا هنا. أنت حَذِر يا مايك، ألستُ كذلك؟».

قلت له: «أجل يا سيِّدي».

قال لي: «جيِّد»، ثم غاص رأسه إلى الوراء في وسادته وهو يتمتم: «هذا جيِّد». ظننت أنه على وشك أن ينزلق غائبًا عن الوعي من جديد لأنه أرخي جفناه ثم أغلقهما، لكنه بدأ يتكلَّم.

قال: «عندما كنت في قاعدة الجيش هنا بين عامي 1929 و1930، كان نادي ضُبَّاط الصَّف أعلى التلَّة، حيث توجد الآن كلية مُجتمع ديري. كان يقع خلف متجر بي إكس تمامًا، حيث اعتدنا الحصول على علب سجائر لاكي سترايك الخضراء مُقابل سبعة سنتات. لم يكن نادي ضُبَّاط الصَّف سوى مُستودع، لكنهم رتَّبوا المكان بأناقة من الداخل. بُساط وثير على الأرض، طاولات بمقعدين بطول الحوائط، فونوغراف. كنت تستطيع الدخول والحصول على بعض المشروبات إن كنت رجُلًا أبيض بالتأكيد. كانت لديهم فرق تعزف وتغني في ليالي السبت، وكان المكان هادئًا ومناسبًا لتزجية الوقت. على المَشرب، لم تكن تجد سوى المشروبات الغازية والفوَّارة، كنا إبَّان فترة تحريم الخمور، لكننا سمعنا أنه يُمكنك الحصول على شرابٍ أقوى إذا رغبت، فقط إذا كنت تملك نجمة خضراء صغيرة على بطاقة الجيش الخاصة بك. كانت النجمة بمثابة علامة سريِّة بينهم، وكان ما تحصل عليه بسُلطتها لهي بيرة منزلية الصنع في الغالب، لكن في عُطلات نهاية الأسبوع كنت تستطيع الحصول على مشروباتٍ روحية أقوى».

«بالتأكيد لم يكن مسموحًا لأفراد السريَّة ه التسكُّع في أيِّ مكانٍ قريبٍ من النادي، لذا كنا نتَّجه إلى البلدة عندنا نكون في فترة راحة ليلًا. في تلك الأيَّام، كانت ديري ما زالت بلدة تعيش على تجارة الأخشاب، وبها ثماني أو عشر حانات يقع معظمها جنوبًا في القطاع الذي المُسمَّى نصف الفدَّان الجحيمي. لم تكن تلك ملاهٍ ليلية، فذلك اسمٌ كبيرٌ جدًّا عليها، ولم يكن أحدًا يلهو فيها بسهولة على أيِّ حال. كانت أقرب إلى ما يُسميه الناس بـالمواخير أو حظائر الخنازير العمياء، وكانت تلك تسمية مُلائمة تمامًا لها، لأن معظم الزبائن كانوا يتصرَّفون كالخنازير بالداخل، وكالعميان وهم خارجون منها. كان رجال الشُرطة يعرفون ذلك، وكذا رئيسهم، لكن تلك الأوكار ظلَّت تُدار بمجون طوال الليل وحتَّى الصباح الباكر، كما كانت منذ أيَّام بداية ازدهار صناعة الأخشاب في تسعينيات القرن التاسع عشر. أظنُّ أن الرشاوي كانت تُدفع، لكن ليس كثيرًا كما قد تظن، ففي ديري الناس ماهرون في غض البصر عن الأشياء. بعض المواخير كانت تُقدِّم مشروبات قوية كالبيرة، وحسب ما

سمعت من كل الأطراف، فإن المنقوع الذي كنت تستطيع الحصول عليه في البلدة أفضل عشر مرَّات من الويسكي الرخيص والجِن الشبيه بماء الاستحمام الذي تحصل عليه في نادي الفتيان البيض في ليالي الجمعة والسبت. كان خمر البلدة يأتي مُهرَّبًا عبر الحدود من كندا في شاحنات نشارة الأخشاب، وكانت معظم الزُجاجات تحتوي على ما تقوله البطاقة المُلصقة عليها. كان الخمر الجيِّد منها باهظ الثمن، لكن كان هناك الكثير من منقوع الأحذية أيضًا، والذي كان قادرًا على الإطاحة بك لكنه لم يكن ليقتلك، وإذا حدث وتسبَّب لك بعمى، فهو عمى مؤقت لا يستمر طويلًا. في تلك المواخير، كان يتحتَّم عليك حني رأسك عندما تأتي الزُجاجات مُحلِّقة في الهواء. كان هناك الكثير منها: ماخور نان، والفردوس، وحانة والي سبا، وسيلفر دولار، وباوردهورن كذلك الذي كنت تستطيع فيه الحصول على عاهرة أحيانًا. أوه، كنت تستطيع التقاط النساء من أيِّ ماخور، فلم يكن الأمر بتلك الصعوبة، فكثيراتٍ منهن كُنَّ يردن معرفة ما إذا كان مذاق قضيب الرَّجُل الأسود يختلف في أيِّ شيء. لكن بالنسبة إلى صبية مثلي أنا وتريڤور داوسون وكارل رون، أصدقائي في تلك الأيَّام، كانت فكرة الحصول على عاهرة -عاهرة بيضاء- ليست أمرًا هيِّنًا، وتتطلَّب الجلوس والتفكير فيها».

كان أبي مُخدَّرًا بشِدَّة في تلك الليلة كما أخبرتكم. لا أعتقد أنه كان سيتفوَّه بأيٍّ من تلك الأمور إلى ابنه الذي في سنِّ الخامسة عشرة إذا لم يكن كذلك.

«حسنًا، لم يمض وقتٍ طويل قبل أن يأتي مندوب من مجلس المدينة طالبًا لقاء الرَّائد فولر. قال إنه يُريد التحدُّث معه عن 'بعض المُشكلات بين أهل البلدة والجنود' وعن 'مخاوف الناخبين'، وليطرح 'أسئلة عن الآداب العامة'. لكن ما أراده مندوب مجلس المدينة حقًّا من فولر كان واضحًا وضوح الشمس. إنهم لا يُريدون زنوجًا في مواخيرهم، يسبِّبون إزعاجًا للنساء البيض ويشربون الخمر المُهرَّبة على المَشرب حيث يُفترض أن يجلس الرِّجال البيض ليشربوا وحدهم الخمر المُهرَّبة».

«كان الأمر برُمَّته مُزحة كبيرة سخيفة بالطبع. النساء الذين كانوا يخشون على حيائهن من الخدش كُنَّ في الغالب حفنة من الغواني، أما بالنسبة إلى

اعتراض طريق الرِّجال...! فحسنًا، كل ما أستطيع قوله أنني لم أرَ قط عضوًا من مجلس مدينة ديري يتسكَّع في ماخور سيلڤر دولار، أو باودرهورن. كان الرجال الذين يثملون في تلك الأوكار قُطَّاع أخشاب، بمعاطفهم الكبيرة ذات اللونين الأحمر والأسود، والنُّدب والجرب على أيديهم. بعضهم فقد إصبعًا أو عينًا، وجميعهم فقدوا أسنانهم، وجميعهم أيضًا تفوح منهم رائحة نشارة الخشب وصمغ الأشجار. كانوا يرتدون سراويلات خضراء خفيفة، وأحذية مطَّاطية خضراء طويلة الرقبة، ويخلِّفون وراءهم نُدف ثلج على الأرضية لتذوب وتسودُّ مثلها. كانت تفوح منهم رائحة الخنازير يا مايكي، وكانوا يمشون كالخنازير، ويتحدَّثون كالخنازير. كانوا خنازيرًا. في إحدى الليالي كنت في حانة والي سبا، ورأيت كُمَّ قميص رجُلٍ يُشَقُّ من عند ذراعه في أثناء مُصارعة بالأذرع مع رجُلٍ آخر. كُمُّ القميص لم يتهتَّك فحسب، فرُبَّما تظن أن هذا ما قصدته، لكن لا. لقد انفجر الكُمُّ مُتمزِّقًا، وكأن ذراعه ذاتها انفجرت مُمزَّقة إلى خِرَق، ثم هاج جميع من في المكان وماجوا، وصفعني أحدهم على ظهري قائلًا: 'هذا ما ندعوه بضرطة ذراع المُصارع يا ذا الوجه الأسود'».

«ما أريد قوله أن أولئك الرجال الذين اعتادوا ارتياد حظائر الخنازير العمياء في نهاية الأسبوع بعد عودتهم من الغابات لاحتساء الويسكي ومُضاجعة نساء من لحم ودم بدلًا من ثقوب الأشجار المدهونة بالشحم، إذا لم يكن أولئك الرجال يرغبون في وجودنا، كانوا سيلقون بنا إلى الخارج. لكن الحقيقة يا مايكي أن وجودنا لم يكن يزعجهم بأيِّ شكلٍ من الأشكال».

«انتحى أحدهم بي جانبًا ذات ليلة. كانت قامته بارتفاع ستَّة أقدام، ما كان يُعد ضخمًا جدًّا في تلك الأيَّام، وكان ثملًا تمامًا، وتفوح منه رائحة قوية كرائحة سلَّة ثمار خوخ عمرها شهر. رجُلٌ مثله إذا خرج من ملابسه، أظنُّها كانت ستقف بُمفردها في مكانها. نظر الرَّجُل إليَّ وقال: 'سيدي، سأثألك ثؤالًا، هل أنت تكون زنجيًّا؟'».

أجبته: «هذا صحيح».

«'كومون سا ڤا!'، هكذا قال لي بنبرة فرنسية أشبه بكلام الأكاديين من جنوب لويزيانا، وابتسم ابتسامة كبيرة مكَّنتني من رؤية جميع أسنانه الأربعة،

ثم أردف: «كنت أعرف أنك كذلك! هاي! لقد رأيت صورة لأحدكم في كتابٍ ذات مرَّة! لديه ذات الـ...»، لم يستطع التفكير في كيفية التلفُّظ بما يعنيه في عقله، لذا مدَّ يده وداعب شفتي بإصبعه.

قلت له: «شفتان كبيرتان».

قال وهو يضحك كالأطفال: «أجل، أجل! شفَّة كبيرة! إيبيه ليفغ! شفَّة سميكة! سأبتاع لك بيرة، أنا!».

قلت له: «ابتعها فورًا»، فلم أكن أرغب في رؤية وجهه الآخر.

«ضحك على هذا أيضًا وضربني على ظهري، وكاد أن يطرحني أرضًا على وجهي. شق طريقه إلى المَشرب الخشبي حيث كان سبعون رجُلًا ونحو خمس عشرة سيِّدة يصطفون، وصاح في النادل الذي كان ضخمًا مُتثاقلًا ذا أنفٍ مكسور اسمه روميو دوبري: 'أريد كوبين من البيرة قبل أن أُكسِّر هذه المزبلة! واحد لي وواحد للرجل ذي الـ إيبيه ليفغ!'، فضحكوا جميعًا، لكن ليس بطريقة سيِّئة يا مايكي».

«وهكذا جلب البيرة وأعطاني واحدة وهو يقول: 'ما اسمك؟ لا أُريد نعتك بذي الشفتين الغليظتين أنا، فوقعها ليس لطيفًا'».

قلت له: «أنا ويليام هانلون».

فقال لي: «حسنًا، هذا نخبك يا ويليام هانلون».

قلت له: «لا، بل نخبك أنت. فأنت أوَّل رجُلٍ أبيض يبتاع لي مشروبًا»، وقد كان هذا صحيحًا.

«وهكذا جلسنا نشرب البيرة ثم طلبنا كوبين آخرين منها، وقال لي: 'هل أنت مُتأكِّد أنك زنجي؟ فباستثناء تلك الشفتين الكبيرتين، أنت تبدو كرجُلٍ أبيض ببشرة بُنِّية فحسب'».

أخذ أبي يضحك كثيرًا على هذا القول، وكذلك أنا. لقد ضحك بقوَّة حتَّى بدأت معدته تؤلمه، فأمسكها لاويًا قسماته، ورفع عينيه إلى أعلى وهو يعض شفته السُفلى بفكِّه العلوي.

سألته مُتوتِّرًا: «هل ترغب في استدعاء المُمرِّضة يا أبي؟».

– «لا، سأكون بخير. تعرف ما أسوأ شيء في هذا المرض يا مايكي؟ أنك

لا تستطيع الضحك عندما تشعر برغبة في ذلك، وهو الأمر نادر الحدوث من الأساس».

صمت أبي لحظاتٍ، وأدركتُ الآن أن تلك كانت المرَّة الوحيدة التي اقتربنا فيها من الحديث عمَّا كان ينهش في بدنه. رُبَّما كان من الأفضل -لكلينا- إذا كنا تحدَّثنا أكثر من ذلك.

رشف أبي رشفة ما ثم واصل حكايته.

«على أيِّ حال، لم يكن الحطَّابون أو النساء الذين يرتادون المواخير هم من أرادوا إبعادنا عن البلدة. بل أولئك الرجال الخمسة في مجلس المدينة هم الذين شعروا بالإهانة، هم ودزينة الرجال أو نحو ذلك التي تقف خلفهم. سُلالة ديري القديمة، تعرف قصدي. لم يكن أيٌّ منهم قد وضع قدمًا داخل ماخور الفردوس أو والي سبا، فقد كانوا يحتسون خمورهم في ناديهم الريفي الخاص الذي كان يقع وقتها فوق مُرتفعات ديري، لكنهم أرادوا التأكُّد من عدم تلوُّث أيٍّ من الغواني أو الحطَّابين بالجُند الأسود من السريَّة ه».

«لذا قال الرَّائد فولر لمندوب المجلس: 'لم أكن أرغب في قدومهم إلى هنا في المقام الأوَّل. كنت أظنُّ أن هذه سهوة وأنهم سيُعيدونهم إلى الجنوب أو رُبَّما إلى نيو چيرسي'».

«'ليست هذه مُشكلتي'، هكذا أخبره ذلك البغيض المُسِنُّ. أظنُّ أن اسمه كان مولر...».

سألتهُ مشدوهًا: «والد سالي مولر؟». كانت سالي مولر في المدرسة الثانوية معي.

ابتسم أبي ابتسامة مريرة ملتوية قليلًا، وقال: «لا، بل عمها. كان والد سالي مولر خارج البلدة في مكانٍ ما. لكنه لو كان موجودًا، كان سيقف مع أخيه، وسيُعضِّد موقفه، على ما أظنُّ. إذا كنت تشكُّ في مصداقية هذا الجزء من القِصَّة، كل ما أستطيع قوله لك أن تريڤور داوسون الذي كان يمسح الأرضيات في منطقة الضُبَّاط ذلك اليوم سمع كل شيء وكرَّر الحديث ذاته على مسمعي».

«قال مولر للرَّائد فولر: 'المكان التي يُرسل الجيش إليه بالفتية السود

مُشكلتك أنت، لا مُشكلتي. مُشكلتي هي الأماكن التي تسمح لهم بالتجوُّل فيها في ليالي الجُمعة والسبت. إذا ذهبوا ثانيةً ليمرحوا ويصخبوا في وسط المدينة، ستحدُث مشاكل. الرابطة لها وجود قوي في هذه البلدة كما تعرف'».

«قال له: 'حسنًا، لكن يديّ مكتوفتان هنا نوعًا ما يا سيِّد مولر. فأنا لا أستطيع السماح لهم بالذهاب للسُكر في نادي إن سي أو. ليس الأمر فقط ضد اللوائح التي تمنع اختلاط الزنوج بالبيض ومشاركتهم مشربهم ومجلسهم، فهم لا يستطيعون ذلك على أيٍّ حال. نحن نتكلَّم هنا عن نادي ضُبَّاط، ألا ترى ذلك معي؟ كل واحد من أولئك الأولاد السود مُجرَّد عرِّيف'».

«'ليست تلك مُشكلتي أيضًا. أنا أثق أنك ستعتني بهذه المسألة، القيادة تُرافقها مسؤولية'. هكذا قال، ثم رحل».

«حسنًا، وجد فولر حلًّا للمُشكلة. كانت قاعدة الجيش في تلك الأيَّام تحتلُّ مساحة كبيرة جدًّا من الأرض، رغم أنه لم يكن يوجد بها كثيرٌ من المُنشآت. كانت تمتد لأكثر من مئة فدَّان تشمل كل شيء، وفي الشمال، كانت تنتهي خلف غرب برودواي تمامًا، حيث زُرع نطاقٌ أخضر كحدٍّ فاصل.. وفي المكان الذي تقف فيه الحديقة التذكارية الآن، أُقيم ملهى بلاك سبوت».

«كان الملهى مُجرَّد سقيفة قديمة استولى الجيش عليها في أوائل الثلاثينات. جمع الرَّائد فولر أفراد السريَّة ه، وأخبرنا أن تلك السقيفة ستكون 'نادينا'. كان يتصرَّف كأنه بابا واورباكس، ورُبَّما كان يشُعر أنه كذلك، وهو يمنح مجموعة من الجنود السود مكانهم الخاص، حتَّى لو لم يكن شيئًا سوى سقيفة. ثم أضاف في النهاية -كأن الامر غير ذي أهمية- أن مواخير وسط المدينة لم تعد تقع في نطاق تَجَوُّلنا».

«شعرنا بمرارة كبيرة، لكن هل كان باليد حيلة؟ لم يكن لدينا أيُّ سُلطة حقيقية، وقد كان ذلك الفتى اليافع ديك هالوران -الجندي المُستجد والطاهي الرديء- هو من اقترح أننا قد نستطيع تحويل السقيفة إلى مكان لطيف جدًّا إذا حاولنا بهمَّة».

«وقد فعلنا ما في وسعنا، بهمَّة حقيقية، وأبلينا بلاءً جيِّدًا، مع وضع كل الظروف في الاعتبار. أوَّل مرَّة ذهبت فيها مجموعة منا لتفقُّد المكان شعرت

بإحباطٍ كبير. كان المكان مُظلمًا ويفوح برائحة سيِّئة، ومليئًا بأدواتٍ قديمة وصناديق وأوراق اهترأت وتعفَّنت. لم يكن بالسقيفة سوى نافذتين، ولم تكن مزوَّدة بالكهرُباء، وكانت أرضيتها تُربة قذرة. أتذكَّر أن كارل رون ضحك ضحكة مريرة، وقال: 'الباشا العزيز، يا له من أمير طيب القلب، أليس كذلك؟ لقد منحنا ملهانا الليلي الخاص. رائع!'».

«هنا قال چورچ برانوك، الذي قُتل بدوره لاحقًا في الحريق: 'أجل، يا لها من بقعة سوداء رائعة!'، وهكذا علق الاسم بالمكان ببساطة».

«ورغم ذلك، حثَّنا هالوران وشحذ من عزيمتنا. هالوران وكارل وأنا. أظنُّ أن الله سيُسامحنا على ما فعلنا، لأنه يعلم أننا لم نكن نملك أدنى فكرة عمَّا ستؤول إليه الأمور لاحقًا».

«بعد فترة انضم بقية الرفاق إلينا. فبعد أن حُرِّمت مُعظم ديري علينا، لم يعد ثمَّة شيءٌ آخر أمامنا لفعله. انخرطنا في التنظيف والتصليح والدَّقِّ بالمطارق. كان تريڤ داوسون نجَّارًا هاويًا ماهرًا جدًا، وقد علَّمنا كيف نفتح مزيدًا من النوافذ في الجدارن، لكن كل ذلك لم يكن ذا جدوى لو لم يأت آلان سنوبس بألواح زُجاجٍ ملوَّنة بدت كهجين بين زجاج الآنية الملوَّن والزُجاج الذي تراه في نوافذ الكنائس».

«سألته: 'من أين حصلت عليه؟'. كان آلان أكبرنا سِنًّا. كان في الثانية والأربعين من عمره تقريبًا. كبير بما يكفي ليدعوه مُعظمنا بالبوب سنوبس».

«غمز لي سنوبس وهو يضع سيجارة في فمه ويقول: 'مصادرات منتصف الليل'، ولم يزد».

«وهكذا بدأ ملامح المكان تبرز شيئًا فشيئًا، وبحلول مُنتصف الصيف بدأنا في استخدامه بالفعل. فَصَلَ تريڤ داوسون وآخرون الرُبع الخلفي من السقيفة، وأعدُّوا مطبخًا صغيرًا هناك قوامه شوَّاية وآنية قلي كي نستطيع طهي بعض الهامبرجر وقلي بعض البطاطس إذا رغبنا. أنشأنا مَشربًا في أحد الأركان، لكنه كان معنيًّا فقط بالمشروبات الغازية والكوكتيلات الخالية من الكحول. اللعنة، كنا نعرف قدرنا جيِّدًا، ألم نتعلَّمه؟ عندما كنا نرغب في مشروباتٍ أقوى، كنا نحتسيها خلسةً، وفي الظلام».

«ظلَّت أرضية السقيفة مُجرَّد تُربة، لكننا حافظنا عليها نظيفة وهامدة، وزوَّدنا تريف والبوب سنوبس بخط كهرباء، أعتقد أنهما حصلوا عليه عن طريق المزيد من 'مُصادرات مُنتصف الليل'. بحلول شهر يوليو، كنت تستطيع دخول المكان والجلوس كي تحظى بشطيرة هامبرجر أو هوت دوج وكولا. كان المكان لطيفًا، رغم أن الانتهاء من توضيبه لم يتم قط، لأننا كنا ما زلنا نعمل عليه عندما أكله الحريق وقوَّضه بالكامل. صار الأمر هواية لنا، أو نوعًا ما من إخراج ألسنتنا في وجه فولر ومولر ومجلس المدينة. لكنني أظنُّ أننا عرفنا أن المكان مكاننا عندما وضعت أنا وإيڤ مكازلين لافتة على واجهته في ليلة جمعة تقول: ملهى بلاك سبوت، وتحت هذا مُباشرةً مكتوب: أفراد السريَّة هـ وضيوفهم، كما لو كان مكاننا الحصري، أتفهمني!».

«صار المكان رائعًا لدرجة إثارة حسد الأولاد البيض. ما حدث تاليًا كما تتوقَّع، أن بدأ نادي ضُبَّاط الصَّف يبدو أكثر جمالًا من أيِّ وقتٍ مضى. أضافوا إليه استراحة خاصة وكافتيريا صغيرة، بدا الأمر كأنهم يُريدونه سباقًا، لكن كان ذلك سباقًا لا نرغب في الاشتراك فيه».

قالها أبي وابتسم إليَّ من فراشه في غُرفة المُستشفى.

«كنا يافعين، باستثناء سنوبسي، لكننا لم نكن حمقى بالكامل. كنا نعلم أن الفتية البيض قد يسمحون لك بمُنافستهم في سباقٍ، لكن إن شعروا أنك بدأت تكسب، فسيكسر أحدهم ساقيك كي تعجز عن الركض. لقد حظينا بما أردنا الحصول عليه، وكان هذا كافيًا لنا. لكن عندها... حدث شيءٌ ما».

قالها أبي، وصمت عابسًا.

- «ماذا حدث يا أبي؟».

قال ببطء: «اكتشفنا أن بيننا فرقة چاز لا بأس بها. كان العرِّيف مارتن ديڤيريوه قارع طبول، وآس ستيڤنسون عازف شياع[1]، بينما كان البوب سنوبس يعزف البيانو بشكل لا بأس به. لم يكن رائعًا، لكنه لم يكن مُريعًا أيضًا. كان ثمَّة فتى

---

(1) الشياع آلة نفخ نحاسية موسيقية تُشبه البوق في شكلها العام وطريقه العزف عليها، لكن يُعزف عليها بسهولة عظيمة. يستعمل الشياع في الفرق النحاسية والفرق العسكرية.

آخر يلعب الكلارينت، وكان چورچ برانوك يعزف الساكس. اعتاد آخرون منا الجلوس من وقت إلى آخر مع الفرقة، وعزف الجيتار أو الهارمونيكا أو الچوسهارب، أو حتَّى مُجرَّد مشط مزوَّد بورقة مشمَّع لا أكثر».

«أنت تفهم طبعًا أن كل ذلك لم يحدث دُفعة واحدة، لكن مع نهاية أغسطس، كانت لدينا فرقة تعزف الچاز التقليدي في ليالي الجُمعة والسبت في ملهى بلاك سبوت، وقد تحسَّن مستواهم شيئًا فشيئًا مع قدوم الخريف، ورغم أنهم لم يصيروا رائعين بالمعنى المفهوم -فأنا لا أُريد إعطاءك هذا التصوُّر- كانوا يعزفون بطريقة مُختلفة نوعًا... أكثر حماسة... كانوا...»، توقَّف مُلوِّحًا بيده العجفاء من فوق شراشف الفراش.

اقترحت عليه مُبتسمًا: «يعزفون بمذاقٍ حريف».

صاح وهو يرد الابتسامة بمثيلتها: «هذا صحيح! أحسنت! كانوا يعزفون الچاز التقليدي بمذاقٍ حريف. ما حدث بعدها أن أهل البلدة بدأوا في الظهور في ملهانا، فضلًا عن بعض الجنود البيض من قاعدتنا. بدأ المكان يصير مُزدحمًا في عطلات نهاية الأسبوع. لم يحدث هذا دُفعة واحدة أيضًا. كانت الوجوه البيضاء في البداية أشبه بحبَّات ملحٍ سقطت في وعاء من الفلفل الأسود، لكن المزيد والمزيد بدأوا يتقاطرون بمرور الوقت».

«عندما بدأ أولئك البيض في التقاطر، هنا نسينا أن نكون حذرين. كانوا يجلبون خمورهم معهم إلى المكان في أكياسٍ بُنِّية، وكانت معظمها خمورًا من أجود الأنواع المُتاحة، وتجعل الخمور التي تحصل عليها من مواخير وسط المدينة مُرطِّبات صودا بالمُقارنة. كانت من خمور نوادي الصفوة يا مايكي. خمور الأثرياء. تشيفاز وجليندفيديك، الأخير نوع من الشامبانيا يحتسيه رُكَّاب الدرجة الأولى في البواخر عابرة المُحيطات. كان بعضهم يُسميه «شامبرز»، كما اعتدنا أن نُسمي البغال الغبية في الوطن. كان يتحتَّم علينا إيجاد طريقة لوقف الأمر، لكننا لم نعرف كيف. كان الزوار هم المدينة ذاتها! وكانوا بيض، اللعنة!»

«كما قلت لك، كنا صغارًا وفخورين بما أنجزنا، ولم نُقدِّر السوء الذي الذي يمكن أن تؤول إليه الأمور حقَّ قدره. كنا جميعًا نعرف أن مولر

وأصدقائه يعلمون ماذا كان يجري هنا، لكنني لا أظنُّ أن أيَّنا أدرك أن أحوالنا كانت تثير جنونهم، وأنا أقصد تمامًا ما أقول: جنونهم. كانوا يجلسون هناك في منازلهم القديمة ڤيكتورية الطراز في غرب برودواي، لا يبعدون رُبع ميلٍ عن مكاننا، يستمعون إلى أغانٍ كـ «آنت هاجر بلوز» و«ديجين ماي بوتاتو». كان هذا أمرًا سيِّئًا، وينذر بشر، لكن معرفتهم بأن ثمَّة شباب أبيض يافع هناك يصخبون ويمرحون طوال الليل مع السود كان أمرًا أسوأ بمراحل. مع نهاية سبتمبر وقدوم أكتوبر، لم يعد زوَّار المكان مُجرَّدِ قُطَّاع خشب وفتيات ليل، لقد ذاع صيت ملهانا في المدينة. كان الشباب يأتون لمعاقرة الخمر والرقص على أنغام فرقة الچاز التي لا اسم لها حتَّى الواحدة صباحًا مع إغلاق المكان. كما أنهم لم يكونوا يتوافدون من ديري فحسب، بل من بانجور ونيوبورت وهاڤن وكليڤز ميلز وأولد تاون وكل المدن الصغيرة التي في الجوار. كنت تستطيع رؤية أخوية شباب جامعة مين يرقصون بشكلٍ محموم مع خليلاتهن من بيت الطالبات، وعندما تعلَّمت الفرقة الموسيقيَّة طريقة عزف نسخة زنجية من أغنية «ذا مين شتاين سونج»، كاد الحسد أن يُمزِّق السقف بهتافه. بالطبع كان الملهى -تقنيًّا على الأقل- ملهى جنودٍ، وغير مسموح لدخول مدنيين فيه دون دعوة. لكن الحقيقة يا مايكي أننا كنا نفتح الباب في السابعة، ونتركه مفتوحًا أمام الجميع إلى الواحدة صباحًا. بحلول منتصف أكتوبر صار المكان مُكتظًّا عن آخره.. كنت تصعد إلى حلبة الرقص لتجد نفسك واقفًا وردفيك ملتصقين بمؤخرات ستَّة أشخاص آخرين. لم تكن توجد مساحة تسمح بالرقص، لذا كان يتعيَّن عليك الوقوف في مكانك والتواثب فحسب، لكن لم يبدُ أن أحدًا ينزعج من ذلك.. وبحلول منتصف الليل، يصير المكان كقاطرة بضائع فارغة تتهادى مُترنِّحة على خط سكَّة حديدية».

توقَّف أبي عن الكلام، ورشف رشفة أخرى من الماء، ثم واصل، وقد توهَّجت عيناه.

«جميل، جميل. كان فولر سيضع حدًّا للأمر إن عاجلًا أو آجلًا، لكن لو كان فعلها عاجلًا، لمات عدد أقل بكثير. كل ما كان عليه فعله هو إرسال الشُرطة العسكرية لمصادرة كل زجاجات الخمر التي يجلبها الناس معهم. كان هذا

سيكفي تمامًا، وكان هذا ما يُريده في حقيقة الأمر. كنا سنغلق أبوابًا في التوِّ وبشكلٍ لائق، وستُعقد مُحاكمة عسكرية ويُرسل بعضنا إلى حظائر الحبوب ويُنقل بقيتنا من البلدة. لكن فولر تباطأ في اتِّخاذ خطوته. أظنُّه كان خائفًا من الشيء ذاته الذي كان بعضنا يخافه. أن تُثار ثائرة بعضٍ من أهل البلدة. لم يأتِ مولر مرَّة ثانية لرؤيته، وأظنُّ أن الرَّائد فولر كان خائفًا من الذهاب إلى وسط المدينة لرؤيته. إن فولر جعجاعٌ كثير الكلام، لكنه يمتلك شجاعة الأرانب».

«لذا بدلًا من إنهاء الظاهرة بطريقة قانونية نوعًا ما كانت ستترك أولئك من احترقوا في تلك الليلة أحياء، تولَّت رابطة الحشمة البيضاء إنهاء الأمر. لقد أتوا إلى ملهانا في شراشفهم البيضاء في أوائل نوڤمبر من ذلك العام، وأقاموا حفلَ شواءٍ لأنفسهم».

سكت أبي من جديد، ولم يرشف من مائه هذه المرَّة، فقط ظل شاردًا ببصره إلى رُكن الغُرفة بملامح كدرة، في حين ما رن جرسٌ من مكانٍ ما في الخارج، وعبرت إحدى المُمرِّضات من أمام الباب المفتوح وحذاءها المطَّاطي يصرُّ فوق المشمَّع. كنت أسمع صوت التلفاز آتيًا من مكانٍ ما، وراديو من مكانٍ آخر. أتذكَّر أنني سمعت عويل الرياح في الخارج في أثناء مرورها عبر المبنى.. ورغم أننا كنا في أغسطس، بدا صوت الرياح باردًا. لم تكن تأبه بمسلسل مئة قابيل المعروض في التليفزيون، ولا بأغنية فريق فور سيزونز «ووك لايك أ مان» المُذاعة في الراديو.

واصل أبي في النهاية: «خرج بعضهم من خلال نطاق الأشجار الأخضر الذي يفصل القاعدة العسكرية عن غرب بروداواي. لا بُدَّ أنهم التقوا في منزل أحدهم هناك، رُبَّما في القبو، ليجلبوا شراشفهم ويُشعلوا المشاعل التي استخدموها».

«سمعت أن بعضهم أتى إلى القاعدة عبر طريق ريدچلاين، الذي كان الطريق الرئيس المؤدي إلى القاعدة آنذاك. سمعت –ولن أقول أين– أنهم جاءوا يركبون سيَّارة باكارد جديدة مُتلفِّعين بشراشفهم البيضاء واضعين قُبَّعاتهم البيضاء العفريتية المُستدقَّة على أرجلهم، وترزح المشاعل تحت أقدامهم. كانت المشاعل من صنع لويزڤيل سلوجرز، ومزوَّدة بكُتلٍ كبيرة

من الخيش مشدودة على حشايا منتخفة من المطاط الأحمر، كالنوع الذي تستخدمه السيِّدات في إغلاق عبوَّات المربَّى. كان هناك كشك حراسة حيث يتفرَّع طريق ريدچلاين من شارع ويتشام في طريقه إلى القاعدة، وقد سمح ضابط الوردية للباكارد بالمرور دون إبطاء».

«كانت ليلة سبت، والملهى يعج بالروَّاد الذين يروحون ويجيئون. كان ثمَّة قرابة مئتي شخص بالداخل، بل ثلاثمئة رُبَّما. ثم جاء نحو ستة أو ثمانية من أولئك الرجال البيض في الباكارد الخضراء، وكان المزيد يأتون عبر نطاق الأشجار الذي يفصل القاعدة عن منازل جادة غرب برودواي الفارهة. لم يكونوا شبابًا، على الأقل ليس كثيرًا منهم، وأحيانًا أجد نفسي أتساءل عن عدد حالات الذبحة الصدرية والقرح النزفية التي حدثت في اليوم التالي. أتمنى أنها كانت كثيرة. أولئك القتلة المُتسللون الأنغال الملاعين».

«أوقفوا الباكراد على التلَّة وأناروا المصابيح الأمامية مرَّتين. خرج أربعة رجال من السيَّارة وانضموا إلى الآخرين. كان بعضهم يحمل صفائح جازولين سعة سبعة لترات التي كنت تستطيع ابتياعها من محطَّات الخدمة في تلك الأيَّام، ويحملون جميعًا المشاعل. ظلَّ أحدهم جالسًا خلف مقود تلك السيَّارة. يمتلك مولر سيَّارة باكارد كما تعرف، وخضراء كذلك».

«جمَّعوا أنفسهم خلف الملهى وغمسوا مشاعلهم في الجاز. رُبَّما كانوا يقصدون إخافتنا فقط. سمعت القِصَّة من وجهة النظر هذه، كما سمعتها من وجهة النظر الأخرى. كم أود تصديق أن هذا ما كانوا ينتوونه، لأنني حتَّى اللحظة لا أشعر باللؤم الكافي في روحي الذي يجعلني راغب في تصديق العكس».

«رُبَّما تقاطر الجاز على مقابض بعض تلك المشاعل، وعندما أضرموا النيران فيها، ارتبك من يحملونها وشعروا بالذُعر وألقوها كيفما اتفق فقط للتخلُّص. أيًّا كان ما حدث، أُضيئت تلك الليلة السوداء من شهر نوڤمبر فجأة بجذوات المشاعل. ظلَّ بعضهم يلوِّحون بها، بينما تتساقط قطع الخيش المشتعل حولهم، وراح البعض الآخر يضحك. لكن كما أخبرتك، ألقى آخرون بمشاعلهم عبر النافذة الخلفية، وسقطت في مطبخنا مُباشرةً، لتنشُب النيران في المكان وتُشعله كالجحيم في غضون دقيقة ونصف».

«كان الرجال في الخارج قد ارتدوا جميعًا قُبَّعاتهم المُستدقَّة، وراح بعضهم يُردِّد: 'اخرجوا أيُّها الزنوج! اخرجوا أيُّها الزنوج! اخرجوا أيُّها الزنوج!'. رُبَّما ردَّد بعضهم ذلك لإخافتنا، لكنني أميل إلى تصديق أن أغلبهم كانوا يحاولون تحذيرنا، بالطريقة نفسها التي أميل فيها إلى تصديق أن تلك المشاعل قد عثرت على طريقها إلى مطبخنا دون نيَّة مُبيَّتة».

«على أيِّ حال، لم يكن الأمر يُشكِّل فارقًا كبيرًا. كانت الفرقة تعزف بالداخل بصوتٍ أعلى من صافرات المصانع، بينما الجميع يرقص ويلهو ويقضي وقتًا طيِّبًا. لم يعلم أحدٌ بالداخل بحدوث شيء إلا عندما فتح چيري مكرو الذي كان يقوم بدور مُساعد الطاهي في تلك الليلة باب المطبخ وكاد أن يسيح بفعل اللهب. كانت النيران تتطاير بارتفاع عشرة أقدام، وألقت بشررٍ محرقة معطف الطهي الأبيض الذي يرتديه، وكذلك مُعظم شعره».

«كنت أجلس في مُنتصف المكان قرب الجدار الشرقي مع تريڤ داوسون وديك هالوران عندما حدث الأمر. للوهلة الأولى ظننت أن موقد الغاز انفجر. لم أفعل أكثر من أنني نهضت على قدمي عندما أسقطني اندفاع الراكضين نحو الباب أرضًا، وعبر على ظهري عشراتٌ منهم تقريبًا. أظنُّ أن تلك كانت اللحظة الوحيدة التي شعرت فيها بالذُعر حقًّا. كنت أسمع صراخ الناس وصياحهم أنهم يجب أن يخرجوا من هنا فورًا، وأن المكان يشتعل. لكن في كل مرَّة حاولت النهوض فيها، كان حذاء أحدهم يطرحني أرضًا من جديد. ثم أنزل أحدهم حذائه الضخم فوق مؤخِّرة رأسي، وبدأت أرى نجومًا من الدوار. دُهِسَت أنفي في التُربة المرشوشة بالزيت واستنشقت تُرابًا وبدأت أسعل وأعطس في الوقت ذاته. خطا شخصٌ آخر على أسفل ظهري. شعرت بكعب حريمي عالٍ ينغرس بين ردفيّ، وآه يا بُني، كم أكره أن أذوق مثل هذه الحُقنة الشرجية مرَّةً أخرى في حياتي. لقد تمزَّق قماش سراويلي، وأظنني أني نزفت كثيرًا في ذلك اليوم».

«يبدو الأمر فُكاهيًّا الآن، لكنني كدت أن أموت في ذلك الفرار الجماعي. لقد دُهِستُ، وديس عليّ، وسُحقت، وسير فوقي، ورُكلت في مواضعٍ عديدة

من جسدي ما أعجزني عن المشي مُعتدلًا في اليوم التالي. لقد صرخت لكن أيًّا من أولئك الأشخاص فوقي لم يسمعني أو يُعيرني أدنى أهمية».

«كان تريف من أنقذني. رأيت يده البُنِّية الضخمة أمام وجهي فتشبَّثتُ بها كما يتشبَّث الغريق بطوق نجاة. اختطفت يده على الفور، فجذبني، وهكذا نهضت على قدميّ. لقد داس أحدهم بقدمه على جانب عُنُقي هنا بالضبط...».

قالها وهو يُمسِّد المنطقة التي يلتقي فيها الفك السُفلي بشحمة الأذن، فأومأت برأسي مُتفهِّمًا.

«... وقد آلمني هذا بشكلٍ رهيب وأظنُّ أن العالم اسودَّ في عينيّ لدقيقة. لكنني لم أفلت يد تريف قط، ولم يفلت هو يدي. في النهاية، نهضت على قدميّ في اللحظة التي تهاوى فيها الجدار الذي وضعناه بين المطبخ والصَّالة مُصدرًا صوتًا أشبه بصوت بركة بنزين في لحظة اشتعالها: فلووومب. رأيته ينهار مُلقيًا بشررٍ عظيم، ورأيت الناس يفرون من طريقه وهو يسقُط. بعضهم نجا، وبعضهم لا. دُفِن أحد رفاقنا -أظنُّه كان هورت سارتوريس- تحته، وللحظة عابرة رأيت يده أسفل كل ذلك الجمر المُشتعل تنقبض وتنبسط. اشتعل ظهر فُستان فتاة بيضاء، لا يزيد سنّها على عشرين عامًا. كانت برفقة شاب جامعي. سمعتها تصرخ باسمه، تترجَّاه أن ينقذها. كل ما فعله أن ضربها على ظهرها ضربتين ثم هرب مع الآخرين، ووقفت الفتاة مكانها تصرخ بينما تسري النيران من فُستانها إلى جسدها»

«وفي المكان الذي كان المطبخ يحتله، راح الجحيم يستعر. صارت ألسنة اللهب ساطعة لدرجة أنك لم تعد تستطيع النظر إليها... والحرارة يا مايكي.. كانت الحرارة كفيح جهنم، تشوي وتُحمِّص. كنت تستطيع الشعور بجلدك يتوهَّج، وبالشعر يشيط داخل أنفك».

«صرخ تريف: 'يجب أن نخرج من هنا!'، وبدأ يجرني عبر الجدار وهو يُردِّد: 'هيَّا!'».

«عندها أمسكه ديك هالوران وعيناه مُتَّسعتان ككُرتي بلياردو.. لم يكن قد جاوز التاسعة عشر وقتها، لكنه ظل مُحافظًا على رباطة جأشه أكثر منا. لقد

أنقذ حياتينا. صرخ هالوران فينا: 'ليس من ذلك الطريق! من هنا!'. ثم أشار إلى الخلف في اتِّجاه منصة الفرقة الموسيقية... في اتِّجاه الحريق».

«صرخ فيه تريف: 'أأنت مجنون!'. كان له صوت غليظ كالثور، لكننا سمعناه بالكاد وسط أجيج النار وصراخ الناس. ثم أردف: 'مُت إن كنت تُريد، لكنني وويلي سنخرج من هنا!'».

«كان ما زال مُمسكًا بي من يدي وبدأ يسحبني ناحية الباب من جديد، رغم أن البشر كانوا قد تكالبوا عليه في ذلك الوقت ولم تكن تستطيع رؤيته من أجسادهم. كنت سأمضي معه إن ذهب. كنت مصدومًا بالكامل ولم أكن أعي أين المفر. كل ما كنت أعرفه أنني لا أُريد أن أُطهى حيًّا كديك رومي بشري».

«أمسك ديك شعر تريف بكل قوَّته، وعندما استدار تريف إليه، صفعه ديك على وجهه. أتذكَّر أنني رأيت رأس تريف ترتطم بالحائط وترتد عنه، وظننت أن ديك فقد عقله. ثم بدأ يصرخ في وجه تريف: 'اذهب في ذلك الاتِّجاه وستموت! ذلك الباب انتهى أيُّها الزنجي!'».

«صرخ تريف فيه بدوره: 'أنت لا تعرف ذلك!'. هنا دوى صوت انفجارٍ عالٍ! كدوي الألعاب النارية، لكن الحقيقة أن الحرارة فجَّرت طبلة مارتي ديفيروه الأساسية. كانت ألسنة اللهب تجري على العوارض الخشبية فوق الرؤوس، وبدأت التُربة الزيتية تلتقطها.

«صرخ ديك ثانيةً: 'بل أعرف! أعرف!'».

«ثم أمسك بيدي الأخرى وجذب، ولدقيقة شعرت أنني حبل في لُعبة شدِّ الحبل. بعدها ألقى تريف نظرة مُتمعِّنة على الباب، وذهب في الاتِّجاه الذي يقوله ديك، وصل بنا ديك إلى نافذة ورفع كُرسيًّا ليُحطِّمها.. لكن قبل أن يُلقيه عليها، فجَّرتها الحرارة نيابةً عنه. بعدها أمسك بتريف داوسون من مِقعدة سراويله ودفعه إلى أعلى وهو يصيح: 'تسلَّق! تسلَّق يا بن السافلة!'.. وقد فعل تريف، برأسه أوَّلًا ثم مُجرجرًا ذيله فوق الحافَّة».

«ثم رفعني بعده، وتسلَّقت بدوري. أمسكت بجانبي النافذة وجذبت نفسي. انتشرت الثآليل على كلا كفَّيّ في اليوم التالي، فالخشب كان قد بدأ

يحترق بالفعل. خرجت منها برأسي أوَّلًا، وإذا لم يكن تريف قد أمسك فرُبَّما كنت كسرت عُنُقي».

«التفتنا خلفنا، وبدا المشهد أشبه بأسوأ كابوس راودك في حياتك يا مايكي. تلك النافذة لم تكن سوى مُربَّعًا من الضوء الأصفر الساطع، واللهب يتصاعد من خلال ذلك السقف القصديري في عشرات المواضع، ومن الداخل كنا نسمع صراخ الناس».

«رأيت يدين بُنِّيتين تلوِّحان أمام خلفية النار.. يديّ ديك. شبَّك تريف يديه لي، وصعدت عليهما ومددت يدي عبر تلك النافذة وأمسكت بديك. عندما رفعت ثقله التصقت معدتي بالجدار، وقد بدا الأمر كأني وضعت معدتي على فُرنٍ حمت ناره استعدادًا للطهي. ارتفع وجه ديك، ومرَّت ثوانٍ قليلة ظننت فيها أننا لن نستطيع إخراجه. كان قد استنشق كمًّا هائلًا من الدخان، وكاد أن يُغشى عليه. انفرجت شفتاه قليلًا، وكان الدخان يتصاعد من ظهر قميصه».

«عندها كدت أن أتخلَّى عنه، لأنني اشتممت رائحة الناس التي تحترق بالداخل. لقد سمعت أناسًا يقولون إن تلك الرَّائحة تبدو كرائحة شواء لحم أضلع الخنازير، لكنها ليست كذلك. إنها أشبه بما تشمُّه أحيانًا بعد خصي الجياد. إنهم يشعلون نارًا كبيرة ويلقون فيها بكل تلك القذارة، وعندما تشتد حرارة النيران تستطيع أن تسمع خصيان الجياد تفرقع كالكستناء. تلك هي رائحة الناس عندما تُطهى أجسادهم في ملابسها. لقد اشتممت تلك الرَّائحة، وعلمت أنني لن أتحمَّلها بُرهة طويلة، لذا جذبت ديك جذبة كبيرة هائلة، فخرج من النافذة وقد فقد إحدى فردتي حذائه».

«تداعيت من فوق كفَّيّ تريف وسقطت أرضًا، وهوى ديك برأسه فوق رأسي، وأريد أن أخبرك أن رأس ذلك الزنجي كانت صلبة كالحجر. تقطَّعت أنفاسي وتمدَّدت بضع ثوانٍ فوق الطين، أتدحرج على الأرض مُمسكًا بمعدتي».

«بعدها استطعت الاعتدال على رُكبتيّ، ثم على قدميّ، ورأيت هيئات رجالٍ تركض في اتِّجاه حزام الأشجار. في البداية ظننتها أشباحًا، ثم رأيت النعال بعدها. في هذا الوقت، كان المكان حول ملهى بلاك سبوت ساطعًا

كضوء النهار. لقد رأيت النعال، وفهمت أن أولئك رجالًا يرتدون شراشفًا. كان أحدهم قد تخلَّف قليلًا وراء الآخرين، ورأيت...».

أحجم أبي قليلًا، ولعق شفتيه.

سألته: «ما الذي رأيته يا أبي؟».

قال لي: «لا تهتم. ناولني ماءً يا مايكي».

ناولته الماء، فشرب مُعظمه ثم بدأ يسعل. مدَّت مُمرِّضة عابرة رأسها عبر الباب وقالت: «هل تحتاج أيَّ شيءٍ يا سيِّد هانلون؟».

قال أبي: «مجموعة مصارين جديدة. ألديك بعض منها يا رودا؟».

ابتسمت الفتاة ابتسامة عصبية مُتردِّدة، ثم مضت في طريقها. أرجع لي أبي الكوب ووضعته على الطاولة، ثم قال لي: «إن حكي الأمر لأطول من تذكُّره، هل ستملأ لي هذا الكوب ثانيةً قبل أن ترحل؟».

- «بالتأكيد يا بابا».

«هل ستصيبك هذه الحكاية بكوابيس يا مايكي؟».

فتحت فمي لأكذب، ثم عدلت عن رأيي. أظنُّ الآن أنني لو كذبت عليه وقتها، كان سيتوقَّف عند هذه النقطة ولن يُكمل الحكي. لقد تمادى كثيرًا في حكايته، لكن رُبَّما ليس إلى حدٍ بعيد تمامًا.

قلت له: «أظنُّ ذلك».

قال لي: «ليس هذا شيئًا سيِّئًا تمامًا. في الكوابيس، نستطيع التفكير في أسوأ الأمور. أعتقد أنها لهذا وُجِدت».

مدَّ يده لي، فأمسكت بها، وظللت مُمسكًا بها فيما كان ينهي حكايته.

«نظرت حولي في الوقت المناسب ورأيت تريف وديك يهرعان إلى واجهة المبنى، فركضت خلفهما وأنا أحاول التقاط أنفاسي. كان هناك نحو أربعين أو خمسين شخصًا، بعضهم يبكي، وبعضهم يقيء، وبعضهم يصرخ، وبعضهم يفعل الأمور الثلاثة معًا. آخرون كانوا يتمدَّدون فوق العشب في غيبوبة موتٍ من الدُخان. كان الباب موصدًا، وسمعنا أناسًا تصرخ على الجانب الآخر يصرخون طلبًا للغوث، لأجل خاطر المسيح، فقد كانوا يحترقون».

«كان الباب الأمامي هو الباب الوحيد، إذا استثنينا الباب الذي يفضي من

المطبخ إلى حيث كنا نضع المتاع وحاويات القمامة. كان من نوع الأبواب الذي تدفعه كي تمضي عبره، وتجذبه كي تعود منه».

«بعض الناس خرجوا منه، ثم بدأوا يتدافعون حول الباب ويدفعونه، فأُوصِد الباب مُغلقًا. أولئك الذين في الخلف ما انفكُّوا عن الاندفاع أمامًا للفرار من الحريق، فانحشر الجميع. أولئك الذين في المُقدِّمة انسحقت أجسادهم. لم يكن ثمَّة وسيلة لفتح الباب بثقلِ كل أولئك الناس خلفه. لذا حوصروا في الداخل، بينما النيران تحتدم وتتلظَّى».

«كان تريڤ داوسون هو صاحب الفضل في ألا يزيد عدد من ماتوا على ثمانين شخصًا تقريبًا فقط.. لا مئة ولا مئتين.. وما ناله مُقابل مجهوداته لم يكن ميدالية، بل الخدمة لعامين في حظيرة حبوب الجيش. فجأة ظهرت شاحنة بضائع قديمة كبيرة، ومن تظن أنه كان يقودها سوى صديقي العزيز القديم الجاويش ويلسون، الرَّجُل الذي يمتلك جميع الحُفر في القاعدة».

«ترجَّل ويلسون من الشاحنة وبدأ في الصياح بأوامرٍ لم يكن لها أيُّ معنى، ولم يتمكَّن الناس من سماعها على أيِّ حال. أمسك تريڤ بذراعي وركضنا نحوه. كنت قد فقدت أثر ديك هالوران ولم أره حتَّى صباح اليوم التالي».

«صاح تريڤ في وجهه: 'يا جاويش، يجب أن أستخدم شاحنتك!'».

«قال ويلسون: 'ابتعد عن طريقي أيُّها الزنجي'، ودفعه أرضًا، ثم بدأ يصيح بكل هذا الهراء الذي لا معنى له مُجدَّدًا. لم يُولِه أحدٌ أدنى اهتمام، ولم يواصل صياحه كثيرًا على أيِّ حال، لأن تريڤور داوسون قفز كعفريت العلبة وطرحه أرضًا بضربة واحدة».

«كان في مقدور تريڤ أن يضرب بقوَّة كبيرة جدًّا، وأيُّ رجُلٍ آخر كان سيظل مُمدَّدًا أرضًا من جراء ضربته، لكن ذلك الريفي الجنوبي كان صلد الرأس. نهض الرَّجُل والدماء تتدفَّق من فمه وأنفه وصاح: 'سأقتلك على فعلتك هذه'، فرد عليه تريڤ بضربة هائلة في معدته أودع فيها جميع قوَّته، وعندما تقوَّس ظهر ويلسون مُنحنيًا ضممت قبضتيّ وضربت بهما مؤخِّرة عنقه بكل ما أوتيت من قوَّة. كان هذا شيئًا وضيعًا، أن تضرب رجُلًا من الخلف بهذه الطريقة، لكن الأوقات العصيبة تتطلب اتِّخاذ تدابير يائسة،

وسأكون كاذبًا يا مايكي إذا أخبرتك أن ضرب ابن العاهرة ذلك لم يمنحني نفحة نشوة ماتعة».

«وهكذا سقط أرضًا كالثور المضروب ببلطة. ركض تريف إلى الشاحنة، وأدار المُحرِّك، وقادها حول المكان حتَّى جعلها في مواجهة واجهة الملهى، لكن إلى يسار الباب. ثم عشَّق التروس إلى الغيار الأوَّل، ورفع ساقه عن أُسطُوانة تعشيق تلك الحقيرة، وانطلق بها».

«صحت في حشد الناس المتناثرين في المكان: 'احذروا الشاحنة! أفسحوا الطريق!'».

«تبعثروا كالسمَّان، وبأعجوبة لم يدهس تريف أيَّهم. اصطدم بالشاحنة بجانب المبنى بسرعة ثلاثين كيلومترًا في الساعة تقريبًا، وفتح شقًّا بالغًا في جبهته عندما اصطدم بالمقود. رأيت الدماء تتطاير من أنفه عندما هزَّ رأسه ليستفيق. ثم عشَّق التروس إلى الغيار الخلفي، وتراجع نحو خمسين ياردة، واندفع بها من جديد. باااام! لم تكن سقيفة بلاك سبوت سوى قصدير مُموَّج، وقد أجهز هذا الاصطدام الثاني عليها. تداعى جانب ذلك الأتون ساقطًا، وهاجت النيران. كيف يمكن لأيِّ شيءٍ أن يظل على قيد الحياة هناك في الداخل، هذا ما لا أعرفه، لكن كان هناك بعض الأحياء بعد. البشر أشد بأسًا ممَّا قد تُصدِّق يا مايكي، وإذا لم تكن تُصدِّق ذلك، فقط انظر إليّ، ها أنا أنشب أظافري في جلد العالم ولا أنزعها إلا بالدم. كان المكان بالداخل كأفران الصهر. كان جحيمًا من اللهب والدُخان، لكن ظل الناس يفرون منه في سيلٍ مُنتظم. كان هناك الكثير منهم حتَّى إن تريف لم يجرؤ على تحريك الشاحنةَ إلى الوراء قليلًا خوفًا من أن يدهس بعضهم. لذا تركها مكانها وركض عائدًا إليّ».

«وقفنا هناك نشاهد انتهاء المأساة. لم يستغرق الأمر سوى خمس دقائق من بدايته إلى نهايته، لكنها بدت كالأبدية. آخر عشرة أشخاص خرجوا من السقيفة كانوا مُشتعلين. تلقَّفهم الناس وبدأوا يدحرجونهم على الأرض محاولين إطفائهم. نظرنا إلى الداخل، واستطعنا رؤية أناس آخرين يحاولون الخروج، وعلمنا أنهم لن يتمكَّنوا من فعل ذلك أبدًا».

«أمسك تريف يدي فشددت على يده بضِعف القوَّة، ووقفنا هناك مُتشابكي الأيدي كما أنا وأنت الآن يا مايكي. نراقب الناس بالداخل. كان أنفه قد كُسِر والدماء تسيل على وجهه وعينيه المنتفختين. من رأيناهم في تلك الليلة كانوا أشباحًا حقيقية. مُجرَّد ومضات تتَّخذ هيئات رجال ونساء يسيرون تجاه الفتحة التي صنعها تريف بشاحنة الجاويش ويلسون. كان بعضهم يمد يده خارجًا، كأنهم يتوقَّعون أن ينقذهم أحد، وكان الآخرون يسيرون فحسب، لكن لم يبد أنهم سيذهبون إلى أيِّ مكان.. ملابسهم مُشتعلة، ووجههم تسيح.. وواحدٌ تلو الآخر راحوا يتساقطون أرضًا ولم يراهم أحدٌ ثانيةً».

«كانت آخرهم امرأة احترق فستانها بالكامل ووقفت بملابسها التحتية. كانت تحترق كشمعة، وبدا أنها تنظر إليَّ مُباشرةً، وفي النهاية شاهدت النار تمسك بجفنيها».

«عندما سقطت أرضًا، كان الأمر قد انتهى. اشتعل المكان برُمَّته كعمودٍ من نار، وبحلول الوقت الذي وصلت فيه سيارات المطافئ من القاعدة العسكرية، ومركز إطفاء الشارع الرئيس، كانت النيران تخبو بالفعل. هذه قِصَّة حريق ملهى بلاك سبوت يا مايكي».

شرب أبي آخر رشفة ماء وناولني الكوب كي أملأهُ من المُبرِّد في الردهة، وقال: «أظنُّني سأبول في فراشي الليلة يا مايكي».

قبَّلت وجنته وذهبت إلى الردهة لملء كوبه. عندما عُدت، كان ينجرف غائبًا عن الوعي من جديد، وقد صارت عيناه زُجاجيتين شاردتين. عندما وضعت الكوب على الكومود، غمغم قائلًا شكرًا بنبرة بالكاد فهمتها. نظرت إلى الساعة على الطاولة، ورأيت أنها الثامنة تقريبًا. حان وقت عودتي إلى المنزل.

ملت عليه وقبَّلته مُودِّعًا... ثم وجدتني أهمس له: «ما الذي رأيت؟».

التفتت عيناه المغلقتان تقريبًا الآن نحو مصدر صوتي. رُبَّما كان يعرف أن أنا المُتحدِّث، ورُبَّما ظن أنه يسمع صوت أفكاره.

- «هه؟».

همست له: «الشيء الذي رأيته». لم أكن أرغب في سماع الأمر، لكن كان يجب أن أعرف. كنت أشعر ببرودة وسخونة في الآن ذاته. عيناي تحرقاني،

ويداي مُثلَّجتان، لكن يجب أن أسمع. تمامًا كما اضطرت زوجة لوط إلى الالتفات وراءً وإلقاء نظرة على تدمير سدوم.

قال لي: «كان هناك طائرٌ خلف أولئك الرجال الراكضين. صقر رُبَّما، من النوع الذي يدعونه عاسوقًا.. لكنه كان ضخمًا. لا تُخبر أحدًا وإلا ستودع في مصحَّة عقلية. كان عرض الصقر ستين قدمًا تقريبًا من الجناح إلى الجناح. كان في حجم طائرات الزيرو اليابانية. لكنني رأيت... رأيت عينيه... وأظنُّ أنه... رآني...».

انزلقت رأسه إلى ناحية النافذة، حيث كان الظلام يسدل أستاره على العالم.

- «لقد انقض وأنشب مخالبه في آخر الرجال ورفعه من شراشفه... سمعت صوت جناحيه... كان صوتها كالنار... وكان يحوم... وقد فكَّرت حينها أن الطيور لا تستطيع أن تحوم... لكن ذلك الطائر استطاع، لأن... لأن...».

ثم سقط صامتًا.

همست له: «لماذا يا أبي. لماذا كان يحوم؟».

قال لي: «لم يكن يحوم».

جلست هناك في مكاني صامتًا، ظانًا أنه لا بُدَّ نعس هذه المرَّة. لم أشعر بالخوف هكذا في حياتي من قبل قط، لأنني رأيت ذلك الطائر منذ أربع سنوات، وبطريقةٍ ما -بطريقة لا يمكن تخيلها- كدت أنسى ذلك الكابوس، وقد كان أبي من أعاده إلى ذاكرتي.

قال لي: «لم يكن يحوم. بل يطفو.. يطفو.. وعناقيد كبيرة من البالونات مربوطة في كل جناح، وكانت تطفو بدورها».

قالها أبي وغاب في النوم.

1 مارس، 1985

لقد عاد الشَّيءُ. أعرف هذا الآن. سأنتظر بعض الوقت لقطع الشكِّ نهائيًا، لكن قلبي مُتيقِّن. لست واثقًا إن كنت سأتحمَّل الأمر. لقد استطعت التعامل مع الأمر وأنا طفل، لكن الأمور مُختلفة مع الأطفال.. مُختلفة بشكلٍ جوهريٍ حقًا.

لقد دوَّنت كل ذلك الليلة الماضية في نوبة من السُعار المجنون. لا يعني هذا أنني كنت أستطيع العودة إلى المنزل على أيِّ حال، فقد تلحَّفت ديري بطبقة سميكة من الجليد المصقول، ورغم أن الشمس قد أشرقت هذا الصباح، لم يكن شيء يتحرَّك.

ظللت أكتب حتَّى جاوزت الساعة الثالثة صباحًا، دافعًا القلم أسرع فأسرع، محاولًا الإلمام بكل شيء. لقد نسيت مواجهتي مع الطائر العملاق عندما كنت في الحادية عشرة، ولقد ذكَّرتني قِصَّة والدي بها... ومنذ ذلك الحين لم أنسها ثانيةً أبدًا. أعتقد أنها كانت هديَّته الأخيرة لي. قد تقول: يا لها من هديَّة مُريعة! لكنها في حقيقة الأمر رائعة بطريقتها الخاصة.

خررت نائمًا في مكاني، رأسي مُستندٌ إلى ذراعي، ومُذكِّرتي وقلمي على المنضدة أمامي. استيقظت هذا الصباح بمؤخِّرة خَدِرة وآلام ظهر، لكن شعرت بأنني حُرٌّ بطريقةٍ ما... وقد تطهَّرت من تلك القِصَّة القديمة.

ثم لاحظت بعدها أنني حظيت برفقة ليلًا، بعد نومي.

كانت هناك آثار طين جاف خافتة تقود من باب المكتبة الأمامي الذي أحكمتُ غلقه (ذلك الذي دائمًا ما أحكم غلقه) إلى المكتب حيث رُحت في النعاس.

ولم تكن هناك آثارٌ مُبتعدة.

كائنًا من كان الذي زارني، فقد أتى إلى منامي في عمق الليل، وترك تميمته... ثم اختفى ببساطة.

توجد بالونة مليئة بالهليوم مربوطة إلى مصباح القراءة الخاص بي، وتطفو في شعاع شمسٍ يأتي من إحدى النوافذ العلوية.

على البالونة صورة لوجهي بلا عينين، والدماء تجري من المحجرين المُمزَّقين، بينما صرخة تشوِّه الفم على جلد البالونة المطاطي المُنتفخ.

نظرت إليها وصرخت. تردَّدت الصرخة في جنبات المكتبة، وعادت إليَّ بأصداء متذبذبة مرتدَّة عن السُلَّم الحديدي الدائري الذي يقود إلى رفوف الكتب العالية.

فانفجرت البالونة بفرقعة عالية.

سبعة أصدقاء يعودون إلى مسقط رأسهم لمواجهة كابوس مروِّع التقوه أوّل مرّة في صباهم.. شر لا اسم له.. شيء.

مرحبًا بك في بلدة ديري الشمالية في ولاية مين. إنها مدينة صغيرة عادية تمامًا كمسقط رأسك، لكن في ديري ثمّة شيء مُريع يستتر خلف هذا الشعور بالألفة. كانوا سبعة أطفال عندما تعثّروا في هذا الكّابوس. الآن هم أشخاص بالغون خرجوا إلى العالم الواسع سعيًا وراء النجاح والسعادة. لكن الوعد القديم الذي قطعوه على أنفسهم منذ ثمانية وعشرين عامًا ينجح في لمّ شملهم وإعادتهم إلى المكان الذي صارعوا فيه الكيان الشرير النّهم الذي يتغذّى على أطفال المدينة. لقد بدأت حوادث القتل من جديد، والآن، بدأت ذكريات سبعتهم المقموعة عن الصيف المروِّع الذي قضوه في ديري تعود إليهم وهم يستعدِّون مرّةً أخرى لمواجهة الوحش الذي يتّخذ مجارير ديري عرينًا له.

يعرف قُرّاء ستيفن كينغ أن لديري قبضة قويّة ومُظلمة على مُخيّلة الرّجل. لقد ظهرت في كُتُب كثيرة له، من ضمنها صائد الأحلام، وحقيبة العظام، وقلوب في أتلانتس، و١١/٢٢/٦٣.. لكن البداية كانت مع: الشّيء.

«أنضج عمل روائي لستيفن كينغ». **جريدة سانت بطرسبرج تايمز**

«نموذج مثالي لبراعة كينج... دُرّة تاج أعمال الرُّعب... نظرة واحدة على الصفحات الأولى لن تجعلك قادرًا على ترك الكتاب». **جريدة سانت لويس بوست ديسباتش**



وُلِدَ ستيفن كينغ في ٢١ سبتمبر عام ١٩٤٧ في بورتلاند. ألّف أكثر من خمسين كتابًا ما بين الروايات والقصص القصيرة، وغدت جميعها من الكتب الأعلى مبيعًا في العالم. من أشهر مُؤلّفاته: كاري، ميزري، الشّيء، بريق، مقبرة الحيوانات الأليفة، بُرج الظلام، الميل الأخضر، أشياء مُشتهاة، كوجو. تشمل أعماله الأخيرة المجموعة القصصية القصيرة حانوت الكوابيس، وروايات تحت القبّة، واللّقطة لِمن وجدها، ودكتور سليب، والسيِّد مرسيدس (التي حازت جائزة إدجار لأفضل رواية عام ٢٠١٤).

ISBN: 978-6144720172

منشورات الرمل

دار التنوير